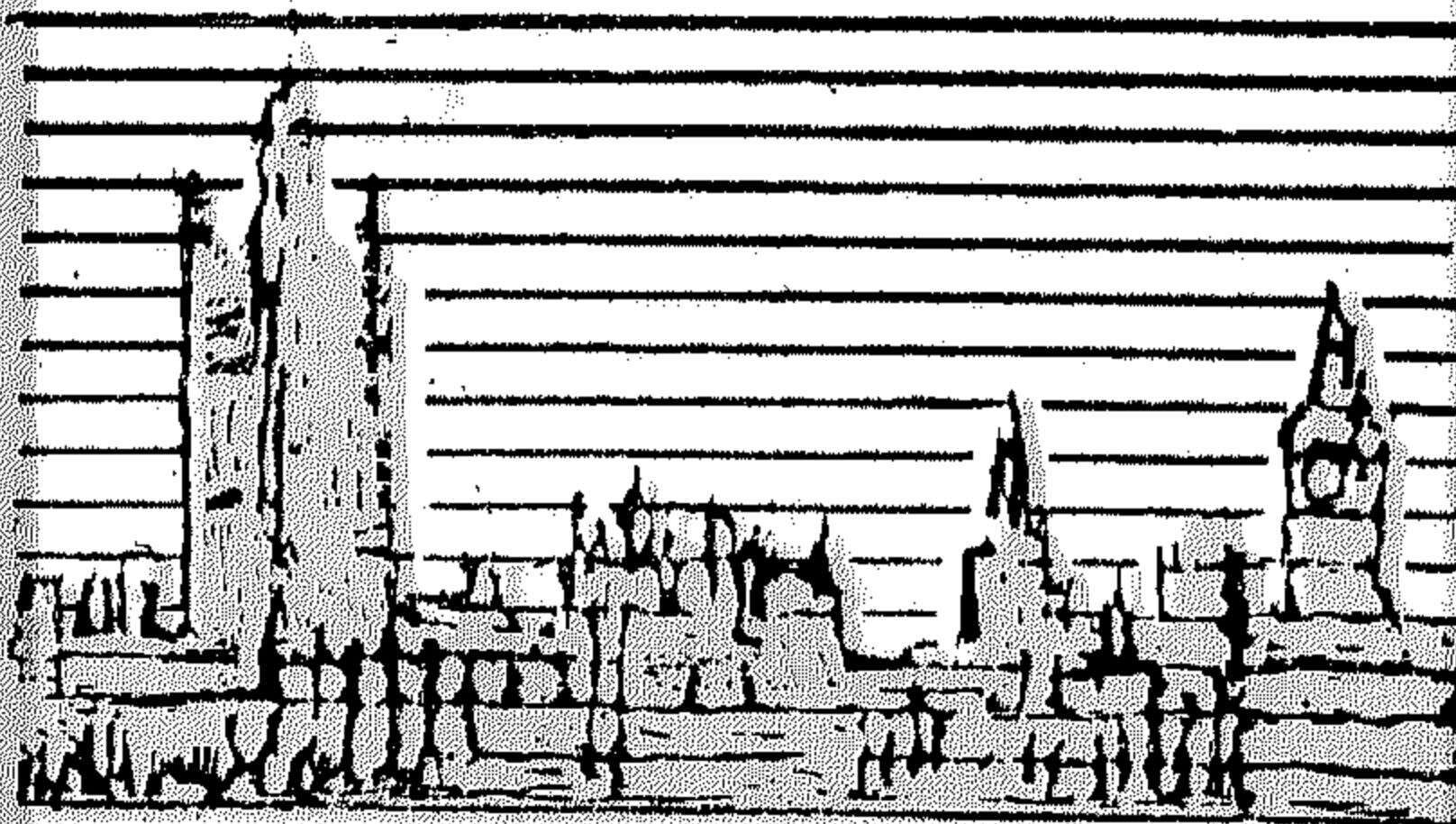


# الفلسفة والأخلاق

في مائة عام

تأليف: رودلف ميس  
ترجمة: الدكتور فؤاد زكريا  
مراجعة: الدكتور زكي نجيب محمود



الجزء الأول



اهداءات ٢٠٠٣

اسرة ا.د/رمزي حكي

القاهرة



# الفلسفة الإنجليزية في مائة عام

بإشراف  
الإدارة العامة للتعليم  
وزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية



# الفلسفة الإنجليزية

في مائة عام

تأليف  
رودلف مايس

ترجمه  
الدكتور زكي نجيب محمود

ترجمه  
الدكتور فؤاد زكريا

ملتزم الطبع والنشر  
دار النهضة العربية  
٢٢ شارع عبدالحق ثروت بالقاهرة ت ٧٦٢٣  
١٩٦٣

هذه ترجمة الجزء الأول من كتاب

A HUNDRED YEARS OF BRITISH PHILOSOPHY

تأليف RUDOLF METZ

وقد ظهر هذا الكتاب في الأصل باللغة الألمانية بعنوان

Die Philosophischen Strömungen der Gegenwart in Grossbritannien

(مطبوعة Felix Meiner في ليتسج ، ١٩٣٥ ، في مجلدين) . وترجمته

الحرفية : « التيارات الفلسفية الحالية في بريطانيا العظمى » ، ولكن

الترجمة الإنجليزية تضمنت بعض التغييرات والإضافات إلى الأصل الألماني ،

وبذلك تكاد تكون طبعة قائمة بذاتها . وقد تولى الترجمة الإنجليزية

الأساتذة .

هارفي J. W. Harvy

وجيسوب T. E. Jessop

وسترت Henry Sturt

وأصدرتها دار George Allen & Unwin بلندن ، عام ١٩٣٨

( طبعة جديدة سنة ١٩٥٠ ) ، في سلسلة « المكتبة الفلسفية » التي يشرف

على إصدارها الأستاذ مورهد ( Muirhead Library of Philosophy )

## مقدمة المترجم

قد يبدو أن كتابا عن الفلسفة الإنجليزية ، من تأليف كاتب ألماني ، ليس أفضل الكتب التي يمكن أن تترجم في هذا الموضوع . غير أن هذا الازدواج ذاته من أهم ميزات هذا الكتاب : ذلك لأن مجرد كون مؤلف الكتاب ينتمي إلى بلد غير ذلك الذي كتب عنه ، يتيح له النظر إلى الأمور بطريقة نقدية موضوعية يصعب أن تتوافر فيمن يكتب عن فلسفة بلاده هو ، وذلك لأسباب واضحة فالمؤلف هنا محايد لا ينتمي إلى أى مذهب من المذاهب التي يعرض لها أو إلى أية مدرسة يؤرخ لها ، فضلا عن أن اللسمات العامة للتفكير الإنجليزي تظهر له بوضوح أكثر مما يمكن أن تظهر به لواحد من مثلي هذا التفكير ذاته . هذا من الناحية العامة ، أما من الناحية الخاصة فإن للمؤلف علما غزيرا بموضوع الفلسفة الإنجليزية على التخصيص ، بل إنه نستطيع أن نقول إنه كرس حياته كلها للتأريخ لها . فله أيضا كتاب بالألمانية عن حياة باركلي وتعاليمه G - Berkeley, leben und lehre (شتوتنجارت ، مكتبة Frommann في سنة ١٩٢٥) وآخر عن ديفد هيوم، حياته وفلسفته D. Hume, Leben und Philosophie (بنفس المكتبة ، سنة ١٩٢٥) وله قائمة بمراجع الفلسفة الإنجليزية، بعنوان «الفلسفة الإنجليزية الحالية Englische philosophy der Gegenwart في سلسلة «أبحاث في ميدان الفلسفة Berichte aus dem Gebiete der Philosophie العدد ٢٣ ، ومقال بالفرنسية بعنوان «أصدقاء هيوم الفرنسيون وحركة الأفكار Les amitiés françaises de Hume» في «الموقف des idées في مجلة الأدب المقارن » Revue de Littérature comparée ١٩٢٩ ، ص ٦٤٤ — ٧١٣ ، ومقال بالإنجليزية عن الاتجاهات الأخيرة في التفكير الأخلاقي Recent Trends in Ethical thought في مجلة

Philosophy ١٩٣٩ ، العدد ١٤ ، ص ٢٩٩ - ٣١٢ . ومن هذا الإنتاج الهام ،  
للتخصص ، يتضح لنا أن المؤلف أصلح من يكتب في هذا الموضوع .

وفضلاً عن ذلك فإن الكتاب ، كما يقول المؤلف في مقدمته ، يمثل محاولة  
للتفاهم بين الألمان والإنجليز في وقت كان البلدان فيه أحوج ما يكونان إليه .  
ومن المؤكد أن حدس المؤلف في هذا الصدد كان صادقاً ، ولكن المحاولة -  
شأنها شأن محاولات أضخم بكثير في مجالات أخرى أهم - قد أخفقت ،  
ونشبت الحرب العالمية الثانية في العام التالي لنشر الترجمة الإنجليزية لكتابه ،  
وضيقت جزءاً كبيراً من مجهوده ؛ إذ أن إعادة التفاهم الثقافي بين البلدين قد  
استغرق وقتاً طويلاً ، وعندما بدأت مظاهر هذا التفاهم تعود ثانية إلى الأفق  
كان الجو الفلسفي في إنجلترا قد تغير إلى حد بعيد ، بحيث لم يعد الكتاب يعبر  
عن آخر الاتجاهات المعاصرة في التفكير الإنجليزي تعبيراً كاملاً .

على أن محاولة المؤلف أن يكون موضوعياً تماماً في بحثه للفلسفة الإنجليزية  
لم تكن في رأينا ناجحة كل النجاح ، وما أظن أن أي مؤلف غيره كان قادراً  
على أن يحرز في هذا المضمار نجاحاً أكبر مما أحرز . فرغم حرصه الشديد على  
على النزاهة والموضوعية ، يستطيع القارئ المدقق أن يلمس مظهرين للتحيز ،  
يعبران دون شك عن ميول شخصية لا يستطيع أي كاتب أن يخفيها تماماً مهما  
بذل في ذلك من جهد : الأول هو حرصه على إظهار أهمية تأثير الفلسفة  
الألمانية في الفكر الإنجليزي ، والثاني هو ميله إلى الطريقة التأملية الخاصة  
في التفكير الفلسفي ، وإلى تشييد المذاهب الفكرية الشاملة ، في مقابل الطريقة  
الجزئية الواقعية في التفكير ، والتماس الحلول الجزئية المدققة مع تجنب  
الإفراط في التعميم .

أما المظهر الأول ، وهو حرصه على إظهار أهمية المفكرين الألمان ،  
فيظهر أوضح ما يكون - بطبيعة الحال - في الفصل الخاص بالتفكير المثالي .

(١)

حقى هذا الفصل حرس على تنفيذ قضية « مويريد » ، وغيره ، القائلة : إن  
يذور المثالية كانت موجودة في التفكير الإنجليزى على الدوام ، واتجه همه  
إلى إثبات أن الحركة المثالية الجديدة كانت مستوردة تماماً من ألمانيا ، مع  
تكييفها بما يلائم الظروف المحلية بالطبع (أنظر بوجه خاص صفحتى ٥٣١ و ٥٣٠  
من الطبعة الإنجليزية) ، وقد يكون لرأيه هذا ما يبرره من الوجهة التاريخية ،  
غير أن المرء عندما يلاحظ تمجيده لشخص مثل « سترلينج » ، وتسميته إياه  
« رائداً » ، فى الوقت الذى قضى فيه سترلينج الجزء الأكبر من حياته يحاول  
فهم فيلسوف ألماني ، هو هيجل ، فإنه لا يملك إلا أن يشعر بتأثير اعتزاز  
المؤلف بفلسفته القومية الألمانية من جهة ، وبوجود نوع ( قد يكون  
لا شعورياً ) من الخط من شأن الفلسفة الإنجليزية ، حين يصبح أحد « روادها »  
بمجرد شارح غير كامل لهيجل !

وأما الموضوع الثانى ، وهو تمجيد الفكر التأملى على حساب الفكر  
التحليلى ، فهو واضح فى كل أجزاء الكتاب : إذ أن خمس المؤلف كله إنما  
ينصب على من تميزوا « بالجرأة » من المفكرين الإنجليز ، فتعالت شطحاتهم  
على التجربة ، وأصدروا على الكون كله أحكاماً عامة قطعية ، دون أن يعابوا  
على الإطلاق بتحقيق هذه الأحكام . ولقد قدم لنا المؤلف وصفاً رائعاً  
لرأيه فى الفلسفة التحليلية ، الذين يهتمون بمشا كل جزئية ويدققون النظر  
فيها حتى تغيب عنهم الأمور الكلية تماماً ، فى كلامه عن الفيلسوف « برود  
G. D. Broad » الذى اتخذ مثلاً لهذا النمط ، التحليلى فى التفكير فى ص ٦٦٣  
و ٦٦٤ ( من الأصل الإنجليزى ) وصف بديع ، حافل بالسخرية الخفية ، من  
هذا النمط من المفكرين ، الذى ينافس الآلات فى موضوعيته ودقته و « بروده » ،  
وهو وصف يستحيل أن يصدر عن مفكر إنجليزى ، بل يعبر بوضوح عن  
رأى العقلية الألمانية الصوفية فى النزعة التحليلية الأنجلوسكسونية المعاصرة .



وعلى أساس هذا الميل الطبيعي لدى المؤلف ، اتخذت نبوءته عن مستقبل الفلسفة الإنجليزية وجهة خاصة كانت في واقع الأمر تعبيراً عما يريد هو أن يكون ، ولكنها جاءت مخالفة تماماً للواقع . فبعد مضي ربع قرن على نشر الطبعة الإنجليزية لهذا الكتاب ، نستطيع أن نقول إن نبوءته لم تتحقق على الإطلاق . فهو يأمل ، في هامش ص ٥٣٦ ( من الطبعة الإنجليزية ) ، أن يكون الانبجاء التحليلي الذي بدأ يظهر بقوة في ذلك الحين ، وعكس طارئة ( a passing distemper ) ، ويرى في المذاهب التأملية عند « مورجان » و « ألكسندر » دليلاً على أن الفلسفة الإنجليزية بدأت تعود إلى مجال التحليل . التأمل ، وتتخلى عن اللادرية وعن النزعة التحليلية المفرطة التي كانت تبدو شائعة في ذلك الحين ( أنظر ص ٦٦٢ من الأصل الإنجليزي ) . ومع ذلك فإن عكس هذه النبوءة هو الذي تحقق : إذ أن المفكرين للتأملين من أصحاب المذاهب ، مثل ألكسندر وهويتيد ، كانوا هم « الوعك العارضة » ، إذا تأملنا تاريخ الفلسفة الإنجليزية في مجموعته ، واشتدت النزعة التحليلية قوة حتى أصبحت تسيطر على الدراسات الفلسفية في إنجلترا وأمريكا سيطرة شبه تامة ، وأصبح كثير من الكتب الفلسفية يبدو ، على حد التعبير الساخط للمؤلف ، أشبه بكتب مدرسية في الرياضة — وهي كلها أمور كان المؤلف يمتنى في قرارة نفسه ألا تحدث .

وأخيراً ، ينبغي أن ننبه القارئ إلى بعض العيوب التي يبدو أنه لم يكن من ظهورها في الكتاب بد ، سواء في طبعته الإنجليزية وفي ترجمته العربية . فالكتاب يتوقف عند سنة ١٩٢٨ على الأكثر ، ومعنى ذلك أنه لا يقدم أى بيان عن اتجاهات هامة متعددة ظهرت بعد ذلك الحين . والأهم من ذلك أنه يتوقف بالفلاسفة أنفسهم عند سنة ١٩٣٨ ، بحيث تجاهل الإنتاج اللاحق لأولئك الذين ظلوا منهم أحياء بعد ذلك . ولم يكن في وسعنا ، ونحن نقوم

بالترجمة العربية ، أن نكمل هذا النقص إلا إذا تصرفنا في الكتاب على نحو  
يخل بطابعه الأصلي . لذلك تركنا كل شيء على ما هو عليه ، فيما عدا بعض  
الملاحظات الهامشية البسيطة ، ولا سيما ذكر تواريخ وفاة المؤلفين الذين  
توفوا فيما بين ١٩٣٨ ووقتنا الحال ، حتى لا يظن القارئ أنهم ما زالوا أحياء .  
كذلك أضفنا بعض الشروح الموجزة لبعض المسائل التي افترض المؤلف في  
القارئ العلم بها مقدما ، وقد لا تكون مألوفة لدى القارئ باللغة العربية ،  
فضلا عن بعض الترجمات الموجزة لشخصيات ليست كبيرة حتى يعرفها كل  
قارئ في ميدان الفلسفة ، ولم يرد لها شرح في النص أو في السياق . ولكن  
لا يفوتني هنا أن أوجه انتقادا طابرا إلى الناشرين الإنجليز الذين أعادوا طبع  
الكتاب سنة ١٩٥٠ . فصحیح أن من المستحسن في بعض الأحيان نشر  
الكتب الهامة دون إدخال تعديل عليها حتى رغم اقتضاء الظروف إدخال هذا  
التعديل ، غير أن إضافة ملحقات أو بعض الهوامش ، وذلك على الأقل لإيضاح  
من بقي حيا أو من توفي من الفلاسفة الذين تناولهم الكتاب ، لم يكن ليضيف  
الكثير إلى نفقات الطباعة ، ولكنه كان على الأقل كفيلا بتجنيب القارئ  
صورة مشوهة لأحوال الفلسفة الإنجليزية سنة ١٩٥٠ . ومن المظاهر الغريبة  
أن هامش ص ١٤ من الأصل الإنجليزي تضمن إشارة إلى كتاب « سيظهر  
قريبا » عن الفلسفة الإسكتلندية ، ثم ظهر اسم الكتاب في ص ٧٧٩ على أنه  
صدر فعلا ( سنة ١٩٣٨ ) ، ويزداد العجب إذا أدركنا أن هذا الكتاب الذي  
تحدث عنه الهامشان من تأليف أحد المترجمين الإنجليز الثلاثة للكتاب  
الأصلي — أي أن هذا المترجم كان يستطيع على الأقل التنبيه إلى هذا  
التضارب في الإشارة إلى كتابه ، أو ينبه الناشر إلى تصحيحها في الطبعة التالية  
على الأقل .

ويشعر المرء بحاجة الكتاب إلى الاكتمال في حالة المفكرين المعاصرين .

- هو وجه خاص (ومن هنا كان الأحكام دائماً - في رأيي - ألا تؤلف كتب التواريخ  
 الجامعة هذه إلا بعد وفاة الشخصيات التي نتحدث عنها ، وبعدها بوقت كاف  
 أيضاً ، حتى تكون كل المؤلفات المخلفة ذاتها قد نُشرت) . ولناخذ على سبيل  
 المثال شخصية برتراند رسل : فمن المعروف أن كتابات رسل قد تضاعفت  
 منذ سنة ١٩٢٨ . وصحيح أنه يكرر نفسه كثيراً ، ولكن له أبحاثاً هامة تظهر  
 من حين لآخر . ولست أظن أن المرء يستطيع أن ينصف رسل إذا توقف  
 في الحديث عنه عند سنة ١٩٢٨ . ويكفي أن يتصفح المرء قائمة مؤلفاته في سلسلة  
 الفلاسفة الأحياء Library of Living Philosophers ، التي يشرف على نشرها  
 وشيلب A. Schilpp ، ( وهي للقائمة التي تجاوزها رسل بدورها ) ليدرك  
 مدى غزارة إنتاجه بعد هذا التاريخ . والأهم من ذلك أن وقائع حياته ذاتها قد طرأ  
 عليها تغير حاسم : فوقف رسل الأخير من مشكلة نزع السلاح ، وتكوينه  
 « لجنة المائة » ، وحرصه الدائم على محاربة أي نوع من الظلم يقع في أي  
 طرف من أطراف الأرض ، وسعيه الإيجابي في سبيل تحقيق هذا الهدف -  
 كل هذا كفيل بأن يضيف إلى حياة رسل صفحة جديدة كل الجدة ، تشرف  
 الإنسانية بوجه عام ، وتشرف الفلسفة على الأخص ، وتحقق لها أملاً كانت  
 تحلم به منذ قرون عديدة - أمل الاشتراك إيجابياً في حل المشكلات السياسية  
 والاجتماعية للإنسان . ففي رأي أن كفاح رسل من أجل السلام ونزع السلاح ،  
 وكفاح « سارتر » من أجل نفس هذه الأهداف ، فضلاً عن قضية استقلال  
 الجزائر ، يمثل محاولة جديدة لتحقيق حلم أعرب عنه أفلاطون منذ ما يقرب  
 من خمسة وعشرين قرناً ، وحاول أن يحققه حينئذ ولكن بطريقة ساذجة أدت  
 إلى عكس النتائج المقصودة منه . وما هذا إلا مثل واحد - ولكنه مثل  
 يستحق إشارة خاصة في هذه المقدمة - لحالة فيلسوف يستحيل إصدار حكم  
 عليه من خلال ما أنجزه في أواسط حياته فقط .

(١١)

وأخيرا ، فقد بقيت كلمة موجزة عن المنهج الذي اتبعته في الترجمة العربية :  
ففى هذه الترجمة حاولت أن أوفق بقدر الإمكان بين مطلبين أساسيين :  
تسلسل لغة الترجمة ، والاقتراب من النص ( وتلك فى الواقع هى المشكلة  
الكبرى فى كل ترجمة ) وقد اقتضى الأمر إضافة ترجمات لمصطلحات  
متعددة ليست موجودة على صورة ثابتة فى اللغة العربية ، أو تغيير ترجمات  
شائعة أعتقد أنها غير سليمة ، أو ترك بعض المصطلحات مع كتابتها بالحروف  
العربية فى الحالات التى وجدت فيها ذلك أمرا لا مفر منه . وسيجد القارئ  
خلال النص ذاته ما يقدم لهذه التصرفات مبررات كافية .

فؤاد زكريا

القاهرة فى سبتمبر ١٩٦٣ .

## مقدمة المؤلف ( للطبعة الألمانية )

يهدف هذا الكتاب إلى تقديم عرض لتطور الفلسفة الإنجليزية منذ حوالى منتصف القرن الماضى حتى اليوم . ومع ذلك فقد كان لزاما على ، لى أضع أساسا للعرض الذى قدمته للفلسفة البريطانية المعاصرة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، أن أضمن كتابى أفكارا أقدم عهدا ، وأن أبين جميع أوجه الارتباط التى تصل الحاضر بالماضى لتكونَ منهما كُلا متكاملتا متناسكتا إلى حد ما . وفى سبيل هذا الهدف الأخير كتبت الباب الأول من هذا الكتاب ، وبذلك يكون هذا العرض للفلسفة الإنجليزية الحديثة قد جمعها فى وحدة تاريخية كاملة الأطراف .

غير أن الموضوع الرئيسى الذى ينصب عليه الاهتمام فى كتابى هذا يبدأ منذ الباب الثانى ، ومن أجل هذا الموضوع بُذل هذا الجهد الشاق . ذلك لأنه على حين أن المدارس الفكرية الأقدم عهدا قد حظيت بقسط كاف من الدراسة ، وأصبحت سماتها الرئيسية معروفة للجميع ، فإن الفترة المتأخرة لم تُبحث قط بحثا شاملا . وكانت المؤلفات القليلة التى تناولتها إما مجرد جمع لمواد ، أو بحوثا تقتصر على نواح جزئية منها ، ولا تعدو أن تكون موجزات وتلخيصات غير دقيقة . وهكذا كان من الواجب ، فى هذا الميدان ، بذل كل الجهد اللازم للإلمام الدقيق بالموضوع . وكانت مهمتى فى هذا الصدد هى أن أمتكشف أرضا جديدة فى تاريخ الفلسفة ، ولم تكن تقتصر على إبراز النسيج المعقد للفلسفة الإنجليزية فى سياقها الخارجى ، وإنما توخيت أيضا إيضاها من باطنها ، وتقديمها فى صورة تتسم بالعمق مثلما تتسم بالاتساع . لذلك كان .



على أن ألجأ مباشرة إلى المصادر الأصلية ، فمنها وحدها كنت أستطيع  
تستخلص الملامح الصادقة للمفكرين ولموقعهم من المدارس الفكرية ،  
ولهذه المدارس الفكرية ذاتها .

ومن الطبيعي أنى عند ما أتحدث في هذا الكتاب عن «مدارس فكرية»  
فإنى أعتمد على قدرتي في استبصار العلاقات بين الأفكار . غير أن الامتلاء  
الحلى المتعدد الألوان ، الذى يتبدى عليه التفكير الفلسفى لعصر من العصور  
وأمة من الأمم ، لا يندرج بسهولة دائما في إطارات تاريخ الفلسفة ، وكثيرا  
ما يتعارض مع هذا التقسيم الحاد إلى شيع ومذاهب محددة المعالم ، وهو  
التقسيم الذى كان أثيرا لدى الباحثين وقتا ما ، ولكنه أصبح اليوم مكروها  
إلى حد بعيد . ومع ذلك فإنه لا يسعنا ، إذا شئنا ألا يضيع مؤلف كهذا الذى  
نقدمه وسط زحام الظواهر المتغيرة ، أن نستغنى تماما عن هذه التقسيمات ،  
إذ أن اعتبارات النظام والاتساق تحتم وجودها . ولكن ينبغى ألا تكون  
هذه التقسيمات أكثر من علامات للإرشاد في أرض يبدو لأول وهلة أنها  
لا تنطوى على أى طريق محدد المعالم ، ومحال أن تكون بديلا نستعيض به  
عن الوقائع الفعلية . فهى إشارات تحدد الاتجاه أمام السائح ، وبهذه الصفة  
تكون معقولة وضرورية . ومن ثم فإنى لا أعدها الموضوع الرئيسى الذى  
أهتم به في كتابي هذا ، وإنما أراها مجرد عامل مساعد لا غناء عنه في البحث .  
ومن الجائز أن مفكرا أو آخر قد أدرج في فئة لا تنطبق عليه ، بحيث يبدو  
ناشزا ، جزئيا أو كليا ، في المكان الذى وضع فيه . ولكن الواجب ألا يبالغ  
المرء في تقدير قيمة هذا النوع من الاعتراضات ، إذا كنت قد نجحت في  
تقديم عرض صحيح للمفكر ومذهبه ، وفي فهمه فهما سليما . ولهذا السبب  
كان اهتمامى بالمفكرين الأفراد أعظم من اهتمامى بالمدارس الفكرية ، وكان  
اهتمامى بمشاكل الفكر أعظم من اهتمامى بالتقسيمات التى نعرف بها كنه

هذه المشاكل . بل إن هدفى الأكبر كان تقديم عرض مختلف للفلاسفة حسب الطابع الفردى الذى يتسم به كل منهم ، وإبراز شخصياتهم ، من حيث هم مفكرون ، على أوضح نحو ممكن . ولهذا فسوف يعالج كل مفكر فى موضع واحد لحسب ، على حين أتى لو كنت قد استهدفت ترتيب بحثى على أساس الاتجاهات الفكرية لكان لزاما على أن أتحدث عن المفكر الواحد فى أكثر من موضع واحد وقد يودى ذلك إلى تشويهاة كثيرة ، ولكن هذه نتيجة لا مفر منها إذا لم يفضل المذهب على الشخصية ، والاتجاه الفكرى . على المفكر ، والفئة على العرض الحى .

وربما بدا أن هناك شيئا من الخطورة فى تتبع اتجاه الفكر الإنجليزى . حتى يومنا هذا ، إذ أن مثل هذا العمل لا يمارس من خلال ذلك المنظور البعيد الذى ينبغى توافره من أجل دراسة حركة لم تنته بمد أو مفكرين . ما زالوا نشيطين فى ميدان الإنتاج ، ومن أجل تمييز الغث من السمين ، والدائم من العابر . وأنا أدرك ذلك بكل وضوح ، ولست أدعى لنفسى ، حينما كان على أن أعالج مسائل معاصرة ، تلك الدقة فى الحكم ، التى نشترطها فى المؤرخ عند ما يكون بعدد مسائل طويت صفحتها . فهنا يظل الكثير فى مرحلة التنظيم المؤقت والتقريب المحض لأمر سوف تبت فيها الأبحاث المقبلة بمزيد من الدقة . ولهذا السبب لم يكن فى وسعى أن أضمن كتابى جميع الحركات التى نستطيع أن نلجح بوادرها الأولى فى الفكر الإنجليزى ، أو أى شئ لم يتخذ حتى الآن صورة محدودة المعالم . وفضلا عن ذلك فلم يكن هدفى هو الوصول إلى سجل جامع مانع . فهذا هدف يستحيل تنفيذه عمليا ، بل إنه باطل نظريا : إذ تمثل فى عالم الأفكار عملية الانتقاء الطابعى نفسها التى كشفت عبقرية دارون عن أهميتها الهائلة فى عالم الطبيعة . فليس من واجب المؤرخ أن يحى ما أخفق فى الصمود فى صراع الأفكار ،

فطواه الموت والنسيان ، لمجرد كونه قد وُجد ذات مرة . . . أما ما صمد في ، معركة البقاء ، فلا يكاد المرء يجد فيه ما يستطيع الإغضاء عنه . . . وهنا أيضا ، يُطبق مبدأ الانتقاء : إذ عُرِضَت الشخصيات الكبرى في الفلسفة بإسهاب يزيد كثيرا على ذلك الذي عرضت به الشخصيات الثانوية . . . وإلى هذا الحد . . . يمكن أن يعد اتساع نطاق العرض أو ضيقه ، بمعنى ما ، علامة على القيمة . . . الباطنة للمفكر ، ولكن لا يجوز تفسيره على أنه يحدد بشكل مباشر مكانة المفكر في سلم القيم .

وقد يتساءل المرء : ما معنى ، وما جدوى الاضطلاع بمثل هذه المهمة في وقت يتزايد فيه على الدوام إصرار الأمم على إغلاق أبوابها على أنفسها في وجه الآخرين ، ويتزايد فيه التفاهم المتبادل صعوبة على الدوام ؟ وما قيمة الفلسفة الإنجليزية لنا معشر الألمان اليوم ، وما الذي نستطيع تعلمه منها . . . ولأي الأغراض المفيدة ينبغي أن نهتم بها ؟ إن من المحتم علينا اليوم أن نواجه هذا السؤال ذلك الطابع العملي المفرط ، الذي كان جيل آبائنا خليقا بأن يعده خير متسق مع معنى البحث الأصيل وهدفه . فهذا السؤال متعلق بالسياسة ، أو بالسياسة والثقافة ، ومن ثم فليس في وسعنا في الحالة الحاضرة أن نطرحه جانبا على أساس أنه مقتصر على مجرد التمتع بصورة الفكر الإنجليزي ، كما تعرض ها هنا ، أو بزيادة أو إكمال معرفتنا بالموضوعات التي يفكر فيها أولئك الذين يفصلهم عنا القنال الإنجليزي (بحر المانش) فهناك أولا حقيقة هامة ، هي أن الأحوال الحاضرة . . . لا يمكن أن تظل قائمة على الدوام . . . وفضلا عن ذلك ، يبدو من الضروري ، نظرا إلى الأحوال السياسية الحاضرة ، أن تقام بيننا من الناحية الروحية تلك الجسور التي تعذر علينا إقامتها من الناحية السياسية فنحن في هذه الأيام أحوج ما نكون إلى الاهتمام بكل ما يقرب بين الأمم ويساعدها على التفاهم المتبادل ، ولا سيما إذا كان الأمر متعلقا بأمتين متقاربتين عرقيا كالإنجليز .

والألمان . فمن الواجب أن يكون هدفنا هو تقوية أواصر التفاهم وزيادته حيثما بدا ذلك ممكنا ، وقد اضطلعت بمهتي هذه وفي ذهني هدف صريح هو : أن أقرب بين أذهان الأمتين وأشجع على تفاهمهما المتبادل . لذلك فإنني أتوجه .. بندائي إلى الفلاسفة المحترفين ، لا في ألمانيا فحسب ، بل في إنجلترا وأمريكا أيضا ، سائلا إياهم أن يتعاونوا من أجل تحقيق الأهداف الثقافية والسياسية التي ألفت من أجلها هذا الكتاب . ورغم أن شعوري بأن ضيق نطاق دائرة قرائي — وهو أمر تحتمه طبيعة الموضوع — لا يمكنني إلا من المساهمة بنصيب محدود في سبيل تحقيق هذا الهدف ، فإنني مع ذلك أرى أن إمكان تحقيق هدفي هذا هو المشجع لي على الاضطلاع بهذه المهمة ، والمبرر لقيامي بها .

وأخيرا ، ينبغي أن أذكر أنه كان من حسن حظي أن أكوّن علاقات شخصية مع عدد كبير من الفلاسفة الإنجليز ، ومنهم بوجه خاص كثير من الذين تناوّلهم هذا الكتاب . وقد أتاحت لي فرصة ذهبية لتحقيق هذا الهدف في مؤتمر الفلسفة الدولي السابع ، الذي انعقد في أكسفورد في سبتمبر ١٩٣٠ ، وخلال تلك الفترة الطويلة التي أقمتها في إنجلترا بمناسبة هذا المؤتمر . والواقع : أن ما اكتسبته بالاتصال الشخصي والتبادل المباشر للأفكار كان أكبر قيمة في كثير من الأحيان من دراسة طويلة للكتب . فإلى جميع أولئك الذين هاؤنوني . هل هذا النحو ، أود الآن أن أقدم آيات العرفان ، وأخص منهم بالذكر صديق ر . ا . آرون أستاذ الفلسفة في كلية ويلز الجامعية في أبريستويث . والاستاذ ( ت . ا . جيسوب ) بكلية هـ . هل ، الجامعية ، والمرحوم الدكتور ف . ك . س . شيلر بكلية د . كورپوس كريستي ، في أكسفورد . فقد ساهموا بالكثير في هذا الكتاب بما قدموه من معونة لم يكونوا يرضون بها على أي وقت ، وبصائحهم القيمة وتشجيعهم الدائم .

( ١٧ )

«وأخيراً ، ولكن ليس آخراً ، أود أن أشكر زوجتي على عطفها الحنون ،  
وتشجيعها الدائم ، وتعاونها الفعال خلال السنوات التي قضيتها في إعداد هذا  
الكتاب . وينبغي في الختام أن أذكر أن « جمعية مساعدة العلوم الألمانية ،  
« قد قدمت الأساس المادي لظهور هذا الكتاب بتبرع سخى من أجل سداد  
تكاليف الطباعة ، فإليها يزجي المؤلف والنساشر كل ما هي جديرة  
بـه من الشكر .

رودلف متس

هيد لبرج

نوفمبر ١٩٣٤



## الفصل الأول

### المدرسة الاسكتلندية

سميت المدرسة الفكرية التي أسسها «توماس ريد» Thomas Reid (١٧١٠-١٧٩٦) ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، باسم المدرسة الاسكتلندية ، تبعا للوقع الجغرافي للمنطقة التي ظهرت فيها ، وموطن ممثليها البارزين . أما بالنسبة إلى محتوى تعاليمها ، فيطلق عليها عادة اسم «فلسفة الموقف الطبيعي» (١) Phil. of Common sense ، وهي تكون اتجاهها متفرعا عن المذهب التجريبي الإنجليزي ، وإن كانت قد نشأت عن المعارضة الواعية لمدرسة الفكر التجريبي التي يمثلها بركلي وهيوم . وقد استمدت هذه الفلسفة مادتها الفكرية من الموضوعات الرئيسية والمشاكل التي عالجتها المدرسة التجريبية ، وهي المدرسة التي أخذت على عاتقها محاربتها وتفنيدها ، غير أنها لم تتمكن من القضاء على هذه الموضوعات الرئيسية والمشاكل من الداخل ، ولا من إضافة مادة فكرية جديدة إليها من الخارج ، وإنما اكتفت باستعراض وتشويه المشكلات التقليدية وحلولها ، وإن لم تتجاوز قط نطاق النتائج التي بلغتها الفلسفة الإنجليزية في عصرها الكلاسيكي . فلهذه المدرسة لم تتخل عن الاتجاه الفكري السابق ، وإنما انحرفت عنه ودفعته إلى طريق جانبي . وتعد أهميتها المذهبية أقل كثيرا من الأهمية الكلاسيكية الكبرى في الفلسفة.

---

(١) استخدم بعض الكتاب عبارة « فلسفة الإدراك المفرد » أو « فلسفة الذوق الفطري » اسما لهذه المدرسة الفلسفية ( المراجع )

الإنجليزية ، وهى الأعمال التى ترتبط بها ارتباطا وثيقا ، ولا يمكن فهمها بدونها . وهى فى هودتها إلى الفهم البشرى السليم تنطوى على تراخ فى الحماسة الفلسفية ، وتدهور فى تلك القوة التأملية النظرية التى نبعت منها تلك الصدمة الهائلة التى حفزت هيوم إلى التفكير . فلم تكن تلك المدرسة كفؤا لعظمة الموقف التاريخى الذى وجدت نفسها فيه ، وإنما كانت عاجزة عن التصرف به كفاءة فى الحركة التى خلفها لها هيوم . وهكذا لم يسفر الصراع الباسل الذى قام به ريد ضد هيوم عن انتصار فعلى له على خصمه ، ولم يكن الرد الذى أتى به على التحدى الشكاك من جانب هيوم معينا للتفكير الفلسفى ، وإنما انتهى به إلى طريق مسدود . فقد استيقظ ريد ، مثل كانت ، من سباته القطعى بفضل هيوم ، غير أن المفكر الألمانى هو وحده الذى تمكن من أن يحول التأثير الهائل الذى أحس به الاثنان إلى نتيجة مشمرة ، وينتج به إلى حركة فكرية جديدة ضخمة . أما ريد وزملاؤه فلم يدخلوا على الفكر تهديدا خلافاً ، وظلوا خلفاء مغمورين لمفكرين عظماء ، ولم يسهموا فى الفكر بنصيب ملحوظ .

ومع ذلك فإن التأثير التاريخى للمدرسة الإسكتلندية وانتشارها لم يكن بالامر القليل الأهمية . فقد توطدت دعائم مذهب ريد فى الجامعات الاسكتلندية ، واستقر فيها كأنه نوع من المذهب المدرسى ، وظل على الدوام يجتذب أنبأاً جدداً إلى دائرة نفوذه . كما عبر البحر إلى فرنسا ، حيث كان هو القوة الملهمة لكثير من المفكرين الذين خلفوا «مين دى بيران Maine de Biran» ( مثل روايه كولار Royer - Collard ، وكوزان Cousin ، وجوفروا Jouffroy ، وجارنييه Garnier ، وداميرون Damiron

ودى ريموزا de Rémusat ، وغيرهم ) . (١) وفي أمريكا استمر تراثها حيا بفضل ج . مكوش J. M' Coch ( انظر فيما بعد ص ٤٣ ) ونوح بورتير Noah Porter ، وغيرهما . فهذه المدرسة تمثل أول حالة تصادف فيها مدرسة حقيقية للتعليم الفلسفي في تاريخ الفكر الإنجليزى — باستثناء المدرسة المسماة بمدرسة كيمبردج ، والتي تبلور فيها بعث التعاليم الأفلاطونية في القرن الثامن عشر . ولأول مرة نرى مذهباً فكرياً موحداً وقد أدمج في المناهج الأكاديمية ، وظل طوال عشرات طويلة من السنين يمثل ويعلم ويوسع بفضل تعاون مجموعة غير قليلة من الأتباع . وكان للمدرسة التي أسسها ريد في اسكتلندا مقابلها في إنجلترا ، حيث ظهرت مدرسة هامة تركزت حول بنتام Bentham . وظل الاثنان يتنافسان طويلاً ، وتركزت حولهما معظم الطاقات الفلسفية الموجودة في ذلك الحين .

ولا يدخل التاريخ المبكر للفلسفة الاسكتلندية في نطاق هذا الكتاب ، ومن ثم فليس في وسعنا هنا إلا أن نقدم مجملًا سريعاً لمراحلها الرئيسية . فقد انتقلت زعامة المدرسة ، حتى قبل وفاة ريد ، إلى دوجالد ستيوارت Dugald Stewart ( ١٧٥٣ — ١٨٢٨ ) ، وهو أقدر تلاميذه الأولين . وكان ستيوارت معلماً أكاديمياً لامعاً ، كان لمحاضراته البليغة الأسلوب تأثير تعليمي عظيم في الجيل الاسكتلندي الناشئ عندئذ . وقد شغل منذ ١٧٨٥ حتى ١٨١٠ كرسى الفلسفة الأخلاقية في جامعة إدنبرة ، التي كانت هي المركز الروحي للفلسفة الاسكتلندية طوال أجيال عديدة . وتتلذ على يديه شبان كثيرون قدر لهم فيما بعد أن يبلغوا أوج الشهرة في ميادين عظيمة

(١) انظر : ١٠ بوترو Boutroux « تأثير الفلسفة الاسكتلندية في الفلسفة الفرنسية » De l'influence de la phil. écossaise sur la phil. Française. دراسات في تاريخ الفلسفة سنة ١٨٩٧ . Etudes d'histoire de la philosophie

التباين في الحياة السياسية والعقلية ، فكان منهم شخصيات ضخمة مثل :  
 السير وولتر سكوت Sir Walter Scott ، ورئيسا وزراء مقلان هما :  
 بالمرستون Palmerston ورسيل Russell . و قد اقتصى ، في النقاط  
 الرئيسية لمذهبه ، أثر ريد ، ولم يختلف معه إلا في بعض المسائل الجزئية ،  
 وانحصرت مساهمته الوحيدة في الميدان النظري في محاولته وضع تعاليم أستاذه  
 في صورة مذهبية أدق ، وتطبيقها على نطاق أوسع . وكان رجلا ذا ثقافة  
 عقلية رفيعة ، عرف كيف يضع أفكار ريد الجافة المصوغة بمباراة جامدة  
 في قالب أدبي زاه مصقول . ولكن من الأمور الجديرة بالملاحظة أن ستيوارت ،  
 الذي كان في ذلك الحين أقوى شخصية قادرة على إذاعة الثقافة الفلسفية في  
 بريطانيا ، لم يكن متنبها على الإطلاق إلى التقدم العظيم الذي طرأ على  
 الفلسفة الألمانية أثناء حياته . وعلى أية حال فقد كان ستيوارت ، من بعد  
 ريد ، هو الممثل الأكاديمي الرئيسي للمذهب الاسكتلندي . وقد حمل لواء  
 تراثه حتى القرن التاسع عشر ، وكان ممثلا له من القوة والتأثير ما جعل  
 هذا المذهب يظل صامدا حتى انعقد لبنتام لواء الزعامة في ميدان  
 الفلسفة .

ويرتبط توماس براون Thomas Brown ( ١٧٧٨ - ١٨٢٠ )  
 تلميذ ستيوارت وخليفته في إدنبره ، بالمدرسة الاسكتلندية ارتباطا وثيقا ،  
 وإن لم يكن قد قبل جميع أفكارها . ويمثل موقفه الفلسفي نوعا من التوفيق  
 بين الاتجاهات النرايطية في المذهب التجريبي الأقدم عهدا ، وبين الآراء  
 الحديثة عند ريد . وهو بذلك يمثل معبرا بين فلسفة الموقف الطبيعي  
 ( الإدراك المشترك ) وبين المذهب التجريبي المأخر ، وبالتالي المذاهب  
 النفسية لدى جون وجيمس مل ، وبين Bain وسبنسر . وكانت  
 أهم مساهماته في ميدان الفلسفة جهوده في مشكلتي الإدراك الحسي

والعلية ، وهى جهود أدت أحيانا إلى اتخاذه موقفا معارضا بعنف لموقف ريد . فعلى الرغم من أنه التزم الافتراض القائل بوجود مبادئ اعتقادية حدسية معينة ، فإنه ازداد اقترابا من آراء المذهب الحسى ، فيما يتعلق بمشكلة الإدراك الحسى ، ومن آراء هيوم فيما يتعلق بالعلية ، مع رفضه للنتائج الشككية التى انتهى إليها هيوم . وقد تناول المشكلة الأخيرة فى مؤلف شامل خاض فيه مناقشة نقدية مع هيوم . وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا المؤلف عام ١٨٠٥ ؛ وظهرت طبعته الثالثة ، التى زيدت زيادة كبيرة ، فى ١٨١٧ ، بعنوان : « بحث فى العلاقة بين العلة والمعلول .

« An Inquiry into the Relation of cause and Effect

وكان براون مفكرا أقوى بكثير من ستيوارت ، وكانت لديه ملكات نقدية سليمة . وقد أبدى ، منذ ذلك الوقت المبكر ، اهتماما به كانت ، وكتب عن فلسفته أول الأبحاث التى ظهرت بالإنجليزية ( وقد نشر فى المجلد الأول من « مجلة إدنبره » ، Edinburgh Review ، فى ١٨٠٢ ) ، وكان ، مثل ستيوارت ، معلما فلسفيا مبيجلا ناجحا . وإلى هذه الصفة يرجع ، فى المحل الأول ، ذلك النجاح الأدبى غير العادى الذى أحرزته محاضراته فى إدنبره ، وقد نشرت هذه المحاضرات بعد وقت قليل من وفاته السابقة للأوان بعنوان : محاضرات فى فلسفة الذهن البشرى Lectures on the Phil of the Human Mind ( ١٨٢٠ ) ، وطُبعت ، فى مدى ثلاثين عاما ، ما لا يقل عن تسع عشرة طبعة .

أما السير جيمس ما كنتوش Sir James Mackintosh ( ١٧٦٥ -

١٨٣٢ ) فكانت علاقته بأفكار المدرسة الإسكتلندية أقل وثوقا . ولقد أحرز ، بوصفه سياسيا ومؤرخا ، شهرة تفوق شهرته بوصفه فيلسوفا . والمؤلف الوحيد الذى يستحق من أجله أن يذكر هنا هو : « بحث فى تقدم الفلسفة



الأخلاقية ، ولا سيما في القرنين ١٧ ، ١٨ . Dissertation on the Progress of Ethical Philosophy chiefly during the XVII and XVIII Centuries- وقد نشر لأول مرة في ١٨٣٠ ، بوصفه مقدمة للطبعة الرابعة من «دائرة المعارف البريطانية» ، وسرعان ما انتشر على نطاق واسع (نطبع منه عشر طبعات حتى ١٨٧٠) وقد اجتذب عند ظهوره اهتماما عظيما ، وحفز جيمس مل James Mill على أن يقدم ردا قاسيا عليه ( كلبه عن ماكنتوش ( ١٨٣٥ ) .  
( A Fragment on Mackintosh ) .

في هذا البحث ، الذي قدم فيه ماكنتوش رأيا جامعا شاملا عن المذاهب الأخلاقية في القرنين السابقين ، حاول للقيام بنوع من التوفيق بين مذهب المنفعة والمذهب الحدسي في الأخلاق . ولم يرفض فيه مبدأ المنفعة ، ولكنه أزاحه عن مركز الصدارة ، وجعل السلوك الأخلاقي يرتكز على الضمير ، والتعاطف أكثر مما يرتكز على الطابع المفيد لهذا السلوك .

كل هؤلاء المفكرين ، ومجموعة أخرى غيرهم ، ممن استنحت أسماؤهم أن تطوى منذ وقت طويل في زوايا النسيان (١) قد طغت عليهم جميعا شخصية

---

(١) نستطيع أن نذكر الأسماء الآتية بإيجاز شديد: جون أبركرومبي John Abercrombie ( ١٧٨٤ — ١٨٤٤ ) ، وهو طبيب أحرز نجاحا كبيرا في الميدان الأدبي بكتابه : «دراسات في القوى العقلية Inquiries Concerning Intellectual Powers » ( ١٨٣٠ ) وطبع إحدى وعشرين طبعة حتى عام ١٨٨٢ ) وجيمس ميلن James Mylne ، وهو خليفة ريد في كرسي الفلسفة الأخلاقية في جلاسجو ، وقد أحرز شهرة كبيرة ومارس تأثيرا عظيما بوصفه أستاذا للفلسفة ، ولكنه لم يكتب شيئا ، وديفد ريتشي D - Ritchie الذي خلفه هاملتون في إدنبره ، وهو أقرب إلى ميدان الإلهيات منه إلى ميدان الفلسفة ، وجون ويلسون John Wilson ( ١٧٨٥ — ١٨٥٤ ) ، وكان يكتب باسم مستعار اشتهر به ، هو كريستوفر نورث C. North ، وكان بدوره يشغل كرسي أستاذية في الفلسفة بجامعة إدنبره ، وتوماس تشالرز Thomas Chalmers ( ١٧٨٠ — ١٨٤٧ ) وهو من كبار رجال اللاهوت الاسكتلنديين ، وشغل وقتا ما منصب أستاذ الفلسفة الأخلاقية في سانت أندروز ، وهو مؤلف كتاب : خواطر وجزء في الفلسفة الأخلاقية والذهنية Sketches of Moral and Mental Philosophy ( ١٨٣٦ ) ، وقد شنت قبل وفاته بوقت قصير هجوما عنيفا على الفلسفة الألمانية وعلى « النزعة العدمية Nihilism » عند هيجل .

مفكر أم وأعمق بكثير ، هو السير وليام هاملتن Sir William Hamilton ( ١٧٨٨ - ١٨٥٦ : ) . فقد أكسب هاملتن الفلسفة الاسكتلندية قوة دافعة جديدة ، وإليه يرجع الفضل الأول في عودة مكانها إلى العلوم مرة ثانية ، وتفوقها على جميع المدارس الفلسفية الأخرى . وقد دام لها هذا الامتياز من حوالى سنة ١٨٣٠ إلى حوالى سنة ١٨٦٠ . وقد شغل هاملتن منذ ١٨٣٦ حتى وفاته كرسى المنطق والميتافيزيقا بجامعة إدنبره . وكان اسمه وشهرته قد ذاعا في الفلسفة : حتى قبل تعيينه ، بفضل مساهماته العديدة في مجلة إدنبره ، وامتدت شهرته خارج حدود إسكتلندا ، بل لقد وصلت إلى داخل القارة الأوروبية ذاتها . وهناك ثلاثة من مؤلفاته كانت لها أهمية خاصة ، إذ أنها تحوى أم أفكاره ، واجتذبت أعظم الاهتمام من معاصريه ، وهى : كتابات كوزان وفلسفته في المطلق : ( اللامشروط ) Cousin's Writings &

Philosophy of the Unconditional

( ١٨٢٩ ) ، وكتابات براون وفلسفته في الإدراك الحسى ( ١٨٣٠ )

'Brown's Writings & Philosophy of Perception

والمطق Logic ( ١٨٣٣ ) . وقد عرض في البحث الأول المبادئ الرئيسية للميتافيزيقا ، وفي الثانى المبادئ الرئيسية لنظرية المعرفة ، وفي الثالث ، المنطق . ثم أعيد طبع هذه الأبحاث في كتابه : مناقشات في الفلسفة والأدب ، والتعليم والإصلاح الجامعى Discussions on Phil - and

Literature, Education & University Reform

( ١٨٥٢ : ) . وكان من المعالم البارزة في تاريخ المدرسة الإسكتلندية ، طبعته لمؤلفات ريد ( التى بدأت في ١٨٤٦ ، وتمت ١٨٦٣ ) ، مع شروح دقيقة واستطرادات وملاحظات عديدة تجلى فيها علم هاملتن الغزير . ثم ظهرت بعد ذلك طبعة لمؤلفات دوجالد ستيوارت ( في أحد عشر مجلدا ، ١٨٥٤ - ١٨٥٨ ) . وقد استنفد هذا الجهد الجزء الأكبر من نشاط هاملتن .

التأليف ، بالإضافة إلى كتابه : « محاضرات في الميتافيزيقا والمنطق .  
Lectures on Metaphysics & Logic وهو كتاب لم يتمكن هو ذاته  
من إعداده للطبع ، ونشره بعد وفاته تلميذاه مانسل Mansel وفيتش  
Veitch ( في أربعة مجلدات ، ١٨٥٨ - ١٨٦٠ ) .

وعلى يد هاملتن ، دخلت الفلسفة الإسكتلندية المرحلة الأخيرة من تطورها ،  
إذ بدأت معه عملية الانحلال الباطن والانتقال إلى وجهات فكرية أخرى .  
غير أن أئنيح ثمار هذه الفلسفة لم تقطف إلا قبل النهاية مباشرة ، عندما بلغت  
شهرتها أقصى مداها ، وعبرت عن نفسها أدق تعبير أكاديمي ، وحققت  
أعظم أعمالها في ميدان النقد والتأمل النظري . ولكنها لم تبلغ هذا المدى  
بفضل مواردها الخاصة ، وإنما عن طريق توسيع نطاق مشاكلها وإدخال  
أفكار جديدة . ويرجع الفضل في هذه الإضافة إلى علم هاملتن الغزير . فقد  
كانت قراءاته في الفلسفة وغيرها من الفروع تفوق بكثير قراءات جميع  
المفكرين الإنجليز السابقين عليه ، وكانت مستمدة من مصادر متنوعة ،  
أهمها الفلسفة الألمانية التي كان الإنجليز قد اكتشفوها حديثا في ذلك الحين .  
وسنوضح فيما بعد كيف تأثر هاملتن إيجابيا بفلسفة كانت ، وسلبيا بالفلسفة  
التالية لكانت . وحسبنا الآن أن نقول إن فتح آفاق جديدة ، عن طريق  
الأخذ بأفكار كانتية في المحل الأول ، كان يعنى زعزعة الكيان الأصلي  
للدرسة الإسكتلندية ، أي أن قيام هاملتن بتوسيع نطاق المذهب الإسكتلندي  
وتعميقه ، قد تحقق على حساب بقاء هذا المذهب نقيا .

ولنضرب مثلا يوضح ذلك بإيجاز : فقد ظهرت فلسفة ريد من خلال  
معارضته للنظرية الظاهرية ( Phenomenalist ) للعرفة في المذهب التجريبي .  
الأقدم عهداً ، ولا سيما النتائج الشكاكة التي استخلصها هيوم منها . فعندما

نعرف العالم الخارجى ، يكشف لنا التحليل عن الفعل الذهنى من جهة ، وعن الموضوع الحقيقى من جهة أخرى . ويكون الموضوع ، بما هو خارجى ، حاضرا مباشرة فى الإدراك الحسى ، ولا يحتاج إلى صورة أو تمثيلات معترضة تتوسط بيننا وبين حقيقة الأشياء الخارجية . وعلى ذلك فإن ريد يرفض ما يسمى بالنظرية التمثيلية ( Representative ) فى الإدراك الحسى أو المعرفة ، ويرفض جهاز التمثيلات بأسره ( من أفكار وانطباعات ) . ذلك لأن معرفتنا للأشياء الخارجية على نحو مباشر فى الإدراك الحسى ، هى أحد المبادئ الأساسية للفهم البشرى السليم ، وهو مبدأ نوقن به حدسيا ، ولا مجال لدينا للشك فى حقيقته . وبالمثل يبدأ هامان بقبول الواقعية الطبيعية Natural realism ، التى تضمنتها نظرية المعرفة عند ريد . غير أن مذهبه يتضمن منذ البداية تقدما هاما بالنسبة إلى ريد ، إذ هو لا يحاول بلوغ هذه النتيجة بالإهابة بالفهم السليم لذهن الإنسان العادى لحسب ، وإنما عن طريق التحليل النقدي لعملية المعرفة أيضا . وهو فى رفضه الصريح لهذه الإهابة يعود ثانية إلى أرض البحث الفلسفى الحقيقى . وهكذا أحل النقدية الكانتية محل قطعية ريد . غير أن هذا ينطوى على تغيير فى وضع المشكلة . فشكلة المعرفة لا تحل بمجرد تأكيدنا أننا نشعر ، مباشرة ، بالواقع المادى على أنه شيء مختلف عنا أو من أحوالنا الذهنية . والقول بأن الموضوع ، بما هو كذلك ، مائل فى الوعى — هذا القول إذا ما نظر إليه على أنه يعنى أن وجود الموضوع ينبغى أن يكون فى هوية مع الصفة أو الكيفية المجربة . لكان من الواضح أن هذا الشرط لا يتوافر فى حالات كثيرة . ولذلك كنا فى حاجة إلى اختبار نقدى دقيق لمفهوم الحضور المباشر Immediacy . ومثل هذا الاختبار كفى بأن ينبئنا مثلا بأن كل معرفة عن طريق التذكر لا يمكن أن تكون مباشرة ، على نفس النحو الذى تكون عليه المعرفة الآتية من الإدراك الحسى مباشرة ، إذ أن

الموضوع الذى مضى لا يعود ماثلا . والذى يكون ماثلا مباشرة فى هذه الحالة إنما هو صورة متذكّرة نستخلص منها استدلالات عن الشيء الذى كان ماثلا من قبل . وعلى ذلك فالمعرفة المباشرة لا تكون ممكنة إلا فى حالة الإدراك الحسى : ولكن حتى فى هذه الحالة يكشف لنا تحليل هاملتن النقدي عن استحالة الإبقاء على فكرة « المباشرة » ، فى صورتها الساذجة فى كثير من الأحيان . لذلك رأى نفسه مضطرا إلى التحول عن نظرية الموقف الطبيعى Common - Sense الأصلية بمقدار لا يقل عن مقدار تحوله عن النظريات للظاهرية ( Phenomenalist ) التى وجهت ضدها نظرية الموقف الطبيعى . والنتيجة النهائية هى أن كل ما يمكننا أن نعرفه عن العالم الخارجى ليس إلا محتويات للوعى ، وأن الوعى بالتالى هو الدليل الوحيد الموثوق به ، على وجود الأشياء الخارجية . وبهذا لا يبقى من واقعية ريد الطبيعية سوى مجرد معرفتنا أن الوعى لا يكشف عن الأنا وأفعاله النفسية فحسب ، بل يكشف أيضا عن اللاأنا وعلاقاته بالأنا . ولكن هذا يعنى أن نظرية الموقف الطبيعى التى وضعها ريد لتكون حائلا دون النزعة الذاتية والنزعة الشكية ، قد تغيرت على يد هاملتن إلى حد أنها عادت إلى رأى القائل بأن معرفتنا للحقة لا يمكنها أن تمتد إلى ما وراء الظواهر العابرة للوعى . وهكذا عادت الواقعية الطبيعية القهقرى إلى نفس المذهب الظاهرى الذى لم تظهر أصلا إلا لتفنيده .

ومن الواضح أن هذه الحجج قد استمدت من كانت أكثر مما استمدت من باركلى أو هيوم . ومن ثم فإنها لا تمثل مجرد رجوع إلى النظريات التى حاربها ريد ، وإنما تمثل تقدما عليها ، وانتقالا إلى النظرية النقدية للمعرفة كما قال بها ذلك المفكر الألمانى . ويتضح ذلك إذا أدركنا أن مبدأ النسبية يرتبط عند هاملتن بنظرية الإدراك الحسى ، وأن هذا المبدأ هو ذاته محور ارتكاز

فلسفته بأسرها . ويتلخص موقفه العام في نظرية الإدراك الحسى في القول بأننا ندرك مباشرة في وعينا الكيفيات الأولى للأشياء على الأقل ، وأن لنا الحق في القول إنها توجد على نحو ما ندركها حسيا . وإلى هذا الحد تكون معرفتنا للأشياء الخارجية مباشرة حاضرة ، لا توسط فيها ولا إنابة . غير أن المبدأ الأساسى القائل بنسبية المعرفة ينطوى على القول بأننا لا نعرف شيئا كما هو في ذاته ، وأنها بالنال تقتصر على معرفة الظواهر ، وأن الأشياء في ذاتها مخفية عنا . وواضح أن بين الاثنين تناقضا لا يرفع . ومع ذلك ، فإن النظر في الأمر يبين أن نظرية الإدراك الحسى هي التي ينبغي أن تفسر في ضوء مبدأ النسبية ، لا العكس . ذلك لأنه يتضح آخر الأمر أن الكيفيات الأولى التي نعرفها مباشرة ، والتي تشهد بوجود عالم مستقل عن الوعى ، لا تعدو أن تكون ظواهر ، وهذا معناه أنها نسبية متوقفة على قدراتنا في المعرفة ، وأن هذه تعدلها على نطاق واسع ، وبالتالي فإن هذه الكيفيات عاجزة عن إظهار الواقع في ذاته . وهكذا ينتهى مذهب هاملتن آخر الأمر إلى الموقف القائل بأن العالم الخارجى ، من حيث هو عالم قابل للمعرفة ، لا يوجد مستقلا عن الذات العارفة .

ولطىء النظرية نتائج تؤدي إلى اللادورية ، التي تقترب في نواح عديدة من المذهب الكاكتى ، أو على الأصح من التفسير السائد لتعاليم كانت ، وهو التفسير الذى يهتم أكثر بما ينبغي بالعناصر الظاهرية Phenomenalist في نقد كانت للمعرفة ، ويتجاهل النتائج الميتافيزيقية التي ينطوى عليها . كما تؤدي هذه النظرية إلى رفض كل ميتافيزيقا ، وإلى التخلي عن أى نوع من المعرفة النظرية للبطلق ، أو على حد تعبير هاملتن في بحثه المشهور الصادر في ١٨٢٩ ، إلى رفض كل فلسفة للامشروط . غير أن هذا لا يرتبط عند هاملتن بعدم المبالاة بالمعتقدات الدينية أو العداء لها ، كما هي الحال عند سبنسر وهكسلى .

وغيرهما ، بل إنه ينطوى لديه على تأكيد أقوى لهذه المعتقدات . وهكذا فإن العقائد التي تعجز أمامها معرفتنا ، والتي هي عند هاملتن نهاية كل فلسفة ، هي أيضاً بداية اللاهوت . وعند ما يهيب هاملتن بالذهن أن يلتزم حدوده ، فإنه يحاول إعطاء الإيمان حقوقه الصحيحة — وهو إيمان يعتقد أن موضوعه الصحيح هو ذلك الذى يكون بطبيعته غير قابل للفهم . وهكذا فطالما كانت الفلسفة تلتزم حدودها وترفض الادعاءات الغريبة للعقل بأن لديه معرفة مطلقة ، فإنها تعد في رأيه المبرر الحقيقي للدين .

على أن مذهب هاملتن ، الذى لا نستطيع هنا أن نمضى فيه أبعد من ذلك ، يعاني من انعدام الاتساق الناجم عن محاولة إيجاد حد مشترك بين نظريتين بينهما من الاختلاف بقدر ما بين نظريتي ريد وكانت . ونتيجة ذلك أنه ، من جهة ، يضيف إلى حد بعيد النوايا الأصلية لريد ، ويفسر معاني كانت ، من جهة أخرى ، تفسيراً متحيزاً إلى أبعد حد . وهكذا كانت فلسفته في مجموعها محاولة للتوفيق لا تنصف أياً من الطرفين ، وبالتالي فهي تكشف عن ضعفها الباطن . ومع ذلك فليس لهذا تأثير في الأهمية التاريخية لفلسفة هاملتن وفي الأثر الذى أحدثته . فقد كان له ، مع كل هذا ، الفضل الأكبر في أنه كان أول فيلسوف أكاديمي مرموق يفتح ذهنه لتأثير الأفكار الألمانية ، وبالتالي يخطو خطوة حاسمة نحو إنهاء عزلة الفكر الإنجليزي . وتزداد أهمية هذه الخطوة إذا أدركنا أنها تمت على يد رجل كانت له خلال العقدين اللذين قضاهما في التدريس في إدنبرة مكانة في ميدان الفلسفة تفوق مكانة أى من معاصريه . فقد كان هاملتن ، بوصفه زعيماً للمدرسة الإسكتلندية ، أشبه بدكتاتور فلسفي لا تقف سلطته عند حدود دائرته الخاصة ، ويتبعه تلاميذه أتباعاً أعمى ، ويتمتع باحترام عظيم في أوساط تبعد كثيراً عن حدود مدرسته . وقد ظل طوال حياته محتفظاً بشهرته على ما هي عليه تقريباً ، ولم يظهر أى منافس حقيقي له

على النفوذ والسيطرة . ولم يكن أحد يجرؤ على مهاجمته ، إلى أن بدأ الهجوم على مذهبه من جهتين ، بعد تسع سنوات من وفاته . وقد أتى أشهر هذين الهجومين ، من جانب جون ستيوارت مل ، باسم المذهب التجريبي . ولقد أدى نقد مل هاملتن ، المتضمن في كتابه « اختبار لفلسفة السير وليام هاملتن » — An Examination of William Hamilton's Philosophy ( ١٨٦٥ ) — وهو نقد كان شاملاً ، ولكنه كان من نواح عديدة جائراً ومبنيًا على سوء فهم — أدى هذا النقد إلى النيل من مهابة الفلسفة الإسكتلندية ، وإلى الإضرار بسمعتها إلى حد أن حيويتها قد ظلت هابطة منذ ذلك الحين ، وأصبحت مهددة بالزوال . أما الهجوم الثاني ، الذي أسهم في تحقيق هذه النتيجة ، فقد حدث في نفس العام ، ومن مصدر مختلف تماماً ذلك لأن السير جون هتشيسون سترلنج John Hutchison Stirling ، الذي يمكن أن يقال عنه إنه أتى بالهيجلية إلى إنجلترا ، قد هاجم هاملتن ، معلناً احتجاجه على موقفه السلبي من المذاهب الكبرى التالية لكانت ، وذلك في كتاب له تأثير هائل ، هو : « سر هيجل the Secret of Hegel » ، وفي كتاب مستقل هو : « السير وليام هاملتن ، أو فلسفة الإدراك الحسى Sir William Hamilton, being the Philosophy of Perception ( ظهر الكتابان سنة ١٨٦٥ ) . وهكذا فإن الحركة المثالية ، التي سرعان ما أصبحت قوية ، قد ناصبت هاملتن العداء منذ البداية ، وأدت فيما بعد إلى تجاهل شبه تام لفلسفته . ولم يعد في الإمكان قبول تفسير هاملتن لمذهب كانت ، إذ لم يكن من الممكن التوفيق بينهما وبين اتجاهات هؤلاء المفكرين ، التي كانت هيجلية في أساسها ، بل إن هؤلاء المفكرين لم يعترفوا اعترافاً كافياً بفضل التاريخ حين أدخل أفكار كانت وغيره من الألمان . وهكذا ففي عام ١٨٦٥ كاد أن يتوقف الاتجاه الفكري الذي بدأ هاملتن والمدرسة الإسكتلندية ، إن لم يكن قد انتهى بالفعل .



ولقد كان أعظم تلاميذ هاملتن شهرة هو المفكر اللاهوتي هنري ل مانسل .  
 Henry L. Monse ( ١٨٢٠ - ١٨٧١ ) . وقد وُسم مانسل كاهنا ، ثم عين  
 محاضرا في اللاهوت في كلية «مودلن» ، وبعد ذلك عين أستاذا للتاريخ الكنسى  
 في أكسفورد ، وأخيرا عين أسقفا لكاتدرائية «سائت پول» ( القديس  
 بولس ) . وقد عمل مانسل على إدخال فلسفة هاملتن في إنجلترا ، ودرسها  
 ونشرها بحماسة ونجاح في جامعة أكسفورد . وقد ألف في البداية كتابين في  
 المنطق ، ثم كتب في الميتافيزيقا ، محاولا صياغة الأفكار الرئيسية في مذهب  
 هاملتن في صورة أدق وأكثر تنظيما مما كانت عليه لدى أستاذه ( وذلك في  
 بحث عنوانه « الميتافيزيقا أو فلسفة الوعي Metaphysics or the Phil. of  
 Consciousness » . وظهر أولا في عام ١٨٥٧ في الطبعة الثامنة لدائرة المعارف  
 البريطانية ، ثم ظهر بعد ذلك في صورة كتاب عام ١٨٦٠ ، ثم ألف بعد ذلك  
 « فلسفة الشروط Philosophy of the Conditioned » ، في ١٨٦٦ ، وفيه  
 حاول الدفاع عن هاملتن وعن نفسه ضد هجوم مل ) . غير أن أقوى كتاباته  
 تأثيراً كان « حدود الفكر الدينى The Limits of Religious Thought »  
 ( ١٨٥٨ ) ، وهو في الأصل محاضرات بامتون Bampton التي ألقاها  
 مانسل . وقد استلهم الكتاب الأنظار بقوة ، وأثار جدلا عنيفا ، وأذاع  
 شهرته على نطاق واسع . وترجع الأهمية الكبرى لهذه المحاضرات إلى أنها  
 أوضحت بجلاء موقف المدرسة من المسائل الدينية التي تركها هاملتن غامضة  
 رغم كثرة تلميحاته إليها . فاستخلص مانسل في هذه المحاضرات لأول مرة ،  
 وبوضوح تام ، النتائج اللاهوتية التي كانت مخفية في مذهب هاملتن المرتكز  
 على الظاهرية واللاأدرية . وحارل ، مستندا إلى مبدأ نسبية المعرفة ، أن يبين  
 أن جميع الجهود التي نبذلها لنكتشف بواسطة الفكر أى شئ عن الطبيعة  
 الإلهية المطلقة مآلها حتما إلى الفشل . فالطلق واللامتناهى بعيدان تماما عن

. متناول الذهن البشرى المتناهى . وكل محاولة للتفكير فى المطلق أو فهمه بأية وسيلة عقلية تؤدي إلى حشد من التناقض والتضارب لا قبل للعقل بحله .  
 . فالفكر عاجز تماماً فى موضوعات الإيمان ، وينبغى فى النهاية أن يعترف بإفلاسه . لذلك يعلن مانسل أن جميع الحجج النظرية ضد عقائد الدين غير صحيحة ، وبذلك يخلص نفسه بأسرع وأبسط طريقة من جميع أعداء الإيمان ومهاجميه . فلبس من مهمة العقل أن يتدخل فى الأمور المقدسة ، وليس هناك ما يدعونا إلى الأسف على ذلك . بل إن من واجبنا ، لصالح الدين ، أن نرحب كل الترحيب بعزوف العقل هذا . وهكذا يبنى مانسل كل معرفة لما فرق المحسوس على الوحي الإلهى . وتكون المهمة الوحيدة التى يتعين على العقل النقدي القيام بها عندما يقرر قبول التعاليم الدينية أو رفضها ، غير متعاقبة بمحتوى هذه التعاليم ، وإنما بالأدلة التى يمكن الإتيان بها للبرهنة على أن لها أصلاً إلهياً خصب . وهو فى هذا الصدد يعزو إلى الحججة الأخلاقية أهمية ثانوية إلى حد ما . وعلى الرغم من أن هذه الحججة عاجزة عن البت فى أمر حقيقة موحى بها ، فإن فى وسعنا أن نحصل ، من معايير القيمة الأخلاقية لدينا ، على شواهد مفيدة نستعين بها فى الحكم على الأفكار الدينية .

وهكذا كان الاتجاه الذى حول إليه مانسل نظرية المعرفة الكانتية ، أوغل فى باب اللاأدرية الشكاكى من الاتجاه الذى حولها إليه هاملتن ، كما أن الأول أخضع هذه النظرية لأغراض الدين الموحى به . وتم على يديه أقوى انفصال — منذ أيام بيكن — بين الإيمان والمعرفة ، وبين الدين والفلسفة ، وعادت الفكرة القديمة للقائلة : « أو من لأن موضوع إيمانى ممنوع عقلاً Credo quia absurdum » إلى مكاتها الأولى . وقد

أكتسب المذهب اللاأدرى عند سبنسر تأييداً حاسماً من هذه التعاليم ، وظهر هذا المذهب على أنه مجرد صبغ لهذه التعاليم بصبغة دنيوية تامة . فالشقة كانت تقريبة ما بين لاهوت الوحي عند مانسل ، وبين عدم اكتراث سبنسر بالدين . على أن الطريقة التي استمد بها أشد المذاهب تمسكاً بحرفية الدين أسلحة لنفسه من مدرسة هي من أشد مدارس الفكر تقدماً ، ثم عاد لحمل بها على الفكر ذاته حملة شعواء — هذه الطريقة كانت من الغرابة بحيث هوجمت بنقد قوى من جهات متباينة كل التباين . وقد أثار الجدل الذي احتدم نتيجة لمحاضرات مانسل المسماة بمحاضرات « بامتون Bampton » ، والذي اشترك فيه بنفس القوة فلاسفة ولاهوتيون (١) ، أثار عاصفة شديدة ، وعلى الرغم من أن النتائج التي أسفر عنها لم تكن ذات أهمية كبيرة ، فقد ازداد — إلى حد بعيد — اهتمام الجمهور بالمسائل التي كانت موضوع المناقشة ، وأصبح الجو مهادناً لتلك النهضة الملحوظة التي بلغت الدراسات الفلسفية بعد ذلك بوقت قصير .

وبعد هاملتن ومانسل ، انحدرت الفلسفة الإسكتلندية انحداراً شديداً . ولا يوجد ، ضمن أولئك الذين خرجوا من المدرسة أو انضموا إليها ، سوى أسماء قليلة هامة تمثل المذهب في صورته الخالصة . إذ يظهر ، حتى لدى جون د . مورل John D. Morell ( ١٨١٦ — ١٨٩١ ) ذلك الميل إلى التباعد عن التعاليم الأصلية للمدرسة ، وهو الميل الذي ازداد قوة بالتدريج في المستقبل . صحيح أن « مورل » ، كانت له جذور عميقة في تراث المدرسة الإسكتلندية ، التي تلقى فيها تعليمه الفلسفي الأول ، غير أنه تعرض لمؤثرات عديدة من مدارس فكرية أخرى ، وتأثر — بوجه خاص — بالمذاهب الألمانية

---

(١) كان من نقاد مانسل شخصيات شهيرة مثل جون استيوارت مل ، وتوماس هكسلي ، وف . و . موريس

التي عرفها لأول مرة خلال رحلة قام بها في ألمانيا وهو طالب . وقد كتب مورل ،  
الذي كان مثل هاملتن قارئاً ذا ذهن متفتح ، بعض المؤلفات في تاريخ  
الفلسفة ، منها كتابه : « نظرة تاريخية ونقدية إلى الفلسفة التأملية في أوروبا  
في القرن التاسع عشر Historical and Critical View of the Speculative  
Phil. of Europe in the XIX Century (١٨٤٦) وقد اكتسب هذا الكتاب  
- عن حق - اهتماماً كبيراً ، وأسهم في توسيع أفق الإنجليز الفلاسفة . كما ألف  
كتاباً في الأخلاق عن فشته ( ١٨٤٨ ) . غير أن مؤلفه الرئيسي هو « فلسفة  
الدين Phil. of Religion (١٨٤٨) الذي نستطيع أن نلح فيه تأثير شلير ماخر  
Schleiermacher و . ر . روت R. Rothe وله . كتاب آخر هو  
« مدخل إلى الفلسفة الذهنية باستخدام المنهج الاستقرائي Introduction to  
Mental Phil. on the Inductive Method نشر عام ١٨٦٢ .

وهناك مفكر آخر في مدرسة هاملتن ، هو جيمس ماكوش J. M'Cosh  
( ١٨١١ - ١٨٩٤ ) الذي كان غزير التأليف في الفلسفة ، وسافر إلى أمريكا  
عام ١٨٦٨ ، فنقل إليها فلسفة الموقف الطبيعي ( الإدراك المشترك ) ، ونجح في  
تحقيق شيء من الاعتراف بها . وقد ألف ماكوش كتاباً منهجية ، فضلاً عن  
كتابته لتاريخ كامل للفلسفة الإسكتلندية ( الفلسفة الإسكتلندية من هتشسون  
إلى هاملتن Scottish Phil. from Hutcheson to Hamilton (١٨٧٥) (١) .

---

(١) أود في هذا الصدد أن أحيل القارئ إلى ثبت المؤلفات الفلسفة الإسكتلندية سيصدره  
عما قريب الأستاذ [ ت . جيسب T.E. Jessop ] (لؤلؤف) .

صدر هذا الكتاب بالفعل سنة ١٩٣٨ ، بعنوان A Bibliography of David  
Hume and of Scottish Philosophers. London ( Brown ) ( الترجمة )

أما هنرى كالدروود Henry Calderwood (١٨٣٠ - ١٨٩٧) الذى كان فى البداية قسيساً إسكتلندياً ، ثم أصبح منذ عام ١٨٦٨ أستاذاً للفلسفة الأخلاقية فى إدنبرة ، فقد بدأ تليذاً لهاملتن ، ولكنه حتى فى كتابه الأول ( فلسفة اللامتناهى *Phil. of the Infinite* ، ١٨٥٤ ، والطبعة الثانية ١٨٦١ ) الذى نشره وهو مازال طالباً ، قد أظهر استقلالاً يدعو إلى الدهشة عن أستاذه الذى كان لا يزال حياً . فقد قدم فى هذا الكتاب نقداً عميقاً لمذهب هاملتن ، وكشف عن نقاط ضعفه بلا رحمة . وكان يرمى إلى إعادة مذهب الموقف الطبيعى إلى مكانته الأولى بفصله عن تلك العناصر اللاأدرية التى أقحمها فيه هاملتن وما قبل . وكان هدفه الأساسى هو تفنيد حجة هاملتن القائلة إن الذهن البشرى لما كان متناهيًا ، فإنه يعجز عن معرفة اللامتناهى . فقد بدأ له أن الدين الذى يشيد مذابح لإله مجهول لا يمكن أن يُعرف ، ويستبعد التفكير العقلى من مجاله ، لا يعدو أن يكون خرافة ، ولا ينطوى على تبجيل حقيقى للطبيعة الإلهية . وفى مقابل النسبية اللاأدرية ، التى كانت كامنة لدى هاملتن ، ولكنها أصبحت مبدأ فلسفياً أساسياً لأول مرة على يد مانسل ومبسنر ، عاد كالدروود إلى المذهب الحدسى الأصيل الذى قال به المذهب الإسكتلندى الأقدم عهداً . فلدينا بالله وعى مباشر بوصفه موجوداً شامل الحكمة والقوة والخير . وهذه المعرفة مستقلة عن جميع الاعتبارات العقلية ، وهى شقيقة مؤكدة ، ومن ثم فهى حدسية . كذلك قال كالدروود بمذهب حدسى بمائل فى الأخلاق ، عرضه فى كتاب ناجح هو ( الموجز فى الفلسفة الأخلاقية *Handbook of Moral Phil.* ١٨٧٢ ، الطبعة الرابعة عشرة فى ١٨٨٨ ) . ومع مهاجمته للنزعة الطبيعية ومذهب اللذة ، فقد أكد الحاجة إلى قانون مطلق السلوك وهدف مطلق له وهذا الهدف لم يكن فى رأيه السعادة ولا اللذة ،

ولأنما الاستخدام الكامل المنسجم لجميع القوى والمواهب حتى يمكن الوفاء بأغراضها الطبيعية .

وأخيراً ، ينبغي أن نلاحظ هذه الحقيقة . فالمذهب الإسكتلندي الذي كان مركز الحياة الفلسفية في إنجلترا في أواسط القرن التاسع عشر ، قد وجد نفسه في العقود التالية في مركز متدهور بالتدريج ، كما وقع تحت ضغط خصمين ، هما الداروينية والمثالية ، اللتان كان يتعين عليه الدفاع عن نفسه ضدّهما . وعلى حين أن فيتش Veitch ( أنظر أدناه ) قد أخذ على عاتقه الدفاع عنه ضد المثالية ، فقد تولى كالدروود مهمة الدفاع ضد الداروينية . ففى كتابه المنهجى الأخير ( « الداروينية ومركز الإنسان فى الطبيعة Darwinism and Man's Place in Nature » ، ١٨٩٣ ، وقد أعيدت كتابته بشكل كامل فى ١٨٩٦ ) ، دخل فى الجدل الذى احتدم حول المذاهب الداروينية التطورية ، ومع اعترافه بالقيمة الكبرى لنتائج الأبحاث البيولوجية الأخيرة ، فقد أدرك نقطة الضعف فى تطبيقها على المشاكل العامة للفلسفة . و انتهى إلى أن كون الإنسان منحدرأ من الحيوان هو أمر لا يمكن أن يفسر العناصر العقلية والأخلاقية فى طبيعته ، فاقترض وجود عقل عالٍ هو العلة المشتركة للتطور الأخلاقى والكونى معاً . وعلى هذا النحو حاول الدفاع عن الفلسفة الإسكتلندية التى قامت دائماً على الدين ، ضد هجمات النزعات المعادية للدين داخل المذهب الداروينى .

ونستطيع أن نقول أخيراً : إن « جون فيتش John Veitch » ( ١٨٢٩ — ١٨٩٤ ) كان آخر ممثل للدرسة الإسكتلندية ، بمعنى أنه كان آخر من التزم تعاليمها بإخلاص . وكان فيتش أستاذاً للبنطق والبلاغة بجامعة جلاسجو ، ومن المقرين كثيراً إلى هاملتن . وقد تتلمذ عليه بإخلاص ، ثم

(٢٧)

أصبح مساعداً له ، واشترك بعد وفاته في نشر محاضراته ، وألف ثلاثة كتب على الأقل في تخليد ذكراه وشرح تعاليمه ونشرها ( « ذكريات عن هاملتن H. Memoirs of H. » ، « وهاملتن ، في سلسلة هلاكوود للكلاسيكيات الفلسفية ، ١٨٧٩ ، وهاملتن : شخصيته وفلسفته H. the Man and his Philosophy ١٨٨٤ ) . وبكفينا هنا أن نذكر من مؤلفاته المستقلة بحثه في « المعرفة والوجود Knowledge & Being » (١٨٨٩) (وتوجد قائمة كاملة لمؤلفاته في كتاب نُشر بعد وفاته ، ونشره «ونلي R. M. Wenley ، وعنوانه « الثنائية والواحدية Dualism & Monism » ، ١٨٩٥ ، أنظر ص ٩ وما يليها في مقدمة ذلك الكتاب ) . وقد عرض فيتش في هذا الكتاب مذهبه الخاص ، واشتبك في خصومة دائمة مع النظريات المثالية لمدرسة كانت وهيغل ، وحاول فيه الدفاع عن المواقع الأخيرة للتراث الإسكتلندي ضد هجوم الحركة الفكرية الجديدة . غير أن فيتش كان يحارب في جهات خاسرة ، وفي سبيل قضية خاسرة ، ولا شيء يكشف الانهيار التام لهذه الجبهة التي كانت قوية وقتاً ما ، بمثل الوضوح الذي تكشفه به هذه المقاومة التي كانت تبديها قوات المؤخرة ، كما تبدى لدى هذا الممثل الأخير لتراث عظيم . فها يهيب المفكر ببساطة الموقف الطبيعي وسطحيته ضد الأفكار العميقة لكانت وهيغل ، ويحاول فيتش بنظريته الواقعية الفجة في المعرفة أن ينال من أعمال نقد العقل الخالص والتأمل النظري المثالي . وتنطوى واقعيته الساذجة على عود إلى ريد ، بل وإلى ما قبل ذلك ، وعلى الرغم من أنه قد تتلمذ في مدرسة هاملتن ، فإنه يفتقر تماماً إلى حذر هاملتن النقدي . كما أنه يفتقر إلى الفهم المتعاطف للبعى الحقيقي للمشاكل الجديدة ، ول مقتضيات حلها ، وهو فهم نصادفه لدى هاملتن ، على الرغم من مظاهر سوء الفهم العديدة لديه . وقد وجه فيتش انتقاداته ، في المحل الأول ، إلى نظرية العلاقات عند جرين ،

والى مذهبه فى الوعى الذاتى الأزلى . فقال ، ضد الأولى ، بواقعيته البسيطة  
الحشنة النسيج ( كقوله : إن الواقع الذى ندركه حسياً أو نعرفه يوجد خارج  
وعينا ، وهو مستقل عنه ، سواء عرفنا هذا الواقع أم لم نعرفه ؛ وهذه حقيقة  
ينبغي قبحها على أنها معطاة فحسب ) . وقال ، ضد المذهب الأخير ، بالآنا  
الفردى الواقعى ، وبالتحليل السيكولوجى محتواه . وقد ظل طوال ذلك  
يحارب بوسائل غير كافية ، ويقيس بميزان معيب ، وفى كل ذلك كان يكشف  
بمزيد من الوضوح عن الانهيار الكامل للفلسفة الإسكتلندية .

وعلى الرغم من أن آخر ممثلى المدرسة الإسكتلندية ( وهم مورل Morell  
وما كوش M' Cosh ، وتوماس سبنسر بينز T.S. Baynes ، وفيتش  
وكالدرود ) كانوا لا يزالون أحياء فى الأعوام العشرين الأخيرة من القرن  
الماضى ، فلا يمكن القول إن التراث الإسكتلندى قد ظل محفوظاً بانتظام  
بعد السنوات الأولى من العقد الثامن من ذلك القرن : إذ أن الفكر  
الإسكتلندى قد انحل بعد ذلك أو اندمج فى مدارس أقوى وأقرب إلى الطابع  
العصرى . وهو مازال يمارس تأثيره هنا وهناك ، ولكنه لم يعد يستطيع  
الوقوف على قدميه مستقلاً . وقد بدأ هذا الميل إلى التباعد عن الخط الأصيل  
للمدرسة حتى لدى مفكرين يمكن أن يعدوا أعضاء فى المدرسة . وانفصل  
غيرهم عنها فى وقت مبكر ، وساروا إما فى طريقهم الخاص ، أو انضموا  
إلى معسكرات أخرى . وهكذا اعترف « فرييه Ferrier » ، مثلاً بأنه قد تعلم  
من هاملتن أكثر مما تعلم من كل الفلاسفة الآخرين مجتمعين . غير أن تفكيره  
التالى قد سار فى اتجاه بعيد عنه ، وغرق فى خضم من التأملات النظرية  
العميقة ، ضمنها صراع حادّ ضد كانت وهيجل ( أنظر فيما بعد القسم الأول  
من الفصل الأول من الباب الثانى ) . وسار لورى Laurie ، بعد ذلك بمدة



طويلة ، في طريق مماثل ، إذ تباعد بدوره كثيراً عن أصله الإسكتلندي ، وكون نفسه اتجاهاً ميتافيزيقياً لا يكاد يشترك في شيء مع نقطة بدايته الفلسفية [أنظر فيما بعد القسم الثامن من الفصل الأول من الباب الثاني] . وعلى يد فريرز Fraser ، تلميذ هاملتن وخليفته في إدنبرة ، انحرف الاتجاه الإسكتلندي الأصلي في اتجاه فلسفة باركلي (أنظر فيما بعد للصفحات الأخيرة من الباب الأول) . غير أن بعض مبادئ الفلسفة الإسكتلندية قد انتقل إلى مذاهب فكرية لم تكن في الأصل مرتبطة بها . مثال ذلك أن النزعة الحدسية تتمثل في الأخلاق والفلسفة الدينية عند مارتينو Martineau ولدى فلاسفة « حركة أكسفورد » ( ج . هـ . نيومان Newman وو . ج . ورد Ward ) ، على حين ظهرت اللاأدرية من جديد ، كما هو معروف ، في المذهب التطوري عند سبنسر ، وإن كان هناك فارق بين الحالتين . وهناك أيضاً ارتباطات بين مذهب « مانسل » وبين مذهب الألوهية Theism عند بلفور Balfour . وهكذا تسلت الأفكار الإسكتلندية ، في هذه الحالات وغيرها ، إلى الفلسفة البريطانية في القرن التاسع عشر . وكانت أقل المذاهب تأثراً بها هي الاتجاهات الأشد محافظة في المذهب التجريبي ، نظراً إلى الفارق الشاسع بين الأفكار التي ينطوي عليها كل من الاتجاهين . ولكننا نستطيع أن نلمح - حتى في هذه الحالة - عناصر مشتركة تظهر من آن لآخر . ومن الجدير بالملاحظة أن جيمس مل قد تأثر في شبابه تأثراً قوياً « بدوجالد ستوارت » ، واستمد من محاضراته أول معلوماته في ميدان الفلسفة وعلم النفس .

ولقد كان من نتيجة التوسع الذي أحدثته هاملتن في الفلسفة الإسكتلندية القومية ، إن جاز استخدام هذا الاسم ، أن قُنع الطريق الذي كان مقدراً له

أن يؤدي بها إلى عبور حدود بلادها الأصلية والانضمام إلى التيار الضخم للفكر الأوروبي . وفي الوقت الذي كانت الفلسفة الإسكتلندية تسير فيه نحو نهايتها ، تمثل هذا التيار في بريطانيا في الحركة المثالية . ورغم أنه لم يحدث انتقال تاريخي فعلي من الأولى إلى الثانية ، فمن الممكن القول إن المثالية قد استوعبت وامتصت الفكر الإسكتلندي بعد أن أدى رسالته . وليس من قبيل المصادفة أن إحياء مذهب كانت وهيغل في العقدين السابع والثامن قد لقي من التشجيع في إسكتلندا أولاً ثم في الجامعات الإسكتلندية ما لم يلقه في أي مكان آخر ما عدا أكسفورد . وحسبنا أن نشير إلى المؤلفات الهيكلية للإسكتلندي سترلينج ، وتدريس « كيرد » Caird ، وهو إسكتلندي بدوره ، في جامعة جلاسجو . وإذا كان من قبيل المصادفة أن كتاب سترلينج الذي أحدث دويلاً هائلاً ( في ١٨٦٥ ) وتدريس « كيرد » ، الدقيق الواسع الانتشار في جلاسجو ( ابتداء من ١٨٦٦ ) — وكلاهما كان من أجل خدمة هيغل والحركة الجديدة — قد حدثا في نفس الوقت الذي بدأ فيه نجم هاملتن في الأفول ( إذ كان هجوم مل الحاسم عليه في عام ١٨٦٥ ) فإن لهذه المصادفة دلالة عميقة في تاريخ الفكر . وهكذا توطدت دعائم المذهب الهيكل في أواسط العقد السابع في إسكتلندا ، وتزايد ضغطها على الدوام من جلاسجو ، حيث اكتسبت مركزاً منيعاً ، على التراث الفلسفي الأصلي في البلاد ، ولم تستطع المدرسة القديمة أن تحتفظ بمواقعها مدة أطول كثيراً إلا في قلعة مذهب هاملتن ، أي في جامعة إدنبرة . وهناك تأخر الانحلال حتى العقد الأخير من القرن الماضي . ولما لم يكن هناك خلفاء متمون إلى المدرسة الإسكتلندية ، فقد انتقل كرسيها الأستاذية إلى أيدي الكنتيين المحدثين . فانتقل كرسي هاملتن ، الذي ظل فريزر يشغله حتى عام ١٨٩١ ، إلى « أندروست Andrew Seth » ( برنجل باتسون Pringle - Pattison )

في ذلك العام نفسه ، كما انتقل كرسى دوجالد سيتوارت ، الذي كان كالدرود آخر من شغله ، إلى شقيق أندرو ست ، وهو جيمس ست . وهكذا جَلَسَت الفلسفة الإسكتلندية عن آخر معاقلها الأكاديمية ، متخلية عنها للمدرسة الجديدة ، ومُحِيت آثارها تماما . أما الأفكار القليلة التي ساهمت بها في القرن الجديد فلا ترتبط بها على الدوام ، وإنما هي عود غير منتظم تارة إلى هذا المبدأ من مبادئها وتارة إلى ذلك ، مع إشار ريد على هاملتن في هذه الحالة . فآثار تعاليم المدرسة الإسكتلندية ومؤسسيها ، تظهر بوضوح حيثما يُهاب بالذهن البشرى السليم بما فيه من يقينيات واعتقادات حدسية ، ويُعترف بأنه المعيار الحاسم للحقيقة ، وحيثما تسعى المعرفة إلى تحرير نفسها من تدقيقات الأذهان الشكاكة المفرطة في نقديتها ، وتلجأ إلى الوسائل المباشرة للواقعية الطبيعية . ولما كانت هذه الآراء تتمثل لدى مفكرين من المدرسة الواقعية الجديدة أكثر مما تتمثل لدى أية مدرسة أخرى ( وهي تتضح بأوضح صورها لدى ويلسون J. C. Wilson وستوت G. F. Stout ومور G. E. Moore وليرد J. Laird وجود C. E. Joad فإن معنى ذلك أن من واجبنا البحث عن الآثار القليلة الباقية من المدرسة الإسكتلندية في الواقعية الجديدة قبل كل شيء .

## الفصل الثاني

### المدرسة النفعية التجريبية

سار الخط الرئيسى للفلسفة الإنجليزية فى طريق متصل منطوق على ذاته نسبياً ، منذ عصر النهضة حتى يومنا هذا . ويسمى هذا الخط الفكرى الرئيسى عادة باسم المذهب التجريبى empiricism أو فلسفة التجربة phil. of experience . ولهذا المذهب من الحق أكثر مما لآى مذهب آخر فى إرجاع أصله إلى تراث طويل ، وهو لم يتغلغل فى أى بلد بنفس العمق والتأصل الذى تغلغل به فى الجزر البريطانية . وعلى ذلك فى وسعنا أن نسمى هذه المدرسة بالمدرسة الوطنية أو القومية ، وعلى الرغم من أننا لو وحدنا بينها وبين الفكر الإنجليزى لكان فى ذلك سوء تفسير واضح للحقائق ، فهناك مبررات للقول بأنها أكثر المدارس تمثيلاً لهذا الفكر . وعلى أية حال فنحن هنا لسنا إزاء مدرسة اخترعها مؤرخو الفلسفة ، بل إن ما نحن إزاءه هنا هو الوجود الفعلى لفكرة رئيسية واحدة وموقف فكرى واحد ، تتمثل لنا ، رغم تنوع أطرافها الهائل ، ورغم المشاكل الجانبية والاتجاهات الفرعية ، فى كلى ، له فى أساسه طابع موحد . فالخط الفلسفى الذى يمتد من يكن وهيز إلى لوك وباركلى وهيوم ، ثم إلى بنتام ومل وسبنسر ، هذا الخط يتضمن مجموعة كبيرة من المبادئ المتماثلة المنسجمة التى تتخذ مظهراً مختلفاً تبعاً لوجهة النظر التى تأملها منها ، ولكنها تقف دائماً على علاقة بنفس المجموع الكلى . فإذا أردنا أن نهتدى إلى ألفاظ مناسبة لهذا المجموع فى أوجهه الرئيسية ، فينبغى أن نختار اسم المذهب التجريبى أو الوضعى لنبين اتجاهه الفلسفى الرئيسى ، واسم

( ٤٣ )

المذهب الحسى أو الظاهرى فيما يتعلق بنظريته فى المعرفة ، ومذهب التداعى للدلالة على اتجاهه فى علم النفس ، ومذهب اللذة hedonism أو السعادة eudaemonism أو المنفعة utilitarianism للتعبير عن اتجاهه الأخلاقى ، ومذهب الشك أو اللا أدريّة للدلالة على موقفه الميتافيزيقى ، ومذهب الإلهية الطبيعية deism أو الحيادية indifferentism ( وأحياناً الإلحادية أيضاً ) فى الدين ، ومذهب الحرّين ( الليبرالية ) Liberalism فى السياسة .

وقد بلغ المذهب التجريبي الكلاسيكى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر - الذى نميزه من خليفته الطبعى ، المذهب التجريبي الحديث فى القرن التاسع عشر - بلغ هذا المذهب أوجّه فى فلسفة هيوم ، وتوقف مؤقتاً عندما . وكان التوقف مؤقتاً لأن هيوم لم يخلف وراءه أى تراث من التعاليم الواضحة المنظمة التى كان تلاميذه وخلفاؤه يستطيعون الأخذ بها لتوسيعها ، بل إن ما خلفه هو زعزعة كاملة للبادئ الفلسفية وهدم تام لها ، نجم عنه القضاء على كل إمكانية للتعليم المتقيد به ، وحال دون أى استمرار مباشر لمذهبه أو أى تدريس فلسفى قريب منه . وهنا يكمن المعنى الحقيقى لما يسمى - من باب التركيز - باسم مذهب الشك عند هيوم . نخط المذهب التجريبي الإنجليزى يسير فى عمومته فى اتجاه مستقيم إلى الأمام وعلى نحو متصل ، حتى يبلغ أعلى مستوى له عند هيوم ؛ وعندئذ ينحرف وينقطع ، ولا يتحرك إلى الأمام ثانية حتى يتلقى دفعة جديدة من الأفكار . ويحدث انقطاع الاتصال فى نفس الموضع الذى انفصل فيه المذهب التجريبي الكلاسيكى عن نظيره الحديث ويتجدد ولكن على صورة مختلفة . ويتحدد الانقطاع تاريخياً بالهجوم المضاد الذى شنّه ريد والفلسفة الإسكتلندية على هيوم ؛ أما الأفكار الواردة الجديدة فتتمثل فى فلسفة بنتام .

ومن المهم أن يكشف المرء بوضوح عن هذه الارتباطات التاريخية :  
 فالمدرسة المتأخرة لا ترتبط مباشرة بالمتقدمة ، بل إن بينهما انفصالا وفراغاً  
 تملؤه المدرسة الإسكتلندية . ذلك لأن هجوم ريد ، والحركة الإسكتلندية  
 التي أصفر عنها ، قد أدى إلى إصابة التجريبية التقليدية بضربة قاصمة ، كان لابد  
 من مضي وقت طويل قبل أن تفيق منها . وقد انقضت العشرات الأولى من  
 القرن التاسع عشر في صراع بين هذه المذاهب المتنافسة ، ظل محتدماً حتى  
 انتهاء الهجوم المشهور الذي شنه جون ستيوارت مل على هاملتن عام ١٨٦٥ .  
 وفي هذا النزاع الحاسم خرج المذهب التجريبي منتصراً . وإن المعركة الفكرية  
 بين مل وهاملتن لتناظر بكل دقة ، من الوجهة التاريخية ، المعركة بين ريد  
 وهيوم . غير أن التفوق في الأسلحة كان في هذه المرة من نصيب المذهب  
 التجريبي ، الذي كان قد اكتسب قوة جديدة ، وطرد خصمه الإسكتلندي  
 نهائياً من الميدان هذه المرة . وقد أثبت المذهب التجريبي ، بإعادته لتراثه إلى  
 مكانته القديمة ، ومساهمته بأفكار ومبادئ فكرية جديدة ، أنه هو الاتجاه  
 الفلسفي الأقوى والأقدر على البقاء . وهكذا كان التنافس بين المدرستين ،  
 وصراعهما على السيطرة ، هو العنصر الهام المتصل في الفكر الإنجليزى منذ  
 أواسط القرن الثامن عشر حتى أواسط القرن التاسع عشر ؛ ومن الجدير  
 بالملاحظة أن الفترة التي استغرقها هذا الصراع كانت قرناً بالضبط ، منذ هجوم  
 ريد الأول على هيوم في سنة ١٧٦٤ حتى هجوم مل الأخير على هاملتن  
 في ١٨٦٥ . فهاتان السنتان تمثلان إذن نقطتي الذروة في الصراع ، على حين  
 أن الفترة الواقعة بينهما تتميز بمنازلات ومناوشات أقل أهمية ، وبفترات  
 هدنة وإيقاف للقتال أيضاً ، وإن كان ذلك يقترن أيضاً بتوتر ظاهر أو خفي .  
 وعلى قدر ما كان من أهمية تاريخية للمذهب التجريبي الحديث ، كما يتمثل .

في المؤلفات الرئيسية التي كتبت منذ عهد بنجامين حتى مل الأصغر ، فقد أثبت أيضاً أنه حركة عقلية لها مكانتها الرفيعة وتأثيرها الهائل . فهو لم يقتصر على أن يكون المحور الذي يدور حوله التقدم الخاص في الفلسفة ، بل لقد امتد تأثيره ، أكثر من أية حركة أخرى في ذلك العصر ، إلى ميادين الأدب والثقافة والسياسة والقانون والإصلاح الاجتماعي والتعليم ، وسيطر على هذه المجالات وشكلها بصورته وطبعها بطابعه الخاص . ولم يكن مصدر نموه هو مدرجات الطلاب أو قاعات الدرس بقدر ما كان هو ضرورات الحياة الملحة والصراع اليومي المتقلب في سبيل العيش . ولم يكن الاهتمام به مقتصراً على العلماء أو الإخصائيين ، ولا كانت حدوده تنحصر في الدوائر الأكاديمية والعلمية ، كما هي الحال في الفلسفة الإسكتلندية وغيرها من المدارس في ذلك القرن . ويتضح ذلك ، خارجياً ، إذا أدركنا أن ممثليه الرئيسيين لم يكونوا من أصحاب كراسي الأستاذية أو غيرها من المناصب الأكاديمية ، بل كان معظمهم من أصحاب المهن العملية . فقد نما منذ البداية بين مختلف مهام الحياة وظروفها العملية ، وكان هذا الطابع العملي الواضح الذي تميز به كفيلاً بأن يضمن له تأثيراً أوسع وأعمق مما تكتسبه الأفكار والحركات الفلسفية عادة . وهكذا استوعب في داخله تراث أسلافه الكلاسيكيين ، مع توسيع نطاقه والنهوض به والتعمق في أغوار أعمق في مختلف مجالات الحياة . فهو ليس فقط المرآة التي تجمع وتعكس أشعة الفكر والشعور القومي الإنجليزي ، بل إنه ، مع الأدب والشعر ، القالب الرئيسي الذي تتشكل به الروح الإنجليزية . والامر الذي لا نكاد نجد له نظيراً إلا في هذه الحالة ، هو أنه يفتح للفلسفة طريقاً تؤثر به في السياسة والقانون والبرلمان والتشريع والتعليم . وهو يسهم إسهاماً إيجابياً في حل المشكلات الملحة في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والجنائية وغيرها من الميادين العملية . وهو في كل ذلك خليفة مخلص لعصر التنوير ،

ينفر تماماً من اتخاذ التأمل الخالص مثلاً أعلى ، ويضع نفسه تماماً في خدمة الميدان العملي ، حتى عندما يتخذ نشاطه طابعاً نظرياً . فهو يرجو أن في كل شيء ، على الرغم من أنه لم يكتشف الصيغة الفلسفية المعبرة عن طابعه الأساسي ..

ونستطيع أن نتأمل المذهب التجريبي في ضوء آخر إذا ما تساءلنا عن قيمته الفلسفية الكامنة ، ونقارنه ، على هذا الأساس ، بالمذهب التجريبي الكلاسيكي السابق عليه . وهنا نجد أن المقارنة ، كما هو متوقع ، ليست في صالحه ، على الرغم من أن الدراسة المنزهة عن التحامل كفيلة بأن تجعلنا نصدر عليه حكماً أفضل مما يعزى إليه عادة . إذ ليس ثمة شك في أن الفلسفة التجريبية قد باغت قمة نموها النظري لدى الثلاثي المؤلف من لوك وباركلي وهيوم ، بحيث سار التطور التالي ، في هذا الصدد ، في اتجاه نزولي . ولم يقتصر المذهب التجريبي ، في فترة الكلاسيكية ، على إرساء دعائمه الأساسية ، بل إنه قد استنفد إمكانياته التأملية في جميع المجالات الرئيسية . ولم يكن في استطاعة القرن التاسع عشر أن يحرز أى تقدم هام يغير به إطار المذهب التقليدي . وإلى هذا الحد يكون المذهب التجريبي المتأخر بالفعل من عمل مفكرين من مستوى أدنى بكثير من أسلافهم ، ويفتقر إلى كل ما يتميز به الفكر الخلاق من قوة وأصالة حقيقية . غير أن رجال ذلك الجيل الفلسفي ، وإن كانوا أقل مرتبة من أسلافهم ، لم يكونوا مجرد شراح أو مقلدين ، ولم يكونوا طفيليات تعيش على ثروة موروثه وتستهلكها ، وإنما كرسوا أنفسهم لتدبير شئون ميراثهم بدقة ونجاح ، واستطاعوا إضافة أرباح إلى رأسمالهم الموروث . وهكذا ، فعلى الرغم من أنه لم تتحقق نتائج نظرية هامة ، فقد خلقت قيم إيجابية جديدة هامة . وتمثل هذه ، قبل كل شيء ، في إحراز تقدم في تمييز المشكلات وتفريعها ، وفي تحسين مناهج البحث ، وأخيراً ، في إحداث ..



توسيع وإثراء ضخيم في المادة التجريبية ، وفتح ميادين جديدة للبحث . . .  
وقد أصبحت هذه المرحلة المتأخرة للحركة التجريبية ، للدراسة الأولى ،  
متعطشة إلى التجربة بالمعنى الصحيح للكلمة . فجمعت بحماسة بمجوعات ضخمة  
من المواد الجديدة ، ورتبتها وصنفتها وبوبتها ونظمتها ، أى أنها حاولت  
بالاختصار أن تفهمها وتعالجها فلسفياً . ولكن الفلسفة عندما تسلم قيادها  
للتجربة إلى هذا الحد ، تتعرض لخطر الخضوع لسيطرة التجربة بدلا من  
إخضاعها لسيطرتها . وهكذا تزداد ابتعاداً عن المشكلات المركزية ، وينحرف  
اهتمامها الرئيسى إلى مسائل هامشية . ويتمثل ذلك في فتور الدافع الصحيح إلى  
التأمل ، وفي التخلي عن فكرة المذهب البناء ، وفي اتخاذ موقف سلبي من  
مشكلات الميتافيزيقا ، وتحويل نظرية المعرفة إلى علم النفس ، والمنطق إلى مناهج  
البحث ، وفي إعطاء الأولوية للفعل . وهكذا تعد التجريبية المحدثه حركة تهتم  
بالكم أكثر من الكيف ، وبالاتساع أكثر من العمق . وعلى الرغم من أن هذه في  
مجموعها عيوب ، فإنها ميزة بمعنى من المعاني : إذ أنها أدت خدمة ضخمة في  
استيعاب المعلومات الجديدة والسيطرة على مجالات البحث الجديدة . كما أننا  
ندين للقرن التاسع عشر بظهور نظام محكم للمنطق التجريبي ، على حين أن  
الفترة الكلاسيكية لم تنتج إلا اقتراحات قليلة ، تقترن بنظرية عامة في العلم  
ومبحث منهجي في المعرفة كاد أن يُتجاهل تماما حتى ذلك الحين . كذلك  
تحقق في الأخلاق بدورها ، لأول مرة في ذلك الحين ، تنظيم دقيق للمادة  
التي كان المذهب الأخلاقي الأسبق قد توصل إليها من قبل ، ولكنه لم يضعها  
قط في قالب ثابت متماسك . وهذا يصدق أيضا ، بدرجة أقل ، على علم  
للنفس ، بينما يدل النشاط الذي بذل في ميدان نظرية المعرفة على تأخر  
مؤكد بالنسبة إلى ما كانت عليه الحال من قبل . ومن جهة أخرى اكتشفت .

أرض جديدة في مجالات القانون والسياسة والحياة الاجتماعية والتعليم وغيرها من المجالات المنتمية إلى الميدان العملي .

وإذا طرحنا جانباً المدرسة التطورية ، التي سنتحدث عنها في الفصل المقبل ، فإن الشخصيات الرئيسية في المذهب التجريبي الحديث هي بنتام وجيمس مل وجون ستوارت مل . وقد حمل هؤلاء المفكرون الثلاثة العبء الرئيسي في الحركة ؛ وفيهم يتمثل المظهر الحديث للتراث التجريبي الإنجليزى في أفضل وأعمق صورته . وعلى الرغم من أن جريمى بنتام Jeremy Bentham ( ١٧٤٨ - ١٨٣٢ ) مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقرن الثامن عشر ، سواء من حيث تعليمه العقلي ونشاطه الإنتاجى ، فإنه ، فيما يتعلق بتأثيره الفلسفى ، ينتمى إلى القرن التاسع عشر . ويمكننا أن نرى فيه الممثل الأول لما نسميه بالمذهب التجريبي المحدث . وينحصر نشاطه ، فى المحل الأول ، فى ميدان الفلسفة العملية ، وذلك أولاً فى الأخلاق ، ثم فى جميع مجالات الدراسة المبنية على الأخلاق ، كالسياسة والإصلاح الاجتماعى والتشريع والفقه القانونى ( ولا سيما القانون الجنائى ) والقانون الدولى والتعليم . وفى جميع هذه المجالات كان مجدداً ثورياً ، وقد اكتسب منه الفكر الإنجليزى فى القرن التاسع عشر من الخصوبة والعمق أكثر مما اكتسب من أى مفكر آخر ، وتأثر به بقوة تفوق تأثره بأى شخص غيره . وهو هنا يواصل ويمحي تلك الآراء الديمقراطية المنحرفة والنفعية التى بدأها لوك ، التى سيطرت على ذلك القرن . ولم يكن لمذهب أى فيلسوف آخر مثل ما كان لمذهبه من اتساع نطاق التأثير ، أو من النتائج العملية الهامة . وكان بلا شك أشد الأرواح فى عصره وبلاده تحرراً ، ولم يكن أمام أية سلطة أو أى تراث ، فحرر نفسه من جميع قيود الدولة والكنيسة والدستور والقانون التقليدى ،

بومن الأخطاء المتأصلة والعادات الراسخة . وكان أعظم متشكك في ثبات النظام السائد للأشياء ، سواء في المذاهب والنظم الاجتماعية ، وأجراً ثائر على القيم التقليدية ، وأقصى ناقد للتقاليد السائدة ؛ وبالاختصار ، فقد كان هو الفيلسوف المجدد Radical ، أو المجدد الفلسفي كما أسماه معاصروه . وهو مؤسس مذهبية ( أيديولوجية ) سياسية واجتماعية جديدة ، تقترب في فواح عدة من تلك التي ابتدعها كارل ماركس فيما بعد ، ويمكن أن يقال إنها استبقتها ، وإن كانت قد بنيت على افتراضات منطقية مختلفة تماماً ، كما أنها تفوقها كثيراً في اتساع نطاق الروح الشعبية التي ارتكزت عليها . وعلى الرغم من أن أفكاره قد نظمت في مذهب محدد دقيق ، فإنها لم تكن ترمى أبداً إلى مجرد التعليم ، وإنما إلى هدف عملي هو تغيير النظام القائم للأشياء وتحسينه . وإذا وجدت هذه الأفكار لها أرضاً خصبة واسعة ، فقد تعلق بها معاصروه بترحيب وحماسة . والواقع أن تعاليم بنتام كانت أشبه بالمغناطيس القوي في جذبها لكل ما هو شائع بين المفكرين الأحرار التقدميين في إنجلترا في ذلك الوقت . وهكذا ظهرت لأول مرة على الأرض البريطانية مدرسة طموحة للتعليم الفلسفي ، كان الفضل في إنشائها يرجع إلى اجتهاد التلاميذ أكثر مما يرجع إلى أي اهتمام خاص الأستاذ . وكانت الحالتان الوحيدتان اللتان تشبهانهما هما : تلك الجهود الأضعف كثيراً ، التي بذلها في اتجاه مماثل مفكرو القرن السابع عشر الذين كونوا مدرسة كيمبردج ، ثم تلك الجهود التي بذلها المفكرون الذين اتفوا حول ريد فيما بعد . ففي مدرسة بنتام اقتبس عدد من التلاميذ المجتهدين المخلصين آراء الأستاذ وعلقوا عليها بواذاعوها في اتجاهات عديدة مختلفة . وأخيراً وُضع من هذه الآراء برنامج

سياسي ، وأنشئ حزب سياسي ( عرف باسم حزب « المجتدين الفلسفيين » ) لتنفيذ هذه الآراء ، مع إنشاء صحيفة أدبية لنشر هذه الآراء . وبذلك تحول المذهب إلى دعوة ، بل لقد دخل البرلمان ، وهو المكان الملائم لتحويل الأفكار إلى حقائق واقعة . أما بنتام ذاته فلم يظهر أمام الجمهور ، وإنما عاش في عزلة هادئة عاكفا على تحسين مذهبه ، وترك لتلاميذه كل ما عدا ذلك من الأمور . وليس من السهل أن نحدد بدقة كم من أفكاره تحقق على هذا النحو بفضل الإصلاحات التشريعية الضخمة التي تمت في العقد الرابع من القرن التاسع عشر . غير أن من الأمور التي يشيع الاعتراف بها اليوم أن روح أفكاره قد تغلغلت فيها ، وأسهمت في تحقيقها بنصيب كبير .

ويظهر بنتام في تاريخ الفلسفة على أنه واضح ومؤسس مذهب المنفعة في الأخلاق . غير أنه قطعاً ليس أول القائلين بالمنفعة بوصفها مبدأ أخلاقياً . فهذا المبدأ متغلغل في التعاليم الأخلاقية الإنجليزية والفرنسية في عصر التنوير . وهو يتخذ فيها أحيانا صبغة واضحة ويطبق من آن لآخر . أما بنتام فقد تلقى فجأة ما يشبه الوحي الجديد الذي أضاع تفكيره كيرق خاطف عندما قرأ المجلد الثالث من كتاب هيوم وبحث في الطبيعة البشرية Treatise Of Human Nature ، وكما يقول بنتام ذاته ، فقد ارتفعت الغشاوة عن عينيه عندما تكشفت له لأول مرة الأهمية الكبرى لفكرة المنفعة في السلوك البشري . وفي هذه اللحظة الخلاقة تم تشييد الجسر الذي يصل بين التراث الكلاسيكي وبين فترة إحيائه الحديثة . ولقد كانت أعظم خدمة تاريخية أداها بنتام هي أنه آمن بهذه الفكرة إيمانا راسخا ، واتخذ منها مبدأ أساسيا لتفكيره ودعامة رئيسية لمذهبه ، وشيد هذا المذهب بجد ومثابرة هائلين ، وأمدّه

بثروة ضخمة من المادة التجريبية . ولا يكاد المرء يجد ، مثلاً لآى مذهب  
 فكرى آخر قام واضعه بتنظيم مبدأ واحد فيه ودعمه بهذا الحشد الهائل من  
 التجارب كما يجد لدى بنتام . ذلك لأن الكمية الضخمة من المادة التجريبية ،  
 التى أدرجها تحت مبادئه النظرى الرئيسى ، لم تكن هى وحدها التى اكتسبت  
 من التجربة ، بل لقد كان المبدأ ذاته مكتسباً من التجربة . وهنا نستطيع أن  
 ندرك التضاد الواضح بين هذا المذهب وبين آراء المدرسة الإسكتلندية التى  
 كانت خصماً تاريخياً لها . فهناك من جهة مبادئ أولية فطرية فى الطبيعة  
 البشرية ، وهى مبادئ تؤكد المعرفة الحدسية وضوحها المباشر ، وعليها  
 ترتكز أحكامنا فى القيم . وهناك من جهة أخرى تلك لفكرة البسيطة  
 التى تؤكد أنها تجارب لا حصر لها ، ويمكن تحقيقها فى أية لحظة ، وهى  
 القائلة بأن كل سلوك بشرى يحدده ويملؤه السعى إلى اكتساب اللذة وتجنب  
 الألم . وليس فى وسعنا فى هذا المجال أن نتحدث بالتفصيل عن الطريقة التى  
 انتقل بها بنتام من هذا المبدأ البسيط حتى وصل إلى التطبيق الشامل لمبدأ  
 المنفعة ، ومنه إلى صيغته الأخلاقية المشهورة القائلة بأكبر قدر من السعادة  
 لأكبر عدد من الناس ، وكيف انتقل إلى وصف الحياة الأخلاقية بأسرها ،  
 ومنه إلى إقامة توازن بين اللذة والألم فى السلوك البشرى ، أو إلى ما يسمى  
 بحساب اللذات Hedonistic Calculus ، وكيف طبق هذه الأفكار  
 على أشد مجالات الحياة العملية تبايناً ، ولا سيما السياسة والإصلاح  
 الاجتماعى . وحسبنا أن نذكر أنه حاول رد مجال السلوك البشرى بأسره  
 ( الفردى منه والاجتماعى ) إلى مبدأ سائد واحد شامل لكل شيء ، يطبق  
 باتساق صارم وتجاهل قاس للحجج المضادة . وعلى هذا النحو حاول جمع  
 الكثرة المحيرة للظواهر الأخلاقية فى نظرة عقلية واحدة ، وإخضاعها

فذهب بحكم البناء . وهكذا ارتفعت الأخلاق عنده لأول مرة ( ومعها المجالات العملية الأخرى للدراسة ) إلى مرتبة العلم الدقيق ، وأضيفت كالعلم الطبيعي ، إلى مجال البحث الدقيق . وتتوقف عظمة هذه النظرة ، والقدرة على تنفيذها عملياً ، على العزل الجريء لوجه محدود منفصل ، مع تجاهل مترفع لكل الأوجه الباقية . وهكذا اقتطع بنتام ، من مجال معقد عديد الأبعاد ، سطحاً واحداً ، وقدمه إلينا بكل مظاهر البحث العلمي الدقيق . وتحقق ذلك بجعل مبدأ المنفعة أهم العوامل وإخضاع الحياة الأخلاقية بأسرها لعنصر الكم تماماً . وهكذا أزيلت عن الأخلاق كل العناصر الكيفية ، وكذلك جميع الشروط الميتافيزيقية والدينية وغيرها ، بل لقد سعى بنتام إلى الاستغناء عن الأساس النفسي الذي كان باحثو الأخلاق الإنجليز من قبله ومن بعده يرونه ضرورة لا غناء عنها .

ولقد تأثر التطور التالي للفكر الإنجليزى ، سواء خلال حياة بنتام أو بعدها ، تأثراً تاماً بمذهب المنفعة في قوته وإحكامه وبنائه المنطقي السليم . ولكن كان من المحتم أن ينحدر هذا المذهب ، الذي ادعى أنه نهائى ، إلى مرتبة القطعية الجازمة ، وأن يكبل كل الأذهان التى تقع تحت تأثيره بدلا من أن يحررها . وإذا استثنينا أتباع المدرسة الإسكتلندية وعدداً قليلاً من المفكرين الثانويين وأصحاب الآراء الشاذة ، فقد ظل مذهب المنفعة وقتاً طويلاً يفخر بولاء إجماعى له من الفلاسفة والمشتغلين بالفلسفة من الإنجليز . وبدأ هنا أن المشكلات الكبرى فى الحياة والفكر قد حُلّت أخيراً ، ولم يعد هناك مجال للتطور الحر للقدرات الفلسفية ، إلا إذا كان ذلك من أجل التوسع فى المبدأ الأساسى بمزيد من الدقة والتفصيل ، وتطبيقه على مجالات أوسع . وفى مجال الفلسفة الأخلاقية بدا أن بنتام قد قال الكلمة الأخيرة ، ولما كان قد تخلى نهائياً عن المشاكل الميتافيزيقية والدينية ، فقد بدا أن

أجنحة التأمل النظرى قد أصبحت مهيضة . وهكذا أصبح التمسك الصارم بالمبدأ ، وهو التمسك السائد فى مدرسة بنتام ، هو أقوى العقبات فى وجه التقدم الفلسفى .

وينبغى أن نذكر ، من بين معاصرى بنتام الذين أسهبوا بأدوار مستقلة ، وساروا فى طريق الفكر النغمى دون أن يلتزموا مباشرة باقتفاء أثره ، أسماء جودون Godwin ومالثوس Malthus وريكاردو Ricardo . وهؤلاء الثلاثة معاً لا ينتمون إلى الحركة الفلسفية بالمعنى الصحيح بقدر ما ينتمون إلى البيئة الروحية التى تستمد غذاءها من الفلسفة ، وبالتالى تزيد الفلسفة ثراء . أما وليام جودون ( ١٧٥٦ - ١٨٣٦ ) ، الذى سنذكر هنا كتاباً رئيسياً من كتبه كانت له شهرة وأهمية فائقة ، هو بحث فى العدالة السياسية An Enquiry Concerning Political Justice ( ١٧٩٣ ) ، فقد كان أعنف وأقوى هجوماً على النظام الاجتماعى القائم من بنتام ذاته . وقد تأثر مباشرة بموجة الثورة الفرنسية ، وهو أول مفكر إنجليزى ذى مذهب ثورى . وهو بدوره يرى فى اللذة والسعادة دوافع للسلوك البشرى ، ويدعو مثل بنتام إلى تحصيل أكبر قدر منها للوصول إلى الحالة المثلى التى ينشد لها المجتمع . وهو يرى أن العقل ، الذى يضفى عليه اسمى الحقوق ، هو المرشد الوحيد للإنسان ومحرره من الاضطهاد السياسى والاستعباد الدينى . ولقد استمد من التراث الروحى لعصر التنوير والثورة الفرنسية عناصر كثيرة ، منها إيمانه المتعصب بالتقدم ، وفوضويته ، وحماسته ضد الكهنوت وكل من يموتهون على الناس ، وحله الإنسانى العالمى بالسعادة البشرية ، وتأليهه للعقل ، وهجومه على النظم الاجتماعية والأفكار الأخلاقية الشائعة . وقد استطاع التوفيق بين مبادئ عصر التنوير ومبادئ الثورة الفرنسية فى مذهب فكرى واحد ، ولما كان قد عرض هذه الأفكار بحماسة دافقة ، فقد هز

عقول الناس بقوة هائلة ، ولا سيما عقول الشعراء الرومانتيكيين . وهكذا وقع في حبال إغراء مذهب جودون شعراء مثل كولردج ووردزورث وسَدي Southey وشلي وكثير غيرهم ، ووجدوا لزاماً عليهم أن يحددوا موقفهم منه ، فأنهى بعضهم إلى التحرر منه ، وانتهى البعض الآخر إلى الإغراق فيه .

ولقد أخذ توماس ر . مالتوس Thomas R. Malthus ( ١٧٦٦ -

١٨٢٤ ) على عاتقه مهمة مهاجمة آراء جودون بما فيها من آمنيات مبالغ فيها عن مستقبل البشرية ، وذلك في كتاب مالتوس المشهور والمفرد في غرابته : « بحث في نظرية السكان Essay on the Principle of Populations » ( وقد نشر لأول مرة عام ١٧٩٨ ) . فأعاد الأمور في هذا الكتاب إلى نطاق الواقع المرير . فقد كانت نظريته في السكان ، التي أثارت بمجرد ظهورها عاصفة من الاستنكار وسبلا من الردود ، موجهة أولاً ضد وهم التقدم والاعتقاد بازدياد كمال الإنسان والمجتمع على الدوام ، وهو الاعتقاد المميز لعصر التنوير . وكانت ترمى إلى إثبات أن مشكلة السكان تكشف لنا عن قانون صارم يهدم أحلام السعادة هذه ، هو القانون القائل : إن السكان يتزايدون بمعدل يفوق كثيراً معدل نمو وسائل للعيش . وعلى ذلك فليس لنا أن نتوقع زيادة مطردة للسعادة ، بل ينبغي على العكس من ذلك أن نتوقع زيادة في البؤس الفردي والاجتماعي نتيجة لهذه الظروف . وسرعان ما أصبحت تعاليم مالتوس التي تتمشى نتائجها مع اتجاه بنيتام الفكري ، جزءاً أساسياً من مذهب المنفعة ، وكان لها في التفكير الاقتصادي الإنجليزي تأثير قوى ، وإن يكن مشيئاً ، تجلّت آثاره في التشريع العملي . وظل هذا المذهب قوة حية حتى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر على الأقل . وقد كان تأثير مالتوس يبنيتام ، من الوجهة التاريخية ، أقل من تأثيره بمفكرين مثل أ .



تكرّر A. Tucker (١) ، و . نالي W. Paley (٢) ، ناهيك بتأثره بهيوم .  
الذى اعترف مالتوس ذاته بأنه كان يدين بالكثير لأرائه في السكان . وفيما  
بعد ، استعار دارون من مذهب مالتوس تلك الفكرة الخافضة بالنتائج ، فكرة  
الصراع من أجل الوجود . ( والتعبير ذاته موجود لدى مالتوس ) وبذلك  
اكتسب وجهة النظر التي سادت أبحاثه البيولوجية .

أما ديفد ريكاردو D. Ricardo ( ١٧٧٢ - ١٨٢٢ ) فقد وضع مذهبا  
نفعيا في الاقتصاد في كتابه « مبادئ الاقتصاد السياسي والسياسة الضريبية  
Principles of Political Economy & Taxation » ١٨١٧ ، التزم فيه  
بمبادئ مذهب المنفعة بدقة ، مع تطبيقه على نطاق أوسع من تطبيق مالتوس له .  
ولا شك أن أمر تقدير الأهمية الفائقة لهذا الكتاب ، الذي يُعد فتحا في  
تاريخ الاقتصاد السياسي الإنجليزي ، أو اختبار الآراء التي يتضمنها ، إنما  
يقع خارج نطاق كتابنا هذا . والواقع أن هذا الكتاب لم يفقده أهمية  
إلا كتاب آدم سميث الكلاسيكي ، الذي يرتبط به ارتباطا وثيقا ، إذ نقل  
رسائله الفكرية إلى القرن التاسع عشر في صورة مستقلة . ولقد ظل ريكاردو  
أقرب من مالتوس إلى آراء بنتام ، وذلك بتوسط جيمس ميل في المحل  
الأول ، وإن يكن قد اتفق مع مالتوس في آرائه الاجتماعية والسياسية  
الأساسية . وإن التفكير الاقتصادي للقرن التاسع عشر ، ولا سيما تفكير

---

(١) Tucker ( ١٧١٢ - ١٧٩٩ ) اقتصادي ولاهوتي إنجليزي ، أصبح أسقفاً بجلوستر  
Gloucester سنة ١٧٥٨ ، وكتب في الاقتصاد والسياسة والدين ، واستبق بعض حجج  
آدم سميث ضد الاحتكارات .  
[ المترجم ]

(٢) وليام نالي ( ١٧٤٣ - ١٨٠٥ ) لاهوتي إنجليزي كان زميلاً ومعلماً في كمبردج ،  
ونشر كتاب « مبادئ الفلسفة السياسية والأخلاق » عام ١٧٨٥ ، وكان مذهبه قريباً من  
مذهب المنفعة . وكانت له ، بالإضافة إلى ذلك ، مؤلفات لها قيمتها الكبرى في ميدان  
اللاهوت .  
[ المترجم ]

ماركس ، ليدن لريكاردو بأفكاره الأساسية . وقد احتلت آراؤه فيما بعد بالتدريج مركز البديهيات في الدراسة النظرية للقوانين والوقائع الاقتصادية . ويستمر التيار الرئيسى للتفكير النفعى ، بعد بنتام ، عند جيمس مل ( ١٧٧٣-١٨٢٦ ) مباشرة . وكان جيمس مل تلميذاً شاباً وصديقاً وحليفاً لبنتام ، اقتبس تعاليمه وواصلها كأنها عقيدة موروثة . وهو يمثل معبراً بين بنتام ، الذى أعاد بناء المذهب التجريبي من جديد ، وبين ابنه جون استورت مل ، الذى بلغ بهذا المذهب تمامه . وهكذا كان يحتل أساساً موقع الوسيط . وكانت مهمته هى حفظ التراث حتى يسلمه نقياً صافياً إلى ابنه وخليفته العظيم . ولقد كان جيمس مل أشد المتحمسين للدعوة إلى أفكار بنتام ، وأجهر الناس بالإعجاب به . وقد التفتت حوله تلك الفئة المسماة « بالمجددين الفلسفيين » ، الذين عملوا على تجديد الحياة السياسية الإنجليزية مستوحين روح بنتام . وكان نشاطه التأليفى موجهاً فى المحل الأول إلى الفلسفة الأخلاقية والدراسات العملية المرتبطة بها ، وكذلك إلى التاريخ والفقه ونظرية الدولة والسياسة والاقتصاد السياسى ، وفى هذه الدراسة الأخيرة اعترف بأنه تابع لريكاردو مباشرة . وقد ارتكز فى كل هذه المجالات على أفكار المدرسة التى تغلغت فى دمائه ، ولم يجد ما يدعو إلى مناقشتها ، والتزم بحماسة التليذ المكتمل وإخلاصه ، تلك الصيغة المشهورة فى مذهب المنفعة : تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكثر عدد من الناس . ومع ذلك ، فقد أدى فى ناحية معينة خدمة هامة ضرورية لمدرسته . ذلك لأن بنتام لم يكد يعبأ بإيجاد أساس نظرى لتعاليمه ، وهكذا كانت هناك ثغرة فى مذهبه تحتاج إلى أن تُسملأ ، لا سيما وقد أنتجت المدرسة الإسكتلندية المضادة له مؤلفات قيمة ، لم يكن من الممكن التصدى لها وإبطال أثرها إلا بمؤلفات متساوية القيمة من الجانب الآخر . وقد أخذ مل على عاتقه

هذه المهمة في أهم كتبه ، وعنوانه : « تحليل ظواهر العقل البشري .  
 Analysis of the Phenomena of the Human Mind » ( ١٨٢٩ ) .  
 طبعة جديدة بإشراف جون استورت مل ، ( ١٨٦٩ ) . وفي هذا الكتاب  
 وضع الأساس النفسى لمذهب المنفعة . ولقد كانت لأراء مل فى علم النفس  
 أهمية تاريخية خاصة ، بالإضافة إلى وظيفتها بوصفها أساساً . فقد كان لازماً  
 عليه ، لكي يضع هذا الأساس ، أن يلجأ إلى الأفكار التجريبية القديمة ،  
 وعلى ذلك كان على مل أن يلتقط خيط التطور ، أو يصل بين طرفيه ، عند  
 النقطة التى قطعه فيها المفكرون الإسكتلنديون قبل ذلك بنصف قرن من  
 الزمان ، أى عند علم النفس الترابطى كما قالت به المدرسة الكلاسيكية  
 الأقدم عهداً . وهكذا اكتسب علم النفس عند مل قوامه عن طريق العودة  
 إلى تعاليم هيوم وهارتلى Hartley (١) ، ومن ثم فقد كانت معارضته صريحة  
 للمذهب الحدسى فى المدرسة الإسكتلندية . ولقد عاد ثانية إلى تأكيد أهمية  
 الفاعلية الآلية للعقل ، وأدخل مرة أخرى منهج التشريح النفسى ، ومعه  
 الكيمياء النفسية ، وتشبث بفكرة تحليل الظواهر الذهنية إلى أبسط أجزائها  
 ( الذرات النفسية ) ، وأحيا من جديد قانون التداعى أو الترابط بوصفه  
 القانون الأساسى للحياة النفسية ، وكذلك النظرة الظاهرية phenomenalist  
 فى نظرية المعرفة ، وهكذا أعاد من جديد إلى الحياة كل مجموعة الأفكار  
 المنتمية إلى النظرية الفلسفية الكلاسيكية . ولقد اقترب آراءه من هارتلى  
 أكثر مما اقتربت من لوك وهيوم ، ولكنه امتنع عن جميع التفسيرات

---

(١) ديفد هارتلى ( ١٧٠٥ — ١٧٥٧ ) فيلسوف إنجليزى ، تعلم فى كامبردج وأصبح  
 زميلاً بها ، لم تعجبه دراسة اللاهوت ، فانتقل إلى الطب ومارسه وأحرز فيه نجاحاً ، كما كتب  
 فى الفلسفة وعلم النفس ، وحاول فى كتابه « مشاهدات فى الإنسان Observations on  
 Man » ( ١٧٤٩ ) أن يفسر جميع الظواهر الذهنية بفكرة تداعى المعاني . [للترجم]

الفسولوجية ، واقتصر على مجرد استطلاع مجال الشعور أو الوعي النفسى . وكانت لديه قدرة فائقة على التحليل ، كما أثبتت بإصرار بمبدئه الأساسى فى التداعى ، وحسن منهجه ، ودعم مذهبه ، وأتى بمواد تجريبية جديدة ، ولكنه لم يتخل أبداً ، فى أية نقطة هامة ، عن الأسس التى حفظها وأكدها التراث . وهنا أيضاً لعب مل دوره المميز ، أعنى دور الوسيط ، وذلك بأن أدى فى مجال الدراسات النظرية نفس الخدمة التى أداها مل فى المجال العملى ، أعنى تجديد الفكر بروح الفلسفة الإنجليزية الكلاسيكية . وإن أهميته التاريخية ل ترجع إلى أنه دفع علم النفس ونظرية المعرفة دفعة قوية إلى الأمام ، ولدت سلسلة طويلة من النتائج الأخرى ، وظلت على قوتها حتى قرب نهاية القرن الماضى على الأقل .

ولقد كانت فلسفة جون ستوارت مل ، وهو أعظم مفكر تجريبى فى القرن التاسع عشر ، تمثل نموا عضوياً من الوضع الفلسفى الذى أوجده بنتام وجيمس مل . وقبل أن تنتقل إلى الحديث عنه ، ينبغى أن نذكر أسماء بعض الشخصيات التى يقع مولدها بين مل الأكبر ومل الأصغر ، والتى ترتبط بهما ارتباطاً وثيقاً . ولقد كان المشرع جون أوستن J. Austin ( ١٧٩٠ - ١٨٥٩ ) ، والمؤرخ جورج چروت G. Grote ، شقيق الفيلسوف جون چروت ، الذى سيأتى ذكره فيما بعد - كان هذان من بين الأصدقاء المقربين إلى مل الأب ومل الابن ، وكانا فى البداية صديقين حميمين للأب ، ثم تمت بينهما وبين الابن صداقة أبوية متينة . ولقد قام أوستن ، الذى ظل بضع سنوات أستاذاً للقانون فى جامعة لندن ، بدراسة منظمة دقيقة لمجال القانون من وجهة نظر مذهب المنفعة ، ووضع فى كتابه المشهور : تحديد مجال الدراسة التشريعية The Province of Jurisprudence determined

( ١٨٢٢ ) ، أسس فلسفة للقانون (١) . ولكن علاقته بأوساط مذهب المنفعة قد تعقدت بفعل مؤثرات أتت إليه من المدرسة التاريخية في القانون ومن الرومانتيكيين الألمان ، إذ أنه عاش خلال النصف الثاني من العقد الثالث من عمره فترة طويلة طالبا في هيدلبرج وبون ، حيث تعرف إلى شخصيات مثل سافيني Savigny (٢) ، و ا . ف . شليجل Schlegel (٣) وبراندس Brandis (٤) ، وغيرهم . وعلى هذا النحو اكتسب تفسيره أفقا أوسع من حدود التقيد بالصادر بمذهب بنتام ؛ وتبدى ذلك على أنحاء عدة ، من أهمها أنه لم يبن أخلاق المنفعة على فكرة المنفعة ذاتها ، وإنما حاول أن يدعمها بالجزاءات الدينية . أما دجروت ، ، الذى اشتهر بوصفه مؤرخ اليونان القديمة ، فقد كان منذ البداية أميل من أوستن إلى مل الأب ، وقد انضم بحماسة إلى مل فى جهوده لإصلاح المذهب التجديدى الفلسفى philosophic radicalism ، الذى كان يمثله فى البرلمان . غير أن مذهبه الفكرى قد تلقى مؤثرات من مصادر أخرى ، أهمها الفلسفة اليونانية ، التى كان له بها إلمام واسع ( كما تشهد بذلك مؤلفاته عن أفلاطون وأرسطو ) .

---

(١) نشر من أوراقه بعد وفاته كتاب : « محاضرات فى التشريع أو فلسفة القانون الوضعى Lectures on Jurisprudence , or the Philosophy of Positive Law ( 1862 )

(٢) فرريدرش كادل فون سافيني ( ١٧٧٩ - ١٨٦١ ) مشرع ألماني معهور ، كانت له دراسات قيمة فى التشريع القديم ، ولا سيما القانون الروماني . [ المترجم ]

(٣) أوجست فلهلم فون شليجل ( ١٧٦٧ - ١٨٤٥ ) ، شاعر وناد أدبي ألماني ( شقيق كارل فلهلم ، أعظم النقاد الأدبيين الألمان ) كان أستاذا للأدب فى بيناوبون ، واشتهر بترجمته لأعمال كبار أدباء أوروبا ، ولا سيما شكسبير ، إلى الألمانية . [ المترجم ]

(٤) كريستان أوجست براندس ( ١٧٩٠ - ١٨٧٦ ) فقيه لنوى ألماني ومؤرخ للفلسفة له مؤلفات فى ميثافيزيقا أرسطو وتاريخ الفلسفة اليونانية الرومانية . [ المترجم ]

وقد حاول في كتابه الذى نشر بعد موته « شذرات في الموضوعات الاخلاقية Frgments on Ethical Sudjects » ( ١٨٧٦ ) ، وهو مؤلفه المنهجي الوحيد ، أن يثبت الطابع الاجتماعى للأخلاق على نحو أفضل مما فعله أصحاب مذهب المنفعة بموقفهم الذى تسرده النظرة الفردية ، مؤكداً أولوية المجتمع على الفرد ، وواجب الفرد فى الخضوع للإرادة الجماعية للمجتمع .

ونستطيع أن نذكر هنا ، إلى جانب أوستن وجروت ، اسم السير جون هرشل J. Hershel ( ١٧٩٢ - ١٨٧١ ) ووليام هيوول W. Whewell ( ١٧٩٤ - ١٨٦٦ ) . وعلى الرغم من ابتعاد هذين عن دائرة بنتام ، فقد قاما بنصيب هام فى الإعداد للأبحاث المنطقية التى أجراها مل الابن . ذلك لأن مل قد وجد فى كتاب الفلكى العظيم هرشل ، وعنوانه « بحث منظم حول دراسة الفلسفة الطبيعية . Discourse on the Study of Natural Philosophy » ( ١٨٣٠ ) ، مادة زاخرة مستمدة من العلوم الطبيعية استعان بها فى وصف عمليات الاستقراء ، بل لقد وجد فى هذا الكتاب أيضاً منهجه التجريبي الخاص مطبقاً عملياً ، وإن لم يعبر عنه بصورة صريحة . ولقد وجد مل قيمة أعظم فى الأبحاث الشاملة التى أجراها هيوول ، والمبنية على معرفة دقيقة بنظرية العلوم الاستقرائية وتاريخها ، وهى الأبحاث التى عرضها هيوول فى كتابيه العظيمين : تاريخ العلوم الاستقرائية History of the Inductive Sciences ( ١٨٣٧ ، الترجمة الألمانية ١٨٣٩ - ١٨٤٢ ) و « فلسفة العلوم الاستقرائية Philosophy of the Inductive Sciences » ( ١٨٤٠ ) . ولقد كان هيوول يمتاز بمعرفة هائلة للباضى ، وفاق فى نطاق معلوماته الموسوعية ودقتها هاملتن ذاته ، الذى اشتهر بأنه كان أوسع رجال عصره علماً . ولقد استعان مل فى إعداد الباب الثالث من كتاب المنطق ( وهو الباب الخاص بالاستقراء ) بالمواد التى جمعها هيوول استعانة كاملة ، وأقر شاكرآ

بأنه لولا هذا العمل التمهيدى لما تمكن من إنجاز مهمته . ولكنه فى الوقت ذاته أحس بغريزة صائبة بالتضاد المنهجى القاطع بينه وبين هيول . فقد رأى فيه ممثلاً لما يسميه بالنظرة الألمانية أو « الأولية a priori » ، إلى المعرفة البشرية وقدراتها . والواقع أن هيول قد تأثر بكانت تأثراً قوياً ، ورفض المنطق ونظرية المعرفة التجريبيين . ولقد اعترف مثل مل بالأهمية الأساسية للاستقراء ، بوصفه عملية استخلاص الحقائق والمبادئ العامة من الوقائع الجزئية فى كل بحث وكشف علمى . ولذا أطلق اسم « العلوم الاستقرائية » ، على تلك العلوم التى تسمى عادة باسم « الطبيعية » . ولكنه لم يجعل الأهمية الأولى فيها لملاحظة الوقائع ، وإنما رأى أن الأفكار التى يلعب الذهن الدور الرئيسى فيها هى عامل لا يقل عن الملاحظة أهمية . وإذ لما يتفق تماماً مع رأى كانت القائل بأن الإدراكات الحسية فارغة ، أن يقول هيول فى مقدمة كتاب « تاريخ العلوم الاستقرائية » ، المذكور من قبل : إن الشرط الأساسى لكل تقدم علمى هو اتحاد الأفكار الواضحة بالوقائع المحددة . ويطلق هيول اسم « تضاد الأساسى فى الفلسفة » ، على رأيه القائل : إن الفكرة ينبغى ألا تستقل أبداً عن الواقعة الملاحظة ، ومع ذلك ينبغى أن تجذب الواقعة دائماً نحو الفكرة . وقد عبر عن ذلك تعبيراً موجزاً بليغاً فى قوله : « إن التقابل بين الحس والأفكار هو أساس فلسفة العلم . فلا قيام لمعرفة دون توحيد هذين العنصرين ، ولا قيام لفلسفة دون الفصل بينهما » ، ( « فلسفة العلوم الاستقرائية » ، طبعة جديدة ، ١٨٤٧ ، المجلد الثانى ، ص ٤٤٣ ) ولقد كان هدف هيول فى كتابيه العظيمين هو إحياء « الأورجانون الجديد Novum Organum » ، ليكن ، ورفع هذا الكتاب إلى المستوى المتقدم الذى بلغه العلم الحديث . وهكذا فقد بدأت دراسة الأسس المنهجية للعلم على يد هيول ، وواصلها مباشرة مل فى كتابه « المنطق » ، وثبت أن للخلاف الذى

نشأ بينهما فيما بعد فائدته الجمة ، إذ أثار الاهتمام بهذه المسائل في الأوساط الفلسفية والعلمية معاً .

والآن نصل إلى جون ستورت مل John Stuart Mill ( ١٨٠٦ — ١٨٧٣ ) ، الذى بلغ عنده المذهب التجريبي الحديث منتهاه ، مثلما بلغت التجريبية الكلاسيكية منتهاها عند هيوم قبل ذلك بقرن من الزمان . ويعتقد كثيرون أن مل هو أعظم مفكر إنجليزى فى القرن التاسع عشر . ولكن أياً كان الأمر ، فمن المؤكد أنه كان أعظم الكتاب الفيلسوفين فى عصره . ومن الملاحظ أنه ، مثل بيكن وهيز وشاقسبرى وباركلى (١) وهيوم وبنجام وجيمس مل ، ثم سبنسر فيما بعد ، لم يشغل أى منصب تعليمى رسمى ، ومارس الفلسفة ، لا على أنها مجرد بحث علمى أو ثقافى ، أو لصالح حلقة صغيرة من التلاميذ والمتخصصين ، بل بوصفها رسالة روحية ينبغى أداؤها استجابة لنداء باطن ، والجر بها على الملا أجمعين . ولقد كان أعظم ناطق بلسان الفلسفة فى عصره ، كما أصبح واحداً فى سلسلة القوى الأدبية الخلاقة الهائلة التى مارست تأثيرها مثله على الوجه الروحى للحياة فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر . وإلى مل يرجع الفضل ، أكثر مما يرجع إلى أى من السابقين عليه مباشرة ، فى تجاوز الفلسفة لنطاقها الضيق السابق ، واتساع نطاقها بحيث أصبحت تنتمى إلى مجال الأدب العام ، وبذلك أصبح قراؤها هم كل الصفوة المثقفة فى الأمة . وبفضله أصبح للفلسفة منبر واسع عريض تعلن به عن نفسها ، وتبعث فيه قواها ، كما اكتسبت بدورها قوة بفضل تأثيرات الحياة الثقافية التى أصبحت الفلسفة محاطة بها .

ويمثل مل ، فى تطور الفلسفة الإنجليزية ، آخر مركب ضخم عرض به .

(١) كان باركلى مدرساً وزميلًا فى Trinity College ، فى دبلن .

[ ناشر الطبعة الإنجليزية ]



المذهب التجريبي . فجميع الأفكار الرئيسية في المذهب التجريبي تتجمع لديه في وحدة متسقة إلى أبعد حد . ويحدث ذلك ، لا على شكل مذهب متناسق منظم بدقة ، كما هي الحال عند سبنسر فيما بعد ، وإنما بذلك الأسلوب المتحرر الذي يحتل أكبر عدد من مجالات التجربة ، لكي يتغلغل فيها بالتفكير الفلسفي ، لا لكي يدرجها في وحدة شاملة أو ليحشرها قسراً في مذهب مشيد هندسياً . والواقع أن الطريقة الأولى ، لا الثانية ، هي الأسلوب الصحيح للفيلسوف التجريبي ، الذي لا يمكنه ، بحكم إخلاصه للتجربة في كل إمكانياتها المتعددة ، أن يستسلم مباشرة لفكرة بسيطة ، أو يقنع بالتنظيم الصارم في مذهب . فالتفكير المذهبي ، من ذلك النوع الذي احتل فيما بعد مكانة كبيرة لدى سبنسر ، عنصر غريب يصعب التوفيق بينه وبين مبادئ المذهب التجريبي . ولما كان مل قد اعتنق هذه المبادئ خالصة ، فقد وسعنا أن ننظر إليه ، لا إلى سبنسر ، على أنه آخر ممثل أصيل للتراث الإنجليزى العظيم .

ولقد تغلغل هذا التراث في دماثة منذ نعومة أظفاره . فقد خضع تعليمه لأفكار أبيه وإشراف دما الأب وحده ، دون مدرسة أو جامعة ، وذلك وفقاً لروح فلسفة بنتام وطبقاً لمبادئه تماماً . وقد وصف هو ذاته هذه التجربة غير العادية وصفاً حياً في ترجمته الذاتية لحياته Autobiography (١٨٧٣) ، ويكاد يكون في حكم المعجزات أن هذه التجربة لم تدمره . وهكذا قبِلَ عن طيب خاطر ، وبإيمان كامل ، تلك التعاليم التي ألقن إياها ياكراه خارجي ، وعند ما بلغ الخامسة عشرة من عمره ، كان قد أصبح مؤمناً بمذهب المنفعة إيماناً كاملاً مصقولاً ، كما كان متشرباً تماماً بجميع تعاليم المدرسة ، وملها بكل ما يمكن تصوره من أنواع المعارف . ولقد بلغ من استحواذ المذهب عليه أنه أنشأ مع مجموعة من أصحاب الاتجاه نفسه ، وهو لم يزل في السادسة عشرة من عمره ، جمعية فلسفية أسماها « جمعية مذهب المنفعة » . وكان هذا التعبير ،

وليس تطبيقاته القديمة المتفرقة ، هو الذى أشاع هذا اللغظ على الألسن بالتدريج . وهكذا أصبحت كلمة : صاحب المذهب المنقعى ، أو ، النفعى ، ، التى نقشها مل بطريقة صبيانية على رأيه ، تعنى بالنسبة إليه رمزاً لكل ما اكتسبه من الفلسفة عن أيه : أى أفكار بننام ومدرسته .

وعند ما بلغ مل العشرين من عمره ، اثنايته أزمة روحية عنيفة ، ينبغي أن نلم بها هاهنا ، إذ أنها قد تحكمت فى حياته التالية بأسرها . وأطلقت لأول مرة ما كان حتى ذلك الحين حبيسا بفعل تعليمه المصطنع ، أعنى طبيعته الباطنة ذاتها . فلم تكن هذه الأزمة ، ولا سيما فيما جلبته بعد ذلك من نتائج مشمرة ، إلا رد فعل على ضيق الأفق والجود الذى كانت تتسم به الآراء التى حبسه تعليمه بين جدرانها . ولقد سبق له أن أظهر نوعاً من الثورة على نظرية السعادة فى الأخلاق ، وعلى الأخلاق الحتمية ، وطغيان العقل . فأصبح يدرك لأول مرة الأهمية القصوى للفن والشعر بوصفهما مؤثرين ثقافيين ، واعترف لأول مرة بالحاجة إلى تنمية العواطف والخيال فى التعليم ، بالإضافة ملكة الفهم النظرية الخالصة ، وبقيمة التهذيب الباطن للنفس الفردية إلى جانب التنظيم المجرد للظروف الخارجية . ولقد تكشف له العالم الجديد ، الذى أصبح الآن محيطاً به من كل جانب ، والذى مكنه من اجتياز صدمته الروحية العميقة ، تكشف له هذا العالم لأول مرة بفضل استغراقه فى شعر وردزورث Wordsworth .

ثم أتته فيما بعد معونات عديدة من مصادر أخرى : أولها اهتمامه الكبير بعقريه جوته Goethe ، ثم تعرفه إلى الشاعر والمفكر الرومانتيكى العظيم كولريدج Coleridge ، الذى اتصل به عن طريق قراءاته الخاصة من جهة ، ومن جهة أخرى عن طريق صداقته الشخصية لأصدقاء شبان لكولريدج ، مثل فردريك د . موريس Frederick D. Maurice

و. جون سترلينج John Sterling ، صديق كارليل Carlyle الذى مات صغيراً ،  
وأخيراً من كارليل ذاته ، الذى بدأ فى ذلك الحين يكشف عن العالم الروحى  
الألماني لمواطنيه . ولقد كان كارليل فى نظر كل شخصية جذابة من ناحية ومنفرة  
من ناحية أخرى . وعلى الرغم من مقاومته لتأثيره ، فإنه لم يستطع أن ينأى  
بنفسه تماماً عن هذا التأثير ، الذى لا يُعزى إليه الاتجاه الذى أصبح تفكيره  
يتخذ في ذلك الحين فحسب ، بل تُعزى إليه أيضاً تلك الحدود التى ظل  
ذلك التفكير محصوراً فيها . وعلى أية حال فإن الأمر الذى كان مل على ثقة  
منه عندئذ ، هو أنه قد انشق إلى غير رجعة على طريقة أبيه فى التفكير .

كل هذا ظهر بوضوح فى بحثين نشرهما مل فى عامى ١٨٣٨ و ١٨٤٠  
فى « مجلة ويستمنستر Westminster Review » : أولهما كان عن بنتام ،  
والثانى عن كولردج ( وقد أعيد نشرهما فيما بعد فى المجلد الأول من كتابه :  
« أبحاث ومناقشات Dissertations and Discussions ، ١٨٥٩ ) ويستحق  
هذان البحثان اهتماماً خاصاً ، إذ أن مل كان فيهما من أوائل من عرضوا التقابل  
الحاسم الذى انقسمت به الحياة الروحية لعصره إلى معسكرين بينهما خصومة  
عنيفة والشخصية التى يتجسد فيها أحد طرفي هذا التضاد ، والتى ترمز له  
بوضوح ، هى شخصية بنتام ، الذى واصل تراث القرن السابع عشر ،  
أما الشخصية التى تمثل الطرف الآخر ، فهى شخصية كولردج ، الذى تركّز  
فيه تلك القوى الروحية الجديدة التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، وعبرت  
عن نفسها من خلاله . ولقد أحس مل ، الذى كان بحكم الأصل والبيئة  
والتعلم ملتزماً بالانضمام إلى معسكر بنتام ، ثم تأثر فيما بعد تأثراً عميقاً بعالم  
كولردج — أحس بالتوتر الذى جعل من هاتين الشخصيتين ، ومن القوى  
الديالكتيكية التى عبرت عن نفسها من خلالها ، قطبين يتنافران كل منهما مع  
الآخر بشدة . وقد أدرك بنظره الثاقب التقابل المطلق بين أفكارهما وآرائهما

في الحياة : « إن كل إنجليزي اليوم هو ضمناً إما مشاج لبنتام أو كولدج » .  
وقدم لها وصفاً كان في عموه صحيحاً ، فقال : إن مذهب كولدج أنتولوجي ،  
محافظ ، ديني ، عملي ، تاريخي ، شعري ، أما مذهب بنتام فتجريبي ، تجديدي ،  
غير مؤمن ، مجرد ، واقعي ، وعمل في أساسه . ولقد نظر إلى هذا التقابل ،  
بمعنى أوسع ، على أنه يمثل التقابل بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ،  
أو بين عصر التنوير والعصر الرومانتيكي ، أو بين الروح الإنجليزية والروح  
الألمانية . وفي الوقت ذاته أحس بضرورة التوفيق بين هذين الضدين  
وتخفيف توتراتهما ، وبنداء باطن يدعو إلى إيجاد مركب بينهما ، واثقاً  
من أن ذلك من تسنى له استيعاب مقدماتهما والجمع بين منهجيتهما ملك ناصية  
الفلسفة الإنجليزية في هذا العصر بأسرها .

ولقد أدت الصدمة التي تلقاها من كولدج ، ذلك المفكر الذي عده مل  
بحق ناطقاً إنجليزياً بلسان المثالية الألمانية ، إلى إبعاده مؤقتاً على الأقل عن  
التقيد الحرفي بمدرسة بنتام . وقد ناقش في مقاله عن بنتام مذهب هذا  
الآخر ، وأوضح الأخطاء والنواقص في تعاليمه . ثم تبرأ ، كما قال فيما بعد  
« على نحو قاطع من المذهب البنتامي الضيق الأفق الذي تبسدى في كتاباته  
الأولى » . وقد رأى بوضوح أن فلسفة بنتام لم تمس إلا السطح الخارجي  
للأمر ، وأن الأوجه الأعمق والأدق للحياة قد خفيت عليها . أما كولدج  
فقد ألقى ضوءاً على هذه الأوجه ، ولهذا فإن مل قد التمس لديه المشورة في  
تلك المسائل الحاسمة التي تخلى فيها — كما كان يعتقد — عن الطريقة  
التقليدية في التفكير . فإذا ما تأملنا الآن تفكير مل كما يتمثل في مؤلفاته  
الرئيسية ، التي تنتمي كلها إلى فترة تالية لهذين المقالين ، كان لنا أن نتساءل  
عن مدى الفائدة التي عاد بها عليه تأثير كولدج ، ومقدار تغير وجهة نظره .

نتيجة لهذا التأثير . وإن الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال لكفيلة أيضاً بأن  
تحدد بدقة موقع مل التاريخي .

وينبغي أن يقال أولاً : إن تأثيره بـكولردج ، وهو اللفظ المختصر الذي  
نستخدمه للدلالة على تنتج ذهن مل لتيارات الفكر المنبثقة عن المثالية  
والرومانتيكية ، قد بلغ أوجه بتأليف هذين المقالين ، وإن هذا التأثير لم يزد  
قوة في تفكيره المتأخر ، وإنما طرأ عليه الضعف . وقد أدرك مل نفسه ذلك  
عندما عاد بذكريته في أواخر حياته إلى تلك المرحلة من تطوره ، في ترجمته  
الذاتية لحياته ) ، ولاحظ أنه قد أكد أكثر مما ينبغي ، في تلك الفترة ،  
الجانب الملائم لأحد تيارين فكريين ( كولردج ) والجانب غير الملائم للتيار  
الآخر . وكثيراً ما أكد فيما بعد مناصرته لأفكار القرن الثامن عشر التي  
كان يعارضها إلى حد ما في تلك الفترة ، وإن لم يكن قد تخلى عنها أبداً .  
ومن الظواهر الغريبة أن مل ، وإن كان قد اطلع على معالم الفكر الألماني  
بفضل كولردج : وكارليل وغيرهما ، فإنه لم يرهق نفسه أبداً من أجل استيعاب  
المذاهب الفلسفية الألمانية بدقة . وقد كان مستواه في هذه الناحية أدنى كثيراً  
من مستوى هامان ، معاصره الأكبر سناً . صحيح أنه قد تعرف سطحياً إلى  
شعر جيته ، وإلى النظريات التربوية لبستولانتسي Pestolazzi (١) ، ثم اتصل  
فيما بعد بفلهلم فون همبولت (٢) Wilhelm von Humboldt ، غير أن

( ١ ) يوهان هنريش بستولانتسي ( ١٧٤٦ — ١٨٢٧ ) : عالم تربوي سويسري ، كرّس  
حياته لتربية الفقراء ، ولا سيما في البيئات الريعية ، ثم افتتح مدرسة تعليمية خاصة ، حاول  
فيها — دون نجاح كبير — تطبيق نظرياته التربوية الخاصة التي تتلخص في اعتماد تنمية  
الخصبة الإنسانية على القوانين الطبيعية ، وضرورة التزام التربية لهذه القوانين ، واعتماد  
للمعرفة البشرية على الملاحظة التي هي مصدرها الأول . [ المترجم ]

( ٢ ) كارل فلهلم فون همبولت ( ١٧٦٧ — ١٨٢٥ ) ، سياسي ولغوي ألماني ، تولى مناصب  
دبلوماسية هامة ، وإليه يرجع الفضل في إلغاء جامعة برلين . وكانت له مراسلات هامة مع  
كبار الأدباء والشعراء في عصره . وهو الفقيه الأكبر للعالم الطبيعي والجغرافي الألماني  
الكسندر فون همبولت . [ المترجم ]

ما كان يعرفه عن الحركة الفلسفية الألمانية من نأت إلى شيجل كان كله تقريباً مستمداً من السماع ، ولم يتجاوز بعض الأفكار الغامضة المختلطة .  
فإننا ظننا أن محتفظاً بتلك العزلة التي تميز كثيراً من المفكرين الإنجليز ، مع أن روحه المتحررة كانت في نواح أخرى متفتحة كل التفتح للدورات الخارجية . وحيثما كان يشتم من بُعد وجود مؤثرات ألمانية ، كان يقف ضدها ويتألم من قدرها ، مفضلاً عليها تراثه القومي . فالفلسفة الألمانية كانت في نظره كتاباً ذا اختتام سبعة ، لم يشعر بأدنى رغبة في استجلاء أسرارها .

ومع ذلك فإن القوة المستمدة من كولردج لم تتركه دون أن تخلف فيه أثراً . فهو لم يتخل أبداً على نحو نهائي عن ارتباطاته القديمة ، ولم يصل إلى توفيق صحيح بين الأفكار القديمة والجديدة . وبفضله أصبحت حركة مذهب المنفعة مرنة سيالة مرة أخرى ، ففاضت جوانبها من حدودها الضيقة ، وكسرت قيودها التقطعية . وعلى الرغم من أنها لم تكسب أرضاً جديدة واسعة ، فقد أصبحت واعية بحدودها الخاصة ، وظهر فيها استباق لأفكار جديدة وحياتية فلسفية متجددة . ولا يستطيع المرء أن يقول إن التعاليم التقليدية قد حدث فيها تجديد أساسي ، ولكن حدث فيها تغير هام ، وهو تغير لم ترفض فيه التعاليم القديمة في أية نقطة هامة ، وإنما دُرر أركانها في نقاط عديدة ، وأدخل عليها من آن لآخر تعديلات بلغت حداً لم تعد معه قابلة للدخول في الإطار التقليدي . وكما قال بول هنسل Paul Hensel ( أنظر : كتابات وأحاديث قصيرة Kleine Schriften and Vorträge ١٩٣٠ ، ص ١٢٩ والصفحات التالية ) فإن مل قد استخلص من داخل القوالب الثابتة للمذهب التقليدي أفكاراً عديدة قام بإحيائها حتى تجاوزت إلى حد بعيد ما يمكن أن تستوعبه تلك القوالب . وحياته بأسرها كانت صراعاً باسلاً من أجل طبع شخصيته

الفردية الزاخرة على تلك القشرة الجامدة التي 'غلف' بها مذهب محدود  
الافق ، . ( نفس المرجع والموضع ) .

وقد أثبت مل امتيازه على جميع معاصريه بإبدائه استعداده للتعلم من أى  
شخص لديه أى شيء يقوله له . باستثناء الفلاسفة الألمان ) . ويكاد تفكيره  
يشف دائماً عن تلك الروح التوفيقية التي هي دائماً على استعداد للتوسط بين  
المدارس الفكرية المتعارضة ، ولترك الحجاج المتناقضة تتفاعل بعضها مع بعض .  
ولقد انبثقت فلسفة مل ، كما رأينا من قبل ، من تربة التراث الإنجليزي .  
ومن ثم فقد بدأ باستغلال ما آل إليه من ذلك التراث بحسب الأمر الواقع ،  
فاتبع مذهب المنفعة في الأخلاق ، وتعاليم أبيه في دلم النفس ونظرية المعرفة ،  
ونظريات مالثوس وريكاردو في الاقتصاد السياسي ، كما اقتبس ، في الميتافيزيقا  
والدين ، تلك اللاأدرية التي كانت حظاً مشتركاً بينهم جميعاً ، ثم أتاه من  
الخارج مذهب الأفكار الجديد الذي تجسد في كولردج وكارليل . ولكن على  
الرغم من أن هذا المذهب قد هز فلسفته من أعماقها ، فإن مل لم يستطع أبداً أن  
يستوعبه استيعاباً كاملاً . وهناك مدرسة اتصلت بها فلسفة مل في عهد متأخر  
نسبياً ( حوالى ١٨٤٠ ) ، هي الوضعية الفرنسية عند سان سيمون وتلميذه  
العظيم كونت . ولما كانت هذه المدرسة أقرب من السابقة عليها إلى طريقة  
تفكير مل . فإنه سرعان ما تفهمها واستوعبها ، وأدت علاقاته بكونت ، التي  
اتخذت شكلاً شخصياً من طريق تبادل الرسائل ، إلى وحدة وثيقة للذهنين .  
ومن هذه الوحدة نشأ ارتباط فلسفي مبنى على تشابه الهدف والتقارب الباطن  
بين الآراء . وهكذا انسابت التجريبية الإنجليزية والوضعية الفرنسية ، عند  
مل ، في مجرى متسع واحد . ومع ذلك فإن مل قد انصرف مستاءً عن المرحلة  
الآخيرة لتفكير كونت : إذ شعر بأن حرية البحث الفلسفي مهددة بالخطر  
من جمودها شبه الديني ، ورأى لزماً عليه أن يرفضها . أما المدرستان الألمانية

والإسكتلندية فقد ظل يعارضهما طوال حياته الفكرية .

ولم ينبه مل إلا قليلا للاختلافات العميقة بين هاتين المدرستين . وكل ما رآه منهما هو معارضة ما المشتركة لمناهجه الخاصة . وهكذا ظهرت كل فلسفة عصره أمام تمييزه في صورة واحدة ، هي صورة التوتر بين الطرف الألماني - الإسكتلندي وبين الطرف الإنجليزي ، أو بين الفلسفة الترنسندنتالية عند كانت ، ونظرية الموقف الطبيعي ( أو الإدراك المشترك ) common - sense عند ريد ، ومذهب داملتن الذي انبثق عن الجمع بينهما ، كل هذا من جهة ، وبين المذهب التجريبي من جهة أخرى . وهكذا وجدت نفسه في شتاق دائم مع كل ما لا ينبثق عن التجربة ، أو ما لا يمكن أن يحقق بالتجربة ؛ ومع الأفكار الفطرية ، والحقائق الأولية apriori ، والبقينيات الحدسية ، سواء في المعرفة وفي الأخلاق وفي أى ميدان آخر . وهو يدرج ضمن هذه الفئة كل ما يفترض أنه ملك مضمون لذهن البشرى السليم ، وبالتالي كل هذه العناصر الأساسية ومبادئ الطبيعة البشرية التي ألقى تحليل ريد الضوء عليها . فالأولية apriorism ، بجميع مظاهرها ، ليست في نظره إلا ملاذاً للجهل ، يحدّله مل دستوابة فساد كل علم صحيح وكل بحث فلسفي أمين . ولقد كان مذهب هاماتن في عصره ، هو الذي يمثل أقوى قاعدة هذه الفلسفة الحدسية ، ولذا أعد نفسه لمرأع نهائي معه ومع مؤثراته القوية ، ومن هنا كان كتاب مل الخلاف ضد داملتن ( ١٨٦٥ ) هو المرحلة الأخيرة في هذا الصراع الطويل بين مدارس متعارضة في إنجائراء ، وبعده دفن هذا الخلاف ، الذي انتهى إلى التغلب تماماً على الخصم وتأكيده التجريبية الظاهرة .

وليس في وسعنا أن نتناول هنا مساهمة مل في مختلف مجالات الفلسفة إلا بإيجاز شديد . وأول ما ينبغي أن نتحدث عنه هو مساهمته في مجال



المنطق ، لا لأنها هي الأولى بالترتيب الزمني لحسب ، بل لأن لها الأهمية الأولى . فإليه ، لا إلى أى شخص غيره ، يدين المذهب التجريبي بقيام نظريته المنطقية ونموها . أما السابقون عليه فلا تكاد تكون لهم في هذا الميدان جهود تذكر (١) . صحيح أن هيز ولوك وهيوم هم الذين وضعوا الأسس ، ولكن مل كان أول من رفع البناء ، فأخضع هذا المجال بجميع أطرافه لتنظيم دقيق ، وكان — باستثناء بيكن — أول من جعل من الأسس المنطقية للعلوم الدقيقة موضوعاً للبحث . واقعد أحدث فتحاً جديداً في تاريخ المنطق ، ليس فقط بفضل الأسس المنهجى الجديد لهذه الدراسة ، بل أيضاً بفضل الاتساع الهائل الذى أدخله على مجالها . ومن هنا كانت كل الاتجاهات المنطقية التالية ، بالقدر الذى تخلت به عن تراث أرسطو أو لم تسر به فى الطريق المشالى المتنافيز بقى أو الطريق الرياضى ، مدينة له بفضل ما . بل إنه قد دفع بالمذاهب التقليدية والمثالية إلى التفكير من جديد فى أساس منهجها . وبفضل مل أصبحت للاتجاه النفسانى فى المنطق المكانة العليا طوال سنوات عديدة ، ولم تنته سيطرته إلا بعد أبحاث هوسرل الحاسمة قرب نهاية القرن للتاسع عشر . فكل الأبحاث فى الأوجه النظرية والمنهجية للعلم تتخذ نقطة بدايتها من مل

---

( ١ ) كان الشخص الوحيد الذى أسهم بنصيب مؤكد فى الدراسة المنطقية قبل مل وهوبول ، والذى طاماً تهازل الناس جهوده طوال القرن الثامن عشر ، هو ريمارد هوبلى R. Whately ، أسقف دبلن ( ١٧٨٧ — ١٨٦٣ ) . فقد نشر فى عام ١٨٢٦ كتابه « أركان المنطق Elements of Logic » ، الذى طبع طبعات عديدة . وهو كتاب مدرسى فى المنطق الصورى ، على نمط المذاهب القديمة ، يعالج أشكال الاستدلال وقواعده ، مع اهتمام خاص بالمغالطات المنطقية . ولم يكن مل يدين لهذا الكتاب بأية أنكار خاصة انطوت عليها تعاليمه ، وإنما كان يدين له فقط بإحياء الاهتمام بالمشكلات المنطقية . وفى الفصل الخامس من الباب الثانى ( وعنوانه : المنطق الرياضى ) يجد القارئ معلومات أخرى عن المؤلفات المنطقية فى النصف الأول من هذا القرن .

قبل غيره ، ومهما افرقت عنه فيما بعد ، فإنها مدينة له ببدايتها الأولى . فقد كشف مل أرضاً جديدة أضافها بأكملها إلى إطار العلم المنطقي ، وذلك في فكرته الخاصة بمنهج تكوين التصورات العلمية ومنهج البحث الدقيق عامة . ولقد كان بحثه في منطق العلوم الطبيعية ، الذي حرصه في الفصول الأساسية المتعلقة بالاستقراء ، هو أفضل بحث منهجي في هذا الميدان ، إذا ما قورن بجميع المحاولات السابقة من نوعه ، هذا فضلاً عن تلك المحاولة الأولى لتكوين منطق للعلوم الذهنية ، وهي المحاولة التي أضافها إلى ما سبق . صحيح أنه لم يتمكن ، حتى ذلك الحين ، من إدراك الفروق الرئيسية بين منهجي العلوم الطبيعية والعلوم الذهنية ، وأنه أيد بحماسة زائدة ادعاء العلوم الطبيعية أنها هي التي تحتل المكانة العليا ، غير أنه أدرك أن ثمة مشكلة منطقية هامة هنا ، وكان من أوائل من أدرجوا في مجال المنطق مجموعة من العلوم التي كاد المناطق الآخرون يتجاهلونها تماماً . هذه حقائق ينبغي ألا ينساها المناطق الآخرون والكتاب في مناهج العلوم الذهنية ، إذ أن الكثيرين منهم لا يعترفون اليوم إلا نادراً بقيمة جهود مل . وقد حاول مل أن يحل هذه المشكلة بالنظر إلى طريقة العلم الذهني على أنها موازية بدقة لطريقة العلم الطبيعي ، وبهذه الموازنة وحدها اعتقد أن من الممكن جعل الدراسات الذهنية علمية بالمعنى الدقيق . ويمكن القول بوجه عام إن كتاب مل في « المنطق » ( الذي ظهر أولاً في مجلدين ، في سنة ١٨٤٣ ، بعنوان « دشب في المنطق ، النظري والاستقرائي » ) هو أشمل تطبيق لمبادئ المذهب التجريبي في بريطانيا . وفيه طرد مل « الأولية » apriorism ، من آخر وأقوى معارقلها ، ولم يتوان عن استخلاص أجراً للتأنيج . وهكذا سار شوطاً أبعد بكثير من كل السابقين عليه ، حتى من هيوم ذاته : إذ لم يجرؤ هؤلاء على مهاجمة المنطق في هذا

الارضع أو ذاك ، وكانوا يخشون التدخل في مجالات معينة ثبتت أركانها تراث .  
 دام قروناً عديدة . أما مل فقد اكتسح كل شيء ، وأوضح أن البديهيات  
 المنطقية والقضايا الرياضية ذاتها ليست إلا استقرارات من التجربة . « فنحن  
 لا نرى ما يدعو إلى الاعتقاد بإمكان وجود أى موضوع لمعرفتنا ، سواء  
 أكان تجربتنا أو ما يمكن أن يستخلص من تجربتنا بالتمثيل ، أو بوجود أية  
 فكرة أو شعور أو قوة في الذهن البشرى ، تحتاج لتبريرها واثباتها إلى أن  
 تُرد إلى أى شيء عدا تجربتنا ، . هذه النخمة الرئيسية تتردد وكأنها إيقاع  
 أساسي من بداية كتاب « المنطق » إلى نهايته .

كذلك يحاول مل ، في ميدان نظرية المعرفة ، أن يعرض وجهة النظر  
 التجريبية النفسية في طابعها المنطقي الخالص . وأهم مؤلفاته التي قدم فيها هذا  
 العرض بطريقة شاملة هو كتابه الفلسفي الثاني « اختبار لفلسفة السير  
 وليام هاملتن Examination of Sir William Hamilton's Philosophy »  
 ( ١٨٦٥ ) . ويعد هذا الكتاب المؤلف الرئيسي للتجريبية الحديثة في نظرية  
 المعرفة ، مثلما كان كتاب « التحليل » لجيمس مل مؤلفها الرئيسي في علم  
 النفس . وهنا تصل قدرة مل على العرض الواضح الطليق ، والمجادلة العملية  
 النقدية إلى أقصى درجات تطورها . غير أن مذهبه في المعرفة أقل في أهميته  
 الفلسفية بكثير من مذهبه في المنطق . فهو لم يكشف هنا أرضاً جديدة ،  
 وإنما حقلًا زرعه من جديد ، وسبق أن استغله استغلالاً كاملاً بمثلو التجريبية  
 الكلاسيكيون ، الذين انتفع مل نفسه من أبحاثهم . وهكذا فإن الطابع الغالب  
 عليه في هذا الميدان هو العودة إلى الأفكار القديمة لباركلى وهيوم ، وعلى الرغم  
 من أنه توصل إلى بعض الصيغ الجديدة ، فإنه لم يضيف إلى المعرفة إضافة  
 حقيقية . وتتلخص وجهة نظره في القول بصيغة محددة بدقة للمذهب الظاهري  
 phenomenalism ، الذي كانت أهم تعاليمه هي تلك المتعلقة بطبيعة المادة :

والذهن . وهو يتوصل إلى حل لمشكلة العالم الخارجي ( أو المادة ) خلال محاولته تجنب المذهب الحسي الساذج ( crude sensationalism ) ، وذلك في صيغته المشهورة : «الإمكانات الدائمة للإحساس» . فمفتاح المشكلة لا يدر لديه في الإحساسات التي هي ماثلة مباشرة للوعي ، والتي هي في تغير دائم وتفتقر إلى كل دوام وثبات ، وإنما في توقعنا ، في ظروف معينة ، إمكان ظهور إحساسات معينة ، وفي كون هذه الإحساسات الممكنة تنصف بالثبات والدوام . غير أنه لم يدرك أن تصوري «الإمكان» ، و «الدوام» يفترضان مقدماً تنظيماً موضوعياً للأشياء ، وأنه بذلك يتخلى عن المذهب الحسي بمعناه الدقيق ، إذ أن هذا المذهب الأخير يرد كل وجود حقيقي إلى الأحاسيس وارتباطاتها . وهو يعالج مشكلة الذهن أو الأنا على نفس النحو . فهو يتفق تماماً مع نظرية «الحزمة» ( bundle - theory ) ، فقد هيوم ، إذ يعرف الذهن بأنه سلسلة أحاسيس كما تبدى فعلاً في الوعي ، والزيادة الوحيدة التي يدخلها على هذه النظرية هي إضافته إلى الأحاسيس الماثلة مباشرة تلك الإمكانات الالامتناهية للإحساس والانفعال ، التي يكفي توافر شروط معينة لكي تظهر مباشرة ؛ وهذه الشروط قائمة دائماً بوصفها إمكانات ، سواء أحدثت بالفعل أم لم تحدث . ومع ذلك فإنه يدرك تلك الحقيقة الفريدة ، وهي أن حزمة الأحاسيس هذه واعية بذاتها من حيث هي ماضٍ أو مستقبل ، بحيث يكون علينا أن ننظر إلى الأنا على أنه شيء يختلف من حيث المبدأ عن سلسلة الأحاسيس أو إمكانات الإحساس ، أو أن نقبل الموقف الغريب الذي يوجد فيه شيء هو حسب تعريفه ، مجرد سلسلة من الأحاسيس ، ويكون في الوقت ذاته واعياً بذاته بوصفه سلسلة . ولم يستطع مل أن يتخلص من هذا المأرق ، ولا أن يقرر مراجعة «نظرية الحزمة» بحيث يجعلها أقرب إلى أن تكون مذهباً للأنا بوصفه مبدئاً روحياً للوحدة . فهو يكتفي بملاحظة هذه

الحقيقة الغامضة ، ويرفض القيام بأية محاولة لتفسيرها . وعلى أية حال فإن توقعه الفجائي إزاء هذه المشكلة وغيرها يدل على أنه قد اضطر في أحوال كثيرة إلى أن يغمض عينيه بقسوة عن الضوء الواضح لبصيرته النفاذة ، حتى يظل مخلصا للمذهب التقليدى لمدارسته . وعلى الرغم من أن ثقتته بهذا المذهب قد قلت بالتدريج ، فإنه لم يحجر صراحة بخروجه على هذا التراث لا في هذه المسألة ولا في غيرها من المسائل .

فهو لم يفعل ذلك في ميدان الأخلاق ، التي عرضها بوجه خاص في كتابه : « مذهب المنفعة Utilitarianism » ، سنة ١٨٦٣ ، والتي يتعين علينا أن نعرض لها هنا بإيجاز . فها يبدأ مل من المذهب النفعى الصريح عند انتقام وأبيه جيمس مل ، ولكنه ، على الرغم من عدم تخايه نهائيا عن مبدأ المنفعة ، قد وصل خلال تطوره إلى نظرية أخلاقية تفوق النظرية التقليدية صقلا وجاذبية بكثير ، حتى ليجوز للمرء أن يقول إن مل قد حول الأنعام الخشنة المزعجة إلى سلم موسيقى أرق وأعذب . فحساسيته الأخلاقية الرفيعة ، المصحوبة بشعور مرهف في تقديره للقيم ، لم تستطع أن تقنعه بمذهب يرد كل فعل بشرى إلى السعى إلى اللذة والسعادة ، ويعبر عن جميع مشاعر اللذة والسعادة بطريقة كمية محضة . وصحيح أن مل يفاضل بين مشاعر اللذة وعدم اللذة ، وأنه كان في ذلك نفعيا بحق ، خير أنه يدرج في حسابه فروقا كيفية أيضا ، إذ لا يقتصر في تقديره لمشاعر اللذة على كميتها ، بل يقدرها أيضا تبعاً لمدى علو قيمتها . وهكذا فإن القيمة الأرفع مرتبة يمكن أن ترجح كنفها على قيمة من مرتبة أدنى ، ويمكن أن يعد المرء شخصية أخلاقية أرفع إذا كانت الأنواع العليا من القيم أوضح ظهوراً لديه من الأنواع الدنيا . وهكذا فإن مل حين يؤثر الحديث عن صالح البشر على تحقيق أكبر قدر من السعادة الأكبر عدد من الناس ، وحين يتحدث في فلسفته الأخلاقية عن

الواجب والخصية أكثر مما يتحدث عن السعادة والمنفعة ، وحين يجعل للقيمة الأخلاقية للإنسان مرتبة أعلى من مجرد السعى إلى تحصيل اللذة ، وحين يجعل المثل الأعلى للأخلاق مرتكراً ، آخر الأمر ، على النمو المتكامل المتناسق للشخصية ، في كل ذلك كان مل يستخلص نتائج ذلك التصويب الهام الذي أدخله على الصيغة الأساسية لمذهب المنفعة . وبالمثل خفف مل من حدة النزعة الفردية للمدرسة بالتفريق بينها وبين نوع معتدل من الاشتراكية . ومن السهل أن يرى المرء في ذلك مجرد نبذ جديد يصب في زجاجات قديمة . والواقع أن الأسس المنهجية عند مل تماثل نظائرها لدى أسلافه ، غير أن المحتوى قد طرأ عليه تغير غير قليل . فل يقف على مشارف نظرة جديدة إلى الحياة ، كان لديه عنها إحساس تنبؤى واضح ، وإن لم يكن التزامه قيود التراث قد حال دون تمكنه من إدراكها على نحو قاطع .

وسوف أضع اللمسات الأخيرة في الصورة التي أحاول رسمها لتفكير مل بلوحة عن موقفه من المسائل الميتافيزيقية والدينية . ففي ترجمته الذاتية لحياته نجد الفقرة المعبرة الآتية : « إننى في هذه البلاد ، واحد من الحالات القليلة جداً التي تمثل شخصاً لم يتخل عن إيمانه الدينى ، وإنما لم يكن لديه مثل هذا الإيمان قط . فقد نشأت في حالة سلبية بالنسبة إليه ، وبعد مرور وقت كبير كتب مل « ثلاثة أبحاث في الدين Three Essays on Religion » ، وهي أبحاث أثار دهشة عامة عندما نشرت بعد وفاته . ففيها لم يعد يتمسك بموقف الشك غير المكثرت من المسائل النهائية ، وإنما يناقشها بطريقة تحفل بالنظر الفلسفى الدقيق ، وإن يكن بتحسس طريقه بحذر نحو آراء إيجابية عن النظام الكونى ، وعن معنى الألم في العالم ، وطبيعة الله ، ومسائل ميتافيزيقية أخرى . وهو يبدى ، في اختبار الدقيق للطريق الذى ينبغى أن يودى به من الأسس التجريبية لتفكيره ، إلى محاولة الإجابة عن المشكلات المتعالية .

يبدى ميلا واضحا إلى فكرة وجود مبدأ إلهي للعالم . وهو يرى في هذا المبدأ  
 تأنسا له أعلى درجات الكمال الأخلاقي ، ولكن ليست له قدرة لا متناهية .  
 وهكذا يرى أن فكرة الإله المتناهي ، الذي يسير بالكون ، في صراعه الدائم  
 ضد المبادئ السلبية للعالم ، فهو تطور يزداد على الدوام ارتقاء ، والذي يحتاج ،  
 لذلك ، إلى التعاون الإيجابي من جانب الإنسان — يرى أن هذه الفكرة  
 تنسجم على أفضل نحو مع التجربة الأخلاقية والدينية ، وهي فكرة ثبتت في  
 كثير من الأحيان أنها قائمة في العصور التالية . وعلى الرغم من استحالة التوفيق  
 بين هذه المرحلة الأخيرة في تفكير مل ، وبين الآراء التي ورثها حول هذه  
 المسائل ، فإن هذه المرحلة لا تتناقض مع تطوره الفلسفي الخاص . وهي  
 تكشف بوضوح عن أفكار كانت قائمة خلال المجري العام لتفكيره ،  
 ولم تتكشف تماما لسبب واحد ، هو أن المذهب الذي ورثه قد أدى  
 إلى كبتها .

ولقد كان ، ألكسندر بين Alexander Bain ( ١٨١٨ — ١٩٠٣ )  
 أبنغ تلاميذ مل ، كما كان من أصحابه المقربين ، وكان يدين له بالفضل فيما  
 أحرزه من تقدم . وكان ينحدر ، مثل مل وأبيه ، من أصل اسكتلندي . كما  
 شغل فيما بين عامي ١٨٦٠ و ١٨٨٠ كرسى الأستاذية في المنطق بجامعة أبردين .  
 ويرجع الفضل إليه ، وإلى نجاحه بوصفه أستاذاً ، في احتلال المدرسة  
 التجريبية الجديدة لأول مرة المسكنة التي تستحقها في الأوساط الأكاديمية ،  
 وفي امتدادها إلى شمال المملكة ، حيث كانت المدرسة الاسكتلندية تسيطر  
 على الميدان حتى ذلك الحين ، وحيث توطدت أيضا ، منذ عهد قريب ، دعائم  
 المثالية . وهكذا فإن « بين » ، وفريزر ، الذي يمكننا أن نعدّه الحارس الذي  
 كان يحمى مؤخرة المدرسة الاسكتلندية في تقهرها ، وكذلك أ . كيرد  
 Caird ، هؤلاء الثلاثة ظلوا في وقت واحد ، وطوال سنوات عديدة ،

يمثلون ، في الجامعات الاسكتلندية ، المدارس الفلسفية الرئيسية الثلاث  
للفلسفة الإنجليزية في القرن التاسع عشر ، وفي ذلك الوقت كانت المدرسة  
الاسكتلندية في تدهور ، والتجريبية في أحل قممها ، والمثالية في طريقها  
إلى الصمود .

واقعد كان « بين » يتميز إلى جانب عمله في التدريس ، بالنشاط وغزوة  
التأليف في ميدان علم النفس والمنطق والأخلاق والتربية والنحو والبلاغة ،  
ولكن أهم ما اشتهر به هو إنتاجه في علم النفس . وأهم مؤلفاته كتابان عظيمان  
كان لهما تأثير واسع ، هما « الحواس والعقل The Senses and the  
Intellect ( ١٨٥٥ ) » و « الانفعالات والإرادة ، The Emotions & the will »  
( ١٨٥٩ ) ، وفيهما عالج ميدان الحياة الذهنية بأسره بصورة أدق وأشمل من  
أية محاولة سابقة ، واستمر سائراً في الطريق المباشر لعلم النفس الإنجليزي  
عن طريق ربط آرائه بكل الآب أكثر من الابن ، الذي لم يتعهد هذا الميدان  
من ميادين الدراسة بنظام ، وإن لم يكن قد تجادله تماماً . ولقد استعان كل  
ذاته بتلميذه « بين » ، في إعداد كتابه « المنطق » ، وتعاون معه هذا الأخير  
فيما بعد تعاوناً متمراً وتاقى منه مساعدة هامة ، ولذلك نظر إليه على أنه  
خليفته الصحيح في عمله .

وعلى الرغم من أن علم النفس عند « بين » قد نشأ من تراث المدرسة الإنجليزية ،  
التي ألزمتها الزاها تاندا ، سواد في مناهجها في البحث وفي مساهماتها الفلسفية ،  
فإنه يكشف في نواح عديدة عن تقدم يتجاوز الوضع القديم ، وتظهر فيه  
دلائل تبشر بالفترة المقبلة للمذهبين التطوري والإرادي ( evolutionism & voluntarism )  
وتمثل تعلقه الشديد بالتراث في تقديره الواضح للرقائع ،  
واحترامه للعلوم الدقيقة . ووجهه واستغلاله لكميات هائلة من مواد البحث ،  
كما تمثل أيضاً في منهجه الوصفي التحليلي ، واحتفاظه بمبدأ الترابط .



(أو التداعى) ، ويتمثل أخيراً فى رفضه للميتافيزيقا النظرية الخاصة بحول جوهر النفس وقد تميز عن مل وأبيه ، اللذين اقتصرنا على علم النفس المتعلق بالوعى ، بأنه وسع آفاق علم النفس فى اتجاه علم وظائف الأعضاء ، مثلاً فعل « هارتلى » من قبله ، وإن لم يكن قد اتبع فى ذلك أسلوب هارتلى الغامض ، الذى جمع بين الصيغة الدقيقة والصيغة الميتافيزيقية ، وإنما انتفع إلى أقصى حد بالنتائج الفسيولوجية التى كانت متوافرة فى ذلك العصر ، ولا سيما تلك التى قدمها « يوهانس مولر Johannes Muller » (١) ، وبذلك وضع علم وظائف الأعضاء ، بكل عتاده ، فى خدمة علم النفس . وقد بحث فى العلاقات بين الظواهر النفسانية وبين نظائرها فى المخ والجهاز العصبى ، ورد العمليات النفسانية العليا إلى أسسها الغريزية وشروطها العضوية ، كل ذلك دون وجود أى دافع من النظر الفلسفى المحض ، بل مع التزام حدود العلم الدقيق . ولكن على الرغم من أن « بين » لا يستخلص أية نتائج مادية ، بل إنه يرفضها صراحة ، فإنه يذهب فى رده الحياة الذهنية بأسرها ، ومجال الوعى كله ، إلى عمليات مادية إلى حد يصبح معه مهدداً على الدوام بالوقوع فى هوة المادية ، ولا يعصمه عنها إلا تحويله علم النفس إلى علم طبيعى دقيق ، وتجنبه كل قرار فلسفى . وكما أن محاولة هارتلى الأولى لبناء الحياة الذهنية على عمليات علم وظائف الأعضاء لم تفلت من الوقوع فى المادية إلا بفضل إيمانه الدينى القوى ، فإن هذه المحاولة الثانية التى قام بها « بين » لم تفلت من مصير مماثل إلا بفضل اهتمامه بالمنهج العلمى الدقيق .

وقد عمل « بين » على توسيع نطاق علم النفس المبني على الترابط (التداعى)

(١) يوهانس مولر ( ١٨٠١ - ١٨٥٨ ) : عالم فسيولوجى ألماني ، يعد مؤسس علم وظائف الأعضاء الحديث . كان أسساً لعلوم وظائف الأعضاء وللشريح فى جامعة بون ثم فى جامعة برلين . وكان لكتابه « بحث فى فسيولوجيا الإنسان » ، تأثير عظيم . وقد درس الجهاز العصبى ، ثم التشريخ المقارن فيما بعد .  
[المترجم]

وتحسينه في نواح هامة ، وأدخل أفكاراً جديدة متعددة في إطاره الجامد . ولم يقتصر ، كما اقتضت هذه المدرسة في علم النفس ، على الاهتمام بالعقل وحده ، وإنما اعترف اعترافاً كاملاً بالعوامل العاطفية والدوافع الأولية والغرائز والانفعالات ، الخ ، كما اعترف بالأهمية الحاسمة لمجال الإرادة بأسره في تكوين العمليات النفسانية وتوجيهها . وهكذا كان هو أول عضو في مدرسته يحاول الخروج على آلية الترابط السلبية ، والاعتراف بإيجابية الحياة الذهنية وتلقائيتها . كذلك حاول التخلص من فكرة تفتيت النفس بالنظر إليها على أنها عملية سيالة أو متعقلة ، أكثر منها مجموعة من العناصر المترابطة . وكان في ذلك كله يعمل حساباً لعنصر الإرادة وما يناظره في المجال الفسيولوجي ، وعلى الرغم من أنه كان بعيداً عن الآراء التطورية ( إذ أن أول كتابيه الهادين قد ظهر في نفس الوقت الذي ظهر فيه كتاب مهابدى علم النفس ، لسينسر ، وثانيهما قد ظهر في نفس العام الذي ظهر فيه ، أصل الأنواع ، لدارون ) ، فإنه استشهد في تفسيراته بموامل فسيولوجية وبيولوجية ، واستعان أكثر من كانوا قبله بالمنهج التكويني ( genetic ) . ومن الجوانب الأخرى الهامة في أعماله ، نظريته في الانتباه ، التي أكد فيها أهمية عنصر الإيجابية ، وإحياء نظرية هيوم في الاعتقاد belief ، ومناقشته لمشكلة العالم الخارجي في صدد نظرية المعرفة . فالشيء الخارجي ليس في رأي ، بين ، مجرد ناتج لسلاسل من الحاضرات الذهنية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً ، والتي نلقاها سلبياً ، وإنما هو عامل مفترض ضمناً في سلوكنا العملي ، يطلق فينا طاقات توترية ، ويضع نفسه ، من ناحيته الخاصة ، في مقابلنا . ويرى ، بين ، أن أصل اعتقادنا بحقيقة خارجية أو منفصلة إنما يكمن في الشعور الذاتي بمثل هذا التقابل . وهنا أيضاً تحل وجهة النظر العاطفية والإرادية voluntarist محل الحسية sensationalism والعقلية .

وتوجد في كتابات « بين » ، تفصيلات عديدة كهذه توحى بالتطور  
 التالى لعلم النفس كما تمثل لدى سبنسر « وفنت Wundt (١) » ، و « وورد  
 Ward » ، و « ستوت Stout » ، وغيرهم . ومع ذلك فإن مذهب « بين » ،  
 يظل على إجماله ترابطياً ، أو هو على الأقل يعود دائماً إلى النظرية الترابطية .  
 وفي كتاباته يتضح ، كما انضح في كتابات مل ، أن أغلال المدرسة أقوى  
 من الكشف الجديد . صحيح أنه قد هز هذه الأغلال ، ولكنه لم يستطع  
 تحطيمها . إذ على الرغم من أنه جعل للتلقائية الحياة الذهنية مكانة أبرز كثيراً مما  
 جعله لها أى مفكر سابق عليه ، فإنه يتضح آخر الأمر أن مصدر هذه التلقائية  
 لا ينبغى أن يلتمس في النفس ذاتها بقدر ما يلتمس في عوامل فسيولوجية  
 وعضوية كالإحساسات العضلية والحركات المنعكسة وتخفيف التوتر ، الخ ،  
 وهى عناصر يبنى عليها كل الظواهر النفسانية . وهو لا يعترف أبداً اعترافاً  
 سريحاً بالطابع الإيجابي للعمليات النفسانية بما هى كذلك ، أو للطاقة الذهنية  
 على التخصيص .

وإذن ففضل « بين » ، إنما ينحصر أساساً في توجيهه علم النفس التجريبي  
 وجهة أقرب إلى الطابع التقدمي الحديث . أما لو قارنا بقية أعماله بهذا العمل ،  
 لوجدنا أهميتها التاريخية أقل كثيراً . مهما بدت في أيامه مفيدة . وبعد « بين » ،  
 آخر مثل هام لمدرسة مل تظهر لديه آثار من روحه ، وإليه يرجع الفضل ،  
 أكثر مما يرجع إلى أى شخص آخر ، في حفظ تراث مل طوال جيل كامل  
 بعد وفاته . ذلك لأن نشاطه التأليفى الجهم قد امتد حتى نهاية القرن التاسع  
 عشر ، بينما طالعت حياته حتى القرن العشرين .

(١) ويلهلم ماكس فنت ( ١٨٣٢ — ١٩٢٠ ) عالم فسيولوجى ونفسانى ألماني ، كان أسناده  
 نفسيولوجياً فيليبسج . وله أبحاث عظيمة القيمة في علم النفس التجريبي ، كما ألف عن الأعصاب  
 والحواس ، والملاقات بين علم النفس وعلم وظائف الأعضاء ، والنماتق ، والأخلاق . [ المترجم ]

ونستطيع أن نذكر ، من بين معاصري دين ، الأحداث عهدا ، الذين .  
واصلوا حفظ تراث المدرسة ، أسماء فولر ، و دكروم و برنسن ، و دسلي . .  
وقد دار الجزء الأكبر من النشاط الفلسفي لهؤلاء المفكرين الذين أتوا في .  
أعقاب فلاسفة عظام ، في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، وتناول .  
مجالات المنطق ونظرية المعرفة والأخلاق ، والأهم من ذلك كله علم النفس .  
د ثوماس فولر Thomas Fowler ، ( ١٨٣٢ — ١٩٠٤ ) الذي كان .  
عميداً لكلية د كوربس كريستي Corpus Christi ، وأستاذاً للمنطق في .  
أكسفورد من ١٨٧٣ إلى ١٨٨٩ ، قد حول د منطق ، مل إلى مؤلف مدرسي .  
ميسر وشائع الاستعمال ( هو د أركان المنطق ، الاستنباطي والاستقرائي .  
The Elements of logic , Deductive & Inductive في مجلدين ، .  
عام ١٨٦٩ ) ، وكتب عن المذهب التجريبي الكلاسيكي ( فالف كتباً عن .  
يكن ولوك وشافيتسبري وهنتشسون ) وعالج المشاكل الأخلاقية في كتاب .  
شائع ( الأخلاق التقدمية Progressive Morality ، ١٨٨٤ ) وفي كتاب آخر .  
أقرب إلى الطابع العلمي الدقيق ( مبادئ الأخلاق Principles of Morals ، .  
الجزء الأول في ١٨٨٦ والجزء الثاني في ١٨٨٧ ) . وقد قاد في الكتاب الأخير .  
إلى أفكار الفلاسفة الأخلاقيين الإنجليز في القرن الثامن عشر ، محاولاً التمييز .  
بوضوح بين الجزء الذي يفرضه الشعور الأخلاقي وبين ذلك الذي يفرضه القانون .  
والمجتمع والدين . وبذلك أراد أن يثبت الاستقلال الذائقي للجمال الأخلاقي ، معرفاً .  
ذلك الجزء بأنه شعور الرضا أو السخط الذي نحس به عندما نكتفي بالتفكير .  
في أفعالنا الخاصة ، دون أي رجوع إلى سلطة خارجية . وقد أكد الطابع .  
التقدمي للأخلاق ، وعزاه إلى الزيادة التدريجية في دقة الحساسية الأخلاقية .  
وتهذيبها ، كما عزاه إلى العناصر العقلية في الفعل الأخلاقي أكثر مما عزاه .  
إلى العناصر العاطفية فيه . وكان ، مثل مل ، يمثل مذهباً نفعية معتدلاً ، .

واعترف بالفروق الكيفية بين مشاعر اللذة وانعدامها ، وأدرك عدم تطابق الدوافع الأخلاقية العليا والدنيا . وقد استبدل بمبدأ المنفعة في صورته الخشنة الساذجة ، فكرة الرفاه Welfare or well-being التي فهمها تماما بمعنى « السعادة eudaimonia عند أرسطو .

أما المفكر الاسكتلندي جورج كروم روبرتسون G. Croom Robertson ( ١٨٤٢ — ١٨٩٢ ) فكان أقوى من السابق كثيرا وأقل خضوعا للتراث . وكان تلميذا وزميلا « لين » . ودرس في برلين ( على ترندلنبرج (١) Trendelenburg وديبوا ريمون (٢) Du Bois-Reymond وفي جيتنجن ( على لوتسه (٣) Lotze ) ، كما درس في باريس ، وشغل منذ عام ١٨٦٧ حتى وفاته أستاذية الفلسفة في الكلية الجامعية ( يونيفرسيتي كوليدج ) بلندن ، وكان هو أول من شغل هذا المنصب . وقد قام روبرتسون بدور مفيد في دعم الدراسات الفلسفية وتشجيعها في الجامعات ، وكان من أقوى الشخصيات الفلسفية في أيامه ، وهي صفة اكتسبها بتأسيسه لمجلة « مايند Mind » الفلسفية التي ظل عدة سنوات رئيساً لتحريرها . وهذه المجلة تعد أهم نشرة

---

(١) فريدرش أدولف ترندلنبرج ( ١٨٠٢ — ١٨٧٢ ) فيلسوف ألماني ، كان أستاذا بجامعة برلين من سنة ١٨٣٢ إلى وفاته ، له مؤلف عام في فكرة الحق الطبيعي الذي على الأخلاق ، وفي تاريخ نظرية المقولات ، وفي منطق أرسطو . [ المترجم ]

(٢) إميل دي بوا ريمون ( ١٨١٨ — ١٨٩٦ ) عالم فسيولوجي ولد في برلين وتوفي بها . وقد ارتبط اسمه بوجه خاص بالأبحاث في الكهرباء الحيوانية ، التي ألف فيها كتابه الأساسي . [ المترجم ]

(٣) رودلف هرمان لوتسه ( ١٨١٧ — ١٨٨١ ) فيلسوف مثالي ألماني ، درس الطب والفلسفة ، وكان أستاذا بجامعة ليبسج وجوتنجن . وله مؤلفات هامة في علم وظائف الأعضاء واليتافيزيقا والمنطق ، ولكن أهم مؤلفاته هو « العالم المصغر Microcosmus » الذي عرض فيه مثاليته الغائبة مرضا شاملا . [ المترجم ]

فلسفية في البلاد الناطقة بالإنجليزية ، وكانت فكرة تأسيسها ، في عام ١٨٧٦ ترجع إلى « بين » ، ويمكن القول إنها لا زالت حتى اليوم متأثرة بروح رئيس تحريرها الأول . ولقد كانت المجلة عندئذ ملتقى لأكثر المدارس الفكرية تنوعاً . وقد كرم روبرتسون ، بعد أن تتلمذ على « بين » ، معظم جهوده لعلم النفس ؛ ولم يكن يميل إلى تأليف الكتب (١) ؛ ولكن جهوده انصرفت إلى التوسع في دراسة مشكلات منفصلة من علم النفس ، بدلا من أن تنبج إلى معالجة ميدان الظواهر النفسانية كله بالتفصيل ( كما فعل « بين » ) . وكان مما أعانه على ذلك ذهنه التحليلي المدقق ، وقدرته النقدية الفائقة ، مما أتاح له القيام بأبحاث رائعة في التحليل النفسي ، كأبحاثه في الإدراك الحسي والذاكرة والعمليات الفكرية والازرع الإرادي ، وهي أبحاث كان منها عافق مسترى أستاذه بكثير . وعلى الرغم من أنه كان ، على وجه العموم ، من أنصار المذهب التجريبي ، فإنه لم يسمح لنفسه بالنقيد بأغلال التعاليم الصارمة للدراسة ، وإنما كان الدوام تواقاً إلى توسيع أفقه الذهني وتعميق معلوماته الفلسفية . وكانت لديه معرفة شاملة دقيقة بمجال تاريخ الفلسفة بأسره ، كما كان ملهاً إلماماً واسعاً بمؤلفات كبار الفلاسفة الألمان ، ولا سيما كانت . وكان مقتنعاً اقتناعاً عميقاً بحاجة الفلسفة التجريبية الإنجليزية إلى أن تكتسب قوة جديدة بعد أن تضاف إليها الأفكار العميقة التي ينطوى عليها كتاب « نقد العقل الخالص » ، لكانت .

وكان هذا هو الاتجاه الغالب على مؤلفاته ، ولا سيما في ميدان نظرية

---

(١) لم ينشر روبرتسون ذاته سوى كتاب صغير ، ولكنه رائع ، عن هيز ( ١٨٨٦ ) وأبحاث ومقالات متعددة في مجلات دورية ومجموعات . وقد نشرت معظم مقالاته بعد وفاته بعنوان « مخلفات فلسفية Philosophical Remains » ( ١٨٩٥ ) ، كما نشر في ١٨٩٦ مجلدان من محاضراته هما : « أركان الفلسفة العامة . Elements of General Phil » و « أركان علم النفس Elements of Psychology » .

المعرفة . ولم يكن ينفر من الميتافيزيقا ، وقد بذل قرب نهاية حياته محاولة طريفة ، اتخذ فيها نقطة بدايته على أساس المذهب التجريبي ، محاولا الوصول إلى مذهب في الكونيات قريب من مذهب الذرات الروحية عند ليبنتس ، وإن يكن قد اختلف عنه في نواح كثيرة .

على أن الخليفة الحقيقي للودين ، في ميدان علم النفس لم يكن روبرتسن ، وإنما « جيمس سلي » James Sully « ( ١٨٤٢ - ١٩٢٣ ) خليفة روبرتسون في الكلية الجامعية ( يونيفرستى كوليدج ) بلندن ( من ١٨٩٢ إلى ١٩٠٣ ) . ولم يكن سلي فيلسوفاً بقدر ما كان باحثاً وملاحظاً تجريبيّاً علمياً مثابراً . وكان مثل « بين » - الذي كان يشبهه كثيراً - منغمساً بكل قواه في مجال التجربة ، وكان يجمع كميات ضخمة جديدة من المواد أو يعيد اختبار المواد القديمة في ضوء آخر ، وبذلك كان يوسع الأساس القديم ويمده دون أن يتجاوزَه أو يزوده بأساس فلسفي أفضل . ولقد كان دائماً يتخذ موقف عالم النفس التجريبي ، مهما كانت المجالات أو الموضوعات التي يعالجها . وهكذا فإنه ناقش مثلاً مشكلة الضحك التي كرس لها كتاباً كبيراً ( هو : « بحث في الضحك » An Essay on Laughter ، ١٩٠٢ ) لا بأسلوب فلسفي أو ميتافيزيقي كما فعل برجسون ، بل تناول الموضوع ، من خلال جميع مظاهر تطوره ، من نفسية وفسبولوجية وأثروبولوجية وإثنولوجية وبيولوجية واجتماعية ، ولكنه لم يتمكن من الإتيان « بالنظرية الفلسفية الحقيقية » التي رأى أنها هي القمة التي ينبغي أن تنتهي إليها جميع هذه النواحي المنفصلة . وكان قد بحث قبل ذلك بوقت طويل في مشكلة الوم Illusion بأسلوب مماثل وفي تلك الحالة أيضاً اكتفى « بدراسة نفسية » ، تاركاً مجال معالجة الموضوع بمزيد من التوسع للفلاسفة ، الذين هم القادرون على الإتيان بالحل الصحيح للمشكلة ( « الأوهام » ، دراسة نفسية ، Illusions,

عالم علم النفس وفقاً لمبادئ « بين » ، أى بطريقة فسيولوجية ووفقاً لمنهج التراط ، فتناول هذا العلم أولاً بصورة مجملة ( فى كتاب « الجمال فى علم النفس Outlines of Psychology ، سنة ١٨٨٤ ) ، ثم عرضه عرضاً شاملاً جامعاً بوعفه علم الذهن البشرى ( الذهن البشرى The Human Mind فى مجلدين ، ١٨٩٢ ) . وقد عده أساس كل المعرفة التى ترمى إلى توجيه وتحديد مجرى الفكر والشعور والعمل ، وهكذا قلد « بين » ، فى مد علم النفس إلى مجال نظرية التربية ( وذلك فى « الجمال » الذى كتبه « مع إشارة خاصة إلى نظرية التربية » ، ثم بعد ذلك بوقت قصير فى : « المرجز فى علم النفس للمعلمين Teachers Hand- book of Psychology ، ١٨٨٦ ، الذى ظهرت له ترجمة ألمانية فى ١٨٩٨ ) . كذلك عالم ميدان علم نفس الطفل ( فى كتابه « دراسات فى الطفولة Studies of Childhood ، ١٨٩٥ ) ومضى فى هذا الصدد أبعد من « بين » بكثير ، كما اقتدى بالاتجاه السائد فى عصره إذ عالم أيضاً علم النفس التجريبى ، الذى كان مقتنعاً بفائدته ، ولا سيما فى التعليم . وأخيراً ، فإن شغفه بالتجربة قد جعله يوجه اهتمامه إلى علم الجمال ، وبذلك فتح للذهب التجريبى مجالاً كان جديداً ، أو على الأقل مجالاً طال تجاهله منذ القرن الثامن عشر . ولكنه هنا أيضاً اقتصر على بحث سيكولوجية الظواهر الجمالية ، واكتفى بالتصنيف والتحليل والوصف ، بحيث أخفق فى المضى بالدراسة إلى مجال جديد أو فى السير بها فى طريق فلسفى ، وإنما اقتصر على تطبيق المنهج القديم على مادة من نوع جديد ( وذلك فى مقاله عن « علم الجمال » الذى كتبه « لدائرة المعارف البريطانية » ، فى طبعها التاسعة ، عام ١٨٧٥ ، وفى بعض الأبحاث التى نشرها فى مجلات دورية ) .

ولقد كان الأصل الذى ظهرت من خلاله الحركة التجريبية لدى الكتاب



الذين ذكرناهم منذ قليل هو الأبحاث النفسية قبل كل شيء . غير أن انجماها آخر قد تفرع منها ، وكرس أبحاثه لفلسفة التاريخ ، ولا بأس من أن نلم هنا بشيء عنه بإيجاز . فقد أثار مل ، ومعه كونت في نفس الوقت ، الاهتمام بالعلوم الذهنية وبمناهجها وطابعها المنطقي . وقد اعتقد هذان المفكران أنهما إذا نقلتا منهجى القانون الطبيعى والعملي الدقيقين إلى عالم التاريخ السياسى والاجتماعى الذى تمثله هذه العلوم ، ففى إمكانهما أن يفسرا معناها وغايتها . وحاولا أن يختبرا هذه الفكرة ، ويبرراها بقدر الإمكان ، من خلال البحث فى التاريخ المعاصر لهما . وكان من نتيجة ذلك أن أدخل عنصر فلسفى فى فهم التاريخ ، وبالتالي حدث تقارب مع الأبحاث التاريخية لعصر التنوير ، وهى الأبحاث التى كانت زاخرة بالآفكار الفلسفية ، ولا سيما لدى فولتير . وهيوم . وهكذا ألف جورج جروت G. Grote تليد بنتام وصديق مل ( انظر من قبل ص [ ٥٩ ] وما يليها ) كتابه « تاريخ اليونان » ، ( فى ست مجلدات ١٨٤٥-١٨٥٦ ) بروح فلسفية ، وإن لم يبلغ فى ذلك حد الإفراط . وكانت أروع وأهم المحاولات التى بذلت فى إنجلترا فى هذا الصدد ، هى محاولة « توماس هنرى بىكل T. H. Buckle » ، ( ١٨٢١ - ١٨٦٢ ) مؤلف الكتاب المشهور « تاريخ المدنية فى إنجلترا History of Civilization in England » ، ( وكان المفروض أن يشتمل المؤلف بأكمله على أربعة عشر مجلدا ، ولكن لم يظهر منه إلا الاثنان الأولان بوصفهما مقدمة ، فى عامى ١٨٤٧ و ١٨٦١ ؛ وقد طبعهما Ritter طبعة ألمانية غير محددة التاريخ ) . وعلى الرغم من أن بىكل لم يكن تليدا لآى أستاذ معين ، فقد تأثر بقوة بالآفكار الوضعية . وكان الأساس الفلسفى لتفسيره للتاريخ مكونا من أفكار مل وكونت على السواء . فضلا عن مفكرى عصر التنوير الإنجليز والفرنسيين من قبلهم . ولهذا فالأساس الفلسفى صلة وثيقة جداً بالنظرة المادية : إذ أن الفكرة الرئيسية

فيه هي أن الحياة الروحية وكل التقدم الحضارى تتوقف على الأحوال المادية .  
 للبيئة ، أى على عوامل المناخ والتربة والتغذية . وهذا يستتبع بطبيعة الحال  
 نقل مناهج العلم الطبيعى إلى علوم التاريخ والحضارة ، وقد استخلص بكل  
 النتائج الجريئة التى تنل من هذا رأى . فعالم التاريخ يخضع لنفس القوانين  
 العلية الدقيقة التى يخضع لها عالم الطبيعة . وفى الطبيعة البشرية اطراد يناظر  
 الاطراد فى مجرى الطبيعة المادية ، بحيث لا يحدث أى شىء فى أحد المجالين  
 إلا وفقاً لتعاقب ضرورى . ويحتل الإحصاء فى التاريخ نفس المكانة التى  
 تحتلها الرياضة فى العلوم الطبيعية ؛ فهذان العلمان يقومان بحساب دقيق لجميع  
 العوامل التى تنتج وتحدد حادثاً تاريخياً أو وضعا اجتماعياً معيناً . ولقد كان  
 « بكل » مؤمناً إلى حد التعصب بمقدرة الإحصاء ، واستخلص بالاستناد إليه  
 نتائج جريئة معروفة . ولم يكن اهتمامه موجهاً إلى الشخصيات الفردية وأفعالها  
 الإرادية الحرة الظاهرة ، بقدر ما كان موجهاً إلى العوامل المطردة العامة  
 التى تعبر عنها الحركات الجماهيرية الكبيرة ؛ فالأخيرة ، لا الأولى ، هى التى  
 تشكل تلك الحياة التى تتجسد فى التاريخ والحضارة . ولسنا نستطيع أن  
 نتخيل تقابلاً أوضح من ذلك الذى قام بين طريقة « بكل » ، الجماعية الواقعية  
 فى كتابة التاريخ ، وبين طريقة معاصره كارليل الفردية المثالية البطولية .  
 واقد كانت أفكار « بكل » مستمدة ، بوجه عام ، من القرن الثامن عشر ،  
 ومن هنا لم يكن خصومه على خطأ حين سخروا منه قائلين : إنه ابن لعصر  
 التنوير تأخر ظهوره قرناً من الزمان . ولقد حارب الدين والكنيسة بوصفها  
 قوى تمثل الجهالة فى التاريخ ، وكان لديه إيمان متعصب بالتقدم ، لم يكن  
 مبنيّاً لديه على أى أمل فى التقدم الأخلاقى للجنس البشرى ، وإنما أُنْفِى على  
 التوسع المتزايد فى المعرفة والتنوير بفضل العقل . وعلى الرغم من أنه ربط الروح  
 بالطبيعة ، فقد كان يؤمن بقدره الروح على إخضاع الطبيعة والسيطرة عليها .

وذلك بين الشعوب التي تتحقق فيها شروط النمو والتقدم عن طريق تزايد انطباع حياتها بالطابع العقلي بفضل العلوم الدقيقة والنقد الفلسفي ( الذي عزأ إليه وظيفة حضارية ذات أهمية خاصة ) .

ولقد أثار تفسير « بكل » للحضارة ، بما اتصف به من طموح وتبحر وروح نقدية دقيقة ، عاصفة كبرى في الحياة العقلية بإنجلترا بعد منتصف القرن التاسع عشر ، وكان من أقوى العناصر التي دخلت في تكوين الحركة التطورية ، وهي الحركة التي بدأ ظهورها حوالي ذلك الوقت ، وإن كان تأثير « بكل » نفسه بها لا يكاد يذكر . ولقد ظهرت بعده محاولات أخرى لإيجاد تفسير فلسفي للعصور الماضية ، مثل محاولة « لكي W.E.H. Lecky » ( ١٨٢٨ - ١٩٠٣ ) في كتابه ، تاريخ ظهور روح المذهب العقلي في أوروبا وتأثيرها History of the Rise and Influence of the Spirit of Rationalism in Europe ( ظهر في مجلدين ، عام ١٨٦٥ ، ونشره « سولوفيتش » بالألمانية ، وظهرت الطبعة الثانية لهذه النشرة في ١٨٧٣ ) وفي كتاب تاريخ الأخلاق الأوروبية من أوغسطس إلى شارلمان « History of European Morals from Augustus to Chalemagne ( في مجلدين ، ١٨٦٩ ) وكتاب « تاريخ إنجلترا في القرن الثامن عشر History of England In the 18th Century ( في ثمانية مجلدات ، ١٨٧٨ - ١٨٩٠ ) وهي كتب استوحى مؤلفها فيها كلها روح « بكل » . كما ظهر أيضاً كتاب « تاريخ التطور العقلي لأوروبا History of the Intellectual Development of Europe ( ١٨٦٢ ) للعالم جون و . دريپر John W. Draper ، الذي هاجر إلى أمريكا ، وكذلك الكتاب الرائع « تاريخ الفكر الإنجليزي في القرن الثامن عشر Hist of English Thought in the 18th Centnry ( في مجلدين ، ١٨٧٦ - ١٨٨١ ) من تأليف ..

لزلى ستيفن Leslie Stephen (١٨٣٢ - ١٩٠٤) ، وهو كتاب تسوده أفكار « بكل » ، وإن يكن قد تأثر أيضاً بفكرة التطور .

ونستطيع أن نشير أيضاً إلى مفكرين آخرين تربطهما بمدرسة مل صلة غير وثيقة ، وينتمى الجزء الأكبر من تعاليمهما إلى المدرسة النفعية أو التجريبية ، وإن يكونا قد تأثرا أيضاً بأفكار أخرى ، وهما المفكر الأخلاقي هنرى سدجويك Henry Sidgwick والمفكر المنطقي والميتافيزيقي كارفث ريد Carveth Read .

أما هنرى سدجويك (١٨٣٨ - ١٩٠٠) (١) فقد ذاع صيته بظهور كتابه « مناهج الأخلاق Methods of Ethics » ، وهو أول مؤلفاته ( باستثناء كتيب صغير ) وأبعدها تأثيراً . وقد ظهر الكتاب عام ١٨٧٤ ، بعد وفاة مل بعام واحد ، وكان ذلك العام هو الذى شهد أول إنتاج للحركة المثالية فى أكسفورد ، وهو « مقدمات جرين لهيوم » ، وكتاب « منطق هيجل Logic of Hegel » ، لولاس . وقد أدى كتاب سدجويك ، الذى اكتسب شهرة غير قليلة ، بالإضافة إلى شخصيته الخاصة وتدريسه ، إلى إنهاض وتقوية الاهتمام بالفلسفة فى كيمبردج على نحو يناظر النهضة التى أحدثها تلاميذ كانت وهيجل فى أكسفورد . وأصبح سدجويك على رأس حركة لم تكن حقاً جديدة تماماً ، ولكنها كانت تمثل تجمعا جديداً لقوى تؤيد تنمية التراث القوي فى الفلسفة . وصحیح أن القوة الدافعة التى بعثها ، والتى دعمها « وورد Ward » ، من بعده ، لم تؤد إلى ظهور مذهب قوى متحدد

(١) أصبح فى ١٨٥٩ زميلاً فى « ترينيتى كولدج Trinity College » بكيمبردج ، ثم عين أولاً محاضراً فى الدراسات القديمة ، وأصبح فى ١٨٦٩ محاضراً فى الفلسفة الأخلاقية ، وفى ١٨٨٣ عين أستاذاً للفلسفة الأخلاقية بجامعة كيمبردج . وهو من مؤسسى جمعية الأبحاث النفسانية وكان أول رئيس لها ( ١٨٨٢ ) .

تلك العالم نسبيا ، كما حدث في أكسفورد ، غير أنها قطعا مهدت الطريق للانطلاق الفكري الذي حدث في أوائل القرن العشرين ، والذي يرتبط بفلسفة كيمبريدج قبل غيرهم . ومن الممكن القول إنه قام في الأخلاق بنفس الدور الذي قام به وورد في علم النفس ، مع فارق واحد ، هو أن وورد قد فتح صفحة جديدة ، على حين أن سدجويك قد اختتم وطوى صفحة قديمة .

ولقد كانت الشهرة الهائلة التي أحرزها سدجويك في الفلسفة طوال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، بل وبعد ذلك أيضا ، ترجع كلها إلى كتابه الأول ، الذي لا يمكن أن تقارن به في الأهمية جميع مؤلفاته الأخرى . مأخوذة معا (١) .

ويحتل هذا الكتاب مكانة عليا ضمن أشهر المؤلفات الأخلاقية التي ظهرت في إنجلترا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بل لقد أصبح بالفعل كتابا كلاسيكيا . ومع ذلك فإن أهميته قد بولغ فيها . فالقول إنه كتاب غير مجرى البحث في علم الأخلاق إنما ينطوي على استخدام لتعبير بالعتيق ، وإذا سمح بهذا الوصف فينبغي أن يكون ذلك للدلالة على معنى أقل بكثير من ذلك الذي يقصد عندما يطبق ، في الفترة ذاتها ، على مل وسبنسر من جهة . وعلى جرير وبرادلي من جهة أخرى . ذلك لأن سدجويك لم يضع منهجا جديدا ولم ينشئ مذهبا جديدا ، وإنما ينحصر فضله في أنه صنف ورتب وراجع وقوم مجموعة موجودة من قبل من الأفكار ، وحاول أن يربط على نحو مشمر بينها وبين أفكار أخرى جديدة .

(١) « مبادئ الاقتصاد السياسي » ١٨٨٣ ، المجلد في تاريخ الأخلاق (١٨٨١) ( وقد أعيد طبعه مرارا ) أركان السياسة ، ١٨٩١ - الأخلاق العملية ١٨٩٨ - الفلسفة ، نظاها وعلاقتها ، ١٩٠٣ ، ومحاضرات في المذاهب الأخلاقية عند جرير وسبنسر ومارتينو ، ١٩٠٢ ، « تطور التنظيم السياسي الأوروبي » ، ١٩٠٣ ، « رسائل وخطب متفرقة » ، ١٩٠٤ ، « محاضرات في فلسفة كانت ، وغيرها » ١٩٠٥ . وقد نشرت المؤلفات الخمسة الأخيرة من بين مؤلفاته .

وعلى الرغم من أن بعض كتاباته تتناول أعم المسائل الفلسفية ، فقد كاد اهتمامه يكون منحصراً كله في المشاكل الأقرب إلى الطابع العملي ، وفي وقائع الحياة الأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وفي المناهج والمقولات التي يمكن دراستها بواسطة . وكان هدفه الأساسي هو أن يجعل من الأخلاق مبحثاً فلسفياً مكثفياً بذاته ، متحرراً من كل تحزب ميتافيزيقي ونفساني وديني ، ومتحرراً من البلاغة ومن الانحياز إلى الوعظ والإرشاد . ذلك لأن الأخلاق عنده ليست قواعد للسلوك وإنما هي نظرية . ومن الواجب ألا يعد نصيراً لقيم قديمة أو داعية لقيم جديدة ، بقدر ما يجب أن يعد مشاهداً هادئاً يتأمل الوقائع بروح تبلغ من الموضوعية بقدر ما تسمح طبيعة هذه الوقائع وطبيعته هو الخاصة . ولقد كانت عبقريته الفلسفية نقدية وتحليلية قبل كل شيء . ولا يكاد يكون لسدجويك ، بين معاصريه ، نظير في تلك المقدرة والمثابرة اللازمة للنظر إلى المشكلة الواحدة من أكثر الزوايا تبانياً ، وتبعبها بالقيام بتحليلات أدق وتعقب الاعتراضات والردود على الاعتراضات حتى آخر تفرعاتها . على أن هذا الميل إلى النظر إلى الأشياء بطريقة ميكروسكوبية قد حال بينه وبين تأمل المشكلة الواحدة ، أو مجموعة المشاكل ، في كليتها . فطالما كان يضل طريقه في متاهة من التفاصيل ، ويعجز عن إدراك معالم الطريق الموصل إلى أية نتيجة واضحة ، وقد أدى به حرصه على تجنب الانحياز إلى إعطاء شيء من الحق لجميع الأطراف ، بحيث كانت النتائج التي وصل إليها بالفعل أقرب إلى الحلول الوسطى منها إلى الحلول الأصلية للمشكلات . وترتب على ذلك أن اصطبغت كتاباته كلها ، ولا سيما كتابه الرئيسي ، بطابع رتيب ممل ، فهي في تردها أعجز من أن توصل القارئ إلى تكوين فكرة محددة تسيطر على ذهنه . وكان منهجه مقارباً لمنهج العلوم الخاصة ، وهو عكس الطريقة التركيبية التأملية التي كان يتبعها مفكرو

أ. كسفورد . وليس في وسع أحد أن ينكر أن منهجه هذا قد أثر في فلاسفة كيمبريدج اللاحقين ، فالتقارب بينه وبين منهج مفكرين مثل « مور Moore » و « ماكتجرت Mctaggart » و « برود Broad » أوثق من أن يسمح لنا بافتراض أن هذا التقارب ، في بيئة واحدة ، لم يحدث إلا مصادفة . وعلى ذلك فمن الواجب تقدير منهجه على أساس تأثيره في المستقبل ، على عكس محتوى مذهبه الذي كان ، كما لاحظنا ، يمثل نهاية فترة أكثر مما يمثل بداية فترة أخرى .

وهو يعرف الأخلاق بأنها تحديد الفرد بطريقة عقلية للفعل الصحيح . فهي علم معياري ، وليست مجرد علم وضعي ، ومجالها هو مجال ما ينبغي أن يكون ، يتميزاً عما هو كائن ، وهو يشمل الغايات أو الأوامر التي يحددها لنا العقل العملي . ويرى سدجويك أن هناك محاورتين فقط ، من المحاولات التي بذلت للوصول إلى صيغة للمثل الأخلاقي الأعلى ، هما وحدهما اللتان يمكن أن تعدا معقولتين ، إحداهما هي تلك التي ترى ، ذلك المثل الأعلى في السعادة ، والآخرى تلك التي تجده في الكمال . وللأولى صورتان متميزتان ، إحداهما ترى أن السعادة التي ينبغي أن تطلب هي سعادة الشخص ذاته ، والآخرى ترى أنها هي سعادة الآخرين . وعلى ذلك فمن الممكن تقسيم المذاهب الأخلاقية إلى ثلاثة أنماط رئيسية ( كان لكل منها ممثلوه في التاريخ ) ، هي الأنانية أو مذهب اللذة الأناني egoistic hedonism ، والمنفعة أو مذهب اللذة الشاملة universalistic hedonism ، والمذهب الحدسي intuitionism .

أما المذهب الحدسي فهو مبني على الاعتقاد بوجود هديهيات أخلاقية ، أي مبادئ لها صحة واضحة بذاتها ، ومن أمثلتها أنه لا ينبغي لي أن أفضل خيراً حاضراً على خير أعظم منه في المستقبل ، أو خيراً لذاتي على خيراً أعظم

منه لغيرى . أما القضايا المماثلة للقضية القائلة إن من واجبي قول الصدق . والوفاء بالوعد ، فليست بدايتها مباشرة كالسابقة ، غير أن المبادئ المعترف بها اعترافاً عاماً ، كالحيطة والعدالة والإحسان ، تشمل على أية حال عناصر يتركها الذهن مباشرة . ويرى سدجويك أن المذهب الحدسي يتمثل على أوضح نحو لدى « كلارك » و « كانت » . ولستطيع أن نضيف إليهما « مارتينو Martineau » ، الذي لم تكن نظريته قد اشرت في صورتها الناضجة عندما ظهر كتاب سدجويك لأول مرة . أما بالنسبة إلى مذهب اللذة hedonism ، فإن سدجويك قد أسدى خدمة هامة إذ ميز تمييزاً قاطعاً بين نوعين منه . فمذهب اللذة الأناني ، الذي يمثله أبيقور ، يتخذ من لذة المرء نفسه وألمه معياراً للسلوك ، ويدعم هذا الرأي بالنظرية النفسية القائلة إن هدف كل فعل لنا إنما هو تحصيل اللذة أو تجنب الألم ، ويضيف إلى ذلك الرأي القائل إن اللذة والألم قابلان للقياس والمقارنة فيما بينهما ، بحيث يكون من الممكن مواجهتهما الواحد بالآخر والبحث عن توازن ملائم بينهما . وأما مذهب المنفعة ، كما يتمثل لدى بنتام وجون ستورت مل ، فيتخذ معياراً للسلوك ، لا من سعادة كل فرد ، بل من سعادة الجميع . ففي كل فعل لي يتعين على مراعاة مصالح جميع الأشخاص الآخرين الذين قد يتأثرون به . وهكذا كانت الصيغة التي تلخص رأي بنتام هي « أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس » . ولم يكن في وسع سدجويك أن يهتدى في أي من هذه المذاهب إلى ذلك الذي يمكنه أن يقول إنه يمثل مذهبه الخاص . ولقد كان الذي يسمى إليه هو مركب يجمع أكبر قدر ممكن مما يبدو له صحيحاً في كل من هذه المذاهب ، على الرغم من أن ما توصل إليه لم يكن إلا حلاً وسطاً غير مرض . ولقد كان أبغض المذاهب إليه هو الأنانية ، في صورتها الأخلاقية والنفسانية ، وقد رفضها في النهاية رفضاً قاطعاً ، بوصفها منافية-



للتجربة والعقل معا . أما مذهب اللذة الشاملة ، فقد سار معه سدجويك .  
 شوطاً بعيداً ، ولكنه عدّله تعديلاً أساسياً ، متجاوزاً مل بتكره المذهب .  
 اللذة النفسى الذى ارتكز عليه المذهب كله عند مل ، وملتصاً له أساساً  
 مخالفاً تماماً . وكان مطلبه يسير فى اتجاه المذهب الحدسى ، الذى وجد أن  
 الغاية الأخلاقية لا تكون فى الاستقرار التجريبي ، وإنما تكون فى التبصر  
 العقلى المباشر . وقد اختلفت الآراء كثيراً حول المصدر الذى تأثر به فى هذا  
 الصدد ، وهل هو الأخلاقيون الإنجليز القدامى مثل كلارك وبطر ، أم هو  
 كانت و د لوتسه Lotze ، ، والأرجح أنه تأثر بالجميع ، ولكن من الواجب  
 استبعاد أى اقتباس عميق منه للأخلاق المثالية الألمانية ، إذ أنه كان متمسكاً  
 بأركان أساسية فى المذهب النفى ، واكتفى بتصحيحه وتعديله وتوسيعه ،  
 ولم يحاول أبداً أن ينشق عنه . أما العناصر التى اقتبسها فعلا فلم تكن مرتبطة  
 بتفكيره إلا ارتباطاً خارجياً ، لا متمثلة فيه عضوياً . ونستطيع أن نشير ،  
 للإدلة على ذلك ، إلى الموقف العدائى الذى سرعان ما اتخذته نحو سدجويك .  
 الأخلاقيون الإنجليز الأحداث عهداً ، الذين تأثروا بالمثالية الألمانية ،  
 وهو موقف نجد تعبيراً واضحاً عنه فى كتاب برادلى « دراسات أخلاقية  
 Ethical Studies » ( ١٨٧٦ ) وفى كتيبه الخاص « مذهب اللذة عند  
 سدجويك Mr. Sidgwick's Hedonism » ( ١٨٧٧ ) ، فضلاً عن كتاب  
 جرين « مدخل إلى الأخلاق Prolegomena to Ethics » ( ١٨٨٣ ) الذى  
 اتخذ من سدجويك هدفاً مستمراً للهجوم . ولقد كان سدجويك ذاته شاعراً  
 بهذه العداوة ، ويتضح عجزه عن إنصاف مدرسة أكسفورد كما تنمى فى  
 « جرين » بجلاء فى كتابه الذى صدر بعد وفاته بعنوان « محاضرات فى المذهب  
 الأخلاقى عند جرين وسبنسر ومارتينو » .

وعلى ذلك فإن موقف سدجويك الخاص ، بقدر ما يمكن القول إن له موقفا خاصا ، هو أقرب إلى الجمع بين عناصر مستمدة من المذهب الحدسى والمذهب النفعى ، والتوفيق بين الأخلاق العقلية والأخلاق التجريبية ، وهما التياران الرئيسيان فى الفلسفة الأخلاقية الإنجليزىة ، اللذان كانا من قبله فى صراع ، أو على الأقل كان كل منهما متباعدة عن الآخر . ولقد أطلق هو ذاته على مذهبه اسم مذهب المنفعة — وأحيانا كان يطلق عليه اسما أوضح ، هو مذهب المنفعة المبني على أساس حدسى — وبذلك لفت الأنظار إلى الرجة الذى أراد أن يؤكد أنه أكثر من غيره . ولا تكاد تظهر فى مذهبه أية علامات للمذهب التطورى عند سبنسر وهكسلى وسقيفن وألكسندر ، وغيرهم ، وهم الذين عملوا جميعا على تطبيق مبادئ دارون على الأخلاق بعد ظهور كتاب سدجويك . وعلى الرغم من أنه حاول فى الطبقات التالية لكتابه أن يعرض لهذا المذهب ، فمن الواجب أن بوصف موقفه ، حتى فى النهاية ، بأنه سابق على مذهب التطور ، وربما مضاده . كما أنه رفض فى الطبقات التالية المذهب الحدسى الخالص عند مارتينو ، ومعه مثالية جرين ، وأصبح هذان المفكران ، وهما سبنسر ، هدفاً لهجوم خاص وجهه إليهم فى المحاضرات التى نشرت بعد وفاته ، والتى أشرنا إليها من قبل .

ولقد أدى إبعاد سدجويك لمذهب المنفعة عن مذهب اللذة الفردى الذى كان يرتبط به ، إلى ترك الطريق مفتوحا لوضع أساس عقلى حدسى لهذا المذهب . فقد رأى أن من الخطأ فى ملاحظة ما يحدث فى الواقع أن يقال إن الغاية الوحيدة للنزوع الإرادى هى تحصيل اللذة وتجنب الألم ، وذهب إلى أنه حتى لو صح هذا لكان من المستحيل الانتقال ، بنوع من الاستقرار ، من هذه الأنانية إلى المبدأ النفعى القائل بالسعادة الشاملة . ذلك لأن من المستحيل

جعل الوقائع الذهنية محددة للمعايير الأخلاقية ، أى جعل ما هو كائن محدداً لما ينبغي أن يكون . فليس لأصل أفكارنا الأخلاقية أى شأن بصحة هذه الأفكار . وبهذا التأكيد لفكرة الوجوب خطأ سدجويك خطوة حاسمة تتجاوز بها كل أخلاق تجريبية ، وإن يكن قد ظل كمادته فى موقف وسط ، بالقول إن موضوع الالتزام ، أى المثل الأخلاقى الأعلى ، هو السعادة لا الواجب . فهناك مثل أعلى يدركه الحدس ويضمنه ، وله من الوضوح واليقين بقدر ما لآية بديهية رياضية ، هو المثل الأعلى للقائل إن من واجبي ، بوصنى كائناً حافلاً ، أن أعامل الآخرين كما أود أن أعامل فى الظروف المماثلة . وهذا هو مبدأ العدالة . أما مبدأ الحيطة *prudence* - القائل إن من واجبي أن أفضل خيراً مقبلاً على خير حاضر أقل منه - وكذلك مبدأ الإحسان *beuevolence* - القائل إن حلى ألا أسعى إلى ما هو خير لى إلا فى إطار الخير العام - فهما بدورهما بديهيتان أخلاقيتان ، وليسوا موضوعين للاستقراء ، وإنما للحدس العقلى . ومن الواضح أن الأمر المميز لمذهب المنفعة ، وهو السعى وراء تحقيق السعادة للجميع ، لا للذات فحسب ، إنما يرتكز على أول هذه المبادئ الثلاثة وآخرها . أى أن مذهب المنفعة يرتكز على المذهب الحدسى ، وبالعكس يؤدى المذهب الحدسى إلى مذهب المنفعة . بخلاف أن يرتبطان سوياً ارتباطاً وثيقاً .

غير أن لمذهب المنفعة دعامة أخرى يستمدّها من الموقف الطبيعى - (الإدراك المشترك) ، أى من المشاعر الأخلاقية الساذجة للإنسان العادى . ومن الصفات المميزة لسدجويك أنه ، على الرغم من رفضه لأى تحديد تجريبى للمثل

الأخلاق الأعلى ، قد حرص كل الحرص على التوفيق بين آرائه النظرية وبين التجربة العملية ، وعلى تجنب أى تصادم مع النظام المقرر للعرف . الأخلاق السائدة . فع اعتقاده بأن من واجب الفلسفة أن تعمل في نواح معينة على رأى الشائع ، بل وتختلف عنه ، كان مقتنعاً بأن عليها ألا تقف بمحور تماماً عنه ، أو أن تناقضه . لذلك حاول أن يبين أن مذهب المنفعة والموقف الطبيعي ( أى الإدراك المشترك ) يتمشى كل منهما مع الآخر . بل أن يبين أن الأول لا يعدو أن يكون صياغة منهجية دقيقة للثاني ، وهو المثل الأعلى الذى ظلت الحياة الأخلاقية للبشر تسير نحو تحقيقه طوال تاريخها . فنحن ، من الوجهة العملية ، مؤمنون دون أن نشعر بمبدأ المنفعة . وهكذا تركز الأخلاق الفلسفية على جذور في الواقع التجريبي للنظام الأخلاقي السائد ، ولا تكون بها حاجة إلى الخروج عن هذا الواقع سعياً وراء معاييرها ومثلها العليا . ومن ثم فقد أطلق سدجويك على القوانين الأخلاقية المعمول بها اسم «التجاذب للبيئة» ، الذى هو « ثمرة نمو دام قروناً طويلة » . ولم يكن أبغض إليه من « تلك الروح الثورية » التى تنشق على أخلاق العرف والنظم السائدة في المجتمع وتحاول هدمها . وهكذا كان سدجويك محافظاً بطبيعته ، وكان أبعد الناس عن تحقيق مطالب نيته في « إعادة تقويم جميع القيم » . ولقد كان سدجويك ، في تعلقه بالنواتج الطبيعية لنونا التاريخي ، وفي اعتماده عليها بوصفها عناصر هامة في تحديد أى موقف أخلاقي معقول ، يعكس الطابع العام وطريقة التفكير العامة المميزة لأمنه ، ويحتل مكانة في ذلك للصف الطويل من الفلاسفة الأخلاقيين الإنجليز الذين تبلورت طريقة التفكير هذه في مذاهبهم مراراً وتكراراً .

أما كارفث ريد Carveth Read ( ١٨٤٨ - ١٩٣١ ) (١) فهو مفكر آخر ظل تفكيره يدور في الأغلب في إطار المذهب التجريبي النقائدي ، وإن يكن قد تجاوزه ليكون لنفسه ميثاقاً خاصاً به ، نظراً إلى كونه ، على غير المؤلفين بين الفلاسفة التجريبيين ، صاحب ذهن ينزع إلى النظر والتأمل . ولقد اعترف هو ذاته بأنه كان في كتابيه الأولين ، اللذين عالجا سويّاً مجال المنطق ، متفقاً إلى حد بعيد مع النظريات التجريبية عند مل وبين وسبنسر و د فن Venn . فموضوع المنطق ليس في رأيه مجرد التصورات أو الألفاظ ، وإنما هو دائماً الوقائع وما بينها من علاقات . فهو العلم العام للوقائع ، أو هو ، كما يعرفه ثاني هذين الكتابين ، علم الشروط التي ينبغي توافرها إذا شئنا البرهنة على أي حكم قابل للبرهنة . ويطلق ريد على عملية بناء المبدأ المنطقي على الواقع هذه اسم المنطق المادي ، تمييزاً له من النزعة الاسمية عند ويتلي Whately ، والنزعة التصورية Conceptualism عند فيلسوفه مثل هاملتن .

ولقد كان موقف ريد تجريبياً في علم النفس بدوره ، وذلك على الأقل بمعنى أنه يبدأ من التجربة ويعود إليها . وهو موقف «ظاهري phenomenalist» ، على طريقة هيوم ومل ، وذلك لأنه عد عالم التجربة مؤلفاً بأسره من معطيات الوعي ، بحيث يشتمل الوعي عليه ويوحده في الآن نفسه . والوعي هو الحقيقة الواقعة بالمعنى الصحيح ، ولما كان شرطاً للوجود المادي .

---

( ١ ) درس أولاً في كمبريدج ، ثم درس فيما بعد على فونت Wundt في لينسيج ، وعلى « كونوفيسر » في هيدلبرج . وبعد أن حاضِر في لندن في موضوعات فلسفية واقتصادية وأدبية للرشدين للعمل في حكومة الهند ، شغل فيما بين ١٩٠٣ و ١٩١١ كرسي « جروت Grote » للفلسفة في « يونيفرسيتي كوليدج » بلندن .

فإنه لا يمكن أن 'يستمد' من هذا الوجود أو يُفسّر من خلاله . وهو يقدم تفسيراً لطريقة وجود الأشياء قبل أن يكون هناك ذهن عارف يدركها ، على نحو ما توجد الظواهر لو لم يكن هناك كائن عضوى واع يدركها ، وفي هذا التفسير يقتفى أثر مل في تصويره للكيانات التي لا تُدرَك على أنها إمكانات دائمة الإحساس . وعند هذه النقطة تبدأ ميتافيزيقاه (١) . ويطلق ريد على حالة العالم عندما لم تكن هناك ظواهر ، إذ لم تكن هناك بعد أية كائنات عضوية لديها وئى) اسم الوجود Being ، أو الواقع المطلق . ولكن على الرغم من أن هذه الحالة ليست داخلية في نطاق الوعي ، فلا يمكن التفكير فيها بدون وعي . أى أن الواقع بوجه عام ، وليس مجرد الواقع التجريبي غير العضوى والعضوى ، هو واقع واعٍ . وبعبارة أدق ، فالوعى صاحب الوجود ، والواقع المدركة هي مظاهر للوجود الأصيل . وهكذا يؤدي المذهب الظاهرى على المعرفة إلى ظهور نوع من مذهب شمول النفس panpsychism الميتافيزيقي .

ولا يمكن القول إن المكونات المختلفة لهذه النظرة إلى العالم ، وعلاقاتها بعضها ببعض ، تنف بمقتضيات النظرية الفلسفية . فالواقع هنا ينظر إليه على أنه مؤلف من ثلاثة عناصر : الوجود الظاهرى phenomenal والواعى ، والعالمى أو الخالص . أول هذه العناصر هو عالم الأشياء . فى الزمان والمكان ، عالم التجربة اليومية والعلوم . ومع ذلك فإن شرط أى شيء ظاهرى — أى الوعى — يوصف بأنه شيء يبدأ وجوده فى وقت متأخر نسبياً ، أعنى شيئاً مرتبطاً ارتباطاً لا ينفصم بالعنصر الظاهرى ، أى المادة . والنتيجة ثنائية قاطعة للنفس والجسم : فالأخير جوهر تجريبي ، والأول نشاط للوجود

(١) « ميتافيزيقا الطبيعة The Metaphysics of Nature » ١٩٠٥ ( الطبعة الثانية ١٩٠٨ ) . وكذلك الفصل الذى كتبه فى كتاب « الفلسفة البريطانية المعاصرة » الذى أشرف على نشره « مويرهيد J. H. Muirhead » المجموعة الأولى سنة ١٩٢٤ .

(١٠١)

المطلق ، ، ولا يمكن أن يكون بينهما أى تأثير متبادل . فلا يمكن أن تكون الإرادة هى علة الحركة ، إذ أن هذين الاثنين قد جعلنا بحيث ينتميان الى مجالات مختلفة للوجود . والامر الذى تسببه الإرادة هو تغير فى الوجود . ولدينا بهذا التغير وعى مباشر ، كما أن نفس التغير يتضح لنا ، بطريقة غير مباشر ، فى الحركة التجريبية التى ندركها . وعلى ذلك فإن الوعى يصبح مرتبطاً ، لا بالجسم الذى يحل فيه بالضبط ، وإنما بالوجود العالى بقدر ما يتبدى فى الجسم . أما الطبيعة الجوهرية لهذا الوجود الضرورى ، ولما ظهر فاعليته ، فأمر يدق علينا فهمه . ولو حاولنا أن نحدده بطريقة أدق لما كان ذلك إلا بأن ننسب إليه بعض خصائص الوعى ، الذى هو المتضاد معه . وينسب ريد إليه ، على سبيل الترجيح ، الزمان ( أو التعاقب على الأثر ) ، والتغير ، والتواجد Co - existence ( وربما لم يكن ذلك بوصفه علاقة مكانية ) ، والترتيب أو اطراد التغير . وهكذا يقدم إلينا أخيراً نظرة تجريبية إلى الكون ، تخيم عليها ميتافيزيقا نظرية تأملية ، وهى نظرة لها عيوب واضحة - منها مثلاً ، غموض ذلك الوعى الذى هو من جهة إدراك واعٍ أصيل ، ومن جهة أخرى شئ غير محدد ، يرتبط بكل وجود أياً كان ؛ ومن عيوبه أيضاً رد العالم المادى إلى وجود ظاهرى فى الوعى العارف ، وما يقابل ذلك من توسيع لنطاق هذا العالم نفسه إلى ما وراء الوعى فى عالم من الوجود المطلق ، وأخيراً ، تلك العلاقة الغامضة التى يتركها قائمة بين العالم الظاهرى والعالم الحقيقى ، وهى علاقة توجد ، إن جاز هذا التعبير ، من وراء ظهر الوعى .

وهو ينقل هذه الأفكار الميتافيزيقية ، فى كتابه ، الأخلاق الطبيعية والاجتماعية ، Natural & Social Morals ، ( ١٩٠٩ ) إلى مجال الأخلاق . فبدأ الوحدة فى هذا المجال هو الوحدة الأصلية بين الناس عن طريق الإخاء .

والتعاون ، والإشباع الكامل لكل رغباتهم ، والاعتراف بغاية عليا لكل مساعيهم . وهذا الخير الأسمى هو الفلسفة بمعنى متسع ، أى الثقافة Culture . فالفلسفة هى التحقيق الصحيح للطبيعة البشرية ، وعن طريقها يصل العالم إلى معرفة بذاته . وبفضل معرفة الإنسان لذاته وحدها . يستطيع هذا الإنسان ، بوصفه أعلى مظاهر الحياة الواعية والوجود التجريبي بوجه عام ، أن يسمو إلى مراتب أعلى من الحرية والسمو والسعادة والحكمة . وهكذا فإن ريد كان أشبه بداعية متعصب لعصر التنوير حين توقع أن يتحرر الإنسان باطنياً ، ويصل إلى سعاده الحقة وخلاصه ، بفضل تلك الاستنارة المتزايدة التى يبعثها فيه العلم والفلسفة ، وبفضل التعاون الفعال ، وتطبيق مبادئ علم تحسين السلالات eugenics ، ولقد كان ريد واحداً من البريطانيين القلائل الذين آمنوا بحماسة بقدرة تدابير علم تحسين السلالات على القضاء على الانحلال المعنوى والمادى للأمم ، وتحويله إلى عكسه . ويتضح هذا الاهتمام بالبيولوجيا فى آخر كتاباته " أصل الإنسان وخرافاتة The Origin of Man and of his superstitions ( ١٩١٠ ، الطبعة الثانية ، فى مجلدين ، ١٩٢٥ ) وهو كتاب يلتزم حدود علم الأنثروبولوجيا

ويمكن القول إن ريد هو آخر أتباع التراث التجريبي القديم ، إذ أن صلاته به ، وإن كانت واهية فى بعض النواحي ، كانت صلة حيوية أصيلة . ولكن الواقع أن هذا التراث الذى استعرضناه حتى الآن كان فى تدهور حتى فى بداية العصر الذى بدأ فيه نشاطه الفلسفى . ذلك لأن جميع قوى الحركة التجريبية وطاقتها المتعددة كانت قد تجمعت فى جون ستورتن مل ، وعلى ذلك فقد كان موته نقطة تحول هامة ، وهداية انحلال بطى . ولكنه مستمر ، لتلك النظرة إلى الحياة والعالم ، التى كان هو آخر ممثل ضخم لها ، وبدأت قوى جديدة تطرق باب الفلسفة الإنجليزية . فى أثناء حياة مل كان سترلنج



قد جهر بصوته مدافعاً عن كانت وهيكل ، ولم تعد عينا مل تخمضان حتى  
 أصدرت الحركة المثالية في أكسفورد أول كتاباتها الجديدة العظيمة . وهكذا  
 انفتحت عصر جديد للفكر ، انشق بطريقة واعية على الصور القديمة المتأصلة  
 في الأرض البريطانية ، وكان مُصرّاً على طلب الحقيقة بطريقته الخاصة .  
 وبدأ مذهب مثالي ، من أصل ألماني ، يتخذ مواقفه ضد التراث الإنجليزي ،  
 وأخذ ينتزع منه ، ولا سيما في الأوساط الأكاديمية ، الموقع تلو الآخر .  
 ولكن حتى قبل استهلال هذه القوة الفلسفية الجديدة ، وحين كان نجم مل  
 ما يزال لامعاً ، ظهرت قوى أخرى بدأت تمارس تأثيرها في صف المذهب  
 التجريبي ، فغيرت مظهره ، وأعطته قوة دافعة جديدة ، وحركته في  
 اتجاه جديد . وقد أتت هذه القوى من علم خاص هو علم الحياة ، وتكوّنت  
 منها الحركة الهائلة التي أطلقها سبنسر ودارون في العقدين السادس والسابع  
 من القرن التاسع عشر ، وهي حركة كانت ، على الرغم من تجريبيتها ، تختلف  
 اختلافاً يبنياً عن المذهب التجريبي كما يمثلها بنتام ومل ، ومن ثم فقد  
 «وجب بحشاً على حدة» .

## الفصل الثالث

### المدرسة التطورية الطبيعية

رأينا من قبل أن الطابع السائد في الفلسفة الإنجليزية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وخلال بعض الوقت بعد ذلك ، كان هو التعارض بين الفلسفة الاسكتلندية والتجريبيين التقليديين ، وأن الأخيرين أخذوا يكسبون المواقف باطراد . ولكن حتى قبل أن ينتهى هذا الصراع ، الذى كان هاملتن ومل آخر من خاضوه لصالح المذهب الأخير، ظهرت قوة جديدة كان ينتظر لها مستقبل باهر ، وأعقبها مذهبي سبنسر ودارون . فقد بدأت فكرة التطور تظهر في الفلسفة ، وكذلك في العلوم الخاصة ، في العقد السادس ، وهو العقد الذى شهد وفاة هاملتن وبلوغ مل أوج شهرته . وكانت الحركة التى بدأها سبنسر ودارون ترتبط ارتباطا وثيقا بالاتجاه التقليدى للفكر الإنجليزى كما حددنا معاملة . وعلى الرغم من أنها كانت نبذة جديدة رائعة ، فإنها ظهرت من نفس فصيلة التجريبية القديمة وامتدت جذورها في نفس تربتها . فليس من الممكن رسم خط فاصل قاطع بينها وبين الحركة التى قادها هتنام ومل ؛ وإنما تلتقى طريقتا التفكير في نواح تبلغ من الكثرة حدا لا تعود معه نسبة أى مفكر إلى المدرسة التطورية راجعة إلا إلى سيطرة الميل الدافع الجديد على فلسفته . غير أن هذا الميل الدافع الجديد سرعان ما أصبح من القوة بحيث أن قليلا جدا من المفكرين هم الذين استطاعوا ، ابتداء من العقد السابع ، أن يتجنبوا تأثيره عليهم .

ولقد كان وجود فكرة التطور في الجو في أواسط القرن التاسع عشر هو الذى جعلها تظهر في آن واحد من عدة مصادر مستقلة ، وتهب كالعاصفة

على الحياة العقلية المعاصرة لها بأكملها ، مكتسحة معها كل شئ . ففى ميدان الفلسفة أتى بها سبنسر ، وفى ميدان العلوم الخاصة أتى بها دارون ووالاس ، وكان سبنسر هو الأسبق فى ترتيب النشر . غير أن ظهور المبدأ الجديد من جهات متباعدة إلى حد كبير فى وقت واحد — وهو حلة ما أحرزه من نجاح سريع لا نظير له — يجعل مشكلة الأسبقية غير هامة نسبيا . والأمر الذى له أهميته العامة هو أن التحالف الذى دخلته للفلسفة فى ذلك الحين مع علم الحياة قد أثبت أن له من الفائدة ما كان للتحالف بين الفلسفة وبين الرياضيات والفيزياء أيام ديكارت ونيوتن . وهكذا أصبح الفلاسفة يستوعبون ويستغلون نتائج العلوم الخاصة ، وأصبح العلماء يتجاوزون نطاق أبحاثهم الخاصة إلى نتائج الفلسفية العامة ، وبهذا كانت قوى التطور تزحف فى جبهتين ، إن جاز هذا التعبير ، وكانت الجبهتان متفرقتين أولا ، ثم اتحدتا فيما بعد .

وعلى الرغم من أن سبنسر كان أول من عرض فكرة التطور علنا ، فقد كان شارلس دارون Charles Darwin ( ١٨٠٩ — ١٨٨٢ ) هو الذى جعل لها تأثيرها الهائل ، عن طريق كتابه ، أصل الأنواع The Origin of Species ( ١٨٥٩ ) . ولقد كان هذا الكتاب ، الذى كان نقطة تحول فى ميدانه بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، من إنتاج عبقرية دالية ضخمة ، تتميز بقدرتها على الجمع ، على نحو فريد ، بين دقة الملاحظة والصبر فيها ، وبين الولاء المطاق للواقع والقدرة على التركيب للذهنى الإبداعى . ولقد فاق هذا الكتاب أى كشف علمى آخر فى القرن التاسع عشر فى مدى الضجة التى أحدثها ، وفى مقدار ثوريته ، ومدى تداخله فى الصراع بين الفئات والفرق المختلفة ، ومن هنا فإن تقدير مدى تأثيره مستحيل .

ولقد تجاوز العلم بعض تفاصيله ، وما زال بعضها الآخر موضوعاً

فالتزاع ، غير أنه في عمره قد اندمج في تراث العلم الطبيعي وأصبح جزءاً لا يتجزأ منه ، بل لقد غنى وفاض في مسارات عديدة تغلغل بها في حياتنا العقلية العامة ، حتى أبدع أطرافها ، بحيث أصبح يكون ، بصورة مختلفة مشوهة ، ما يشبه الرأي الفلسفي عن الحياة والعالم للكتل الجماهيرية في جميع البلدان . أما دارون ذاته فلم يتخذ أبداً رداء الفيلسوف ، وإنما كان شاعراً بالآثر الانقلابي الذي كان لابد أن تحدثه نظريته في مناقشة المسائل الفلسفية . وكان هو ذاته يقوم من آن لآخر في كتاباته المتأخرة (ولاسيما في الأصل السلالى للإنسان The Descent of Man ، ١٨٧١) باستخلاص بعض النتائج الفلسفية لأفكاره ، عن طريق تطبيقها على مشكلات نفسية وأخلاقية ، ولكن ذلك لم يكن إلا بطريقة عارضة ، أما الاستغلال الفلسفي الدقيق لنظرية التطور فلم يكن يعبا به أبداً . فدارون لم يكن دارونيا ، وإنما ظل إلى النهاية كما كان دائماً : باحثاً متواضعاً لظواهر الحياة النباتية والحيوانية ، محباً للعزلة ، مخلصاً أميناً . وإنه لمن المناظر المؤثرة بحق أن نراه يترك الأمواج العاتية للذهب الدارويني تنكسر على صخرة عمله ، بينما هو لا يعبا بشيء ، ويواصل السير في طريق دراساته المرسوم دون أن يحيد عنه قيد شعرة .

وطالما حدث من قبله أن استبقت الأبحاث العلمية والتأملات النظرية عناصر مذهبه الرئيسية ، وهى قابلية الأنواع للتغير ، والانتقاء الطبيعي ، والصراع من أجل الوجود ، وبقاء الأصلح ، والتكيف مع البيئة ، ووراثة الصفات الملائمة ، والأصل الحيواني للإنسان ، الخ . غير أن جمع هذه العناصر سوياً في صورة رائعة واحدة عن أصل السكانات الحية وتطورها كان عملاً انفرادياً به دارون ، وإليه وحده يرجع الفضل فيه . ومن المهم بالنسبة إلى أغراضنا أن نلاحظ أن هذه الصورة لم تبني على أسس بيولوجية خالصة ، بل ساهمت

فيها نظرية مالتوس في السكان بدور حاسم (١). فقد كانت هذه النظرية هي التي ألهمت دارون فكرته المشهورة في الصراع من أجل الوجود ، وكانت هذه الفكرة هي التي أتاحت له جمع ملاحظاته واستدلالاته البيولوجية في نسق موحد . ونستطيع أن نعبر عن الخدمة التي أسداها دارون إلى العلم بقولنا إنه تكهن بالدلالة البيولوجية لقانون مالتوس القائل إن هناك علاقة عكسية ، في المجتمعات البشرية ، بين عدد السكان وكمية الطعام المتوافرة ( بحيث يزيد الأول بمعدل أسرع من الثاني ) ، وأنى بأدلة نهج بيئية متعددة تثبت أن هذا القانون يسرى على الحياة في المستويات دون البشرية ، وبذلك أخضع مجال الحياة بأسره لمبدأ مشترك . غير أن دارون لم يهتم إلا قليلا بالآثار العام لنظريته في النواحي غير البيولوجية للإنسان ، ولم يمس هذا الموضوع إلا ملأما ، مثلما فعل ، مثلا ، بالنسبة إلى الأفكار الأخلاقية التي أرجع أصلها ( كما فعل نيقشه فيما بعد ، بتأثير دارون ) إلى الغرضية الواضحة للفريزة الحيوانية . غير أن مذهب دارون البيولوجي قد مهد الطريق ، دون شك ، لعملية تطبيق المبدأ الذي سبق إثباته بالتفصيل بالنسبة إلى عالم الحياة فيما دون الإنسان ، على الإنسان ذاته ، وتطويره بحيث تتكون منه نظرية عامة عن حياة الإنسان الاجتماعية وتاريخه . وقد تولى هذه المهمة سبنسر و Kidd ، وغيرهما ، ونفذوها في الإطار العام لأفكار دارون . وبفضل هذين المفكرين طبق المذهب الدارويني تطبيقا مشمرا في مجالات الأخلاق ، والتاريخ (ولاسيما تاريخ الشعوب البدائية) وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والاقتصاد ، أى في العلوم المعنية بالإنسان على وجه التخصيص .

وما أن ثبتت الداروينية أقدامها في المجال البيولوجي وأصبح مشارا

للجدل في جميع أرجاء العالم ، حتى لم يعد من الممكن الحيولة دون ذبوع  
 النظرة العامة المتضمنة فيها بشأن الحياة والكون ، وأصبح زحفها الظافر  
 أمراً مؤكداً . فهي ، من حيث هي فلسفة ، قد جعلت ما هو دون الإنساني  
 مقياساً أو معياراً للإنساني ، ولم تعد تنظر إلى الإنسان على أنه له قيمة في  
 ذاته ، وإنما نظرت إليه على أنه لا يعدو أن يكون الفرع الأخير في شجرة  
 نسب ترجع في أصلها إلى العالم الحيواني والنباتي وبتعبير أعم ، فهي قد  
 فسرت كل شيء لا بالصور العليا للطبيعة ، وإنما بصورها الدنيا . وكانت  
 تمثل مذهباً طبيعياً naturalism ، من حيث أنها جعلت العوامل دون  
 الإنسانية أهم من العوامل الحضارية ، ومذهباً بيولوجياً Biologism من حيث  
 أنها عبرت عن المسائل الفلسفية من خلال المقولات والنظريات البيولوجية ،  
 وكانت مذهباً تطورياً evolutionism من حيث أنها نظرت إلى الأشياء كلها  
 على أنها جزء من عملية من التطور الصاعد ، ومذهباً آلياً Mechanism لأنها  
 فسرت الظواهر الغائبة من خلال العمل الآلية وقوانينها . وهكذا فإن هذه  
 النظرة إلى الكون ، التي احتفظت بخطوطها العريضة على الرغم من الاختلاف  
 في النقاط التفصيلية ، قد انقضت كالسيل الجارف ، في العقود الأخيرة من  
 القرن التاسع عشر ، على جميع مجالات الحياة العقلية ، وأصبحت هي الفلسفة  
 الشعبية المثقفين وأصاف المثقفين وغير المثقفين على السواء . وقد أثارت  
 الاهتمام بالمشكلات الفلسفية ، وانتقلت بالمناقشات الخاصة بها بعيداً عن  
 الأوساط الاحترافية المحضة ، وأثارت الصراع بين الفرق المتباينة ، واستفزت  
 بوجه خاص أولئك الذين لم يروا فيها إلا قوة معادية للدين والأخلاق وكل  
 القيم التي كان معترفاً بها من قبل . وإذا كانت لم تتحول في إنجلترا إلى مذهب  
 مادي ساذج إلا نادراً ، وكان تأثيرها العام فيها أقل خطورة مما كان في بقية  
 البلاد ، فإن ذلك لم يكن راجعاً فقط إلى الطابع المحافظ الإنجليز ، بل كان

راجعا أيضاً ، وقبل كل شيء ، إلى أن قوة التراث الدينى وعمقه ربما كان هناك أعظم مما كان فى أى بلد آخر . واقد اعترضت الكنيسة بقوة على المذهب الجديد ، ودام صراعها معه عشرات عدة من السنين . كما أن الأوساط الأكاديمية فى الفلسفة لم ترحب به إلا قليلا ، وعاملته على أنه مذهب دخيل ، وإن يكن مذهبا يستحق التحدى عن جدارة . غير أن أقوى سد ضد طوفان الداروينية هو ذلك الذى شيدته المدرسة المثالية الجديدة ، التى ظهرت فى نفس الوقت الذى أتى فيه ذلك الطوفان ، وأخذت بالتدريج تحتل مكان الصدارة فى الجامعات . وقد كانت الحركة المثالية فى مرحلتها الأولى ترى أن مهمتها الأساسية هى قهر الداروينية ؛ بل إنه يبدو فى كثير من الأحيان أنها لم تكن تهيب بكائنات وهيكل إلا ليؤيدا وجهة نظر الدين فى صراعه ضد هذه الزندقة الجديدة

ولقد تمثل المذهب التطورى الطبيعى Naturalistic evolutionism فى المجال الفيلسفى على التخصيص ، فى مذهب هربرت سبنسر Herbert Spencer ( ١٨٢٠ - ١٩٠٣ ) ، وهو المذهب الذى وصلت به تلك الفلسفة التى ظلت على ولائها للتراث القومى الإنجليزى إلى القمة ، وبلغ بها القرن التاسع عشر خاتمة مطافه ونقطة اكتماله . ولقد سيطر سبنسر على الميدان الفيلسفى فى إنجلترا فى الأعوام الثلاثين الأخيرة من القرن التاسع عشر ، على نفس النحو الذى سيطر به مل وهاملتن وبنجامين وريد وهيوم على هذا الميدان فى أيامهم . وهو واحد من الفلاسفة الإنجليز القلائل الذين ذاعت شهرتهم خارج إنجلترا أثناء حياتهم بل لقد اكتسب شهرة عالمية - فذاع اسمه فى روسيا والصين واليابان مثلا ، فضلا عن أوروبا وأمريكا - وترجمت مؤلفاته إلى كل لغات الشعوب المتعدنة تقريباً . ولم يكن السبب فى هذا النجاح الفريد هو القيمة الدائمة لكتابهاته ، بقدر ما كان تمكثنه من الجمع بين خيوط

فكرية متعددة بعثتها النظرية الداروينية ، ومن نسج هذه الخيوط كلها في مذهب فلسفي متناسك . ففلسفته كانت تعبيراً ظهر في أرائه عن الأفكار السائدة في أيامه .

ولم يكن التعليم الذي تلقاه يقل لفتنا للنظر عن الشهرة التي واثته قرب نهاية حياته . فبعد تعليم بسيط ، رفض على أثره منحة للتعليم الجامعي ، أصبح لمدة قصيرة معلماً بمدرسة ابتدائية ، ثم مهندساً بالسكك الحديدية بضع سنوات ، ثم صحفياً ، وبعد ذلك انتقل إلى احتراف الكتابة . ولما كانت كل جهوده السابقة للحصول على منصب ثابت قد ذهبت هباء ، فقد ظل كاتباً مستقلاً حتى نهاية حياته ، واستنفد في تأليف كتبه تلك الطاقة الضئيلة التي خلفتها له صحته المعتلة . لحياته كلها قد استنفدت في صراع بطولي من أجل صياغة أفكاره الفلسفية ، ولم يتمكن من التغلب على كل الصعاب والوصول بعمله إلى تمامه إلا بفضل قوة نحملة الهائلة وإيمانه الراسخ برسائله . وتشمل كتاباته مجموعة رائعة من المجلدات الضخمة ، وعدداً من الرسائل الأصغر حجماً ، ومجموعة كبيرة من الأبحاث والمقالات . ومؤلفه الرئيسي هو ، مذهب في الفلسفة System of Philosophy ، وهو عمل ضخم يبلغ حجمه عشرة مجلدات . وقد أعلن عن اعتزاه تأليفه في سنة ١٨٦٠ ، وتم بعد ستة وثلاثين عاماً بعد جهد لا يكل . ويمثل هذا العمل جهداً لا يكاد يكون له مثيل في تاريخ الفلسفة في شموله ، واتساق خطته ، وضخامة العقبات التي كان يتعين عليه مواجهتها (١) .

---

(١) يشمل « المذهب » : للمبادئ الأولى First Principles « في مجلد واحد » ، ١٨٦٢ ، و « مبادئ علم الحياة » ، في مجلدين ، ١٨٦٤ — ١٨٦٧ ، و « مبادئ علم النفس » في مجلدين ، ١٨٧٠ — ١٨٧٢ ، و « مبادئ علم الاجتماع » في ثلاثة مجلدات ، ١٨٧٦ — ١٨٩٦ ، و « مبادئ علم الأخلاق » في مجلدين ، ١٨٩٣ — ١٨٩٤ ، وقد ظهرت هذه الكتب



ولقد كان سبنسر رجلاً علم نفسه بنفسه ، بأدق معاني هذه الكلمة . ولم يكن له أستاذ ، فإنه لم يكن في حاجة إلى أن يقدر تعاليم أى أستاذ . ولم يكن هناك ، من بين المفكرين البارزين ، من كان أقل منه احتفالاً بأفكار الفلاسفة السابقين عليه والمعاصرين له ، فبلغ به الاستغراق فى أفكاره الخاصة حدا جعله منعزلاً ، فى ترفع ، عن البيئة الفلسفية التى كان يعيش فيها . وبما ساعد على هذا الانعزال ، ذلك التقطع الذى كان يتسم به تعليمه ، وعلى الأخص ضآلة معرفته باللغات الأجنبية ، وهو نقص لم يحاول تلافيه قط . ولقد ظل حتى النهاية رجلاً تقف نفسه بنفسه ، غير محمّل بأثقال التاريخ السابق عليه ، مفتقراً إلى الثقافة ذات الطابع الأعرق ، ومنحصراً فى نطاق مشاكله وأفكاره الخاصة . ولم يكن يعرف عن فلسفة اليونان والألمان أكثر مما استطاع أن يلتقطه من الأصدقاء ومن الكتب المدرسية الهزيلة . الشائعة فى ذلك الحين . وإنه لغريب حقاً أن ذلك الرجل الذى عده الكثيرون أهم مفكر فلسفى فى القرن التاسع عشر ، لم يكذب بتأثر على الإطلاق . بإيمانول كانت أعظم مفكرى للعصر الحديث . وقد روى عنه أن محاولته

---

== كلها فى طبعات متعددة ، كانت تنجح عادة . وقبل أن تتبلور خطة « للذهب » فى ذهن سبنسر نهائياً ، كان قد نشر « مبادئ علم النفس » فى مجلد واحد ، عام ١٨٥٥ . أما الجزء الأول من « مبادئ الأخلاق » فقد ظهر قبل ذلك باسم « معطيات الأخلاق » The Data of Ethics ، ١٨٧٩ ، وظهر الجزء الرابع بعنوان « العداة » عام ١٨٩١ . وأما كتاباته الأصغر حجماً ، والتى كانت تظهر من آن لآخر ، فمعظمها وارد فى « بحوث علمية وسياسية ونظرية Essays; Scientific, Political and Speculative فى ثلاثة مجلدات ، ١٨٥٨ — ١٨٧٤ .

وقد ألف سبنسر ترجمه ذاتيه لحياته Autobiography ، نشرت بعد وفاته سنة ١٩٠٤ . أما أفضل ترجمه لحياته فهى من تأليف ر . دنكان . وللإطلاع على قائمه كاملة بمؤلفات سبنسر انظر : « علم الاجتماع عند هربرت سبنسر » من تأليف ج . رنى Rumney ، ١٩٣٦ .

الوحيدة لاستجلاء غوامض ، نقد العقل الخالص ، قد توقفت ولما يقرأ في الكتاب إلا الصفحات القلائل الأولى . ومن جهة أخرى فقد كان لديه إحساس مرهف ، يتلاءم مع عصره ، ونظرا إلى أنه أدمج في مذهبه أفكارا كثيرة كانت هي الأفكار الرائدة في عصره ، وإن لم تزل عندئذ مخيطة في الجو ، إن جاز هذا التعبير ، فقد أصبح المتحدث الرسمي باسم الفلسفة في عصره . ولهذا السبب فإن مذهب هذا الفيلسوف الذي كان أكثر تحورا من القيود التاريخية من كل من عداه ، قد اندمج في السياق التاريخي للفلسفة على نحو أكمل من أى مذهب فلسفى آخر ، وذلك بفضل ما قد يبدو لأول وهلة خدعة من التاريخ . وتحولت عزلته الذاتية إلى عكسها ، أى إلى اندماج طبيعي إلى حتمى في المجرى الموضوعى للتاريخ الفلسفى . وفي ضوء هذه الاعتبارات نستطيع أن ندرك بوضوح لماذا كان مذهب سبنسر صالحا بالنسبة إلى وقته لحسب ، ولماذا كان نصيبه من الأصالة قليلا فهو لم يتوسع في التجريبية والوضعية اللتين ورثهما من الماضى ولم يعمقهما ؛ أما المحترى الباقى لذلك المذهب ، وهو المحترى المستمد من الأبحاث العلمية السائدة عندئذ ، فقد جعل ذلك المذهب تعبيراً عن موقف تاريخى فريد محدد المعالم ، بحيث أنه عندما تغير ذلك الموقف أقعد المذهب بالضرورة الجزء الأكبر من قيمته . ولما كان التغير قد بدأ أثناء حياة سبنسر ، واتخذ صورة رجحان لكفة العلوم الرياضية الفيزيائية على العلوم البيولوجية والاجتماعية ، فإن مذهب سبنسر لم يكذب ببق فيه الآن رفق من الحياة ، بعد جيل واحد على اكتماله . وهكذا فإن هذه الحلقة الأخيرة في سلسلة فكرية يرجع امتدادها إلى يسكن ، قد أصبح يتراكم عليها الآن من التراب ما يزيد على ما يعلو أية حلقة من الحلقات الأخرى الكبرى في هذه السلسلة .

وعلى الرغم من ذلك فإن سبنسر قد أعاد إلى الفلسفة الإنجليزىة الاتجاه إلى تكوين

مذهب متكامل ، وليس تمت تناقض واضح بين مثل هذا الاتجاه وبين النزعة التجريبية في الفكر ، غير أن الذي حدث في واقع الأمر هو أن هذه النزعة الأخيرة لم تكن تقر الاتجاه الأول ومن المؤكد أن ما تصف به الفلسفة الإنجليزية من افتقار غريب إلى المذاهب ، لا بمعنى الافتقار إلى التامل النظري فحسب ، بل إلى البناء المتكامل المتناسق أيضا ، يبدو بالفعل راجعا آخر الأمر إلى التعلق التام المطلق بالتجربة ، التي يكون الانتقال منها إلى ما هو مركب أصعب من الانتقال إليه من الفكر المحض . ولقد كان الفيلسوفان الكبيران الوحيدان اللذان شيئا مذهب في الفترة المتقدمة هما بيسكن وهيز . ثم حدث انقطاع طويل الأمد . وكان سبنسر أول فيلسوف بعد هيز يخوض مغامرة تشييد مذهب ، وكان المذهب الذي توصل إليه أوسع نطاقا وأشد إحكاما من مذهب أي من السابقين عليه . فهو يمتثل ، على طريقته الخاصة ، موقفا فريدا في الفكر الإنجليزى . ومن المشكوك فيه أن يكون قد تأثر بهيجل وكونت ، وهما الفيلسوفان الآخران الوحيدان القريبان منه زمنيا ، واللذان خاضا غمار مهمة مشابهة . ومن المرجح أن كونت هو الذى كان خليقا بأن يؤثر فيه ، ولكن الأرجح من ذلك بكثير أن فكرة تنظيم المعرفة التجريبية في مذهب دقيق قد نشأت من تصور سبنسر الخاص لما ينبغى أن تكون عليه الفلسفة . ذلك لأنه ميز بين ثلاث درجات للمعرفة : المعرفة اليومية ، والعلمية ، والفلسفية ، وذلك في ترتيب تصاعدي في العمومية والوحدة ، بحيث تكون مهمة الفلسفة هي السعى إلى إيجاد مركب أعلى يتألف من المركبات الجزئية التي تصطنعها العلوم الخاصة ، ومن المعارف الأخرى التي لم تنظم على الإطلاق . ومثل هذه النظرة تشبه نظرة كونت ،

ومن بعده « وُنت Wundt ، وريبل Riehl ، (١) في أنها وضعية ، تتصور غاية للفلسفة ومنهجها على مثال غايات العلوم الطبيعية ومنهجها ، وهي تعبر عن عقلية عصر وضع ثقته في العلم واستقر عزمه على تحقيق التقدم العلمي بكل نحاسة . ولقد نشأت هذه النظرة عن الحاجة إلى بحث النظام والوحدة في تلك المعرفة المزاككة التي كانت تنمو بسرعة ، وكاد أن يفلت زمامها ، ولم تحاول هذه النظرة قط أن تدير ظهرها لهذه المعرفة ، وإنما أرادت أن ترتقي بها إلى أعلى مستويات التجريد الفلسفي . وكانت تؤمن بفلسفة تجريدية متقدمة حتى أعلى درجاتها . وقد حتمق سبنسر هذا المثل الأعلى : فكان تجريبيا أصيلا في تعطشه الدائم إلى الوقائع وإلى تنظيمها . غير أن رغبته في تشييد مذهب وقدرته العجيبة على ذلك ، كانت هي المسيطرة على كل شيء . فقد كان يذلل جهدا لا ينقطع في التجريد والتصنيف والتعميم والاستنباط ، ويتحرك إلى الأمام نحو توحيد أكثر تجريدا لها ، حتى وصل إلى النقطة التي استطاع فيها أن يلخص الكون كله في صيغة واحدة . وكانت النتيجة مذهبا كان فيه مكان لكل شيء ، مذهبا بلغ تخطيطه من الجرأة ، وتنظيمه من البراعة والدقة ، حدا لا يملك المرء معه إلا أن يشعر نحوه بالإعجاب ، مهما كان موقفه النهائي منه . وهكذا ينبغي أن يعد سبنسر واحدا من أعظم منظمي الفكر الفلسفي الذين عرفهم التاريخ .

ولقد كانت الفكرة الرئيسية في جميع أطراف مذهبه هي فكرة التطور . فسبنسر هو أول من طبق هذه الفكرة تطبيقا شاملا بالمعنى الصحيح ، وشكلها

---

(١) ألويس ريبيل ( ١٨٤٤ — ١٩٢٤ ) : فيلسوف ألماني من أنصار السكاتية الجديدة ، كان يتخذ موقفا وسطا بين النقدية والوضعية وأهم مؤلفاته : « النقدية الفلسفية ودلالاتها بالنسبة إلى العلوم الوضعية » ( في مجلدين ، ١٨٧٦ — ١٨٨٧ ) [ للترجم ]

في القالب الذي اكتسحت به العالم ، ولم يوقف تقدمها الظافر إلا كارتة الحرب العالمية الأولى . ولقد سبقه آخرون ، أولهم هرقلطس ، في بناء فلسفتهم على فكرة التطور . ومن الأمثلة الواضحة لذلك هيغل ، الذي كانت فلسفته مقابلاً مثالياً لمذهب سبنسر الطبيعي ، مثلما كان ماركس مقابلاً مادياً لهيغل . ولكن من العقيم أن يحاول المرء تعقب هذه التطورات السابقة ، إذ أن فكرة التطور قد اتخذت عند سبنسر صورة جديدة كل الجدة ، لم تصبح ممكنة إلا بفضل حالة العلم في عصره . وليس معنى ذلك أنه كان معتمداً على دارون ، إذ أنه ، قبل ظهور كتاب « أصل الأنواع » ، بسنوات عدة ، كان قد توصل إلى مجموعة من أهم عناصر مذهبه التالي ، وقلب فكرة التطور من روايا متعددة ، كما يتضح من المقالات التي بحث بها إلى مجلات دورية في العقد السادس من القرن التاسع عشر . وإن هذه المقالات ، وكذلك كون الخطوة الأولى لمذهبه (وهي الخطوة التي كان قد دعم فيها التطور بالفعل ليصبح مبدأ كونيًا) قد رسمت في يناير سنة ١٨٥٨ ، كل هذا يثبت بوضوح خطأ الزعم الشائع ، القائل إنه لولا دارون لما ظهرت « فلسفة سبنسر التركيبية » على الإطلاق . ولكن عندما ظهر كتاب دارون ، رأى سبنسر فيه تأييداً لأفكاره التي كانت عندئذ مازال تنسب بطابع المحاولة المترددة (على الرغم من أنه كان قد توسع فيها إلى حد بعيد حتى في ذلك الحين) ، كما رأى فيها تأكيداً للقيمة الهائلة لما استخلصه من نتائج ، وذلك في ميدان للبحث لم تكن تربطه به إلا صلة طفيفة حتى ذلك الحين . وعلى الرغم من أنه هو ذاته قد استبق بطريقة تقريبية نظرية دارون في أصل الأنواع وتغيرها عن طريق الانتقاء الطبيعي ، ( وذلك في مقالين ظهر أحدهما سنة ١٨٥٢ والآخر سنة ١٨٥٧ ) ، فإن نظرية دارون قد أتاحت ملء ثغرات معينة في تفكيره الخاص ، وخلقت لديه ذلك الاهتمام بعلم الحياة ، الذي ظهر بكل بوضوح في كتابه « مبادئ علم الحياة » .

( ١٨٦٤ — ١٨٦٧ ) . كما ينبغي التسليم بأن مذهب سبنسر لم يكن ليلقى مآلقه من نجاح هائل لو لم تكن موجة الداروينية قد دفعتة إلى الأمام .

وليس في هذا الكتاب مجال لإجراء مناقشة كاملة لأصل النظرية التطورية ، ولكننا نستطيع أن نشير إلى رابطة طريفة تجمع بينها وبين الفلسفة الطبيعية في المذهب المثالي الألماني . فعندما بدأ سبنسر يتجه بفكره إلى المسائل الفلسفية ، لفت نظره رأى لشليج ، اطلع عليه عن طريق كولريدج ، يقول فيه إن مسار مملكة الحياة العضوية قوامه حركة متزايدة من التنويع والتنظيم والفردانية . وتأيد هذا الرأي النظري عملياً فيما بعد بفضل أبحاث علم الأجنة التي قام بها فون بير ، K.E. Von Baer ، وهو عالم تأثر بالفلسفة الطبيعية عند شليج وأوكن ، Oken ، وسرعان ما وصل هذا التأييد إلى علم سبنسر . فقد رأى سبنسر أن هناك دلالة تمتد إلى ما وراء علم الحياة بكثير في قانون « بير » القائل إن التغيرات التركيبية التي تطرأ خلال نمو جنين ما ، تكشف عن تقدم تدريجي من صور غير متحددة إلى صور متحددة ، ومن صور متجانسة إلى صور لا متجانسة . ولم تكن صياغته لفكرة التطور ، في كتاب « المبادئ الأولى » ، ( ١٨٦٢ ) على أنها هي المبدأ الأساسي للأشياء ، سوى تعميم متطرف لهذا القانون . غير أن اهتمام سبنسر بالفلسفة الطبيعية عند شليج قد توقف عند حد قانون « بير » . ولم تأت كل العناصر الباقية في بناء نظريته التطورية من الفلسفة ، وإنما جاءت من العلوم الطبيعية بمعناها الدقيق — أي من الفرض السديمي عند كانت ولا بلاس (١) ، ومبدأ بقاء الطاقة ، وأبحاث « ليل » Lyell .

(١) محاولة لإنبات أصل المجموعة الشمسية على أنه تطور من سديم ، وقد وضع سولدنبرج . وكانت الخطوط العامة للفرض ، ثم وضعه لا بلاس في صورة علمية . ويتلخص الفرض في إرجاع المجموعة الشمسية إلى مكثف مادة غازية ، كانت سرعة دورانها تتزايد بازدياد المكثف ، حتى انفصلت أجزاء عن الجسم الرئيسي التي يكون الشمس ، وتكثفت هذه الأجزاء حتى أصبحت هي الكواكب الدائرة حول الشمس .

الجيولوجية (١) ، وأبحاث لا مارك ودارون في علم الحياة .

غير أن هذا الوصف الكلي لعملية في الكون بأنها تنويع تدريجي ينتقل به ما هو بسيط نسبيا إلى ما هو مركب نسبيا ، كان في نظر سبنسر ناقصا ، معبرا عن وجه واحد من أوجه المشكلة . فقد رأى لزاما عليه أن ينظر إلى هذه الحركة التي تسير في اتجاه واحد على أنها تعوض بميل مساو لها يسير في الاتجاه المضاد . فالتنويع ( أو التفاضل ) يعوضه التكامل ، والتفرق يعوضه الوحدة ، والتقدم يعوضه التأخر أو الانحلال ، بحيث تكون مهمة الاتجاه الثاني هي إفساد عمل الاتجاه الأول ، ويكون فعلهما معا متبادلا ، بحيث يكمل كل منهما الآخر ويعمقه . وليست العملية الأولى ، والأهم ، هي عملية التخصص ، وإنما هي عملية التكامل ورفع الفوارق إلى وحدات أو كلات أعلى . ومع ذلك فلا بكل اتجاه في التقدم حد أعلى ، وحالة توازن ، هي نقطة بداية القوى المضادة التي تؤدي إلى حدوث الانحلال . وعلى ذلك فإن أعم قانون للتطور ، في صورته الكاملة ، إنما هو هذا الإيقاع الأزل للتقدم والانحلال ، وهو عملية توحيدية متصلة ذات وجهين متعارضين ومتقابلين .

ولقد كانت الصيغة الكونية عند سبنسر ، كما عرضناها حتى الآن ، متحررة من أية مسلمات ميتافيزيقية . ولا تبدأ هذه المسلمات في الظهور إلا في التعميم النهائي القائل إن إيقاع الكون والفساد إنما ينحصر هو ذاته في توزيع المادة والحركة وإعادة توزيعهما . وهنا يكون التطور ، من وجهة النظر

---

(١) السير تشارلس ليل ( ١٧٩٧ — ١٨٢٥ ) عالم جيولوجي انجليزي ، حاول تفسير التغيرات السابقة للأرض عن طريق قوى فعالة في الوقت الحالي ، وأحدث بكتابيه « مبادئ الجيولوجيا » ( في ثلاثه مجلدات ، ١٨٣٠ — ١٨٣٣ ) انقلابا في هذا العلم . وله مؤلفات أخرى عن جيولوجية أمريكا الشمالية وعن الأطوار القديمة للإنسان . [ للترجم ]

النهائية هذه ، تكاملا للمادة مصحوبا بتنوع وانتشار للحركة من جهة ،  
وامتصاصا أو استهلاكا للحركة مصحوبا بتحلل للمادة من جهة أخرى ، ولما  
كان المجموع الكلى للمادة والحركة ثابتا ، فإن كل هذا التغير ، وكل تغير على  
الإطلاق ، لا يمكن أن يكون سوى تجميع وتقسيم ، وإعادة تجميع وإعادة  
تقسيم ، بدرجات متفاوتة ، للمادة والحركة في المكان ، يحدث وفقا لقوانين  
آلية بحتة . وعلى ذلك فإن الكون عند سبنسر ، سواء بوصفه كلاً ومن حيث  
أجزائه ، إنما هو آلة هائلة يتحكم قانون العلية في كل عملياتها . وتسرى  
قوانين المادة والقوة والحركة على كل الظواهر ، أى أنها تسرى على الحياة  
الاجتماعية والعقلية للإنسان مثلاً تسرى على العالم غير العضوى . ولم تكن  
مهمة سبنسر في فلسفته التركيبية ، سوى إثبات ذلك .

وقد خلاص سبنسر هذا المذهب الآلى من المادية الصريحة بإدخال فكرته  
المشہورة ، فكرة « اللامعروف (١) Unknowable » ، التى تتبع منفذا ،  
وصحاما — إن جاز هذا التعبير — في مذهبه الذى لولاهما لكان مقفلا  
تماما . ونظراً إلى أنه قد عرضها في بداية مذهبه ، أى في كتاب « المبادئ  
الأولى » ، فقد عدت في كثير من الأحيان أساسا لمذهبه . ولكنها ليست في  
الواقع إلا تزيينا للواجهة ، قصد منه إعطاء البناء مظهرا يقلل من نفور العقول  
المتدينة منه . وفضلا عن ذلك فقد كانت تلك الفكرة مقتبسة ، ولم تكن  
أصيلة لديه . وهى تركز على الحجب الاستمولوجية المشہورة المتعلقة  
بمحدود قدراتنا في المعرفة . فنحن لا نستطيع أن نعرف إلا النسبي والمشروط  
والظاهرى . ولكن نفس معرفتنا بذلك تلزمنا ، بحكم ضرورة عقلية ، بأن

---

(١) للمعنى الدقيق لكلمة الانجايوية هو « ما لا يمكن معرفته »



نفترض « مطلقا ، متضايفا . وحتى لو كنا نعجز عن التغافل فيه أبعد من ذلك ، فلسنا نملك أن نتجنب افتراض وجوده . ويضع سبنسر هذه المسألة الهائلة في اعتباره ، فيسميها باللامعروف ، ولكنه ينتقل ، على نحو يفنقر إلى الاتساق ، إلى طريقة في التفكير أقرب إلى الميتافيزيقيا منها إلى نظرية المعرفة ، يجعل فيها للكم المجهول وصفا محددًا إلى حد بعيد . فيذهب إلى أن علينا أن ننظر إلى العالم الذي تصل إليه تجربتنا وكل ما يحدث فيه من تغيرات على أنه تكشف لقوة تظل ثابتة وسط التغيرات ، وتكون لا متناهية في المكان والزمان . وبهذه الحجة ، التي هي قطعا أكثر اتساقا مع أسس مذهب سبنسر من الحجة الاستمولوجية السابقة ، يفقد « اللامعروف » ، دون شك ، قدراً كبيراً من عدم قابليته لأن يعرف . وهكذا فإن الفكرة التي اعتقد الكثيرون أنها هي الفكرة الرئيسية في فلسفة سبنسر تنطوي في ذاتها على تناقض داخلي ، وهي فكرة يفنقر هناؤها تماماً إلى الإحكام .

ومن الواضح أن مصدر فكرة اللامعروف هو كانه . غير أن سبنسر لم يقتبسها منه مباشرة ، وإنما بتوسط هامان وما نسل ، الذين أدخلوا عليها تعديلاً عميقاً ، وكان كل ما فعله هو أنه ترجمها إلى لغته وطريقته الخاصة في التعبير . غير أن النزعة الظاهرية *phenomenalism* التي كانت كامنة من وراء مذهبه ، والتي لم يقل بها سبنسر صراحة وإنما افترضها ضمناً ، كانت عنصرًا مشتركاً في طريقة التفكير التجريبية من باركلي إلى مل ، أي أنها كانت جزءاً لا يتجزأ من ذلك التراث الذي نمت فيه حياته العقلية ، وأخيراً فإن من الواضح أن وصفه للبطلق بأنه قوة ثابتة من خلال جميع تغيرات الحوادث الظاهرية هو نقل لقانون بقاء الطاقة إلى مجال الميتافيزيقا .

ولقد ذكرنا من قبل أن اللا أدريّة عند سبنسر — وهي ليست لا أدريّة

مطلقة بل لسيية ، إذ أنه يؤكد ، وجود عالم من وراء التجربة - لم تظهر نتيجة لمقتضيات مذهبه ، وإنما نتيجة لنظرة جانبية إلى الدين . وقد أتاحت له أن يحدد العلاقة بين الدين من جهة وبين العلم أو الفلسفة (وهما في أساسهما شيء واحد عند سبنسر) من جهة أخرى . وكان من رأيه أن فكرة عدم قابلية المطلق لأن يعرف لها قيمة إيجابية ، هي أنها تبين الطريقة التي يمكن بها وضع حد للخلاف القديم العهد بين قوى العلم أو الفلسفة والدين . فذلك الذي يعترف به العلم أو الفلسفة ، ويحترمه ، بوصفه لا معروفاً ، هو نفسه الذي يتجه نحوه الوعي الديني ، فهو في الحالتين موضوع واحد ينظر إليه من وجهات نظر مختلفة . فمجال الفلسفة هو مجال ما يمكن أن يعرف ، ومجال الدين هو اللا معروف ، ولا محل للخلاف بينهما طالما أن كلا منهما يلتزم حدوده الخاصة .

وليس هنا مجال الدخول في تفصيلات مذهب سبنسر ، والانتقال من طابق إلى طابق ، ومن حجرة إلى حجرة ، خلال هذا البناء الهائل . وحسبنا أن نشير إليه بضع إشارات موجزة . وقد أرسى سبنسر أسس هذا المذهب في كتابه «المبادئ الأولى» : فوضع خطاً فاصلاً بين ما يمكن أن يعرف وما لا يمكن أن يعرف ، وعرف الوظيفة العامة للفلسفة ، وصاغ المبدأ العام للتطور وهو لا يمضي أبعد من ذلك في مناقشة المسائل المنطقية والمنهجية والمعرفية ، وإنما ينتقل مباشرة إلى اختبار المبدأ الأساسي في المجالات الواسعة للتجربة . ذلك لأنه لم يكن يعبا كثيراً بمشكلات الفكر الخالص . حقا لقد كانت لديه موهبة فذة على التفكير المجرد ، غير أنه لم يكن يمارسها إلا عندما يكون لديه حشد ضخم من المواد التجريبية التي يريد بحثها . وهو لم يفكر قط في كتابة بحث خاص في المنطق ، إذ أن دراسة هذا الفرع من وجهة النظر التطورية كانت كفيلاً

بأن توصف منذ البداية بأنها عقيدة لا جدوى منها . غير أنه حدد موقفه من الحرب التي كانت ناشبة في أيامه بين هاملتن ومل حول تغليب الأولوية apriorism أو التجريبية ، وحول مسألة ما إذا كانت كل معرفة لنا ترتكز على التجربة الفردية ، أم أن هناك أية مبادئ أساسية تتكشف بالضرورة العقلية أو بالوضوح الذاتي على أنها مستقلة عن كل تجربة فردية . فسينسر يعضى مع أنصار الأولوية إلى حد التسليم بوجود مثل هذه المبادئ التي هي ضرورية بمعنى أنه من المحال تصور ما يناقضها ، وأنه من الواجب بالتالى أن ينظر إليها على سمات فطرية للذهن الفردى ، غير أنه يستحيل عليها أن تكون مستقلة عن كل تجربة بوجه عام . فالذهن الفردى يرث منذ البداية تلك التجربة ( أو الخبرة ) المتراكمة من الخط الطويل من أسلافه ، ويحاول سينسر أن يثبت على أسس منتمة إلى مجال علم الأعصاب ( Neurological ) أن هذه التجربة العنصرية تكون المعرفة الأصلية لذلك الذهن . فما يسمى بالحقائق الأولية قد تطور خلال تجربة الجنس البشرى ، ولم يعد بذلك داوليا ، إلا بالنسبة إلى الفرد . ومن الواضح أن سينسر يزيغ في هذا العدد المعنى الصحيح للأولية . فهو لم يوفق بين العقلية والجبرية ، وإنما اكتفى بتصحيح الصورة المنطوقة للتجريبية كما تتمثل لدى مل على الأرجح . غير أن الميل إلى التوفيق ظل ميزا له ، ولقد لاحظنا هذا الميل من قبل في محاولته التوفيق بين الدين والعلم ، كما أنه يتمثل في سياقات أخرى غير هذه . ومع ذلك فهذا الميل لا يسفر في معظم الأحوال عن حلول حاسمة ، وإنما يسفر عن حلول وسطى ، وكان سلوكه هذا السبيل هو الذى أدى إلى تلك التجريدات الغامضة الهزيلة ، وتلك الاتعيمات الجافة الجامدة ، وتلك الإطارات العقيدة ، التي تصادفها في كل خطوة من كتاباته ، والتي تشعرنا مرارا وتكرارا بأن فلسفة سينسر ليست من عمل إنسان حى وإنما من عمل آلة مفكرة ..

ولما كان اهتمامه الاساسى قد انصب على المبادئ العملية للمعرفة ، فقد اختار مجالات علم الحياة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاخلاق لى ينظمها فى مذهب واحد بواسطة مبدأ التطور ، وحذف العالم غير العضوى ( وإن تكن خطته العامة بطبيعة الحال تتضمن إدراجه ضمن موضوعات بحثه ) ، ولم يتعرض لمشاكله إلا لماما ، كما فعل مثلاً فى رسالة كتبها عام ١٨٥٨ عن الفرض السديمى . وهكذا فإن مذهبه ، على ضخامته ، يظل بدون مبادئ الفيزياء والكيمياء أشبه بجسد بلا رأس . وقد وضع أسسه على نطاق أوسع من أن يقدر على الاضطلاع به رجل واحد .

ولقد كرس سبنسر أعظم اهتمامه وأقصى جهوده لعلم الاجتماع . ويشمل المؤلف الذى عالج فيه ثلاثة مجلدات كبيرة ، ومع ذلك فهو عمل لم يتم ، اذا حكمنا عليه فى ضوء البرنامج الذى وضعه لنفسه . وكان هدفه هو إثبات أن النمو الاجتماعى ليس إلا مرحلة للعملية التطورية الكونية ، وهى مرحلة تشبه المرحلة العضوية إلى أقصى حد . فالمجتمع ، مثله مثل الفرد ، هو ناتج عن نمو عضوى ، وإن يكن سبنسر يسمي هذا النمو « فوق العضوى » ، لأنه من مرتبة أعلى . ويتوقف تقدم الحياة الاجتماعية ، مثلاً يتوقف تقدم الحياة العضوية ، على تزايد قدرة المجتمع على التكيف مع الظروف الطبيعية والبيئة الاجتماعية ، ويتم هذا التكيف إيجابياً عن طريق التقاليد والوراثة ، وسلبياً عن طريق زوال المجتمعات التى لم تتكيف كما ينبغي . وهنا يؤكد سبنسر أهمية مبدأ الانتقاء الداروينى ، كما فعل فى المواضع الأخرى من مذهبه . وبهذه المناسبة ، فقد كان سبنسر هو الذى قابل الشعار المعروف : « الصراع من أجل البقاء » ، بشعار آخر لا يقل عنه شهرة ، وهو « البقاء للأصلح » . وهكذا أعاد سبنسر قانون دارون المعلق بالحياة الحيوانية الى مجال الحياة .

البشرية ، وهو المجال الذى كان قد أوحى لالتوس بهذا القانون في البداية . . .  
وقد تأيد في هذا المجال عامل التوزيع أو التفاضل differentiation : فقد رأى . . .  
فيه المعيار الصحيح لقياس درجة النمو أو التحضر التى يبلغها أى كائن اجتماعى . . .  
مدين . فكلما كان التنوع أقوى في مجتمع ما ، كان ذلك المجتمع أرقى في سلم . . .  
التطور ، أى كان أقوى مركزاً من المجتمعات المنافسة له في الصراع من أجل  
البقاء . ويسير التخطيط الذى رسمه سبنسر لمجرى التطور التاريخى في نفس . . .  
الطريق . فهو يضع ، مثل كونت ، قانوناً ذا مراحل ثلاث : حالة بدائية مختلط . . .  
فيها عدة أنماط اجتماعية دون تمييز ، ثم نمط عسكري من المجتمع يرتكز على . . .  
القوة ، وأخيراً يظهر ببطء من هذا المجتمع ، عن طريق عدة مراحل وسطى . . .  
( أو تفرعات Varieties بالمعنى البيولوجى ) ، النمط الأكثر تحرراً من . . .  
المجتمع ، وهو الذى يتمثل في الدولة الصناعية والتجارية الحديثة ، وهكذا . . .  
فإن عصر سبنسر الخاص — عصر مفهوم المسلك الحر ( الحرين ) . . .  
والصناعة ، والتكنولوجيا ، والعلم والتجارة العالمية ، والتنافس السلى . . .  
بين الدول — كان بالنسبة إليه قمة تقدم البشرية . وقد كان يدافع في كل مجال . . .  
عن ترك القوى تتبارى بحرية ، وعن مبدأ « دعه يعمل Laissez - Faire » . . .  
في السياسة والتجارة والتعليم ، وينفر من كل استخدام للقوة في الدولة ، . . .  
ومن كل طغيان ونزعة عسكرية ، ومن كل سيطرة في الأذهان وقع للرأى . . .  
الحر ، ومن التعصب الكنسى ، وكل ما يماثل ذلك . ولقد كان في ذلك كله . . .  
يعكس بدقة المثل العليا للقرن الماضى ، بهزته للتحررية والفردية ، وتقدمه . . .  
المذهل ، وحرية الوهمية ، وإيمانه الذى لا يقدر بالعلم ، وعدم اكتراثه . . .  
بالدين — وهى كلها صفات تحمل بوضوح طابع عصر التثوير الذى يرجع . . .  
أصلها إليه .

وقد وج سبنسر مذهبه بفلسفة أخلاقية استهدف فيها جمع كل الخيوط الفكرية السابقة سويا . وكان على مبادئه أن تكشف عن حقيقتها في معالجة سلوك الإنسان والأفكار الأخلاقية لمختلف الشعوب والأزمنة ، وقبل ذلك كله ، في تحديد ما ينبغي أن تكون عليه غايات الفعل الأخلاقي وقوانينه . كما كان ينبغي على المجال الأخلاقي أن يثبت أنه يكشف عن انتظام قانون التطور .

ولقد كان هذا هو الأساس الذي بنيت عليه كل النظريات الأخلاقية التطورية المتعددة التي ظهرت بعد نظرية سبنسر ؛ ولكن على الرغم من مبادئه الجديد هذا ، فلا يمكن القول إنه أحدث أى تغير حقيقى فى مجال النظريات الأخلاقية . فقد كان من الطبيعى أن يتمشى مذهبه الأخلاقى الخاص مع المذاهب التجريبية الإنجليزية السابقة عليه . وقد قبل المبادئ الأساسية لمذهب اللذة النفعى ، ونسج داخل إطارها نظريته التطورية الخاصة . مثال ذلك قوله إن السلوك المؤدى إلى أعظم قدر من السعادة هو ذلك الذى ينطوى على أعظم قدر من التقدم والنهوض بالحياة ، وهو الأصلح لتحقيق غايتها ، والذى يؤدى على مستوى تطورى أعلى . ولقد أوحى فكرة وجود مستويات متعددة للنمو إلى سبنسر بالتمييز بين الأخلاق النسبية والأخلاق المطلقة ؛ فلا يمكن أن تحقق المثل الأخلاقية العليا تحققا كاملا إلا فى أعلى المستويات . وهو يتصور هذا المستوى الأعلى على أنه حالة لا تحدث إلا فى مدينة فاضلة خيالية ، يختفى فيها كل تعارض بين المصالح الفردية ويحل محله انسجام يبلغ من الكمال حدا لا يوجد معه مجال حتى الاختيار بين الخير والشر : ففيها يرفع التضاد بين الأنانية والغيرية .

ولا يمكن أن تحدث هذه الحالة إلا بتكيف الفرد تكيفا كاملا مع بيئته .

ولنلاحظ أخيراً أن سبنسر قد لعب في الأخلاق ، كما لعب في نظرية المعرفة ، دوره التقليدي في التوفيق بين أطراف النزاع ، فحاول أن يزيل الخلاف بين الأخلاق الحدسية والأخلاق التجريبية بأن قال بوجود قوانين أخلاقية تعد أولية بالنسبة إلى الفرد ، ولكنها اكتسبت خلال النضال الطويل الأمد الجنس البشرى . وهو هنا يزيغ ، كما فعل من قبل ، المعنى الباطن والأولية ، وبظل ملتزماً حدود الموقف التجريبي .

ولكن ، على الرغم من أن مذهب سبنسر الأخلاقي قد قصد منه أن يقدم الدليل النهائي على صحة مبدأ التطور ، فقد ختم سبنسر هذا الجزء من مذهبه باعتراف قال فيه إنه لم يجد مبداء العام مشعراً إلى الحد الذي كان يتوقعه من قبل ، وكان ذلك هو الموضع الوحيد الذي لمح فيه إلى الشك في قابلية هذا المبدأ للتطبيق الشامل . وباستثناء هذه الحالة الوحيدة ، لم يطرأ على مذهبه أبداً ذلك الوهن الذي يبعثه قناع شاحب ، من الشك فقد كتب وهو مقتنع ، عن ثقة تامة ، بأنه يحمل معه مفتاح جميع المشاكل الفلسفية ، وكل أغاز الكون . ولكن الواقع أنه كان في حاجة إلى كل ذرة من هذا اليقين المتعصب لكي يقرر أن يأخذ على عاتقه وينفذ مثل هذه المهمة الضخمة ، أعنى فلسفته التركيبية ، التي لا يملك من يشكون فيها ، 'وحتى من يرونها باطلة من أساسها' إلا أن يبدوا الإعجاب بها .

وليس من مهمتنا في هذا المجال تتبع مجرى المذهب التطوري بعد دارون وسبنسر في جميع مراحلها وتنوعاته ، بل إن كل ما نستطيع القيام به هو إيضاح لقوته ومجالاته ، كما يظهر أن لدى بعض من أشهر مثليه . فقد كان معظم من ناصروا الفكرة الجديدة وتوسعوا فيها من العلماء ، أما الفلاسفة المحترفون ، ولا سيما أصحاب الكراسي الجامعية ، فقد ظل معظمهم بمعزل عنها ، وساروا

« في طرق أخرى... وربما كانت أهم شخصية في الفئة الأولى ، وأشد أنصار النظرية الجديدة إلى التكون تحمسا ، هو توماس هنري هكسلي T.H. Huxley ( ١٨٢٥ - ١٨٩٥ ) كان هكسلي عالما بارزا في علم الحيوان ، كما كان من أبرز الشخصيات في الحياة العقلية بالعصر الفكتوري . وبفضل التقدير الذي اكتسبه بقوة شخصيته ، وشدة إصراره ، وقوة أسلوبه وتحمسه ، وطريقته الموافقة في صياغة التعبيرات والصيغ ، نجح هكسلي في تحويل أفكار دارون إلى عملة جارية تتداول في كل ركن من أركان المجتمع ولكن ذهنه كان أكثر استقلالا من أن يقتنى أثر دارون أو سبنسر أو أى شخص غيرهما دون تمييز . إذ كان بطبع شخصيته الخاصة على كل ما يقتبسه . فهو حقا قد أقر رأى دارون في الصراع من أجل البقاء . غير أنه كان متشككا في قانون التكيف مع البيئة ، وبالتالي في فكرة الانتقاء الطبيعي . أما في ميدان الفلسفة ، الذى كان كثيرا ما يطرقه (١) ، فقد ربط ربطا وثيقا بين المذهب التطورى والتراث القديم بالرجوع إلى هيوم « أمير الأدريين » كما أسماه ، وهو الفيلسوف الذى كان يتفق معه في موقفه العام ، وفي بعض التفاصيل ، ولا سيما في فكرة هيوم الرئيسية القائلة إن كل معرفة حقيقية تقتصر على عالم التجربة . ومن هنا كان عداؤه للبيتافيزيقا ، وكانت « لا أدريته agnosticism » - وهو لفظ نحتسه هكسلي وسرطان ما انتشر انتشارا واسعا . كذلك كان مثل هيوم ، يتصف بقدر غير قليل من التشكك بطبيعته

---

(١) « مواظظ علمانية » Lay Semons « ١٨٧٠ » ، « هيوم Hume » ، ١٨٧٩ ، « العلم والثقافة Science and Culture » ١٨٨١ ، التطور والأخلاق - « Evolution & Ethice » ، ١٨٩٣ ، ومقالات وأبحاث عديدة غيرها تضمنتها « مجموعة المقالات Collected Essays » في تسعة مجلدات ، ١٨٩٣ - ١٨٩٤ .



يوهى صفة ترتبط به مثل هذا الذهن المرن الذى ارتفع فوق النزعة القطعية .  
الصارمة عند سبنسر .

ومع ذلك فقد افترق هكسلى فى نواح متعددة عن هيوم . ذلك لأنه حين  
حمل تفكير هذا الأخير من الدقة أكثر مما يحتمل ، قد ارتد إلى النزعة القطعية  
أو اقترب منها إلى حد الخطورة . وكانت إثارته لذلك السؤال الذى يتعارض  
مع تفكير هيوم تعارضا أساسيا ، وأعنى به السؤال عن أصل اللطبايات  
الحسية ، مؤدية إلى إعطاء المذهب الظاهرى أساسا فسيولوجيا ، وبالتالي  
ماديا ، فأعلن أن كل الحالات أو الحوادث الذهنية إنما هى نتائج لعلل بدنية ،  
بحيث يمكننا أن نفهم أصلها وطريقة عملها بدراسة تغيرات الجهاز العصبي ،  
ولم يكن يجد غضاضة فى استخدام تعبيرات مادية صريحة ، حتى كان يتحدث  
أحيانا بلغة « كابانيس Cabanis » ، وغيره من الفلاسفة الماديين فى القرنين  
الثامن عشر والتاسع عشر . وكان هو أول من وصف الذهن بأنه « ظاهرة  
ثانوية epiphenomenon » ، أى ناتجا ظاهريا للذخ .

ونتيجة لمثل هذه التعبيرات وغيرها من التعبيرات الصريحة ، وصف  
تفكير هكسلى بالفعل بأنه مادي . غير أنه هو ذاته كان يحتاج على أية تسمية  
كـ هذه ، وحاول أن يبين وجهة النظر التى تشير إليها مثل هذه التعبيرات  
ليست نهائية ، وينبغى ألا تعد ملزمة من الوجهة الميتافيزيقية . بل يجب أن  
ينظر إليها على أنها نقطة انطلاق للبحث العلمى فى الطبيعة ، التى تكون وجهة  
النظر هذه أساسية لها ، بوصفها فرضا عمليا . وقد ذهب إلى أن وجهة النظر هذه  
لا تحوى ما يتناقض مع أكثر المذاهب المثالية تطرفا ، بل رأى أنه كلما زاد  
استعدادنا لقبول الموقف المادى ، كان من الأسهل الدفاع عن ضرورة  
المثالية . وهكذا دفع هكسلى بنفسه إلى مأزق لم يكن فى وسع طريقته فى

التفكير أن تخلصه منه ، فحاول نتيجة لذلك أن يجد لنفسه ملاذا في اللاأدرية ، وقال إن المادية لا تقبل البرهنة عليها ، وكذلك الحال في المثالية ، لنفس الأسباب ، والمذهبان معا إنما هما القطبان المتضادان للوقوف الممتنع الذي يفترض فيه إمكان معرفة شيء عن الطبيعة الأساسية لشيء ما ، سواء أكان هذا الشيء مادة أم ذهنا . فلا مفر للعلم الطبيعي من التسليم بوجود العالم المادي ، وما يتبع ذلك من تأكيد الأولوية الواقع المحسوس ، أما في الفلسفة فينبغي أن يكون ذلك العالم احتماليا دائما ، إذ أن الحقيقة الأولى فيها هي الوعي ، بحيث لا يمكنها أن تتصور المادة لا ظاهريا ، بوصفها شيئا معطى للوعي في الوعي ذاته . ولقد كان هكسلي في هذا الصدد في شقاق مع نفسه . فعندما كانت تغلب عليه صفة الفيلسوف ، كان يتحدث كما لو كان باركلي هو الذي يتحدث . وعندما كانت صفة العالم هي التي ترجع كفتها ، كان يتحدث كأنه مادي . ولكي يتخلص من هذا المأزق ، اتخذ لنفسه رداء الشك ، وكان يستمتع بهذه الصفة أو الحالة الذهنية أكثر مما يستمتع بغيرها ، بحيث أخضع لاختباره كل الفلسفات دون أن يلتزم بواحدة منها ، مستخدما إحداها تارة والأخرى تارة أخرى ، حسبما يلائم موقفه . وكانت اللاأدرية عنده ، على خلاف ما كانت عند سبنسر ، قريبة بالفعل من نزعة الشك ، وأم تكن تعنى حكماً سلبياً ، بل كانت تعنى الامتناع عن الحكم أصلاً في الأمور النهائية . وعلى الرغم من كل هذا ، فقد كان في هكسلي أكثر من هذه اللاأدرية : إذ أن طبيعته التي كانت إيجابية في أساسها ، كانت تتور ، إن عاجلاً أو آجلاً ، على هذا الانطلاق الفكري بين المواقف المختلفة ، وتدفعه إلى إصدار تأكيدات فلسفية محددة .

ولقد أسهم هكسلي بإضافة قيمة إلى النظرية الأخلاقية التطورية ، وذلك في محاضرة « رومانس Romanes » المشهورة التي ألقاها عام ١٨٩٣ بعنوان «

« التطور والأخلاق » . وهنا أيضا سار في طريقه الخاص ، واقترب في  
بضع نواح عن الآراء التطورية الشائعة ، فعلى حين أنه وافق على أن قانون  
التطور يسرى على مجال الفعل الأخلاقي كما يسرى على كل المجالات الأخرى ،  
فقد ذهب إلى أنه يتحقق في المجال الأخلاقي على نحو مختلف تماما ، فعالم  
الطبيعة يحكمه صراع رهيب من أجل البقاء ، يحارب فيه الكل ضد الكل ويغالب  
فيه حب الذات على التعاون ، وينتصر القمع القاسى على التعاطف والشفقة ،  
أما الحياة الاجتماعية للإنسان فيظهر فيها - على الرغم من كونها ذات أصل  
طبيعى ، ورغم ضغط القوى الطبيعية - عالم فريد في نوعه ، عالم فيه قوانينه  
المطرودة ومعاييره الخاصة . وهكذا فإن حياة الإنسان الأخلاقية إنما هي  
تفنيد صريح للمبدأ الطبيعى ، مبدأ الصراع الذى لا يرحم فى سبيل المنافسة ،  
وهى أبعد الأمور عن أن تكون تعبيرا آخر عنه . وبهذا التأكيد للاستقلال  
الذاتى للفريد للنظام الأخلاقي الذى يظهر مع المجتمع ، حرر مكسلى الأخلاق  
التطورية من قيود المذهب الطبيعى ، ومهد الطريق لمثالية أخلاقية ، وهى  
مثالية وجدت أجمل تعبير عنها فى دفاع مكسلى نفسه عن كرامة الإنسان  
الأخلاقية ، وفى اللغة الرفيعة التى تحدث وكتب بها عنها ، وفى الطابع النبيل  
الذى ساد نظرتة إلى الحياة البشرية .

أما « جون تيندول » John Tyndall ، ( ١٨٢٠ - ١٨٩٣ ) فكانت  
تجميعه بهكسلى صلة الصداقة الشخصية ، فضلا عن الأهداف العلمية  
المشتركة ، وكان اهتمامه بالفلسفة أقل وضوحا من اهتمام مكسلى بها ، ولكنه  
بدوره كرس جزءا كبيرا من محاضراته وكتاباتة لينشر ويلدع الأفكار  
العلمية الجديدة ، ولا سيما فكرة التطور . وله محاضرة مشهورة (١) اعترف

---

( ١ ) خطاب ألقى أمام الجمعية البريطانية British Association التى اجتمعت فى  
بلغاست سنة ١٨٧٤ . انظر أيضا كتابه « ألوال متفرقة فى العلم » Fragments  
• ١٨٧١ • of Science

غيراً بأنه مادي ، وأثارت ضجة كبرى ، وجعلته قرة ما مركزا للاهتمام  
الفلسفي ، غير أن رأيه في طبيعة المادة يختلف تماماً عن الرأي الشائع . بل  
يختلف عن الرأي العلمي الأدق من هذا الأخير . صحيح أنه اعترف بأن  
المادة كما نعرفها الفيزياء لا يمكن أن تكون قد ولدت للكون كما نعرفه ، غير  
أنه كان يؤمن بأن كل تركيب ونشاط في العالم ، سواء أكان ذهنياً أم مادياً ،  
حتى نشاطنا في الأخلاق والفن والعلم ، هو في الحقيقة كامن ، وكأنه في بذرة ،  
في النار الأولية للشمس .

أما بالنسبة إلى العلوم غير العضوية ، التي كانت هي مجال تخصص  
« تندرول » ، فإن فكرة التطور لم تكن تنفع كثيراً . فعلمنا أن نعود إلى  
المجال البشري إذا شئنا أن نقدر قيمة الاتجاه الفكري الجديد تقديراً  
صحيحاً . ولقد أجرى السير فرانسيس جولتن Sir Francis Galton (١)  
(١٨٢٢ - ١٩١١) أبحاثه الهامة وهو متأثر مباشرة بدارون ، الذي كانت تربطه  
به صلة قرابة وثيقة ، وأهم ما اشتهر به جولتن هو أنه مؤسس علم تحسين السلالات  
eugenics وهو العلم الذي يرى أن ذلك الانتقاء للصالح والقضاء على غير  
الصالح ، وهو الانتقاء الذي يحدث آلياً في الطبيعة ، ينبغي أن يتم بطريقة  
متعمدة منظمة في المجتمع البشري . ولقد كانت أعمال جولتن المتنوعة - وهي  
تشمل أبحاثاً في الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا ، ودراسات في الوراثة البشرية ،  
وفي عصب الألوان ، وفي الصور العامة وبصمات الأصابع ، وتطبيقه للنهائج

---

( ١ ) « البصرية الوراثية Hereditary Genius » ، ١٨٦٩ ، « أبحاث في السمات  
البصرية وتنميتها Inquiries into Human Faculty & its Development »  
١٨٨٣ « التوريث الطبيعي Natural Inheritance » ، ١٨٨٩ ، « رسائل في علم تحسين  
السلالات Essays in Eugenics » ، ١٩٠٩ .

( ١٤١ )

الإحصائية على دراسة الإنسان - كل هذه كانت تستهدف معالجة المشكلات العملية المتعلقة بتحسين الجنس عن طريق التحكم الواعي في المعاشرة والتناسل . وإن حركة تحسين النسل ، التي ثبتت أقدامها في بلدان متعددة ، إنما تدين له بمثلها العليا وبكثير من مناهجها . ولقد كان تليذه الأكبر في إنجلترا ، والمكمل لرسائله ( ومؤرخ حياته أيضا ) ، هو كارل بيرسن Karl Pearson الذي ينبغي أن نتحدث عنه مزيد من التفصيل ، نظرا إلى أنه قد انتقل من العلم إلى الفلسفة .

فقد كان كارل بيرسن ( ١٨٥٧ - ١٩٣٦ ) (١) هو أكثر الناس تحمسا للتوسع في النظرة العلمية بحيث تمتد إلى المسائل الفلسفية ، وأشد مثل هذا الاتجاه تعصبا . ولقد كان طالما مرموقا في ميادين متعددة متصلة ، فقدم مساهمات رائدة في تطبيق الرياضيات على علم الحياة والأثروبولوجيا وعلم الاجتماع ، وترجع أهميته الكبرى من وجهة نظرنا إلى كتابه المشهور ذي التأثير البالغ وهو كتاب « قواعد العلم » The Grammar of Science ( ١٨٩٢ ، الطبعة الثالثة ١٩١١ ، طبعة جديدة رخيصة ١٩٣٧ ) الذي صاغ فيه المثل العلمي الأعلى للمعرفة ، كما كان سائدا في أيامه ، صياغة كلاسيكية ؛ ومجد الروح الكامنة من ورائه ، والأعمال التي جعلته ممكنا ، وأعرب بوضوح عن اقتناعه بأن العلم قد كتب له أن يخدم ثقافة المستقبل ويشكلها .

والهدف من هذا الكتاب هو دراسة المفاهيم الأساسية للعلم الحديث .

---

( ١ ) خلف « كليفور . Clifford » في كرسى الرياضة التطبيقية بجامعة لندن ، ثم أصبح حفيها بين ١٩١١ و ١٩١٣ أستاذ كرسى « جولتن » في علم تحسين السلالات بنفس الجامعة .

وهكذا يتخذ ييرسن من المباحث الرياضية الفيزيائية أنموذجا للعلم ، وأكد بناء على ذلك أن الطبيعة الأساسية للعلم لا تكون في التفسير وإنما في الوصف . ولا تكون في الإجابة عن السؤال : لماذا تكون الأشياء ، وإنما في الإجابة عن السؤال : كيف تكون الأشياء ، . فضلا عن ذلك فإن غاية العلم هي القيام بهذا العمل بالنسبة إلى كل شيء : فلا شيء يقع خارج نطاقه ، ولكن لما كان من المستحيل فهم الأشياء في كليتها الشاملة ، فإن العلم يضطر إلى الالتجاء إلى نوع من الاختزال التصوري ( conceptual ) ، ويصطنع رموزا وصيغا وقوانين ، ويتمكن بفضل هذه من فهم الواقع ووصفه بطريقة مختصرة ، وبعبارة أخرى فالإلكترون مثلا ينبغي ألا يعد حقيقيا من الوجهة التجريبية . وإنما هو مجرد رمز أو تعبير اختزالي يبتدعه خيال للعالم ، ويمكن بالتالي طرحه جانبا كلما ثبت عدم كفايته لوصف الوقائع المتعلقة به ، فضلا عن ذلك . فالعلم لا يضع النظريات حبا في النظريات ، وإنما هو عملي في أساسه . وهو من أهم ما في متناول أيدينا من الوسائل لتكييف أنفسنا مع بيئتنا والنجاح في صراعنا من أجل البقاء . واستهدافه هذه الغاية العملية هو ذاته الذي يجمعه يسعى إلى تحصيل أكبر قدر من المعرفة بأبسط الوسائل ، طبقا لقانون الحد الأدنى من المقاومة ، . ولهذا السبب بعينه يرفض العلم كل المسلمات الباطلة المتعصبة ، بحيث إن من مهامه الرئيسية تحرير الفكر من الأوهام التي كدستها عليه الخرافة والجهالة . على مر القرون ، وهكذا فإنه يحمل على اللاهوت والميتافيزيقا من أساسهما . وبكل ما فيهما . أما الفلسفة ، . فبقدر ما يكون لها أى حق في المطالبة بمجرد الوجود ، فإنها تنحل إلى العلم حسب تعريفه المذكور من قبل . ولا يمكن أن يصبح لها مجال خاص بها إلا بقدر ما ينظر إليها تاريخيا على أنها مرحلة من مراحل النمو العقلي للإنسان .

( ١٣٣ )

غير أن على العلم بدوره أن يقوم ، في مجاله الخاص ، بعملية تطهير .  
فعلية أن يستبعد من مجاله كل ما لا يتمشى مع طبيعته من حيث هو وصف  
وتنظيم وتصنيف ، وهذا يعنى أن عليه أن يتخلص من أفكار العلية والقوة  
المادية ، التي لا تبدو أن تكون أصناما محتبثة في زوايا العلم حتى في أحدث  
صوره ، فقولة العلية ليست لها صورة فكرية ، ولا تدعمها التجربة ، وإنما  
هي مجرد حد تصورى ابتدع لإرضاء حاجتنا إلى الاقتصاد في التعبير ، والقوة  
هي نوع من الحركة ، وليست تفسيراً لها ، أما المادة فليست شيئاً ، أو ليست  
على أية حال شيئاً معروفاً ، بحيث لا تحتاج الفيزياء إلى فكرتها . ولقد  
شغل مكان كل هذه التصورات بفكرة الحركة ، التي يضعها العلم ولكنه  
لا يستطيع تفسيرها ، وحسب العلم أن تعطيه الحركة والدقائق الجسمية  
والمكان ، وهي كلها أمور يمكن قياسها بدقة ، لكي يستطيع أن يقدم وصفاً  
لكل ما يقع في نطاق التجربة .

وهكذا كان موقف بيرسن تمجيذاً متطرفاً لقدرة العلم الشاملة . وهو  
يسير في نفس الطريق الموروث مباشرة عن تجريبية هيوم ووضع كونت :  
جوله مقابل دقيق في الجانب الفلسفى من تفكير أرلست ماخ . وما يدل على  
إدراك ماخ لهذه القرابة الوثيقة بينهما ، أنه أهدى كتابه ، تحليل الانطباعات  
الحسية Analyse der Empfindungen إلى بيرسن ، تعبيراً عن شعور الزمالة  
والتقدير . كذلك كانا يتفقان في الأساس المعرفى (الإستمولوجى) لنظريتهما في  
العلم ، وهذا الأساس ، كغيره يرتد إلى هيوم ، فالوقائع التي يعالجها العلم ليست أشياء  
في ذاتها ذات طبيعة غامضة ، بل هي مجرد ظواهر لوعى ، أى هي الإحساسات  
ومشتقاتها ، التي لا توجد سواها أية حقيقة أخرى . صحيح أننا نسقط جزءاً  
من محتوى الوعى على مكان خارجى ، وتحدث عنه بوصفه وقائع مادية ،

غير أن هذا الإسقاط لا ينقلنا في الواقع إلى ما وراء الوعي . فما يسمى  
بالشئ الخارجى ليس إلا تركيباً ذهنياً نتج عن ربط الانطباعات الحاضرة  
بالماضية . صحيح أنه يجوز العلم أن يتجاوز الإحساسات الحاضرة : وأنه  
يفعل ذلك حقاً ، عن طريق تكوين فروض ووضع قوانين واستخلاص  
استدلالات وما إلى ذلك ، غير أن الإحساسات هى التى تتحكم فى كل هذه  
التركيبات التصورية الاصطناعية ، وهى التى تضيف عليها أى معنى يمكن لها . .  
فالذهن عند بيرسن ، كما هو عند ماخ ، يشبه المحطة المركزية للهاتف (التليفون) ،  
إذ يتلقى الانطباعات الخارجية ، ويرتبها ، ويعيد توجيهها . ولكن ينبغى علينا  
ألا نتطلع فى الاستبطان ، كما فى الإدراك الحسى ، إلى ما وراء الإحساسات .  
والصور والمفاهيم المستمدة منها ؛ فليس ثمة نفس أو أى شئ يشبهها متميز عن  
المحتويات التى يكون لدينا بها وعى ، وما للذهن إلا مجموع انطباعاته وأدكاره .  
وهكذا يظهر بوضوح أن نظرية المعرفة عند بيرسن بمثابة تماماً نظرية «بوم-  
ومل وماخ» .

ولقد مضى بيرسن فى امتداحه للروح العلمية إلى حد التجديد المفرط :  
فرسالة العلم الحديث ذاتها هى احترام ذلك الإله الذى لدينا به وحده يقين .  
مؤكد ، أعنى الروح البشرية ، وما الدين إلا خدمة قضية العلم ، وما التقديس  
إلا تأمل ما أنجزه العقل البشرى . وإن مكنتنى الحقيقة لهم القديسون .  
والصالحون بحق . وإن يقول أحد فى المستقبل : إنى مؤمن لأن موضوع  
إيمانى ممتنع ، بل سيقال «أؤمن لأنى أفهم» . وهكذا فإن بيرسن ، مثل  
كولت ، يؤله العلم ، وموقفه هو موقف عصر التنوير ، وكل ما فى الأمر أنه  
ظهر فى غير الآراء ، أى متأخراً عن وقته بمائة عام .



ومثل هذا يمكن أن يقال عن تفكيره الأخلاقي (١)، الذى يجعل من التقدم فى المعرفة العلمية سمة رئيسية لكل محاولة للاقترب من المشل الأخلاقي الأعلى. وكما أنه حمل على الدين (كما يشيع فهمه) بوصفه ناتجا عن الخرافة، فهو كذلك قد وصم الأخلاق المسيحية هنا بأنها نتيجة لشعور أعمى. فالأخلاق الحقة لا صلة لها فى نظره بالشعور، وإنما بالمعرفة وطلبها لحسب، وهو يؤيد رأى سقراط القائل إن العارف وحده هو الذى يمكن أن يكون فاضلا. وهو يضيف الاشتراكية إلى «أخلاق الفكر الحر»، بوصفها تكملة سياسية لها، وهو لا يعنى بالاشتراكية ذلك النوع الثورى المرتبط بماركس، بل لا يعنى بها أساساً أى تغيير للنظام السياسى القائم على الإطلاق، وإنما يعنى بها ذلك التقدم المطرد البطيء للشخصية الأخلاقية، على النحو الكفيل بأن يودى بكل فرد إلى إخضاع سلوكه لصالح المجتمع من حيث هو كل. مثل هذه الاشتراكية تقتضى تحسين الجنس عن طريق أساليب علم تحسين السلالات. وتحرير المرأة، وإلغاء المحرمات الجنسية (أى «إباحة الحب»)، وحرية اختيار العمل، وحرية الفكر. ولقد كان فى هذه الأفكار يستبق على نحو يدعو إلى الإعجاب، وهو لم يزل فى العقد التاسع من القرن الماضى، أفكارا ظهرت من بعده، وكان لابد للقيام بذلك من شخصية مثل بيرسن، تتصف بالقوة والجرأة، وتمتلى ثقة بقدرة العلم على كل شئ، وتؤمن بإيمان زاسخا ببحرية البحث، وتزدري الحلول الوسطى، وتستخلص النتائج بجرأة حتى لو كان من شأنها أن تغضب معاصريه (٢).

(١) «أخلاق الفكر الحر The Ethic of Freethought»، ١٨٨٨، الطبعة الثانية ١٩٠١.

(٢) انظر بالإضافة إلى الكتاين المذكورين، «احتمالات الموت ودراسات أخرى فى التطور The Chances of Death and other studies in Evolution»، فى مجلدين، عام ١٨٩٧.

(١٣٦)

ولقد حدث تطبيق وتأيد آخر واسع المدى لمبدأ التطور في ميدان خارج عن الفلسفة ، ولكنه قريب من مجالها إلى الحد الذي يبرر ذكره في هذا المجال . فمثلا قام السير هنري مين Sir H. Maine ( ١٨٢٢ — ١٨٨٨ ) ، الذي يمكن أن يعد خليفة أوستن<sup>(١)</sup> ، بإعطاء أساس جديد كل الجدة للتشريع التاريخي والمقارن ، وذلك في عدة مؤلفات كان لها تأثيرها الهائل ، رتب فيها وقائع التنظيم البدائي الاجتماعي والسياسي بوساطة هذا المبدأ<sup>(٢)</sup> ، وفي ميدان الاقتصاد والتاريخ الدستوري والعلوم السياسية . وقام ولتر باجيت Walter Bagehot ( ١٨٢٦ — ١٨٧٧ )<sup>(٣)</sup> بمجموع مماثل . ولما لم يكن دارسا منعزلا ، بل كان من رجال الأعمال والبنوك ، فإن أفكاره كانت ذات وجهة عملية ، وكان لها بعض التأثير في هذا المجال . وهو يصف دينه لدارون ، ويعترف به ، في العنوان الفرعي لكتابه . « الفيزياء والسياسة » ، وهو « أفكار عن تطبيق مبادئ الانتقاء الطبيعي والوراثة على المجتمع السياسي » . وقد أثارت مؤلفاته اهتمام دارون ذاته .

ولكن الميدان الذي اكتسبت فيه نظرية التطور أكبر قوة لها ، خارج نطاق علم الحياة والفلسفة ، كان ميدان الأنثروبولوجيا . مثال ذلك أن السير جون لبوك Sir John Lubbock (اللورد أيفري Avebury ؛ ١٨٣٤ — ١٩١٣) كان داروينيا متحمسا ، ورأى أن الإنسان البدائي لم يكن يعرف

(١) انظر ص [ ٥٩ ] (٢) « القانون القديم Ancient Law » ، ١٨٦١ (طبعت متعددة) « المجتمعات المحيطة القروية في الشرق والغرب Village Communities in the East & The west » ، ١٨٧١ ، « التاريخ القديم لتنظيم الاجتماعية Early Hist of Institutions » ، ١٨٧٥ ، « أبحاث في القانون والعرف القديم Dissertations on Early Law and Custom » (١٨٨٣) .

(٣) الدستور البريطاني The British Constitution ، ١٨٦٧ ، « الفيزياء والسياسة Physics & Politics » ، ١٨٦١ ، شارع لومبارد Lombard Street ، ١٨٧٣ .

( ١٣٧ )

الالهة ، وأن الدين تطور من أشكال الوثنية المختلفة : كعبادة للمسحورات ؛  
« الفتيش fetishism » ، ومنها إلى عبادة أصنام الجدود ( الطوطمية Totemism )  
ثم عبادة الأوثان بوجه عام idolatry ، وغيرها من صور  
تعدد الالهة ، ومن هذه كلها إلى مرحلته التوحيدية الراهنة . وحاول السير  
إدوارد بيرنت تيلور Sir Edward Burnett Tylor ( ١٨٣٢ - ١٩١٧ )  
وهو أول أستاذ للأنثروبولوجيا في أكسفورد ، وأعظم حجة إنجليزى في  
هذا الفرع من العلم خلال القرن التاسع عشر ، أن يثبت أن الصور العليا  
للدين ، وكذلك الفلسفة ، قد ظهرت من مذهب حيوية الطبيعة Animism .  
وكان خليفة تيلور هو السير جيمس فريزر Sir James G. Frazer ( ولد  
سنة ١٨٥٤ ) . وهو عميد علماء الأنثروبولوجيا الإنجليز الأحياء (١) ، وقد  
ذاعت شهرته دوليا منذ وقت بعيد . وهو يرى أن حياة الإنسان البدائي كان  
يحكمها السحر أكثر مما تحكمها المعتقدات الخاصة بحيوية الطبيعة ، ولما كان السحر  
يرمى إلى السيطرة على القوى الطبيعية ، فإنه أقرب إلى العلم منه إلى الدين ،  
أما هذا الأخير فلم يظهر إلا بعد وقت متأخر جدا ، حين أهاب الناس بقوى  
أعلى بعد أن بلغت قوى مسداها ، وحين حل الخوف والأمل والتفاؤل  
والتشاؤم محل الرغبة في السيطرة ، ويظهر استمرار تأثير سبنسر ودارون  
بوجه خاص في عمل عالم أنثروبولوجى حى آخر (٢) ، وهو إدوارد وسترمارك  
Edward Westermarck ( ولد سنة ١٨٦٢ ) ، وهو فنلندى استقر منذ  
وقت طويل في إنجلترا وأصبح أستاذا لعلم الاجتماع بجامعة لندن من سنة

---

(١) كان السير جيمس فريزر حيا حتى وقت تأليف هذا الكتاب ، وقد توفى  
سنة ١٩٤١ . [ المترجم ] .

(٢) توفى وسترمارك سنة ١٩٣٩ . [ المترجم ] .

١٩٠٧ إلى سنة ١٩٣٠ : ومن كتبه المشهورة : « تاريخ الزواج البشرى »  
 Hist. of Human Marriage ، ( ١٨٩١ ، الطبعة الخامسة في ثلاثة مجلدات ،  
 سنة ١٩٢١ ) وقد عالج مشكلات الأخلاق في كتابين . « أصل الأفكار  
 الأخلاقية وتطورها The Origin and Development of the Moral  
 Ideas ، ( في مجلدين ، ١٩٠٦ - ١٩٠٨ ، الطبعة الثانية ١٩١٢ - ١٩١٧ )  
 و « النسبية الأخلاقية Ethical Relativity » ( ١٩٣٢ ) . وتظهر في  
 الكتابين نزعة التطورية بكل وضوح ، إذ أن معالجته للظواهر الأخلاقية  
 من حيث نشأتها وتطورها تؤدي حتما إلى النسبية الأخلاقية . وهو يرى أن  
 كل المحاولات التي ترمي إلى الاهتداء إلى أساس لصحة موضوعية ، زعومة  
 للأحكام الأخلاقية ، كمحاولتي المذهب العقلي والحدسي ، تتعارض حتما مع  
 حقائق التطور الأخلاقي . وهو يرى مثل هيوم ، أن الانفعال ، لا العقل ،  
 هو أصل الحكم الأخلاقي والمتحكم فيه ، والانفعال ذاتي قطعا ، وقد حاول  
 أن يتعقب أصل الظروف الانفعالية لأحكامنا الأخلاقية التلقائية ، بل  
 والنظريات الأخلاقية الأولية ذاتها كنظرية كانت . فالانفعالات الأخلاقية ،  
 التي تتميز عن غير الأخلاقية بتنزهها وشمولها ، تستمد كلها من الاستحسان  
 والاسترجان ، بحيث يكون الأول هو أصل الانفعالات الإيجابية ، والثاني  
 أصل الانفعالات السلبية ( التي يدرج ضمنها الشعور بالإلزام الخلق ) .  
 فالانفعالات دائما أسباب الأحكام الأخلاقية لا نتائجها . وما المبادئ  
 الأخلاقية إلا تعميمات لمثل هذه الأحكام المشتقة . فضلا عن ذلك فالانفعالات  
 الأخلاقية ليست ، آخر الأمر فردية ، وإنما هي اجتماعية في طابعها وأصلها .  
 وقد كان وستر مارك يؤكد دائما ارتباط الأخلاق بعلم الاجتماع .

ولنعد من هذه التفرعات للمذهب التطوري ، وهي تفرعات خارجية إلى

حد ما ، إلى مظاهره ذات الطابع الفلسفي الأوضح ، فننتقل إلى جورج هنري لويس George H. Lewes ( ١٨١٧ - ١٨٧٨ ) ، الذي كان أم مثلي المذهب التطوري في المجال الفلسفي بعد سبسر ، وكان ينتمي ، بفضل ذهنه الرحب ، إلى مجال الأدب بقدر ما ينتمي إلى مجال الفلسفة . وهو معروف لدى جمهوره القراء بصلمته الرومانتيكية بجورج إليوت ، وترجمته لحياة جينيه ( وهي ترجمة انتشرت في ألمانيا على نطاق واسع ) أكثر مما هو معروف بمؤلفاته الفلسفية (١) . ولقد كان في الفترة الأولى من حياته على الأخص . واحدا من أشد تلاميذ كونت الإنجليز تحمسا ، ووجد في هذه الناحية ، كما وجد في غيرها من النواحي ، تألفا روحيا كاملا مع جورج إليوت . ولقد كانت وجهة النظر الوضعية هي السائدة تماما في كتابه « تاريخ الفلسفة » ، وهو كتاب ليست له قيمة كبيرة بمعاييرنا الحالية ، ولكن إتقان كتابته أدى إلى ذبوع انتشاره إلى حد غير عااوف ، بحيث كان هو الذي أمد كثيرا من القراء الإنجليز بمعلوماتهم الوحيدة عن تاريخ الفلسفة . وبهذه المناسبة ، فقد كان هذا الكتاب من أوائل الكتب العامة في تاريخ الفكر النظري باللغة الإنجليزية . وكان الهدف منه كشف غرور كل تأمل ميتافيزيقي ، فهو قد فرض حظرا على الجزء الأكبر من المحاولات الفلسفية ، وانهى من ذلك إلى تحييد مذهب كونت بوصفه قة التفكير البشري ، وقد تزايد تباعده

---

( ١ ) تاريخ الفلسفة من خلال تاريخ حياة الفلسفة The Biographical Hist. of Philosophy في مجلدين ، ١٨٤٥ - ١٨٤٦ ، وقد أعيد طبعه مرارا « فلسفة العلوم الوضعية عند كونت Comte's Phil. of the Positive Sciences » ١٨٥٢ ، « أرسطو : فصل في تاريخ العلم Aristotle: a Chapter in the Hist. of Science » ١٨٦٤ ، « مشكلات الحياة والذهن Problems of Life & Mind » في خمسة مجلدات -

فينا بعد عن مذهب كورت ، تأثر وقتنا ما بسبنسر ، ثم سار آخر الأمر في طريقه الخاص ، ولكنه لم يترك معسكر الوضعية قط بصفة نهائية .

ولقد كانت فلسفة لويس ، كما عرض الجزء الأكبر منها في كتابه الأخير ، تعبيراً أميناً عن ذهنه المرن المتفتح ، ومعارفه التي كانت واسعة إلى حد غير عادي ، والتي اشتملت على مسائل بيولوجية ونفسانية ، فضلاً عن المسائل الفلسفية . وهي تزخر بالأفكار ، التي يعد الكثير منها هاما ، ولكنها في عمومها تفتقر إلى الاتساق والإحكام . فمن الصعب أن يمتدى المرء إلى مبدأ جامع أو إطار مسيطر عليها ، وإنما يحس المرء بعد قراءته بأن لديه تفكيراً حياً خصيباً ، ولكنه يفتقر إلى الوضوح والنضج ، ويؤكد لويس ، كأي وضعي مخلص ، أن الفلسفة ينبغي أن تكون علمية ، ولا يعني بذلك فقط أن عليها اتباع مناهج العلوم الطبيعية ، بل يعني أيضاً أن عليها أن تقتصر على ما هو تجريبي بوصفه هو وحده القابل لأن يعرف . ولقد كان هو الذي نحت لفظ « مايمسند التجريبي metempirical » ، ليدل به على ما هو موجود ، أو يفترض أنه موجود ، من وراء التجربة . وكما بين شادورث هودجسن Shadworth Hodgson ، (١) . فإن لويس لا يوضح إن كان ينكر وجود ما بعد التجربة ، أم ينكر فقط قابليته للمعرفة ، أم كليهما معا . ويبدو على وجه الإجمال أنه يعترف بوجوده فحسب ؛ ونهما انكشف للحدس والإيمان من هذا المجال ، فإنه لا يمكن أن يكون ، بالنسبة إلى المعرفة في معناها الوضعي ، إلا تصوراً سلبياً حدياً . وقد ترك لويس آخر الأمر مجالاً

(١) « فلسفة التفكير التأمل The Phil. of Reflection » المجلد الأول ص

(٢٤١)

للمشكلات الميتافيزيقية في الفلسفة . ولكنه اشترط أن تعالج وتحل بروح علمية دقيقة . فالفلسفة في نظره ، كما هي في نظر سبنسر ، هي العلم الذي ينتقل إلى أعلى التجريدات وأوسع التعميمات .

وفيما عدا ذلك ، فقد كانت معظم أبحاث لويس ذات طابع فسيولوجي . ونفسي ، وهذه بدورها حافلة بالأفكار المثيرة ، التي ترتفع في أحيان غير قليلة إلى مستوى التبصر العبقري ، ولكنها ظلت كلها عقيمة لأنها اختبأت وسط حشد من الأفكار المختلطة التي تفتقر إلى الاتزان والوضوح . ومن أفكاره الجديدة ، التميز بين نوع الظاهرة الذي يتبدى بوصفه تجديدا خالصا بالنسبة إلى سوابقه ، وبين النوع الذي لا يمكن فهمه تماما من خلال خصائص أجزائه المكونة . وكان لويس أول من أطلق على الفئة الأولى اسم الظواهر الطافرة emergent ، بينما أسمى الفئة الثانية « بالناجئة resultant » ، وهو هنا قد استبق « فلسفة الطفرة emergent Phil. » عند لويد مورجان وألكسندر ، وإن لم يكن من المؤكد إن كانت ثمة أي استمرار منه إليها ، أي تأثير مباشر أو غير مباشر له فيها .

ولقد كان تفكير لويس ينتمي في أساسه إلى عصر كونت ومل ، ولم يتأثر بأفكار دارون وسبنسر إلا قليلا . أما الجيل التالي من المفكرين الذين ولدوا في العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر ، فقد طغت عليهم موجة المذهب الجديد ، في السن التي كانوا فيها أشد تعرضا للتأثر بآراء الغير . ولكنه لم يؤثر إلا في القليبين بمثل العمق الذي أثر به في وليام

كينجدن كليفورد Willam Kingdon Clifford ( ١٨٤٥ - ١٨٧٩ ) ، الذي

١ (١٩٤٢)

تـشـغـل مـنـذ عام ١٨٧١ حـتى مـوتـه المـبـكـر مـنـصـب أـسـتـاذ الـرـيـاضـيـات فـى الـسـكـيـة  
الـجـامـعيـة ( يـونـيـفـرسـتى كـولـيدـج ) بـلـنـدن .

كان كليفورده شخصية فريدة ذات موهبة عقلية لامعة ، وكان سابقا  
لـسـنـه ضـلـيـعاً فـى مـيـادين عـديـدة ، تشـع العـبـقـريـة مـنـه ، وکانت له القـدرة عـلى  
التـحمـس وإثـارتـه لـدى الـغـيـر ، كما كان له عـلى النـاس سـحـر غـريـب ، وـلـكـن  
ذـلـك اقـترن لـديـه بـجـرأة لـا مـنـاطـل لـها ، وبنـوع مـن الإفـراط والإغـراب ، فـإذا  
بـالنـتيـجة شـخـصـية حـافـلة بـالـمـتـناقـضـات کانت تـسـير نـحو اسـتـهـلاك ذـاتـها . ولـقد  
كان فـيـه هـرق بـرومـيـثى ، وکـان يـتـصـف بـالكـثـيـر مـما يـذکـرنا بـمـعـاصـره الـألمـانى  
نـيـتـشه ، وـالحـق أنه مـامن شـئ يـؤکـد مـدى خـروج شـخـصـية كـليـفـورده عـن المـألـوف  
فـى الفـنـکـر الإنـجـليـزى بـقـدر قـرائـته العـقـليـة مـع هـذا الفـنـکـر الـألمـانى الـذى كان  
دائـماً ، وما يـزال ، غـريـباً کـل الغـرابـة بـالنـسـبة إلی الإنـجـليـز . فـيـر أن حـيـاة كـليـفـورده  
کانت أقـصر بـعـشـرة أـعوام کـامـلة مـن حـيـاة نـيـتـشه العـقـليـة ؛ ولم يـتـسـن له أن يـتم  
إلا أـقل مـما أتمـه نـيـتـشه بـکـثـيـر . ولـربـما خـطـر يـبال المـرء أن يـتـسـاهـل : أهـناک شـئ  
کـان سـيـعـجـز عـن تـحـقـيـقه لو كان قد وهـب حـيـاة أطـول ؟ فـيـر أن هـذا سـؤال  
عـقـيـم ، إذ رـبـما كان القـدر قد شـاء له أن يـقـدم فـى سـبـيل جـارـف کـل ما كان لـديـه  
خـلال العـمر القصـير الـذى أتیـع له ، بـحـيـث إنه كان قد اسـتـنفـد مـوارده العـقـليـة  
بـالفـعل عـندما خـانتـه قـواه الجـسـميـة . وهـکـذا كان عـمـل كـليـفـورده الـذى وـزعـه  
بـطـريـقـته المـوـهـوبـة بـين مـيـادين عـلميـة مـتـعـددة ، قد ظـل تـمثـالاً رائـعاً لـجـذـع بـغـيـر  
أطـراف ، وکـان هو ذـاتـه باحـثاً أكـثـر مـنـه کاشـفاً ، وخـافـزاً لـلـغـيـر أكـثـر مـنـه  
مـوجـهاً لـهم ، ومـرشداً إلی أهداف لم یـعـش هو ذـاتـه لـتـحـقـيقـها .

ولقد شملت الأعمال التى أنجزها كليفورده ، إلی جانب جهوده الهامة فى



بالرياضيات ومعرفة الدقيقة بالعلم الطبيعي ، أبحاثاً في نظرية المعرفة ، ونظرية العلم ، وكذلك في الميتافيزيقا والأخلاق وفلسفة الدين (١) . وهو يتخذ نقطة بدايته في نظرية المعرفة من فكرة قريبة من المذهب الظاهري الحسي عند هاركلي وهيوم . فموضوعات العالم الخارجى تعطى لى بوصفها انطباعات ؛ وهى تمثل سلسلة من التغيرات فى وعى ، وليس لها عدا ذلك وجود غير أن « انطباعات الذوات الأخرى لا تعطى على نفس النحو ، إذ أنها لا يمكن أن تكون موضوعاً لوعى ، وإنما يمكن الاستدلال عليها من وعى ، عن طريق إسقاط ذاتى خارج وعى على الذات « الأخرى » . ويطلق كليفورده على هذه الانطباعات التى أسقطها خارج ذاتى على هذا النحو وأدركها على أنها : توجد خارج « ذاتى » اسم « الانبثاقات ejects » . وهكذا فيينا نكون الموضوعات objects هى المعطيات التى تبدو بوصفها ظواهر فى وعى الشخص وتنتمى إلى وحده ، فإن « الانبثاقات » هى محتويات عمليات المعرفة . منقولة من وعى الذاتى ومحولة إلى الوعى الخارجى الذى تنتمى إليه . وما يزيد هذا التفسير لعملية المعرفة تعقيداً ، أن كليفورده يضيف إليه أفكاراً منتجة إلى المجال التاريخى التطورى . فالإيمان بوجود وعى غير وعى مضمون بالفعل ، على نحو مستقل عن كل حجة نظرية ، نظراً إلى أن الإنسان لم يكن منذ البداية مفرداً منعزلاً ، وإنما تربطه بأقرانه علاقات اجتماعية . وهكذا يتضح ، من

---

(١) كان معظم كتابه يتألف من المحاضرات التى ألقاها خلال حياته ، أو من مقالات نشرت فى مجلات دورية ، وقد جمع معظمها ونشر بعد وفاته ، ومنها : « الإبصار والتفكير Seeing & Thinking » ، ١٨٧٩ ( الطبعة الثانية ١٨٨٠ ) ؛ « محاضرات ومقالات Lectures and Essays » ، وقد نشره ل . ستيفن والميرف - بولوك ، فى مجلته « ١٨٧٩ » ( الطبعة الثالثة ١٩٠١ ) . « العلوم الدقيقة من وجهة نظر التفكير السليم The Common Sense of The Exact Sciences » ، نشره و . ككله كارل بيرسن ، ١٨٨٥ .

وجهة نظر التطور التاريخي ، أن الإيمان « بالمنبثق (خارج الذات) the eject هو نوع من إعادة كشف وعى مشابه لوعي في وجود أقراني من الناس ، أو من التعرف على هذا الوعي الآخر . غير أن « الموضوع ، المعطى لوعي قد يتمثل أيضاً منذ البداية ، حتى لو كان ذلك بطريقة غريزية فحسب ، بوصفه موضوعاً يمكن أن يحس به وعى آخر بالإضافة إلى وعي . ويطلق كليفورد على الموضوع الذي يقترن به هذا الاعتقاد اسم « الموضوع الاجتماعي » . ولا يعني الإحساس بالخارجية ، الذي تثيره مثل هذه الموضوعات ، أى شيء سوى هذه العلاقة الفعلية أو الممكنة مع وعى « آخر » . ومن الواضح أن مثل هذه الطريقة في البرهنة على هذه المسألة تنطوي على جمع دشوائى بين أفكار شديدة التنوع ، ومن الممكن أن يطلق عليها اسم البرهان الاجتماعي على حقيقة العالم الخارجى .

ولا تمتزج في هذه النظرية اتجاهات فكرية تجمع بين المذهبين الحسى والتطورى فحسب ، بل تمتزج فيها أيضاً اتجاهات فكرية إبستمولوجية وميتافيزيقية . وليس في وسعنا أن نعرض هنا الارتباطات الباطنة بين هذه الاتجاهات المتباينة ، وهى الارتباطات التى لا تظهر بوضوح كامل في طريقة كليفورد المتقلبة في التفكير . غير أن كل حجة تؤدي في النهاية إلى عنصر واحد في فلسفته أصبحت له شهرة واسعة ، هو نظرية « المادة الذهنية mind - stuff » . وفي هذه النظرية يشير أولاً إلى أن الانطباع أو الإحساس لا يلزم أن يكون في وعى يحويه ، وإنما يمكن أيضاً أن يوجد بطريقة مستقلة « خارج » الوعي ، أى أنه « شيء في ذاته » ، ومطلق يكون وجوده « لذاته » ، لا منسوباً إلى أى شيء آخر . وكل ما يمكن أن يقال عنه هو أنه يحس « sentitur » . فالعناصر التى يتألف منها كل إحساس هى التى أسماها :

كليفور د «المادة الذهنية» ، ولقد كان من السذاجة بحيث ادتقد أنه توصل بذلك أخيرا إلى حل لمشكلة «الشيء في ذاته» ، عند كانت . وهو يصل إلى هذا الهدف ذاته عن طريق سلسلة أخرى من الحجج ، فيحاول أن يبين أن مشكلة العلاقة بين المجال المادى والمجال النفسى ينبغى ألا تحل برد أحدهما إلى الآخر بوصفه مصدرا له ، وإنما يسود المجالين تبادل وتناظر تام ، مماثل فى اكتماله ذلك التبادل والتناظر الموجود من جهة بين حروف الجملة عندما تقرأ أو تنطق ، وبينها من جهة أخرى عندما تكتب أو تطبع . وذلك يعنى فى نظره أننا لسنا هنا إزاء شيئين مختلفين أساسا ومن حيث المبدأ ، وإنما إزاء نفس الجوهر ، الذى يبدو ماديا من وجهة معينة ونفسيا من الوجهة الأخرى . وهو يستخدم تعبير «المادة الذهنية» ، ليدل به أيضا على ذلك الجوهر الموحد الكامن وراء كل الوجود ، وهنا أيضا يكون من الواضح أن المادة الذهنية ينبغى ألا تعد مستقلة عن كل وعى فحسب ، بل يجب أن تعد سابقة عليه فى الزمان أيضا . إذ ينبغى أولا أن تركز المادة الأولى المنتشرة فى الكون فى أثناء حالته المختلطة ، وتدمج فى تركيبات متكاملة ، ومن المحال أن يصبح الوعى ممكنا قبل ذلك بحيث يتوقف المستوى الذى يبلغه الوعى على المستوى الذى يصل إليه تطور العناصر المادية . وينبغى أن ينظر إلى ما يبدو لنا «مادة» على أنه مؤلف بالمثل من مادة ذهنية . فكل ذرة وجسيمة فيها ، بالإضافة إلى ماديتها ، عنصر نفسانى . ومن الواضح أن مذهب سبنسر فى الكونيات يلعب دورا فى تأملات كليفور د هذه ، كما أن من الواضح أن فكرة «شمول النفس panpsychism» ، هذه ليست إلا مذهباً مادياً لا يحجبه إلا قناع دقيق ، إذ أن «المادة الذهنية» التى قال بها كليفور د ، على الرغم من كونها تبدو فكرة جريئة

إلى حد بعيد ، هي بالفعل فكرة ميتافيزيقية معقدة التركيب ، يتضح من  
الفحص الدقيق أنها لا تختلف اختلافا أساسيا عن « المادة » المألوفة .

ولدى كليفورد آراء في المنطق ومناهج العلوم الدقيقة لها قيمة فلسفية  
أعظم ، وإن تكن شهرتها أقل كثيرا ، وتتفق هذه الآراء في الأساس مع  
آراء ماخ ، كما تتفق بوجه خاص مع آراء بيرسن ، الذي كان يقف عن كعب  
منها ، وشيد عليها مذعبا ، والمبدأ الأساسي هو مبدأ « الاقتصاد في التفكير »  
الذي يؤدي هنا ، كما يؤدي لدى المفكرين الآخرين ، إلى استباق أفكار  
ظهرت فيما بعد في النظرية البرجماتية في المعرفة .

ويظهر التأثير المقلق لأفكار دارون وسبنسر أوضح ما يكون في آراء  
كليفورد الأخلاقية ، التي اهتم بها اهتماما خاصا ، ولقد كان كليفورد يعتقد ،  
كما رأينا من قبل ، أن إيماننا بالعالم الخارجي يركز على نوع من الغريزة  
الاجتماعية ، ولا يمكن أن يضمه التفكير النظري البحت . ومثل هذا يقال  
في الأخلاق : فهنا أيضا تكون الحقيقة الرئيسية هي أن الفرد ليس شيئا  
في ذاته ولذاته ، بل إن وجوده كله إنما ينحصر في كونه عضوا في كل اجتماعي  
يدعم الفرد ويحيط به . وهنا يدخل كليفورد فكرة رئيسية هي فكرة  
« الذات القبلية Tribal Self » ، وهي فكرة استحدثها هو ، وأصبحت  
بفضله مشهورة . والمقصود عنده بهذا اللفظ ذلك الإحساس الذي هو  
موروث ومكتسب في آن واحد ، والذي يؤدي إلى إدراك ما يخدم مصالح  
القبيلة أو الجماعة الاجتماعية التي ينتمى إليها الفرد . والذي يحدث أولا هو  
أن الذوات المنفصلة التي تنشأ منها « الذات القبلية » ، بالتدريج ، تكون في  
البداية مدفوعة بالسعي وراء اللذة ، والميل إلى إشباع حاجاتها الفردية . غير

أن الذات الفردية تمتد إلى الذات القبلية بقدر ما تترك جانباً مصالحها الأنانية وتدافع عن مصالح القبيلة وكأنها مصالحها الخاصة ، ويكون نمو الفرد هذا عملية تطور اجتماعي في نفس الوقت . غير أن الذات الخاصة والذات الاجتماعية تكونان في الحياة البشرية في صراع دائم ، وحيث تكون الذات الاجتماعية نامية ، فإنها تعارض الدوافع الأنانية للذات الخاصة ، وهي الدوافع التي تتعارض مع مصالح المجتمع ، وتجعل المرء يستاء من مسلكه الخاص . وفي هذه الإدانة للذات الفردية بواسطة الذات الاجتماعية يرى كليفورد أن ظاهرة الضمير تعبر عن نفسها ، بوصفها صوت « الذات القبلية » وقد نما وتهذب عن طريق الانتقاء الطبيعي . وعلى ذلك فالخير ( أو الشر ) الأخلاقي ، بالنسبة إلى أخلاق كليفورد القبلية أو الاجتماعية ، هو ما ينفع القبيلة . ( أو يضرها ) ، أو بتعبير أقرب إلى الروح الداروينية ، هو ما يزيد . ( أو ينقص ) من كفاءتها أو قدرتها على البقاء . وهدف الأخلاق هو تدريب الفرد على أن يصبح أكل عضو ممكن في المجتمع — أي أن يصبح شخصاً يستكت صوت مصالحه الخاصة ولا يعترف إلا بمصالح القبيلة ، أو أن يكون ، حسب تعبير كليفورد ، مواطناً صالحاً . فإذا ما جردنا هذه الأفكار من روائها التطوري ، كان من الواضح أنها تنطوي على مساهمة قيمة في الأخلاق الاجتماعية المثالية ، فكليفورد يند صراحة الأخلاق المبنية على مذهب اللذة ، ومبدأ « أعظم قدر من السعادة لأكثر عدد من الناس » ، وعلى الرغم من أنه هو ذاته لم يتحرر تماماً من نوع من مذهب المنفعة المتسامي ، وظل أسير القيود الداروينية ، فإن مذهبه ، كما هو واضح ، يمثل حلاً للمشكلة الأخلاقية أفضل بكثير من ذلك الذي استطاعت الفلسفة الأخلاقية الإنجليزية أن تقدمه . وما زاد في نجاح أفكاره في هذا الميدان ، وأكسبه احترام المفكرين ، حتى

من لم يكن منهم يستطيع الموافقة على آرائه في الميادين الأخرى ، أنه لم يتشرب ذلك على أنها مذهب جاف ، وإنما يث فيها قوة شخصيتها وحساسيتها الدافقة .

كذلك اتسم موقف كليفورد من الدين بنفس هذه الغرابة المتحمسة ، فهو هناك يعارض كل حل وسط ، وينفر من أى نوع من الإذعان للسلطات الكنسية ، عل النحو الذى كان من الشائع أن يدعو إليه فى إنجلترا حتى أوائك المفكرون الذين لا يكثر ثون بالدين . وهكذا وقف يدافع بتعصب حقيقى عن عدم الإيمان ، ولم يجد غضاضة ، فى إنكاره لله ، أن يعامل الديانات الوضعية بقسوة شديدة ، ويصب جام غضبه على الكنيسة والعقيدة والكهنوت . وكأنه واحد من رسل عصر التنوير بنفس عن كراهيته المكبوتة . فهو قد أسى المسيحية ، وباء فظيما دمر حضارتين ، وأعرب عن سخطه الأخلاقى الشديد على التأثير الضار للقساوسة ، الذى رأى أنهم الأعداء الحقيقيون للإنسانية ، وأنهم خطر دائم على الدولة والمجتمع والأخلاق الحقة . ولكن حتى هذا العدو المرير لكل ما هو دنى لم يستغن عن نوع من البديل للإيمان الدينى . فقد وجد ملجأ فى عبادة الكون ، ووقف فى خشوع وتقديس أمام نظامه واطراده الرائع . وأطلق على الشعور الذى كان ينتابه فى هذا الصدد « العاطفة الكونية cosmic emotion » ، وأقر بأنها توجد — كما قال كانت فى كلمته المشهورة — كلما تأمل المرء السماء المرصعة بالنجوم فوقه والقانون الأخلاقى فى داخله . غير أنه وضع الإنسان موضع الله ، وكان كل إيمان حتى موجهها فى نظره إلى تمجيد للإنسان والإشادة به . وقد دافع مثل كونت عن « عقيدة الإنسانية » وكتب بشئ من المبالغة عن الإنسان الأب الذى ينظر البنا من فجر التاريخ ومن الأعماق الحفية لكل روح بنار الشباب الأولى ويقول : « قبل أن توجد الآلهة كنت هناك » . كما كتب فى موجهته

حجامة ، عند ختام بحثه في « العاطفة الكونية » يقول : « إن من يستطيعون قراءة علامات الزمان سيقراءون فيها أنه قد آن أوان ملكة الإنسان » .  
خير أن معبد هذه العقيدة كان بالنسبة إلى كليفورد بناء العلم الشامخ ، وكان أمه .  
معقودا على العلم في تحقيق أى تقدم مقبل لروح الإنسان .

على أن الإجابة عن السؤال عن إمكان التوفيق بين الداروينية والدين لم تكن دائما النفي القاطع ، كما في حالة كليفورد . وإنما ظلت المشكلة بالنسبة إلى تلميذ آخر لدارون ، هو جورج جون رومانس George J. Romanes ( ١٨٤٨ — ١٨٩٤ ) مشكلة مفتوحة حيرته طوال حياته ، ولقد كان رومانس ، الذى تتلمذ على دارون وأصبح صديقا مقربا إليه ، عالما بولوجيا . فى المحل الأول ، واكتسب بفضل أبحاثه المستقلة شهرة ضخمة ، بوصفه واحدا من أنبغ المساهمين فى « نظرية الأصل السلالى Theory of descent » . ولكنه لما كان ميالا بطبيعته إلى الدين ، وتربى فى بيئة متمسكة بالدين ، فقد كان يندفع دائما إلى ما وراء حدود البحث التجريبى الخالص ، لى يخلص للمسائل الفلسفية المتعلقة بالتفسير العام للتجربة ، وهى المسائل التى كانت تنتظر قرار المذاهب العلمية الجديدة بشأنها بالحاح شديد ، ولقد كان الصراع بين إيمانه وعلمه خفيا أحيانا ، وصريحا أحيانا أخرى ، وبفضل هذا الصراع تحول إلى فيلسوف .

ولأنه لمن الطريف أن تتبع المراحل المتعددة التى مر بها هذا الصراع حتى انتهى إلى صورته الأخيرة . فى أول مؤلفاته . ( « اختبار صريح لمذهب الألوهية A Candid Examination of Theism » ١٨٧٨ ) نجده متمسكا بالطرق المادية فى التفكير إلى حد أن الناس المتين لعقيدته فى الشباب

سرعان ما أصبح سراها . ولكن لم يكن معنى ذلك رفضا صريحا للدين ، كما في حالة كليفور د ، وإنما كانت تلك فترة اختبار باطن عميق . يقف فيه موقف الحكم على نفسه ، لكي يقدر قيمة القوى المتصارعة فيه . ورغم أن العلم هو الذى يثبت أنه الأقوى ، ويقضى على كل الحجج المؤيدة لمذهب الألوهية ، فإننا نشعر بأن الإيمان ، رغم كونه مضطرا إلى التوارى في الصفوف الخلفية لم يبلغ تماما بأية حال . إذ يصبح من الواضح أنه حتى إذا لم يتسن إنقاذ شيء من الخطام ، من وجهة نظر العلم ، فإن هناك طريقا آخر لمعالجة المسألة بترك الباب مفتوحا لإمكان وجود الله ، هذا الطريق يؤدي إلى نوع من الميتافيزيقا الغائية ، التي يبدو أن من الممكن أن ينفذ المرء منها إلى مجال يتجاوز مجال العلم ، ولكن من الضروري هنا اقتراض وجود روح عليا ، تكون هي العلة النهائية لكل الأشياء . غير أن رومانس لا يتابع هذه الحجة بأى اقتناع جدى ، بل إنها في الواقع تؤدي به دائما إلى صراع مع ضميره العلى ، الذى لا يمكن تبرير أية تأملات نظرية كهذه أمام محكمته . وهكذا يقع في تأرجح غريب بين نظرة إلى العالم فيها مكان للألوهية ونظرة أخرى لا مكان فيها للألوهية ، ولم يكن من الممكن أن ينقذه من هذا التأرجح إلا اتباع الطريق النقدي بصراحة وجراءة . ولكنه يلجأ بدلا من ذلك إلى موقف اللاأدرية لكي يخفف من صراع الضمير المحتدم داخله ، دون أن يحل هذا الصراع نهائيا .

على أن وجهة نظره قد تغيرت قبل مضي سنوات قلائل . ففي محاضرة ألقاها سنة ١٨٨٥ ، وإن لم تكن قد نشرت إلا بعد وفاته سنة ( ١٨٩٥ ) ، بعنوان « *الذهن والحركة والمذهب الواحدى Mind, Motion and Monism* » ، يبدى رومانس ميلا إلى مذهب وحدة الوجود على طريقة « *جوردانو برونو* » .



كما يبدى وجهة نظر واحدة مماثلة في مقال قصير ظهر بعد ذلك بوقت قليل في مجلة « Contemporary Review » (١٨٨٦) بعنوان « العالم بوصفه انبثاقا The World as Eject » (وقد نشر المقال أيضا في كتابه «الذهن والحركة والمذهب الواحدى» ) ورغم أن هدفه من هذه الواحدة كان عبور الهوة بين المادية والروحانية ، فإن ميله إلى الروحانية كان واضحا . وقد وصل إلى هذا الموقف بأن وفق بين نظرية «الانبثاقات» عند كليفورد وبين آرائه الخاصة ، فضلا عن قيامه باخبار نقدى لفكرة كليفورد في «المادة الذهنية» التى أ كسبها طابعا مضادا تماما لطابعها الأسمى ، وذلك إذ أرجع كل شيء إلى المجال النفسى بدلا من المجال المادى . وهو فى كل هذه الآراء لا يمس المسألة الدينية الخاصة على التحديد بعد ، وإنما يتخذ موقفا محايدا إزاءها ، وهو على الأخص لا يزال ينظر هنا إلى «المنبثق الشامل World - Eject» (وهو الاسم الذى يطلقه رومانس على المطلق) على أنه مبدأ لا شخصى ، مجرد ، «ميتافيزيقي محض» . ولكن نظراته تغيرت مرة أخرى فى السنوات الأخيرة من حياته ، فقد خلف ملاحظات عن كتاب كان يزعم تأليفه ولكنه لم يقم بذلك فعلا ، كان المفروض أنه سيختبر فيه مشكلة الدين من جديد (١) . وفى هذه الملاحظات يظهر رومانس على أنه قد تقبل الإيمان الدينى نهائيا ، وقد ظهرت

---

(١) كان المفروض أن يظل العنوان مماثلا لتنوان الكتاب السابق «انتخاب صريح للدين» . ولكن المؤلف أشار إلى نفسه فى هذه الحالة بكلمة «ميتافيزيقي Metaphysicus» بدلا من «مادى أوفيزيقي Physicus» .

ولرومانس مؤلفات أخرى فى النظرية التطورية حتى : «الدكاء الحيوانى Animal Intelligence» (١٨٨١) . و «التطور الذهنى فى الحيوانات Mental Evolution in Animals» (١٨٨٢) . و «التطور الذهنى فى الإنسان Mental Evolution in Man» (١٨٨٢) . و «دارون وما بعده Darwin and after Darwin» (١٨٨٢) .

وصيته الأخيرة هذه في الكتاب الذي أشرف على نشره تشارلس جور Charles Gore بعنوان « أفكار عن الدين » Thoughts on Religion . ( ١٨٩٦ ) فقد امتدى رومانس إلى طريق العودة إلى الديانة الوضعية ، وأصبح يمثل الآن مذمبا ألوهيا شخصيا بالمعنى الموجود في المسيحية ، وعرف كيف ينظم في اعتقاداته العلمية على النحو الملائم للدين . وقد احتفظت الداروينية ومذهب التطور لديه بصحتها كاملة ، ولكن في اتفاق ، لا اختلاف ، مع النظرة إلى العالم في ظل الألوهية . وبهذا تغلب على الثنائية القائمة بين المعرفة العلمية والإيمان ، وحقق تلاؤما منسجما بينهما .

ومع ذلك فإن هذا التلاؤم ، إذا شئنا الدقة ، لا يمكن تحقيقه ، فالداروينية ، إن شاءت أن تكون أمينة ، لا يمكن أن تتفق مع الدين فوق الطبيعي ، ومن ثم فقد كانت هذه الفكرة هي السائدة ، وهي التي يعبر عنها معظم الفلاسفة الذين ساروا في طريق سبنسر ودارون وهكسلي في بحثهم للمشكلة الدينية . ونستطيع أن نذكر من بين يمثلهم المعبرين عنهم ، اسمى شارلس جرانت ألن Charles Grant Allen ( ١٨٤٨ - ١٨٩٩ ) ووليام ونوود ريد William Winwood Read ( ١٨٣٨ - ١٨٧٥ ) . فقد قطع ريد ، الذي كان كاتباً غزير الإنتاج في العلم والآداب معا ، كل صلة له بالدين ، ودعا إلى رأى في الحياة يكون مبنياً تماماً على الملعب الطبيعي الفردي القائم على فكرة اللذة دون أى لبس أو غموض . ولقد كان واحداً من القلائل الذين اهتموا بالمشكلات الجمالية ، وحاولوا إيجاد تفسير تطوري لها (١) . وقد اشتهر ريد بكتابه « استشهاد الإنسان The Martyrdom of Man ( ١٨٧٢ ) ،

(١) علم الجمال الفسيولوجي Physiological Aesthetics ( ١٨٧٧ ) ، الحاسة اللونية The Colour Sense ( ١٨٧٩ ) ، وكذلك كتاب : التطور الكامل The Evolution of The Idea ، وتطور فكرة الله Evolutionist at Large of God ( ١٨٨١ ) .

ويظهرت له عدة طبقات تالية ) وهو عمل مؤثر يحرك المشاعر ، كان له نجاح أدبي ضخم . وقد كانت القوة الدافعة إليه ، كما يدل على ذلك عنوانه ، هي نظرة مكتئبة متشائمة إلى الحياة ، تنطوى على رفض تام لكل القيم العالية على الطبيعة ولكل إيمان ديني ، وتستبدل به الإيمان بقدره العلم على كل شيء ، والاعتقاد الصارم بأن العلم ، والعلم وحده ، هو الذي قدر له أن يخلص الإنسان من هوسه الماضي والحاضر إلى مستقبل أفضل . وهكذا يتسامى ريد بالإنسان ، مثل كليفورد ، ليجعل منه كائناً من نوع أعلى ، وهو بالطبع لا يعنى بذلك الإنسان من حيث هو فرد ، بل يعنى الإنسانية جماعاً ، لكي يستخلص من قابلية الإنسان للكمال تلك العقيدة الجديدة التي يهيب بها لتحل محل القديمة .

ولقد خاض المعركة مع المذهب الجديد مفكرون أقرب إلى الروح الدينية ، كل بطريقته الخاصة ، وتتجلى عن ذلك تفرعات عديدة جداً . وبغض النظر عن رومانس ، نستطيع أن نختار للبحث ، من بين هؤلاء : الكثيرين ، الأسماء الآتية : جيمس ألنسن بكتن James Allanson Picton ( ١٨٣٢ - ١٩١٠ ) وجيمس كروول J. Croll ( ١٨٢١ - ١٨٩٠ ) ، وهنرى درموند H. Drummond ، والسير جون روبرت سيلي Sir J. R. Seeley ( ١٨٣٤ - ١٨٩٥ ) .

كان بكتن شديد التعلق بسبنسر ، وكان يؤمن بكل التعاليم الميتافيزيقية التي يتضمنها كتاب « المبادئ الأولى » . ولكنه مضى خطوة أبعد من ذلك ، إذ وحد بين « اللامعروف » ، والإلهي ، وبذلك سعى إلى تحويل القمة الميتافيزيقية التي بلغها مذهب سبنسر في اتجاه الفلسفة الدينية . وقد نعهد أن يبين أن المذهب التطوري لا يقضى حتماً إلى اللاأدوية أو النزعة العلمية

Naturalism ، ناهيك بالمادية ، بل إن من الممكن جداً الجمع بينه وبين العاطفة الدينية الصادقة ، رغم أن هذه قد تكون بعيدة تماماً عن أى إيمان وضعى من النوع العقيدى . لذلك عكف بكتن على إقامة دين على أساس تطورى . ومن الواضح أن مثل هذا الدين ينبغى أن يودى إلى مذهب شمول الألوهية Pantheism (١) . وهكذا يدافع هنا عن توحيد اسپينوزا بين الله والطبيعة ، ويعلم بحماسة عاطفية أنه هو حل جميع المسائل المختلف عليها فى الفلسفة . ولكن رغم أن بكتن يرفض صراحة فكرة إله خالق ، ويؤكد أن الكون قد نشأ من ذاته ويكتفى بذاته ، فإنه يعلق مع ذلك أهمية كبرى على محاولته إثبات أن عقيدته العالمية تتفق مع الجوهر الحقيقى للديانات التاريخية ، وضمنها المسيحية . وهكذا يسمى مذهبه « بالمذهب المسيحى فى شمول الألوهية Christian Pantheism » ، ولا يشعر بأى حرج من التناقض الملموس الذى ينطوى عليه الجمع بين مذهبين على هذا القدر من التنافر (٢) .

(١) اقترح أن تستبدل هذه الترجمة بالتعبير الشائع « وحدة الوجود » الذى تترجم به كلمة Pantheism عادة . ذلك لأن التعبير الأخير مضلل إلى حد بعيد ، ولا يدل مطلقاً على فكرة انتشار الألوهية فى كل أركان العالم ، دون تفرقة بينهما ، وهى الفكرة التى يدل عليها هذا المصطلح الفلفى . فالتعبير « وحدة الوجود » قد يعنى ، إذا ما نظر إليه لنوياً فحسب ، أى مذهب يقول بتفسير الوجود كله من خلال مبدأ واحد ، وقد يكون هذا المبدأ مادياً خالصاً لا مكان فيه للألوهية بأى معنى من المعاني . وهكذا فإن افتقار هذا التعبير إلى أية إشارة إلى الألوهية ، التى يؤكد المصطلح الأصل أنها منتشرة أو منبثة فى العالم ، يحتم فى رأى ضرورة التخل عنه مهما كانت درجة شيعه ، ويرجع كافة الترجمة التى اقترحت استبدالها به .

[ المترجم ]

(٢) سر المادة وأبحاث أخرى The Mystery of Matter and other Essays ( ١٨٧٣ ) ، « عقيدة الكون The Religion of the Universe » ( ١٩٠٤ ) . ومذهب شمول الألوهية Pantheism « ( ١٩٠٥ ) ، « واسبينوزا » ( ١٩٠٧ ) .

وعلى حين أن التركيب الدينى العلوى عند بكتن كان أقرب إلى أن يكون إضافة قصد بها تنميق المذهب وتزويقه أكثر مما كان تعبيراً عن النخلة الفعلية عن المذهب الطبيعى ، فإن « كروول » ، وهو عالم جيولوجى اسكتلندى ، يغامر بالمعنى خطوة حاسمة بعد هذه الحدود . فهو بدوره يترك المذهب التطورى فى مجموعه دون نقاش ، ويأخذ بأهم العناصر فى نظريته ، ولكنه فى الواقع ذاته يحاول أن يهزه من أعماقه ويزعزع نفس الأساس الذى بنى عليه . فقانون التطور نفسه ينص على أن المادة والقوة والحركة هى العوامل التى تحدد وتفسر كل عملية كونية وكل تغير يحدث فيها . ومع ذلك فإن أحداً لا يتساءل عما وراء هذه العوامل ، وإنما تظل قائمة بوصفها العناصر النهائية لكل وجود وكل صيرورة ، ولا تكون هى ذاتها فى حاجة إلى تفسير . أما بالنسبة إلى كروول فإن هذا البحث عن مصدر تلك العناصر وأصلها يبدو أمراً له أهمية عظمى . فكون القوة والمادة موجودتين ، هو أمر أقل أهمية من مسألة تحديدهما — والمشكلة الأساسية فى الفلسفة هى مشكلة تحديد العوامل الأصلية للوجود وتفسيرها . فإذا كانت كل حالة حاضرة للكون تتحدد مقدماً بالحالة السابقة عليها ، وهذه بدورها تتحدد بما يسبقها ، فإننا نواجه عندئذ تسلسلاً ممتناً إلى ما لا نهاية . ولا بد أن تكون هذه السلسلة قد بدأت فى وقت ما ، ولا بد أن يكون هناك تحديد أول ، ومن الواضح فى الوقت ذاته أن القوة لا يمكن أن ترد آخر الأمر إلى القوة بوصفها العلة المحددة لها ، ولا الحركة إلى الحركة . وهكذا فلا بد أن نستنتج من كون شيء موجوداً فى اللحظة الحالية أن شيئاً ، لا بد قد وجد منذ الأزل . غير أنه الاعتقاد بأن « الكون » هو الأزل محال ، إذ أنه ينطوى على القول الممتنع بوجود تعاقب لا نهائى للأحداث . وبذلك لا يتبقى إلا افتراض أنه أزل لا متناه ، بوصفه المحدد الأول للسلسلة الكونية . « أن الروح الخالقة التى هى العلة

النهائية لكل الوجود ، وبالتالي حافظ العملية التطورية بأسرها . وهكذا فإن التطورية ، مع احتفاظها بصحتها الكاملة ، لا تعود نظرية مكتفية بنفسها أو قائمة بذاتها ، وإنما هي تنتقل في النهاية إلى مذهب للألوهية : وهذا دليل آخر على أنها قد ستمت سفينته المذهب الطبيعي ، التي تهم فيها ، وأخذت تبحث عن شاطئ " تستقر فيه " (١) .

أما درموند ، فقد قام بمحاولة مستقلة لإيجاد مكان للدين داخل مذهب العلم الطبيعي . وقد أحرز درموند ، الذي كان قسبياً ولا هو تياً وباحثاً علمياً ، شهرة مفاجئة بعد النجاح الحائل غير المتوقع ، لكتابه « القانون الطبيعي في العالم الروحي Natural Law in The Spiritual World » ، وهو الكتاب الذي نشر في ١٨٨٣ ، وبيعت منه قبل نهاية القرن ١٢٥,٠٠٠ نسخة . وكانت أهم أسباب هذا النجاح ، بالإضافة إلى الأسلوب الشعبي في الكتاب ، وسهولة فهم محتوياته ، هي أنه تضمن بحثاً في العلم الجديد قام به شخص لا يشك أحد في تدينه ، ولكنه لم يحمل على هذا العلم — كما يفعل غيره من المتدينين عادة — على أنه معاد للدين ، وإنما يعرضه على أنه متفق تماماً مع تعاليم العقيدة المسيحية . وبفضل هذا الكتاب تم التوفيق ، لأول مرة ، بين مذهب التطور الجديد وبين الجمهرة الكبيرة من الناس ، الذين كانوا يهتمون بالمذهب ، ولكن عقيدتهم الدينية تباعد بينهم وبينه . وقد كانت فكرة درموند الأساسية — وهي فكرة غاية في البساطة ، ولكنها في بساطتها بناءة إلى حد بعيد — هي أن يمد إلى العالم الروحي تلك القوانين التي تسرى على العالم الطبيعي ، مثلباً مدها سينسر إلى العالم التاريخي الاجتماعي . وهو يعني ، بعبارة « العالم

(١) انظر : فلسفة المذهب الألوهي Phil. of Theism (١٨٥٧) . و « الأساس : المذهب في التطور The Philosophical of Evolution » (١٨٩٠) .

الروحي ، عالم الدين قبل كل شيء . فهذا العالم ، في رأيه ، يخضع بدقة لنفس مبدأ القانون الذي يخضع له العالم الطبيعي ، والمبدأ أن معاً متماثلان من جميع النواحي . وهكذا فإن القانون الأساسي للوجود كله هو قانون الاتصال ؛ وكل درجة وكل مستوى للوجود يخضع لنفس القوانين التي تربط الجميع في وحدة شاملة . ومهمة العلم هي أن يثبت طبيعة ما هو عال على الطبيعة ؛ كما أن مهمة الدين هي أن يثبت أن ما هو طبيعي عال على الطبيعة . وبصبح الروحي طبيعياً بنفس المقدار الذي تصبح به الطبيعة روحية . وعيب هذه الفلسفة هو ذلك الخطأ الأساسي ، وأغنى به تجاهل الفارق الحاسم بين هذين العالمين ؛ ففيها خلط لا يكاد يحتمل بين مجالي الوجود اللامتجانسين ، وإزالة كاملة لكل الحدود بين الطبيعة والروح . فالدين إذ يتنكر في زى العلم يسعى استغلال العلم لأغراضه الخاصة ، ويمضي درموند في هذا الخلط إلى حد يكون للروح معه أن يشك فيما إذا كنا هنا نواجه انحطاطاً للعقل إلى مرتبة الطبيعة ، أم ارتقاء للطبيعة إلى مرتبة الروح . غير أن الدوافع الباطنة للذهاب تظهر واضحة عندما نجد أن نتيجته النهائية هي القول إن للروح الأولوية على الطبيعة ، وأنه ليس للبادة حقيقة في ذاتها ، وإنما هي مجرد تجسد للروح ، وإن الروح وحدها هي التي تكشف عن ماهية العالم الحقيقي .

وقد أثمرت فلسفة درموند الشعبية كتاباً آخر هو « ارتقاء الإنسان » The Ascent of Man ، (١) ، وفيه تحمل فكرة الصراع من أجل وجود

---

(١) يلاحظ أن عنوان الكتاب ينطوي على إشارة ، عن طريق التقابل والتضاد ، إلى عنوان كتاب دارون المدهور : « الأصل السلالي للإنسان » The Descent of Man . وكلمة Descent يمكن أيضاً أن تعني الهبوط أو النزول ، ومن هنا قابلها درموند بكلمة « الصعود أو الارتفاع » Ascent .

الآخر محل فكرة صراع الكائن من أجل وجوده هو ذاته ، بحيث يحاول أن يبين أن الظواهر الأخلاقية لا تظهر في المجال البشرى وحده ، بل في مجال أدنى منه بكثير في المملكة الحيوانية ، وأنها ترتبط أيضاً بالعمليات البسيطة للحياة . فالسلوك الغيرى يسود الطبيعة بأسرها ، وله من القوة ما للأثنية ، كما أن قانون الحب أو الصراع من أجل وجود الآخر — وهو القانون الذى يضعه درموند مقابل المبدأ الداروينى ، يسرى خلال الحياة الكونية بأسرها . وهنا أيضاً يظهر نفس الميل الذى اتضح في الكتاب السابق — وهو الميل إلى وضع مختلف مجالات الوجود على قدم المساواة ، والجمع بينها في ظل مبدأ القانون الواحد الذى يربط بينها ويكن من ورائها جميعاً .

أما د سبلى ، ، المؤرخ المعروف ، فقد طالج المشكلة الدينية في مؤلفين نشرها غفلاً من اسمه ، هما : « هذا هو الرجل Ecce Homo » ، ( ١٨٦٥ ) ؛ وهو عرض لتعاليم المسيح ، أثار ظهوره ضجة عنيفة ) و « الدين الطبيعى Natural Religion » ، ( ١٨٨٢ ) ؛ غير أن موقفه يقل عن موقف درموند وضوحاً . فافتقار أفكاره إلى التحديد القاطع ، والطريقة المختلطة التى تعرض بها ، كل ذلك يترك القارى متشككاً فيما إذا كان يمثل عقيدة طبيعية مبنية على فكرة « شمول الألوهية » ، وحدها ، أم أنه قد أبقى مكاناً في نظريته للحجج المؤيدة لمذهب الألوهية والإيمان بما فوق الطبيعة . وعلى أية حال فتفكيره يميل في الأغلب إلى الاتجاه الأول . فقد كان بدوره ، مثل درموند ، حريصاً على التوفيق بين نظريته إلى الدين وبين العلم الحديث ، وعلى إظهار قوانين الطبيعة على أنها قوانين الله في الوقت ذاته ؛ وكان مقتنعاً بأن التوحيد بين الله والطبيعة ، وتقديس حقيقة أعلى « في » الطبيعة ، يكفل لصاحب الذهن العلى منفذاً لعاطفة دينية مشابهة لتلك التى يبعثها في ذهن الشخص الذى التقي الإيمان بالألوهية علوية مشخصة . غير أن سبلى كان أقل من درموند



بكثير في درجة التزامه بالإيمان الديني . وفضلاً عن ذلك فإن العوامل الجمالية تلعب دوراً هاماً في تفسيره للدين . فقد كان يرى أن الظواهر المميزة للجمال الديني تتمثل في كل ما يثير الحماسة ويبعث للعجب ، وفي كل ما يستحق التبجيل ، وكل ما يبعث في الإنسان الدهشة أو يكتسب إعجابه . وعلى ذلك فقد رأى أن الحياة الدينية لا تتجسد في عبادة كائن علوي لا يدرك ، بقدر ما تتمثل في التفاني المخلص في سبيل الحقيقة والمعرفة العلية ، وفي حب الجمال ، وفي نقاء الضمير وحيويته ؛ أي أنها بالاختصار تكون في كل سعي وراء الحق والخير والجمال . وهكذا فإن تعاليم سيلي ، التي يضاف فيها على القيم الثقافية للإنسان نوعاً من السمو الديني ، ترتد في النهاية إلى عبادة للثقافة أكثر مما ترتد إلى عبادة للطبيعة ؛ فهي تعبر عن شخصية واسعة الثقافة تستجيب لحياة الذهن في جميع أوجه نشاطها ، أكثر مما هي يدلل هزيل لعقيدة العالم أو إيمان روح بعد الدين بالنسبة إليها تجربة هامة بحق .

فإذا انتقلنا إلى الأخلاق التطورية ، وجدناها تسير هموماً في مسار أضيق وأوضح معالم من مسار الفلسفة الدينية التطورية ، وإن يكن يوجد هنا أيضاً عدد من الاختلافات والفوارق التي ينبغي ملاحظتها . ولقد أشرنا من قبل إلى سماتها الرئيسية ، وإلى بعض صورها المميزة عند بحثنا لسبنسر وهكسلي ووستر مارك وكليفورد . وما زال أمامنا عدد من المفكرين الذين يحسن جمعهم سوياً ، لأنهم قد أولوا مشكلة الأخلاق أهمية كبرى . واهم هؤلاء جميعاً هو السير ليزلي ستيفن Sir Leslie Stephen (١٨٢٢ - ١٩٠٤) ، الذي تضمن كتابه المنهجي الرئيسي « علم الأخلاق The Science of Ethics » (١٨٨٢) ما يمكن أن يعد أنضج وأكمل محاولة لبناء الأخلاق على أساس فلسفة تطورية . ولقد كان ستيفن كاتباً موهوباً متعدد الجوانب إلى حد بعيد ، امتزجت كتاباته بالحياة العقلية للعصر الفكتوري على أنحاء شتى ، وكانت لها

عمرات في ميدان الصحافة ، وفي ميدان كتابة السير ، وفي التاريخ الفلسفي والأدبي ، وفي الفلسفة المنهجية ، الخ . ومنذ سنة ١٨٨٢ حتى ١٨٩١ كان على رأس مشروع من أهم المشروعات الأدبية الإنجليزية ، وهو القاموس الهائل المعروف باسم « قاموس السير القومية Dictionary of National Biography » والذي أسهم فيه ستيفن نفسه بكتابات متعددة . وأهم أعماله الأخرى « تاريخ الفكر الإنجليزي في القرن الثامن عشر Hist. of English thought in The XVIII Century » ( في مجلدين ، ١٨٧٦ ، انظر من قبل ص [ ٨٣ ] ) وهو وصف رائع لعصر التنوير في إنجلترا ، أعقبه بعد ذلك كتاب أشبه بتكملة للكتاب السابق ، يتعلق بالقرن التاسع عشر ، ( هو أصحاب مذهب المنفعة من الإنجليز The English Utilitarians ، في ثلاثة مجلدات ، ١٩٠٠ ) وتشمل كتاباته الأخرى التي يغلب على محتواها الطابع الفلسفي : « مقالات في التفكير الحر والحديث الصريح Essays on Free Thinking and Plain Speaking » ( ١٨٧٣ ) و « دفاع عن اللا أدريّة An Agnostic's Apology » ( ١٨٩٣ ) و « الحقوق والواجبات الاجتماعية Social Rights and Duties » ( في مجلدين ، ١٨٩٦ ) .

ولقد كان ستيفن ينتمى أصلاً إلى أوساط متمسكة بالدين ، حتى إنه - رسم قسباً في شبابه . ثم عكف فيما بعد على الفلسفة ، وأدى به تأثره المتزايد بمل أولاً ، ثم بدارون ، وأخيراً بسبنسر ، إلى الانسحاب تدريجياً من الكنيسة ، حتى تخلى أخيراً عن مركزه الديني في عام ١٨٧٥ . ومنذ ذلك الحين أصبح يصف نظراته إلى العالم بأنها نظرة مفكر حر يقول باللا أدريّة . وكان في الشؤون الدينية ممثلاً كاملاً ، ولكنه متأخر ، لعصر « التنوير » ، تقرب آراؤه كثيراً من آراء هيوم ، فيلسوفه المفضل . كذلك كان يدين بموقفه الفلسفي من المسائل الأخرى للتجريبية الإنجليزية الكلاسيكية ولعصر التنوير . بقدر ما يدين للمفكرين المحدثين ، واقترب من لوك وهيوم وأخلاقيوه

القرن الثامن بقدر ما اقرب في البداية من مذهب المنفعة عند بنتام ومل الأب والأبن ، وبقدر ما اقرب فيما بعد من تطويرية سبنسر ودارون .

وهكذا استوعب ذهنه وتشرب كل أفكار التراث الإنجليزى ، الذى كانت لديه به معرفة تاريخية أعمق من معرفة معاصريه به . ففى تفكيره تظهر دواما تلك الخصائص المشتركة لهذا التراث : أعنى العداء للبيتايزيكا ، واللامبالاة إزاء الدين ( وهى تزيد فى حالته بحيث تبلغ حد الأزدراء ، والإنكار الصريح ، إن لم يكن الإلحاد المعترف به علناً ) ، والإهابة المتكررة بالتجربة بوصفها المصدر الوحيد لمعرفتنا ( وهو يرى أن الحقيقة الأساسية للأدرية إنما تكمن فى هذه الإهابة ، لا فى مذهب متيافيزيق كما ذهب سبنسر وغيره ) ، وتمجيد العلم الدقيق ، الذى يرى أنه الأنموذج الوحيد النسلج للفلسفة بدورها ، والذى يبنى عليه كل تقدم بشرى ، ورفض كل الحقائق الأولية ، وكل استنباط وتركيب من العقل الخالص ، وخصائص كثيرة غيرها . غير أن أهميته الفلسفية لا تنحصر فيها هو مشترك بينه وبين السابقين عليه ومعاصريه ، بل فى محاولته الوصول إلى صيغة وحل خاص به للمشكلات التى ورثها . على أنه لم يصل فى هذه المحاولة إلى أية نتيجة إلا فى ميدان الأخلاق .

فإذا كان سبنسر هو الذى وضع أسس الأخلاق التطورية ، فإن ستيفن هو الذى ارتفع بالبناء إلى أعلى نقطة بلغها . وهكذا فإن كتاب ستيفن : « علم الأخلاق » ، ليس مجرد تكملة لرسالة كتاب سبنسر « معطيات الأخلاق » ، وإنما هو يمثل تقدما حقيقياً عليه ، وفيه يعمق المحتوى الفلسفى لكتاب سبنسر ويعلل من قيمته . وفى وسعنا أن ندرك بوضوح نوايا المؤلف من عنوان الكتاب ذاته . فالأخلاق يمكن أن

تبحث علمياً ، وينبغي أن تطبق عليها المناهج العلمية ، ومن ثم فمن الواجب أن تتحرر الأخلاق من كل تأمل ميتافيزيقي وجزاء ديني ، وتقتصر على التزام حدود التجربة . وفضلاً عن ذلك فلا شأن لعلم الأخلاق بالمبادئ الأخلاقية التي يفترض أن لها يقيناً حدسياً أو أنها مستمدة من اعتبارات منطقية بحتة ، بل إن وظيفتها هي وصف الوقائع الأخلاقية وتحليلها كما تعطى في التجربة وتعرض للملاحظة ، حتى تستمد منها السمات العامة للسلوك الإنسان والطبيعة البشرية ، وعليها أن تبحث في منشأ هذه الوقائع والدور الذي تلعبه في العملية التطورية الكونية الشاملة . وإذن فالبحث في الأخلاق يتشابه في معظم الأحيان مع الأبحاث في علم البيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع ، ومن هذه العلوم تستمد الأخلاق كل تبصر أصيل تكشف عنه .

ولهذا الإدماج بين الحياة الأخلاقية وبين الوقائع الاجتماعية أهمية خاصة . ذلك لأن ستيفن يحاول — متجاوزاً في ذلك المذهب النفعي وسبنسر بمراحل — أن يحلر الأخلاق من كل الحدود والشروط أو الظروف الفردية ، وأن يدجها في النسيج الاجتماعي تماماً . وإذن فأول ما ينبغي عمله هو تحديد علاقة الفرد بالجماعة . والنتيجة هي ألا تصور الفرد على أنه وحدة لا تنجزاً ، قائمة بذاتها ، أو المجتمع على أنه مجرد مجموع لمثل هذه الوحدات ، وإنما تكون المحصلة النهائية علاقة عضوية يكون فيها المجتمع ، بوصفه كائناً اجتماعياً ، مشتملاً على الكائن المنفرد المنعزل بوصف هذا الأخير جزءاً من كيانه ، ولكن يستحيل تصور هذا الأخير بمعزل عن هذه العلاقة على الإطلاق . وفي هذا الصدد يستخدم ستيفن تعبيراً حياً موقفاً ليدل على الفرد ، هو « النسيج الاجتماعي » Social tissue ، ويستخدم هذا اللفظ أيضاً للدلالة على الكل الاجتماعي ، بحيث يتمثل الفرد الواحد كما لو كان مغزولاً في هذا النسيج الكامل

ينكل خيط في وجوده . ونتيجة ذلك ، بالنسبة إلى سلوك الإنسان ، هي أنه مهما بد للإنسان أن يستهدف غايات وأغراضاً خاصة به ، فإنه مع ذلك واقع تحت ضغط المجتمع إلى درجة واضحة ، وهو يعبر عن مصالح المجتمع حتى لمو بدا أن الدوافع الانانية هي مصدر سلوكه . فحتى تلك الأفعال التي تستهدف صالح الفاعل وحده ، أى إشباع رغبة فردية في اللذة أو النفع الشخصى ؛ ترجع فى أصلها إلى شخصية الفرد التي هي أساسها ، وهذه الشخصية من نتائج النسيج الاجتماعى إلى حد بعيد جداً ، وتمكاد كلها تتحدد وتشكل بعوامل حياة الجماعة .

أما المعيار الأخلاقى الذى يستتبعه هذا الموقف فليس سعى الفرد الشخصى إلى السعادة ، ولا هو البحث عن أكبر قدر من السعادة لأكثر عدد من الناس ، إذ أن كل النظريات المبينة على فكرة اللذة والسعادة تنطوي آخر الأمر على افتراض أن الفرد ذرة منعزلة مستقلة داخل الجماعة . وإنما المعيار الصحيح هو صحة الكائن العضوى الاجتماعى وكفاءته . فالفعل يكون خيراً من الوجهة الأخلاقية إذا كان يؤدي إلى تقدم ونهوض حقيقى فى حياة الجماعة ، والجماعة تكون أقدر على حفظ ذاتها فى الصراع من أجل البقاء إذا كانت المعايير الأخلاقية المتحركة فى أفرادها تقوم على استهداف سلامة المجتمع من حيث هو كل . والهدف الأخير لكل أخلاق إنما هو سلامة النسيج الاجتماعى وقوته وكفاءته وحيويته ، ولا يكون السلوك حتمشياً مع القانون الأخلاقى إلا بقدر ما يتجه إلى تحقيق هذه الغاية . وتزداد حيوية النظام الاجتماعى بقدر ما يصل إلى حالة توازن ويحتفظ بها ، وعلى ذلك فإن للأخلاق هدفاً آخر هو الوصول إلى حالة التوازن الاجتماعى والاحتفاظ بها . فإذا ما شئنا أن نعبر عن هذه الفكرة من وجهة نظر التطور الاجتماعى ، لقلنا إن المبادئ الأخلاقية تقبل بعد عملية انتقاء طبيعى ، وأن النمط الأخلاقى الذى يغلب على الباقين هو الأكثر فعالية ، وهو الأقدر على الحياة ، وهو الذى يكشف عن أكبر قدر من التوازن .

وعلى حين أن ستيفن يرفض النظريات السابقة عليه ، والمبنية على فكرتي اللذة والسعادة ، فإنه يسعى مع ذلك إلى إنصاف مبدأ المنفعة وإيجاد مكان له في مذهبه الأخلاقي ؛ وبذا يبدو مذهبه هذا على أنه مركب من مبادئ - نفعية ومبادئ - تطورية ، مع رجحان كفة الأخيرة بالطبع . وهكذا فإن من الممكن التوفيق بين العرض الذي قدمناه من قبل لمذهبه وبين قاعدة المنفعة ، إذا فسرنا الأخيرة بأنها ليست مجرد مبدأ إيجاد اللذة والسعادة ، وإنما هي أيضا مبدأ النهوض بالصحة وحفظ الحياة . فاللذة والصحة ، وإن لم تكونا متفقتين على الإطلاق ، تبديان في أفعال تسير على الأقل في اتجاه متقارب ، إذ أن حدوث تعارض بينهما يؤدي إلى إخلال التوازن الاجتماعي . وعلى ذلك فإن تقاربهما ، إن لم يكن هويتهما ، هو أمر يضمنه التطور حتما . غير أن المنفعة ، بمعنى حفظ الحياة ، تثبت في كل حالة أنها أهم بكثير من المنفعة بمعنى مجرد تحصيل اللذة وطلب السعادة .

وأخيراً فالتطور ينطوي على نتيجة أخرى : فإذا كانت بعض طرق السلوك تكتسب قيمة أخلاقية أعظم من غيرها بفعل الانتقاء الطبيعي ، وتصبح بذلك مفضلة ، أي تقرها الجماعة البشرية ، فمن الواضح أن المهم في الأمر ليس الفعل الوحيد المنفرد ، وإنما الشخصية التي ينبثق عنها هذا الفعل . وإذا فالتطور لا يولد ولا يرعى طرقا معينة للسلوك فحسب ، وإنما يولد ويرعى أنماطا محددة من الشخصية أيضا . فتكوين شخصية متينة يمثل مستوى أعلى في التقدم الأخلاقي من التدريب على طريقة السلوك هذه . أو تلك . وهذا هو التقدم الذي يتحقق في الانتقال من أخلاقية السلوك الخارجي إلى أخلاقية التعود الباطن . وكلما ازداد الشخص الأخلاقي النموذجي تنظيما ، أصبح لشخصيته طابع أكثر ثباتا وتحيدا . وعلى ذلك فإن أعلى قانون أخلاقي ليس هو ذلك الذي يعبر عنه بالأمر « افعل هذا » ، وإنما بالأمر « كن هكذا » .

وينبغي أن يلاحظ أخيراً أن مذهب ستيفن الأخلاقي قد وجد امتداداً له ، بعد سنوات قلائل ، في أول كتب صمويل ألكسندر Samuel Alexander وهو : « النظام الأخلاقي والتقدم Moral Order and Progress » ( ١٨٨٩ ) ، وهو كتاب ستتحدث عنه في موضع آخر [ أنظر الفصل الرابع من الباب الثاني ] فهذا الكتاب قد تشبع تماماً بروح مذهب ستيفن الأخلاقي ، وهو يشبهه في نواح متعددة ، وإن يكن قد كشف عن سمات مستقلة .

أما المذهب الأخلاقي عند « إديث سيمكوكس » Edith Simcox ( ١٨٤٤ - ١٩٠١ ) ، الذي سبق مذهب ستيفن بسنوات قلائل ، والذي عرضته في كتابها « القانون الطبيعي ، بحث في الأخلاق Natural Law, an Essay in Ethics » ( ١٨٧٧ ) ، فهو فرع آخر للمذهب التطوري الطبيعي . ومن الممكن تسميته « بمذهب السكالم Perfectionism » ، إذ أنه يرى أن الهدف المثالي للحياة الأخلاقية والسلوك الأخلاقي هو في الممارسة الكاملة لجميع الملكات البشرية . ويتسم هذا المذهب بأن الطابع التربوي والجمالي يغلب فيه على طابع العمل العلي - وربما كان ذلك تعبيراً عن طبيعة نسائية مألوفة . فالأنسة سيمكوكس تربط بين المجال الأخلاقي والسياسي وكل مظاهر الحياة الرفيعة للروح ، وبين القوى الطبيعية التي تنمى في الإنسان ، وهي تردّ المبدأ القانوني المتحكم في هذه الحياة إلى مبدأ القانون الطبيعي . فالمعيار الأخلاقي الذي يُستخلص من التطور الطبيعي ويتأيد به ، هو ذلك الذي يتمشى أكثر من غيره مع الطبيعة المميزة للإنسان ، أي هو الأكثر تلاؤماً مع الإنسانية ، على حين أن أي انحراف عنه يُنظر إليه على أنه نقص وإقلال للمقيم الأخلاقي . وإذن فالخير في السلوك إنما يكون في رعاية وتنشئة نمط إنساني مثالي ، عن طريق المضي في كل قدرة طبيعية إلى أعلى وأكمل ما يمكن أن تصل إليه من درجات التحقق . وما السكالم الأخلاقي إلا تحقيق القانون الطبيعي الذي يخضع له الوجود البشري بدوره . وهكذا يُطلب إلى الفرد ، بوصفه فاعلاً ، أن يتعاون تعاوناً فاعلاً مع القوى السائدة في الكون ، على

حين أنه ، من حيث هو كائن مفكر ، ينحنى أمامها في خشوع لاوامرها  
بروح من الاستسلام الدينى .

أما ألفرد بارات Alfred Barratt ( ١٨٤٤ - ١٨٨١ ) ، فقد كان  
شغوفا بالفلسفة رغم كونه قد احترف مهنة المحاماة ، ونشر وهو لم يزل  
فى الرابعة والعشرين من عمره كتابا أخلاقيا ( هو « الأخلاق الفيزيائية -  
Physical Ethics » ، ١٨٦٩ ) ، يتفق مع الأخلاق التطورية فى النظر إلى  
الوجود الأخلاقى للإنسان على أنه ناتج عن تنمية وجوده الطبيعى ، وبذلك  
يكون حصيلة للعوامل والظروف الفيزيائية والبيولوجية والفسولوجية .  
التي تجعله على ما هو عليه . وتتمثل لدى بارات بدوره بوضوح نزعة المذهب  
التطورى إلى الخلط بين حدود مختلف مستويات الوجود ، وهذا يؤدى به  
إلى أن يجعل لمستوى « الطبيعة » مكانا بارزا يميزاً عن كل ماعداها ، وينظر  
ذلك فى مجال المعرفة تمييزاً ورفعاً لمكانة العلوم الطبيعية فوق كل العلوم  
الأخرى . وعند هذه النقطة يدعو ، باسم وحدة المعرفة كلها ، إلى ضرورة  
إدراج الأخلاق بدورها تحت التفكير العلمى ، فى ظل المثل الأعلى للمعرفة .  
وهذا هو ما تعبر عنه عبارة « الأخلاق الفيزيائية Physical Ethics » - أى  
أن أساس العلم هو الطاعة العاقلة لقوانين الطبيعة . وفى هذا الكتاب المبكر  
تظهر علامات واضحة على مواهب بارات العقلية الفائقة ، وهو ينطوى  
على سمات أصيلة عديدة ، رغم أنه لا يزيد فى عمومته عن أن يكون مجرد  
إنتاج متوسط . وقد استمد الكتاب قوة دافعة كبيرة من سينسر ، الذى  
يسميه بارات أعظم فلاسفة عصره ، غير أنه يضى قدماً بهذه  
القوة الدافعة بحيث تكسب شكلاً مستقلاً . غير أن موت بارات المبكر  
لم يتح له جنى ثمار حماسه الفكرية فى مؤلف أعظم . ولقد كانت تفتح  
عليه قرب نهاية حياته مشروعات شاملة لمذهب ميتافيزيقى كوفى شامل ،  
ونشر ما تم حتى وفاته فى كتاب بعنوان « التفسير الفيزيائى لما بعد التجربة



Physical metempiric ( ١٨٨٣ ) . وتشهد الأفكار التي يعرضها في هذا الكتاب ، بالمثل ، على قوة تفكير بارات ، الذي كان يسير في اتجاه فلسفة للذرات الروحية ، يتردد فيها صدى لينتس . وبذلك كان يتباعد عن مذهب الطبيعي الذي قال به في البداية .

ولقد كان آخر تعبير عن الأخلاق التطورية في القرن التاسع عشر هو أصل الغريزة الأخلاقية ونموها *The Origin and Growth of the Moral Instinct* ( ١٨٩٨ ) ، من تأليف ألكسندر سذرلاند Alexander Sutherland ( ١٨٩٨ - ١٩٠٢ ) ، وهو صحفي وكاتب كان يعيش في أستراليا ، ولم يخض ميدان الفلسفة إلا هذه المرة وحدها . وهو يهتم في كتابه هذا - كما فعل وسترمارك في كتابه - بالبرهنة تجريديا على وجود حاسة أخلاقية من أدنى مستوى حتى أعلى أنماط الحضارة البشرية ، كما يهتم بمسألة مرتبطة بها ، هي التقدم الأخلاقي للبشرية . ويرى سذرلاند ، أن الغريزة الأخلاقية الأولى والأصلية هي التعاطف ، الذي يرجع جذوره إلى حب الأم . ويلعب التعاطف ، حتى في حياة الشعوب البدائية ، دوراً ضابطاً حاسماً ، ويتمثل موضوعاً في معايير وقواعد متعددة . ومنه تنشأ فكرة الواجب في مرحلة تطورية أعلى ، وهذه بدورها تصطبغ بصبغة باطنية ، وتتحول إلى الشعور بالاحترام الذاتي . وبعبارة أخرى فأداء الواجب هو نتيجة الاحترام الذاتي الباطن ، وليس مجرد فعل يقصد منه المنفعة الخارجية : ويرتد الواجب إلى ضمير باطن ، وبذلك تصل الحياة الأخلاقية إلى أنبل تجسد وأعلى تحقق لها .

ولقد كان أهم مذهب للأخلاق التطورية ظهر عند مطلع القرن العشرين هو مذهب ل . ت . هبوس L. T. Hobhouse ، وذلك في كتابه الأخلاق في تطورها *Morals in Evolution* ، ( في مجلدين ، ١٩٠٦ ) وسوف نتحدث فيما بعد عن هذا الكتاب ، الذي كان آخر أمثلة المدرسة التي نحن

بصددها ، عندما تناقش آراء هذا المفكر في مجموعها [ أنظر الجزء الأخير من هذا الفصل ] .

بقى علينا أن نبحث ميدانا قريبا من الأخلاق ، اكتسب بفضل العلم الجديد والفلسفة الجديدة إمكانيات خصبة للتطبيق ، وأعني به علم الاجتماع . وهنا أيضا حدد سبنسر معالم الطريق الذين تعين على الباحثين الآخرين المضي فيه أبعد منه . ولكن لما كانت معظم أعمالهم تنتمي إلى مجال العلم المتخصص ، ففي وسعي أن أحذفهم من هذه الدراسة . ومع ذلك ، فإلى جانب تلك الأعمال ذات الأهمية العامة ، والتي ذكرت من قبل أو ستُذكر فيما بعد في سياق آخر ، ينبغي أن نلفت النظر إلى عمل لقي في أيامه تقديراً كبيراً ، وحاول أن يستخلص مافى الداروينية من قيمة لعلم الاجتماع ، ويجعلها بحثاً مشمراً . ذلك هو كتاب « بنجامين كيد Benjamin Kidd » ( ١٨٥٨ — ١٩١٦ ) « التطور الاجتماعي Social Evolution » ( ١٨٩٤ ) . ولقد صادف هذا الكتاب من النجاح بقدر ما صادف كتاب دراموند : « القانون الطبيعي في العالم الروحي » ، (١) وكانت عوامل النجاح متشابهة في الحالتين إلى حد بعيد . فقد ساهم في هذا النجاح شعبية الأسلوب وتأثيره في النفس ، والوضوح الشفاف لتفكيره . غير أن السبب الرئيسي لهذا النجاح هو أن الدين قد تلقى نجدة من مذهب من أعداء الدين ، وهو الداروينية . وكان هذا كافياً لجعل الجمهور يستقبل الكتاب بحماسة شديدة ، بينما وقفت الأوساط العلمية منه موقفاً أشد تحفظاً بكثير .

---

(١) أُميد طبع هذا الكتاب ونشره مرارا (عشر مرات في السنة الأولى بعد ظهوره) وترجم إلى جميع اللغات الأوروبية تقريباً .

ويمكن القول أن علم الاجتماع عند د كيد ، قد اقتبس الأفكار الرئيسية في نظرية الأصل السلالى theory of descent بحذافيرها — أعنى فكرة الصراع من أجل البقاء ، والانتقاء الطبيعى ، وبقاء الأصلح ، ووراثه الصفات ، الخ — وقد اقتبس هذه الفكرة الأخيرة بالمعنى الذى أضفاه عليها فيزمان<sup>(١)</sup> Weismann (الذى تأثر به كيد كثيراً) أكثر مما اقتبسها بالمعنى الداروينى. فالقانون الحيوى للحياة البشرية ، الفردية والاجتماعية ، وكذلك للعلاقات المتبادلة بين الفرد والمجتمع ، هو نفس القانون الذى يسرى على الحياة الحيوانية : أى الصراع والنضال الذى لا ينقطع ولا يرحم ، والانتقاء والرفض ، والتقدم والنمو. ولا يحدث التعارض بين مصالح الأفراد فحسب ، بل بين مصالح الكائنات الاجتماعية أيضاً ، وأخيراً بين مصالح مجتمعات بأكملها فى علاقاتها المتبادلة. ويرجع ظهور جميع أشكال المجتمع إلى الصراع من أجل الوجود عن طريق عمليات طبيعية كانتقاء السلالات ، كما أن هذه الأشكال تظل خاضعة لقوانين هذه العمليات . وهنا نستطيع أن نقول إن النظرية حتى الآن هى نظرية بيولوجية خالصة فى المجتمع ، بالغت فى حد التطرف فى تأكيد المبدأ الداروينى حتى تطبقه على الحياة الاجتماعية. غير أن د كيد ، يخلط عند هذه النقطة بهذا النسيج الاجتماعى سلسلة من الأفكار الرئيسية التى تضاف على نظريته طابعها المميز ، والتى يرجع إليها قبل غيرها ، الطابع الجذاب فى هذه النظرية . فهو أولاً يبالغ دون تحفظ فى تقدير أهمية العوامل العاطفية فى الإنسان ، وفيما يستتبعه ذلك من إقلال من أهمية العوامل العقلية والذهنية ، وذلك لصالح رأى فى علم الاجتماع يغدو ، لهذا السبب ، مبنياً على أساس عاطفى قبل كل شئ . وهكذا يرى د كيد ، أن الصفات العاطفية ،

---

(١) أوجست فيزمان [ ١٨٣٤ — ١٩١٤ ] عالم بيولوجى ألمانى ، كان أستاذاً لعلم الحيوان بجامعة فريبورج . له أبحاث هامة فى نظرية الأصل السلالى ، وأدخل تعديلات أساسية على النظرية الداروينية وفكرة التطور بوجه عام . [ للترجم ]

لا العقلية ، هي أول الصفات التي تولدها وترعاها عملية الانتقاء الطبيعي ،  
وهي التي تشجع على النهوض البشرى .

وهو يعزو إلى الصفات الأولى فعالية اجتماعية أقوى بكثير مما يعزوه  
إلى الثانية . بل إنه يذهب إلى حد القول إن كل ما يرتبط بالعقل ، والفهم  
والتعقل والعلم — أى بالاختصار بمعقولية الإنسان — هو عامل معاد  
صراحة للتطور ، وعقبة فى وجه التقدم — ومن ثم فلا يوجد فى نظره  
ارتباط على بين ارتفاع مستوى النمو الاجتماعى والذهنى ، وهو يرى أن  
الاختلاف الذى يميز تلاميذ المدارس فى المستويات الحضارية العليا عنهم  
فى المستويات الدنيا ، ليس اختلافاً فى التقدم العقلى ، بل فى مدى نمو القوى  
العاطفية . وهكذا أدخل عاملاً جديداً على المذهب التطورى ، لم يسبق  
لأحد التنبيه إليه ، أو على الأقل لم ينبّه إليه بمثل هذه الصراحة وهذا  
التحمس ، إذ أن التطورية ، كما عرضها كل ممثلها البارزين ، كانت تشيد  
بالمعرفة والعلم ( وبالتالى بالإنسان من حيث هو عاقل ) بوصفها مثلاً علياً ،  
وجعلت كل نهوض فردى واجتماعى متوقفاً عليها . أما عند كيد ، فإن  
الإحساس يقوم بالدور الذى كان يقوم به العلم ، فيصبح العامل الأول فى  
التطور الاجتماعى — أى العامل الذى يكون المجتمع بحق . فهو نقيض  
العقل ، وهو على عكسه يبدى فعالية اجتماعية كبيرة ، ويتضح أنه هو القوة  
الدافعة بالتطور إلى أعلى .

غير أن عرضه ينطوى على نقطة أخرى ، تماثل السابقة فى أنها بدورها  
لم تقترن من قبل أبداً ببداية التطور . فكيد يوحد ، بطريقة عامة خشنة  
سريعة مميزة له ، بين عالم الشعور ومجال الدين ( وكذلك بينه وبين مجال  
الأخلاق ، ولكن بمعنى ثانوى ) . ويستتبع هذا رأى بضعة نتائج غريبة  
جداً بالنسبة إلى التطور والتاريخ . وينبغى أن يلاحظ أولاً أن المفهوم  
الذى يربطه كيد بالدين يشابه كل مفاهيمه وصيغته الأخرى فى افتقاره

إلى التحدد والوضوح . وعلى أية حال فإنه يعنى بالدين ظاهرة اجتماعية فى المحل الأول ، ولا يمل من تأكيد طابعه العاطفى فضلا عما فيه من جزاء خارج عن العقل . وهو يستبعد عنه كل العناصر المعقولة بوصفها متناقضة معه تناقضا أساسيا ، ويعلى من قيمة طابعه الأخلاقى فوق طابعه الدينى الصرف . وهكذا يصل بنا ، عندما يتأمل الأمر من وجهة نظر التطور الاجتماعى ، إلى النتيجة القائلة إن الدين يمثل مبدأ الانتقاء الحقيقى فى الصراع من أجل البقاء . فالعملية التطورية 'تعلّى' أولا وقبل كل شيء الطابع الأخلاقى الدينى ، إذ ترى أن هذا العامل هو الذى يثبت فعالية اجتماعية تفوق فعالية كل عامل آخر ، ولا سيما النظرى . فليس ثمت قوى تشجع على التقدم الاجتماعى بقدر القوى الأخلاقية والدينية . وكل الشعوب المتدينة لا بد أن تتغلب فى الصراع من أجل الحياة على الشعوب غير المتدينة وتثبت أنها أصلح للبقاء . والدين هو أعظم قوة اجتماعية موجودة ، وقيمته تتضح فى أنه يثبت أنه أقوى سلاح فى صراع الأجناس والشعوب المتنافسة . وأهم الأسباب المؤدية به إلى اكتساب هذه الأهمية البارزة أنه يثير المشاعر الغيرية فى الإنسان وبرعاها ، ويعلمه إنكار الذات فى سبيل الجماعة . وكل هذه أمور يعجز عنها العقل ، الذى هو وظيفة هدامة أكثر منها بناءة . وأعلى صور التركيب الاجتماعى هى تلك التى تبنى على أكبر قدر من الإيمان الدينى والإرادة الأخلاقية ، وأعلى صور الإيمان الدينى هى المسيحية ، التى يرى ' كيد ' أنها هى عَصَب الحضارة الغربية بأسرها ، والدعامة الأساسية التى يرتكز عليها البناء بأكمله . ويقترن بهذه الفكرة تفاؤل واضح التعصب فى التقدم ، يضلله الإعجاب الأعمى بالتقدم الرائع الذى تحقق فى عصره ، حتى لينسى ما يحمله هذا العصر ذاته فى ثنياه من عيوب وأخطاء .

وتقترن بهذا أيضا مناقشات متعلقة بفلسفة التاريخ ، ومعنى المدنية الغربية ودلالاتها ، كما يعرضها كيد فى مؤلف تال هو : 'مبادئ المدنية الغربية'

لا يعدو أن يكون تكرارا مطولا لحججه السابقة، ولا يكاد يحوى أية أفكار جديدة. ومثل هذا يصح على كتابه الأخير: *The Science of Power* (الذي نشر بعد وفاته سنة ١٩١٨)، وهو بدوره كتاب أحرز نجاحا عظيما، وكتب تحت تأثير الحرب العالمية الأولى. ويتضح مقدار عناده، كيد، في تشبته بمبادئه إذا أدركنا أن كارثة مدمرة كالحرب العالمية الأولى قد عجزت هي ذاتها عن شفائه من وهم التقدم المسيطر عليه.

وينبغي أن يتسع المقام هنا للكلام عن كاتب آخر احتل مركزا مستقلا، بل مركزا منعزلا في نواح عدة، داخل الحركة التطورية، إذ أنه قد خرج عن إطار النظرية التطورية أكثر مما التزم حدود هذا الإطار. ذلك هو صمويل بطر *Samuel Butler* (١٨٣٥ - ١٩٠٢)، وهو من أطرف شخصيات العصر الفكتوري، إذ كان رساما وموسيقيا وفيلسوبا وأديبا كاتبا وناظرا ومترجما ومتبحرا في شعر هوميروس وشيكسبير، ومؤرخ سير وروايات ومربي أغنام وقد تمكن، رغم تعدد أوجه نشاطه، من أن يضيف عناصر أصيل خلقة إلى كل الميادين التي اهتم بها على وجه التقريب. ولكنه لم يكن متخصصا أو خبيرا محترفا في واحد من هذه الميادين، وإنما كان فيها كلها هاريا عبقريا، وموقظا ومثيرا للاهتمام لدى الآخرين، بعثر أفكاره وخيالاته انزاعية بسخاء كاد يصل إلى حد الإسراف المفرط. ولقد كان يتخذ موقف المعارضة من كل الآراء والقوى السائدة في عصره تقريبا، وكان على خلاف مع المعايير والقيم السائدة في كل المجالات تقريبا، ووقف يعارض كل ما كان مقدسا وصحيحا، في أعين معاصريه، في مجالات الأخلاق والدين والكنيسة والعلم والفلسفة والتعليم. وهكذا كان يسبح ضد تيار عصره، ويهز العالم من سباته، وكانت شخصيته منعزلة غير محددة المعالم، ولكنها كانت رغم ما تعرضت له من نقد وإنكار، خلقة زاخرة بالمعاني بالنسبة إلى المستقبل.

ومن الصعب أن يحدد المرء الموضوع الاسامي لاهتمام شخصية لها تلك الأوجه والنواحي المتعددة التي كانت لبطلر ، ولكننا نستطيع أن نفترض أنه كان ينتمى إلى مجال الفكر . فقد كان له أية حال ذهن فلسفى من الطراز الأول ، وإن يكن قد افتقر إلى التعليم والمنهج الذى يتميز به المتخصص والدارس المتبحر ، وكان تفكيره يشع فى معظم أوجه نشاطه الأخرى ، ومن السهل التعرف عليه فيها ( ولا سيما فى الروايات ) مثلما يمكن التعرف عليه فى مناقشاته الأقرب إلى الروح المنهجية . ولقد كان تحرر ذهن بطلر ، الذى كان له عقل من أذكى وأرق وأجراً العقول فى عصره ، أقرب إلى طابع التحرر من الأوهام ومن قيود التراث وأغلاله ، منه إلى طابع المفكر الحر freethinker بالمعنى المألوف لهذه الكلمة . ورغم أنه كان هداماً إلى حد غير قليل فى نقده الشكى وتهكمه ، فإن تفكيره كان إيجابياً بناءً ، ومعبراً عن قوة خلاقة متأصلة فيه .

والفكرة الرئيسية فى فلسفة بطلر هى فكرة التطور أو النمو . ورغم أنه أدخل على هذه الفكرة تعديلات كبيرة ، ووسّعها إلى حد بعيد ، فقد ظلت إلى النهاية مستحوذة عليه . ولقد كان واحداً من تلاميذ دارون ، ورحب بأفكار أستاذه بحماسة بمجرد ظهورها ، وكانت تغنى بالنسبة إليه تجربة تحكمت فى توجيه تفكيره التالى . ولكنه لم يكن الرجل الذى يكتفى بقبول أفكار تنقل إليه ، أو يدين بها بمجرد كونها المسيطرة على الأذهان فى عصره . بل إنه ، على العكس من ذلك ، سرعان ما وجد نفسه معارضا لها فى النقاط الرئيسية ، ونظراً إلى أنه كان فى الأصل واحداً من أوائل أنصارها ، فقد أصبح الآن واحداً من أوائل نقادها . ومن المؤكد أن اختبار بطلر النقدي لنظرية الأصل السلالي theory of descent هو أرق وأعمق نقد ظهر فى إنجلترا حتى نهاية القرن السابق ، وهذا يرجع أساساً إلى أن هذا النقد لم يتعرض للبدا الجديد من الخارج ، أو تطبيق معيار معد مقدماً يحكم به عليه ، وإنما تعرض له بمعيار يرجع فى أصله إلى باطن

النظرية ذاتها ، ومن ثم فقد هدمها وقلبها رأساً على عقب في عقر دارها .  
ويمكن القول أن بطر قد استبق ، بطريقة ضمنية على الأقل ، إن لم يكن  
بطريقة صريحة ، تلك التعديلات والتجديدات التي لم تدخل على الداروينية  
إلا بعد وقت طويل ، وذلك في كتابات نيتشه وبرجسون ، والمذهب  
الحيوي الجديد Neo Vitalism والبرجماتزم وفلسفه الطفرة Emergence .  
فهنالك كان بطر ، كما كان في نواح أخرى ، سابقاً عصره بمراحل ، ورغم أن  
حياته تنتمي إلى القرن التاسع عشر ، فإن ذهنه ينتمي إلى القرن العشرين .

وليس في وسعنا أن نشير إلى تلك الأفكار النيرة الأصيلة التي ندين  
بها لبطر - والتي كانت في عصره جديدة غير مألوفة ، وأصبحت في وقتنا  
الحالي شائعة - إلا بطريقة موجزة وبعبارات عامة . ولنبدأ بأبرز النقاط  
ولا : فقد أدرك بطر منذ وقت مبكر ، ببصيرة نفاذة ، أن مذهب التطور  
معرض لخطر التيه في بيداء فلسفة مادية آلية قاحلة ، ومن ثم فقد انجذبت  
كل جهوده إلى إعادة المذهب إلى طريق التفسير المثالي والغائي للحياة . ولقد  
أهتدى إلى حليف في شخص الفيلسوف الألماني إدوارد فون هارتمن E. Von  
Hartmann ، الذي اتفق معه في أساسيات نظمه للداروينية ، وإن يكن قد  
رفض أنظاره الميتافيزيقية فوضع فكرة وجود طاقة خلاقة للحياة مقابل  
آلية الانتقاء والوارثة ، وافترض وجود نوع من القوة الأولية أو الإرادة  
الأولية التي تسود كل جزء من الكون ، وتجمع الكل سوياً في كائن عضوي  
كوني واحد . وهكذا أصبحت الفكرة التي تحتل مكانة الصدارة لديه هي  
فكرة الحياة بوصفها مبدأ خلافاً - لا تلك الحياة البيولوجية البحتة غير  
المكرثة بالقيم ، وإنما الحياة التي كان لها من القيمة والجدارة المؤكدة مانسبته  
النظريات الحيوية المتأخرة إليها . وتتضح أهمية تفسير بطر للحياة بوجه  
خاص في بحثه في الذاكرة ، وهو الذي كان يشبه بحثاً آخر سبق أن قام به إ .



هيرنج E. Hering<sup>(١)</sup> ، وإن لم يكن بطار قد عرفه ، وازداد شيوعاً فيما بعد بفضل مذهب « سيمون R. Semon<sup>(٢)</sup> » ، في « التذكر mneme » . وتبعاً لهذا المذهب ينبغي أن ينظر إلى « الحياة » ، على أنها صفة في المادة العضوية تتمكن بفضلها تلك المادة من التذكر ، وتكون المادة « حية animate » بقدر ما تكون لها هذه القدرة . وتتمثل هذه الصفة حتى في أصغر خلية . وإن تكن فيها غير واعية ؛ وإليها يعزو بطار العمليات النفسانية الغرضية الواعية ، بل يعزو أيضاً كل نوع من التحقق اللاشعوري ، من تكرار وتعود ووراثته ، وأخيراً عملية التطور ذاتها . ويكفي هذا لإيضاح أن الذاكرة ليست مجرد ظاهرة فردية ، وإنما هي صفة يمتلكها الجنس بأكمله ، وأن هناك نوعاً من « الذاكرة القبليّة tribal memory » ، تبدأ عملها عند مولد الفرد ، ولا تنقطع بموته ، الذي لا يعدو أن يكون تغييراً للذاكرات . وهكذا يمكن توريث الذاكرة من حيث هي وظيفة ؛ وبقدر ما هي موروثه فإنها تسمى بالغريزة ، وتصبح العادة غريزة عندما تمارسها الأجيال المتعاقبة بدرجة كافية من التكرار والانتظام . ولا اختلاف بين الغريزة والعقل intellect من حيث المبدأ ، وإنما يختلفان في الدرجة ، إذ أن الأفعال التي يكون أصلها عقلياً قد تنحدر إلى مرتبة الغرائز إذا ما تكررت بقدر كاف . وهذا يصدق أيضاً على الفرق بين العضوي واللاعضوي . فبطار يرى أنه لا توجد أية هوة فاصلة بينهما ، وإنما تعتبر الحدود على الدوام في كلا الاتجاهين . فحتى المادة غير الحية ذاتها قادرة على « التذكر » ، وبقدر

---

(١) ابفاله هيرنج ( ١٨٣٤ — ١٩١٨ ) عالم فسيولوجي ألماني ، كان أستاذاً بجامعة ليبسج ، من أهم مؤلفاته المتعلقة بهذا الموضوع « الذاكرة بوصفها وظيفة عامة للمادة العضوية » وقد مهد الطريق لنظرية سيمون Semon في التذكر . [ المترجم ]

(٢) ريشارد سيمون ، تأثر بفكرة هيرنج القائلة إن التذكر ليس ظاهرة نفسية فقط ، بل هو أيضاً قدرة عامة للكائن العضوي . فكان يرى أن التذكر صفة أو قدرة في البروتوبلازم . أهم مؤلفاته في هذا الموضوع : « التذكر بوصفه مبدأً للثبات وسط تغير الحوادث العضوية » . [ المترجم ]

ماهى كذلك يمكن أن تعد حية . وكل الكائنات الحية مكونة أساسا من نفس المادة ، وكان يمكن أن تكون متماثلة من جميع الأوجه لولا تباين « ذاكراتها » ، واختلاف قدرتها على التذكر ، والذكريات الفعلية المختزنة فيها .

ومع ذلك فمن الواجب ألا نفهم فكرة بطلر عن الذاكرة بمعنى آلى ؛ فهى فكرة غائية تماما ، مثلها مثل الحياة التى يكون قوامها الفعلى هو هذه الذاكرة . فالحياة غرض ومقصد وإرادة وتطأع إلى الأمام بكل معانى هذه الكلمات ، أى هى بالاختصار غاية خلقة ، وليست مجرد عملية آلية أو تفاعل متخبط بين قوى طبيعية . وينساب مجرى الحياة فى جميع مراحل التطور العضوى ( بل فى جميع مراحل التطور غير العضوى أيضا ، وذلك بمعنى أوسع فى الكم وأضيق فى الكيف ) ، فيوحّد بين كل كائن حى وبين السلسلة اللامتناهية لأسلافه ، ويكتسب كل كائن طابعه الفردى المستقل بفضل تلك الفعالية الدائمة المستمدة من تلك السلسلة ، والتى تؤدى وظيفتها دون وعى كما تختزن فى الذاكرة . غير أن القوة الدافعة الأولى التى تتحرك فى كل حياة عضوية وتنشطها ، هى الإرادة ، ويرتبط بها الإيمان الذى يعطى الإرادة القدرة على أن تصبح ما تختاره ؛ وفى رأى بطلر أن قدرة الإرادة هائلة إلى حد أنه لو أرادت الحماة بعزم وتصميم أن تصبح طاووسا ، لما حال بينها وبين ذلك أى انتقاء طبيعى .

وإن المرء ليلبس هنا مقدار التحول الذى طرأ على مقولات دارون ، ومدى الطابع الجديد المختلف تماما الذى انطبعت به النظرية التطورية . فالطريق الذى سلكه بطلر هو بالتأكيد ذلك الذى يؤدى من الآلية إلى الغائية ، ومن الحتمية إلى حرية الإرادة ، ومن النزعة البيولوجية ، إلى النزعة الحيوية ، ومن الطبيعية إلى المثالية ، ومن الانتقاء الطبيعى كما قال به دارون إلى « الدفعة الحيوية élan vital » ، الخلاقة كما قال بهابرجسون ، وفكرة « الطفرة emergence » ، عند ألكسندر ، بل وإلى التحليل النفسى كما قال

به فرويد آخر الأمر ؛ ولم يكن ذلك كله إلا تعبيراً عن شخصيته المتألفة حيوية وذكاء<sup>(١)</sup> .

ولقد كانت فلسفة بطلر إشارة إلى نقطة التحول في المذهب التطوري الطبيعي ، وعلامة على حلول ساعة تقرير مصيره . ومع ذلك فإن أفكاره الرائعة ، التي توصل إليها بليجات حدسية أكثر مما استخلصها عليها ، لم تثر الاستجابة التي كانت جديرة بها خلال حياته . ولم يكن لها إلا دور ضئيل في العملية الطويلة التي أعيدت بها صياغة فلسفة التطور ووضعت في قالب جديد ابتداء من مطلع القرن العشرين . وقد تضافرت في تحقيق هذه النتيجة قوى متعددة ومتنوعة ، تنتمي إلى مدارس وجهات متباينة ، ولكن أقواماً وأنجحها وأبعدها أثراً كانت تلك التي ترجع في أصلها إلى فلسفة برجسون . فقد كان كتابه « التطور الخلاق L'Evolution Créatrice » هو الذي أحدث التحول الحاسم في اتجاه التفكير التطوري ، إذ أنه رغم بقاء شكل فكرة التطور على ما هو عليه في ذلك الكتاب ، فإن مضمونها ومحتواها قد تغير تماماً . وأوضح مظهر للهوة الشاسعة التي تفضل بين النظرية القديمة والنظرية الجديدة هو اختبار برجسون النقدي الموجز لسبنسر ،

---

(١) وهناك أيضاً طريق مباشر يؤدي من بطلر إلى برنارد شو . ولقد اعترف هذا الأخير بذلك مراراً ، وأشاد كثير بعبقريته بطلر . وقد كانت أفكار بطلر هي التي تحكت في أعمق عناصر تفكير شو الخاص ووجهته ( انظر تصديري « الميجر باربارا Major Barbara » والمودة إلى متوشولح Back to Methuselah ) .

وقد كانت مؤلفات بطلر الرئيسية هي : الحياة والعادة Life and Habit (١٨٧٧) ؛ والتطور قديماً وحديثاً Evolution Old & New (١٨٧٩) ؛ و « الإله المروف والإله غير المروف God the Known and God the Unknown » (١٨٧٩) ؛ و « الذاكرة اللاواعية Unconscious Memory » (١٨٨٠) ؛ و « حظ أم براعة Luck or Cunning ? » (١٨٨٧) ؛ وكذلك الروايات : إيروون Erewon (١٨٧٢) ؛ « عود إلى إيروون Erewon Revisited » (١٩٠١) ؛ و « وطريق كل جسد The Way of all Flesh » (١٩٠٣) .

وهو الاختبار الذى ختم به كتابه الرئيسى ( أنظر التطور الخلاق ، ص ١٩٢ - ٢٩٩ ، الترجمة الإنجليزية ص ٣٨٤ - ٣٩١ ) . فهو هنا يشرح كيف أن المعنى الحقيقى للتطور ، بوصفه نموا متقدما development قد فات سبىس تماما . ولقد كان من نتيجة عمل برجسون أن أصبح من المستحيل بعد ذلك قيام فلسفة تطورية بالأسلوب القديم . صحيح أن الأشكال القديمة ما زالت موجودة ، ولكنها أشكال لا حياة فيها ؛ ورغم أننا ما زلنا نصادف حتى يومنا هذا متعصبين للمذهب القديم ، فإن كل مفكر لديه أى شىء حقيقى يقوله فى هذه المشكلات أصبح منذ ذلك الحين يقف ، وينبغى أن يقف ، فى دائرة نفوذ تفكير برجسون .

وهذا يصدق أولا وقبل كل شىء على فلسفة « الطفرة Emergence » التى أصبحت اليوم جزءا من تراث المذهب التطورى . وهى تكون تيارا ضخما فى الفكر الأجلوسكونى المعاصر ، وترتبط على أنحاء شتى بالمذهب القديم ؛ غير أن ما تتميز به هو أن البرجسونية متغلغلة فيها تماما . ولا يمكن تصورهما بدونها . وعلى ذلك فلن نتحدث فى هذا المقام عن هذه المرحلة القرية العهد فى النظرية التطورية ، وإنما سنعود إلى مثلها المتعديدين فى سياقات أخرى . وإذا استثنينا الفكرة الواحدة التى ساهم بها ليويس ( انظر ص [ ١٢١ ] ) ، فإن أهم مثلها ، أعنى مؤسس النظرية ، هما الكسندرولويد مورجان Lloyd Morgan ، ومن الممكن تبسع تأثيرها ، بدرجات تقباين عمقا ، فى كتابات هبوس ، وشيلر Schiller ومكدوجال McDougall وولدن كار Wildon Carr وسمطس Smuts ، ومن الأمريكين ديوى Dewey وسيلرز Sellars وبريتمان Brightman وسبولنج Spaulding ، أى لدى مفكرين ينتمون إلى مدارس فكرية متباينة كل التباين . وما قبل على نظرية « الطفرة » يصدق أيضا على البرجمانية ، إذ أن هذه ، وإن لم تكن تعد منتمية إلى التطورية بحق ، فإن لها صلات ببعض فروعها فى أفكار رئيسية عديدة لها .

ولكن من المهم أن نلاحظ أن أهم ممثلي البرجماتية من الإنجليز، وهو « شيلر F. C. S. Schiller »، قد ظهر تفكيره من الدارونية مباشرة، وأن مذهبه الناضج لا ينطوي بدوره على أى شيء يتعارض مع هذا الأصل. فأول مرحلة سابقة على البرجماتية في تفكيره، وهى التى تتمثل كتابة «الغاز أبو الهول The Riddles of the Sphinx» ( ١٨٩١ )، مبنية كلها على أساس تطورى، بل إن هذا الكتاب قد عبر بطريقة مستقلة عن نظريات دارون وسبنسر ذاتها، وإن يكن يدين لها بالكثير بطبيعة الحال ( انظر فيما بعد الفصل الثانى من الباب الثانى ). ولكن البرجماتية بدورها لم تكن بمنأى عن التأثير بذلك التحول الذى أدخل على مبدأ التطور، وإنما استوعبته ضمن تعاليمها.

على أن الانحياز الفكرى البرجسونى لم يقتصر فى تأثيره على هذا، وإنما تغلغل — ومازال بالفعل يتغلغل — فى الفلسفة الحديثة على أنحاء شتى. غير أنه قد انقسم إلى عدد من التيارات والنزعات بلغ فى ضخامته حداً يجعل من المستحيل الآن النظر إليه على أنه تركيب موحد. والدليل على ذلك أنه منذ بداية تأثير البرجسونية أصبح كل مفكر إنجليزى ينتمى، فى نواح معينة، إلى المعسكر التطورى، أو يشيد بالتطورية فى هذه النقطة أو تلك على الأقل.

وسوف نختتم هذا القسم ببحث أكثر تفصيلاً لفلسفة هبوس<sup>(١)</sup>،

---

(١) درس ليونارد تريلاوني هبوس Leonard Trelawny Hobhouse (١٨٦٤ — ١٩٢٩) وعلم فى جامعة أكسفورد فى سنتي ١٨٨٣ و ١٨٩٧، واشتغل صحفياً فى مانشستر من ١٨٧٩ إلى ١٩٠٢، ومنذ ١٩٠٢ جمع بين أوجه نشاط متعددة فى الصحافة والسياسة والاقتصاد التطبيقى والعمل بالجامعة، وشغل من ١٩٠٧ إلى ١٩٢٩ كرسي علم الاجتماع فى جامعة لندن. ومؤلفاته الفلسفية هى: «نظرية المعرفة The Theory of Knowledge» ( ١٨٩٦؛ الطبعة الثالثة ١٩٢١ )؛ «الزمن فى تطوره»

الذى يمكن بالفعل أن تعد تعاليمه أكل مظهر للفكر التطورى الحديث .  
على أن عرضنا له سيبين أن هذا المفكر الخصب الغزير الإنتاج لا يمكن  
أن يصر في الإطار الضيق لمبدأ واحد بعينه ، أو ينسب إلى مدرسة خاصة  
أو اتجاه فكرى معين ، وإنما هو يتجاوز هذه الحدود بمراحل ، ويحتاج إلى  
أن يقدر بمعايير خاصة به . لذلك ينبغي أن تؤكد بكل وضوح أننا لا نغنى ،  
ببحثنا لمؤلفاته في هذا السياق ، أن نصدر مقدما أى حكم حول طابعها  
أو اتجاهها .

ولا تتميز أعمال هبوس في مجال الفلسفة بعمقها وأصالتها بقدر ما تتميز  
برحابة نظرتها وشمول نطاقها وتشعب مجالات اهتمامها . فقد كان ذهن  
هبوس ، بعد ذهن سبنسر ، هو أكبر ذهن موسوعى بين الفلاسفة الإنجليز ،  
كما كان باحثا ذا مركز رفيع مستقل في مجالات مختلفة للعلم — بل لقد  
تحدى روح التخصص الشائعة اليوم ، عن طريق التحكم في ذخيرة تدعو إلى  
الدهشة من المعارف العامة والخاصة ، والجمع بينها سويا في إطار تفسير

---

**Mind in Evolution** = ( ١٩٠١ ؛ الطبعة الثالثة ١٩٢٦ ) ؛ « الأخلاق في  
تطورها **Morals in Evolution** » ، في مجلدين ، ١٩١١ ) ؛ « النمو والغرض » ،  
محاولة لبناء فلسفة لتطور **Development and Purpose, An Essay towards**  
**a Phil. of Evolution** ( ١٩١٣ ، طبعة مراجعة ٢٩٢٢ ) ؛ « النظرية الميتافيزيقية  
لدولة **The Metaphysical Theory of The State** ( ١٩١٨ ) ، « الخير العقل  
**The Rational Good** » ( ١٩٢١ ) ؛ « أركان الدولة الاجتماعية **The Elements of**  
**Social Justice** » ( ١٩٢٢ ) ؛ « الارتقاء الاجتماعى ، طبيعته وشروطه **Social**  
**Development, its Nature and Conditions** » ( ١٩٢٤ ) ( وقد جمع بين  
الكتب الأربعة الأخيرة في كتاب « مبادئ علم الاجتماع **Principles of Sociology**  
في أربعة مجلدات ، ١٩١٩ — ١٩٢٤ ) ؛ « فلسفة الارتقاء **The Phil. of**  
**Development** » ١٩٢٤ ، مقال في كتاب : « الفلسفة الانجليزية المعاصرة :  
**Contemporary British Phil** » ، نشره ج . ه . مور هيد ، المجلد الأول .  
انظر كتاب : « ل . ت . هبوس . حياته ومؤلفاته **L. T. Hobhouse, His Life and Work**  
( ١٩٣١ ) ، تأليف ج . ا . هبسون **J. A. Hobson** وموريس جينزبرج  
**Morris Ginsberg**

فلسفى موحد . وفضلا عن ذلك ، فلكى يكون المرء مجرد فكرة عن نشاطه الذى لا ينفد ، ومدى تشعب مجهوداته ، ينبغى أن يذكر أن نشاطه بوصفه عالما وفيلسوفاً لا يمثل إلا شطراً واحداً من مجموع أعماله ، وأن حياته قد استغرقت إلى جانب ذلك ، فى عمل متواصل فى الصحافة والسياسة والخدمة الاجتماعية والتنظيم والتدريس وما شابه ذلك .

ويتضح الطابع العام للأطار الفلسفى الذهنى لهيوس فى نفوره العميق من كل تأمل مجرد يتم فى فراغ . فقد كان تفكيره مبنيًا على الدوام على أساس متين من البحث الدقيق فى مجال معين من الحقائق التجريبية ، وكان ينهل على الدوام من معين التجربة ليجدد بها هذا التفكير ؛ ولكنه مع ذلك لم يتوقف أبداً عند حدود الوقائع المجردة ، وإنما رأى نفسه مضطراً على الدوام إلى إحراز المزيد من التقدم نحو تكوين مركب ومنظور فلسفى عام . وإذا شئنا أن نعبر عن الأمر تعبيراً مجازياً ، لقلنا إنه كان يحرث الحقل التجريبى ويذر فيه البذور الفلسفية . لى يبنى ثماراً فلسفية . وتمشى مع ذلك تلك القرابة الوثيقة التى قال بها بين الفلسفة والعلم . فليس بين الاثنين فى نظره فارق أساسى . وعلى حين أن العلوم تسعى إلى إخضاع جزء من عالم الواقع فى وجه محدد من أوجهه ، للتفسير العقلى ، فإن الفلسفة تسعى إلى الوصول إلى معرفة لعالم الواقع بأسره وإخضاعه لنظرية شاملة . لذلك ينبغى على الفلسفة أن تطأ طريق العلوم الخاصة ؛ ولما كان هذا طريق تقدم مستمر لا نهاية له ، فإن الفلسفة ، التى هى بدورها تسعى دائماً ، ينبغى أن تتجنب كل استنتاجات نهائية . وإن تبثع المشكلات لذاتها ، أو من أجل محتواها الواقعى ، لآهم من إتمام بناء الفكر الفلسفى المتعدد الحجرات فى مذهب متناسق الخطوط . وليس ثمت مبرر للمجهود الذى يبذل فى بناء المذهب ، وهو المجهود الذى يعترف به هيوس صراحة ، والذى كان واضحاً كل الوضوح فى تفكيره ، إلا إذا حدث ذلك فى مذهب مفتوح يحتفظ

بالمشكلات المتعددة في صورتها الخاصة ويستبقها ، ويكون من الممكن فيه دائما تدفق مادة واقعية جديدة مستمدة من مجهودات العلوم الخاصة . وهكذا فإن الهدف الأول للفلسفة هو صنع مركب من العلوم ، أو بعبارة أرق ، مركب يكون منسجما مع نتائج البحث المتخصص ، ويتخذ منها أساسا يبنى عليه . ومع ذلك فهي لا تبلغ من ضيق الأفق حدا يجعلها تقف عند حد إضفاء صحة مطلقة على الوجه العلمى للأشياء ، وإنما تشمل كل مجال للتجربة يقبل البحث النظرى ، وضمنه عالم القيم الذى تنتمى إليه المجالات الدينية والجمالية والأخلاقية . وهكذا فإنها ، بأشمل معنى للكلمة ، مركب ، ليس فقط للوجود كما يُعرف عليها ، وإنما للوجود فى كل مجالاته وتدرجاته .

ولقد أدى الأساس التجريبى الواسع الذى بُنى عليه كل ما توصل إليه هبوس من نتائج فلسفية ، واستعداده الدائم لاستخلاص نتائج تفيد الفلسفة من كل إضافة جديدة تنتمى إلى مجال الواقع المجرَّب ، أدى ذلك إلى إضفاء طابع مرن ذى نسيج رخو على تفكيره ، كان هو المميز له حتى بالنسبة بالنسبة إلى أقوى المذاهب الفلسفية تأثيرا فيه . وكما أنه استعان بكل ما كان يبدو له ذا دلالة فى العلم والحياة لى يزد تفكيره خصوبة ، فكذلك كان ذهنه على الدوام متفتحا بالنسبة إلى المذاهب الفلسفية للسابقين عليه . ولعاصريه . وهو لم يكن يبالي ، عند استيعابه وتمثله لتفكير شخص غيره ، باسم المدرسة التى ينتمى إليها أو الاتجاه الذى يتبعه ، وإنما كان يهتم فقط بالقيمة الحقيقية لذلك التفكير ومدى إمكان انطباقه على مذهبه فى إطاره الخاص . وهكذا كان معاديا لكل تحيز فلسفى ، ولم يكن يدين بالولاء المطلق لآى أستاذ بعينه ، وإنما أصبح ، بفضل إصغائه لأصوات الكثيرين ، وسيطة ومعبرا بين حركات مختلفة يدب الخلاف فيما بينها . ويتمثل هذا الاتجاه إلى التوفيق حتى فى أول كتبه ، الذى يهدف خاصة إلى التوفيق بين المعسكرين المتضارين فى التجريبية التقليدية . وبين المثالية العائدة إلى الظهور ، وهكذا



مهد الطريق ، منذ أواخر القرن الماضي ، لذلك التلاقى بين الأضداد ، الذى لم تظهر أوسع وأكمل آثاره إلا بعد مضي وقت طويل . غير أن هذه الصفة فى عمل هبوس قد تعال لنا عدم بلوغ هذا العمل ما يستحقه من النجاح ، رغم كل ما اتصف به من امتلاء و ثراء فلقد كان الاعتراف الذى لقيه من الفلاسفة المحترفين أقل كثيرا مما أنجزه بالفعل ، إذ لم تستطع واحدة من المدارس والجماعات المتعددة أن تحسبه ضمن من ينتمون إليها ، أو أن تدرج عمله ، بكل مداه ونظاقه ، فى مجالها الخامس .

وهكذا فليس من الصحيح أن يسمى هبوس أفضل ممثل للمدرسة الإنجليزية التقايدية <sup>(١)</sup> ، ولا من الصحيح مقارنة وجهة نظره بوجهة نظر بوزانكيت <sup>(٢)</sup> ، وإنما الأصح أنه يعالو عليهما معا ، عن طريق اتخاذا ورفض عناصر مكوّنة لكل منهما ، وبذلك يصل إلى مركب يحمل بأكمله طابعه الذهنى الخاص . وإنا لنجد فى هذا الصدد كلمة لها دلالتها فى تصدير هبوس لأول كتاب فلسفى ألفه ، وهو « نظرية المعرفة » ، وهى كلمة تلقى ضوءا واضحا على الموقف ، وتظل منطبقة على مؤلفاته التالية مثلما تنطبق على مؤلفاته الأولى . فهو يقول : « وهكذا يبدو أن الوقت قد حان للقيام بمحاولة نزيهة لمزج ما هو صحيح وقيم فى التراث الإنجليزى مع المذاهب الجديدة التى توطنت الآن بيننا . ومن واجبنا حين نقف من لوقته Lotze وهيجل ، ألا ننسى أننا قد تعلينا أيضا من مل ومينسر » . ويبدو

---

(١) ج . ١ . نيكولسون J. A. Nicholson : « بعض أوجه فلسفة هبوس Some Aspects of the Phil. of Hobhouse » جامعة البنى ، إربانا ، ١٩٢٨ .

(٢) ك . ستن C. Sutton « فى مجلة لوجوس Logos » ، المجلد ١٦ ، ١٩٢٧ ، ص ١٠٠ .

أنه كان يقصد بهذه الكلمات « جرين Green ، على التخصيص ، إذ أن هذا الأخير قد حاول قبل حوالي عشرين عاما أن يصرف أنظار الجيل الجديد عن مذاهب مل وسبنسر المتأخرة ، ويشجعها على دراسة كانت وهيكل ( انظر طبعة جرين لكتاب هيوم « بحث في الفهم البشرى . Treatise ، المجلد الثاني ، ص ٧١ ) .

ولقد كان مذهب سبنسر التطورى هو الذى تحكم أولا فى الطابع الذى اتخذته أفكار هبوس . فقد كان فى شبابه يرى أن مذهب سبنسر هو الكلمة الأخيرة فى العلم ، ولكنه سرعان ما أخضع هذا المذهب بعد ذلك لتعديل شامل ، وازداد تباعدا عنه بتقدم حياته . ولقد أخذ عن سبنسر الطابع الموسوعى الشامل للتفكير الفلسفى ، وتفسير النزعة الفلسفية إلى بناء المذاهب بأنها جمع تركيبى لنتائج البحث العلمى . وكانت تجمعه بمل نزعة التجريبية فى مجال نظرية المعرفة والمنطق من جهة ، واتجاهه الليبرالى فى السياسة ، ونظريته الفردية فى الدولة من جهة أخرى . ولكن هبوس كان يدين للتجريبين القدامى بأكثر مما يدين به للتجريبين المتأخرين . وإنه ليزكّرنا ببيكن ، لا فى موقفه الذهنى العام فحسب ، بل فى منهجه العلمى الدقيق ونظرته إلى الفلسفة على أنها « علم العلوم scientia scientiarum » ؛ كما يذكرنا بلوك فى نظره الواقعية إلى المعرفة وفى طريقته العامة فى معالجة مشكلة المعرفة ؛ أما النقاط التى اتفق فيها مع هيوم فهى كثيرة إلى حد أنها تتغلغل فى نظريات هبوس من بدايتها إلى نهايتها . كذلك لم يخل الأمر من تأثر لتفكيره بوضعية كونت . فقد استمد من كونت اتجاهه نحو علم الاجتماع بوصفه العلم الذى يبحث فى المجتمع ، كما استمد منه ( أو من تلميذه وداعيته الإنجليزى « برىدجز Bridges » ) فكرة الإنسانية ، وإن لم يكن قد اتخذ لنفسه الموقف الوضعى المضاد للبيتافيزيقا . ومن جهة أخرى فإن الأواصر التى تربط بينه وبين الحركة المثالية قوية جدا . فأراء جرين فى الفلسفة الاجتماعية والسياسية تتفق جزئيا مع آراء هبوس ،

كما أن الأخير يدين ، فى مجال المنطق ، لبرادلى وبوزانكيت بقدر ما يدين للمل - بل إن بوزانكيت بوجه خاص قد أصبح ، كما اعترف هو ذاته ، مرشده العقلى فى نواح عديدة . على الرغم من عدائه المطلق لنظريته بوزانكيت الهيكلية فى الدولة . وأخيراً ، فقد تأثر خلال تكوينه لنظريته فى المعرفة بمفكرين مثل ت . كيس T. Case وج كوك ولسن J. Cook Wilson وهم من المفكرين الأوائل الذين استبقوا الحركة الواقعية ، وقد استمتع بتبادل الأفكار معهم فى أكسفورد .

ويستدل من مجرى تطور فلسفة هبوس على أنه . بينما كان ذهنه فى شبابه عاجزاً ، شأنه شأن معظم معاصريه ، عن التخلص من تأثير الهجوم القوى الذى شنته مذاهب دارون وسبنسر وهكسلى ، فسرعان ما تكون لديه رد فعل قوى على نظرياتهم التطورية ذات النزعة الطبيعية ، وهو رد فعل ساعد على دعمه الجوى العقلى فى أكسفورد التى كانت فى ذلك الحين معقل المثالية فهناك شعر شعوراً كاملاً بما أحدثته الحركة الجديدة من ضغط ومن تأثير فى النفوس ، فانساق فى تيارها وقتاً ما . ولكنه من جهة أخرى قد أحس بنفور من تأملات الهيكلين المفرطة فى الخيال والتجريد ، ولم يجد تعطشه إلى الوقائع وإلى القبض بشدة على ناصية العالم الفعلى ما يرضيه فى فلسفة عقلية خالصة لا تصل إلى الاكتمال إلا بالتحليق فى الفراغ ، وهكذا وجد نفسه مضطراً على الدوام إلى العودة إلى الاستطلاع التجريبي والأبحاث الدقيقة فى المبادئ العلمية الخاصة ، أو إلى أوجه نشاط ذات طابع عملي واضح . ولقد كان أول كتبه ، الذى ينتمى إلى سنوات إقامته فى أكسفورد ، والذى يتعلق بالحركة العالمية ( ١٨٩٣ ) ، شاهداً على اهتمامه ، منذ هذا الوقت المبكر ، بالمسائل الاجتماعية والسياسية . بل إنه كان قبل ذلك ، فى عام ١٨٨٨ ، يقضى عدة ساعات يومياً فى معمل عالم البيولوجياح . س . هولدين . J. S. Haldane ، منهمكا فى تجارب فى علم وظائف الأعضاء والكيمياء الحيوية على الحيوانات

وكانت هذه التجارب إعداداً لأبحاثه الرائدة في ميدان علم النفس الحيوانى . وقد عاد فيما بعد إلى المجال النظرى البحت فى دراسته للمسائل المنطقية والمعرفية والميتافيزيقية ، وكانت أولى ثمرات جهوده الفلسفية كتاب « نظرية المعرفة » ، ( ١٨٩٦ ) ، الذى قدم فيه عرضاً شاملاً لمجال الفلسفة النظرية بأسرها ، يكشف عن نضوج غريب وسعة إطلاع عجيبة ، ويكون أساس جميع مؤلفاته التالية . وبعد هذه المحاولة الأولى ، التى لم تلق بالتأكيد الا اهتماماً أقل بكثير مما يجب ، وإن كانت قد أعلنت ظهور مفكر له ذهن قوى متين رحب ، ولم يكن لها إلا نظائر قليلة بين الكتب الأولى للفلاسفة ، قطع هبوس فجأة مجرى أعماله العلمية ، وبدأ يخوض حياة صحفى عامل . ولم يعد إلى العمل الجامعى إلا فيما بعد ، عندما أصبح إنتاجه يشمل مجلدين كبيرين فى التطور التاريخى للذهن والأخلاق ، مبنيين على أبحاث متخصصة دقيقة . وقد كوفت هذه الكتب أساس الدراسة المترابطة لجميع المسائل الفلسفية المتشابهة . وقد أودع هبوس خلاصة أبحاثه ودراساته فى كتاب رائع هو « النمو والغرض Development and Purpose » ، وهو عرض منهجى نشر لأول مرة سنة ١٩١٣ ، ولكن أعيد طبعة قرب نهاية حياته ( ١٩٢٧ ) بعد مراجعة دقيقة . وفى هذا الكتاب نخلى هبوس عن طريقة الاستطلاع الحذر التى كان يعالج بها المسائل الميتافيزيقية من قبل ، واتخذ من المشكلات النهائية موقفاً يؤدى إلى استخلاص نظرية تضفى على فلسفته اكتمالا ووحدة متسقة . وقد شغل فى العقد الأخير من من حياته يبحث شامل فى علم الاجتماع ، عرضه فى أربعة كتب ، وجمع هذه الكتب ( بطريقة خارجية أكثر منها داخلية ) تحت عنوان « مبادئ علم الاجتماع » . وفى هذا المؤلف أيضا ظل هبوس مخلصاً لمبدئه الرئيسى فى الارتقاء من الوقائع إلى النظرية ، وفى اختبار نتائج النظرية وتبريرها مراراً وتكراراً بالرجوع إلى الوقائع :

ومن الطبيعى أننا لا نستطيع أن نبحت هنا مختلف أوجه النشاط

المتشعبة التي قام بها هبهوس بوصفه باحثا ، وهي أوجه تمتد إلى ميادين متباينة إلى حد بعيد ، كعلم النفس الحيواني ، وعلم النفس المقارن والاجتماعي والاثروبولوجيا ، وعلم الاجتماع بوصفه علما خاصا ، والمنطق ، ونظرية المعرفة ، والميتافيزيقا ، والأخلاق ، وعلم الاجتماع الفلسفي ، ونظرية الدولة . وعلينا أن نكتفي بتقديم موجز مختصر للسمات الأساسية لأفكاره الفلسفية بأضيق معاني هذه الكلمة : فنظرية المعرفة عند هبهوس ، وهي النظرية التي سنطلق عليها اسم الواقعية النقدية *Critical realism* ، تبدأ بالوعي أو الإدراك المباشر ( *apprehension* ) — ومعنى هذا اللفظ عنده يقترب كثيرا من معنى « الإحساس » ، *sensation* عند لوك ، أو الإدراك الحسي *perception* ، عند باركلي أو الانطباع *impression* ، عند هيوم — أي أنها تبدأ بمعرفة ما هو حاضر أو موجود مباشرة في الوعي — فكل معرفة تبدأ بالإدراك المباشر وتعود إليه في النهاية ؛ وكون الشيء مدركا يعني بالضبط كون الشيء ضمن محتوى الوعي . والإدراك هو الفعل المعرفي الذي يوجه إلى ذلك المحتوى الحاضر مباشرة على الدوام ، وهو يشترك مع جميع الأفعال المعرفية الأخرى في صفة التأكيد *assertion* ، أي تأكيد أن الحاضر موجود ، وإمكانية الخطأ مستبعدة تماما فيما يتعلق بهذا المعطى الأول للمعرفة ، فما نكون على وعي مباشر به ، أي الواقعة الحاضرة المعطاة ، تظل واقعة حقيقية حتى لو اتضح عندما ينظر إليها من مستوى معرفي أعلى أنها وهم . فالإدراك لا يبت بشيء فيما يتعلق بمركز الواقعة الموجودة ، وإنما يؤكد أنها حاضرة في الوعي فحسب . غير أن هذا المعطى الأول ، الذي هو من حيث المبدأ بمنأى عن الخطأ ، لديه منذ البداية قيمة معرفية خاصة ، من حيث أنه هو الأساس الذي تفترضه مقدما جميع المعطيات الأخرى ، والمعيار الذي تقاس عليه . فالإدراك هو محكمة النقض والإبرام في المسائل المتعلقة بصحة حقيقة جميع الأنواع الأخرى للمعرفة .

ومن الواضح أن الإدراك ، من حيث صفة كونه مغياراً للحقيقة ، يناظر تماماً الانطباع ، عند هيوم ، الذى تنحصر وظيفته فى تبرير وإثبات صحة الأفكار بوصفها محتويات للوعى ليست هى ذاتها حاضرة . وهكذا فإن مبدأ هيوم الأساسى ، القائل إن الأفكار تثبت صحتها انطباعات مناظرة لها — هو نفسه الكامن من وراء نظرية المعرفة عند هبوس ، بل ومن وراء فلسفته بأكملها بمعنى آخر ، بقدر ما يكون من سماتها الأساسية اشتراط تحقيق كل حدس فلسفى بواسطة الوقائع التجريبية الكامنة من وراءها . وتلك هى الصفة المميزة لتجريبية هبوس ، وهى تجريبية تفرق أساساً عن المذاهب التجريبية الإنجليزية الكلاسيكية ، فى أن لها أساساً أوسع بكثير فى التجربة ، يتمشى مع التقدم الذى حققته العلوم ومع تراكم المواد المعرفية .

وسرعان ما تتحول التجريبية عند هبوس ، كما تحولت عند لوك ، إلى اتجاه واقعى ، وبذلك وجدت نفسها معارضة لكائنات وجميع النظريات المثالية . فمحتويات المعرفة تعطى على أنها منتزعة إلى العالم الواقعى ؛ وكل ما يتعين على الفكر أن يفعله هو أن يعترف بهذه المحتويات ، أى أن يكشفها أو يبيط اللثام عنها ، لا أن يبنها . ومعنى ذلك أنه ليس ثمت معرفة « أولية *apriori* » وإنما المعرفة « بعدية *aposteriori* » ، فحسب . ولذلك لا يمكن أن تكون مادة المعرفة هى تلك الكثرة المختلطة التى قال بها كانت ، والتى يتعين تطبيق المقولات الذهنية وصور التركيب عليها ، ولا هى الفكرة البسيطة عند لوك ، التى هى محتوى كينى صرف ، بل إن كل معطى ، حتى ما يبدو منه بسيطاً ، مركب من البداية ، أى أنه يضم ، إلى جانب الكيف ، مجموعة من العلاقات والترتيبات ، كالامتداد والمقدار والشكل والوضع ، بل والانجاء . وفى هذه النقطة يفرق هبوس عن أساتذته التجريبيين . فالأفكار البسيطة عند لوك أو الانطباعات غير المترابطة عند

هيوم لا يمكن أن تكون في رأيه محتويات للمعرفة ؛ وإنما هذه الإحساسات المفككة لا تعدو أن تكون تجريدات فكرية ، لا يناظرها شيء حقيقي . ففي أبسط إدراك مباشر ، يدرك الذهن كلا معقدا ، أو واقعة عينية ، تنطوي على ترتيب زماني ومكاني ، وعلى علاقات أخرى متعددة بالإضافة إلى الكيف وحده . ولا شك أن تخلي هبوس على هذا النحو عن مذهب الانطباعات المفككة عند هيوم ، عن طريق القول بأن المعطى كل مركب ، يربط بينه وبين مفكرين مختلفين عنه ، ومختلفين فيما بينهم ، كل الاختلاف ، مثل « جرین ، وهدجسون Hodgson ، ويخلي الطريق لتدفق عناصر مثالية معينة في نسق التفكير التجريبي والواقعي .

ويستطيع الذهن ، إلى جانب تلقيه للمحتوى الحالي للمعرفة عن طريق الإدراك المباشر ، أن يمارس عددا من الوظائف الأخرى على المعطيات ، كالحفظ retention ( بواسطة الذاكرة ) ، والتحليل ، والتأليف ، والاستدلال ، والتعميم ، إلخ . وهناك أهمية خاصة لعملية الحكم ، التي يحملها هبوس تحليلا دقيقا . فما الفارق بينها وبين الإدراك المباشر الخالص ؟ إن الحكم « هذا أزرق » يتألف من ثلاثة عناصر — المعطى الحاضر ( « هذا » ) ، ومضمون كلي ( « أزرق » ) ، والرابطة<sup>(١)</sup> التي تحدث علاقة بين الإثنين الآخرين . وهكذا يندرج الموضوع ، في الحكم ، تحت مضمون كلي أو فكري ، وهذا الاندراج أو التضمن يعني تشابه المعطى مع كل حالة أخرى يمكن أن يتحقق فيها المضمون الفكري . وإذن فهذا المضمون الفكري هو الذي يتميز به الحكم — وهو حاضر دائما في قلب عالم الوقائع ، ويؤدي إلى إقامة علاقات ذات طابع عام بين مختلف معطيات الوعي . وهكذا يعطى أحد عناصر المضمون الكلي للحكم لا بطريقة

(١) الرابطة مستترة في اللغة العربية ، ويبر عنها فعل الكينونة is في الإنجليزية .

واقعية وإنما بطريقة فكرية أو مثالية ، ويكون الحكم متعلقا بواقع يوجد خارج فعل الحكم أو مشيرا إلى هذا الواقع . بل إن تعريف هبهوس للحكم يتفق لفظيا مع تعريف برادلى وبوزانكيت له ؛ فهو الفعل الذى يربط بين مضمون فكرى أو مثالى وبين واقع خارج عن فعل الحكم . وهذه العلاقة القائمة بين عناصر الحكم تتخذ شكل قبول أو تصديق فى الحكم الموجب ، وشكل رفض أو استبعاد فى الحكم السالب ، وإذن فعملية الحكم تتوقف على مركب بين عناصر فكرية أو مثالية وعناصر واقعية . ولسنا فى حاجة إلى أن نشير بالتفصيل إلى مدى تأثير هذه النظرية فى الحكم بالمنطق الهيجلى المحدث عند برادلى وبوزانكيت ، أو أن نوضح بعد ذلك مقدار ماتدين به للمنطقة الألمان من أمثال زيجفرت Sigwart وبرتانو Brentano .

ويعالج هبهوس موضوع الحكم ، مثلاً تناول موضوع الإدراك المباشر ، ضمن معطيات المعرفة ، مادام لا ينتج مضمونات جديدة ، بل يقتصر على ربط العناصر المعطاة بعضها ببعض ، ويؤكد هذه العلاقة أو ينفيها . أما القسم الثانى فى المنطق فيبدأ عند النقطة التى يأتى فيها الذهن بشيء جديد يتجاوز المعطى ، ولا يكون من الأصل متضمنا فى الوقائع ؛ وهو يطلق على هذا المجال فى المنطق اسما عاما هو الاستدلال . ويتم الانتقال من الحكم إلى الاستدلال عن طريق الخيال ، الذى يظهر بفضله مضمون جديد لم يكن حاضرا من قبل ، ويشيد بناء جديد ، وإن يكن من الواجب ملاحظة أن أحجار البناء مستمدة من مادة المعطى ، أو كما يقول هبهوس ، أن الخيال يُبنى بأحجار تشكلت من قبل . كذلك تنحصر ماهية الاستدلال فى الحصول على واقعة جديدة ، بوصفها نتيجة ، من محتوى معطى بوصفه أساسا ( هو المقدمات ) أى على حقيقة ليست متضمنة فى المقدمات . ولكن على حين أن العنصر الجديد يوحى به فحسب فى حالة نوايج الخيال ،



فإنه في حالة الاستدلال يقترن بإحساس قوى بالاعتقاد أو التصديق ،  
تؤكد على أساسه أن المستوى الجديد صحيح ومطابق . وإذن فمن الواجب  
تمييز الاستدلال من الخيال مثلما يتميز التقرير الموثوق به من مجرد الإيحاء .  
ويستطيع المرء أن يلح في عامل الاعتقاد أو التصديق الذي أدخل هنا ،  
والذي يلعب أيضا دورا في نظرية الحكم ، وفي الاستقراء ، والاحتمال ،  
ذلك العامل الذاتي المتضمن في نظرية هيوم ، والذي هو في نظرية  
هيبوس من الأسس الهامة لهذه الأشكال المنطقية ، وإن لم يكن له دور  
حاسم في تأكيد صحتها الموضوعية . فهمة الفكر في الاستدلال هي الربط  
بين المعطى على النحو الكفيل بمد معرفتنا به إلى حقيقة أخرى غير معطاة .  
والمصادرة الوحيدة التي ينبغي أن يسلم بها الفكر هنا هي أن الواقع هو  
بالفعل نسق ترتبط أجزاءه فيما بينها بالضرورة . وهكذا فإن نشاط العقل  
إنما يكون في الجمع والتنظيم . ولقد كانت مناقشة هيبوس حتى الآن  
تفترض صحة الفكر . وهكذا فإنه يتناول في القسم الأخير من بحثه المنطقي  
مسألة تبرير ادعاء الصحة هذا في الفكر .

وفي هذا القسم يصل ابتعاد هيبوس عن الأساس التجريبي لمذهبه إلى  
أقصى مداه ، ويعترف بكتلتا يديه من نبع الفكر المثالي ، الذي نقله أتباع  
كانت وهيجل إلى إنجلترا . وإن هذه الحقيقة لتشهد على قوة الحركة المثالية  
وخصبها شهادة أقوى مما يشهد بها ذلك العدد من مريديها وتلاميذها الطيبين  
الذين اتخذوا وجهة النظر المثالية لأنهم وجدوها مهدئة لنفوسهم ، أو حافزة  
على استخدام عبارات فخمة رنانة ، أو دعامة لإيمانهم المزعزع ، أكثر مما  
اتخذوها لأنها قوة دافعة خلاقة لإحياء الفلسفة .

فإننا يتضح لهيبوس أن المذهب الحسي القائل بالانفصال المطلق ينتهي  
إلى اللاواقع والوهم ، ويتخلى على نحو قاطع عن كل نزعة شكاكية بائسة  
وكل لا أدريه مستسلمة ، وهما النزعتان اللتان طالما افتخر بهما المفكرون

الذين تخرجوا في معسكر العلم الطبيعي ، ويرسم أخيرا حدا فاصلا يستبعد منه المذهب الحدسي ، الذي يكون الوضوح الذاتي لقضية واحدة كافيا في نظره لضمان حقيقتها بل إنه ، على العكس من ذلك ، يرى أن صحة الحكم لا يمكن أن تنحصر في كونه معطى بوصفه واضحا بذاته مباشرة ، فلا يمكن أن يدعى الحكم المنعزل ، المنفصل عن مضمون الفكر ، لنفسه أية صحة نهائية ، وإنما تكون هذه الصحة مؤقتة ، يثبتها السياق فحسب . وكما أن الواقعة المنعزلة لا تكون لها قيمة معرفية ، فكذلك يقف الحكم المنعزل في الجانب الآخر من الحدود التي تقع من ورائها الحقيقة واللاحقيقة معا . وعليه أن ينتظر تأكيد الأحكام الأخرى له ، ولا يجد حقيقته الكاملة إلا في نسق المعرفة الكاملة . والحد الأدنى اللازم لإثبات الصحة هو ذلك الذي يؤلفه حكمان يؤيد كل منهما الآخر ويؤكدده . غير أن الإثبات النهائي لصحة الحكم إنما يكون في الارتباط المنهجي المتبادل بين جميع أجزاء الكل فيما بينها ، ومع الكل الذي تشير هذه الأجزاء إليه ، والذي تجد دعائمتها فيه . فحقيقة الحكم هي الكل ، وهي تشبه ديمقراطية لا فضل فيها لأحد على غيره ، وإنما ترتبط قيمة كل فرد واحد وحقيقته ارتباطا لا ينقسم بصالح المجموع ، الذي يتوقف بدوره على مدى صلاحية كل فرد على حدة . ويستخدم هبهوس لفظ « التلاؤم Consilience » ، ليدل به على الاعتماد والارتباط والتأييد المتبادل للأجزاء الفردية في الكل المعرفي ، وعلاقتها الضرورية بالنسق الكلي ، وهذا في نظره هو المعيار الحقيقي لكل حقيقة وصحة . وهدف المعرفة ، الذي يتحكم في غاية العلوم والفلسفة معا ، والذي تقترب منه هذه دون أن تبلغه أبدا على نحو كامل ، هو بلوغ ذلك الطابع الكلي الذي يكتمل بفضل التلاؤم التام لجميع أجزائها وأفرادها ، والنسق التام التنظيم لجميع الأحكام التي يؤيد بعضها بعضا ويؤكدده وبحققة . واسكن ، إذا لم يتحقق هذا ، فمن الواجب دائما أن تكون فكرة « التلاؤم » ، معيار لضبط كل معرفة منفصلة ، وكل بحث في ميدان خاص . فمن الواجب أن يضع المرء دائما نصب

عينه أن يرفع كل عنصر فردى مستقل إلى مستويات من التعميم أعلى دوماً ، عن طريق إقامة علاقات متبادلة بين هذه العناصر بحيث تزداد جذورها تأصلاً في السكل المنظم للمعرفة . وإن ماهية كل تفكير وبحث بشرى ، سواء في العلوم الخاصة وفي النظرة الفلسفية الجامعة ، لا تكون في الانعزال والاكتمال ، وإنما هي دائماً نمو عن طريق المزيد من التلاؤم والترابط . ومهمة العقل ، أو على حد تعبير هبوس ، الدافع العقلي في الإنسان ، إنما تكون في ربط المعارف المفردة والتجارب المنعزلة في تركيب فكري منظم شامل ، بحيث يكون الهدف هو ذلك الانسجام العقلي الذي يجد فيه سعى الذهن البشرى غايته وطمأنينته . كذلك لا يستطيع الخطأ أن يرغم هذا الدافع العقلي على الانحراف عن طريقه ، إذ أن الخطأ بدوره ليس ، من حيث المبدأ ، بمنأى عن عالم العقل ، وإنما هو حقيقة جزئية ، أى مرحلة ضرورية في التنظيم المنهجي للمعرفة ؛ وإن نفس هذا النقص والقصور الذي يشوبه ، إنما هو الذي يحفز الإنسان على تجديد أبحاثه على الدوام ، وإعادة النظر فيما سبق أن قبّله من النتائج . ولا شك أن فلسفة هبوس ، باتخاذها هذه المواقف ، قد وسّعت الهوة الفاصلة بينها وبين نقطة بدايتها التجريبية إلى أقصى حد ممكن ، وبدأ أنها تزداد بالتدرج اقتراباً من نظرية الحقيقة عند الفلاسفة الهيجليين الإنجليز ، كما قال بها على الأخص برادلى وتليذه جويكم .

ومع ذلك فهناك في الوقت ذاته فارق مميز واضح بين هبوس والهيجليين . فقد كان في غنى عن « المطلق » عند برادلى ، الذي هو مبدأ معتزل متوَّج بسمو وقور فوق الكثرة المتنوعة للعالم الظاهري بما فيه من أوهام ومتناقضات . وهكذا قضى على صرامة مبدأ برادلى وثباته ، وأذابه في الحركة الحية لعملية رأى أنها تقدم أصيل نحو تأليف وتركيب منظم

يزداد علوا على الدوام ( وإن لم يكن ذلك على نسق الديالكتيك الهيجلى ) ، هدفها هو بلوغ الحقيقة الكلية ، بحيث كان هبهوس التجريبي ، فى هذه المسألة ، أقرب إلى مقصد هيجل الحقيقى من برادلى الهيجلى . ولقد توصل إلى هذه النتيجة بإدماج فكرة التطور مع فكرة التلاؤم - وهنا نصل إلى ملتقى طرق هام فى فلسفته - وبذلك وحد بين المبدأين الأساسيين لتفكيره . فصحة معرفتنا تزداد كلما ازدادت تكشفنا داخل العلم الكامل ، وهى تقترب من الحقيقة المنهجية الكاملة بالقدر الذى تزداد فيه ، أثناء تقدمها ، علوا بفضل التلاؤم . وبهذا تصبح الحقيقة حاضرة فى المعرفة المتقدمة خلال التطور ، الذى هو الواسطة فى نموها حتى الاكتمال . وهكذا تتخذ فلسفة هبهوس مظهر اندماج مطبق بطريقة واقعية ، بين عناصر من المذهب المطلق وعناصر من مذهب التطور ، مع اتخاذ التجريدية نقطة بداية لها .

فإذا انتقلنا من نظرية المعرفة إلى الميتافيزيقا عند هبهوس ، للاحظنا هنا أيضا كيف تحكمت المثالية فى الأساس التجريبي والواقعي وعدّته فى نقاط أساسية . ويتضح ذلك بوجه خاص فى تخفيف المثالية لحدة النزعة الطبيعية المادية فى تفكير هبهوس ، بما جعل له أساسا يختلف تماما عن أسس مذاهب القرن التاسع عشر ذات الطابع العلمى ، وهى المذاهب التى ظهر مذهب هبهوس فى ظلها فى البداية . ذلك لأن دراسات هبهوس الواسعة فى النمو التاريخى للذهن ، كما عرضها فى كتابه «الذهن فى تطوره» ، قد امكنته عند وقت مبكر ، بناء على أبحاث تجريدية دقيقة ، بأن الذهن ليس مجرد ظاهرة ثانوية أو مصاحبة لحوادث مادية ، وإنما هو عنصر له أكبر قدر من الدلالة والأهمية فى مجموع العالم الواقعي . وبعد أن دعمت أسس دراساته الخاصة بفضل تعاليم المثاليين ، أصبح يعترف بالمبدأ الروحى فى العالم ، بوصفه عالما مستقلا قائما بذاته ، لا مجرد عامل مستمد من المادة .

كما اعترف من جهة أخرى بأن « الحقيقة Reality » بما هي كذلك ليست « روحية »، وإنما هناك في مقابل عنصر « الروح »، أو الذهنية Mentality، عنصر غير روحي يسميه بالمبدأ الآلي . وهكذا فالذهن ليس سيد الأشياء جميعا ، كما أنه ليس من جهة أخرى ناجما عرضيا لقوى آلية ، وليس مطلقا ولا ثانويا ، وإنما هو قوة دافعة عضوية تضفي النظام على العناصر المختلطة المتنافرة ، وتبعث في العملية الكونية وحدة وانسجاما . والمعيار الرئيسي لكل نشاط روحي أو ذهني إنما يكون في الغرضية العاقلة . فالمبدأ الغائي يأخذ مكانه إلى جانب المبدأ الآلي ، بحيث يشمل كل منهما الآخر ويفترضه مقدما ، ويكشف كل منهما عن الحقيقة في وجه خاص من أوجهها . وهكذا فإن الفكرة الرئيسية في ميتافيزيقا هبوس إنما تكون في هذا التفسير للحقيقة على أنها ليست آلية فحسب ولا غائية فقط ، وإنما هي الاثنان معا ، أي على أنها عملية نمو تقوم فيها بين المبدأين علاقة تبادلية وثيقة ، ويكونان متداخلين interwoven ، إن جاز هذا التعبير <sup>(١)</sup> .

على أن التجربة تدلنا على أنه يوجد ، إلى جانب المبدأين الآلي والغائي ، مبدأ ثالث يساهم في تفسير الظواهر ، هو المبدأ العضوي . والمقصود بالكائن العضوي وحدة تتحكم أجزاؤها أو أعضاؤها بعضها في البعض ، ويكون الكل والأجزاء فيها متضايفين بدقة . وقد تبين لنا من قبل أن نسق المعرفة إنما هو تركيب عضوي كهذا ، كما تكشف لنا الميتافيزيقا الآن أن نسق الواقع هو أيضاً كذلك ، فتكون النتيجة انسجاما أو تطابقا تاما بين النسقين . فالواقع إذا ما تأملته في مجموعه كان نسقا عضويا لا يقضى فيه على استقلال العناصر ووظيفتها المحدودة داخل الكل ، على الرغم من الاعتماد المتبادل

(١) هذا هو اللفظ الذي استخدمه جنزبرج Ginsberg ، الذي قام بجهد كبير

لتفسير تعاليم هبوس وشرحها .

لأجزائه بعضها على البعض ، والعلاقة المتبادلة بين الأجزاء وبين الكل ، وإنما يُحفظ هذا الاستقلال بفضل الوحدة التي تتجاوز هذه العناصر وتشتمل عليها . فلا يمكن أن يكون في الواقع جزء منفصل تماما عن بقية الأجزاء — وهذا يعنى بتعبير آخر أنه لا يمكن أن يوجد عنصر غير معقول تماما . ومن الواضح أن مذهب هبوس يتبدى ، من وجهة النظر هذه ، مثلما يتبدى في نواح أخرى عديدة ، على أنه مذهب متمسك بالمعقولة ، بل هو واحد من أروع مظاهر هذا الأسلوب في التفكير في الفترة الأخيرة . فهو في كل خطوة يوطد مكانة المبدأ العاقل في التفكير وفي الوجود ، في مقابل الميول اللامعقولة المتعددة في عصره ، ويدافع عن نفسه ضد الأمراض الفلسفية التي شاعت عندئذ ، والتي تظعن في العقل وتضع محله بديلا لا عقليا كالغريزة أو الحدس .

ولنلاحظ أن المقولتين الآلية والغائية ، وهما المقولتان الأوليان من بين المقولات الأساسية الثلاث التي تفسر بواسطتها الحقيقة ، هما قوتان ميتافيزيقتان تتقابلان وتتعارضان بشدة . فالآلية ، التي هي المسيطرة في الأصل ، هي القوة التي لا تعرف تنوعا ، والتي تكون مختلطة ومضطربة ، تتداخل فيها الطاقات ويقضى بعضها على البعض ، لأن عدم وجود صلة بينها يجعل من المستحيل أن يقدم بعضها إلى البعض الآخر معونة متبادلة . غير أن هناك منذ البداية عنصرا ذهنيا تنطوى عليه كل ذرة من المادة ، يزداد تأثيره كلما ازداد النظام والارتباط والانسجام في القوى الآلية : وعندما يبلغ النمو مرحلة أعلى ، يزداد توحد هذه القوى في ترتيبات وتجمعات تبعا لقوانين وغايات عقلية . ويتم التطور بتقهقر العوامل الآلية دوما إلى الوراء ، كلما امتد باستمرار زحف العناصر الغرضية المؤدية إلى إقرار النظام . وهدفه هو ذلك النسق المنسجم الذي تكون المهمة الغائية للذهن إيجاده بمعنى الزمن . وهكذا فالذهن ( أو الروح )

المنتشر في الكون يعمل دواما على بعث الانسجام في العناصر المتعارضة ،  
 مهما كان ببطء وتدرج المراحل التي يعمل بها .

أما المقولة الأساسية الثالثة ، أي العضوية ، فقد عرفها هبوس  
 على نحو أقل دقة بكثير من المقولتين الآخرين . وهو يرى على أية حال أنها  
 أقرب إلى مقولة الغرضية منها إلى مقولة الآلية ، وإن كانت تقبل الانطباق  
 على كليهما معا . غير أنها لا تنطبق على الكون في مجموعه ، إذ أن الكون  
 لا يمكن أن يفسر إلا غائيا . وتبلغ ميتافيزيقا هبوس قمتها في نظريته  
 إلى الكون على أنه غائية مشروطة ، من حيث أن مبدأ الغرضية لا يمكن  
 أن يبلغ غايته أبدا ، وإنما يقف دائما في تضاد مع العناصر المتنافرة للمادة  
 الآلية . ولم يستطع هبوس أبدا أن يصل إلى إيضاح نهائي للعلاقة بين  
 العضوى والغائى . ولنلاحظ مدى تحول التجريدية إلى الإفراط في النظر  
 العقلى الخالص في فلسفة هبوس ، ومدى ابتعاد هذه التأملات الرفيعة  
 التحليق عن الأساس التجريبي الواسع الذى هو أصلها . وهذا مثل آخر  
 للتأثير الهام الذى مارسه المثالية ذات الطابع الهيجلى ، التى أضفت على  
 الفكر الإنجليزى طابعا يتسم باتساع النطاق وعمومية النظرة على نحو  
 ازدياد جرأة وسموا عما كان موجودا من قبل بكثير .

أما الأخلاق عند هبوس ، التى عرض وجهها الأقرب إلى الطابع  
 التجريبي فى كتابه ، الأخلاق فى تطورها ، ووجهها الأقرب إلى الطابع  
 الفلسفى فى الخير المعقول ، . فتتفق فى جميع النقاط الأساسية مع المبدأ  
 الأساسى لفلسفته . فهو هنا أيضا يبدأ بتقديم بيان عن التطور التاريخى  
 لمقائع الأخلاق مبنى على استقصاء تجريبي واسع النطاق ، أعنى نوعا من  
 تعقب ، نسب الأخلاق ، ، ثم ينتقل إلى تفسيره الفلسفى الخاص لهذه  
 المادة التجريدية . وهنا أيضا تكون النتيجة النهائية أخلاقا عقلية ،  
 لا تجريدية . مهمتها إيضاح وظيفية العقل فى مجال السلوك العملى . وهو هنا

أيضا يرد على الجملة على المعقولة ، ويقف في وجه تيارات اللامعقولة التي ترى أن الدوافع الوحيدة لسلوكنا إنما تكون في الاندفاع الغريزي ، وفي الشعور ، وفي العاطفة . وهو يبين أن العناصر العقلية ، كالغرض والتفكير المتدبر ، تلعب دوراً لا يقل عن دور الشعور الغريزي الأعمى ، إن لم يفقه بالفعل . فالتفكير الواضح لا يقل ضرورة في السلوك عن الشعور الصحيح . وأقل البشر حساسية لا يتجه إلى الفعل بحكم الاندفاع الغريزي وحده فحسب ، . ومضلا عن ذلك فإنه لا يميل إلى وضع تضاد شديد بين عالم الشعور وعالم الفكر ؛ فأصل الاثنين واحد - وهو الطبيعة البشرية - ومن المحال فصلهما إلا بتجريد مصطنع . وهو يرى بوادر المعقولة الأخلاقية حتى في ذلك السلوك الواعي الهادف الذي يتمثل في أدنى مراحل الحياة الأخلاقية مثلما يتمثل في أعلاها . ووظيفة العقل العملي تسير في طريق مواز تماماً لطريق العقل النظري ، إذ أنه على حين يهتم الأخير بربط الوقائع والادراكات المنفصلة عن طريق التلاؤم الكامل لنسق منسجم ، فإن مهمة الأول هي توحيد دوافع ونوازع واتجاهات منفردة في الكل المنسجم للشعور . وهنا أيضا يستحيل أن يظل العنصر الواحد - أي النزوع الواحد في هذه الحالة - منعزلاً ، وإنما يشير إلى خارج ذاته متجهاً إلى إدماج ذاته في الكل الأعلى الذي هو جزء منه . وهكذا تكون مهمة الإرادة هي القيام بتأليف بين الاتجاهات الإرادية المنفردة ، مثلما تكون مهمة هذه الاتجاهات هي توحيد النوازع المنفردة . وفي كل هذه المراحل يوجد عنصر عقلي يلعب دوره ، ويتمثل آخر الأمر بوصفه « الخير » . وكما أن الإيمان بانتصار الحقيقة وسيادة العقل قد أدى إلى النزعة العقلية في المجال النظري ، فكذلك يؤدي الاعتقاد بالقُدرة الشاملة للخير إلى التفاؤل في المجال العملي . وفي كلا المجالين تمدنا فكرة الخير بالقوة الدافعة التي تحقق بها المعقولة ذاتها على مستويات تتزايد علواً ، وتساعد على انتصار الحقيقة في ميدان المعرفة والخير في ميدان



السلوك . أما التحقق الكامل للخير فليس أكثر إمكانا من التحقق الكامل للحق ، غير أن السعى وراءه يظل مستمرا على الدوام ، شأنه شأن التقدم الموازي الذى لا ينقطع للمعرفة . وهكذا فإن مبدأ المعقولة يطبق فى الأخلاق ، مثلما يطبق فى العلم ، بوصفه النزوع الدائم للتجدد نحو انسجام مكتمل ، لا بوصفه البلوغ النهائى لهذا الهدف .

وقد أمد هبوس أخلاق الانسجام هذه بعناصر من النظريتين التجريبية والمثالية ، مثلما فعل فى نظرية المعرفة والميتافيزيقا . وقد أشار هو ذاته إلى أن موقفه هذا مرتبط ارتباطا وثيقا بمبادئ مذهب المنفعة عند مل من جهة ، وبالمثالية الأخلاقية عند جرين من جهة أخرى . ففكرة الانسجام تتفق مع مذهب المنفعة بقدر ما تكون السعادة العامة عنصرا أساسيا متضمنا فيها . ومن جهة أخرى يقر هبوس نقد جرين لمذهب اللذة فى تحليله النفسانى لمنابع السلوك ، وينزع عن مذهب المنفعة طابع التركيز حول اللذة ، ويتحول مبدأ تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس إلى مصادرة الكل الاجتماعى المنسجم . وليس من واجبنا أن نخوض هنا تفاصيل نقط التقاء هبوس بالأخلاق المثالية . غير أن النقطة التى انحرفت فيها الأخلاق عند هبوس انحرافا واضحا عن الأخلاق عند جرين أو كانت ، هى القول بأنه ليس من الواجب النظر إلى العقل العملى على أنه يخلق بعيدا فوق حياة الشعور والنزوع ، ولا من الواجب النظر إلى هذين الأخيرين على أنهما كم مهمل ، بل ينبغى إدراجهما أو ضمهما على نحو ما فى مركب الخير العقلى .

أما النظرية السياسية عند هبوس فهى خارجة عن مذهبه إلى حد ما ، بقدر ما كان فى هذا الميدان يحدد نفسه عن وعى وقصد من هجوم الأفكار المثالية ، بحيث أنه يلتزم هنا حدود التراث القومى تماما ؛ أى أنه يمثل بكل وضوح الفكرة الليبرالية الديمقراطية الفردية عن الدولة كما نجدها فى المذهب

الذى يمتد في تيار واحد متصل من لوك إلى مل . ولكن من رأي أن أفكاره في هذا الموضوع ينبغي ألا تعزى إليها نفس المسكاة التي تعزى إلى الأجزاء الأخرى من تعاليمه : إذ أن نظرية هبهوس السياسية ، كما عرضها في كتابه الذي كان جدليا في أساسه ، النظرية الميتافيزيقية للدولة ، لا تتبع من الدراسة العلمية الموضوعية التي تميز بقية أعماله ، وإنما من جو الحرب العالمية المسموم المفعم بالكراهية ، وهو الجو الذي فرض تأثيره حتى على مفكر له من الحكم المتزن الموضوعي ما كان لهبهوس . فهو لم ير في نظرية الدولة عند هيجل — وهي النظرية التي أحيها جرين في أعماله على التربة الإنجليزية ، ولكن بحماسة فائرة . وأحيها بوزانكيت على نحو أدق وأشد حماسة — سوى أنها أدت إلى تكوين تلك العقلية الرجعية التي أدت ( في رأيه ) ، من خلال سياسة القوة التي اتبعها بسمارك ، إلى النزعة العسكرية الألمانية وإلى الحرب العالمية . فالدولة المطلقة عند هيجل لا تعنى ، في نظر هبهوس ، خرق حرية الفرد واستقلاله فحسب ، وإنما تعنى إخضاع الأخلاق للسياسة ، مما يؤدي إلى إلغاء الروابط الأخلاقية بين الشعوب وإحلال القوة السافرة محل الحق . وعلى العكس من ذلك يقول هبهوس بأن الفردية قيمة مطلقة عليا ، لا ينبغي أن تستنفدها الدولة دون باقى . فلا يمكن أن يكون تنظيم الدولة غاية في ذاته ، وإنما ينبغي أن يكون دائما وسيلة ، أى صورة واحدة من بين الصور العديدة الممكنة التي يتجمع بها البشر بحرية لكي يتمكنوا من تنمية إمكانياتهم وتحقيق التزاماتهم الأخلاقية . والفرد وحده هو الذى ينبغي أن يعد غاية في ذاته ، أما جميع صور المجتمع — ولا سيما الدولة — فيجب أن تستهدف رخاء الأفراد ومصالحهم . والدولة مسئولة أخلاقيا أمام الدول الأخرى ، مثلما يكون الفرد مسئولا إزاء الآخرين ، وليس في وسع أية نظرية أن تعفيها من هذه المسئولية . وهنا نرى نوعا واضحا من الليبرالية البورجوازية ، التي تدافع عن نفسها ضد اكتتال سلطة الدولة ، لأنها تشعر بأن الأخيرة تهدد

حريتها . وهو يتخلى في هجومه على الهيكلية عن كل إنصاف وموضوعية ، وهكذا فإنه بدلا من أن يتعمق مفهوم الدولة عند هيجل ، يزر كش صفحاته بعبارات وحجج مقتطعة من سياقها ، ومتولدة عن حرارة اللحظة وانفعالها فحسب . والأكثر من ذلك مدعاة للأسف أنه اتخذ مثل هذه الحجج وسيلة لإثبات نظريته الخاصة في الدولة ، مع أن جزءاً غير قليل من مصادر قوته إنما يرجع إلى نفس تلك المثالية التي ناصبها هذا العداء المرير .

وهناك أخيراً ميدان علم الاجتماع ، الذي كانت دراسات هبوس الشاملة فيه أخصب وأكثر إيجابية في نتيجتها . وهو هنا أيضاً يجمع بين دقة المتخصص وبصيرة الفيلسوف ، ويستمد وجهات النظر التي يصوغ منها مبادئه العامة من دراسة واسعة واسعة للوقائع . ولقد كان حرصا على أن يجعل فكرة التطور ، وهي الفكرة التي تنساب كجري في جوف الأرض في جميع أجزاء فلسفته ، تأتي ثمارها في ميدان علم الاجتماع أيضا . ولكن لم تكن المسألة بالنسبة إلى هبوس مجرد اقتباس أفكار كتلك التي تستمد من نظرية دارون البيولوجية في الصراع من أجل البقاء ، وإنما أدرك قبل كثير غيره أن المناهج ووجهات النظر البيولوجية لا يمكن أن تنقل بنجاح إلى مجال العلاقات الاجتماعية دون اختبار نقدي لها ، وإنما لابد أن تدخل على مبدأ التطور تعديلات عديدة دقيقة ، تبعا للميدان الذي يطبق فيه . فما يصح على حياة النباتات والحيوانات لا يصح دون تحفظ على المجتمع البشرى . فما الذي يعنيه التطور في الحياة الاجتماعية ؟ إنه قطعاً لا يعنى مجرد الصراع من أجل البقاء ، ولا يعنى بقاء الأقوى اجتماعيا على حساب الأضعف اجتماعيا . وإنما تحل الغرضية العاقلة ، على مستوى الكائنات التي وهبت عقلا ، محل الاتفاق اللامعقول الذي يسود الطبيعة ، وهذا يبين لنا أن التطور الأعلى للبشرية لا يتحقق بصراع الكل ضد الكل ، وإنما ، على العكس من ذلك ، يتحقق بتنظيم المساعدة المتبادلة . وبالتحالف

الفعال بين الأفراد . وأعلى أنواع المجتمع هي تلك التي يحل فيها محل حرب الكل ضد الكل ، تعاون إيجابي بين الجميع في الحرب ضد القوى المعادية . والمعنى الرئيسى للتقدم هو التحقق المتزايد لمثل هذا التعاون . ويستطيع المرء أن يلمح في فكرة التعاون هذه ، التي تصبح « لحنا مميزاً » ، لعلم الاجتماع عند هبوس ، ذلك التلاؤم الذى يجعل أفراد أى كل - سواء أكان ذلك الكل فرعاً علمياً أم مذهباً فلسفياً أم طائفة اجتماعية - يعملون على مساعدة بعضهم البعض والرجوع إلى بعضهم البعض ، ولا يحققون وجودهم الصحيح إلا فى مثل هذا الارتباط المتبادل . وهكذا فإن الفروع المنفردة فى مذهب هبوس ترتبط فيما بينها ، تبعاً لمفهومها الأساسى الموحد ، فى مذهب فلسفى مكتمل - ولا أقول مكتملاً بمعنى أنه يوصد أبوابه فى وجه الوقائع ، وإنما هو متفتح للضغط الدائم للواد التجريبية التى تنتظر العمل الفلسفى ليضعها فى مكانها اللائق فى نسق المعرفة . وترتبط فكرة التلاؤم ارتباطاً وثيقاً بفكرة التطور ، بوصفها اللحن الأساسى الثانى فى مذهب هبوس . ورغم أن المرء لا يستطيع أن يفرط فى إزجاء المديح له نظراً إلى ما اتصف به الفلاسفة ذور الاتجاه الداروينى من انحرافات وأخطاء فى ميدان البيولوجيا ( وكان سبنسر أبرزهم فى ذلك بالتأكيد ) فلا بد أن نعترف له هنا بفضل إضفاء معنى مستقل على فكرة التطور ، يختلف تبعاً للرجال الذى نطبق فيه ، وبذلك خلصها من عقم وعشوائية التفكير من خلال إطارات خاوية ويدعى أنها تقدم منهجاً لتفسير كل ما فى العالم ، ورفعها إلى مرتبة مبدأ منهجى أصيل للبحث .

تذييل للفصل الثالث  
عن الوضعية الإنجليزىة  
التواريخ والكتابات الرئيسىة

---

- ١٨٤٣ : كتاب جون ستورت مل : « مذهب فى المنطق »  
"System of Logic".
- ١٨٤٥-٦ : كتاب ج . ه . لىويس . تاريخ الفلسفة من خلال سير  
الفلاسفة Biographical Hist of Philosophy .
- ١٨٤٩ : زيارة كونجريف Congreve الأولى لكونت فى باريس .
- ١٨٥٣ : كتاب لىويس : « فلسفة العلوم الوضعية عند كونت » .
- ١٨٥٣ : هارىت مارتينو : « الفلسفة الوضعية عند أوجست كونت »  
ترجمة فيها تصرف وتركيز ، ( الطبعة الثالثة ، فى ثلاثة  
مجلدات ، ١٨٩٦ ) .
- ١٨٥٤ : زيارة كونجريف الثانية لكونت .
- ١٨٥٥ : زيارة هارىسون لكونت .
- ١٨٥٨ : كتاب كونجريف : « ترجمة صلوات الديانة الوضعية-  
وأدعيتها » .
- ١٨٦٤ : مقال سبنسر : « أسباب الخلاف مع فلسفة أ . كونت » .  
Reasons for dissenting from the Phil. of A. Comte  
( فى كتاب مقالات علمية وسياسية وتأملىة نظرىة  
( المجلد الثانى ) .
- "Essays, Scientific, Political and Speculative".

(٢٠٤)

١٨٦٥ : كتاب بريدجز : « نظرة كونت العامة إلى الوضعية

«Comte's General View of Postivism .

١٨٦٥ : كتاب جون استوارت مل : أوجست كونت والوضعية

A. Comte & Positivism.

١٨٦٦ : كتاب بريدجز : « وحدة حياة كونت ومذهبه ، رد على

جون استوارت مل .

The Unity of Comte's Life and Doctrine, a  
Reply to J. S. Mill.

١٨٦٧ : قيام كونجريف بإنشاء الجمعية الوضعية بلندن (مكان الانعقاد

ابتداء من ١٨٧٠ هو شارع «تشابل Chapel St. » ) .

١٨٦٩ : مقال توماس هكسلي : « الأوجه العلمية للمذهب الوضعي

The Scientific Aspects of Positivism ( في مجلة

«Fortnightly Review » ) .

١٨٧٠ - ١٩٠٠ : كونجريف : « مقالات سياسية واجتماعية ودينية

« Essays, Political, Social & Religious

( في ثلاثة مجلدات ) .

١٨٧٥ - ١٨٧٩ : « مذهب الفلسفة الوضعية لأوجست كونت »

ترجمة بريدجز وهاريسون ويسلي وكونجريف .

١٨٧٨ : انشقاق الحركة إلى جماعتى كونجريف ( شارع «تشابل » )

وهاريسون ( قاعة نيوتن فيما بعد ) .

١٨٨٢ : افتتاح لافيت Laffite لقاعة نيوتن Newton Hall .

١٨٨٢ : كتاب بريدجز « خمسة مقالات في الدين الوضعي

Five Discourses on Positive Religion.

( ٢٠٥ )

١٨٨٥ : كتاب ا. كيرد Caird : « فلسفة ككونت الاجتماعية :

وعقيدته The Social Phil. & Religion of Comte .

١٨٨٧٠ : ج كوتر موريسون J. Cotter Morison : « صلاق

الإنسان The Service of Mnn .

١٨٩٢ : « التقويم الجديد للعظماء The New Calendar of Gre at Men .

نشرة هاريسون .

١٨٩٣ و ١٩٢٥ : « المجلة الوضعية The Positivist Review » ،

رئيس التحرير بيسلي Boesly ، ثم س . ه .

سويني Swinny ، وأخيرا ف . ج . جولد .

, F. J. Gold

١٨٩٩ : وفاة كونجريف .

١٩٠٦ : وفاة بريدجز .

١٩٠٧ : كتاب بريدجز : « مقالات وخطب Essays and

Addresses

١٩١٥ : وفاة بيسلي .

١٩١٦ : عودة اتحاد الجماعتين ( المكان : شارع تشابل ) .

١٩٢٣ : وفاة هاريسون .

---

إذا ما تركنا جانبا ذلك المؤثر الأجنبي الذي كانت له أكبر النتائج على  
الفكر الإنجليزي في القرن التاسع عشر — وهو المثالية الألمانية — فنـ  
المؤكد أنه ليس ثمت مذهب آخر كان له ذلك التأثير الباقي الذي كان للمذهب  
الوضعي عند أوجست كونت . ولكن هناك مع ذلك فارقا هاما بين مجال  
تأثير هاتين الحركتين الأجنبيتين فجمال تأثير المثالية كان هو الأوساط .

الأكاديمية : إذ كان أول الناس وأقوام تأثر بها هم الفلاسفة المحترفون ،  
الذين اتخذ تفكيرهم بفضلها اتجاهات جديدة . أما الوضعية فقد انتشرت  
بوجه خاص في الأوساط الثقافية العامة في ذلك العصر ، ولم يكن الفلاسفة  
المحترفون يحملون لها احتراماً كبيراً . وفضلاً عن ذلك فإن الوضعية تدین  
بالإتساع النسبي لنطاق تأثيرها إلى وجود تنظيمات دقيقة لها ، تمشياً مع روح  
كونت ، وبذلت مراكزها التنظيمية جهداً كبيراً في نشرها . ورغم ذلك  
فإن الحركة الوضعية الإنجليزية لا تنتمى إلى مجال الفلسفة بالمعنى الدقيق  
لهذه الكلمة . فمذهب كونت لم يعط التفكير الإنجليزي من القوة الدافعة  
ما أعطاه إياه مذهبها كانت وهيغل ، على النحو الذى كان كفيلاً بإدخال  
تطور هذا التفكير في مرحلة جديدة ، وإنما ظلت الوضعية ، حيثما وجدت  
قبولاً ، مقيدة بنفس الصورة التوكيدية الصارمة التى خلفها عليها مؤسسها .  
وقد أدى تحجرها في عقيدة مدونة على يد تلاميذ هذا الأستاذ - أو على  
الأصح مريديه - إلى ابتعادها كل البعد عما يقتضيه المذهب الفلسفى  
الأصيل من حيوية وقوة متدفقة . ومن هنا لم يكن من المستغرب ألا يكون  
هناك ، ضمن صفوف دعاة كونت في إنجلترا ، أى ذهن فلسفى من الطراز  
الأول ، وإنما كان هؤلاء قبل كل شىء متخصصين فى العلوم ، ورجال أدب ،  
وأشخاصاً من ذوى النوايا الطيبة الذين رأوا فى فلسفة كونت عقيدة جديدة  
أحسوا أن من واجبه نشرها فى زمنهم . وهكذا فإن الحركة الفلسفية  
فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ( وهى الفترة التى بلغ فيها نمو  
الوضعية وازدهارها مداه ) ، لم تستفد إلا قليلاً ، إن كانت قد استفادت  
شئنا على الإطلاق ، على الرغم من الحماسة الحقيقية والدعوة الصادقة  
لأنصارها ( وربما بسبب هذه الحماسة وتلك الدعوة ذاتها . ) فقد اقتسبت  
تعاليم كونت على أنها عقيدة ثابتة ، وحُفظت على هذا الأساس ، ولم  
يتجاوز الوضعيون أبداً نطاق التسييح بحمد أستاذهم وترديد كلماته المقدسة .



وإذن ، فالوضعية الإنجليزىة ليست مذهبا جديدا ، بل وليست تفريعا  
أو تكملة أو توسيعا جديدا لمذهب قديم ، وإنما هى مجرد نقل لجذور فلسفة  
كونت ، أو على الأصح عقيدته ، وإعادة زرعها فى تربة غريبة . ومن هنا  
فسوف نكتفى فيما يلى بافتراض أن محتوى المذهب معروف ، لأنه  
هو بعينه مذهب كونت ، ونقتصر على إيراد أهم تواريخ هذه الحركة ومراحلها .  
فمنذ العقد الخامس من القرن الماضى ، عندما بلغت مكانة كونت قمته ،  
ارتفعت بعض الأصوات الكبيرة تشير إلى الدلالة الفائقة الأهمية لهذا  
الفيلسوف . وطبيعى أن هذه الأصوات قد صدرت عن تلك المدرسة  
الفكرية التى كانت أقرب إلى مذهب كونت بفضل اشتراكها معه فى الأصل -  
أعنى المدرسة التجريبية . فالوضعية والتجريبية معا يرجعان فى أصلهما  
إلى هيوم ، بوصفه الأب الروحى لهما ، وقد قال كونت نفسه عن  
المفكر الاسكتلندى الكبير إنه الممهد الحقيقى لفلسفته . وهكذا فإن جون  
استوارت مل ، الذى كانت له مراسلات أدبية متصلة بكونت منذ  
عام ١٨٤١<sup>(١)</sup> ، قد تحدث فى كتابه « المنطق » ( ١٨٤٣ ) عن الفيلسوف  
الفرنسى بوصفه واحدا من أول المفكرين الأوربيين . كذلك أشار ج . ه .  
ليويس G. H. Lewes إلى مكانة كونت فى حركة الفلسفة الحديثة ، عندما  
أطلق عليه ، فى كتابه « تاريخ الفلسفة من خلال سير الفلاسفة  
Biographical Hist. of Philosophy » ( وهو كتاب كان واسع الانتشار ،  
ونشر لأول مرة فى ١٨٤٥ - ١٨٤٦ ) لقب أعظم المفكرين المحدثين ، وأسمى  
مذهبه تاج كل التطور الفلسفى الذى سبقه . وبعد بضع سنوات ألف ليويس ، الذى  
كان معجبا متحمسا بكونت ، كتابا خاصا عن « فلسفة العلوم الوضعية عند كونت » ،  
ودافع عن وجهة نظر كونت بوسائل أخرى . وعن طريقه اطلعت ( جورج

(١) انظر « رسائل غير منشورة إلى أوجست كونت » *Lettres inédites à*

Auguste Comte نشرها لوسيان لينى بريل ، ١٨٩٩ .

(إليوت) ، التي أصبحت زوجته فيما بعد ، على تعاليم كونت ؛ وقد كشفت رواياتها بوضوح عن تأثير كونت ، كما لاحظ الكثيرون . وفي نفس العام الذي ظهر فيه كتاب ليويس عن كونت ، نشرت « هاريت مارتينو Harriet Martineau ( ١٨٠٢ - ١٨٧١ ) ، شقيقه جيمس مارتينو ، الفيلسوف الديني ، ترجمة ، أو على الأصح سردا وتلخيصا ، لكتاب « دروس في الفلسفة الوضعية Cours de Phil. Positive » ، وهو تلخيص يعطى عن هذا الكتاب فكرة عامة لا بأس بها ، بفضل حسن اختياره للأجزاء التي عرضها . وقد قدم هذا الكتاب مؤلف كونت الأكبر إلى جمهرة القراء الإنجليز في صورة موجزة شاملة ، بعد تنقيته من كل المبالغات الزائفة ، وكانت الجهود المختصة التي بذلتها الأنسة مارتينو هي التي قدمت كونت فعلا إلى الانجليز ، ولفتت إليه أنظار جمهور أوسع . وقد سر كونت ذاته كثيرا بهذا العرض المحكم لمذهبه . وقد أعيدت ترجمة الكتاب إلى الفرنسية ، وكان له دوى كبير في فرنسا ذاتها ، حتى أنه ظل وقتا ما ينافس الكتاب الأصلي في شعبيته .

على أن هناك عاملا آخر كان له تأثير أهم في نشر أفكار كونت في إنجلترا ، هو الإعجاب الصادق الذي كان مل يشعر به نحو هذه الأفكار . ولم يكن من قبيل المصادقة أن دعا ستيرلنج إلى فلسفة هيغل بين الإنجليز وكأنه يدعو إلى إنجيل جديد ، ونبه مل في نفس العام ، بنفس القدر من التمجيد ، إلى شخصية كونت . كما حدث في هذا العام نفسه ( أى ١٨٦٥ ) أن نشر مل بين الجمهور نتيجة خلافه النقدي الكبير مع هاملتن الذي كان أكبر ممثلى المدرسة الاسكتلندية . فقد كان مل يتابع منذ البداية التطور الفكرى للفيلسوف الفرنسى باهتمام عظيم ، وقد اتصل به مباشرة في مراسلات مستفيضة ، بل لقد قدم إليه معونة مالية سخية في ظروف كان يمر فيها بضائقة مالية شديدة . وقد عرض موقفه من كونت بجميع

تفاصيله في كتابه «أوجست كونت والوضعية» ( ١٨٦٥ ) ، الذي أعلن فيه اتفاقه مع فلسفة كونت في سماتها الرئيسية ، وقبوله لمبدأ «الإنسانية» في عقيدة كونت ، ولكنه اتخذ موقف الرفض النقدي من الشعائر الغريبة في العقيدة الدينية الجديدة التي صيغ فيها هذا المبدأ في نوع من الإيمان الوضعي ، وكذلك من الاستسلام الساذج للسلطة والمبالغة في تأكيد الغيرية ، بما كان يهدد بالقضاء على وحدانية الفرد وحرية الفكر. لذلك رأى الوضعيون المتمسكون في كتاب مل هجومًا على المعنى الحقيقي لتعاليم كونت ؛ ودخل «بريدجز Bridges» المعركة بكتاب ألفه رداً على مل ، حاول فيه الدفاع عن وحدة مذهب كونت وحياته .

وبعد أن اكتسب اسم كونت قدراً معيناً من الشهرة في إنجلترا ازداد ظهور الانتقادات الموجهة إلى مذهبه . مثال ذلك أن مفكراً مثل سبنسر ، الذي كان باعترافه هو ذاته يدين بالكثير لكونت ، قد اتخذ في سلسلة من المقالات موقف الرفض تجاه أجزاء هامة من تعاليمه ( انظر بوجه خاص «أسباب الخلاف مع فلسفة كونت. *Reasons for dissenting from the Phil. of Comte* ( ١٨٦٤ ) ، وقد ورد هذا المقال في المجلد الثاني من كتاب «مقالات عليّة وسياسية وتأملية» ) . كذلك أصدر «هكسلي» بعض التصريحات التي كانت ذات طجة نقدية أشد . فأعلن أن الفلسفة النقدية عند كونت ليست خلواً من المعنى بالنسبة إلى العلم فحسب ، بل هي معادية للعلم ، ووضعها في هذا الصدد مع الكنيسة الكاثوليكية على مستوى واحد . وقد وصف مذهب كونت في عبارة موقفة ذاعت شهرتها إلى حد بعيد ، فقال إنها «كاثوليكية مطروحة منها المسيحية» ، وكان في ذلك يرد على صيغة «كونجريف» ، التي وصف فيها الوضعية بأنها ليست إلا «كاثوليكية مضافاً إليها العلم» .

وقد اشترك في الخلاف الناشب حول كونت مفكر آخر هو « جون رسكين John Ruskin »، فقد أعلن على صفحات كتابه « Fors Clavigera » ( الرسالة رقم ٦٧ ، ١٤ مايو ، ١٨٧٦ ) ، معارضته لهاريسون ، واحتج باسم الفن والجمال على عقيدة الآلات البخارية والمصانع ، وعلى الانجاء إلى التصنيع والإيمان المتمصب بالتقدم ، وغير ذلك من الأفكار التي كان الوضعيون في رأيهم دعائها . وقد دافع هاريسون عن نفسه دفاعاً رائعاً ضد مثل هذا الفهم السيئ ، الناشئ عن الجهل بكتابات كونت ، وذلك في مجلة « Fortnightly Review » ، عام ١٨٧٦ ، وكذلك على صفحات « Fors Clavigera » ، التي وضعها رسكين نفسه تحت تصرف ناقد ( أنظر ما كجي McGee ، حملة صليبية من أجل الإنسانية A Crusade for Humanity ، ١٩٣١ ، ص ٩٦ وما يليها ) . كذلك ظهر اختباران نقديان آخران لكونت ، من جانب آخر ، ظهرا معا سنة ١٨٨٥ : كان أحدهما من تأليف « جيمس مارتينو » ، الفيلسوف الديني ، الذي كرس فصلاً لبحث نقدي مفصل لكونت في المجلد الأول من كتاب « أنماط للنظرية الأخلاقية Types of Ethical Theory » . وفي هذا الفصل اعترف بإعجابه بالفيلسوف الفرنسي فن الأمور التفصيلية ، ولكنه رفض الوضعية منظوراً إليها في جملتها ، إذ لم يستطع التوفيق بينها وبين وجهة نظره المؤمنة بالآلوهية . أما الاختبار الثاني فقام به « إدوارد كيرد E. Caird » ، المفكر الهيجلي الذي نقد كونت من وجهة النظر المثالية في كتابه العميق « الفلسفة الاجتماعية والدين عند كونت

---

(١) جون رسكين ( ١٨١٩ — ١٩٠٠ ) كاتب وناقد في الإنجليزى ، له مؤلفات هامة في الفن الأوربي . كما اشتغل بالمسائل الاجتماعية ، وصدرت له مؤلفات ثورية تنحج على مظام العصر الصناعي . وعلى قدر نجاحه في الميدان الأول ، حتى أصبح الناقد الفني الأكبر عصره ، وأول أستاذ لكرسى الفنون في إنجلترا ( جامعة أكسفورد ) ، فقد أخفق في الميدان الثاني ، ولم تلق دعوته الاجتماعية ، رغم إخلاصها ، أية استجابة ، وربما كان ذلك راجعاً إلى المراطه في التحام مزاجه الرومانتيكى في حلوله المقترحة لمشكلات الاجتماعية [ المترجم ]

The Social Phil. & Religion of Comte، وبعد ذلك في كتاب «تطور الدين» ( The Evolution of Religion ) ، المجلد الأول ، الفصل ١٢ ، ( ١٨٩٣ ) . ورغم أن هذه الأصوات قد تبدو سلبية ، فإنها تشهد مع ذلك بالاهتمام الجدى الذى قوبلت به فلسفة كونت فى إنجلترا فى العقد السابع والثامن والتاسع من القرن الماضى .

ولقد كان مؤسس الحركة الوضعية فى إنجلترا ، والقوة الدافعة لها ، هو ريتشارد كونجريف Richard Congreve ( ١٨١٨ - ١٨٩٩ ) . فى أثناء عمله زميلاً فى كلية وادام Wadham بأكسفورد ، سافر إلى باريس عام ١٨٤٩ ، وتعرف إلى كونت شخصياً ، ثم زاره مرة ثانية عام ١٨٥٤ . ولقد بلغ من تأثير كونجريف بهذا التعارف أنه فرغ التخلّى عن عمله فى التدريس فى أكسفورد ، لى يكرس حياته بأسرها « لعقيدة الإنسانية » ، التى قال بها كونت . وفى عام ١٨٥٥ نزع إلى لندن ، وافتتح بهذه الخطوة الهامة الحركة الجديدة . وفى سنة ١٨٥٨ نشر ترجمة لكتاب ، شعائر العقيدة الوضعية Catéchisme positiviste ، - وهو العمل الذى حول فيه كونت تعاليمه الفلسفية إلى عقيدة وضعية . وكان كونجريف قد جمع من حوله فى بداية عام ١٨٥٠ ، وهو لا يزال زميلاً ومدرساً بكلية وادام ، مجموعة من الشبان الموهوبين فى هذه الكلية ، وأذاع بينهم روح فلسفة كونت . وشملت جماعة وادام هذه فردريك هاريسون ، وجون هنرى بريدجز وإدورد سبنسر بيسلى ، وأصبحت هذه الجماعة ، ومعها معها كونجريف ، نواة الحركة التالية . وبعد أن ترك الشبان الجامعة تشعبت طرقهم وقتاً ما فى البداية ، ولكنهم وجدوا أنفسهم بعد عدة سنوات منهمكين سواهم فى الدفاع عن قضية واحدة .

ولقد كان فريدريك هاريسون Frederic Harrison ( ١٨٣١ -

(١٩٢٣) من أروع شخصيات العصر الفكتورى . فقد كان شخصا له اهتمامات وقدرات متعددة إلى حد غريب ، وكان خبيرا في ميادين عديدة ، ترتبط على أنحاء شتى متفرقة بحياة عصره الأدبية والاجتماعية والسياسية ، وكانت له علاقات شخصية بجميع العقول الكبيرة في عصره تقريبا . وقد عمل في كل هذه المجالات على الإقلال من الخلافات وتخفيف حدة كل ما هو مفرط في الشدة أو التدقيق . وكان له ذهن صاف ، ترمس في النقد ، لماسحا يلتقط الأفكار الجديدة بسرعة ، كما كانت له مقدرة غريبة على التعبير الأدبي ، تمكن بفضلها من المساهمة فوراً في كل المسائل الهامة في عصره ، بحيث كان إدلاؤه بحكمه الصائب وخوضه المعمعة بشخصيته المتينة الصادقة ، كلما عرضت مسألة لها خطرهما ، كفيلا بإحداث تأثير كبير في المشكلة موضوع الخلاف . أما إنتاجه التأليني فلا يكاد يكون له حدود ، وهو يشمل موضوعات واسعة النطاق إلى حد هائل . وكان كل نوع من التعلم والتفقه المتخصص غريبا عنه ، بحيث كان إنتاجه الأدبي والعلمى كله يرجحاً بآدق معانى الكلمة ، إذ أنه ظل دائماً متفتح الذهن للشاغل والمسائل موضوع البحث بكل ما فيها من ثراء وامتلاء . وكان هدفه دائماً هو العمل على نصرة القضية الجديرة بالانتصار ، وتقويم ما هو معوج ، وإيضاح ما هو غامض ، وتخفيف حدة الخلافات . فهو الكاتب العالمى ، بالمعنى الصحيح ، والمثقف الأصيل ( Homme de lettres ) ، بالمعنى الذى حدده فولتير لهذه الكلمة . والحق أن تركيب ذهنه يبدو مشابهاً لتركيب ذهن فولتير في نواح عدة ، ولكن على مقياس أصغر بطبيعة الحال ، وعلى مستوى أقل ، وإن يكن يكشف في هذا المستوى المنخفض عن شمول في ثقافته يشبه شمول الثقافة عند فولتير ، وبراعة في التعبير اللفظى ، واتساع نطاق نشاطه الفعال وشدة . وربما كانت الناحية الوحيدة الى أظهر فيها هذا الرجل ، رغم مواهبه الرفيعة التى كانت

تؤهله للزعامة العقلية ، نوعا من ضيق الأفق ، هي إيمانه المتحمس بمذهب كونت الذى أصبح بالنسبة إليه معيارا ومرشدا فى الفكر والسلوك معا . ولكن حتى فى هذه الناحية ينبغى التمييز بينه وبين بقية الوضعيين ، إذ أن ذهنه كان من الامتلاء والاتساع بحيث رفض أن يقبل قضايا كونت على أنها تركيب عقيدى جامد متحجر ، بل نظر إليها على أنها أداة قياس واختبار ، فيها حركة وحياة . وهكذا فإنه أقل تلاميذ كونت من الإنجليز تعصبا ، وهو الوحيد الذى تمكن ، من بينهم ، من جعل مذهب كونت يشع حياة كاملة الامتلاء دون تعصب أو تحديد . ولم يبتعد حكمه عن السداد أحيانا إلا فى المسائل السياسية ، نتيجة لشدة تعلقه بأستاذه الفرنسى وإعجابه بكل ما هو فرنسى ، بحيث أدى به ذلك إلى إحجاف مصالح شعوب أخرى . وكما أنه دأب على رفع صوته محذرا من سياسة القوة والتوسع الاستعمارى التى اتبعها الإنجليز ، فكذلك احتج على انتهاك بروسيا الواضح لحرمة فرنسا فى حرب ١٨٧٠ - ١٨٧١ مطالبا كما فعل غيره من الوضعيين ، بتدخل إنجلترا إيجابيا لصالح فرنسا . وكذلك رأى ، بالنسبة إلى الحرب العالمية الأولى ، أن قضية الحق والإنسانية كلها ممثلة فى جانب الحلفاء ، ووافق على القضاء على الشعب الألمانى واستعباده ، مع أن هذا الشعب كان يحارب من أجل بقائه بشجاعة فائقة ، وبالقدر الذى يحتمه جشع الفرنسيين وكرهيتهم العمياء .

أما جون هنرى ريدجز John H Bridges (١٨٣٢-١٩٠٦) ، الذى ظهرت حماسته لتفكير كونت منذ كان طالبا فى « وادم » تحت تأثير كونجريف الطاغى ، فقد درس الطب بعد ذلك فى لندن ، ثم هاجر إلى أستراليا ، حيث مارس مهنة الطب زمنا ، وواصل ممارسة هذه المهنة أيضا بعد عودته إلى بلاده . ورغم ما كان يبذله من مجهود مخلص دائب فى ميدان الصحة العامة . فقد كانت مؤلفاته تمتد على نطاق عظيم الاتساع ، فشملت

موضوعات تاريخية وفلسفية وأدبية . ( مثال ذلك أنه كرس سنوات عدة لنشر كتاب روجر بيكن « المؤلف الأعظم Opus Majus ، في ثلاثة مجلدات ) . ولكن الأهم من ذلك كله أنه تحمس للدفاع ، بالكلمة المقروءة والمسكتوبة معا ، عن الوضعية ، ونشر تعاليم كونت . فنذ عام ١٨٦٥ ، أعد طبعة لجزء كبير من المجلد الأول من « مذهب في السياسة الوضعية Systeme de politique positive » ، وهو الكتاب الرئيسى الثانى لكونت ، فى ترجمة إنجليزية <sup>(١)</sup> ، تمت فى الأعوام ١٨٧٥ - ١٨٧٩ بفضل الجهود المتعاونة التى بذلها هو نفسه كما بذلها هاريسون وييسلى وكونجرىف . وكان قبل ذلك قد دافع عن « وحدة حياة كونت ومذهبه » ( ١٨٦٦ ) ضد هجوم مل ؛ ثم نشر بعد ذلك « خمس مقالات فى الدين الوضعى » ( ١٨٨٢ ) ، وسام بنصيب كبير فى « التقويم الجديد لعطاء الرجال New Calendar of Great Men » الذى نشره هاريسون فى ١٨٩٢ . فى هذا المؤلف الأخير وحده ، الذى كان نظيرا إنجليزيا لكتاب كونت « التقويم الوضعى Calendrier positiviste » ، أسهم بكتابة ١٦٤ سيرة . وبعد وفاته جمعت له « مقالات وخطب » ونشرت فى عام ١٩٠٧ . وكانت مواهب بريدجز ، من حيث هو مفكر ، تفوق مواهب هاريسون ، غير أنه كان ميالا إلى الدرس التأمل المتعمق ، مع سعة اطلاع كبيرة ، وكان يفتقر إلى الحماسة الإصلاحية والنشاط العملى الذى كان لدى هاريسون منه نصيب كبير .

أما إدوارد سبنسر بيسلى E. S. Beesly ( ١٨٣١ - ١٩١٥ ) وهو العضو الثالث فى الحلف ، فقد عمل ، بعد تخرجه فى الجامعة ، فى التدريس فترة ما ، وعين عام ١٨٦٠ أستاذا للتاريخ فى الكلية الجامعية ( يونيفرسى

---

(١) عنوانها « نظرة كونت العامة إلى الوضعية » Gomte's General View of Positivism



كوليدج University College « بلندن . وقد وجه نشاطه الأكبر لمكافحة الظلم الواقع على الطبقات الاجتماعية الضعيفة . فقد كان يمثل ، لصالحهم ، قضية الحق العام والعدالة الاجتماعية بحماسة المصلح الصادق ، وذلك في محاضراته وكتيباته ومقالاته في المجلات . كذلك نشر بعض الأعمال الأدبية ، وقام بنصيب في نشر الطبعة الإنجليزية لكتابي « السياسة الوضعية » و « التقويم الوضعي » .

وهكذا فإن الحركة الوضعية نمت في إنجلترا من البذرة التي بذرت في « وادم كوليدج » . وكان مركز هذه الحركة هو « الجمعية الوضعية بلندن » التي أسست عام ١٧٦٧ ، على نمط الجمعية الوضعية التي أسسها كونت عام ١٨٤٨ . وفي عام ١٨٧٠ حصلت الجمعية على مبنى في شارع « تشابل » ( وهو شارع « كوندويت Conduit » عند « لام Lamb » ) ، وما زال هذا المبنى منتصفا إليها ، وسرعان ما تحول إلى معبد وضعي على الطريقة التي حددها كونت : فوضعت فيه تماثيل نصفية لعطاء الشخصيات ، وقديسي الإنسانية ، تمثل الشهور الثلاثة عشرة ، ووضعت أمام المبنى لوحة نقشتها عليها الصيغة المقدسة للوضعية .

« باسم الإنسانية ،

الحب هو المبدأ ،

والنظام هو الأساس ،

والتقدم هو الغاية

عش من أجل الغير ، عش متفتحا » .

وكانت تعقد هناك صلوات منتظمة لها صيغ محددة ، كما كانت تلقى أناشيد وخطب وضعية . وكانت تقام حفلات رسمية خاصة في أيام أعياد

الوضعية ، أى فى ذكرى مولد ككونت ووفاته ، لا تختلف كثيرا عن الاحتفالات الفرنسية الأصلية التى كانت هذه تقام على نمطها .

على أن تنظيم العبادة الدينية لم يكن يكون إلا جانبا واحدا من أوجه النشاط المتنوعة التى كان يقوم بها الوضعيون . فإلى جانب نشاطهم الأدبى الذى أشرنا إليه من قبل ، كان لهم أيضا تأثير فى الحركات التعليمية والاجتماعية والسياسية . فتكونت جماعات للشبيبة ، ونظمت دروس مسائية ، وكانت تبذل أحيانا محارلات لإنشاء نوع وضعى من التعليم المدرسى . وفى الميدان السياسى حاولوا اكتساب تأثير دائم بالاحتجاجات العلنية ، والخطابات المفتوحة إلى الحكومة ، والكتيبات إلخ ، وكانوا ينشرون هذه الكتابات عندما كان الأمر يستدعى اتخاذ قرارات حاسمة فى الداخل ، وفى الشؤون الخارجية على الأخص . وقد ارتبط نشاطهم بوجه خاص ، فى الناحية السياسية ، بقضية الحركة النقابية ، التى ساعدوا على إقرار الاعتراف القانونى بها . ومن الحركات الاجتماعية والسياسية الأخرى التى لعبوا فيها أدوارا كان لها نصيب متفاوت النجاح ، حركة تحرير المرأة ، والكفاح من أجل حرية أيرلندا ، ومعارضة سياسة القوة الاستعمارية ، وإلزامية التعليم ، والإصلاح النيابى .

ولقد اندمجت الجمعية الوضعية بلندن ، التى أنشئت فى شارع «تشابل» ، اندمجت منذ البداية فى الكيان الكامل للتنظيم الوضعى العالمى ، وهو التنظيم الذى بدأ عمله بعد وفاة كونت بوقت قصير ، متخذا من فرنسا مركزا له . وكان أول «كاهن أعظم للإنسانية» ، هو الفرنسي «بيير لافيت» Pierre Laffitte ، صديق كونت الحميم ، الذى تولى رئاسة الحركة بأمرها بعد وفاة مؤسسها ، والذى أصبح كونجريف وزملاؤه ، بالتالى ، مرءوسين له على أن الارتباط بالكنيسة الأم لم يكن ارتباطا وثيقا ،

بل كان قوامه دفع الاشتراكات للصندوق المركزي ، والتشابه في اللوائح وأوجه النشاط . وقد بدأت بعض الاختلافات في وجهات النظر تظهر داخل الجماعة الإنجليزىة ، لاسيما في مسألة إيجاد تنظيم مركز من نوع كنسى دقيق . ذلك لأن فكرة تحويل الحركة كلها إلى كنيسة كانت متسلطة على ذهن مؤسس الحركة الإنجليزىة ، وهو كونجريف ، الذى كان شخصية ذات طاقة هائلة وقوة فردية عظيمة . أما أنصار الحركة من الشبان فقد أرادوا الاكتفاء بصيغ وطقوس أقل دقة . ولهذا السبب ذاته نشب خلاف بين « لافيت » وكونجريف ، أدى فى النهاية إلى شقاق علنى ، وبالتالى إلى انفصال الجماعة الإنجليزىة عن المركز العام فى فرنسا . ولكن هذه الخطوة كانت لها نتيجة لا مفر منها ، هى حدوث انقسام فى صفوف الحركة الإنجليزىة ، إذ رفض الأعضاء الأصغر سنا مسيرة القائد نظرا إلى انشقاقه عن لافيت ، واحتفظوا باتصالهم مع المنظمة الفرنسية ودعموه ، ومن ثم فقد أنشأوا جماعة مستقلة تحت قيادة « لافيت » . ورغم ذلك كله ، فقد تمسك كونجريف بموقفه ، واستطاع أن يكسب تأييد جزء من الطائفة الوضعية ، وواصل إقامة الصلوات والمراسيم الدينية فى شارع « تشايل » . أما جماعة « لافيت » فقد انضم إليها بريدجز وهاريسون وويسلى ، وأصبح بريدجز أول رئيس « للهيئة الوضعية بلندن London Positivist Committee » التى أنشئت حديثا . وحدث ذلك الانقسام عام ١٨٧٨ . وفى عام ١٨٨٠ اعتزل بريدجز الرئاسة ، وحل محله هاريسون بشخصيته الذكية ، وظل يقود الجماعة حتى سنة ١٩٠٤ . وسرعان ما اتخذت الجماعة لنفسها دارا خاصة بها فى لندن ، أطلق عليها اسم « قاعة نيوتن Newton Hall » ، وافتتحها « لافيت » بنفسه فى أول مايو

وهكذا فنذ سنة ١٨٧٨ كانت هناك جماعتان وضعيتان مستقلتان في إنجلترا ، تستهدفان أساسا نفس الغايات وتقومان بنفس أنواع النشاط ، أصبحت إحداهما مكتفية بذاتها تماما ، بينما احتفظت الأخرى بعلاقات رسمية مع مركز الحركة في باريس ، وقدمت إليه معونات مالية . وسنطلق على أولى هاتين الجماعتين اسم جماعة كونجريف ، وعلى الثانية جماعة هاريسون ، وذلك تبعا لاسم رئيس كل منها . وتشترك الجماعتان في أنهما أظهرتا أعظم قوة وأكبر قدر من النمو في العقدين التاسع والآخر من القرن الماضي . وبحلول القرن الجديد طرأت عليهما عملية انحلال سريع لم يكن من الممكن إيقافها ، وأصاب الحركة كلها هزال ، وأخذت تضمحل رويدا رويدا . وأحرزت كلتا الجماعتين بعض النجاح في الأقاليم ، وإن يكن في معظم الأحيان بجاحا عابرا : فقد تكونت « خلايا » للوضعيين في ليفربول ومانشستر ، ونيوكاسل ، وبعض المدن الأخرى . غير أن الحركة ظلت أساسا مقتصرة على العاصمة وقد فقدت جماعة كونجريف قوتها الدافعة ب وفاة كونجريف عام ١٨٩٩ ، وأدى فقدان زعيمها إلى انحلالها . فخلفه هنرى كرومتون Henry Crompton ، ومن بعده الفرد هاجارد Alfred Haggard ، وهنرى دوسانز Henri Dussanze وفيليب توماس Philip Thomas ، ولكن لم يكن لواحد من هؤلاء تلك الصفات الممتازة التي كان يتصف بها المؤسس الإنجليزي الأول للوضعية . وأما جماعة هاريسون فقد أظهرت مزيدا من الحيوية ، وكان الفضل يرجع إليها في جمع ونشر « التقويم الجديد للعظماء » الذي أشرنا إليه من قبل . وفضلا عن ذلك فقد أسست الجماعة مجلة خاصة بها ، هي « المجلة الوضعية The Positivist Review » التي أنشئت سنة ١٨٩٣ ، وكان يشرف على نشرها أولا بيتسلي ، ثم س . ه . سويني S. H. Swinoy ، وأخيرا ف . ج . جولد F. J. Gould . وقد تخلى هاريسون عن رئاسة الجماعة عام ١٩٠٤ ، ولكنه ظل بعد ذلك يقدم تأييده إلى الجماعة ، بالمشورة والفعل ، وبالكلمة

المكتوبة والمنطوقة . واقد ظل حتى بعد تجاوز الثمانين ، بل حتى بلغ التسعين من عمره ، يحارب في سبيل أفكاره بجرارة وحماسة تكاد تعادل ما كان يبديه في شبابه ، وكان دائماً يتقدم الصفوف كلما اعتقد أن حقاً قد هضم ، أو أن انحرافاً يحتاج إلى تقويم . وقد توفى المحارب المتحمس وهو في الحادية والتسعين ، وبوفاته راح آخر يمثل الحركة كرس لها أفضل ما في حياته ، وستظل دائماً مرتبطة باسمه قبل غيره . وقد تُجمع ذلك العدد الهائل من المقالات والخطب والمناقشات والمحاضرات التي ألقاها هاريسون أو كتبها في المجلدات الآتية ، التي هي ، بالإضافة إلى « المجلة الوضعية » ، أفضل مرجع لدراسة الحركة : « عقيدة رجل غير متخصص في الدين ( علماني ) Creed of a Layman » ( ١٩٠٧ ) ؛ و « فلسفة الموقف الطبيعي ( أو فلسفة الإدراك المشترك ) The Phil. of Common Sense » ( ١٩٠٧ ) ؛ و « المشاكل القومية والاجتماعية National and Social Problems » ( ١٩٠٨ ) ؛ و « الحقائق والمثل العليا Realities and Ideals » ( ١٩٠٨ ) ؛ و « التطور الوضعي للدين The Positive Evolution of Religion » ( ١٩١٣ ) . وينبغي أن نضيف إلى هذه كتابه : « مذكرات من حياتي الشخصية Autobiographic Memoirs » ( ١٩١١ ) وقد صدر في مجلدين ، و يروى فيه قصة حياته الزاخرة المليئة بأسلوبه الحي المشوق . وقد قدم ماكجي J. E. McGee عرضاً دقيقاً شاملاً لكتاباته في كتابه « حملة صليبية من أجل الإنسانية A Crusade for Humanity » ( ١٩٣١ ، ص ٢٤١ - ٢٤٥ ) ، وفيه عرض تاريخ المذهب الوضعي الإنجليزى المنظم لأول مرة في صورة جامعة . وإلى هذا الكتاب المفيد غاية الفائدة ندين بالجزء الأكبر من الحقائق الواردة في هذا القسم .

وكان رئيس الجمعية الوضعية الذي عين خلفاً لهاريسون هو د . س . ه . سوينى S. H. Swinny ( ١٩٠٥ ) الذي ظل وقتاً طويلاً يشرف على تحرير صحيفة الجمعية وبعد عام واحد من تعيينه ، توفى يريد جز ، وأعقبه يسلي .

بعد تسع سنوات . وأخيرا تم الصلح بين المعسكرين المتعارضين ، وأعيد توحيدهما وسط الحرب العالمية الأولى (١٩١٦) ، بعد إخفاق عدة محاولات سابقة . غير أن هذه التقوية الخارجية لجسم الوضعية العليل قد أتت بعد فوات الأوان ، فلم تستطع الحيلولة دون الانحلال التام للحركة التي غدت ضعيفة بحكم السن . فمنذ ذلك الحين عادت اجتماعاتهم تعقد في شارع تشابل ، إذ كانت الحركة قد فقدت «قاعة نيوتن» ، قبل ذلك بوقت طويل (١٩٠٢) ، وكان أتباع هاريسون قد اضطروا إلى البحث عن أمكنة أخرى لعقد اجتماعاتهم . وتم انهيار الحركة في السنوات التي أعقبت الحرب . ففي ١٩٢٠ ، تولى «لاسيل T. S. Lascelles» الرئاسة بعد اعتزال ب . توماس ، وفي ١٩٢٣ توفي هاريسون وسويني ؛ وفي ١٩٢٥ توقفت المجلة الدورية (التي كان يرأس تحريرها منذ سنتين جولد بعنوان «الإنسانية Humanity» عن الظهور . وهكذا يمكن القول إن الحركة قد انتهت من الوجهة العملية . حتى رغم أنه ما زالت هناك ، حتى وقت ظهور هذا الكتاب (أى عام ١٩٣٧) «هيئة وضعية بلندن» ، تملك غرفة في شارع «تشابل» (١) .

(١) يرجع في هذا وغيره من التفاصيل إلى كتاب «لندن لأهل المرحطة London for Heretics» تأليف و. كنت W. Kent (١٩٤٢) [الناشر]

## الفصل الرابع

### الجماعات المهتمة بالفلسفة الدينية.

سوف يقتصر العرض الذى سنقدمه فى هذا الفصل للفلسفة الدينية فى الجزء الأول من الفترة التى هى موضوع بحثنا ، على المفكرين الذين كانت لهم أهمية مستقلة خارج التيارات الفلسفية التى عالجناها حتى الآن . فليست مهمتنا هنا ، كما كانت فى الفصول السابقة ، هى تتبع تطور حركة فكرة منفردة موحدة مكتفية بذاتها نسيا ، وإنما هى ضم وجمع كل ما يبرها فى ميدان النظريات الفلسفة الدينية ، أى فى التفكير المتجه إلى المسائل الدينية ، أينما وجد ، فى سياق واحد شامل . ولكن أبعد الأمور عن غرضنا هو أن نقدم ما يمكن أن يعد عرضا شاملا للحياة الدينية فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر ، حتى مايتخذ منها صبغة نظرية . ذلك لأن دور الجهود التى تبذل فى ميدان اللاهوت كان بطبيعته أكبر من دور الجهود الفلسفية فى تكوين مثل هذه النظرية ؛ ورغم أن الحدود بين هذين الميدانين تتداخل على الدوام ، فمن واجبنا مع ذلك أن نقصر حديثنا على الميدان الأخير بقدر الإمكان . وهكذا فإن عرضنا الموجز سيقصر على ماله صلة حقيقية بالفلسفة ، وحتى فى هذه الحالة لا نستطيع أن نقدم من ذلك إلا حالات مختارة .

وما دامت هذه هى وجهة نظرنا ، فلزام علينا أن نتناول أولا تلك الحركة التى كان تأثيرها فى الحياة الدينية بإنجلترا فى القرن التاسع عشر يفوق تأثير أية حركة أخرى ، وأعنى بها حركة أكسفورد ، التى ظهرت فى العقدين الرابع والخامس من ذلك القرن ، والتى أدت إلى إعادة

تشكيل وتحويل قدر كبير من الديانة المعاصرة لها . وقد كان معنى هذه الحركة ، بالنسبة إلى الفلسفة وإلى الحياة العقلية العامة لذلك العصر ، رد فعل على معظم الانجازات التي كانت سائدة عندئذ : أى على المذهب العقلي بمختلف صورته ، وعلى الثقة بالمعرفة والزهو بالعقل ، وعلى أخلاق السعادة ووهم التقدم ، والفكر الحر والليبرالية ، ورد الوجود إلى الوقائع الخارجية ، والقيم الدينية ، وصبغ الدين بصبغة سطحية ضحلة ، وجعل حياة الكنيسة راحة ، أى بالاختصار على روح التنوير كما خلصت من الانهيار الذى طرأ عليها فى القرن الثامن عشر ، وتركزت على عرشها الملتين فى القرن التاسع عشر . ولقد بدأت هذه الحركة فى جامعة أكسفورد ، شأنها شأن الحركة المثالية الجديدة التى ظهرت فى الجيل التالى لها ، وقام بهارجال مثل ج . هـ . نيومان وج . وكييل و ا . ب . پوس . ج . وورد و ر . هـ . فرود . وكان هدفها المؤكد ، قبل كل شيء ، هو تجديد الحياة الدينية وتعميقها ، ولكنها اشتملت فى ذاتها أيضا على قوى غلظية هامة كانت هى التى أطلقناها من عقالها . وكان الرجل الذى أضفى عليها روحها بوصفها حركة دينية ، هو ذاته الذى كان أكبر ذهن فلسفى فيها ، وهو تلك الشخصية الفذة الرفيعة ، الكاردينال نيومان .

ومن المؤكد أن جون هنرى نيومان J. H. Newman (١٨٠١-١٨٩٠) ينتمى إلى طليعة القادة والرواد العقليين الإنجليز فى القرن التاسع عشر . ولا ترجع مكانته السامية إلى قوة شخصيته وطبيعته الفريدة وسمو ذهنه فحسب ، بل ترجع أيضا إلى رحابة أفقه العقلى ، واتساع نطاق عليه ، وعمق تفكيره ، والأهم من ذلك ، إلى إيمانه القوى العميق التأصل ، الذى أسهم فيه ، بنصيب متكافئ ، شعوره الإنسانى الرفيع ومواهبه العقلية الضخمة . ولقد تركت فيه الطاقات الروحية للحركة الانجليزية الكاثوليكية ، التى أصبح هو ذاته ، بمرضى الوقت ، أقوى داعية لها ،



وإن لم يكن هو الذى أسسها . غير أن نطاق تأثيره قد امتد أبعد من هذه الحركة كثيرا ، بحيث شمل مجالات فى الفكر وفى الحياة الدينية لا تشترك مع هذه الحركة فى شيء . فنيومان هو أكبر داعية لمذهب الروم الكاثوليك عرفته إنجلترا منذ الانقسام بين الكنائس . ولقد بذل جهدا يفوق ما بذله أى شخص قبله فى الكشف ، للعالم الإنجليزى ، عن أمجاد هذه الكنيسة وعظمتها ، وعن إيمانها وتراثها ، وعقائدها ونظمها ، وحياتها الباطنة فضلا عن الظاهرة ، بحيث استطاع أن يشعر الناس بروحها وهى تنبض بالحياة . كل ذلك راجع إلى أن إيمانه لم يكن مجرد تعاليم تلقن ، وإنما كان حياة نحييا ، ولأنه هو ذاته كان تجسدا منظورا ، يراه القاصى والدانى ، لتلك الرسالة التى دفعه إحساسه الباطن بالواجب الملقى على عاتقه إلى أن ينقلها إلى عصره . ولقد كانت الشخصية الوحيدة التى تناظره ، والتى ظهرت فى عصر متأخر ، هى شخصية ف . فون هوجل F. Von Hügel ، الذى كانت له رسالة مماثلة يؤديها فى إنجلترا فى القرن الماضى ، وإن لم تكن له سلطة سلفه العظيم واتساع نطاق نفوذه .

ورغم أن فلسفة نيومان ، بقدر ما يمكن استخلاصها من بقية أعماله ، هى قبل كل شيء تلخيص لإيمانه الدينى وتبدير له ، فإنها لا تقتصر على ذلك ، وإنما هى أيضا مظهر نزوع أصيل إلى المعرفة ، وحضور ذهن رائع ، كانا من المميزات الأساسية لطبيعته . فهو لم يكتف بإعلان الإيمان الذى كان يتمسكه من البداية إلى النهاية ، وإنما كان يهيم بنفس القدر أن يثبت هذا الإيمان ويدعمه نظريا . وهو لم يعمل ، من أجل تحقيق هذه الغاية ، على الرجوع إلى الفلسفة المدرسية وتجديدها ، كما قد يتوقع المرء ، بل لقد كان تركيبه الذهنى بأسره بعيدا كل البعد عن المدرسية ، التى كانت نقط التقائه معها تقل بكثير عن نقط اختلافه معها ، بحيث أن من الخطأ تماما الربط بين مذهبه وبين الحركة المدرسية الجديدة ، أو الإشارة إليه — كما فعل الكثيرون — وكأنه سلف لهذه الحركة . فمذهبه إنما هو تركيب لا يحمل

أى طابع سوى طابع نيومان نفسه ، وهو طابع ترجع جذور محتواه الدينى إلى تعاليم آباء الكنيسة أكثر مما ترجع إلى مذهب توما الإكوينى ، كما ترجع جذور نظريته إلى التراث الإنجليزى ( الذى هو أيضا التراث التقليدى ) .

ولا تؤلف كتابات نيومان الفلسفية إلا جزءا صغيرا نسبيا من إنتاجه الأدبى الضخم<sup>(١)</sup> . وأهم هذه الكتابات هى : « بحث فى تطور المذهب المسيحى » *An Essay on The Development of Christian Doctrine* ( ١٨٤٥ ) و « بحث للوصول إلى قواعد التصديق » *An Essay in Aid of a Grammar of Assent* ( ١٨٧٠ ) ويمكننا أن نضيف إلى هذين كتاب « فكرة الجامعة » *The Idea of a University* ( ١٨٥٢ ) - وإن لم يكن لهذا الكتاب ، الذى يعرض فيه نيومان برنامجا فى التعليم الجامعى ، غرض فلسفى على التخصيص . ولننصف إلى ذلك بعض مواعظه الدينية فى الجامعة ، ومؤلفه المشهور « دفاع عن حياتى الذاتية » *Apologia pro Vita Sua* ( ١٨٦٤ ) .

والفكرة الرئيسية فى فلسفة نيومان النظرية تتمثل فى فعل « التصديق » *Assent* ، العقل ، وفعل « الإدراك الواعى » *Apprehension* ، السابق عليه : ويظهر مبدؤها الموجه فى التمييز الأساسى بين الإدراك الواعى الحقيقى ( أو الشئ ) *real* والإدراك التصورى *Conceptual* ( وبين التصديق الحقيقى والتصورى ) ، وهو الذى يكون أساس كل مساهمة أصيلة لنيومان ، سواء فى ميدان نظرية المعرفة ، أو فى فلسفة الدين واللاهوت فيما بعد . ونستطيع أن نسمى هذه أيضا الحقيقة المجربة الأولى فى فلسفته ، إذ أن كل أفكاره تقريبا تنبع منها .

---

( ١ ) جم هذا الإنتاج فى ستة وثلاثين مجلدا ، نشرت فيما بين ١٢٦٨ و ١٨٨١ ، ثم زيد العدد فيما بعد بإضافة بعض المؤلفات الأخرى .

فما الذى يمكننا أن نفهمه من التقابل بين الإدراك ، الحقيقى ، والإدراك ، التصورى ، ؟ إن الإدراك ، بمعنى الموقف النفسانى من أية واقعة معينة أو الاستجابة النفسانية لها ، يحدث بدرجات مختلفة من القوة والشدة ، تبعاً لطبيعة المعطى الذى ندركه أو يدركنا . وتتوقف قوة الإدراك على القوة الكامنة فى الموضوع والمنبثقة منه إلينا . على أن من الحقائق المقررة بالنسبة إلى الطبيعة البشرية أن الأشياء العينية تؤثر فىنا بقوة تزيد كثيراً على تأثير الأفكار المجردة فىنا ، وأن ماهو ، موجود ، بالمعنى الأصيل ، أى بمعنى أن له وجوداً عينياً حقيقياً ، ينطبع على ذهننا بعمق يزيد على عمق انطباع ماهو مستمد من الواقع ، أعنى كل ما هو مجرد ، أو تصورى . وهكذا فإن الإدراك الحقيقى أكثر فعالية من الإدراك التصورى ، من حيث أن موضوعاته تنطبع علينا وتؤثر فىنا بقوة تزيد كثيراً على تأثير الصور التى هى موضوع الإدراك التصورى . وهناك تمييز مناظر لهذا بين ، التصديق ، الذى نقوم به بالنسبة إلى ما هو عينى حقيقى من جهة ، وبالنسبة إلى ما هو تصورى من جهة أخرى .

وهناك تقابل آخر يدعم التقابل بين الإدراك الحقيقى والإدراك التصورى ، هو التقابل بين المعرفة المباشرة والمعرفة غير المباشرة . فالأولى تحدث حدسياً فى الخيال ، وهو ملكة هامة للمعرفة يعزو نيومان إليها دوراً فى إدراك الحقائق لا يقل عن أهمية الدور الذى يعزوه إليها هيوم ، وهى تحدث بصورة أكمل فى الإدراك الحسى ، سواء أكان خارجياً أم داخلياً .

ففى الإدراك الحسى يعطى لنا الشيء ذاته ، أو جزء أو وجه منه على الأقل ، بصورة جسمية ملموسة ، ويصبح الشيء مواجهاً لنا مباشرة بوصفه فرداً عينياً ، ويدعونا إلى أن نكمل تحققنا منه فى تجربة حية . ولا يمكن أن يكون الإدراك الحسى والخيالى منفصلين تماماً عن الواقع . ورغم ما

(م — ١٥ فلسفة)

بينهما من بون شاسع ، فلا يمكن أن يكون الواقع بمنأى عنهما . وإنما يدخل الواقع بمجال الإدراك الحسى بتوسط الصورة ، فوظيفة الإدراك الحسى تخيلية imaginative مثلما هى تمثيلية representative ( أو محاكية imitativo ) — وهى ليست تخيلية بمعنى الإغراق فى الخيال والبعد عن الواقع . وإنما بمعنى تكوين صورة فى الخيلة تكون جزءا لا يتجزأ من الواقع . فالإدراك الحقيقى هو إدراك عن طريق صورة عينية ، ومهما كانت كثرة صور الموضوع أو أوجهه فى الوظيفة الإدراكية ، فإنها تقوم بدور الوسيط فى نقر الموضوع التى هى صورة له ، بما يتصف به من واقعية ( وبالتالى من حقيقة أساسية ) . فى الصورة ، سواء أكانت كافية أم غير كافية ، وسواء أكانت تعبيرا أميناً أم غير أمين عن الموضوع ، يُنقل الواقع دائماً ، مهما كان الأمر ، ويمكن أن يصل فيها إلى حد الاكتمال . وحتى فى الحالات التى يبدو فيها الإدراك بعيداً كل البعد عن الواقع ، بل ومنفصلاً تماماً عنه ( كما فى تخيل الشاعر أو ابتداء القصاص ) نستطيع أن نلح مع ذلك بوضوح طابع الواقع ، ويكون هناك دائماً شيء واقعى ( وذلك دائماً بمعنى أنه شيء فردى ، عينى ، يمكن إدراكه حدسياً ، إلخ ، ) هو الأساس الكامن من وراء الخيال ، ولكن المعرفة لا تقبض على ناصية الواقع ، لكن تصل منه إلى الحقيقة ، إلا عن طريق الصور دائماً . وبفضل وجهة النظر هذه ينكشف المعنى العميق للكلمات المنقوشة على مقبرة نيومان فى ( ريدنال Rednal ) ، بالقرب من مدينة برمنجهام ، وهى « من الظلال والصور إلى الحقيقة Ex Umbris et Imaginibus in Veritatem » .

وأخيراً ينبغى أن نضيف إلى الإدراك الحسى والخيال أداة ثالثة للإدراك الحقيقى ، هى الذاكرة . فهنا أيضاً . تكون ازاء نوع من المعرفة العينية الشبيهة بالتصويرية ، تتصل عن طريقها بالوجود الواقعى ، بحيث

يكون الحادث المتذكر مشابها تماما للموضوع المدرك حسيا والمتخير ،  
مع فارق واحد هو أنه يحدث في صيغة الفعل الماضي .

أما الإدراك التصوري فيختلف اختلافا تاما عن كل إدراك حقيقي .  
فهو لا يتخذ من الصورة ، وسيطاً لفاعليته ، بل إن وسيطه الرمز  
والعلامة . وهو لا يتصل بالطبيعة الحقيقية ، وإنما يشيد فوقها علماً خاصاً  
به ، هو عالم العقل ، الذي يتكون من تصورات وتحديدات ، ومن  
استدلالات واستنباطات منطقية ، أى بالاختصار ، من رموز غير واقعية .  
هذا النوع من الإدراك هو الأداة المستخدمة في كل معرفة عليية ، وهو  
مشروع تماماً ، بل لا بد منه ، في مجال العلم . ولا يمكن أن ترفض ادعاءاته  
إلا عندما تتعدى على المجالات الأخرى ، كما يحدث في تلك العصور التي  
تتجه نحو النزعة العقلية intellectualism . ومن الواضح أن نيومان  
يقصر قدرة العقل على حدود ضيقة ، ويبخس التصور حقه . وهو يكشف  
دائماً عن تفضيل لما هو عيني وفردى ، وما هو موضوع لإدراك حسي  
واضح ، وللواقع غير العقلي المجرب مباشرة ، وهو يبالغ في تفضيله  
على حساب المعقول والكلى والمجرد ، أى ما يتم يتوسط العمليات  
المنطقية أو بالاستدلال منها .

وإن ما يصح على فعل الإدراك ليصح بنفس القدر على فعل التصديق  
assent . فهنا أيضاً نجد نفس التقابل بين التصديق الحقيقي والتصديق  
التصوري ، أو بين التصديق المطلق والاستدلال . ولنا في حاجة إلى تتبع  
تفاصيل هذا الموضوع ، إذ أن مناقشته كلها تسير في خط مواز لمناقشة  
الموضوع السابق . ويعني نيومان بالتصديق فعلاً ذهنياً لا يمارس فيه  
الغنى العقل من طبيعتنا فحسب ، وإنما تتضمن فيه شخصيتنا الكاملة ،  
بما فيها من عوامل عاطفية وإرادية ، على نحو أقوى بكثير مما يحدث

فى العنصر العقلى . فالتصديق نوع من الاستجابة الكاملة لموقف فعلى معين  
أو ظرف خاص ؛ وقد تلعب العمليات المنطقية دوراً فيه ، غير أن هذا  
يكون دائماً دوراً ثانوياً . فالتصديق فعل عيى مباشر ، وهو فعل شخصى  
تماماً ، وليس قابلاً للتحليل أبعد من ذلك ، وهو فى أساسه واحد غير  
منقسم ، ولا يقبل درجات أو فروقا فى القوة . وهو مطلق فى كل لحظة ،  
وحتى حيث يكون مشكوكاً فيه ، يكون عنصر الشك متضمناً فى القضية  
أو الواقعة التى يوجه إليها فعل التصديق ، لافى فعل التصديق ذاته . والامر  
على خلاف ذلك تماماً فى الاستدلال ، الذى هو دائماً مشروط وغير مباشر ،  
والذى يمر بدرجات مختلفة من التأكيد ، ولكنه لا يتجاوز أبداً اليقين  
النسبى للاحتمال ليصل إلى اليقين المطلق للتصديق . غير أن هذا الانتقال من  
الاحتمال إلى التصديق ينبغى ان يتم إذا أردنا أن يكون لنا من الحقيقة  
نصيب ، ولن تساعدنا على تحقيقه أية تجريدات تصورية أو سلاسل منطقية  
من البرهان والاستدلال . وإنما الذى يلزمنا نوع من الشعور العيى أو النزوع  
إلى الحقيقة ، الذى ينبغى بالتالى أن يرد بأكمله إلى اليقين الذاتى الباطن  
للروح الفردية ، وإلى القرار الشخصى للذهن الذى يدرك ويحكم . مثل هذا  
القرار ليس ناتجاً عن عمليات منطقية مطولة معقدة ، وإنما هو يقوم على  
نوع من الإدراك الحدسى الذى يرتكز ، لا على ملائكة التفكير فى الإنسان  
فحسب ، أو على فهمه ، وإنما على شخصيته الكاملة . ذلك لأن ما هو  
برهان بالنسبة إلى ذهن ما ، ليس كذلك بالنسبة إلى ذهن آخر ، وإن يقين  
قضية ما ليرتد فى الواقع إلى يقين الذهن الذى ينظر فيها . .

ويطلق نيومان على هذه القدرة الذاتية على إدراك الحقيقة ، وهى  
القدرة التى تنطوى على ما يزيد كثيراً على ملكاتنا العقلية بأسرها ، اسمها

« الحس الاستدلالي illative sense ، وهو يعنى بهذا اللفظ المنهج الاصيل للاستدلال ، الذى لا يقتصر على استخدام التجريدات المنطقية والعمليات التصورية ، والذى نستطيع بفضلها ، رغم ذلك ، أن ندرك الحقيقة ذاتها فى كل ثرائها وحيويتها ، وفى طابعها العيني الفردى . ولكننا هنا إزاء موهبة شخصية ، تقتضى تدخل الإنسان بأكمله ، لا مجرد ملكة منفصلة بطريقة سطحية ، لانكون بنفسها قادرة أبدا على التعرف على الواقع أو بلوغ الحقيقة . فليس ثمت معيار نهائى للحقيقة ، بمعزل عن الشاهد الذى يواجه به الذهن ذاته الحقيقة ، ولما كان المعيار الوحيد للحقيقة هو اليقين الذاتى للذهن الفردى ، كانت موضوعية الحقيقة مبنية على هذه الذاتية ، أى على الصواب المطلق لهذا الحس الاستدلالي الذى تفهم به الحقيقة .

هذا العرض السريع للأفكار الرئيسية فى نظرية المعرفة عند نيومان يكشف بوضوح عن مدى خطأ أية محاولة تبذل لإيجاد أى ارتباط بين مذهبه وبين النظرية المدرسية . والأصح من ذلك أن يقال إن جذور مذهبه إنما تكون فى المذاهب الكلاسيكية للتجريدية الإنجليزية ، وأنه على حين يستمد كثيرا من لوك وباركلى وبطلر ، يعمل فى الوقت ذاته على إعادة صياغة ما أخذه من هذه المصادر بطريقة حرة ، ولا يتخذ موقف الاعتماد الكامل لتقليد مخلص ( وهذه نقطة لا يتعين علينا مناقشتها بالتفصيل ) . فكل شيء فى مذهبه يتخذ طابعه الذهني الخاص ويمتلى به ، وهو لا يستمد من التراث الذى يتصل به غذاء يتمثله ، وإنما يستمد منه جوا ذهنيا يستنشق . وإلى هذا الحد يمكن القول إن التراث التجريبي قد طرأ عليه هنا تجديد ، ولكن على يد مفكر ليس وثيق الارتباط به ، وإنما كان فى قرارة نفسه مبتعدا عنه ابتعادا أساسيا .

كذلك يمكن تحديد نقط التقاء بينه وبين أنواع النظريات التالية له ، فضلا عن السابقة عليه ، مع تعقّلات معينة في كل حالة . ومن أمثلة هذه النظريات : « فلسفة الحياة » عند برجسون ، والبرجماتزم عند جيمس ، غير أن تعاليم نيومان لم تجد في هذه النظريات إلا صدى غير دائم . وفضلا عن ذلك فإن تحليلات نيومان الوصفية الدقيقة والعميقة لظواهر الإدراك ، والتصديق ، والاحتمال ، واليقين ، تشير مقدما ، كما لاحظ « تيودور هيكير<sup>(١)</sup> Theodor Haecker ، إلى أوصاف هوسرل الفينومينولوجية ، وإن لم يكن من الممكن إثبات أى ارتباط تاريخي بين هذين المفكرين . ومن هذا كله نستنتج أن فلسفة نيومان النظرية كانت تنطوي في ذاتها على عدد غير قليل من الأفكار ذات الدلالة البالغة بالنسبة إلى المستقبل ، وهي أفكار لم تظهر بالفعل إلا بعده بوقت طويل ، كما نستنتج أنه رغم كل الامتداد العميق لجذورها في الماضي ، فقد قامت بدور ملحوظ في التمهيد للتطور التالي للفكر .

ولسكتنا لو نظرنا إلى نقد نيومان للمعرفة على أن له غرضا نظريا بحتا لسكتنا بذلك نسيء فهمه . فهدفه منذ البداية عملي ، أعني إثبات الإيمان الديني . ومن ثم فهو يحتل مكانته في سياق أوسع لا يكتسب معناه الكامل إلا فيه . وفنظرية المعرفة ، هي الأساس والمرحلة الأولى بالنسبة إلى « نظرية الدين » التي تنتقل إليها آخر الأمر . ولكن حتى في هذه الحالة بدورها ، أى في هذه المشكاة الجديدة التي تواجه نيومان الآن ، ينصب اهتمامه الأول والأكبر على الجانب الداني للدين ، أى على إدراك العنصر

(١) تيودور هيكير (١٨٧٩ - ١٩٤٥) ، كاتب وفيلسوف ألماني ، كانت له مؤلفات هامة من كيركجورد ، ظهر أولها سنة ١٩١٣ ، كما تأثر بكتابات نيومان فدعا بحماسة إلى فلسفة حضارية كاثوليكية . ومن أهم مؤلفاته في هذا الموضوع : المسيحية والحضارة ، والمسيح والتاريخ ، وروح الإنسان والحقيقة . [ المترجم ]



الإلهي في الوعي البشرى . ومع ذلك ينبغي أن تؤكد أن هذا لايعنى صبغ الدين بالصبغة الذاتية أو نزع الصفة الموضوعية عنه ، وإنما يعنى فقط أن الاهتمام الأكبر لهذا المفكر ينصب على الجانب الذاتى . فهو فى كل الأحوال يستلم بالدين من حيث هو حقيقة موضوعية ، ولما كان يؤلف الأساس الثابت لكل إيمان ، فإنه لا يقتضى أى دعم نظرى مستقل . وإذن فالمشكلة الفلسفية التى تواجه نيومان تودى إلى السؤال التالى : على أى نحو يشارك الذهن البشرى فى الحقيقة الإلهية ، وبأى الوسائل المعرفية يتمكن من إدراك هذه الحقيقة ؟

وعند ما يلاحظ نيومان فى أحد المواضع أن هناك بالنسبة إلى كل منا حقيقتين نهائيتين فحسب ، هما ذاتنا والله ، فإنه يقول بالحقيقتين الأوليين اللتين يهتم بهما التفكير الدينى — أعنى نفس الإنسان والوجود الإلهى . هاتان الحقيقتان ينبغي أن تتميزا عن أى كيان آخر فيما يتعلق بالطابع الخاص لحقيقتهما ، إذ لا يتصف أى شئ آخر بهذا القدر الرفيع من الشخصية والعينية والفردية والحياة . ذلك لأن نيومان لايعنى بلفظ « الحقيقى » أى موجود بما هو كذلك ، وإنما هو يستخدم اللفظ دائماً بالمعنى القطعى الذى تدل عليه تلك الصفات الأربع التى عددناها الآن . ومن الواضح ، من وجهة النظر هذه ، أن حقيقة الله هى أرفع مايتسنى لتجربتنا الوصول إليه ، إذ أنها هى العينية وقد رفعت إلى أعلى درجات القوة .

وهكذا نستدل بكل وضوح ، من وجهة النظر التى اتخذها نيومان فى نظريته هذه ، على أنه يرى أن إدراكنا لهذه الحقيقة (وتصديقنا عليها) إنما يتم على نفس النحو الذى يتم عليه إدراكنا للحقيقة العينية بوجه عام ، أعنى إدراكنا لذاتنا ، وللذوات الأخرى ، وللعالم الخارجى . ولكن هذا يعنى أن العقل والوظائف العقلية المرتبطة به ، لا تقوم وحدها فى هذا الصدد

بأى دور ، أو لا تقوم بأى دور ضئيل ، وأنا نحتاج ثانية إلى تدخل الشخصية الكاملة . والجانب العملى فيها على التخصيص ، إذا ما شاءت النفس الوصول إلى الحقيقة الإلهية . وفى هذا الصدد يكتب نيومان قائلا :  
 « من المحال أن يكون للبرهان المنطقى دور فى الموقف العينى الذى يتعين على مواجهته » .

فوجود الله لا يمكن الاستيقان منه بعملية استدلال ، ولا يمكن أن يتكشف بوصفه الحلقة الأخيرة فى سلسلة قياسات منطقية ، وإنما هو يقتضى ذلك النوع من الإدراك الحقيقى ، المباشر تماما ، وذلك « الحس الاستدلالى ، الحدسى ، الذى تتفاعل فيه كل قوانا وتطلق فيه كل مقدراتنا الذهنية . ولسنا هنا إزاء ملكة ذهنية على التخصيص ، بل ولا أى نوع من الملكة الخاصة ، التى تكون لها حرية العمل مستقلة عن الشخصية فى مجموعها . وإنما هذا نشاط يتم فيه تنسيق الأجزاء المتعددة فى هذا الكل على نحو يصل فيه وجود الإنسان بأكمله إلى أعلى قدرة ممكنة على الإدراك . ولا شك أن العوامل العقلية تشارك فى هذا النشاط ، وإن تكن القيمة التى تُعزى إليها ضئيلة ، كما يشارك فيه الشعور ، وإن يكن نيومان ينظر بعين الارتياب الشديد إلى الشعور ، عند ما يُتخذ أساسا للإيمان الدينى ( « فالدين ، من حيث هو مجرد شعور ، هو بالنسبة إلى وهم مهزلة . » )

وهكذا فإن نيومان لا يعطى المكانة الأولى فى مذهبه للذهن ولا الشعور وإنما للضمير . وعلى ذلك فمن الواضح أن البواهب الأخلاقية هى الأقوى حكما فى نظريته الدينية . ولقد كان يحرص بقوة على استقلال الحياة الأخلاقية ، ولم يسمع بحاجة العميقة إلى الإيمان الدينى بتعريض هذا الاستقلال للخطر ؛ بل إنه ، رغم نجاحه فى التوفيق بين الأخلاق والدين ، كان يركز جهده فى ربط الأخير بالأولى ، لا العكس . وهذه

هى أفضل وسيلة لتفسير الانجاء التشاؤمى فى طبيعة نيومان . فقد عانى ، على نحو أعمق من معظم المفكرين الدينيين فى عصره ، من التقابل المستقطب الذى يميز الحقائق الأساسية للحياة الأخلاقية ، والتعارض الصارخ بين الخير والشر ، والصواب والخطأ . وهو لم يشأ أن يعبر الهوة الفاصلة بين طرفي هذا التقابل بطريقة سطحية ، وذلك بالاتجا إلى الحب الإلهي والخيرية الإلهية . وإنما أحس بسطوة الشر والالم كاملة فى العالم ، وعانى من أجل ذلك كل ما يمكن أن تستشعره نفس شديدة الحساسية من ألم . ولقد كان يؤثر دائماً رسم صورته للعالم بألوان قاتمة ، غير أن تشاؤمه لم يكن منبعثاً عن احتقار العالم بقدر ما كان مصدره العزوف عنه ، وكان هروبه الزاهد من العالم تعبيراً عن التعاطف والاستسلام المعذب ، أكثر مما كان تعبيراً عن التحقير والإزدراء .

وهكذا فإن الأولوية المنسوبة إلى الضمير هى التى تكشف عن الانجاء الأخلاقى فى تعاليم نيومان الدينية . فالضمير هو ، أولاً وقبل وكل شئ . تلك الأداة التى تصل بها النفس الفردية إلى معرفة الطبيعة الإلهية وإدراكها ، وهو المدخل الذى يوصل ما هو إلهي إلى الطبيعة البشرية . فذلك ، الإله الذى هو فى الضمير ، هو بالنسبة إلى نيومان حقيقة لا تقل أهمية عن إله الوحي وإله الكنيسة ؛ وللتجربة الدينية أهمية تعادل أهمية الدين الموضوعي ، بل تزيد عليه . وعلينا أن نبحث عن الله فى ذلك الطريق الذى يبدأ صعوداً من النفس البشرية ، وهنا أيضاً تكون نقطة بداية نيومان ، كما هى دائماً ، هى الفردى والشخصي والعيني وهذا الطريق واحد من وجهة نظر الأخلاق . فالإلزام الخلقى لا يكون حقيقياً لأن هناك إلهاً ، بل إن الأمر على العكس من ذلك : فنحن نعرف بوجود الله لأننا نشعر بوجود الإلزام الخلقى . فالضمير هو وسيط المبدأ الإلهي وجزاؤه ، ولذا فإن نيومان يبدى اهتماماً خاصاً بتحليل وقائع الضمير

بأكبر قدر من الدقة الفلسفية حتى يبرز طابعه الحقيقي المقابل لأوجه النشاط الأخرى للنفس البشرية . والضمير أداة موثوق منها تماماً للمعرفة ، ولها من الأهمية في الكشف عن الألوهية العالية ما للدراك الحسى في معرفة العالم الخارجى . وهو إدراك يعادل الإدراك الحسى في حقيقته ، غير أنه إدراك لموضوع آخر ، أى لأعلى الحقائق وأكثرها عينية ، وهى الحياة الإلهية . ولذا كانت جذوره متأصلة ، لافى ظلام الشعور الدامس ، أو فى الأحوال الانفعالية المتقلبة ، وإنما فى ضوء الفكر الناصع ، وكل ما فى الأمر أن هذا التفكير ليس هو التفكير المجرد غير المباشر الذى هو غريب عن « الحقيقة العليا » ، وإنما هو تفكير عيني حدسى وثيق الارتباط بالحياة ، ويبلغ تحققه فى « الحقيقة العليا » .

وهكذا ينبغى أن نؤكد على الدوام هذه الحقيقة ، وهى أن الإيمان الدينى هو فى نظر نيومان أمر شخصى وذاتى محض قبل كل شيء ، تختص به كل نفس على حدة ، وتتمكن بفضلها من الوصول إلى الله بذاتها مباشرة ، ومن أن يكون لها نصيب فى نوع من المعرفة الطبيعية للألوهية . ولقد كان من الواجب أن تودى نقطة البداية هذه إلى البروتستانتية المتطرفة ، أو حتى إلى الصوفية ، ولكنه فى الواقع قد سار فى الاتجاه المضاد الذى أدى به إلى الإيمان الكامل بالكنيسة الكاثوليكية . وربما بدا هذا غريباً للأهلة الأولى ، وقد يودى بنا إلى الشك فى وجود انفصام أساسى فى تعاليم نيومان ، غير أن ذلك التناقض المنطقى الذى يمكن كشفه فى تفكير نيومان ، وأعنى به اقتران أشد أنواع الإيمان الدينى بشخصية بأقوى تمسك بالسلطة الخارجية ، لا تكاد تكون له أهمية من وجهة نظره الخاصة . فالواقع هو أن نيومان قد تمكن من تحقيق الانتقال من الداخل إلى الخارج ، ومن الاستقلال الذاتى الفردى إلى السلطة الخارجية ، ومن التجربة الشخصية إلى الكنيسة والعقيدة ، دون أن يرتكب أية تضحية بالعقل

أو ينحس أيا من الجانبين المتعارضين حقوقه . وهكذا اعترف بضرورة وجود مصدرين للإيمان الديني ، إله الوحي فضلا عن ، الإله الذي في الضمير ، ، وسلطة الكنيسة وتنظيمها فضلا عن تجربة النفس ، والتمسك الموضوعي الملزم بالعقيدة فضلا عن الاقتناع الذاتي . وهكذا فإن الصفة الخاصة التي تتميز بها فلسفة نيومان الدينية هي أنها تعطى حقاً متساوية لكل العاملين ، وتجمع بين الاثنين في مركب متألف ..

ففي كتاب « قواعد التصديق » ، يقتصر اهتمام نيومان على الجانب الذاتي للدين ، بينما انصب هذا الاهتمام ، في كتابه السابق من هذا بكثير ، الخاص بتطور التعاليم المسيحية ، على الجانب الموضوعي في المحل الأول . والفكرة الأساسية التي تبرز إلى الأمام هنا هي أن حقيقة الدين لا يمكن أن تفصل عن تاريخه ، وهكذا تغدو فكرة التطور development ( evolution ) هي اللحن المميز لهذه المناقشة لماهية الدين منظوراً إليها من الوجهة الموضوعية . وهنا ينبغي أن نؤكد منذ البداية أن مفهوم التطور development عند نيومان ينتمى من الوجهة الزمنية إلى عصر سابق على نظرية التطور الداروينية ، بل إن نقط التلاقى بينهما وبين مبدأ التطور عند دارون وسبنسر تبلغ من القلة حدا يجعله يصل إلى التناقض مع هذا الأخير في المسألة ذات الأهمية الحاسمة ومن واجبتنا ، إذا شئنا أن نربط مفهوم التطور (dev.) عند نيومان بمفاهيم موازية له تاريخياً ، أن نتأمل الصورة التي اتخذها هذا المفهوم في مذاهب أرسطو وليبنتر وهيجل . غير أننا سنصرف النظر هنا عن العلاقات التاريخية للفكرة — وأطرافها في هذا الصدد هو البحث في مسألة التأثير الممكن ( والذي ليس مع ذلك أمراً قريب الاحتمال ) لنظرية هيجل ، ذلك لأن أفكار نيومان هي كشوف أصيلة تنتمي إليه قبل غيره ، ولا يحتاج إلى راعٍ يتحدث مؤيداً لها .

.. وهو يعرض الأساس الفلسفي لتطور التعاليم المسيحية في حجة تتعلق

قبل كل شيء بتطور الأفكار بوجه عام . وبهذا تنقل المشكلة منذ البداية إلى الميدان الذهني . وفي هذه الواقعة نفسها نجد فارقاً أساسياً بين نظرة نيومان وبين نظرات المذاهب الطبيعية (naturalistic) التالية . فالأمر في حالة التركيبات الذهنية أو الأفكار بمائل له في حالة الأشياء الجسمية المدركة حسياً : فالشيء لا يكشف في البداية إلا عن هذا الوجه أو ذاك من جوهره ، تبعاً للاتجاه الذي يُنظر إليه منه ، ويتمثل لنا في هياكل وتخطيطات متعددة تتزايد تجمعا لتكوّن « وجهها كلياً » للشيء ، تبعاً لمقدار دقة الملاحظة وطولها . وكذلك الحال في الفكرة : فهي تقاس تبعاً للكل الذي تكونه أوجهها الممكنة ، وهي الأوجه التي قد تتباين كثيراً تبعاً للأفراد الذين يدركونها ؛ وترتبط قوة الفكرة وعمقها ارتباطاً محدداً بكثرة الأوجه التي تتمثل عليها وتنوعها . وليس ثمت وجه يبلغ من العمق حداً يجعله يستوعب كل محتوى فكرة عينية ، كما لا يوجد أى تعبير لغوى قادر على تعريفها بأكمل معانيها . غير أن كل هذه الأوجه المتباينة يمكن أن ترتبط بالفكرة بوصفها نقطة تلاقيها المشتركة ، وأن تندمج فيها ، ومهما بدا من تباينها وتنوعها في الوهلة الأولى ، فإننا كلما أعمقنا النظر فيها وأطلقنا تأملها ، وجدناها تزيد من تأكيد حقيقة الفكرة التي تنتمي إليها ، ومن تكاملها وأصالتها وقوتها . ويطلق نيومان اسم التطور الذهني للفكرة ، على هذه العملية التي يحدث خلالها — سواء طالت أم قصرت — تبلور داخلي للخطوط العامة للفكرة ، بحيث تقرب من معناها الأساسي ولكننا نستطيع أن نشبه هذه العملية بالمجرى الذي يكون أصنى ما يكون قرب منبعه . ولكن الفكرة ، على العكس من ذلك ، تزداد نقاء وخصباً كلما ازداد حوض المجرى الذي انتمت منه امتلاء وعمقا . وهذه الاستعارة توحى بأن البدايات التاريخية لأية فكرة لا يمكن أن تتخذ مقياساً لقيمتها وأهميتها . بل إنها تزداد اكتمالاً كلما حققت نفسها خلال الزمان بمزيد من العمق ، ورغم أنها تظل بمعنى معين نفس الفكرة

خلال تحولاتها ، فإنها في دورتها النهائية تكون أقرب إلى الاكتمال مما هي في مظهرها الأول أو في أية مرحلة وسطى .

وهكذا فإن مركز الثقل في هذا العرض للتطور التاريخي يقع ، على النقيض تماما من وجهة النظر الطبيعية naturalistic ، في المراحل المتأخرة للعملية لا في مراحلها الأولى ، وفي نهايتها لا في بدايتها . فعنى أية فكرة ( وهو ما يقصد به دائما تركيب عيني أو قوة حية للذهن تكون لها رسالة تاريخية تحققها ) لا يُعبر عنه ، عند بداية ظهور الفكرة على المسرح ، بنفس القوة والفعالية التي يعبر بها عنه في عصور الحضارة الأرقى والأكثر نضوجا ولا يرجع ذلك إلى الفكرة ذاتها بقدر ما يرجع إلى طبيعة إدراك الذهن البشرى لها - وهو إدراك يكون دائما ناقصا ، غير مطابق للحقيقة الكاملة للفكرة - ولا يمكن الكشف عن جميع الأوجه المتضمنة فيها ، بكل ما فيها من ثراء ، إلا بعملية نمو وتقدم تدريجية . ولذا فإن الزمان عامل ضرورى في نمو الفكرة ، أو لتمكن من يتلقونها من فهمها والتيقن منها ، والأمران سببان . ولا تتحقق عملية الاستيضاح هذه إلا خلال تاريخها ، وهي تتحقق بدرجات متزايدة بقدر ما يزداد نضوج وعمق الطريقة التي يفهمها بها أولئك الذين تمر بهم هذه الفكرة . وعلى ذلك فمن الواجب التمييز بين فهم الذهن العارف للفكرة أو تحقيقه لها ، وبين الفكرة ذاتها ؛ فالأول يمر بعدة تحولات ويخضع للتطور ، أما الثانى فيكون على ما هو عليه من البداية ، وطوال هذه المراحل كلها . وإذا كانت حقيقتها تزداد بالتدرج تكشفا خلال تاريخها ، فما ذلك إلا لأنها كانت منذ البداية متضمنة في داخلها . فتاريخها وماهيتها ينتميان أساسا كل منهما إلى الآخر ، وما الأوجه المختلفة التي تتكشف فيها ، والتي يؤلف مركبها صورتها النهائية ، ما هي إلا مجرد « لحظات » أو انبثاقات لما هو منتمٍ إليها في الأساس . وهي لا تضاف إليها من الخارج ، وإنما تنمو من داخلها .

تموا عضويا . وبعبارة أخرى ، فالفكرة تظل محتفظة بطبيعتها الأساسية مع تغير أوجهها المختلفة ؛ ومهما تغير تمثلها الخارجى أو تطور ، فإنها هي ذاتها تظل دون تغير . وهكذا يتضح أن التطور development بالمعنى الذى استخدمه نيومان يختلف من حيث المبدأ عن المعنى « التطورى evolutionary » الذى تنطوى عليه الكلمة فى المذهب الطبيعى Naturalism .

غلا شأن له بعمليات التغير الآلية العلية فى عالم المادة ، ولا بالنمو البيولوجى وتكوين الكائنات العضوية عن طريق سلسلة دائما الارتفاع من المستويات التى تزداد على الدوام تفاضلا (differentiation) ، وإنما هو يعنى بالفعل شيئا ذهنيا أو روحيا خالصا ، ويعنى تحقق ماهية الأفكار خلال مجرى تاريخها . وتكشف هذه الماهية فى الفهم المتزايد للذهن المدرك .

كما برز تارة هذا الوجه ، وتارة أخرى ذاك الوجه من أوجه المعنى الكامن الواحد .

ومن السهل الآن أن نقوم بتطبيق هذه الأفكار على تاريخ الديانة المسيحية والكنيسة المسيحية ، وهو الأمر الذى كان الموضوع الأول لاهتمام نيومان . فالمذهب المسيحى إنما هو فكرة كهذه ، مرت عبر القرون بتعديلات متعددة ، كانت فيها تكشف عن ماهيتها على نحو يزداد على الدوام ثراء وعمقا وامتلاء . وهذه التعديلات ليست مجرد تغييرات عشوائية مفككة متعاقبة طرأت على المذهب كما أوحى به فى الأصل ؛ بل إن تاريخ العقيدة يدل ، على العكس من ذلك ، على أن كل شيء قد سار ما هنا بأكبر قدر من الانتظام ، وفى اتجاه واحد تحددته الفكرة ذاتها مقدما . فالفكرة المسيحية قد نمت عضويا ، وهى قد مرت بعملية أصيلة من التطور (dev.) من بدايتها حتى يومنا هذا ، دون أن يتأثر بذلك معناها الأساسى . وقد ظلت على الدوام تكشف عن صور وجوانب جديدة من وجودها لفهم البشرية النابى والمتزايد عمقا ، بحيث لم يرد لها ذلك



هز الا وضعفا ، وإنما زادها نضوجا واكتبالا وفعالية . ولقد استطاعت أن تجارى التقدم العام للمدينة حتى أعلى مستويات العقل والثقافة ، واكتسبت مزيداً من الرسوخ والامتلاء ، ومن القوة والوضوح ، على قدر ما كانت تصل إليه المدينة من سمو . ذلك لأن من أوضح مظاهر ثراء المسيحية الذى لا ينفذ ، أن محتوى فكرتها لا يمكن أن يدرك كله دفعة واحدة أو على نحو نهائى ، وإنما ينبغى أن يكون الزمان (بمعنى « المدة durée » عند برجسون ) ، خلافاً فيها ، ليتبع لكل ما تنطوى عليه أن ينمو فيها عضوياً ، وأن يكشف عن ذاته بالتدرج . وكلما كانت الفكرة التاريخية أعمق وأكثر عينية ، كانت أقدر على الامتداد خلال فترة زمنية أطول . ولا يشك نيومان ، من جانبه ، فى أن الفكرة المسيحية تفوق بكثير كل الأفكار الأخرى تعقداً وعينية ، وبالتالي خصبا فى تطورها التاريخى . وقد أثبت هذا الموقف الأساسى فعاليتها بوجه خاص فى موضوع تاريخ العقيدة ، الذى طبقه نيومان عليه بطريقة مثمرة إلى أقصى حد ، وإليه قبل غيره يرجع الفضل فى تحول مفهوم « العقيدة Dogma » الجامد إلى وجهة نظر عضوية أكثر حيوية ، لم تجرؤ حقاً على زعزعة سلطة العقيدة وطابعها الإلزامى ، وادعائها امتلاك حقيقة تسمو على الزمان ، ولكنها لقيت قبولا واسعا نظراً إلى نسيئها التاريخية ، وبالتالي ارتباطها الحيوى بتطور الزمن .

ولقد اكتملت نظرية نيومان فى تطور الأفكار عامة ، وتطور المذهب المسيحى خاصة ، على نحو يحفظها من جهود التعصب ومن النزعة المذهبية الفارغة . والعنصر الآخر فى نظريته هو التمييز الهام الذى يقول به بين التطور (dev.) الأصيل أو السليم ، والتطور الزائف أو الباطل . ويطلق نيومان على النوع الأخير اسم : فساد الفكرة ، وهو يخصص الباب الثانى ، والأكثر ، من كتابه لمناقشة مفصلة ، زاخرة بالأسانيد ، للعلاقة

بين التطورات الأصلية لأي مذهب ، والتطورات المفسدة له . وهو هنا يهتم بمسألة المعايير التي يمكننا أن نميز بها التطور الأصيل من الزائف ؛ وظاهرة التقدم الحقيقي من ظاهرة التأخر ، وهو يضع نظرية لهذه المعايير بشيء من التفصيل . فهناك بوجه خاص سبع صفات تدل على أن الفكرة تنمو عضويا ولم يدب فيها الفساد بعد . فالفكرة تكون كذلك إذا كانت :

- ( ١ ) تحتفظ بشكل نموذجي واحد ؛ ( ٢ ) وتكشف عن مبادئ محفوظة على الدوام ، ( ٣ ) وتظل لها القدرة على الاستيعاب أو التمثل *assimilation* ؛ ( ٤ ) وتستبق بداياتها الأولى مراحلها التالية ؛ ( ٥ ) وتكون أوجهها المتأخرة قادرة على تبرير أوجهها المتقدمة ودعمها ؛ ( ٦ ) وعندما تتمكن من الاحتفاظ بمضمونها الأصلي ، وبالتالي بعث حياة جديدة فيه على الدوام ؛ ( ٧ ) وأخيرا ، عندما تكون لها حيوية باقية طوال مراحلها . وإن توافر هذه الشروط في المسيحية ( ولا سيما تلك الفكرة التي تدعو إليها كنيسة الروم الكاثوليك عن المسيحية ) بدرجة أعلى مما توافر في أية حركة أخرى في التاريخ ، وكونها قد استطاعت حتى الآن أن تتغلب على جميع الاتجاهات التي هدفت إلى القضاء عليها ، وتغلبت ظافرة على كل المؤثرات المفسدة - لهو في نظر نيومان الدليل الكافي على أن المسيحية ستحتفظ في المستقبل أيضا بقدرتها على الحياة ، بل وسوف تمثل أيضا على أنها قوة حية في الذهن ، تشهد رسالتها التاريخية في الماضي بعظمها أبلغ شهادة وأعماقها .

\*\*\*

وإذا استثنينا نيومان ، الذي كان المفكر الوحيد المنتمى إلى الصف الأول من بين رجال حركة اكسفورد ، فلن نجد إلا شخصية واحدة في هذه الحركة كانت لها ميول فلسفية قوية وقدرة على التفلسف - تلك

هى شخصية وليام جورج وورد William George Ward ، (١٨١٢-١٨٨٢) . ولقد ساهم وورد ، الذى كان ينتمى إلى الجناح الأكثر تطرفاً فى الحركة ، بدور كبير فى فصل الحركة عن الكنيسة الانجليكانية ، وتم تحويله نهائياً إلى الكاثوليكية حتى قبل نيومان ذاته ( فى سبتمبر ١٨٤٥ ) . وقد حاول وورد أن يعبر تعبيراً رسمياً دقيقاً ومنهجياً عن تلك العناصر التى كانت بالنسبة إلى نيومان كشفاً فلسفياً ارتفع من أعماق روحه إلى مستوى التفكير الواضح . ولم يكن وورد أكثر ميلاً من نيومان إلى العودة إلى المدرسية لاستمداد الوحي منها ؛ ولكنه كان أوثق ارتباطاً بالاتجاهات الفكرية المعاصرة له ، والتى كانت صلته بها متينة ، سواء عند ما كان يعارض أفكاراً سائدة فى عصره أو عندما كان ينتفع بمعوتها . وقد عرض برنامجاً دينياً فى كتابه : « المثل الأعلى لكنيسة مسيحية The Ideal of a Christian Church » ( ١٨٤٤ ) ، وهو مؤلف يوازى « تطور المذهب المسيحى » عند نيومان . وقد تضمن هذا الكتاب أقوى ، وربما أول ، تعبير عن اتجاهات الكتلركة فى حركة أكسفورد ، ومن ثم فقد كان يمثل نقطة تحول فى تاريخها . وقد مهد بطريقة قاطعة للانفصال الذى حدث بعده بعام واحد . ولقد كان العامل الذى دفع وورد ، وكل من جاوره فى معارضته المتزايدة للبروتستانتية ، هو المثل الأعلى للتقوى الزاهدة ، وفكرة الحياة المسيحية وقد تحولت إلى الباطن وأصبحت لها قداسة ، وهى فكرة استحوذت عليهم تماماً . فكان من الطبيعى أن تؤدى بهم هذه المعارضة آخر الأمر إلى تحويلهم الصريح إلى هذا النوع من الإيمان ، وإلى الكنيسة التى رأوا مثلهم العليا هذه تتحقق فيها على أفضل نحو . وأهم المؤلفات التى عرضت فيها آراء وورد الفلسفية ، مؤلفان تاليان أحدهما هو رسالته « فى الطبيعة واللفظ الإلهى » ( On Nature and Grace ) ( ١٨٦٠ ) والآخر سلسلة طويلة من الأبحاث ظهرت فى مجلة « دبلن ريفيو Dublin Review »

(التي كان هو ذاته مشرفا على تحريرها) ، فيما بين عامي ١٨٦٧ و ١٨٨٢ ، ونشرت بعد وفاته في مجلدين عنوانهما « بحوث في فلسفة مذهب الألوهية » *Essays on the Phil. of Theism* ، ( ١٨٨٤ ) ، وأشرف على طبعهما ابنه « ولفرد وورد » . وتعرض هذه البحوث لذلك الخلاف الضخم الذي نشب بين حركة أ كسفورد والمذهب التجريبي عند جون استورت مل وأفراد مدرسته ، بوصفهم أقوى مفكرى ذلك العصر تمثيلا للفلسفة الدنيوية . وهذه البحوث أشبه بطرف مقابل لكتاب مل : « اختبار لهاملتن » ، وهي تؤلف في الوقت ذاته ردا على هجوم مل ، بقدر ما كان تفكير وورد قريب الشبه ، في نقاط معينة ، من تعاليم المفكر الاسكتلندي هاملتن .

وقد وجه نقد وورد إلى القضية الرئيسية في الفلسفة التجريبية ، القائلة إن كل معرفة لنا مستمدة من التجربة ، وأن هذه هي المصدر الوحيد للمشروع لليقين والحقيقة . فما علينا ، في رأيه ، إلا أن نخطو خطوة واحدة نتجاوز بها المعطيات المباشرة للوعي ، أعني أن نتأمل مثلا ، بدلا من هذه المعطيات ، الأفكار المستعادة التي تمدنا بها التجربة بطريق غير مباشر ، لنذكر مدى استحالة وجهة النظر المقتصرة على التجربة ، أو وجهة النظر « الظاهرية » ، الخالصة ( *pure phenomenism* ) كما يسميها وورد في معظم الأحيان كلما كان يصدد الكلام عن موقف مل . ذلك لأننا في حالة التذكر لانهتم بالانطباع الحاضر الذي يكون لدينا بحادث ماض ، وإلما نهتم بالوجود الفعلي لهذا الحادث في الماضي . وإن مجرد كوننا نتذكر ، لدليل كاف على أن المعارف ( *Cognitions* ) التي توصلها إلينا الذاكرة ليس لها ضمان في التجربة المباشرة ، بل إن علينا ، لكي نفسر الذاكرة ، أن نفترض معارف ( *cognitions* ) لا يتم اكتسابها بالطريقة التي يقول بها المذهب التجريبي . ومثل هذه النتيجة تضدق على كل معرفة يود المذهب التجريبي أن يردّها إلى التجربة الخالصة

والاستقراء . فعملية المعرفة Cognition لا تُبنى فقط على مايجرى بالفعل ، وإنما تبنى أيضا ، وبصفة دائمة ، على نوع من المعرفة Knowledge لا صلة له بالتجربة ، لا بطريق مباشر ولا بطريق غير مباشر ، بل هو بالفعل مختلف عنها اختلافا أساسيا . ذلك هو « الحدس » ، وليست الموضوعات التي تُعرف بواسطة المعطيات الظاهرية ( phenomenal ) للوعي أو مشتقاتها ، وإنما هي حقائق أولية ضرورية ذات صحة شاملة ، تكون لنا بها بصيرة مباشرة تضي على هذه الموضوعات وضوحا ذاتيا . وهكذا تؤدي فكرة وورد الأساسية هذه إلى تأكيد أن كل معرفة بشرية لا تبدأ بالتجربة ، وإنما تبدأ بحقائق معينة واضحة بذاتها . ومن ثم فهي حقائق موثوق فيها على نحو مطلق ، يمكن إدراكها مباشرة ، ويكون يقينها كامنا فيها . هي ذاتها ، وليس مستمدا من أى شيء غيرها . فكل ما تعلن ملكات المعرفة البشرية أنه يقيني على نحو لا يتطرق إليه الشك ، يُعرف لذلك منذ البداية على أنه ذو صحة مطلقة ، واليقين الذاتى هو المعيار الذى نقيس به الحقيقة الموضوعية . ومهما كانت الطرق الأخرى التى نتمكن بها من بلوغ المعرفة ، سواء أكانت هذه الطرق تجربة أم ملاحظة أم استنباطات منطقية أم أية طريقة غيرها ، فإن المعرفة الحدسية تكون على الدوام مفترضة مقدما ، وهى تمثل تمهيدا لا غناء عنه . وبهذه الحقائق التى تُعرف على هذا القدر من الوضوح كان وورد يشيد حصنا ضد هجمات التجريبية السائدة عندئذ ، لا يختلف كثيرا عن ذلك الذى شيده فلاسفة المدرسة الاسكتلندية ، بل إن مذهبه قد احتل بالفعل مكانته فى التيار الفكرى الحدسى القوى الذى أخذت تتجمع وتتلاقى فيه القوى المعارضة للمذهب التجريبي ، دون أن تكون مع ذلك جبهة واحدة مشتركة ، وذلك قبل ظهور الحركة المثالية ( بل وبعد ظهورها فى بعض الحالات ) . وعلى أية حال فانا نجد ، فى هذا الصدد ، تقاربا باطنا بين مفكرين من المدرسة الاسكتلندية ( مثل هاملتن ومانسل وما كوش ) وبين مفكرى حركة أكسفورد ( مثل نيومان وورد ) ، وتلك الجماعات الأخرى التى كانت أهمها جماعة مارتينو .

على أن المعارض بين المذهبين التجريبي والحدسي أكثر من مجرد نزاع على نظرية المعرفة . فلو تأملناه من منظور أوسع ، لوجدناه قائما على التقابل الفلسفي البعيد الأثر ، بين مذهب الألوهية Theism ، والاتجاه المضاد لمذهب الألوهية Anti - Theism . ذلك لأن إقامة مذهب الألوهية ، الذي كان هو موضوع الاهتمام الرئيسي لوورد ، والذي لم يكن يُقصد من نظريته الحدسية في المعرفة إلا أن تكون تمهيدا له ، كان يعنى بالمثل خصومة عنيفة ضد الانجاء إلى عدم الاكتراث بالدين لدى الشكاك واللا أدريين ، الذين كان معظمهم يرجعون في الأصل إلى المعسكر التجريبي . وهكذا وقف يناضل ضد صبغ الفلسفة بصبغة دنيوية ، وهو الاتجاه الذي رأى أن المذهب التجريبي مسئول عنه أساسا ، ورأى في مقابل ذلك أن المهمة الحقيقية والأهم ، الملقاة على عاتق الفلسفة ، هي إثبات الدين وإقراره . وهكذا فلم يكن لجميع الجهود التي بذلها في الميدان النظري من هدف في رأيه إلا تبرير إيمانه الديني آخر الأمر . وأهم ركن في هذا الإيمان هو الإيمان بإله مشخص على النحو الذي قالت به التعاليم المسيحية ( أى العقيدة الكاثوليكية ) . وقد كانت براهين وورد الفلسفية على وجود الله متفقة أساسا مع براهين غيره من المفكرين الكاثوليك مثل نيومان ، ول . أولي - لا برين L. Ollé-Laprune ، وى . كلويتجن J. Kleutgen ، الذين تأثروا بهم تأثرا دائما . ولقد أكد مثلهم بوجه خاص الحجة الأخلاقية وجعلها الأساس الرئيسي لدفاعه عن الدين . غير أنه لم يتمكن ، من الواجهة النظرية البحتة ، من إيجاد مكان لوجود الله في فلسفته ، من غير أن يخالف سائر مبادئ تفكيره ، إلا بقدر ما رأى في حقيقة وجود الله واحدة من تلك الحقائق الأولية التي تنطوي في ذاتها على يقين مطلق ، نظرا إلى وضوحها الذاتي . فوجود الله لا تضمنه حقائق التجربة ولا البراهين المنطقية ، وإنما تضمنه البصيرة المباشرة بحسب .

وأخيرا فإن مبدأ الحدس يظل بدوره محفوظا عندما يُطبق على الأخلاق . والواقع أن آراء وورد في هذا الموضوع ، وإن كانت هي النتيجة الطبيعية لمقدماته الخاصة في نظرية المعرفة ، لم تجد التعبير الواضح عنها إلا قرب نهاية حياته ، عندما عرف آراء « أولى - لا برين » ، أي الحركة « التجديدية Modernist » ، الذي تأثر وورد تأثرا عميقا ببحثه « في اليقين الأخلاقي De la Certitude morale » ، ( ١٨٨٠ ) ، واستمد منه الكثير مما أعانه على بلورة آرائه الخاصة في هذا الموضوع . واقد كانت لمشكلة اليقين الأخلاقي في نظر وورد ، كما كانت في نظر أولى - لا برين ، مكانة رئيسية . وكما أن هناك حقائق نظرية ومتغيرات يرقية ضرورية ، فهناك أيضا استبصارات أخلاقية ، لها يقين مطلق نظرا إلى وضوحها الذاتي الملزم . فأفكار الخير والشر ، والصواب والخطأ ، والفضيلة والرذيلة ، هي أفكار بسيطة تماما ، ولا تقبل مزيدا من التشریح أو التحليل . فكون خيانة صديق شرا ينبغي استهجانا لذاته ، هو بالنسبة إلى أمر له يقين حدسي محض ، ولا يحتاج إلى مزيد من البحث : فهنا أعترف بحقيقة أخلاقية واضحة بذاتها ، وبالتالي ضرورية . غير أن الوضوح الذاتي لمثل هذه اليقنيات الأخلاقية يلزمنا بالاعتراف بوضوح ذاتي ثان متضمن في الأول ، وأعني به كون هذه اليقنيات ترجع في أساسها إلى وجود الله . ذلك لأن كون مصدر البديهيات الأخلاقية - أي استحسان الخير واستهجان الشر - هو كائن من نوع أعلى ، هو بدوره مسألة بصيرة مباشرة . فجنود الأخلاقية ترجع إلى الله بوصفه المشرع الأعظم للمعايير الأخلاقية ، وهي في الوقت ذاته أفضل برهان على ضرورته ووجوده .

وأخيرا ، فإن هذا الموقف يلقي ضوءا ساطعا على مشكلة الحرية . ذلك لأن وورد ، شأنه شأن معظم ممثلي الأخلاق الحدسية ، يجهر بأنه من خصوم الحتمية ، وهكذا يجد نفسه في هذه المسألة بدورها متخذا بطبيعته

موقف المعارضة من المذهب التجريبي بنظرته الآلية والحتمية . ولقد كان الخصم الأكبر الذى اشتبك معه ، فى هذه الحالة أيضا ، هو مل . ويرى وورد أن مشكلة حرية الإرادة تتوقف أساسا على مسألة كون الإنسان قادرا أو غير قادر على مقاومة نزعاته الإرادية الطبيعية . ويعتمد وورد ، فى الإجابة على هذا السؤال ، على حقائق التجربة ، وذلك على خلاف ما جرت عليه عادته . فهذه الحقائق تثبت أن الكائن الذى وهب عقلا يملك هذه القدرة بالفعل بدرجة كبيرة — أى أنه يستطيع أن يكبح جماح نفسه ويقاوم النزوع التلقائى لإرادته — وأنه بقدر ما تكون له هذه القدرة ، تكون أفعاله حرة بحق ، بغض النظر تماما عن كونه يمارس هذه القدرة فى أية حالة خاصة أم لا . وهكذا يبدو أن فى هذا الاتجاه البسيط إلى التجربة ، الذى يصل مباشرة إلى لب المشكلة ، برهانا كافيا على الاحتمية . غير أن للمشكلة وجها آخر : فهى لا تنطوى فقط على رأى السلبي القائل إن الإرادة ليست ، خاضعة للحتمية فى كل أمر ، وإنما تنطوى أيضا على رأى الإيجابي القائل إن الإنسان ذاته مصدر أصيل للنزوع الإرادى أو علة للفعل الإرادى لها استقلالها الذاتى . وعند هذه النقطة تتشابك الخيوط التى تربط بين الأخلاق والدين . فليس هناك سوى منبعين أصيلين من هذا النوع ، لتلك العلية التى لا تخضع لحتمية خارجية ، هما الإرادة الإلهية والإرادة البشرية . إذ بينما يكون الله ، بوصفه العلة القصوى والعليا ، هو أصل كل حادث ، وبالتالي أصل الإرادة البشرية بدورها ، فإن النزوع الإرادى للإنسان لا يخضع مباشرة لحتمية الإرادة الإلهية . بل لقد جعلت قوة الله الخالقة من الإنسان مركزا للنزوع الإرادى قائما بذاته ، وقد أضفى الله ، بمحض اختياره ، على مخلوقه تلك الحرية التى ينفرد بها وحده ، فمنحه القدرة على إحداث الحوادث ، وبذا يتسنى له أن يتحرر ، فى حدود معينة ، من الارتباط بالله ، ويسلك مستقلا عن الإرادة الإلهية . وهكذا فقد تخطى الله ، إلى درجة محدودة ،



عن السيطرة على الإرادة والسلوك البشرى ، وإلى هذا الحد يكون الإنسان حراً ، بمعنى أن لديه حرية الاختيار بين الصواب والخطأ ، وبين الخير والشر . وهكذا نهتدى إلى حل طبيعى للنقيضة القائمة بين الأخلاق والدين ، والتي تثيرها مشكلة الحرية ، وهو حل يعترف اعترافاً كاملاً بالاستقلال الذاتى للعالم الأخلاقى ، ولكنه فى الوقت ذاته يربط بينه وبين القانون الإلهى .

ويجدر بنا فى هذا الصدد أن نشير إلى فرانسيس وليام نيومان Francis Newman الذى قال بآراء لا تختلف كثيراً عن آراء أخيه الشهير ، وإن لم يكن قد انضم إلى حركة أكسفورد . ولقد كان فرانسيس نيومان كاتباً خصباً غزير التأليف ، غيز أن مزاجه كان مزاج الباحث الهادئ أكثر منه مزاج المناضل أو الزعيم فى صراع دينى . وكان ضحية شتى أنواع الهواجس ، فنسج حول نفسه عالماً فكرياً خاصاً به ، دون أن يشعر بالحاجة إلى أية زمالة فكرية مع الآخرين ، ودون أن يكون متصفاً بما كان يلهم أخاه من انفعال رفيع واقتناع عميق بإيمانه . ولقد كان فرانسيس أقل مكانة من أخيه ، سواء فى شخصيته ومن حيث عمق التفكير ووضوحه ، وصدق العزيمة ، وقوة الإيمان ، وإنه لمن عدم التوفيق من جميع النواحي أن يوضع قبل شخصية الكردينال العظيمة ، أو حتى أن يوضع إلى جانب «شليير ماخر»<sup>(١)</sup> Schleiermacher ، (كما فعل فليدر

(١) فريدرش إرنست دانييل شلييرماخر (١٧٦٨-١٨٣٤) لاهوتى وفيلسوف ألماني ، كان نائراً ضد الأوضاع التقليدية فى اللاهوت والأخلاق ، وأبحاثه على ذلك صلاته للقوية بالكتاب والشعراء الرومانتيكيين . وأهم أفكاره الإيجابية فى اللاهوت ( كما عرضها فى كتابه الرئيسى « العقيدة المسيحية » ) هى القائمة بعدم وجود تعارض بين الدين والفلسفة والعلم ، بشرط أن يتحرر الدين من التبريرات الميتافيزيقية والأفكار التوكيدية الجامدة . ومن أهم آثاره فى ميدان الفلسفة ترجمته لمحاورات أفلاطون ، التى أتمها سنة ١٨١٠ .

مؤلفات : ( Pfleiderer ، ) . وقد عرضت أهم آرائه الدينية والفلسفية فى ثلاثة مؤلفات : فى « النفس The Soul » ، ( ١٨٤٩ ) ، وهو كتاب يقسم بالصدق والحساسية ، ويفيض بالحاسة الصوفية فى كل صفحاته ، ثم « مراحل الإيمان Phases of Faith » وهو ترجمة ذاتية لحياته وصف فيها تلك الرحلة الروحية التى انتقل فيها من تعاليم المسيحية إلى مذهب ألوهى ( theism ) منفصل عن جميع الارتباطات الكنسية الإيجابية - وهو مؤلف يوازى كتاب أخيه « دفاع عن حياتى » ، وهناك أخيراً كتابه « الألوهية » ، مذهبياً وعملياً و Theism, doctrinal and practical ( ١٨٥٨ ) ، وهو كتاب يتضمن عرضاً أكثر منهجية لوجهة نظره اللاهوتية .

ولقد كانت وجهة نظره هذه ، مثل وجهة نظر أخيه ، فردية وضد العقلية ، غير أن فرديته تتركز ، على نحو أشد وأكثر تحيزاً حتى من أخيه ، فى العلاقات ذات الطابع الشخصى الكامل ، التى تربط بين النفس والله . فالمصدر الوحيد لمعرفة حياة الله هو نفس المرء ذاتها ، وهو تلك الحاسة الباطنة التى تكشف لنا الماهية الإلهية ، والعضو الذى نتمكن بفضلها من الاقتراب من الموجود الإلهى والاتحاد به . وهنا نستطيع أن نلحظ تياراً صوفياً قوياً ، يقترن به رفض كل الوسائط الخارجية للطف الإلهى ، وكل سلطة ملزمة أيا كانت ، سواء أكانت الكنيسة والعقيدة ، أو سلطة الإنجيل ، أو حتى وساطة المسيح .

والركن الوحيد الباقى من الإيمان هو الألوهية الصوفية كما تتكشف وتدرج فى التجربة الحية للنفس . ولكن على الرغم من كل العمق والإخلاص الذى اتسمت به تلك التجربة التى نبعت منها هذه المحاولة ، فإن هذه المحاولة للوصول إلى مذهب ألوهى منقى من جميع الشوائب تعنى فى الواقع أن الجوهر الأصيل للدين قد 'خفف أو فرغ تماماً' . وإن اتجاه فرانسيس نيومان ليوحى ، على عكس حماسة شقيقه وحيويته ، المقترنة

بإيمان راسخ بالحياة التنظيمية الفعلية للكنيسة ، بأن لصاحبه روحاً منعزلة تطرب لعواطفها الخاصة ، حتى يشعر المرء بأن التفكير الديني قد تراجع أمام الأنا الذي يقنع بتأمل نفسه منعكساً في مرآة ذاتية ، وأمام التجربة ذات النوع الذاتي الشخصي المحض .

ولقد رأينا أن للفلسفة الدينية لحركة أكسفورد ، كما تمثل لدى ج. ه. نيومان و. و. ج. وورد ، سمّة بارزة يمكن تسميتها بالنزعة الأخلاقية moralism ، وفي هذه النزعة يتمثل الوعي الأخلاقي ، بكل تأكيد ممكن ، على أنه أساس الدين ، بل على أنه معيار حقيقته . فتعاليم حركة أكسفورد تفترض مقدماً أن نقطة بداية الدين هي الأخلاق ، وأن كل تطور أصيل للوعي الديني ينطوي في ذاته على السعي إلى الكمال الأخلاقي — وهذا الاتجاه في الوقت ذاته دليل على مدى تغلغل جذور التراث الإنجليزي فيها . ولقد ظهر نفس هذا الاتجاه ، على نحو أوضح وأبرز ، في مذهب آخر ، هو المتألية الأخلاقية عند مارتينو James Martineau .

ولقد كان هذا المذهب الأخير بالتأكيد مستقلاً عن حركة أكسفورد ، غير أن الأهداف التي اتجه إليها والميول التي كشف عنها لها بعض الشبه بهذه الحركة ، فضلاً عن أن تعاليمه الفلسفية بوجه خاص تقرب منها اقتراباً وثيقاً في نقاط متعددة . ولقد كان مارتينو ، بعد نيومان ، هو بالتأكيد أقوى مجدد وباعث لحياة الروح في مجال الأخلاق والدين من أبناء الشعب الإنجليزي في القرن التاسع عشر . وهو ينتمي مثل نيومان ، إلى الصف الأول من كبار العقول في العصر الفسكتوري .

وتعد فلسفة مارتينو<sup>(١)</sup> تعبيراً عن اعترافات شخصية عظيمة أكثر

(١) جيمس مارتينو ( ١٨٠٥ — ١٩٠٠ ) اشتغل قسيساً في الكنيسة التوحيدية Unitarian من ١٨٢٨ إلى ١٨٤٠ ، وعمل أولاً في دبلن ، ثم في ليفربول ، وأخيراً في لندن .

بما تعد نظرية مذهبية بالمعنى الضيق . فهي لم تكن نتاجا لآية مدرسة أو اتجاه فلسفي خاص ، بقدر ما كانت ثمرة للقوى والحركات العقلية العامة التي أضفت على العصر الفكتوري طابعه وميزاته الخاصة . وبفضل الاتصالات الشخصية والأدبية التي أقامها مارتينو ، كان أكثر تغلغلا في هذه الحركة من معظم المفكرين الآخرين في عصره ، ولعل من أهم أسباب ذلك طول حياته ، التي بدأت من السنة التالية لوفاة كانت ، ولم تنته إلا بعد بداية القرن الجديد ، واشتمل عمره على حوالى ثلاثة أجيال ، وبذلك شهد ظهور وانقضاء عدة تيارات وحركات فكرية مختلفة . وإذا كان تطوره الذهني يرجع إلى فترة أسبق كثيرا من الفترة التي نعرضها هاهنا ، إذ يبدأ من العقد الثالث في القرن الثالث الماضى ، ثم يمتد طوال جزء غير قليل من مجرى هذه الفترة ، ليصل إلى قمته الحقيقية في فترة النضج الكامل الوضاء خلال عمر متقدم كانت له فيه مواهب نادرة . والواقع أن الكتب التي جلبت لمارتينو أكبر قدره من الشهرة الفلسفية تكاد كلها تكون منتمة إلى فترة كهولته المتأخرة جدا<sup>(١)</sup> ، ولا توجد قطعا أية حالة أخرى لمفكر وصل إلى أعلى درجات الإنتاجية الخلاقة فيما بين سن الثمانين والتسعين من عمره .

---

== واشتغل من ١٨٤٠ إلى ١٨٨٥ أستاذا في « نيوكوليدج New College » بمانشستر ، وقد نقلت هذه الكلية في ١٨٥٣ إلى لندن فاشغل أولا كرسى الفلسفة والاقتصاد السياسى ، ثم كرسى الفلسفة الأخلاقية والدينية منذ ١٨٥٧ ، ثم أصبح عميدا للكلية منذ عام ١٨٦٩ : وأهم مؤلفاته المعروفة هي : « أنماط من النظرية الأخلاقية Types of Ethical Theory (في مجلدين ، ١٨٨٥ ، الطبعة الثالثة ١٨٩١) » ؛ ثم « دراسة للدين A Study of Religion (في مجلدين ، ٨٨٨ ، الطبعة الثالثة ١٩٠٠) » ؛ ثم « محور السلطة في الدين The Seat of Authority in Religion (١٨٩٠ . الطبعة الثالثة ١٨٩١) » ، فضلا عن مجموعة من « المقالات والتعليقات والمحط Essays, Reviews & Addresses (في أربع مجلدات ، ١٨٩٠ — ١٨٩١) » .

(١) ليس هذا صحيحا كل الصحة . فكتابات الفلسفية الرئيسية لم تشر إلا بعد أن اعتزل عمادة الكلية ، غير أن محتوياتها كانت تؤلف مادة محاضراته ، قبل ذلك بسنوات عديدة .

[ الناشر ]

وإلى هذا الحد تكون أعمال مارتينو وتأثيره متممة أساسا إلى الفترة موضوع البحث في هذا الجزء من كتابنا ، وإن يكن إنتاجه الفكري قد بدأ في فترة أسبق بكثير .

ونرجع الأهمية الخاصة لتطور مارتينو ، من حيث هو فيلسوف ، إلى أن هذا التطور يعكس السمات المميزة لثقافة عصره في مجموعها . وقد عرض هذا التطور في مقدمته لكتاب « أنماط من النظرية الأخلاقية » . فقد تأثر بعمق ، في شبابه ورجولته المبكرة ، بطريقة التفكير التجريبية والحتمية التي كانت سائدة في البيئة الوثيقة الصلة به ، وأصبح على التوالي من الأنباع المخلصين لتعاليم كل من لوك ، وهارتلي ، وكولينز ، وإدواردز ، وبريستلي ، وبنثام ، وجيمس مل . ولكن حتى في ذلك الوقت كانت تطرأ على ذهنه من آن لآخر شكوك حول صحة هذه المذاهب ، وإن تكن صداقته الوثيقة لمل الابن قد خففت من شكوكه مؤقتا . ولكن بدأ يحدث داخله تحول عميق ، انتهى بصورة مؤقتة عام ١٨٤٠ ، وأدى إلى انشقاقه صراحة عن نمط التفكير الذي كان يقبله من قبل . وكان من الواضح أن هذا التغيير قد حدث نتيجة لنمو باطن أكثر مما حدث نتيجة لمؤثرات خارجية . فقد كشف له تأمله العميق في مشكلات التجربة الباطنة عن عامل لم يكن قد لاحظته حتى ذلك الحين ، وهو وظيفة الذهن ، المستقلة بذاتها ، في الإرادة والمعرفة ، والتي تنطوي على شيء مختلف ومستقل عن مجرد تغير الظواهر والنوازع وتعاملها ، وتظل خلال هذا التغيير محتفظة بهوية ثابتة . وكانت مشكلات الوعي الأخلاقي هي التي تشغله أكثر من غيرها . فقد بدأ يدرك المعنى العميق لأفكار مثل المسؤولية ، والذنب ، والجدارة ، والواجب ، وأصبح وجهها لوجه إزاء مسألة احتمال وجود عالم مثالي لما ينبغي أن يكون ، من فوق كل موجود تجريبي ، واحتمال كون هذا العالم المثالي هو الذي يستطيع أن يمدّه بوجهة النظر التي يمكن من خلالها فهم المعنى.

الحقيقى للارادة البشرية والسلوك البشرى فالمذهب الطبيعى Naturalism لم يمكنه من تقديم إجابة على هذه الأسئلة المحيرة ، ولذلك تخلى عن تلك النظرة إلى العالم ، التى تؤكد أن كل حادث باطن ، لا كل حدث ظاهر فحسب ، يخضع لقانون على دقيق . ثم أدى به الاختبار النقدى لمشكلة العلية إلى مراجعة دقيقة للمذهب الذى سبق له قبوله ، ومهد الطريق للكشف الذى أصبح فيما بعد من السمات الرئيسية لتفكير مارتينو .

وهكذا كان مارتينو قد تمكن ، عندما بلغ سن الأربعين ، من التغلب على المذهب الطبيعى فى نقاط أساسية معينة ، غير أن تحوله التام إلى المثالية كان نتيجة اطلاعه المباشر على الفلسفة الألمانية ، و إعجابه بها ، أثناء فترة الدراسة فى برلين فى شتاء ١٨٢٨ - ١٨٢٩ . ولقد رأى هو نفسه ، عندما بلغ الشيخوخة ، أن هذه التجربة كانت لها أهمية عظيمة فى تطوره الذهنى ، فتحدث عن « ما يمكن أن يقال عنه إنه تعليم ثان تلقيته فى ألمانيا ، سار فيه « إرشاد سديد من المرحوم الأستاذ ترندلنبرج Trendelenburg قبل غيره ، ووصف تأثير هذه التجربة بأنه « ميلاد روحى جديد ، . على أن هذا الاتصال بترندلنبرج ، شارح أرسطو المشهور ، الذى حضر مارتينو محاضراته فى المنطق وتاريخ الفلسفة ، لم يمهده بأى مذهب فلسفى تام الإعداد كان يستطيع أن يتخذه لنفسه بأكمله ، ولم تكن ميتافيزيقا ترندلنبرج بأسرها مقبولة لديه . وإنما كانت نتيجة هذا اللقاء هى أنها أمدته لأول مرة بفهم عميق للتطور الكامل للتفكير الفلسفى منذ العصر اليونانى القديم حتى الفلاسفة الألمان المحدثين ، فتمكن بذلك من أن يلح الارتباطات الباطنة والقوى الروحية الفعالة فى جميع المذاهب الماضية العميقة ، ومن أن يجمعها كلها سويا . وعلى هذا النحو حصل ما لم يكن لديه من قبل ، أى على ذلك العناد العقلى الذى تمكن بفضل من أن يجمع فى وحدة فلسفية واحدة بين مختلف الأفكار النظرية والأخلاقية والدينية التى كانت تدور

في رأسه وتكافح من أجل التعبير عن نفسها تعبيراً واضحاً . وكتب هو ذاته من برلين ( في ٢٥ فبراير سنة ١٨٤٩ ) . يقول : « إن محاضرات ترندلنبرج في تاريخ الفلسفة قد لبثت حاجاتي تماماً ، فلم تعرض عليّ مذهباً .. وإنما أمدتني بمرشد أمين لمصادر المذاهب اليونانية القديمة والألمانية الحديثة ، وأتاحت لي على أفضل وجه فرصة لإعادة النظر في آرائى الخاصة وتصويبها » . ( حياة جيمس مارتينو Life & Letters of James Martineau من تأليفه ج . درموند J. Drummond وك . ب . أبتن C. B Upton . المجلد الثالث ، ص ٣٣١ ) وهكذا لم يكن ذلك حافزاً له على إعادة دراسة كتابات أفلاطون وأرسطو فحسب ، بل أيضاً على التعمق في الأفكار الزاخرة للمثاليين الألمان ، ولا سيما كانت وهيجل ، اللذين بدأ الغموض ينقشع عن كتاباتهما لأول مرة ، كما صرح هو ذاته . ولقد كان هذا التوضيح المتبادل للمذاهب الفكرية الألمانية عن طريق المذاهب اليونانية ، ولليونانية عن طريق الألمانية ، هو الذى أدى إلى ظهور الكشف الفكرية الجديدة التى تجمعت لتسكوّن فلسفة مارتينو الخاصة . والتي لم تعرض مع ذلك عرضاً ناضجاً إلا بعد جيل أو أكثر . ومن ثم فإن هذه الفلسفة لا تنتمى إلى أية مدرسة فكرية بعينها ، وإنما هى تجمع في ذاتها العناصر الرئيسية للتفكير المثالي في كل الأوقات وبين جميع الشعوب ، على نحو ما يتمثل في المذاهب الدينية ( ولا سيما المسيحية ) وفي المذاهب الفلسفية . فالواقع أن التعاليم الدينية والمسيحية كان لها ، في تشكيل تفكير مارتينو ، دور لا يقل عن دور النظريات الفلسفية ، وكانت مصدراً لقوة متجددة على الدوام في صياغة نظريته العامة إلى العالم .

وهكذا فإن مارتينو قد أعاد بناء طريقته الخاصة في التفكير من أساسها بعد اتصاله المباشر بالفلسفة الألمانية قبل فترة من بدء الحركة المثالية الجديدة في العقد الثامن من القرن الماضي ، وقد أفاده المفكرون اليونانيون في عملية التجديد هذه مثلما أفادوا تلاميذ كانت وهيجل في أكسفورد فيما بعد وهكذا

استبق ، بشخصه ، تطور الفلسفة الإنجليزية بحوالى عشرين عاما ، ولكنه  
 ظل فى البداية شخصية منعزلة ، فكان عاجزا عن أن يبدأ من ذاته حركة  
 فكرية جديدة ، أو أن يهتدى إلى حركة ينضم إلى صفوفها . وكان سبب  
 هذا الافتقار النسبى إلى التأثير مزدوجا . ذلك لأنه لم يكن قد صاغ التعاليم  
 التى اتخذت قواما محددًا فى ذهنه على شكل منهجى فى مؤلف رئيسى ، وإن  
 يكن قد عبر عنها فى كتابات صغيرة كانت تظهر من آن لآخر ؛ ولم تكن  
 هناك بيئة لديها الاستعداد العقلى لتلقى آرائه وتقبلها ، على نحو ما أصبحت  
 جامعة أكسفورد فيما بعد . وعندما بدأت حركة إحياء كانت وهيكل  
 فى أكسفورد فيما بعد ، وسارت فى طريقها الظافر ، استقبل مارتينو  
 وتلاميذه فى البداية الحركة بأعظم الترحيب ، إذ شعروا بأنها قريبة كل  
 القرب من نظرتهم الخاصة . وحاز جرّين بوجه خاص إعجاب مارتينو ،  
 وجمعت بين الرجلين صداقة أفاد منها كلاهما . ولقد وجدا أساسا مشتركا  
 لجهودهما الفلسفية ، ليس فقط فى نقط الالتقاء المتعددة التى تميزت بها  
 نظريتهما ، بل أيضا فى ذلك الاهتمام بالدين ، الذى كان يتميز به الأنصار  
 الأولون لمذهب أكسفورد المثالى ، مثلما كان يتميز به مارتينو . وفضلا  
 عن ذلك فإن اشتراكهما فى محاربة نفس الأعداء - أعنى الاتجاهات  
 المادية واللاأدرية والمذاهب الطبيعية naturalistic السائدة فى ذلك  
 العصر ، قد جمع بينهما فى محالف واحد . ولكن العلاقات الطيبة التى تميزت  
 بها السنوات الأولى اهتزت فيما بعد على نحو ملحوظ ، ووجد مارتينو  
 ومن يماثلونه فى التفكير أنهم يقفون موقف المعارضة الشديدة من  
 المثاليين ، ولا سيما الهيجليين الأوائل . وكان قوام الاختلافات بينهما هو ،  
 من جهة ، ذلك الفارق الأساسى بينهما فى طريقة معالجة مشكلتى الحرية  
 والشخصية ( وهما أهم المصادرات فى مذهب مارتينو ) ، ومن جهة أخرى  
 ذلك الانجاء المتزايد إلى صبغ التفكير بصبغة دنيوية لدى المذاهب المطلقة  
 عند الهيجليين المتأخرين . وفى مقابل ذلك التفت تعاليم مارتينو فى نقاط



متعددة مع أولئك المثاليين المحدثين الذين كانوا يمثلون مذهباً « تشخيصياً personalist » ، والذين كانت وجهة نظرهم أقرب إلى لوتسه Lotze منها إلى هيجل — ومن أمثلة هؤلاء المثاليين المحدثين ، برنجل باتيسون Pringle - Pattison ، راشدل Rashdall ، وسورلي Sorley . والواقع أن فلسفة مارتينو في مجموعها قريبة في نواح عدة من فلسفة لوتسه ، وكانت لها في إنجلترا رسالة مماثلة لرسالة لوتسه في ألمانيا .

وعندما نشرت على الملأ ، في العقدين التاسع والآخر من القرن التاسع عشر ، مؤلفات مارتينو المذهبية الكبيرة ( وهي « أنماط من النظرية الأخلاقية » ، « ودراسة للدين » ، « ومحور السلطة في الدين » ) أثارت اهتماماً كبيراً ، ولقيت ترحيباً حاراً ، ولا سيما من خارج أوساط الفلاسفة المحترفين . ولكنها جاءت أكثر تأخراً من أن تكون مفرق طرق في تاريخ الفكر الإنجليزى . ذلك لأن الحركة المثالية المحدثه كانت قد اكتسبت منها قصب السبق ، ولم تعد لهذه الكتابات الأهمية التي تمكنها من أن تكون قوة تدفع الفكر إلى الأمام ، وإنما استطاعت فقط أن تعيد تثبيت ودعم مواقف تم التعبير عنها بكل دقة قبل ذلك بسنوات عدة . ولم يكن تأثيرها راجعاً إلى المضمون الفعلى لما نشرته من تعاليم ، بقدر ما كان راجعاً إلى كونها وصية أدبية لزعيم مشهور اكتسب احتراماً عميقاً ، وشاهداً على شخصية أخلاقية رفيعة عاشت بقوة الذهن وعلت الناس كيف يعيشون بها .

ولقد كانت أهم الميادين التي امتدت إليها قدرة مارتينو واهتمامه الفلسفى هي الأخلاق وفلسفة الدين ، ولم تكن معالجة المشاكل النظرية الخالصة في نظرة غاية في ذاتها ، وإنما هي وسيلة تمهد لفلسفته الأخلاقية والدينية وتدعمها . لذلك ألحق مناقشة هذه المشاكل ببحثه في طبيعة الدين ( في المجلد الأول من « دراسة في الدين » ) ، ولم يكرس لها كتابات

خاصة . وكانت المشكلتان اللتان أبدى بهما اهتماما خاصا هما مشكلتا المعرفة والعلية . ولن تناقش هنا أولى هاتين المشكلتين ، إذ لم يكن فى معالجة مارتينو لها من جديد ، أما نظرية العلية فتمهد الطريق مباشرة للشا كل الميتافيزيقية الكبرى .

فالعلة تعنى أولا العلاقة بين عاملين ، العلة والمعلول . وتبعاً للنظرية السائدة ، التى تمثلها المذاهب الطبيعية naturalistic التى تسود التفكير العلمى تماما ، فإن العملية العلية تحدث فى عالم الظواهر . فالعلة والمعلول معا ظاهرتان تربطهما سويا علاقة تسلسل وارتباط ضرورى ، بحيث تسبق العلة المعلول فى الزمان وكأنها هى التى تبعثها . والعاملان معامتجانسان تماما ، ولهما نفس الطابع الوجودى . وهكذا فإن العلة هى التعاقب الزمنى للظواهر المرتبطة تبعاً لقانون ما . ونتيجة ذلك هى نظرية الحتمية ، أى كون كل حادث داخلى أو خارجى متحددا تماما تبعاً لقانون على ، تخضع له الإرادة البشرية بدورها خضوعاً تاماً .

وفى مقابل هذا التفسير للعلة ، يؤكد مارتينو أن العلة تتسم بطابع الشئ فى ذاته ؛ فهى ليست ظاهرة ضمن سائر الظواهر ، وإنما هى قوة إنتاجية أصيلة . والمعلول لا يتلو منها بمجرد التعاقب العلى فحسب ، بل إن العلة تنتجه وتولده . وهكذا يصبح معنى العلية هو التوليد أو الإنتاج ، أى أن العلة تصبح لا متجانسة مع المعلول . وأساس كل المظاهر ذاتها لا يكون فى العالم الظاهرى ، وإنما فى عالم لا ظاهرى للعلل المنتجة . وينتقل مارتينو بعد ذلك إلى محاولة إثبات أن العلة الحقيقية الوحيدة التى نعرفها هى فاعلية الإرادة ، وأن ماهية العلية هى إذن هوية مع الإرادة . غير أن الإرادة تتمثل أولاً ، وقبل كل شئ ، فى ذات المرء نفسه أو فى الشخصية الإنسانية . ففى تأكيدى لإرادتى أكون على وعى تام بذاتى بوصفها قوة قادرة على إحداث ظواهر ، وعلة أصيلة قادرة على تغيير عالم الظواهر

ولكن ، على حين أن القوة الناتجة عن فعل الإرادة هي شر ضرورى لمثل هذا الاختيار ، فليس فيها هي وحدها ما بوضوح سبب تغيير معين دون غيره ؛ ومن ثم فإن ماهية فعل الإرادة إنما تنحصر ، لا في مجرد فيض القوة ، وإنما في قدرة الإرادة على اختيار طريقة معينة للسلوك من بين طريقتين أو أكثر من طرق السلوك المتاحة لها ، وفي أن تستقر على هذه الطريقة وتوجه إليها تلك القوة التي تطلقها والتي تحدث التغيير . وبهذا المعنى لا تكون العلية إلا تعبيراً عن إرادة ، ولكن من الواضح أن إرادة الإنسان لا يمكن أن تكون هي العلة الوحيدة في العالم بأكمله . فهناك من فوقها الإرادة الموضوعية أو الكونية ، وهي ليست إلا إرادة الروح الإلهية التي خلقت العالم وتحدث فيه كل تغير فيما عدا ما يقع في النطاق الضيق المخصص للنشاط البشرى . وهكذا فإن الحقيقة الأساسية للعالم هي الإرادة بمعنى الممارسة الحرة للعية ، ويغدو العالم أو الطبيعة مظهراً للإرادة العليا للروح الإلهية .

وهكذا فإن المصادرتين الكبيرتين اللتين بنى عليهما نظرية مارتينو في العلية ، والدعامتين الهاتنتين اللتين يرتكز عليهما بناؤه الميتافيزيقى ، هما مصادرة حرية الإرادة البشرية والإيمان بسلطة الله . فالأولى هي محور نظريته الأخلاقية ، والثانية لب فلسفته في الدين . وترتبط بالإيمان بالوهمية المبدأ الأعلى فكرة تجسده في عالم الطبيعة وفي النفس البشرية معاً . كما ترتبط بمصادرة الحرية فكرة وحدانية النفس البشرية وفرديتها الأصلية وقيمتها اللامتناهية ، وتضاف إلى هاتين أخيراً مصادرة ثالثة هي الإيمان بعدم فناء الروح البشرية وبقائها في حياة مقبلة دائمة .

وهكذا يتوقف مذهب مارتينو تماماً على فكرته عن الحرية الأخلاقية — ومعها فكرة الشخصية المستقلة الشاعرة بالمسئولية ، والموهوبة عقلاً ؛ فالشخصية الأخلاقية حرة ، لا بالنسبة إلى عالم الحوادث

الطبيعية فحسب ، بل بالنسبة إلى إرادة الله أيضا . إذ على الرغم من أنها تشارك في الروح الأزلية التي خلقتها والتي تكون حية فيها ، فإن هذا لا يستتبع فقدانها لاستقلالها ولا كفافها الذاتي الأساسي . ومع ذلك فليست حريتها ملكا أصليا لها ، وإنما تضفيها عليها الإرادة الإلهية . وهبة الحرية هذه هي التي تمكن الشخصية الإنسانية من الاختيار بين السبل الممكنة للسلوك ، وبالتالي من الاضطلاع بالمسؤولية الكاملة عما تفعل . وعلى هذا النحو لا يكون ثمة قيد على الإرادة الإلهية ولا على البشرية : فالله قد خلق العالم البشرى بحريته وهبه حرية ، حتى يتمتع الإنسان ، بقدر ما هو شخصية أخلاقية ، بحرية تجعله مستقلا عن الإرادة الإلهية . وهكذا يتميز المجالان البشرى والإلهي ، تميزا واضحا ، وبفضل هذا الانفصال بين الإنسان وبين الله ينسجم استقلال المتناهي مع الطابع المطلق للوجود اللامتناهي ، ويتم التوفيق بين مذهب الألوهية Theism وبين مذهب الاحتمية Indeterminism . والثنى الذى يدفع مقابل ذلك هو بطبيعة الحال قبول الثنائية التي تسود المذهب بأسره ، ولا تقتصر على الثنائية الأصلية بين الإنسان والله ، وإنما تميز تفكير مارتينو في مجموعه ، بما فيه من تفضيل للمتقابلات المطلقة ، وللخطوط الفاصلة التقاطعة ، والتقسيمات الفرعية المتميزة .

ولعله قد اتضح الآن أن هذا المذهب مضاد تماما لمذاهب الهيجليين المطلقة ( absolutist ) ، ومن هنا ندرك سبب ذلك العنف الذى حارب به مارتينو وأتباعه نمو المثالية الفلسفية . ففي رأى مارتينو أن المذهب الهيجلي ، على الرغم من استخدامه الدائم للفظ الحرية ، لم يكن في مجموعه إلا حتمية مقنعة ، تنطوى على اختفاء الشخصية ، التي ادعى هذا المذهب أنه يقدرها ، في « غياب المطلق » . ولم يكن في وسعه أن يرى هذا « المطلق » ، إلا إطارا

حيثافيزيقيا مجردا معقدا ، توضع في مقابله الشخصية الحية العينية للطلق الإلهي . وفي الوقت ذاته أحس بنفور من ميتافيزيقا برادلي ، لأنها قدفتحت الباب ، في رأيه ، لمذهب شمول الألوهية والصوفية ، وبذلك أزال كل الحدود التي رأى ذهنه الهادي الصريح ضرورة رسمها .

أما مذهب مارتينو الأخلاقي ، كما عرضه في « أنماط من النظرية الأخلاقية » ، فهو ثمرة دراسة شاملة لمختلف النظريات التي يكشف عنها تاريخ الفلسفة الأخلاقية . وإن هذه المحاربة الطريفة لوضع مذهب « أنماط الأخلاقية » لتشبهه من بعض الأوجه المنهج الذي سار عليه سدجويك ، وإن كانت قد أدت إلى نتائج مخالفة تماما . فهو يقسم المذاهب الأخلاقية أولا إلى فئتين رئيسيتين : مذاهب نفسانية ومذاهب غير نفسانية ، وأساس التقسيم هو كون المسلمات الأخلاقية الأساسية يتوصل إليها ، من جهة ، من الداخل — عن طريق المعرفة الذاتية — ومن هناك تمتد لتأني بتفسير للعالم الموضوعي ، أو كونها تسير في الطريق المضاد . وفي هذه الحالة الأخيرة تكون هناك مجموعتان فرعيتان ، في إحداها يكون أساس المشكلة الأخلاقية البشرية في افتراض كيانات ميتافيزيقية ، وفي الأخرى يكون في مجرد الظواهر وقوانينها . وتسمى الفئة الأولى من هاتين الفئتين الفرعيتين باسم النظريات الميتافيزيقية ( التي تنسحب إلى المتعالية transcendental عند أفلاطون والباطنة أو الكامنة immanent عند ديكارت ومالبرانش واسبينوزا ) ، أما الفئة الثانية فهي الفيزيائية ، التي يعد كونت أهم ممثليها . كما تقسم الأنماط النفسانية من النظريات إلى نفسانية ذاتية idiopsychological ونفسانية غيرية heteropsychological . فالأولى تقوم على حدس الوعي الأخلاقي الفردي ، والثانية على ملكة نفسية غير هذه . وهذا النمط النفساني الغيري قد يتخذ

بدوره ثلاثة اتجاهات ، يستمد فيها ماهية الحقيقة الأخلاقية من الحسن أو من العقل أو من التجربة الجمالية . وتنتمي إلى الفرع الأول من هؤلاء كل أخلاق للذة ( ويمثلها على الأخص أبيقور وبنطام ) ، سواء أكانت نفعية أم تطويرية . ويمثل النوع الثانى ، الذى يسمى « الأخلاق الذهنية - dianoetic » ، كل من كدوورث Cudworth وكلارك Clarko وبرائس Price ؛ أما النوع الثالث ، أى الجمالى ، فيتمثل فى شافيسبرى وهتشسون . أما نظرية مارتينو الخاصة ، فهى تلك التى تتخذ المنهج « النفسانى الذاتى » .

وليس من الممكن تحديد الأصول التاريخية لهذه النظرية بدقة . وقد أشار مارتينو ذاته إلى صلتها الوثيقة بيطر من جهة ، وبكانت من جهة أخرى ، وليس ثمت شك فى أنه يدين لهذين المفكرين بأكثر مما يدين به لآى مفكر غيرهما . فاتفاه مع بيطر ينصب أساسا على منهجه . أما اتفاه مع كانت فيتعلق أساسا بمضمون تفكيره . وهناك مؤثرات أخرى أقل أهمية هى صلاته بالمدرسة الاسكتلندية كما يمثلها ريد وهاملتن . ( بل والمفكرون الأخلاقيون الاسكتلنديون الأقدم عهدا أيضا ) ، وهى مؤثرات أولاها النقاد الأهمية الأولى ، وإن لم يكن فى وسعنا أن ننكر أن العامل الحدسى ، وفكرة الوضوح الذاتى لأحكام القيم الأخلاقية ، وهى عناصر تلعب دورا كبيرا فى نظرية مارتينو ، تشير إلى مؤثرات اسكتلندية . وأخيرا ينبغى ألا ننسى أن المصدر الذى كان مارتينو يستمد منه على الدوام بصيرة متجددة هو الأخلاق المسيحية . كما عرضت فى « موعظة الجبل Sermon of the Mount » .

ولقد اتخذ مارتينو نقطة بدايته من الوعى الفردى أو التجربة الباطنة التى تكون لنا على أساسها بصيرة مباشرة بالحقائق والصفات .

الأخلاقية . وهكذا فإنه يفترض مقدما حاسة أخلاقية أو ملكة أخلاقية خاصة تختلف أساسا عن كل ملكة أخرى ( كملكة العقل أو الحر الجمالى ) .

وهو فى هذه المسئلة الرئيسية يتفق أساسا مع بطر وفكرته فى الحاسة الأخلاقية . ونحن نطلق على هذا الموقف الأخلاقى اسم المذهب الحدسى ، الذى يمكن أن يعد مارتينو واحدا من أهم ممثليه المحدثين . وإذن فالحقيقة الأخلاقية الأساسية إنما تكون فى أن لدينا ، بوصفنا بشرا ، نزوعا لا يقاوم إلى استحسان أشياء معينة واستهجان أخرى ، وإصدار أحكام مطابقة عليها .

وإنه لو اوضح على التوأن موضوعات تقدير راتنا واستنكار راتنا الأخلاقية هى أشخاص لا أشياء ، وهذا يؤدى إلى الحدس ، الكامن من وراء كل فكرة أخرى ، والقائل إن كل تقويماتنا الأخلاقية موجهة دائما إلى البواعث الباطنة للفعل لا إلى نتائجها الخارجية . والواقع أن مارتينو يركز اهتمامه كله على الباعث الباطن ، بينما النتيجة الخارجية ، مهما كان من خيريتها ، لا تكون لها أبدا صلة بأخلاقية الفعل ، وإنما ينبغى أن ينظر إليها فقط من حيث إنها علامة أو شاهد على البواعث الباطنة للفعل . فإذا كنا نعترف بالقيمة الأخلاقية للباعث على الفعل فقط ، فمن الواضح أنه لا بد أن ينشأ كل حكم أخلاقى من ملاحظة بواعثنا الباطنة ، وأن تكون جذوره متغلغلة فى التجربة الباطنة أو الوعى الذاتى . وهذه هى نقطة البداية الوحيدة التى يمكننا منها أن نصل إلى أحكام تقويمية على سلوك الآخرين : إذ نطبق على هذا السلوك ، بالتمثيل ، نفس الإجراء الذى طبقناه من قبل على أنفسنا . وهكذا لا تتكشف الحياة الأخلاقية

إلا في مجال الإرادة ، وليس ثمة أفعال لها أى معنى بالنسبة إلى الأخلاق سوى الأفعال المنبعثة عن الإرادة .

ولكى يزيد مارتينو فكرته هذه إيضاحاً ، يميز بين « التلقائيات » *spontaneities* ، و « الإرادات » *volitions* ، . ففي السلوك التلقائي لا نكون عادة مدفوعين إلا بدافع واحد ، أما السلوك الإرادى فينطوى على دافعين على الأقل . فوجود كثرة من البواعث الملزمة هو الشرط الأساسى للحكم الأخلاقى ، ولا بد أيضاً أن تظهر هذه البواعث فى آن واحد ، لا متعاقبة . غير أن الذات لا يمكن أن تقتصر على أن تكون الساحة التى تقتحمها البواعث وتتقاتل فيها على السيطرة ، بل إن هذه البواعث إنما هى مجرد إمكانيات متاحة للذات ، التى يكون لها وحدها البت فيما سيؤخذ به من بينها . فالذات لا بد أن تكون هى المسيطرة على البواعث الملزمة ، لا خاضعة لها . والحكم الأخلاقى يتوقف قيامه أو سقوطه على وجود قدرة انتقائية لدى الذات ، تمكنها من البت بين إمكانيتين أو أكثر ، ومن هنا كان لا بد أن تتوافر الحرية للذات فى اختيارها بين البواعث ، فإما أن تكون الإرادة الحرة حقيقة ، وإما أن يكون الحكم الأخلاقى وهماً .

وتكوّن فكرة البحث فى البواعث الأساس النفسى لمصادرة حرية الإرادة . فإذا كان للإرادة الحرية فى الأخذ بهذا الباعث ورفض غيره ، وإذا كانت لدى المرء ، بالتالى ، القدرة على التصرف فى ظرف معين . على نحو مخالف لذلك الذى تصرف عليه فعلاً ، فلا بد أن تواجهنا مسألة البحث فيما إذا كان ثمة نظام معين يمكن أن ترتب به البواعث ، على نحو يبرر الأخذ بهذا الباعث أو ذاك فى كل حالة خاصة . ويرى مارتينو أن مثل هذا النظام موجود . ففي وسعنا أن نتأمل بواعث الفعل من



وجهتي نظر مختلفتين ، تبعا لما فى كل منهما من قوة كامنة من جهة ، ومن سمو أو جدارة من جهة أخرى . وعندئذ نقول إن من يستسلم لأفوى الدوافع يسلك سلوك الحريص prudent ، على حين أن من يطيع أسمى هذه الدوافع يسلك بدافع الواجب ، إذ إن التقدير الأخلاقى يتوقف على قيمة الباعث ، بينما يتوقف التقدير الحريص على قوته ، لأن الأول فى أساسه شامل ثابت ملزم للجميع ، بينما الثانى فردى متغير تبعاً للأشخاص والظروف .

ويعرض مارتينو بعد ذلك بالتفصيل نظرية فى بواعث السلوك ، فيصنفها ويعدددها بدقة ، تبعا لمبادئ فى التقسيم مطبقة بطريقة منهجية . وهو يقوم بمحاولة رائعة لتفسير ميدان البحث هذا بأكمله وبكل نواحيه ، ولبعث النظام والتناسق فيه . وهنا يصادف المرء كثيرا من الملاحظات النفسية العميقة ، غير أن المناقشة تكشف أيضا عن نزوع واضح لصاحبها إلى التقسيمات والتصنيفات الشكلية ، مما يؤدي فى حالات كثيرة إلى التعسف فى إدخال الظواهر فى الإطار المنطقى . وهو يختم هذا البحث بوضع سلم أخلاقى للقيم ، نستطيع أن ندرك منه على الفور مكانة الباعث الذى يدفع إلى هذه القيم . وهو يشمل ثلاثة عشر مستوى ، فى أدناها توجد الانفعالات المسداة بالثانوية ، كحب الانتقام vindictiveness والميل إلى اللوم censoriousness والريبة suspiciousness ، وفى أعلاها عاطفة أساسية هى العطف compassion ، وشعور أسامى هو التبجيل reverence . وهكذا كان مارتينو ، مثل جيته ، يرى فى هذا الأخير تاجا للشخصية الإنسانية وكالا لها .

ويعد هذا الجزء أهم أجزاء النظرية الأخلاقية عند مارتينو وأكثرها أصالة . وفيه ، كما فى غيره ، يظهر طابعها الحدسى بوضوح ، إذ إن الترتيب الموضوعى لمكانة القيم الأخلاقية يرجع فى أصله إلى الوعى

الأخلاقي الخاص أر إلى الحاسة الخلقية ، التي نستطيع عن طريقها أن ندرك بوضوح ذاتي مباشر ، ويقين حدسي كامل تدرج قيم البواعث من الأعلى إلى الأدنى ، والمواضع المختلفة للبواعث الخاصة في سلم القيم . ولا يظهر هنا أي دور للاعتبارات النظرية وعوامل الاستدلال العقلية ، والمقارنة ، إلخ ، وإنما يقتصر ذلك على وعينا ألباطن بالقيمة الأخلاقية ، وهو وعي يقدم إلينا كلما ازداد دقة ورفاهة ، معيارا أدق وأوثق ، يطبق على قراراتنا الخاصة ، وكذلك في الحكم على سلوك الآخرين . ومن الطبيعي أن مارتينو كان مضطرا إلى الاعتراف بأن العملية الحدسية لا تكون صحيحة تماما إلا بالنسبة إلى الحالات التي تكون فيها البواعث بسيطة غير معقدة ، أما حين يكون الموقف أكثر تعقيدا ، فقد يحتاج الأمر إلى تصحيح لاستبصارنا الأصلي بالقيمة ، عن طريق عملية تفكير انعكاسي . وهو يتحدث في هذا الصدد عن وعي « شبه حدسي » ، أي وعي يتم بالتأمل العقلي . ولكنه يؤكد بشدة ، على أية حال ، أن هناك سلما متدرجا لمبادئ الفعل ، يتيح تحليلا مقارنا للبواعث والقيم الأخلاقية ، كما يؤكد أننا نحمل في ذاتنا هذا السلم ، ونستطيع أن نقرأ درجاته مباشرة . ويستتبع هذا أن يكون كل حكم أخلاقي ذا طابع مقارن فليس في وسعنا أن نسكتفي بالقول إن هذا السلوك أو ذاك صواب أو خطأ ، خير أو شر ، بل إن كل ما يمكننا أن نقوله هو أنه أفضل أو أسوأ نسبيا من سلوك آخر كان للإرادة نفس القدرة على اتباعه . وعلى ذلك فمن الواجب تقدير الفعل بأنه خير عندما يكون ناتجا عن باعث أعلى ، في الوقت الذي يوجد فيه أيضا باعث أدنى . ولكن لما كنا نحمل في ذاتنا وعيا بالدرجة النسبية لقيمة باعثين يتعين علينا الاختيار بينهما ، فإن فينا من الأصل التزاما باختيار الباعث الأعلى . ويطلق مارتينو على هذا الاسم ، القانون الأخلاقي للمبادئ أو الالتزام *Canon of Principles or Obligation* وهو يميزه من القانون الأخلاقي للنتائج *Canon of Consequences*

فالأول يقدم إلينا المعيار الأخلاقي الحقيقي لتحديد ما هو صحيح في الحالة التي نكون إزاءها ، ، والثاني يقدم إلينا المعيار العقلي لتحديد حكمة السلوك ، ، والأول كاف لتقدير الشخصية ، أما إذا شئنا تقدير السلوك فمن الواجب تكملة بالثاني ، . غير أن الأول في كل الأحوال مكانة تعلو على الثاني . إذ إن الاكتفاء بمراعاة نتائج الفعل من أجل الصالح العام لا ينطوي في ذاته على التزام أخلاقي — وهي نقطة يؤكد همارتينو ويعترض بها على سدجويك — لأن الالتزام إنما ينشأ من وجود صراع بين البواعث تنضج فيه القيمة العليا للغيرية منها . وهكذا يتعين علينا دائماً أن نرجع إلى بواعث الفعل قبل الانتقال إلى تقدير نتائجها .

وهذا يؤدي إلى وضع حد فاصل قاطع بين مذهب مارتينو الأخلاقي وكل نوع من مذهب اللذة أو السعادة أو المنفعة فالأخلاق عند مارتينو ، كما هي عند كانت ، أخلاق ضمير وواجب ، ومسئولية وقانون أخلاقي ملزم . ولم يكن واحد من معاصريه الإنجليز يدانيه في قوة الاقتناع التي أعلن بها جدارة الإنسان الأخلاقية ، وسمو الشئخصية ونزاهتها ، وحرية الإرادة ، وسيادة القانون الأخلاقي . ولقد كان مذهبه من أقوى القلاع التي قاومت الاتجاهات الطبيعية naturalistic والمادية في عصره ، وناضلت ضد طوفان المذاهب الداروينية والتطورية ، وضد الاكتفاء بالوجه الدنيوى للحياة ، وكثير من الاتجاهات الأخرى . وبما زاد في فعاليتها أنه كان يجد دعماً من شخصيته العظيمة الرفيعة وأن تلك الحياة الروحية الرفيعة التي جعل منها رسالة له ، قد تحققت في شخصه على أكمل نحو .

ولقد كانت نفس الأهداف المثالية التي وضعها لمذهبه الأخلاقي ، هي التي تكون أساس فلسفته الدينية . فعلى الرغم من أنه ، حين جعل السلوك

لأخلاقى أمرا باطنا تماما ، قد حرره من الروابط الاجتماعية فضلا عن قيود الوجود الطبيعى ، فإنه لم يفترض أن من الممكن تحديد هذا السلوك بطريقة مستقلة تماما ، وإنما سعى إلى إيجاد أساس له فى ذلك المبدأ الأعلى الذى يكون الدين مجاله . ولقد رأينا من قبل أن نقطة البداية فى مذهب مارتينو هى الوعى الذاتى . ولكن هناك مع ذلك طريقتين تستطيع بهما الذات تجاوز حدودها الخاصة — هما فعل الإدراك ، الذى تدرك به عالم الطبيعة الخارجى ، وحقيقة الضمير الذى نشارك به فى الوجود الإلهى . وهى فى الحالتين تشعر بذاتها فى « آخر » ، وتشعر بهذا « الآخر » فى ذاتها . وهى فى الحالة الأخيرة تتجاوز ذاتها لتنتقل إلى ذات أعلى . وتزداد ضرورة الانتقال من المجال الدينى فى فكرة السلطة . فما هو أصل تلك السلطة التى جعلنا نفضل الباعث الأعلى على الأدنى ، ونرى أن هذا التفضيل هو الفعل الأخلاقى الصحيح ؟ . هل نحن نستمدّها ، على نحو ما ، من وعينا الخاص ، الذى تبدت فيه لأول مرة ؟ لو كان هذا صحيحا ، أن يكون صراع البواعث فى هذه الحالة مجرد صراع بين حاجاتنا الشخصية ؟ من المحال أن يكون هذا هو لب تجربة الإلزام ، وإنما الأصح أن هذه التجربة تعنى أننا نشعر بشيء أعلى منا ، لا يمكن أن يكون جزءا من ذاتنا . لأنه يفرض علينا مطالب معينة . وهكذا فإن تجربة السلطة هذه ، إذا ما فسرت على النحو الصحيح ، تدفعنا إلى تجاوز حدودنا الخاصة لنعترف بكائن من مرتبة أعلى ، يتجاوز ذاتنا . ولكن لما كنا أشخاصا ، ولما كانت الشخصية تنطوى على نوع من الوجود أعلى من مجرد الشئية ، فلا بد أن يكون هذا الكائن ، الذى هو من مرتبة أعلى من مرتبتنا ذاتها ، مختلفا عنا ، يتجاوزنا ويعلو علينا ، أى ينبغى أن يكون هو الشخصية اللامتناهية أو الإلهية . وهكذا فالوعى الأخلاقى أكثر من مجرد جزء من ذاتنا ، ففيه نعترف بسلطة موضوعية أو قانون موضوعى عال علينا ،

لأنه بآنفسنا ، وعن طريقه ندخل فى اتصال مباشر مع الحياة الإلهية .

وعلى ذلك فمن الواجب تحديد العلاقة بين الأخلاق والدين على النحو الآتى : فالأولى سابقة على الثانية ، وتقتضى بحثنا سابقا ، إذ إن القواعد الأخلاقية تكون فى البداية مستقلة عن أى إيمان دينى ، وهى تتحكم فيه من البداية ولا تفترضه مقدما ، فكل دين علوى ترجع جذوره إلى الوعى الأخلاقى ، وإلى المجال الأخلاقى يرجع أصل أعظم النتائج التى يحققها . ومن جهة أخرى فليس من الممكن إبقاء الأخلاق فى حدود المجال البشرى وحده ، وإنما هى تشير إلى ما يتجاوز هذا المجال ، وتتطلب اكتمالا فى اتجاه الدين ، وإلا عادت فأنحدرت إلى مستوى مذهب اللذة .

وتزداد قوة الاتجاه الأخلاقى للدين ظهورا عند مارتينو عندما يبدأ فى بحث براهين وجود الله ؛ فهو يحرص قبل كل شىء على عرض حجتين : الأولى ، وهى الحججة الميتافيزيقية ، التى عرضنا لها من قبل ، تتلو نظرية العلية : فلما كانت العلية ، كما رأينا ، فى هوية مع الإرادة ، ولما كانت الإرادة البشرية ضيقة المجال ، بدرجات متفاوتة ، ولما لم يكن من الممكن ، فضلا عن ذلك ، أن توجد فى عالم الظواهر أية علة أصلية بمعنى العلة القادرة على التوليد ، فإننا نستدل من الإرادة البشرية على وجود الإرادة الإلهية ، بوصفها الدعامة الأصلية لعالم الطبيعة بأسره . وهكذا تودى الحججة الميتافيزيقية مباشرة إلى الله ، بوصفه العلة الأولى أو الإرادة العاقلة العليا . والآن من ذلك ، البرهان الأخلاقى على وجود الله ، أو على الأصح ، محاولة إظهار الله فى مجال الأخلاق . فهنا نكون الأداة الوسيطة هى الضمير ، الذى يتكشف به الوجود الإلهى بنفسه اليقين الذى يتكشف به العالم الخارجى للإدراك الحسى . ففي الضمير

تدرك كذلك العلة الأولى ، بوصفها القانون الأسمى في الوقت ذاته ،  
وندرك الله على أنه المشرع ذو الخير الكامل ومصدر كل القيم الأخلاقية ،  
وأصل سلطة الالتزام التي لا نستطيع أن نستمدّها من ذاتنا ، وأخيرا ،  
بوصفه واهب إرادتنا الحرة ذاتها ، والشرط الذي لا بد منه لكل سلوك  
أخلاقي . فالله ، بوصفه دعامة قانون أخلاقي مطلق ، لا يكون مجرد ، مطلق ،  
ميتافيزيقي ، وإنما هو الشخصية الأخلاقية العليا ، التي هي حية  
عنيفة ، والتي يمكننا ، بوصفنا أشخاصا ، أن ندخل معها في اتصال  
مباشر .

غير أن هذا الاتصال بين الإنسان والله يمتد أبعد كثيرا من مجال  
الأخلاق ؛ فعلى حين أننا في الوعي الأخلاقي نصل إلى تأكيد للوجود  
الإلهي ، ونصبح على وعي مباشر بالله ، ولا سيما في واقعة الضمير ، فإن  
اللاهوتية تواجهنا أولا بوصفها قوة عالية مطلقة ترتفع فوقنا ، إلى أبعد  
حد ، وندين لها بالطاعة والخضوع . غير أن هذا لا يستنفد جميع أطراف  
العلاقة بين المتناهي واللامتناهي ، وهي علاقة تفوق ما يمكن أن يعرف في الوعي  
الأخلاقي بكثير من حيث طابعها الوثيق الشخصي المباشر . وهكذا يتضح  
أن من الضروري اقتراض حاسة أو ملكة دينية على التخصيص ،  
تكون مختلفة ، لا عن الملكة العقلية أو الجمالية فحسب ، بل مختلفة  
بوجه خاص عن الحاسة الأخلاقية . ويعترف مارتينو بوجود هذه  
الحاسة أولا في الشعور الأول بالتبجيل ، وهو الشعور الذي عزّاه إليه  
أرفع مكانة في سلمه الأخلاقي للقيم . فالتبجيل هو الذي يجذبنا إلى المجال  
الأرفع ، ويتيح لنا أن نتطلع إلى أعلى ، وأن نعبر الحدود التي تفصل بين  
الحقيقة الظاهرية والحقيقة الحقة ، وأن نصل إلى ما هو مثالي . وهكذا  
فإن ما كان خضوعا وطاعة للأمر الإلهي ، في المستوى الأخلاقي ، يندو  
الآن شعورا واعيا بالتصديق العميق والحب المؤكد . ففي الشعور

بالتبجيل تتخلص من تلك المعركة التي لا تتوقف بين البواعث المتصارعة ،  
وفصل إلى « المشاركة في الحياة والحب الإلهيين » ، ويجد الأخلاقى تحققه .  
واكتماله النهائى فى المقدس ، وتدخل النفس المتناهية فى الوجود اللامتناهى .  
وتستوعب فيه . وهكذا تتلاشى فلسفة الدين عند مارتينو فى تيار فكرى ،  
إن لم يكن تيارا صوفيا خالصا ، فهو على الأقل يقترب من ذلك اقترابا ،  
وثيقا . وهنا نجد أن ما كان يكون اللب الجوهرى للأخلاق عنده - أى  
فكرته عن النفس الفردية المصونة المستقلة - قد أصبح مهددا بخطر  
عظيم فى فلسفته الدينية . ولا يتم الوصول إلى الاتفاق التام بين المجالين ،  
بل لا يمكن الوصول إليه ، فى ذلك المذهب الذى كان تبعا لغرضه .  
الأصلى قائما على التوتر المستقطب للتقابل بين الإنسان والله ، والذى  
لم يحاول أن يقضى على هذا التوتر ويقرّب ما بين القطبين .  
إلا فيما بعد .

وهناك مفكر كان يرتبط بما رتدزو ارتباطا وثيقا ، وإن كان قد أدخل  
تعديلات هامة على مذهبه ، فى اتجاه فلسفة لوتسه - ذلك هو تشارلس  
أبتن Charles Barnes Upton ( ١٨٣١ - ١٩١٠ ) ، وكان يشغل منذ  
١٨٧٥ منصب أستاذ الفلسفة فى كلية مانشستر . وقد وضع « أبتن » مذهبا  
ألوهايا أخلاقيا ربط فيه بين الأخلاق والدين ربطا متبادلا وثيقا . فعنى  
الأخلاق عنده لا ينحصر فى تحقيق قانون أخلاقى مستقل بذاته ، بقدر  
ما يكون فى توجيه الإنسان قدما نحو الإيمان الدينى . لذلك حارب أبتن  
« ذوى النزعة الأخلاقية ethicists » الذين كانوا يهدفون إلى حرمان  
الأخلاق من كل ارتباطاتها « الأعلى » ، وإلى بنائها على الإرضاء الشخصى  
للحاجات والرغبات الفردية فحسب . ولقد كانت أفكاره فى الميتافيزيقا  
وفلسفة الدين مستمدة كلها تقريبا من تعاليم مارتينو ولوتسه . وقد  
استمد من ثانيهما النظرية العامة فى الكون كما عرضها فى كتابه .

« العالم الأصغر Microcosmos » . بل لقد نظر إلى لوتسه على أنه هو الفيلسوف الذى بلغ بالمثالية الألمانية حد الإكتهال ، ووجد فيه أقوى حليف له ضد القوى المعادية للدين ، التى أطلقتها العلوم الطبيعية من عقابها . ولقد تلقى أبنته ذاتها تعليما فى العلوم الدقيقة ، فالتجته جهوده إلى التوفيق بين النظرة الآلية إلى العالم وبين حرية الإرادة . وقد عمل ، مثل مارتينو ، على إحلال فكرة الوعى المباشر بالله محل ذلك الأساس الذى توجده النزعة العقلية للدين . فنحن نشعر بوجود الله مباشرة ، لأن هذا الوعى يتكشف فى الشعور ، وفى أفعال الإدراك الحدسية ، أما معرفتنا بالله عن طريق البرهان العقلى والاستدلال النظرى فلا تكون لها أبدا ، بالنسبة إلى هذا الشعور ، إلا قيمة ثانوية ، مهما كانت لها مع ذلك من أهمية . والفارق الرئيسى بين فكرة أبنته هنا وبين فكرة مارتينو ، التى تشبهها فى الأساس ، هو ازدياد قوة العنصر الصوفى عند الأول .

وأخيرا فقد كان أبنته من أوائل من أدركوا الخطر الذى يهدد المثالية الأخلاقية من جانب المثالية الهيجلية المطلقة : أعنى خطر القضاء على الحرية الأخلاقية والمستوى الفردية ، وهدم حرية الاختيار الأصيلة بين الممكنات المختلفة ، والخط من الحقائق الأساسية كالشر والخطيئة إلى مرتبة المظاهر الخالصة ، واستبعاد التأثير المباشر للألوهية على النفس البشرية . الخ . ولما كانت الحركة الهيجلية الإنجليزىة ، التى قامت فى مرحلتها الأولى تدافع عن الدين وعن الكنيسة ، قد أخذت إزداد تحولا إلى مذهب غير مكزث بالدين على أحسن التقديرات ، فقد طالب أبنته المدرسة الهيجلية بأن تغير مجراها وتتحول إلى فلسفة لوتسه ، بوصفها الفلسفة الوحيدة التى يمكن فيها التوفيق بين التجربتين الأخلاقية والدينية على النحو الصحيح . وعلى عاتق مثل هذه الفلسفة الدينية تقع مهمة مزدوجة ، هى إعطاء الشخصية



والحرية الإنسانية حقها الكامل، مع إثبات كون الله في الطبيعة وفي النفس البشرية في الوقت ذاته<sup>(١)</sup>.

وللمفكرين التاليين بدورهم ارتباط وثيق بمدرسة مارتينو الفكرية :

— رتشارد هولت هتون Richard Hold Hutton (١٨٢٦—١٨٩٧)، وهو صوفي ولاهوتي، اطلع على الفلسفة واللاهوت الألمانين في وقت لا يعد متأخرا بالنسبة إلى وقت اطلاع مارتينو عليهما. وقد درس على مارتينو في مانشستر، ثم درس معه في برلين (وقبل ذلك في هيدلبرج)، وجمعت بين الرجلين صداقة متينة. ثم حاز بعد ذلك شهرة كبيرة بوصفه مشرفا على تحرير عدة مجلات دورية أو مساهما في تحريرها. وقد اقتنى أثر مارتينو، إذ وجد أن تعاليمه قد ساهمت بأهم دور عرفه القرن التاسع عشر في سبيل تبرير النظرة إلى العالم وفلسفة الحياة الكامنتين في المسيحية وصياغتهما في صورة منهجية. وفيما يتعلق بنظرته إلى اللاهوت فقد بدأ، مثل مارتينو، تابعا للكنيسة التوحيدية Unitarian، ولكنه انتقل فيما بعد (بتأثير ف. د. موريس F. D. Maurice على الأخص) إلى الكنيسة القائمة Established Church. وتتفق آراؤه اللاهوتية في أساسها مع أفكار موريس<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر «الأخلاق والدين Religion & Ethics» (١٨٩١)؛ وقد ورد هذا البحث في كتاب «الدين والحياة Religion & Life» الذي نشره ر. برترام (R. Bartram) وانظر أيضا «محاضرات في أسس الإيمان الديني Lectures on the Bases of Religious Belief» (١٨٩٤) و«فلسفة الدكتور مارتينو Dr. Martineau's Phil.» (١٩٠٠).

(٢) تتألف معظم كتاباته من مجموعات من المقالات، نذكر منها ما يلي : «مقالات لاهوتية وأدبية Essays Theological & Literary» (١٨٧١)؛ و«لارشدون المحدثون إلى الفكر الإنجليزي Modern Guides to English Thought» (١٨٨٧)؛ و«انتقادات حول الفكر المعاصر والمفكرين المعاصرين Criticisms on Contemporary Thought & Thinkers» (١٨٩٤)؛ و«أوجه الدين والتفكير العلمي Aspects of Religion and Scientific Thought» (١٨٩٩).

— وليام بنجامين كارنبر W. Benjamin Carpenter (١٨١٣) —  
 (١٨٨٥) وهو عالم فسيولوجي مشهور ، كان بدوره تابعا لكنيسة  
 التوحيديين ، وقد حاول أن يقيم فكرة العلية والإرادة الحرة عند مارتينو  
 على أسس أمن مجبج مستمدة من الفسيولوجيا ، وأن يدعمها بأبحاث  
 فسيولوجية دقيقة .

وكان الأساس الفلسفي لبحثه الخاص قريبا من المواقف الرئيسية  
 لمارتينو<sup>(١)</sup> .

— جوزيف إستلين كارنبر J. Estlin Carpenter (١٨٤٤) —  
 (١٩٢٧) ، وهو ابن المفكر السابق ، وكان لاهوتيا توحيدا ، واشتغل  
 من ١٨٧٥ إلى ١٩١٥ محاضرا وأستاذا لعلم الأديان المقارن في «مانشستر  
 نيو كوليدج» ، بلندن ، التي أصبحت فيما بعد «كلية مانشستر» ، باكسفورد ،  
 وهو بدوره يتخذ موقفا قريبا من مذهب الألوهية الأخلاقي عند  
 مارتينو ، وذلك في وجهيه اللاهوتي والفلسفي على السواء<sup>(٢)</sup> .

فإذا شئنا أن نختار ممثلا أخيرا لوجهة النظر التوحيدية «Unitarian»  
 فلنذكر نصيرة حقوق المرأة المشهورة ، والمؤلفة التي بلغ إنتاجها الغزير  
 حوالى ثلاثين كتابا ، وهي «فرانسيس باور كوب» Frances Power Cobbe .

---

(١) انظر : « مبادئ الفسيولوجيا الذهنية Principles of Mental Physiology » (١٨٧٤) . و « الطبيعة والإنسان ، بحوث علمية وفلسفية Nature & Man, Essays Scientific & Philosophical » (١٨٨٨) .

(٢) انظر كتابه : « جيمس مارتينو اللاهوتي وللمعلم J. Martineau, Theologian & Teacher » (١٩٠٥) ، و « الدين المقارن Comparative Religion » (١٩١٣) ، و « المشكلات الأخلاقية والدينية للحرب Ethical and Religious Problems of the War » (١٩١٦) .

( ١٨٢٢ — ١٩٠٤ ) . وقد تأثرت بثيودور باركر Theodor Parker رئيس مذهب التوحيديين في أمريكا ، أكثر مما تأثرت بمارتينو ذاته . كما تأثرت بفرنسيس ومان فيفمان F. W. Newman وبمذهب كانت الأخلاقى . ولقد كان نشاطها التأليفى المتعدد الجوانب منصبا قبل كل شئ على مناقشة المسائل اللاهوتية والأخلاقية والاجتماعية (١) .

\* \* \*

وهكذا فإن أعظم القوى النظرية في ميدان فلسفة الدين في القرن التاسع عشر قد تجمعت حول هذين المركزين ، حركة أكسفورد والمذهب التوحيدي عند مارتينو . غير أن الاهتمام بالمشكلة الدينية ظل حيا على الدوام ، حتى داخل الحركات الفكرية ذات الاتجاه الفلسفى المحدد ، ولا سيما بين مفكرى المدرسة الاسكتلندية كما رأينا ، وفي الأوساط التطورية بدرجة أقل ، وإن يكن اهتمام هذه الأخيرة قد اتجه إلى النقد والرفض أكثر مما اتجه إلى البناء الإيجابى .

غير أن مشكلات الدين كانت موضوعا للاهتمام فى الحركة المثالية بدورها ، ولو أن هذا الاهتمام كان أعظم فى بدايتها فى العقدين الثامن والتاسع منه فى مراحلها المتأخرة . فليرجع القارىء إلى الأجزاء المتعلقة بهذه الاتجاهات فى الكتاب للاطلاع على مزيد من المعلومات عن هذه

---

(١) انظر : « نظرية الأخلاق الحديثة The Theory of Intuitive Morals » ،  
نفس دون اسم ( ١٨٥٥ ) ؛ « الواجب الدينى Religion Duty » ( ١٨٦٤ ) ؛  
« دراسات أخلاقية واجتماعية Studies Ethical and Social » ( ١٨٦٥ ) ،  
« الداروينية فى الأخلاق ومقالات أخرى Darwinism in Morals & Other Essays »  
( ١٨٧٢ ) ؛ « آمال الجنس البشرى The Hopes of the Human Race »  
( ١٨٧٤ ) ؛ « الروح العلمية لعصر The Scientific Spirit of the Age »  
( ١٨٨٨ ) ؛ « حياتها ، بقلها Life, by herself » فى مجلدين ( ١٨٩٤ ) ، الخ ...  
( م — ١٨ الفلسفة ) .

المساهمات ، ولكننا لن نذكر شيئاً عن التفكير الدينى الذى نما فى الكنائس والطوائف الدينية ، والذى كانت أهميته لاهوتية أكثر منها فلسفية ، على أساس أن مثل هذا التفكير خارج عن نطاق بحثنا . ولنكتف فى هذا العدد بالكلام عن أعمال كانت لها أهمية خاصة ، هى أعمال فردريك دنيسون موريس Frederic Denison Maurice ( انظر أيضاً بداية الفصل التالى ) ، وهو من أعظم وأشهر الزعماء الدينيين فى عصره ، وقد اشتهر بنشاطه فى حركة الإصلاح المعروفة باسم « الاشتراكية المسيحية » . ولنضيف إليه شخصية أخرى مشهورة هى شخصية الأسقف « تشارلس جور » Charles Gore ( ١٨٥٣ - ١٩٣٢ ) والكتاب الذى نشره بعنوان « نور العالم » Lux Mundi ( ١٨٨٩ ) والذى يضم مقالات لكتاب مختلفين . ولقد كان جور ، مثل موريس ، اشتراكياً مسيحياً وداعية إصلاح ، تعلم فى كلية « باليول Balliol » منبع المثالية الإنجليزىة .

ومن الواجب الإشارة إليه فى هذا العدد بوجه خاص نظراً إلى محاولته توجيه الاتجاه « البوسى Puseyist » المحافظ داخل حركة أ كسفورد وجهة حديثة ، وبث روح النقد المتحرر فيها . فعلى حين أن نقطة بدايته ، فى ناحية العقيدة والسلطة الكنيسية ، كانت هى ذاتها نقطة بداية « بوسى Pusey » ، فقد اضطلع بمهمة التوفيق بين مبدأ السلطة الدينية وبين المبادئ العلمية والفلسفية عن طريق وضع حد فاصل بين نطاقى نفوذهما . وقد أراد أن يبنى العقيدة المسيحية على أساس العلم والنقد الحديث ، وأن يربطها فى علاقة حية بالمشكلات الأخلاقية والاجتماعية الحديثة (١) .

(١) انظر : محاضرات بامتون Bampton التى ألقاها بعنوان « تجسد ابن الله » The Incarnation of the Son of God ( ١٨٩١ ) ؛ و « عقيدة المسيحي » The Creed of the Christian ( ١٨٩٥ ) ، و « اللاهوت الجديد والدين القديم » The New Theology and the Old Religion ( ١٩٠٨ ) ؛ و « فلسفة الحياة الطيبة » The Phil. of Good Life ( محاضرات جيفورد ، ١٩٣٠ ، طبعة رخيصة . ١٩٢٥ ) ومؤلفات أخرى مضمنة فى اللاهوت وفلسفة الدين .

وينبغي أن يُذكر هنا اسم آخر ، هو اسم دما كس مولر Max Müller ( ١٨٢٣ - ١٩٠٠ ) ، وهو من الباحثين الرواد في ميدان الدراسة العلمية والتاريخية للأديان ، وواحد من أعظم العلماء المدققين في عصره . وقد كان ألمانيا يحكم المولد ، إذ إنه نجل الشاعر « فيلهلم مولر Wilhelm Müller » ، ولكنه وفد إلى إنجلترا في ١٨٤٦ ، وشغل الكرسين الآتين في أكسفورد : كرسى اللغات الحديثة من ١٨٥٠ إلى ١٨٦٨ ، وكرسى فقه اللغة المقارن من ١٨٦٨ حتى تقاعده السابق لأوانه عام ١٨٧٥ . وله دراسات تشغل عددا كبيرا من المؤلفات ، وتمتد إلى ميادين واسعة ومتنوعة ، كالأديان المقارنة ، والفلسفة ، والتراجم ، وعلم الأساطير المقارن ، وفقه اللغة ، والدراسات الشرقية ، واللغويات ، الخ . وقد جلبت له هذه الدراسات شهرة عالمية ، لا سيما في الهند واليابان والصين ، وأكسبته تكريمات متعددة . وكان له دور بارز في فتح آفاق الحضارات والأديان الشرقية ، ولا سيما الهندية ، أمام الدارسين الغربيين ، وقد طبق المنهج المقارن بطريقة مثمرة على دراسة الدين والحضارة والأسطورة .

وكان يرى أن الدين واللغة يسيران جنبا إلى جنب على المستوى البدائي على الأقل ، وأن من الممكن استخدام كل منهما في إلقاء ضوء على الآخر ، ومن ثم فقد جعل من البحث في اللغة أداة تساعد على البحث العلمى للدين ، غير أنه كان باحثا أكثر منه مفكرا ، وكان لغويا أكثر منه فيلسوفا ، وحال تعدد أوجه نشاطه دون وصوله إلى مذهب فلسفى موحد .

وكان مولر يعنى بالدين ، الشعور عن وعى باللامتناهى ، بقدر ما يمكن لتأثيره أن يتحكم فى الطابع الأخلاقى للإنسان . وقد ميز بين ثلاث مراحل فى تطور الحياة الدينية — هى المادية physical والأثرولوجية والنفسانية . وكان يرى فى المسيحية خلاصة لكل دين ، كما بدا له تاريخ الدين بأسره تطورا لا شعوريا نحو هذا الهدف الأسمى . وإليه ندين أيضا بترجمة كاملة

لكتاب « نقد العقل الخالص Critique of Pure Reason » ، لكانت ( ١٨٨١ ) ، وهي مهمة كان شوبنهاور ينوى الاضطلاع بها قبل نصف قرن من الزمان ، ولكنه لم ينفذها . ولقد سبقت ترجمة موار ترجمة أخرى . تولاها ما يكلجون Meikeljohn ( ١٨٥٥ ) ، كما حلت محلها الآن ترجمة أخرى لنورمان كيمب سميث Norman Kemp Smith ( ١٩٢٩ ) تفوق السابقتين بمراحل في الدقة والتبصر الفلسفي على السواء (١) .

ونستطيع أن نضيف هنا كاتبين في الفلسفة لا يمكن أن يعدا منتميين إلى معسكر بعينه ، وكانت تشغلها مشكلات من نوع آخر بالإضافة إلى مشكلة الدين ، هما الاسكتلنديان فريزر وفلنت .

كان « ألكسندر كامبل فريزر A. Campbell Fraser ( ١٨١٩ — ١٩١٤ ) خليفة لهاملتن ، من ١٨٥٦ إلى ١٨٩١ ، في كرسي المنطق والميتافيزيقا في إدنبرة ولا ترجع أهميته الفلسفية إلى أى تفكير منهجي بقدر ما ترجع إلى نشاطه الطويل الناجح في التعليم ، ومزاياه بوصفه ناشرا لمؤلفات لوك وباركلي ، اكتسبت تعاليمهما بفضل شهرة واسعة ، وبعثت فيها حياة جديدة . جعلت أقوالهما تسرى على ألسنة النقاد وعامة الناس . ولقد ظل شباب اسكتلندا ، طوال أكثر من جيل كامل ، يتلقون العلم على يديه ، ويكنسبون انطباعات وإيماءات لا تزول من محاضراته التي لم تكن ترمي إلى فرض

---

(١) نستطيع أن نختار ، من بين مؤلفاته العديدة ، الكتابات الآتية بوصفها متعلقة بموضوع بحثنا : « مدخل إلى علم الدين Intr. to the Science of Religion » ( ١٨٧٣ ) ؛ « محاضرات في أصل الدين ونموه Lectures on the Origin and Growth of Religion » ( ١٨٧٨ ) ؛ « علم الفكر Science of Thought » ( ١٨٨٧ ) ؛ « الدين الطبيعي Natural Religion » ( ١٨٨٩ ) ؛ « الدين اللاديني Physical Religion » ( ١٨٩١ ) ؛ « الدين الأنثروبولوجي Anthropological Religion » ( ١٨٩٢ ) ؛ « الحكمة اللاهوتية أو الدين النفساني Theosophy or Psychological Religion » ( ١٨٩٣ ) . وقد أقيمت للمؤلفات الأربعة الأخيرة بوصفها محاضرات « جيفورد » بجامعة جلاسجو .

أنهى مذهب محدد على السامع ، بقدر ما كانت تهدف إلى بث روح  
التفلسف فيه بفضل ما تبعته من شعور بالحرية والجماسة ، وبذلك تحفز  
على التفكير الإيجابي المستقل . فلم ينشر فريزر مذهباً ولا أسس مدرسة ،  
ولمّا أثار الأفكار وحفزها دون أن يدفعها إلى السير في اتجاهه ، (سورلى) .

ولقد تلقى فريزر الجزء الأكبر من ثقافته الفلسفية على يد السير وليام  
هاميلتون ، أستاذه وصديقه فيما بعد ، وبفضله شب في البداية متشبعاً تماماً  
بالتراث الفلسفي الاسكتلندي . ولكنه وقع بعد وقت غير طويل تحت  
تأثير توماس براون ، ونظريته في العلية ، ثم اجتذبه مذهب الشك عند  
هيوم ، بكل ما فيه من إغراء خطر ، هزه من أعماقه ، وبعد أزمة عنيفة ،  
اهتدى أخيراً ، في فلسفة باركلي ، إلى الخلاص من الشك والقلق ، ووجد  
فيها ، في الوقت نفسه ، ذاته الحقيقية ، كما روى في ترجمته الذاتية لحياته  
«سيرة فلسفية Biographica Philosophica» (١٩٠٤) . ومنذ ذلك الحين  
أصبح تطور تفكيره الفلسفي الخاص متأثراً في أساسه بمذهب باركلي ،  
وإن لم يكن قد تخلى على نحو قاطع عن أصله الاسكتلندي (ريد وهاملتون) .  
وهو لم يقتصر على تجديد فلسفة باركلي في تفكيره الخاص ، بل يمكن القول  
إنه أعاد كشفها لمعاصريه . ولا شك أن حرصه على التوفيق العلى الصارم  
لم يسفر عنه ما يمكن تسميته «بالباركزية الجديدة» ، ولكنه أسفر فعلاً  
عن اهتمام عام بشخصية الأسقف الأيرلندي وتعاليمه ، وكان لهذا الاهتمام  
قيمه ، من حيث إنه كان حافزاً على التفكير أحياناً ، بل اتخذ صورة منظمة  
في كثير من الأحيان ، وكان يحقق نوعاً من التوازن مع الطموح المتزايد  
للمدرسة الهيجلية . ومن أهم أعمال فريزر ، النشرة الأساسية لمؤلفات باركلي  
(١٨٧١ ، الطبعة الثانية ١٩٠١) وكذلك ترجمته لحياة باركلي ، التي لا تزال  
تعد مرجعاً أساسياً (حياة باركلي ورسائله Life & Letters of Berkeley  
١٨٧١) وكذلك نشرة ممتازة لكتاب لوك الرئيسي ، بحث في الفهم  
البشري ، (في مجلدين ، ١٨٩٤) .

ولقد كان فريز في الأصل قسيسا ، ولم يستطع أن يتخلى في كتاباته الفلسفية عن أصله الديني على نحو تام . وهكذا كان أم ما جذبه إلى باركلي لإثباته الفلسفي وتبريره للديانة المسيحية من حيث هي مذهب ألوهي يحتل فيه الله مكانة مركزية بوصفه الخالق ، بينما لا يكون للعالم من مبرر إلا بوصفه من خلق الله . ولم تكن القوة الدافعة له إلى تقديم عرض منهجي لهذه الفكرة بادرة ذاتية صادرة عنه ، وإنما كانت حافزا خارجيا هو تعيينه لإلقاء محاضرات « جيفورد » ، التي اضطرت فيها ، رغم عدم وجود أى ميل لديه إلى التأمل الفلسفي المنهجي ، إلى وضع ما يكاد يكون مذهباً خاصاً به ( في كتاب « فلسفة المذهب الألوهي The Phil. of Theism » ، في مجلدين ، ١٨٩٥ — ١٨٩٦ ؛ الطبعة الثانية في مجلد واحد ، ١٨٩٩ ) . وفي هذا الكتاب يأخذ بفكرة باركلي الطريفة التي تنظر إلى الطبيعة على أنها هي اللغة الإلهية ، ويتوسع فيها على نحو مشر ليجعل منها مذهباً رمزياً كونياً . ولما كان ينفر بطبيعته من كل موقف متطرف ، فقد اعتقد أنه ، إذ وضع مذهباً ألوهياً مبنيًا على الإيمان الديني ، فقد اهتدى إلى حل وسط يوفق من جهة بين الإلحاد ومذهب شمول الألوهية pantheism ، ومن جهة أخرى بين مذهب الشك اليائس وبين الثقة المفرطة في المعرفة . ولقد أدرك وجود مثل هذا اليأس في اللاأدرية الشكاكية عند هيوم ، الذي رأى بحق أنه هو — وليس كانت ، كما كان يشيع القول عندئذ — الأب الحقيقي لللاأدرية المحدثّة عند هكسلي وسبنسر وغيرهما . كما أدرك من جهة أخرى وجود الموقف الآخر المضاد ، وهو التفاؤل المفرط ، في المذهب العقلي الذي يقول بإمكان معرفة كل شيء ، عند هيغل والهيغلين المحدثين . وهكذا استعاض « بالإيمان » عن « الاعتقاد » النظري عند هيوم ، وحاول السير في طريق وسط بين الطرفين ، بحيث لا يبخس المعرفة البشرية ، في نطاقها الضيق ، حقها ، مع حمايتها من المبالغات في كلا الاتجاهين . وبالمثل كان ينفر من كل تفسير يرفع الأنماط الأصلية المعطاة للوجود



وهي الإنسان والعالم والله - إلى مرتبة المطلق ( وقد كان ، مثل مارتينو ، يرى أن هذه هي فعلا أنماط معطاة الوجود ) . وهناك ثلاثة أنواع من المذهب الواحدى Monism تتج عن إضفاء صفة المطلق على هذه المعطيات ، هي : شمول الأنا Panegoism ( أو مذهب الذات الوحيدة Solipsism وشمول المادة Pan-Materialism وشمول الألوهية Pantheism ويرى فريزر أن هذه تمثل أنظارا فلسفية لاصلة لها بالألوهية ، وقد أخضعها للنقد والتفنيد من وجهة نظره المؤمنة بمذهب الألوهية .

ولقد حاول ، في مذهبه الخاص ، أن يوفق بين هذه الكيانات الثلاثة المعطاة : فتخلى للعلوم الخاصة عن العالم ، ، بمعنى الطبيعة ، وبذلك حط من مكانتها الفلسفية ، بل تجاهلها ، ووجد بين المجال البشرى والأخلاق ، وبين المجال الإلهى والدين . لكنه نظر إلى الله ، من الجانب الأخلاقى قبل كل شيء ، بوصفه تشخيصاً للخيرية اللامتناهية ، كما نظر إلى الإنسان على أنه الكائن الأخلاقى على التخصيص ، أى على أنه شخص ، أخلاقى ، أما الأشياء فقد نظر إليها على أنها توجد من أجل الأشخاص فحسب . وهكذا كان مذهب الألوهية عند فريزر مبنيًا على الأخلاق ، كما هي الحال عند نيومان ومارتينو ، وكانت مثاليته روحية وتشخيصية ، كثنائية باركلي ، وبذلك كانت حصنا ضد الانجماحات الطبيعية naturalistic السائدة في عصره . ومن الطريف أن نلاحظ في هذا العدد أن الفلسفة الألمانية لم تؤثر في تفكيره إلا على نحو ضئيل وبدرجة ثانوية تماما . ولكنه رغم تمسكه التام بالتراث الإنجليزى القومى ، قد تغلب على بعض الأخطاء التى كانت شائعة في مدرسة هاملتن ( ولا سيما فيما يتعلق بكانت ) ، بل لقد حاول أن يفسر هيجل ( فى اتجاه يميل إلى اليمين ، الهيجلى ) وأن يستوعب تعاليمه . فإذا تذكرنا أن جذور فريزر الفلاسفية ترجع إلى عهد أسبق كثيرا من عهد إحياء المذاهب المثالية الألمانية فى إنجلترا ، فلن يعود من المستغرب أن نراه ، بعد هذا الإحياء ، عاجزا عن إعادة توجيه فكره من أساسه ، رغم أنه كان يعطف كثيرا على الحركة الجديدة .

أما روبرت فلنت Robert Flint ( ١٨٣٠ - ١٩١٠ ) فكان في البداية قسيسا بالكنيسة الاسكتلندية ، ثم أصبح منذ عام ١٨٦٤ أستاذا للفلسفة الأخلاقية في سانت أندروز St. Andrews ، ثم أستاذا لللاهوت في إدنبرة ( من ١٨٧٦ إلى ١٩٠٣ ) . ولقد كان عمله الإيجابي بوصفه مفكرا يسير في اتجاهين ، اتجاه فلسفة التاريخ ، واتجاه فلسفة الدين ، وقد أخرج في كلا الميدانين سلسلة من المؤلفات كانت تتميز باتساع نطاقها ودقة البحث واتساع المعلومات فيها .

وينبغي أن تعزى إلى أعمال فلنت في الميدان الأول أهمية خاصة ، إذ إن فلسفة التاريخ ( ومن بعدها علم الجمال ) كانت أقل المباحث الفلسفية نصيبا من اهتمام المفكرين الإنجليز . وهي لم تثر أى اهتمام جدى إلا في حالات استثنائية . بل إنه يمكن القول إن التاريخ لم يصبح أبدا مشكلة فلسفية بالنسبة إلى الإنجليز ، ولهذا السبب لم يكد إحياء الموقف الفلسفى من التاريخ في القارة الأوروبية ، أى في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ، يجد أى صدى في إنجلترا . بل إنه لا يمكن أن يكون هناك ، بين صفوف الهيجليين الإنجليز ، أى اعتراف بمشكلة التاريخ أو أية تفسيرات شاملة لمجرى التاريخ على النحو الذى عرضه هيجل ذاته . وهكذا يتميز فلنت بأنه أحد المفكرين الإنجليز القلائل الذين رأوا أن التاريخ ليس مجرد موضوع يُبحث تجريبيا ، بل إن من الممكن أيضا تفسيره فلسفيا . فمن الواجب أن يتحول التاريخ إلى فلسفة التاريخ إن شاء أن يفهم ذاته على النحو الصحيح ، وكلما تقدم التفكير التاريخى ازداد اضطباغا بالطابع الفلسفى ، إذ إن وقائع التاريخ تنطوى فى أساسها على معنى فلسفى . والحوادث التاريخية لا تتعاقب اتفاقا أو خبط عشواء ، وهي ليست متروكة للفوضى والاضطراب ، بل إن فى وسعنا أن نهتدى فيها إلى نظام وقانون ، تترابط فيه فيما بينها ، وينمو الحادث فيه من الآخر . ومع ذلك فمن الواجب ألا ينظر إلى هذا الترتيب المنظم فى مجرى التاريخ على مثال العلوية العلوية ، وإنما هو يمثل

فى نوع من الاتفاق مع القانون خاص بالعملية التاريخية وحياة الروح . وهذا يعنى أن فلسفة التاريخ، بوصفها التفسير العقلى للطابع الصحيح للوقائع التاريخية والعلاقات الحقيقية بينها ، هى جزء من التاريخ ذاته، بل هى التاريخ على مستوى أعلى من مستويات المعرفة . فالتاريخ بوصفه علما ، والتاريخ بوصفه فلسفة ، ليسا مبحثين منفصلين يشتغل كل منهما عن الآخر ، وإنما هما فرعان من جذع رئيسى واحد .

وبهذه الروح ألف فلنت كتابه العظيم عن فلسفة التاريخ فى أوروبا ، وهو عمل كان يستهدف غاية عظيمة الطموح ، ويكشف عن اطلاع واسع عميق ، بل إن هذه الغاية قد فاقت قدرة هذا العالم على البحث ، على ضخامتها ، إلى حد أنها تركت ناقصة بعد محاولتين لإتمامها<sup>(١)</sup> . وتشمل الأجزاء المكتملة النظريات الفلسفية للفرنسيين والألمان من عهد بودان Bodin<sup>(٢)</sup> وليبنتنس ، كما أن الطبعة اللاحقة فى ١٨٩٣ قد تضمنت عرضا شديدا العمق ، لم يَفْقْه أى عرض آخر حتى الآن ، لنظريات المفكرين الفرنسيين والبلجيكيين والسويسريين . أما الطبعة الأولى ( ١٨٧٤ ) فلها أهمية خاصة من حيث إنها لفتت أنظار القراء الإنجليز لأول مرة إلى الحركة المثالية الألمانية من كانت إلى هيجل ، وكوّنت منها مركبا جامعا يكشف عن درجة عالية نسييا من الفهم . بل إن هيجل نفسه يُعالَج هنا بطريقة نقدية تماما : فمع رفض فلنت لمعظم تعاليمه ، نراه يكتب عنه بإعجاب يدعو إلى الدهشة :

---

(١) « فلسفة التاريخ فى أوروبا The Phil. of Hist. in Europe » ، المجلد الأول : A ؛ « فلسفة التاريخ فى فرنسا وألمانيا » ( ١٨٧٤ ) ؛ « تاريخ فلسفة التاريخ Hist. of the Phil. of Hist. » ، المجلد الأول ؛ « الفلسفة التاريخية فى فرنسا وبلجيكا والفرنسية وسويسرا » ( ١٨٩٣ ) . وقد اختصت خطته كتابة ثلاثة مجلدات أخرى من ألمانيا وإنجلترا وإيطاليا ، ولكنه لم يكتبها بالفعل .

(٢) جان بودان ( ١٥٣٠ — ١٥٩٦ ) فيلسوف سياسى فرنسى ، كان يرى أن أفضل أنواع الحكم هو الملكية المقيدة ، وله كتاب هام فى فلسفة التاريخ ، ألفه باللاتينية . هو « منهم المعرفة التاريخية » : [ المترجم ]

« مهما كان بعد المرء عن أن يكون تلميذا لهيجل ، فمحال عليه أن ينكر أنه لا يكاد يوجد كنز للأفكار الفلسفية أغنى من ذلك الذى تكونه مجلداته الثمانية عشر » .

ولكن تفسيرات فلنت تتفق بوجه عام مع الفرنسيين أكثر مما تتفق مع الألمان — ومن هنا كان النجاح الرائع الذى أحرزه كتابه فى فرنسا — وقد أكد أن مذهب رينوفيه Renouvier<sup>(١)</sup> هو الذى يمثل موقفه الخاص من فلسفة التاريخ ، وهو الموقف الذى لم يقدم له أى عرض تفصيلي . وهكذا يرفض تلك النظريات التى تعالج التاريخ على أنه إنتاج آلى أو صراع من أجل الوجود بين الأفراد والمجتمعات ، أو على أنه مجرد نمو عضوى أو حركة دياكتيكية ، ويرى فى التاريخ ، بدلا من ذلك ، عملية خلقة هى فى أساسها أخلاقية ، عملية تربية للفرد الفاعل بحريته ليبلغ مستوى الإنسانية الأصل ، الذى يصل فيه القانون الأخلاقى إلى صورته الصحيحة وتحققه الكامل .

أما الوجه الآخر من إنتاج فلنت العقلى فيتمثل فى الدور القوى الذى لعبه فى الصراع بين الاتجاهات الطبيعية اللادرية وبين اللاهوت المسيحى ، وهو الصراع الذى كان يحتدم فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . وقد ألفت فى هذا الموضوع الكتب الآتية : « مذهب الألوهية Theism » ( ١٨٧٧ ، الطبعة الثالثة عشرة ١٩٢٩ ) و « النظريات المضادة لمذهب الألوهية Anti-Theistic Theories » ( ١٨٧٩ ، الطبعة التاسعة ١٩٢٩ ) ، و « اللا أدرية Agnosticism » ( ١٩٠٣ ) ، وهى كتب لقيت إقبالا شديدا ،

---

(١) شارل برنار رينوفيه ( ١٨١٥ — ١٩٠٣ ) فيلسوف مثالى فرنسى ، كان مؤسس الحركة النقدية الجديدة neocriticism التى قامت على الرجوع إلى مذهب كانت مع تعديله . ومن مؤلفاته المتعلقة بموضوع البحث هنا : التاريخ وحلول للمشكلات الميتافيزيقية « ، و « مدخل إلى الفلسفة التحليلية لتاريخ » ، [الترجم]

ودافعت عن قضية الإيمان الدينى ضد هدم الإيمان بأسلحة الثقافة الواسعة العميقة . ولما كان فلتت يدرك أن موقف الأوساط الدينية من العلم الحديث كان حتى ذلك الحين يقترب من الرفض التام ، فقد رأى أن رسالته ، بوصفه مدافعا عن الإيمان ، هى على العكس من ذلك رسالة توفيق بينهما ، وتخفيف للتوتر بين اللاهوت المحافظ من جهة وبين الفلسفة الطبيعية naturalistic والبحث العلمى للطبيعة من جهة أخرى ، ولقد حاول أن يجنب الإيمان المسيحى ذلك الخطر الذى تنطوى عليه تعاليم دارون وسبنسر وهكسلى وأتباعهم ، وذلك بالتخفيف من حدة حججهم المضادة لفكرة الألوهية ، وبتكييف نتائج أبحاثهم بأوسع قدر ممكن على النحو الكفيل بإثبات نظريته المؤمنة بالألوهية إلى العالم . ولكى يبرهن على وجود الله ، التجأ إلى الحجج الانتولوجية والكسمولوجية والأخلاقية القديمة ، التى كانت فى ذلك الحين قد فقدت قيمتها لدى الجميع ، وأشار بوجه خاص إلى ضرورة وجود أساس عقلى للدين ، الذى هو فى رأيه أمر يتعلق بالعقل أكثر مما يتعلق بالشعور أو الإرادة . بل إنه مما يميز وجهة نظر فلتت التى كانت عقلية فى أساسها ، أنه كان يتجاهل عنصر الإيمان فى الدين ، ويبالغ فى تأكيد الوجه العقلى فيه ، كما تظهر نفس هذه الروح بوضوح فى أمور أخرى . وكان من نتيجة أنها قللت من فعالية كتاباته فى الدفاع عن العقيدة المسيحية بدلا من أن تزيدها .

كذلك عرض فلتت فى هذا الميدان برناجا يتصف بنفس الدقة المميزة له ، غير أن إنجازه كان يتجاوز نطاق قدرته كثيرا ، إذ لم يكن يرمى إلى أقل من عرض مذهب تفصيلى فى اللاهوت الطبيعى بكل أطرافه . وكان المفروض أن يعالج هذا المذهب أربع مشكلات بوجه خاص : (١) إيضاح الأدلة التى لدينا للإيمان بوجود الله ؛ (٢) تفنيد النظريات المضادة للألوهية ، من إلحاد ومادية ووضعية وتشاؤمية وشمول للألوهية ولا أدوية ؛ (٣) ،

تحديد معالم وجود الله كما يتكشف في الطبيعة والتاريخ ؛ (٤) . تعقب أصل  
فكرة الله وتطورها في تاريخ التأمل النظري الألوهي . ولكن لم يتح له  
أن ينفذ هذا البرنامج إلا جزئياً ، إذ إنه لم يضطلع على الوجه الأكمل ،  
كما رأينا ، إلا بالمهمة الثانية . والخلاصة أن فلنت كان باحثاً مدققاً من  
الطراز الأول ، مهتماً بنواح أخرى أهمها التاريخ واللاهوت ( لقد سعى  
بأعلم أهل عصره في اسكتلندا ) ، وكانت لديه قدرة كبيرة على التعميم ،  
وذهن موضوعي نافذ أصيل ؛ غير أن إمكانيته ، بوصفه مفكراً مستقلاً  
له موقفه الخاص ، كانت أقل من ذلك بكثير . أما من حيث هو مؤرخ  
لفلسفة التاريخ ، ومناضل ضد المذهب الطبيعي في الربع الأخير من القرن  
الماضي ، فما زال اسمه يذكر حتى اليوم باحترام . وكان آخر مؤلفاته :  
الفلسفة بوصفها علم العلوم وتاريخ تصنيفات العلوم Philosophy as the  
Scientia Scientiarum and a History of Classifications of the  
Sciences . ( ١٩٠٤ ) .

---

# الباب الثاني

المدارس الفكرية المتأخرة

نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين





# الفصل الأول

## الحركة المثالية الجديدة

### القسم الأول - أصلها واتجاهها العام

نعنى بالحركة المثالية الجديدة تغلغل المثالية الفلسفية الألمانية في الفكر الإنجليزى . ولم يصبح هذا التغلغل ملحوظا إلا فى العقدين السابع والثامن من القرن الماضى ، أى بعد جيل كامل من وفاة هيجل . وإذا كانت الصفة المميزة للفلسفة الإنجليزية حتى بداية هذه الحركة هى التزامها بدقة حدود تراثها القومى المنعزل نسبيا ، ونفورها من أى عنصر خارجى يقتحم أرضها عنوة ، بقدر نفورها من الانقلابات الداخلية ، فإن أهمية الحركة الحديثة إنما تنحصر فى أنها أحدثت تغيرا تاما ، واستحدثت وثبتت أشكالاً ومضمونات فكرية جديدة كل الجدة ، وأضافت إلى حصيلة الفكر الإنجليزى ذخيرة من الأفكار الأجنبية التى لم تكن تعرف أبدا من قبل . وعلى ذلك فإن المثالية الجديدة ، التى كان دخولها إلى إنجلترا يمثل تحولا هاما ، لم تكن فقط توسيعا وإثراء وتعميقا هائلا للمحتوى المذهبى للتفكير الإنجليزى ، بل كانت تمثل أيضا ، وقبل كل شئ ، تراجعا تاما عن الأساليب القديمة ، وتحويلا لدقة الفلسفة فى اتجاه جديد كل الجدة .

على أن هذا رأى ، القائل إن تغلغل المثالية الألمانية فى إنجلترا قد أدى إلى الخروج على التراث الفلسفى القومى ، يتناقض مع رأى يظهر بين الحين والحين ( ولا سيما من جانب الإنجليز ) ، يقول إن المسألة

كلها لا تعدو أن تكون إيقاظا لقوى كانت غارقة في سبات عميق ، ولكنها كانت موجودة في الفكر الإنجليزى منذ البداية ، وقد ورد أروع تعبير عن هذا الرأى الأخير فى كتاب ألفه ج . ه . مويرهيد J. H. Muirhead <sup>(١)</sup> ( وهو كتاب له قيمة عظيمة ، وقائدة توجيهية كبيرة بالنسبة إلى بحثنا هذا ) ، وحاول فيه أن يكشف عن وجود تيار متصل من التفكير المثالى يمر عبر تاريخ الفكر الفلسفى الإنجليزى بأسره ، وأن يثبت أن الحركة المثالية لم تكن إلا امتدادا موسعا عميقا لهذا التيار . على أن الوقائع التاريخية لا تؤيد هذا الرأى . فأيا ما كانت المذاهب والأفكار المثالية الرئيسية التى ظهرت فى القرون السابقة ، فإن الحركة التى بدأت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لم تكن مرتبطة بهذه المذاهب والأفكار لا على نحو مباشر ولا على نحو غير مباشر . ذلك لأن هذه الحركة كانت صريحة الارتباط بالفلسفة الألمانية الممتدة من كانت إلى هيجل ، ولم تعد أبدا إلى أى تراث إنجليزى سابق . وما يثبت استحالة كونها قد نبعت من التراث القومى مباشرة ، عدم وجود أى تيار مثالى متصل فى تطور الفلسفة الإنجليزية ، وذلك على الأقل فى القرن الذى سبق هذه الحركة مباشرة ، أى منذ وفاة باركلى ( سنة ١٧٥٣ ) حتى ظهور كتاب ستيرلنج عن هيجل ( ١٨٦٥ ) . فهذه الفترة على التخصيص هى أبعد الفترات عن أن يقال بوجود اتجاه مثالى إنجليزى فيها ، كما لا يمكن الزعم بأن حركة لها من القوة ما لتلك التى نحن بصدددها ، كان يمكن أن تشتعل جذوتها وتصبح لها مثل هذه القوة الهائلة بفضل تأثير محاولات قليلة هزيلة متفرقة .

وإذن فعلينا أن نظل على اعتقادنا بأن النهضة الفلسفية فى إنجلترا

---

(١) التراث الأفلاطونى فى الفلسفة الأنجلو سكوتية The Platonic Tradition  
in Anglo - Saxon Philosophy ( ١٩٣١ ) .

بعد أواسط القرن الماضى كانت ثمرة متأخرة للمثالية الألمانية ، وأنها تغذت من مصادر ألمانية ، وتغلغلت فيها الروح الألمانية ، أو أنها — إذا ما عبرنا عن الأمر بلغة عملية — كانت فى أساسها سلعة ألمانية .

وليس المقصود من هذا إلا إقرار الواقع ، لا الحكم مدحا أو قدحا . فليس هذا موضع الكلام عن التغيرات التى طرأت على السلعة الأجنبية عندما استقرت فى الأرض الإنجليزية ، ولا عن مدى ارتباطها بالاتجاهات الفكرية القومية ، أو بالصور الجديدة التى نمت منها . بل إن من واجبنا بالفعل أن نؤكد أن تغلغل التيار الفكرى الألمانى لم يحدث بطريقة خارجية محضة ، أى عن طريق اهتمامات مدرسية ، أو بالقسر والإرغام ، وإنما حدث ذلك عندما أصبح ضرورة باطنة : ذلك لأنه ليس ثمة شك فى أن الظروف المؤدية إلى قبول البذرة الجديدة كانت ، فى الوقت ذاته ، مواتية إلى حد بعيد ، وأن العوامل الحاسمة فى هذا القبول كانت متعددة ومتنوعة .

فن الملاحظ أولا ، أن الشعر والأدب بوجه عام قد هباً الجو ذهنى لتلقت نظرة مثالية إلى العالم . وكان من أهم العوامل التى ساعدت على البدء فى الحركة الفلسفية على التخصيص ، ذلك العمل التمهيدي الذى قام به ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، شعراء مشهورون وكتاب آخرون كان موقعهم خارج الأوساط الفلسفية المحترفة ، وكان معظمهم على خلاف مع هذه الأوساط . فقد كان شعر الرومانتيكيين هو السبب فى ظهور تلك النظرة الجديدة إلى العالم ، والموقف الجديد من الحياة ، الذى حل محل صور التفكير العتيقة الموروثة من عصر التنوير . وتظهر أولى بوادر المضمون الروحى الجديد ، الذى شق طريقه بعد ذلك بوقت طويل إلى الفلسفة بدورها ، فى أشعار شيلي وكيثس ، وورد سوث وكولردج . غير أن صمويل تيلر كولردج (١٧٧٢ - ١٨٣٤)

هو الذى كانت له أهمية خاصة من بين هؤلاء جميعا . فهو لم يكن شاعرا ملهما فحسب ، بل كانت له أيضا مواهب فلسفية أصيلة ، وكان يسعى دائما إلى التعبير عن نظراته الشعرية إلى العالم تعبيرا نظريا إلى جانب التعبير الفنى . وفى خلال ذلك مرّ ذهنه ، الذى كان يتصف بقدر هائل من التفتح والمرونة ، بتغيرات عدة ، فتعرّض مرة تلو المرة لتأثير هارتلى وباركلى واسينوزا وأفلاطون وأفلوطين وكانت وشلنج وغيرهم . وبعد اضطرابات وسورات متعددة ، وصل أخيرا إلى نوع من الميتافيزيقا الروحانية التى يمكن التعبير عنها بالحكم الرائعة والأقوال الموجزة أفضل مما يعبر عنها بالطريقة المنهجية الدقيقة . وقد وقف فى هذه الآراء موقف المعارضة الشديدة للآراء الفلسفية السائدة فى عصره وبلده ، ولا سيما مذهب المنفعة التجريبي عند بنتام ، الذى كان هو المذهب العصرى المنتشر عندئذ . ومن الملاحظ أن الأوساط الفلسفية المتخصصة ذاتها كانت تعترف أحيانا بأن كوارديج قد أدخل إلى الفلسفة الإنجليزية روحا جديدة لم تشترك فى شيء مع الآراء الراسخة السائدة ( كما جاء مثلا فى المقالات التى كتبها جون استورت مل فى عامى ١٨٣٨ و ١٨٤٠ عن بنتام وكولردج ، والتى أعيد طبعها : « أبحاث ومناقشات » ، المجلد الأول ، ورغم ذلك لم يظهر أى أثر لتدخل هذه الروح الجديدة فى الأوساط الأكاديمية خلال حياة الشاعر ، بل ولا بعد وفاته بجيل كامل — وهذا أوضح دليل على أن الأوان لم يكن قد آن لحدوث تجديد مثالى شامل فى الفكر الإنجليزى .

ولقد كانت لفلسفة كولردج أهمية ، بالنسبة إلى بحثنا هذا ، من زاوية أخرى . فمع هذه الفلسفة تدفق إلى إنجلترا لأول مرة مجرى واسع من المثالية الألمانية . ومن الصعب أن يقرر المرء إن كانت الأفكار الرئيسية فى نظراته إلى العالم قد تشكلت فى ذهنه قبل تعرفه على

(٢٩١)

المذاهب الألمانية<sup>(١)</sup> ، أو أن أول ظهور لها كان على إثر اطلاعه على هذه المذاهب ، غير أن كل ما يهم تاريخ الفكر هو أنه قد حدث اتصال بينه وبينها ، وأنه كان اتصالاً وثيقاً إلى حد بعيد ، وبفضله دخلت الفلسفة الألمانية لأول مرة في الإطار الذهني للإنجليز<sup>(٢)</sup> .

ونحن نعلم أن كولردج قد درس مذهب كانت بالتفصيل ، وأن

(١) تم هذا التعرف ، لأول مرة ، خلال زيارته لألمانيا عام ١٧٩٨ — ١٧٩٩ ، ثم حدث بعد ذلك عن طريق دراسته المتعمقة للأدب الألماني والفلسفة الألمانية .

(٢) للاطلاع على مزيد من المعلومات حول دخول المذهب الكانتي إلى إنجلترا ، انظر كتاب : « كانت في إنجلترا » ، تأليف ر . ولك R. Wellek ، ١٩٣١ (برلستون) . وكانت أولى الكتب عن كانت في إنجلترا هي : « نظرة عامة وتعبيدية إلى مبادئ الأستاذ كانت General & Introductory View of Professor Kant's Principles » من تأليف ف . ا . نيتش F. A. Nitzsch ، ١٧٩٦ ؛ و « مبادئ الفلسفة النقدية Principles of Critical phil. » من تأليف ج . س . بك J. S. Beck ، ترجمة ج . رشاردسن J. Richardson ، عام ١٧٩٧ ؛ و « أركان الفلسفة النقدية Elements of Critical Phil. » تأليف ا . ف . م ويليش Willich ، ١٧٩٥ .

أما أولى الترجمات الإنجليزية لكانت فهي : « بحوث ومقالات في موضوعات أخلاقية وسياسية وموضوعات فلسفية متعددة Essays & Treatises on Moral, Political and Various Philosophical Subjects » في مجلدين ، ١٧٩٨ — ١٧٩٩ ؛ و « ميتافيزيقا الأخلاق Metaphysic of Morals » ، ١٧٩٩ ؛ « للنطق Logic » ، ١٨١٩ ؛ « للنطق لكل ميتافيزيقا مقابلة Prolegomena to Every Future Metaphysic » ، ١٨١٩ ؛ وقد أعيد طبع الكتابين الأخيرين مع « بحث ... في أسس إثبات وجود الله Enquiry ... into The Grounds of Proof for the Existence of God » ، ١٨٣٦ . وكان ج . رشاردسن هو الذي قام بجمع هذه الترجمات . وظهرت ترجمة « ج . و . سمبل J. W. Semple » ، لكتاب « ميتافيزيقا الأخلاق Met. of Ethics » لأول مرة في ١٨٣٦ . وكانت الترجمة الأولى لأول كتب « النقد » من عمل « فرانسيس هيود Francis Haywood » بعنوان « Critic of Pure Reason » ، ١٨٣٨ ( الطبعة الثانية ١٨٤٨ ) . وقد نشر هيود عام ١٧٤٤ « تحليلاً لنقد العقل الخالص عند كانت An Analysis of Kant's Critick of Pure Reason » .

هذه الدراسة تركت آثارا واضحة في تفكيره الخاص . غير أن تأثير شلنج كان أعمق ، إذ أن تعاليمه في الكونيات والجماليات قد اجتذبت به وهزته من أعماقه ، بل وكادت تستحوذ عليه تماما في بعض الأحيان . وقد أثبتت الأبحاث الأخيرة أنه درس كتابات متعددة لفشته وهيغل أيضا ، ودون بعض التعليقات الهامشية عليها ، رغم أن تأثير هذين المفكرين أقل وضوحا في مؤلفاته المنشورة ( انظر كتاب د كولدريج فيلسوفاً ، ١٩٣١ ، ص ٢٧١ ، الهامش ) . كذلك كان اسكل من اسنج وهردر وجوته وشيلر تأثير حاسم في تفكيره . وعلى ذلك فإن كولدريج يمثل غزوا مبكرا وفريدا من نوعه للحياة الروحية الإنجليزية بواسطة الفكر المثالي الألماني ، كما يمثل رد فعل عنيف على الموقف الذهني للقرن الثامن عشر ، وعلى امتداد هذا الموقف في العشرات الأولى من القرن التاسع عشر في الفلسفة الإنجليزية القومية . وقد تمكن التيار التجريبي لمذهب المنفعة ، الذي وجد في جون استورت مل بطلا جديدا له من السيطرة على الميدان إلى ما بعد منتصف القرن الماضي ، فكافة من نتيجة ذلك أن ظلت أنظار كولدريج العميقة مبعثرة ، عاجزة عن أن تجد في أي مكان تربة صالحة تضرب بجذورها فيها ولم تثمر البذرة التي بقرها إلا لدى تليذ واحد ، كان هو الجراح جوزيف هنري جرين Joseph Henry Green ( ١٧٩١ - ١٨٦٣ ) ، الصديق الحميم للشاعر طوال سنوات عديدة ، ثم منفذ وصيته الأدبية فيما بعد . ولقد كان من مهمته ، بهذا الوصف الأخير ، أن يفحص مخلقات كولدريج الفلسفية ويضعها في صورة منهجية ، وهي مهمة كرس لها في إنكار واضح للذات ، الجزء الأكبر من سنواته الأخيرة ، دون أن يتمكن من إنجازها . على أنه قد شيد نوعا من المذهب الفلسفي من كتابات الشاعر ومذكراته وملاحظاته الهامشية ومحدثاته ، ونشرت هذه بعض

وفاته بعنوان « الفلسفة الروحية » ، المبينة على تعاليم المرحوم س . ت . كولردج .

Spiritual Phil. founded on the teaching of the late S. T. Coleridge

( ١٨٦٥ ، في مجلدين ) . ورغم التغير الذي طرأ منذ وفاة كولردج ، فقد ظهر هذا الكتاب وظل دون أن ينتبه إليه أحد ، إذ طغى عليه كتاب سترانج عن هيجل ، الذي ظهر في العام نفسه ، وبعد ذلك اتجه القراء مباشرة إلى المصادر الألمانية دون أن يعبأوا بكولردج وتلميذه . ولم تبقى أفكار كولردج حية إلا لدى قلة منهم ، إلى جانب جريرن ، مثل ف . د . موريس F. D. Maurice و س . ه . هودجسن S. H. Hodgson ؛ وقد أهدى الأخير كتابه « فلسفة التفكير Phil of Reflection » ( ١٨٧٨ ) إلى كولردج بوصفه « أبا فلسفيا » للمؤلف . ولم تبحث فلسفة ذلك الشاعر الرومانتيكي العظيم بحثا تاريخيا إلا في وقت قريب ، بفضل كتاب : أليس د . سنيدر Alice D. Snyder « آراء كولردج في المنطق والتعليم J. H. Muirhead » ١٩٢٩ ، و « Coleridge on Logic & Learning » ١٩٣٠ ، « C. as Philosopher » كولردج فيلسوفا .

ومن معاصري كولردج ومعارفه في ميدان الأدب ، توماس دي كوينسى Thomas de Quincey ( ١٧٨٥ — ١٨٥٩ ) الذي اجتذبه انفسلفة الألمانية — وقد درس بحماسة كتابات كانت وفشته وشلنج ، وحاول أن يشير الاهتمام بأفكارهم وأن يقربها إلى أذهان أكبر عدد من الناس ؛ ولكنه ، رغم ما كان يبدية من آن لآخر من استبصار عميق إلى حد يدعو إلى الدهشة ، كان يفتقر إلى الفهم الذي لابد منه لمحة كهذه ، وزاد الأمور غموضا أكثر بما زادها وضوحا . ولا يمكن أن يقال إنه كان عاملا هاما في فتح آفاق الفكر الألماني . ومع ذلك فقد كان واحدا من

الإنجليز القلائل الذين لهم أية معرفة بهذا الفكر في العقدين الثالث والرابع من القرن الماضي<sup>(١)</sup> .

على أن أحدا لم يدعُ إلى رسالة المثالية بمثل العمق والتأثير الذي دعا به إليها توماس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١) . فإليه ، أكثر من أى شخص غيره ، يرجع الفضل في إحداث التغيير الذهني الكامل الذي وقع في أيامه ، وتهيئة الأرض للبذرة الجديدة . ورغم أن مواهب كارليل ومعلوماته الفلسفية كانت أقل من مثيلاتها عند كولردج ، فقد كان أقوى منه اقتناعا ، وأشد إصرارا وجسارة ، وهكذا استوعب القيم الروحية للأدب والفكر الألماني ، ثم عرضهما ثانية بكل ما كان يتصف به أسلوبه التنبؤي . من تأثير بالغ . ولقد كان إيمانه الكامل برسائته هو الذي أضفى على أقواله قوتها الإقناعية ، وجعل لكلماته أصداءها القوية . وكان هو أول زعماء رد الفعل الحامس على تراث القرن الثامن عشر ، وعلى كل بقاياها في القرن التاسع عشر - أى على عصر التنوير - الذي كان وائده العقلي في نظره . هو هيوم - وعلى الاكتفاء المتكاسل بالشك والإنكار ، وعلى الموقف الطبيعي وأخلاق المنفعة ، وعلى تجاهل الروح النقدية وسيطرة العقل الغاشية . ووسط كل أعراض الإفلاس الروحي هذه ، التي كانت متفشية في بلاده ، حاول أن يغرس القيم الجديدة التي ولدتها الفلسفة الكلاسيكية والأدب الكلاسيكي عند الألمان ، وعلى هذا النحو أصبح جسرا حيا بين الثقافتين الألمانية والإنجليزية ، وسفيرا أو ممثلا للروح الألمانية في بلاده . وأدى هذه المهمة على نحو أفضل مما أداها عليه كولردج في أى وقت .

---

(١) نعر دى كوينسى عدة مقالات من كانت ، كما نشر ترجمات لأجزاء من مؤلفاته في مجلات شعبية . وللإطلاع على التفاصيل يرجع القارئ إلى كتاب ر . ولك : « كانت في إنجلترا » ، ١٩٣١ ، ص ١٧١ - ١٨٠ .



ولكن ، رغم هذا كله ، لم يكن لديه أى اهتمام فلسفى على التخصيص ، ولم يكن للفلسفة بالنسبة إليه أى معنى إذا ما فهمت على أنها تعمق فى التحصيل أو تأمل خالص . ولقد اعتنق من المثالية وجهها العملى والدينى أكثر مما اعتنق وجهها النظرى ، وآمن بها بوصفها قوة حية وموقفا ذهنيا أكثر مما آمن بها بوصفها نظرية أو فرعاً للمعرفة ، وبدلاً من أن يتخذ من الفلسفة موضوعاً للتفكير ، اكتفى بأن يحياها ، كما يدعو إلى قيمتها الروحية ويطبقها على الحياة ، منظوراً إليها من الوجهة الدينامية ، ويدمجها فيها . وبمثل هذا الموقف تعلم من كانت وفشته أكثر كثيراً مما تعلم من شلنج وهيجل ، وهذا ينطبق بوجه أخص على فشته ، الذى كان يدين له بالجزء الأكبر من الوجهة الفلسفى لتفكيره ، ولم يكن يمل أبداً من إحالة معاصريه إلى هردر ونوفالس وجان پول وشيلر ، وإلى جوته العظيم بوصفهم دعاة وخالقين لقيم عملية جديدة ولكنها أزلية .

وفى أمريكا كانت لإمرسون Emerson رسالة شبيهة برسالة كارليل ، وإن لم يكن تأثيره بالألمان السابقين عليه قد بلغ مثل هذا العمق . ولما كانت كتاباته قد أثرت فى إنجلترا بدورها تأثيراً بالغاً ، فقد لزم التنويه بأهميته .

من هذه الاتجاهات ، لا من أوساط فلسفية خالصة تلقت الحركة الجديدة أكبر قوة دافعة لها . صحيح أن البعض ، فى هذه الأوساط ، كانوا يستبقون الحركة الجديدة من آن لآخر ، غير أن معظم هؤلاء لم يتجاوزوا نطاق الإلمام بتعاليم الفلاسفة الألمان والاهتمام بهم ، ونادراً ما أظهروا فهماً حقيقياً لهم ؛ وكلهم على السواء كانوا منعزلين بدرجات متفاوتة ، فلم يتجمعوا أبداً بالقدر الذى يكفى لتكوين حركة واحدة . وفضلاً عن ذلك فلم يتوافر لأحد منهم فهم كامل للمثالية فى مجموعها . وهكذا فإن دورهم ، فى التعجيل بظهور الحركة المثالية ، كان إما ضئيلاً جداً

ولما منعزما . ومع ذلك فمن واجبتنا أن ننوه بعمل السير وليام هاملتن ومدرسته ، التي سيطرت على الميدان الفلسفي . ولا سيما في اسكتلندا ، في أواسط القرن الماضي . فقد كان هاملتن أول فيلسوف محترف في إنجلترا اكتسب معرفة عميقة واسعة بالمؤلفات الفلسفية الألمانية وانتفع من هذه المعرفة ، وكان يفوق كل معاصريه في فهمه إلى القراءة وعمق معلوماته : ومن المؤلف أن يصادف المرء في كتاباته أسماء كبار المفكرين الألمان . بل إن من الممكن وصف مذهبه الخاص بأنه محاولة للتوفيق بين الفكر الاسكتلندي وتفكير كانت أو لإيجاد مركب منهما ، أو إذا شئنا تعبيراً أدق ، لتطعيم فلسفة الموقف الطبيعي عند ريد ببذرة كانتية . غير أن أهم ما أخذه هاملتن عن كانت هو النزعة الظاهرية اللا أدريّة Agnostic phenomenalism في نظرية المعرفة النقدية ، والفكرة القائلة إن المعرفة البشرية تقتصر على المظاهر ، وعلى ما هو متناه ، مشروط ، نسبي . ولقد أدى اقتصاره على إبراز الجزء النظري من مذهب كانت ، بل والوجه السلبي منه فحسب ، أدى ذلك إلى جعل هذا الجزء يبدو وكأنه كل ما في الفلسفة الترنسندنتالية أو على الأقل أهم ما فيها ، فكان من نتيجة هذه الصورة الجزئية المضللة إلى أبعد حد ، أن حيل بينه ، وكذلك بين مواطنيه ، وبين الوصول إلى نظرة شاملة إلى تفكير كانت ، وفهم أصيل له ، كما قطع الطريق على المذاهب التالية لكانت . صحيح أنه كانت لديه معرفة وثيقة بهذه المذاهب ، ولكنه كان عاجزاً تماماً عن اكتساب أى شيء منها ، وبدد جهوده في خلاف عقيم زائف مع « فلسفة اللامشروط ( المطلق ) » . فقد أفتى بعدم مشروعية المذاهب الميتافيزيقية الكبرى التي ظهرت نتيجة لنقد العقل عند كانت ، وأصبح هذا الحكم ، بفضل سلطته العظيمة ، هو الرأي السائد وقتاً طويلاً . ومن هنا كان من أولى المهام التي تعين على سترلينج القيام بها عند وضع أسس بنائه الجديد ، إعلان احتجاجه بشدة على تشويحات هاملتن ونظراته

السطحية ، وإنكار أصالة نظراته إلى الفلسفة الألمانية : ذلك لأنه كان واثقاً من أن عدم إنصاف هاملتن لهذه الفلسفة قد عاق تقدم الفكر الإنجليزى جيلاً كاملاً . ومع ذلك فلا مفر لنا من أن نعترف لهاملتن بفضل إنقاذ الفلسفة الإنجليزية ، بعلمه الخبير ، من الطريق المسدود الذى كانت قد انتهت إليه ، إذ أتاح دخول مصادر جديدة وجلب إليها روافد من الفكر الأجنبى المعاصر له . فلم يكن لآى فيلسوف آخر ، قبل سترلينج ، مثلما كان لهاملتن من الأثر فى القضاء على عزلة الفلسفة فى بلاده .

وبعد وفاة هاملتن ، أصبح جون استوارت مل هو أبرز الشخصيات فى ميدان الفلسفة فى إنجلترا ، بل أصبح هو الممثل الوحيد للفلسفة فى إنجلترا ، وأكثر المفكرين قراء ، فى الفترة التى تلت منتصف القرن الماضى مباشرة . وفيه التقت جميع تيارات الفكر الفلسفى التى كانت حية عندئذ . ولقد بلغت سيطرته من الاكتمال حداً أصبح من المستحيل معه أن يجد أى شخص يتحدث ضده آذاناً صاغية . ونستطيع أن نذكر أولاً ، ضمن أولئك الذين غامروا بالسباحة ضد التيار التجريبي . اسم جون جروت J. Grote ( ١٨١٣ - ١٨٦٦ ) ، الذى كان أستاذاً للفلسفة الأخلاقية فى كيمبردج . فقد دار تفكيره ، الذى كان منعزلاً وشبه مستقل ، فى إطار المثالية — ولكنها لم تكن مثالية هاملتن ، بما فيها من نسيية لا أدريية . فقد رفض تعاليم هذا الأخير صراحة ، وحيد بدلاً منها مذهباً تكون المعرفة فيه هي : تعاطف العقل مع العقل ، من خلال الوجود المشروط الجزئى (١) ، : فمن الممكن بلوغ الواقع الحقيقى ، والشئ فى ذاته ، فى المعرفة ، وذلك راجع إلى أن طبيعته هي نفس طبيعة الذهن الذى يعرفه .

(١) بحث استطلاعى فلسفى Exploratio philosophica ، الجزء الثانى ،

وقد جمع جروت ، إلى هذه الفكرة ، نقدا عميقا للمذهب الظاهري . أو الوضعي ، وإن يكن قد اقتصر على توجيه نقده إلى ادعاء هذا المذهب . أنه هو الكلمة الأخيرة في الفلسفة ، أو هو الفلسفة كلها . فعرفة الظواهر هي شكل مفيد من أشكال المعرفة ، وهي تمثل نوعا حقيقياً من التجريد . في مجالها الخاص ، مجال العلوم الطبيعية ؛ ولكنها مع ذلك لا تعدو أن تكون تجريدا مستمدا من سياق أوسع منها كثيرا . فهي إذن معرفة مبدئية تمهد للمعرفة الفلسفية بمعناها الدقيق . ومن هنا كان من الواجب تكملة وجهة النظر الظاهرية وإتمامها بوجهة النظر المثالية ؛ بل إن تفكيرنا لا يكون فلسفيا حقيقة إلا إذا فكرنا بالطريقة المثالية ، إذ إن جروت لم يكن يعنى بالفلسفة الاهتمام بموضوع المعرفة ، وإنما الاهتمام بواقعة المعرفة أو عملية المعرفة ذاتها . ومن ذلك فإنه لم يصل إلى أى إيضاح كامل لموقفه ؛ وكل ما فعله هو الاعتراف بعدم كفاية النظريات السائدة في أيامه ، وتلمس طرق جديدة للتفكير على غير هدى . ولقد كان في ذهنه نوع من المثالية الموضوعية أو الميتافيزيقية ، ولكن وجوده في بيئة لها اتجاه مختلف كل الاختلاف ، جعله أكثر انعزالا من أن يتمكن من تشييد مذهب له قوامه الصحيح . ومن هنا فإنه لم يكسب يلقى أية استجابة مباشرة ، ولم تجد الأفكار الخصبية القليلة التي غرس بذرتها تربة مناسبة هنا أو هناك إلا بعد مضي وقت طويل . وقد ظهر الكتاب الفلسفي الوحيد الذي نشره هو ذاته ، وهو « بحث استطلاعي فلسفي ، المجلد الأول » ، سنة ١٨٦٥ ) في نفس السنة التي ظهر فيها كتاب سترلنج عن هيجل . أما بقية مؤلفاته (١) فقد نشرت بعد وفاته ولم تلق إلا اهتماما ضئيلا .

(١) « اختبار لفلسفة للنزعة » An Examination of the Utilitarian Phil.

١٨٧٠ : « بحث في الأفكار الأخلاقية A Treatise on the Moral Ideas » ،

١٨٧٦ . « بحث استطلاعي فلسفي ، المجلد الثاني » ، ١٩٠٠ .

أما جيمس فريير James F. Ferrier ( ١٨٠٨ - ١٨٦٤ ، الذى كان أستاذا بكلية سانت أندروز ) ، فـ كان مثل جروت ، من القلائل الذين رفضوا ، فى أواسط القرن التاسع عشر ، الخضوع لسلطة هاملتن ( الذى كان يعجب كثيرا بمواهبه العقلية وبشخصيته القوية ) أو سلطة مل ، وإنما سار فى طريقه الخاص ، وقال بمذهب مثالى كانت معالمه أوضح كثيرا من تلك الخيوط المفككة التى قال بها جروت ، واحتوى مذهبه على عناصر كثيرة من الحركة التى سرعان ما ظهرت بعد ذلك . وقد وُحِّد فى مؤلفه الرئيسى ، « مبادئ الميتافيزيقا Institutes of Metaphysic » ، ( ١٨٥٤ ) ، بين الفلسفة وبين العلم النظرى ( speculative ) ، وكشف عن خصائص هذا العلم بطريقة منهجية ، فى صورة نظريات تُستنبط كل منها من السابقة عليها ، على نحو يقرب كثيرا مما فعله اسينوزا فى كتاب « الأخلاق » . وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء : ( أ ) الإستمولوجيا أو نظرية المعرفة ؛ ( ب ) الأجنولوجيا Agnoiology أو نظرية الجهل ؛ ( ج ) الأنتولوجيا أو نظرية الوجود . وقد صاغ فى قضيته أو نظريته الأولى ، التى يبنى عليها بالتالى مذهبه بأكمله ، القانون الأساسى لكل معرفة ، وهو : « مع أى شيء يعلمه أى عقل ، ينبغى أن يعرف هذا العقل ذاته » . بوصف هذه المعرفة أساسا أو شرطا لعلمه ، ( الطبعة الثالثة ، ص ٧٩ ) . وهنا نرى ، منذ البداية ، اتفاقا واضحا مع كانت . والحق أن فريير هو على الأرجح أول مفكر إنجليزى تفهم الفلسفة الألمانية وتعاطف معها ، وانتفع منها على نحو إيجابى لصالح مذهبه الخاص . ولقد أحس بتأثير هذه الفلسفة فى زيارة مبكرة قام بها لألمانيا ، وظل فيما بعد على صلة وثيقة بها . وربما كان مقالا عن شلنج وهيجل فى « القاموس الإمبراطورى للسير العالمية Imperial Dict. of Universal Biography » ( ١٨٥٧ - ١٨٦٣ )<sup>(١)</sup>

(١) أهيد طبعهما فى كتابه « محاضرات فى الفلسفة اليونانية للتقدمة وغلفات فلسفية . أخرى Lectures on Early Greek Phil. and other Philosophical Remains » ١٨٦٦ ، المجلد الثانى .

تأولى الكتابات التي تجلى فيها فهم حقيقى لهذين المفكرين باللغة الإنجليزية . وكان لموقفه من هيجل طرارة خاصة : فقد كان دائماً ينفى الاعتقاد بأنه كان هيجليا . وأيا ما كان الأمر ، فلدينا اعترافه الخاص بأنه كان يكافح بقوة ، ولكن دون نجاح فى معظم الأحيان ، لكي يفهم هيجل . فهيجل كان بالنسبة إليه ، كما كان بالنسبة إلى سترلنج ، السر الأعظم ، المحاط بهالة من الهيبة السحرية ، وهو شخصية ليست لديه فكرة عقلية عن عظمته ، وإنما مجرد إحساس وشعور غامض بها . وإنا لنصادف لدى فريير ، كما نصادف لدى سترلنج ( مبادئ الميتافيزيقا ، ص ٩١ ومايلها ) تعبيرات تلمح إلى أن العملاق الذى لم يقهر سينقض كالقدر على كل ما هو مقدس فى تراث الفلسفة الإنجليزية .

ويرتكز مذهب فريير ، وهو مذهب مطلق يقوم على أساس نظرى محض ، على نظرية مثالية فى المعرفة ، وعلى نظرية أصيلة تماماً فى الجهل . وكان هذا المذهب تجريدياً نظرياً بنّاء إلى درجة رفيعة ، فى وقت انحدر فيه التأمل النظرى عند الإنجليز إلى أدنى درجاته . ويظهر التأثير الألمانى بوضوح فى هذا الانطلاق للقوى التأملية ، وكذلك فى تركيب المذهب عامة ، وفى اتجاهاته الفكرية الخاصة . غير أن فريير قد نهل أيضاً من منبع الفلسفة القومية ، فعاد إلى باركلى واستمد من فلسفته عناصر هامة أدمجها فى مذهبه الخاص<sup>(١)</sup> ؛ ولما كان باركلى فى ذلك الحين يكاد يكون منسياً فى إنجلترا ، فعلى أن ننسب إلى فريير فضلاً آخر هو فضل إعادة اكتشافه من جديد ،<sup>(٢)</sup> وإعطائه القوة الدافعة الأولى لبعث مذهب باركلى ، الذى

(١) لم يكن ذلك الذى تأثر به هو باركلى المعروف تاريخياً ، بقدر ما كان باركلى كما يرى من خلال منظار ألمانى ، كذلك حور فريير أنسكاره هأتها شأن كل ما اقتبس منه ، على النحو للآتم قدمنه الخاص .

(٢) وذلك فى مقاله « باركلى وللثالية Berkeley & Idealism » فى « مجلة بلاكروود Blackwood's Magazine » ، ١٨٤٢ ، المجلد الحادى والخمسين ( أعيد طبع المقال فى كتابه « محاضرات فى الفلسفة اليونانية الخ » ، ١٨٦٦ ، المجلد الثانى ) .

تحقق على يد فريزر، وكولينز سيمون Collins Simon، وراشدال Rashdall وغيرهم . وأخيراً ينبغي أن نلاحظ أنه ربما كان أول اسكتلندي يشوز على تراث المدرسة الاسكتلندية (١) .

فالموقف الطبيعي في رأيه لا يمكن أن يكون معيار الحقيقة الفلسفية ، لأن التفكير اليومي ، الذي هو أبعد ما يكون عن التفكير العقلي ، مضطر إلى الخضوع تماماً لقرارات هذا التفكير العقلي . وهنا أيضاً كان فريزر مبشراً ومنتزحاً بتطورات ستحدث فيما بعد . غير أن اهتمامنا الرئيسي ينصب هنا على الحديث عنه بوصفه واحداً من رواد الحركة المثالية ، التي ساهمت كتاباته ، بما أحرزته من شهرة غير قليلة في وقتها ، في إعطائها قوة دافعة ومضمونا .

وآخر من سنذكرهم من أوائك الذين أحسوا بوضوح بتأثير الفلسفة الألمانية قبل بداية الحركة بمعناها الصحيح ، هو اللاهوتي فريدريك دنيسون موريس F. Denison Maurice ( ١٨٠٥ - ١٨٧٢ ) . واقد كان موريس أستاذاً للتاريخ والأدب الإنجليزي (١٨٤٠) وكذلك اللاهوت (١٨٤٦) في « كينجز كولايدج » ، بلندن ، حتى عام ١٨٥٣ حين أعني من منصبه بسبب آرائه المفرطة في تحررها . ومنذ عام ١٨٦٦ حتى وفاته شغل كرسى الفلسفة الأخلاقية بجامعة كيمبردج . ولقد تشبع بعق بروج كولردج ، إذ كان واحداً من تلامذته القلائل ، ولكنه لم يفلح أبداً في التعمق في مجاهل وغوامض التصوف عند هذا الشاعر الفيلسوف ، والارتقاء به إلى مستوى التفكير الواضح . وفضلاً عن ذلك فقد رجع ، بفضل كولردج ، إلى الدراسة المباشرة للفلاسفة واللاهوتيين الألمان ، واستمد

(١) كان فريزر يعني ، بتسمية فلسفته « اسكتلندية في الصميم » أنها أصيلة تماماً ، وأنها تاج قوي وليست اقتباساً أجنبياً . ولقد كانت في هذا صادقا .

منهم أفكارا ملهمة عديدة . غير أن نشاطه الرئيسى كان خارج نطاق الفلسفة التى لم يكرس لها إلا اهتماما عارضا (١) .

وهكذا فإن إحياء المثالية فى إنجلترا قد مهدت له تيارات أدبية ، وبشّرت به قلة من الفلاسفة المنعزلين ، غير أن هناك عاملين آخرين ساعدوا على إحداث هذا الإحياء والتعجيل به ، أولهما اهتمام الأوساط الدينية واللاهوتية ، وثانيهما العناية بالدراسات الكلاسيكية فى الجامعات القديمة .

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لم يكن التوتر التقليدى بين الفلسفة والدين ، أو بين المعرفة والإيمان ، قد تحول إلى صراع علنى ، وإنما كان أنصار كل من المعسكرين يتسامحون مع أنصار الآخر ، ويقفون منه موقف الحياد العطوف ، وذلك باستثناء اصطدامات قليلة كانت تقع هنا وهناك . فالفلسفة كانت على وجه العموم أقل اكتراثا بالدين من أن تجعل منه مشكلة حقيقية ، وإنما اهتمت بمسائل أخرى ، وتركت اللاهوت وشأنه . غير أن تحولا أساسيا حاسما قد طرأ على هذا الوضع بعد منتصف القرن الماضى . فقد أدى ظهور الداروينية إلى اتخاذ الفلسفة موقفاً عدائيا من الدين . ونما المذهب الطبيعى والمادى بقوة بين أتباع دارون ، وكان تغلغله فى أذهان العامة أعمق من تغلغله فى أذهان المثقفين ، فكان لذلك أثره الهدام . فقد تعرض الدين ، نتيجة لذلك ، لخطر داهم ، وهكذا دخل اللاهوت المعركة ، بوصفه الجهة المختصة بالدفاع عن الدين . غير أن الأسلحة اللاهوتية وحدها لم تكن كافية للبضى فى المعركة ضد المادية ؛ وإنما كان لابد من صرع العدو بسلاحه الخاص ، أى بالفلسفة . على أن الفلسفة القومية كانت عاجزة عن ذلك تماما ؛ فلم يكن من المستطاع

(١) انظر على الأخص كتابه التاريخى الضخم « الفلسفة الأخلاقية والبيافيزيقية

Moral & Metaphysical Phil. ، فى مجلدين ، ١٨٧١ — ١٨٧٢ ( وهو

توسيم لقال فى « دائرة المعارف للتروبولية Encyclopaedia Metropolitana ،

( ١٨٤٥ ) .



استخلاص أى سلاح جديد منها ، بل إن جانباً منها قد هرب رافعاً أعلامه  
اليضاء إلى معسكر العدو . وهكذا أدت خطورة الموقف إلى الإصغاء  
إلى تلك الأصوات الفلسفية التي كانت تتحدث ، منذ وقت غير قليل ،  
من ألمانيا وأدركت الدوائر الدينية المحافظة ، بوجه خاص ، الأهمية  
العظمى لعقد تحالف مع المثالية الفلسفية فى الصراع المقبل . وهكذا لم  
تكن الاعتبارات الفلسفية الخاصة هى التى أدت إلى فتح الباب للغز  
الألماني ، وذلك فى المراحل الأولى على الأخص ، وإنما أدت إلى الرغبة  
فى دعم اللاهوت المحافظ وتجديد قوة الإيمان المهدد ، ضد هجوم  
اللاأدرية ، والطبيعية ، وعدم الاكتراث الدينى ، والإنكار الصريح ،  
وكان أول وأهم المذاهب التى استُغلت هو الميتافيزيقا البنياءة  
( أو التركيبية ) عند هيجل ، لا الكانتية ، إذ كانت هناك شكوك تحوم  
حول كانت ذاته ، وتتهمه باللاأدرية ، وذلك نتيجة للتفسير المفروض  
الذى فرضته عليه مدرسة هاملتن . ويظهر هذا الاتجاه بكل وضوح عند  
رواد الحركة ، أى عند سترانج وجرين وولاس والأخوين « ليرد » :  
فالمثالية الفلسفية كانت عند هؤلاء جميعاً ، وعند الكثيرين غيرهم ، تعنى  
تأييد الدين والدفاع عنه ، مهما كانت لها من دلالة أخرى لديهم . ولقد  
اعترف سترانج بذلك ، كما سرى فيما بعد ، بصراحة عمودة ، وحتى  
فى الحالات التى لم يعترف فيها بهذا الباعث بمثل هذه الصراحة ، كان رغم  
ذلك موجوداً وله أثره . وليس من شأننا هنا أن نتحدث عن التفسيرات  
الباطلة المصحفة التى نشأت عن هذا الباعث ، وحسبنا أن نؤكد أن الحركة  
كانت ، فى مراحلها الأولى ، تدين لهذا الباعث بأكثر قوة دافعة لهذا .  
غير أن هذا الباعث قد ضعف بنمو الحركة ، وبدأت سطوته تخف حتى  
منذ أيام « نتلشيب Nettleship » ، وكاد أن يختفى تماماً عند أنصار المذهب  
المتأخرين ( مثل برادلى وبوزانكيت ) أو يتحول إلى ضده ( كما هى الحال  
عند ما كتجارث ) . وهكذا فإن المتدينين المحافظين ، الذين هلّلوا بحماسة

للحركة في مرحلتها الأولى ، أصبحوا ينظرون إلى مراحلها المتأخرة بعين القلق وخيبة الأمل .

أما العامل الثاني فكان ينتمى إلى مجال مختلف كل الاختلاف . فقد كانت جامعتا أكسفورد وكيمبردج تعترزان دائماً بالروح الإنسانية واللغات الكلاسيكية ( القديمة ) ، وكانتا بهذا الوصف حاميتى التراث الفلسفى لليونان . ذلك لأن الفلسفة اليونانية ، ولا سيما فلسفة أفلاطون وأرسطو ، كانت منذ وقت طويل من أهم الوسائل التعليمية لنقل الثقافة الكلاسيكية ، وعن طريقها انتقلت الروح اليونانية إلى كل جوانب الحياة العقلية ، وكان لها تأثيرها النافع فى الفلسفة كما فى بقية هذه الجوانب . وهذا هو المعنى الذى يمكننا أن نفهم به العبارة القائلة بوجود « تراث أفلاطونى فى الفلسفة الانجلوسكسونية » ، ظل مستمرا على الدوام ( وهذا هو رأى مويرهيد ) ، لا معنى استمرار شكل معين من أشكال الأفلاطونية ظل يعمل على نحو فعال طوال تاريخ الفكر الإنجليزى ( فأفلاطونيو كيمبردج كانوا ظاهرة منعزلة ، ولم تحدث منذ ذلك الحين حركة مشابهة ) . وبعد منتصف القرن التاسع عشر حدثت نهضة جديدة هامة فى دراسة الفلسفة اليونانية بأكسفورد ارتبطت أساساً باسم « بنجامين جويت Benjamin Jowett ( ١٨١٧ - ١٨٩٣ ) . ورغم أن جويت كان لاهوتياً قبل كل شيء ، فقد كان رجلاً واسع الثقافة ذا نشاط متعدد الجوانب ، وكان من قادة حزب « الكنيسة الرحبة Broad Church » (١) . كما كان القوة الدافعة من وراء حركة إصلاح الجامعات . وما زال الأحياء من الجيل القديم يذكرون عنه أنه كان أبرز أساتذة الجامعات وأقوام تأثيراً فى عصره . وقد قضى حياته

(١) حزب أو مدرسة فى التفكير اللاهوتى رمتفعة عن المذهب الأنجليكانى ، كان أنصارها يقولون بآراء متحررة واسعة الأنقى ، ويدعون إلى قبول أوسع قدر ممكن من الأفكار . وقد كانت أبرز فترات نشاطهم هى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ومن زعمائهم الآخرين : توماس أرنولد ، ونشارلس كنيجل و . ف . و . روبرتسون .

فى التدريس فى أكسفورد وحدها : ففى عام ١٨٣٨ أصبح زميلا فى كلية  
 « باليول » ، ثم مدرسا بها بعد أربع سنوات ، وأصبح فى عام ١٨٧٠  
 أستاذا ( Master ) ، إلى جانب شغله كرسى اللغة اليونانية من ١٨٥٥  
 إلى ١٨٩٣ . ويمزى القدر الأكبر من شهرته إلى تجديده للدراسات  
 الكلاسيكية بروح الفاسفة اليونانية ومن خلالها ، وذلك خلال عمله  
 فى التدريس والكتابة ، الذى امتد أكثر من نصف قرن ، ولازمه النجاح  
 الباهر طواله . ومن المعترف به أن ترجمته لمحاورات أفلاطون ، التى صدرها  
 بمقدمات رائعة ، هى إلى اليوم أفضل الترجمات . ومن الممكن وصفها بأنها  
 كلاسيكية ، بمعنى أن أفلاطون أصبح بفضلها لأول مرة ، قوة تعليمية حية  
 بحق ، وأصبح من المقتنيات المضمونة للأمة . فدورها بالنسبة إلى إنجلترا  
 يساوى دور ترجمة « شلير ماخر » بالنسبة إلى ألمانيا . ولجويت ترجمات  
 أخرى لثوكوديدس Thucydides ( ١٨٨١ ) ولكتاب « السياسة »  
 لأرسطو ( ١٥٨٨ ) ، غير أنها أقل أهمية ، إذ أنه كان فيها أضعف تحمسا  
 للمؤلفات الأصاية وأقل تعاطفا معها .

ويمكن القول إن هذا الاهتمام المتجدد والمتعمق ، فى أكسفورد ،  
 بفلسفة العصور الكلاسيكية القديمة ، قد أتى فى الوقت المناسب ، نظرا  
 إلى الاتجاه الذى أخذ الفكر الإنجليزى يتحول إليه فى ذلك الحين . فقد  
 كانت القرابة بين المثالية اليونانية والألمانية واضحة ، وشعر الجيل الناشئ  
 فى أكسفورد أكثر من أى مكان آخر ، بالحاجة الملحة إلى تخليص  
 الفكر الإنجليزى من ضيق أفقه وخضوعه الدليل لتراثه ، وإلى العودة  
 به إلى المجرى العظيم للفلسفة الأوربية . وهكذا كان بحث الدراسات  
 الأفلاطونية الذى استهله جويت ، هو نقطة تجمع للمؤثرات الفلسفية  
 الآتية من ألمانيا . فضلا عن ذلك ، فإن هاتين القوتين المتقاربتين ،

اليونانية والألمانية ، اللتين تقابلتا سويا في أكسفورد في اتصال متبادل  
مثمر ، قد توحدتا في جويت نفسه ، وسارتا في اتجاه مشترك .

فلقد اتصل جويت بالمثالية الألمانية اتصالا مباشرا في وقت مبكر ، أى  
في عام ١٨٤٤ ر ١٨٤٥ ، خلال إجازتين صيفيتين قضاهما في ألمانيا . فزار  
شلنج الكهل في برلين ، ولكنه لم يعجب به على الإطلاق ( ووصفه  
في رسالة كتبها في ذلك الوقت بأنه « ثرثار عجوز » ) كذلك قابل ي . ا .  
إردمان<sup>(١)</sup> وناقش معه « أفضل طريقة لاستيعاب فلسفة هيجل » . وبعد عودته  
إلى إنجلترا ازداد عكوافا على دراسة هيجل ، بل إنه بدأ في ترجمة كتاب « المنطق »  
لهيجل ، ولكنه لم يكمل هذا العمل . وكانت حماسته ومشاركته في الكفاح  
من أجل فهم معاني هيجل مشابهة لكفاح سترلنج بعد ذلك بحوالى عشر  
سنوات أو خمس عشرة سنة . وهكذا كتب يقول في رسالة له عام ١٨٤٥  
« أما عن هيجل ، فليست لدى « إلا فكرة غامضة عن معناه ، ولكنني أشعر  
بأنني لن أرتاح حتى أزداد تعمقا فيه » . وقال أيضا « إما أن ينجح المرء في  
هذه المحاولة وإما أن يضيع ، أى أن يتخلى تماما عن المتياز فيقا . فمن المحال  
أن يقنع المرء بأي مذهب آخر بعد أن يكون قد بدأ في هذا » . غير أنه على  
خلاف سترلنج ، لم يتأثر بهيجل تأثرا كاملا . فقد كانت طبيعته أكثر  
 مرونة من أن يستحوذ عليها تماما هيجل أو غيره . وظل محتفظا ، حتى في  
هذه السنوات المبكرة ، باستقلاله الذهني المميز له ، وازداد احتفاظا به  
في السنوات التالية .

وأهم ما يعنينا هنا هو أنه حث مجموعة من صفوة تلاميذه على دراسة

---

(١) يوهان إيفارد إردمان ( ١٨٠٥ - ١٨٩٢ ) ، مؤرخ فلسفي مشهور ، ومفكر  
هيجلي ، كان أستاذا بجامعة « هاله » ألف كتابا أهمها « محاولة لمرئ تاريخ الفلسفة  
الحديثة مرضا علميا » ( ستة مجلدات ) و « معالم تاريخ الفلسفة » ( في مجلدين )  
و « معالم علم النفس » .  
[ المترجم ]

كتبات هيجل ، وبذلك أصبح أول وسيط للفكر الألماني في الجامعة التي أصبحت فيما بعد مقرا للمثالية الإنجليزية . فإلى جويت ، أكثر من أى شخص غيره ، يرجع الفضل في دراسة الهيجلية ومناقشتها بحماسة في أكسفورد حتى منذ أواسط القرن الماضى ، وفي تحولها إلى قوة عقلية متزايدة الأهمية . ولقد كانت للبنور التي غرسها في عقول تلاميذه ثمار فلسفية يانعة . ولا ينقص من فضله في هذا الصدد ، أن موقفه من هيجل قد مر بتقلبات متعددة ، وأنه لا يمكن أن يعد في أى وقت هيجليا كاملا صادقا . ذلك لأنه كان كلما ازداد غوصا في تفكير اليونانيين ، ازداد تباعدا عن أستاذه الفيلسوف الأول . ومع ذلك فإنه في كهولته الناضجة قد رجع بنظره في إعجاب وتبجيل إلى ما كان هيجل يعنيه بالنسبة إليه يوماً ما ، « فكتب يقول » لقد مضى أكثر من أربعين عاماً على ابتدائي في قراءة كتابات هيجل ، وأعتقد أن ذهني قد تلقى منه في ذلك الوقت من القوة والدافعة أكثر مما تلقاه من أى مفكر سواه . ورغم أننى أدرك الآن أن مثل هذا النوع من الفلسفة لن يكتب له البقاء الدائم ، فما زالت أكن لمعلمي وأستاذي القديم أعظم التبجيل ،<sup>(١)</sup> .

ولقد مر كثير من رواد المثالية الإنجليزية ، بل أهمهم ، على يديه ، ونخص منهم بالذكر جريرن ، وإدوارد كيرد ، ونتلشيب ، الذين كانوا هم المقربين إلى مؤلفاته وشخصيته نظرا إلى اشتغالهم في كلية باليول . ولقد ظهر تأثير الفلسفة الألمانية في كتاباته أوضح ما يكون في مقدماته لترجمته لمحاورات أفلاطون ( الطبعة الأولى ، ١٨٧١ ) . ولنقل أخيرا إن أهمية جويت ترجع إلى أنه هو الذى أدخل تلك الروح الفلسفية التي تولدت عنها

(١) رسالة مؤرخة في ١٨٨٤ . وقد استمد هذا النص والاقتباسات السابقة من رسائله من كتاب « حياة جويت ورسائله » Life & Letters of Jowett . تأليف أ. أبوت E. Abbott ول. كامبل L. Campbell ، في مجلدين ، ١٨٩٧ .

الحركة المثالية الجديدة في إنجلترا ، ورعاها سنوات طويلة ، وحفز على الاهتمام بها ، واقتنأ لتلاميذه .

على أن اليقظة الحقيقية للمثالية الإنجليزبة لم تأت من جانب الأوساط الأكاديمية في أكسفورد ، حيث لم تظهر مؤلفات تعبر عن الأفكار الجديدة إلا بعد فترة طويلة من الإعداد والكمون ، وإنما ظهرت بفضل بادرة جريئة حاسمة لرجل اسكتلندي غير متخصص ، كان حتى ذلك الحين مجهولاً ؛ هو ج. ه. سترلينج ، الذي نشر في عام ١٨٦٥ مؤلفاً من مجلدين عن هيجل . وفي العقد التالي كانت الحركة قد بلغت أوج نشاطها بظهور كتاب « مقدمات إلى هيوم ، لجرين ( ١٨٧٤ ) » وكتاب « منطق هيجل ، لولاس ( ١٨٧٤ أيضاً ) » ودراسات أخلاقية ، لبرادلي ( ١٨٧٦ ) ، وأول كتاب لكيرد عن كانت ( ١٨٧٧ ) . كذلك أدى هذا الإحياء إلى ظهور مجلة فلسفية هامة ، هي مجلة مايند Mind ، ( ١٨٧٦ ) ؛ وما زالت هي أم المجلات ) ، ورغم أن هذه المجلة كانت ترحب بجميع الاتجاهات الفكرية ، فقد كانت واسطة للتعبير عن الحركة الجديدة . وفي العقد التاسع من القرن الماضي دعمت الحركة موقفها ، وأنتجت سلسلة أخرى من الكتب الهامة — هي فلسفة الدين ، لجون كيرد ( ١٨٨٠ ) ، « وهيجل ، لإدوارد كيرد و « مقدمة للأخلاق ، لجرين و « المنطق » لبرادلي و « مقالات في النقد الفلسفي ، ( كلها عام ١٨٨٣ ) و « المذهب الهيجلي والشخصية ، لاندروست ( ١٨٨٧ ) و « المنطق ، لبوزانكيت ( ١٨٨٨ ) وكتاب كيرد الأكبر عن كانت ( ١٨٨٩ ) . ولقد اتخذ الاتجاه المثالي لأول مرة ، في كتاب « مقالات في النقد الفلسفي ، صورة اليأس المشترك ، وساهم في تأليفه مجموعة من أصغر ممثلي هذا الاتجاه سنة ، اشتهر بعضهم فيما بعد ( مثل ا. س. ه. وهولدين ، وبوزانكيت ، وسورلي . وهنري جونز ، ورتيشي ) . وقد أهدى الكتاب إلى جرين ، الذي كان

قد توفي في العام السابق . وأعرب إدوارد كيرد في التصدير عن المقصد العام للجماعة بقوله : « يتفق مؤلفو هذا الكتاب في الاعتقاد بأن طريق البحث الذي ينبغي أن تسلكه الفلسفة ، أو الذي نستطيع أن نتوقع لها أن تساهم فيه بأهم نصيب في الحياة العقلية للإنسان ، هو ذلك الطريق الذي شقه كانت ، والذي كان هيجل أعظم من ساهم في متابعته بنجاح ، وأضاف إلى ذلك أن رغبتهم كانت متجهة إلى أن يضيفوا على مؤلفات كانت وهيجل « تعبيراً وتطبيقاً جديدين » ، وقد اعترفوا بأن قبول آراء هذين المفكرين حرفياً في بلد آخر وجيل مختلف « ليس بالأمر الممكن لو كان مطلوباً ، ولا بالأمر المطلوب لو كان ممكناً ، وكان هدفهم هو أن يبينوا « كيف يمكن تطبيق مبادئ الفلسفة المثالية على مختلف مشكلات العلم والأخلاق والدين » . وهكذا تناولت المقالات مشكلات المنطق ونظرية المعرفة ومناهج البحث وفلسفة التاريخ وعلم الجمال والفلسفة الاجتماعية والفلسفة الدينية ، وبذلك تضمنت كل مجال البحث الفلسفي كما وسعت نطاقه المثالية الألمانية .

ولقد ظهر الجزء الأكبر مما أنجزته هذه المدرسة ( إذ إن من الممكن الكلام عن مدرسة في هذه المرحلة ) في أكسفورد ، التي كانت المعقل الحقيقي للحركة ، وظلت كذلك حتى بعد أن أدت وفاة جرين السابقة لأوانها إلى إحداث أول شقاق جدى في صفوف الرواد . ومن أكسفورد انتقل الطلاب الذين تشبعوا بروح كانت وهيجل إلى سائر أرجاء البلاد ، وأخذوا يشغلون بالتدرج كراسى الأستاذية وغيرها من مناصب التدريس في بقية الجامعات . وكانت جامعة جلاسجو مركزاً هاماً آخر : فهناك استقرت التعاليم الجديدة فيها منذ وقت مبكر جداً ، بفضل الجهود الرائعة التي بذلها إدوارد كيرد وشقيقه جون ، وحلت محل مذهب هاملتن الذي كان سائداً حتى ذلك الحين . واكتسحت موجة المثالية الظافرة كل ما

صادفها في كل مكان ، وسرعان ما تركت طابعها في الجزء الأكبر من التعاليم الفلسفية التي كانت تلقن وتدرس في الجامعات . وهكذا حدث تغيير وتوجيه جديد لا نظير لهما في تاريخ الفكر الإنجليزى بأسره . وفضلاً عن ذلك فإن حركة إحياء المثالية لم تبلغ في أى بلد آخر ذلك الحد من الروعة ، ولم يبلغ التأثير الروحى للمثالية ذلك الحد من القوة ، الذى بلغه فى إنجلترا فى الثالث الأخير من القرن التاسع عشر . وإنه لغريب حقاً أن ألمانيا ذاتها لم تسكد تشعر فى أى وقت بهذا التحول العميق الذى طرأ على الفلسفة الإنجليزية بفضل تعاليم كانت وهيغل ، وأنها لم تتلق منها ثانية أى رد فعل أو تأثير مرتد .

ولقد سار تقدم الحركة على مراحل متعددة : كانت أولاها مرحلة استيعاب محتوى الأفكار الواردة بغية نشرها عن طريق الترجمات والشروح ، إلخ ، وإدماجها فى المادة المألوفة للتدريس الأكاديمى واستغلالها فى مكافحة التعاليم القديمة التى كانت لا تزال سائدة عندئذ . كان ذلك هو العمل الرئيسى الذى تم فى العقد البادى بسنة ١٨٧٠ ، وهو عمل تولاه من أسميهم بالرواد — وهم سترلينج وجرين وإدوارد كيرد وولاس وغيرهم — ورغم أن هذا العمل كان تفسيرياً فى أساسه ، فقد كان أداؤه يتميز باستقلال ذهنى ملحوظ ، وتم فيه التوصل إلى بعض المبادئ الأساسية فى التفكير ، ظهرت فيها بوادر معالم فكرية هامة تميز بها التطور التالى . وهكذا حورت الأفكار المستوردة ، أو وسعت على الأقل فى أثناء نقلها . ثم جاءت مرحلة تالية ظهر فيها النقد الخلاق والبناء المستقل ، وذلك لتحسين الأرض التى غزاها الرواد وتوسيع رفعتها ، وما إن أطلقت الروح النقدية التأملية من عقالها ، حتى أمكن تحطيم الأشكال القديمة ، واستطاع الفكر أن يبدأ التحليق فى مسارات جديدة . وهكذا أفضت الحركة الهيجلية إلى ظهور عدد من المحاولات المستقلة الأصلية لإيجاد حلول



جديدة المشكلات الكونية القديمة . ومهما كانت درجة اعتماد هـ ـ ذه المحاولات عن نقطة بدايتها ، أو اختلفت طرق التفكير الأخرى التي انتهت إلى التحالف معها ، فإن القوة الدافعة الأولى التي تلقنها إنما كانت عن الحركة المثالية الجديدة . ولا شك أن أقوى ذهنين تأمليين ظهرا من بين صفوف هذه المدرسة كانا برادلى وما كستجارت ، غير أن بوزانكيت وبرنجل باتيسون ، وورد ، وسورلى ، وهولدين ، وغيرهم ، قد ساهموا بدورهم في العمل البناء وتوصلوا إلى نتائج لها شيء من الأهمية .

فإذا تساءلنا عن أقوى المثاليين الألمان الكبار أثرا في الفكر الإنجليزى كان الجواب دون شك هو إنه هيجل ، بحيث يحق أن يطلق على الحركة كما أطلق عليها بالفعل ، اسم الهيجلية الجديدة أو الهيجلية الإنجليزية (١) .

(١) ترجمت جميع كتب هيجل الرئيسية إلى الإنجليزية . وفيما يلي بيان بأهم الترجمات: « ظاهريات الروح The Phenomenology of Mind » (ترجمة ج . ب . بيل J. B. Baillie) ، ١٩١٠ ، في مجلدين ، الطبعة الثانية مراجعة ، في مجلد واحد ، ١٩٣١ . « علم المنطق Science of Logic » (ترجمة و . هـ . جونستون W. H. Johnston) ، ول . ج . ستروفرس (L. G. Struthers) ، في مجلدين ، ١٩٢٩ ، كذلك قام هـ . س . ماكران H. S. Macran بترجمة الجزء الثانى من هذه الطبعة الموسعة « للمنطق » ، بعنوان « نظرية للمنطق الصورى Doctrine of Formal Logic » ، ١٩١٢ ؛ « منطق العالم والفكرة Logic of World & Idea » (١٩٢٩) . كما ظهر كتابا « منطق هيجل Logic of Hegel » في ١٨٧٤ ، والطبعة الثانية المراجعة سنة ١٨٩٢ ، و « فلسفة الروح Phil. of Mind » ، ١٨٩٤ ، وقام بترجمتهما و . ولاس W. Wallace بوصفهما الجزء الأول والثالث من « دائرة المعارف Encyclopaedia » . أما الجزء الثانى ( في فلسفة الطبيعة ) فلم يترجم بعد . [ ملحوظة للمترجم : ظهرت في نيويورك سنة ١٩٥٩ ترجمة إنجليزية لكتاب « دائرة المعارف Encyclopedia of Phil. by Hegel » ، قام بها جوستاف مولر Gustav E. Mueller ، وهو ألماني الأصل . ولكن من أعم عيوبها أنها ترجمة مختصرة ، تتخللها أحيانا تعليقات للمترجم خلال النص . وهي تتضمن الأجزاء الثلاثة لدائرة المعارف ، ولكن الجزء الثانى ( وهو فلسفة الطبيعة ) مختصر اختصاراً شديداً — وربما كان لهذا الاختصار ما يبرره ، ولكن العمل قد فقد بذلك طابعه العلمى الصحيح ] .

وهناك أيضاً « فلسفة الحق ( أو القانون ) Phil. of Right » (ترجمة س . و) .

دايد (S. W. Dyde) ، ١٨٩٦ ، و « محاضرات في فلسفة التاريخ Lectures on

ولكن ينبغي ألا يغرب عن بالنا أن « كانت » بدوره كان له تأثير قوى عميق ، لأنه هو الذى أطلق القوة النقدية من عقالها ، مثلما أطلق هيجل القوة التأملية النظرية . غير أن جميع المذاهب المثالية الألمانية ، كانت تعد عادة كلا واحدا ، يكشف عن تطور عضوى ضرورى من كانت إلى هيجل ، حتى رغم ما كان يحدث من آن لآخر من محاولات لاستغلال أحدها ضد الآخر . كذلك ساهمت قوى فشته وشلنج في تكوين هذه الحركة ، ولم يكونا مجرد موضوعين للاهتمام والبحث ، وهذا أيضا يصدق ، ولكن بدرجة أقل كثيرا ، على هربرت Herbart<sup>(١)</sup> وشوبنهاور ، وإ . فون هارتمان<sup>(٢)</sup> . غير أن لو قسسه كان هو الفيلسوف الذى درس بأكبر قدر من الحماسة ، وحظى بأعمق الاحترام ، وشاع استغلال أفكاره ، من بين الفلاسفة الألمان التاليين للفترة الكلاسيكية للمثالية . فقد كان له تأثير هائل ، لم يفقه سوى تأثير كانت وهيجل . وقد ظهر كتابه « مذهب في الفلسفة » ( المنطق والميتافيزيقا ) مترجما عام ١٨٨٤ ، وأعقبته في العام التالى ترجمة لكتابيه « العالم الأصغر Microcosmos » ؛ ولما كانت المثالية

---

the Phil. of Hist. = ( ج . سيبري Sibree ) . ١٨٥٧ ؛ و « فلسفة الفن The Phil. of Fine Arts » ( ف . ب . أوسماستن F. B. Osmaston ) ١٩١٦ — ١٩٢٠ ، فى أربعة مجلدات ؛ ومحاضرات فى فلسفة الدين Lectures on the Phil. of Religion ( ١ . ب . سبيرز E. B. Speirs ) وج ب : ساندرسون J. B. Sanderson ) ١٨٥٩ ، فى ثلاثة مجلدات ؛ و « محاضرات فى تاريخ الفلسفة Lectures on the Hist- of Phil. » ( ١ . س . هولدين E. S. Haldane ) وف . ه . سيسون F. H. Simson ) ١٨٩٢ — ١٨٩٥ ؛ فى ثلاثة مجلدات .

(١) يوهان فريدرش هربرت ( ١٧٧٦ — ١٨٤١ ) ، فيلسوف ألماني ، خلف كانت وقتنا ما فى كرسى الفلسفة بجامعة هيلغويزبرج . كان مذهبه أقرب إلى ليبنتس منه إلى كانت ، فقال بوجود الكثرة فى الواقع ، وأكد أن لكل عنصر فى هذه الكثرة وجوده المطلق المستقل عن الزمن . وكانت له مساهمات هامة فى علم التربية . [ للترجم ]

(٢) إدوارد فون هارتمان ( ١٨٤٢ — ١٩٠٦ ) فيلسوف ألماني ، جرم فى مذهبه بين هيجل وشلنج وشوبنهاور ، من إضافة عنصر « اللاشعور » الذى يلعب دورا رئيسيا خلافا وله مؤلفات متعددة أهمها « فلسفة اللاشعور » : [ للترجم ]

قد بلغت في ذلك الحين أوجها ، فإن كلا الكتائين قد أثار اهتماما ضخما مباشرا<sup>(١)</sup> . بل إن كثيرا من الإنجليز قد جمعهم بلوتسه صلات شخصية ، حتى كاد أن يصبح من « البدع » الشائعة وقتا أن يقضى المرء فترة للدراسة بجامعة جوتنجن ، حتى يتلقى الحكمة الفلسفية من فم المعلم نفسه . ولقد كان نجاحه الساحق في إنجلترا راجعا إلى أن قراءة كتاباته وهضمها كانتا أسهل كثيرا إذا ما قورنتا بغموض هيغل المستغلق أو جلالة كانت . وفضلا عن ذلك فقد كان يعد آخر مثل حي لذلك العصر الفكري العظيم الذي طويت صفحته ب وفاة هيغل . ومن ثم فقد اعتقد أنه يقدم أفضل سبيل إلى فهم عالم هيغل الغامض ، وهو سبيل يعد طريقه أسهل كثيرا من الانتقال إليه من خلال كانت ، كما أن كثيرا ممن أحسوا بنفور من واحدة هيغل المتزمتة قد راقهم مذهب لوتسه الأشد مرونة . فكل أولئك الذين شعروا ، خلال الصراع بين المثالية المطلقة والمثالية الشخصية ، أن المذهب الأخير أقرب إلى عقولهم ، قد انصرفوا عن هيغل وانضوا تحت راية لوتسه ، وهكذا أصبح هذا الأخير نقطة تجمع عدد من المفكرين الذين انشقوا على المدرسة الهيجلية بما فيها من صرامة شديدة ، ووصلوا إلى تعبير أكثر تحمرا عن نظرتهم المثالية إلى العالم . ومن هنا كان تأثيره خارج الهيجلية أعظم من تأثيره داخلها . بل إن البرجماتيين أنفسهم قد ربطوا أنفسهم به ، ونظروا إليه على أنه

(١) بدأت الترجمة الإنجليزية « للمذهب » على يد جريرن ، الذي اضطلع بمسؤولية النشر . وبعد وفاته في ١٨٨٧ ، احتل بوزانكيت مكانه . وكان من بين المترجمين ، إلى جانب جريرن وبوزانكيت . وتتلشيب Nettleship وكونيبيير Conybeare و أ . ك . برادلي . أما « العالم الأضر » فقد ترجمته إليزابيث هاملتن ( ابنة السير وليام هاملتن ) و أ . أ . كولستانس جونز E. E. Constance Jones ؛ ووصل إلى طبعة رابعة عام ١٨٩٤ . وقد ترجم كونيبيير مجموعة من محاضرات لوتسه بعنوان « الموجز في فلسفة الدين Outlines of a Phil. of Religion » ، ١٨٩٢ ، ( الطبعة الثالثة ١٩٠٣ ) . ومن الأدلة الأخرى على الاهتمام ، كتاب هنري جونز « عرض نقدي لفلسفة لوتسه Critical Account of the Phil. of Lotze » ( ١٨٩٥ ) .

أحد أسلافهم . وأخيرا فإن رودلف أويكن<sup>(١)</sup> Rudolf Eucken قد وجد بدوره طريقه إلى الفكر الإنجليزى ، بعد لو تسه بوقت طويل : فترجم الكثير من مؤلفاته وانتشرت قراءتها على نطاق واسع ، وأحرز نجاحا شعبيا عظيما ، ولا سيما فى العقد السابق للحرب العالمية الأولى ، أما الدوائر الفلسفية المحترفة فلم تسكد تلحظه .

وبلغت الحركة المثالية الجديدة قممها قرب نهاية القرن التاسع عشر . وكانت حتى ذلك الحين تحتل ميدان الفلسفة دون منافسة تقريبا ؛ فلم يظهر أى منافس جدى بعد اختفاء الأعداء القدامى ، كالمذهب الترابطى ، ومذهب الموقف الطبيعى ، ومذهب المنفعة ، والمذهب الحسى ، واللاأدرية ، والمذهب الطبيعى ، والداروينية ، الخ ، وهى المذاهب التى ازدادت المثالية قوة خلال صراعها معها ، والتى كانت هزيمتها واحدا من أعمالها الرائعة . صحيح أن الحركة كلما ابتعدت عن نقطة بدايتها كانت تفقد ذلك التركيز الشديد وتلك الوحدة الصارمة فى المذهب ، التى كانت تميز مرحلتها الأولى ؛ غير أنها كانت تزداد تنوعا وتعقدا ، وتوسع آفاقها بخلق إمكانيات جديدة لا حدها . ولم يبدأ رد الفعل عليها إلا ببطء وعلى استحياء ، وكان ظهوره فى معظم الأحيان من بين صفوفها ، كما هى الحال فى انتقال آدمسون Adamson التدرجى إلى الواقعية والطبيعية Naturalism ، ونحول كوك ولسون Cook Wilson بحذر إلى الواقعية . ولهذا التحول الأخير شىء من الأهمية ، إذ إن كوك ولسون كان ينتمى إلى أكسفورد ، معقل المثالية ، كما أنه جمع حوله عددا محدودا من الشباب . على أن القوى التى شنت فيما بعد هجوما مضادا قويا ، وناجحا فى نواح

---

(١) رودلف أويكن (١٨٤٦ - ١٩٢٦) كان أستاذا للفلسفة بجامعة بينا ، وحصل على جائزة نوبل عام ١٩٠٨ ، نادى بمثالية جديدة مبنية على فكرة الفاعلية Activism ، وعلى سيطرة الروح على الحياة ، وتأكيده قيمة الحياة التى يترك الإنسان مع الله فى دعم قيمتها . ومذهبه على العموم أقرب إلى كانت منه إلى هيغل . [ المترجم ]

عديدة ، على المثالية ، لم تظهر إلا في مطلع القرن الجديد . فبظهور الواقعية الجديدة والبرجماتية ، أصبحت المثالية تواجه حربا في جبهتين ، اضطرت خلالها إلى أن تتحول على نحو متزايد إلى اتخاذ الموقف الدفاعي ، وأخذت تفقد بالتدريج مكان الصدارة . ولا شك أن البرجماتية كانت هي الأضعف من بين هذين الخصمين . ولم يكن الصراع معها — وخاصة مع ممثلها الوحيد المشهور في إنجلترا ، ف . ك . س . شيلر — صراطا جديا ، ولم يكن بالأحرى يمثل خطرا حقيقيا ، إذ إنه ارتد إلى مبارزة متحمسة ، طريفة ، بين برادلي وشيلر ، ظلت طوال ما يقرب من عشرين عاما تثير قراء الفلاسفة وتسليمهم . غير أن الهجوم الآتي من جانب الواقعية الجديدة كان أخطر بكثير ، إذ إن هذا المذهب لم يقتصر ، كما كانت الحال في البرجماتية ، على الخلاف المباشر ، وإنما انتقل إلى مسائل جديدة ، ووجد تبريرا له ، واكتسب أرضا جديدة ، بفضل ما حققه من نتائج إيجابية خاصة به . وحسبنا أن نذكر سببا واحدا من أسباب تفوق الواقعية الجديدة ، وهو وثوق الصلة بينها وبين العلوم الطبيعية ، وبالتالي تلبيتها لحاجة ملحة في ذلك الوقت ، ظلت المثالية تتجاهلها زمنا طويلا .

وبعد فترة تدهور طويلة ، بلغت المثالية نقطة تقرب من النهاية خلال السنوات العشر الأخيرة تقريبا . وإذا بدا عليها الوهن بوضوح ، ولم يعد بها مدّخر من الطاقة الخلاقة الجديدة ، فقد أصبحت أكثر ميلا إلى تجنب مواجهة خصومها ، والتخلي عن البناء على أسسها الخاصة ، والبحث عن دعامة لها في طرق أخرى للتفكير . واتفق هذا الوهن الباطن مع سلسلة سريعة من الخسائر بوفاة أقدر قادتها — بوزانكيت في سنة ١٩٢٣ ، وبرادلي في ١٩٢٤ ، وما كنتجارت وورد في ١٩٣٥ ، وهولدين في ١٩٢٨ وپرنجل پاتينسون في ١٩٣١ وسورلي في ١٩٣٥ ،

وما كنزى فى ١٩٣٦ . ولم يبق حيا ممن شهدوا أيام مجدها إلا القليلون ، وأصبحت الحركة اليوم تكاد تدخل تماما فى ذمة التاريخ . على أن المستقبل لن يكتفى بوضع كالايل الغار عليها ، وإنما سيرتد بنظره إليها فى احترام واعتزاز ، إذ إنها تمثل عصرا اقترن فيه الذهن الإنجليزى بذهن كانت وهيجل ، فأنتج ثورة عاتية وتجديدا جبارا للفكر ، ما زال حيا إلى اليوم ، بوصفه قوة دافعة مشمرة فى تلك الفلسفة التى تختلف عنها اختلافا تاما ، والتى تسود إنجلترا اليوم .

---

## ٢ - الرواد

جيمس هتشيسون سترلنج ( ١٨٢٠ - ١٩٠٩ )

James Hutchison Stirling

[ درس الطب في جلاسجو ومارسه في ويلز بضع سنوات حتى ١٨٥١ ، وسافر إلى فرنسا وألمانيا ومكث فيهما حتى ١٨٥٧ ، وفي ١٨٦٠ استقر في أدنبره حتى وفاته . وقد تقدم مرتين لشغل كرسي في الفلسفة ، وأخفق فيهما ( الأولى سنة ١٨٦٦ ، في جلاسجو ، والثانية سنة ١٨٦٨ في إدنبره ) ، ولم يشغل أبدا مناصبا أكاديميا . مؤلفاته : « سر هيجل The Secret of Hegel » في مجلدين ١٨٦٥ ( طبعة جديدة في مجلد واحد ، ١٨٩٨ ) ؛ « السر وليام هامتن : أو فلسفة الإدراك الحسى : Sir W. H. Being the Phi. of Perception » ( ١٨٦٥ ) ؛ « حول البرتوبلازم As Regards Protoplasm » ، ١٨٦٩ ( طبعة جديدة ١٨٧٧ ) ؛ « محاضرات في فلسفة القانون Lectures on the Phil. of Law » ١٨٧٣ ؛ « كتاب مدرسي عن كانت Kant - boot to kant » ، ١٨٨١ ؛ « الفلسفة واللاهوت Phil. & Theology » ( محاضرات جيفورد ) ، ١٨٩٤ ؛ « مذهب داروينيين ، المال والعمل Darwinianism : Workmen & Work » ، ١٨٩٤ ؛ « ما الفكر ؟ What is Thought » ، ١٩٠٠ ؛ « للقولات The Categories » ، ١٩٠٣ ، كما قام بترجمة كتاب « اللوجز في تاريخ الفلسفة لشيفجلر Shwegler's Handbook of the Hist. of Phi.. » ( ١٨٦٧ ) وقد طبع الكتاب فيما بعد طبعات متعددة . انظر كتاب : ج . هـ . سترلنج ، حياته وأعماله J. H. Stirling, His Life & Work تأليف أميليا هـ . سترلنج ( ابنته ) ، ١٩١٢ ] .

قلنا من قبل إن الإنجليز تنهبوا بطرق متعددة إلى المثالية الألمانية منذ وقت مبكر ، أي منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ولكن ذلك كان دائما بطريقة تفتقر إلى الانتظام والشمول ، فكانت النتيجة أن عجزت المثالية عن إشعال جذوة حركة عقلية كبرى ، وعن توطين مثل هذه النظرة الأجنبية إلى العالم ، في الدوائر الفلسفية على التخصيص . وينبغي أن يعزى الفضل في تحقيق هذا الهدف إلى كتاب فريد واحد . لمؤلف واحد ، هو كتاب « سر هيجل » ، لسترلنج . فبهذا الكتاب الرائع أيقظ سترلنج الفلسفة الإنجليزية بالفعل من سباتها القطعي ، وأعطاهما قوة

دافعة جديدة ، ووجهها وجهة جديدة . ولا شك في أن هذا الكتاب كان أحق المؤلفات الفلسفية التي ظهرت في القرن الماضي بأن يعد منشأ ثورة وفتحة عصر جديد . فملكتاب سترلنج أهمية تاريخية لا تقدر : إذ إنه غرس الفلسفة الألمانية في التربة الإنجليزية لأول مرة<sup>(١)</sup> .

ولم يكن هذا الكتاب عملاً لعالم مثابر غزير المعرفة ( وإن يكن يحوى بالفعل كمية غير قليلة من المعلومات العلمية ) ، بل كان عمل رجل تملكه انفعال طاغ ، يشعر بأن لديه رسالة يحققها ، ويحس بكل ما تنطوى عليه رسالته . فهو اعتراف ذاتي ينبض بالشعور الفياض ، وهو نتاج تجربة شخصية عميقة تهفو بالحاح إلى التعبير عن ذاتها ؛ وهو يخفق بروح المغامرة الجريئة التي يتسم بها المستكشف ، وهو عمل صاغه المجهود الشاق لرائد لم يسبقه أحد . وإن كل صفحة منه لتحمل آثاراً لنضال جبار قلق مع الموضوع الذي كتبت فيه . ولولا هذا كله لما استطاع ذلك الكتاب أن يبلغ ما كان لابد له أن يبلغه من نفاذ البصيرة وعمقها ، حتى يحرف الناس أمامه من فرط الحماسة ، ويستهل حركة فكرية جديدة .

ولقد كان الطريق الشاق الذي سلكه سترلنج لفهم هيجل — وقد صرح هو نفسه بأنه شق طريقه بحمد السيف — مقترناً بتلك المهابة السحرية

(١) في ترجمة ابنة سترلنج حياة أيها ( ص ١١٤ وما يليها ) يجد القارئ وصفا للطريقة التي أثرت بها حماسه هذه لهيجل . فقد كانت إقامته الطويلة لسيا في هيدلبرج ، سنة ١٨٥٦ ، هي السبب الأكبر الذي دفعه إلى تعميق ذلك الاهتمام الذي أحس به من قبل ، وحفزته على القيام بدراسة منظمة لمؤلفات هيجل ، وأوقعه تماماً في إسهار الفكر الألماني ، وأدى به إلى البدء في كتابه المائل من هيجل ، الذي كرس له ما يقرب من عشر سنوات من العمل الشاق الدائب .

وهناك تلميذ مبكر آخر لهيجل ، سار في طريق مستقل تماماً عن سترلنج ، هو شاراس إدوارد أبلتن C. E. Appleton ( ١٨٤١ — ١٨٧٩ ) مؤسس مجلة « الأكاديمية The Academy » ورئيس تحريرها . وقد تلقى أبلتن بدوره تعاليم هيجل في هيدلبرج ، حيث درس على إدوارد تسلر E. Zeller ، ثم على ميشليه Michelet في برلين ، كما اتصل « بروج A. Ruge » : وكان أبلتن من أوائل من ألفوا محاضرات عن هيجل في أكسفورد . وكان من أهدافه في ميدان التأليف أن يبيد كتابة « للنطق » لهيجل ، ولكن وقته المبكرة حالت دون ذلك .



التي يحس بها المرء وهو في حضرة شيء غامض طاغ ، والتي لا يُدرك مقدارها ودلالاتها إلا في إحساس غامض يحتاج إلى وقت وجهد لكي يتحول إلى مفهوم واضح . وإن كتابه ليزخر بالعجب من ضخامة هيكل الغريبة ، وهو عجب يتبدى — تبعاً لحالته النفسية — تارة في صورة بأس عميق أو شك مرتاب ، وتارة أخرى في صورة ثقة راضية أو حتى سوررات من المنشوة الخالصة . وليس لنا أن نفسر التعبيرات والأحكام الناشئة فيه إلا بأنها تسجيل لحالته النفسية ، كلما منى فضاله بالفشل حيناً ، وتوج بالنجاح حيناً آخر . ويمكن القول إن موقف الثقة والتأكد الإيجابي والحامسة المتدققة هو الأغلب على وجه الإجمال ، وهو الذي يؤدي به في النهاية إلى بلوغ هدفه المنشود ظافراً — أعنى إلى كشف سر هيكل .

وسنورد فيما يلي بضعة اقتباسات توضح مدى تبجيله لهيكل فهو يقول: « بقدر ما يتعلق الأمر بالتفكير المجرد ، وبقدر ما يستطيع المرء أن يرى في هذه اللحظة ، يبدو أن هيكل قد ختم عصره ، وحدد الكل الشامل للأشياء بتعبيرات فكرية ستظل ، على الأرجح ، على ما هي عليه في الأساس خلال ألف السنة القادمة ؛ فجميع الشواهد الخارجية تدل على أن هيكل ، بالنسبة إلى أوروبا الحديثة ، يماثل على الأقل أرسطو بالنسبة إلى اليونان القديمة ، <sup>(١)</sup> « إن فلسفة هيكل إنما هي بللورة الكون ؛ وهي الكون مفكراً فيه ، أو تفكير الكون ، <sup>(٢)</sup> « إن هيكل قد مارس على جميع المسائل التي تهم الإنسانية تفكيراً يتحدى ، في عمقه وشموله ودقته أعظم ما سبق إعماله في هذه المسائل من تفكير ، <sup>(٣)</sup> « أسيكون في وسعي أن أرشدكم خلال هذا البناء الرحب العملاق — هذا التركيب الضخم — هذا المركب الهائل — هذه الكتلة العظيمة — التي لا يشبهها شيء مما ظهر

(١) « سر هيكل » ، المجلد الأول ، ص ١٤٤ وما يليها (ص ٩٧ في طبعة ١٨٩٨) .

(٢) المجلد الأول ، ص ١٥٦ (ص ١٠٥ في طبعة ١٨٩٨) .

(٣) المرجع السابق ، نفس الموضع .

حتى الآن في فرنسا أو في إنجلترا أو في العالم ؟ إنه واحد من تلك القصور الشرقية المائلة التي لا يراها المرء إلا في الحلم — لا نهاية لضخامته ، إيوان فوق إيوان ، وقاعة على قاعة ، وشرقة تعلوها شرقة ، ابناته من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، رخام وذهب وزمرد وياقوت ومرجان ، ينام فيه أنبياء قدامى اختامهم في أصابعهم ، وتحرمهم مردة بمجنحة وغير مجنحة ، منها ما له أقدام ومنها ما ليس له أقدام — فهناك في الصحراء الخالية ، التي تفصلها عن عالم الإنسان أيام وليال لا نهاية لها ، وقفار تتكرر وتتردد بلا نهاية — هناك توجد أرض أحلام عملاقة ، منعزلة غامضة تستغرق على الأفهام ، ولكن فيها مع ذلك وحشة ، واضطرابا ، وعمقا ، (١) . ومع ذلك ، ففي وسط هذه الأوصاف الفخمة الرنانة ، يثور لديه الشك والارتياب فيها إذا كان هذا العملاق مجرد دجال وأفاق منطقي « ومغامر جرىء يوم الناس بأنه فيلسوف » (٢) ، و« ثثار يغرر بنا بالفاظه » فالواقع أن الأمر كله هذيان ، ولكن مع أجراً اغتصاب للكلمات ذات السلطة الرنانة ، حول الأسرار التي ينبغي أن تظل أسراراً ، (٣) . بل إن مترلنج يصرح بكلمة قاسية فيقول « هناك شيء ساذج في هذا الرجل : فهو ما يزال جلفاً ريفياً » (٤) . غير أنه سرعان ما يسحب هذه الكلمات العاتية — فهي ليست أحكاماً ، وإنما هي أنات رجل يستكشف « هذه المتاهة الغامضة المحيرة » — ويظل هيجل مع ذلك كله « أعظم مفكر تجريدي في العصر المسيحي ، وهو يختم العالم الحديث مثلاً ختم أرسطو العالم القديم » (٥) .

(١) المجلد الأول ، ص ٦٠ ( ص ٣٨ وما يليها في طبعة ١٨٩٨ ) .

(٢) المجلد الأول ، ص ٧١ ( ص ٤٦ في طبعة ١٨٩٨ ) .

(٣) المجلد الأول ص ٧٣ ( ص ٤٧ في طبعة ١٨٩٨ ) .

(٤) المجلد الأول ص ٧٧ ( ص ٥٠ في طبعة ١٨٩٨ ) .

(٥) المجلد الأول ص ١١٦ ( ص ٧٨ في طبعة ١٨٩٨ ) .

وهو يزيد من إيضاح مركز أرسطو ، عن طريق البحث في علاقته بالسابقين عليه من الألمان ، ولا سيما كانت . ذلك لأن هيجل لا يفهم بذاته ، ولا بد لاستجلاء غوامضه من الرجوع إلى كانت ، الذى يحمل مفاتيح هذه الأسرار . وفى وسع المرء أن يسقط من حساب المفسرين اللذين أتيا بينهما ، وهما فشته وشلنج ، مهما كانت أهميتهما . فقد كان كانت هو الذى وضع أسس المثالية الحديثة ، ولا بد لفهم أية خطوة تجاوزته من فهمه هو أولاً . ذلك لأن كانت ، « تلك الروح الخيرة الآمنة المخلصة المعتدلة المتواضعة » ( المجلد الأول ، ص ١١٥ ، ص ٧٧ فى طبعة ١٨٩٨ ) هو الذى جعل مبدأ المثالية معقولاً ، وعلى أساس هذا المبدأ ، موضحاً على هذا النحو ، بنى هيجل عالمه وشيد مذهبه . ولقد أعاد هيجل تسمية وتصنيف وتنظيم كل شيء ، ولكن كانت كان قد مهد لهذا كله من قبل ، بحيث ينبغى أن تبدأ به دراسة الميثافيزيقا ، التى يتعين أن تجرى فى إنجلترا على أساس جديد ، وبصور سترلنج . كانت ، على أنه أصدق الفيلسوفين وأكثرهما أصالة وعمقا ، وإن يكن هو الأبسط والأكثر تواضعا ، أما هيجل فهو الأجرأ والألمع ، ولكنه غير موثوق منه مثل كانت ، كما أنه مفرط فى الإغراب ، وهو الذى تمكن من تشييد بناء جبار من المواد الغنية التى ورثها من الآخرين . ويعبر سترلنج عن فكرته هذه تعبيراً موقفاً فيقول إن كانت هو « المنجم الذى استمد منه [هيجل] ثروته بأثرها » ( م ١ ، ص ١١٥ ، ص ٧٧ فى طبعة ١٨٨٩ ) .

ولقد كان سترلنج يوجه دائماً اللوم إلى هيجل لأنه تعمد إزالة كل آثار دينه الكبير الذى كان يدين به لكانت ، وذلك بمهاجمته على الدوام ، وبذلك ترك انطباعاتها زائفاً بأنه كان معارضاً له على طول الخط ، مع أنه كان فى الواقع تابعا ومكملا له من جميع الأوجه . وعند هذه النقطة يتفجر شك سترلنج ، مراراً وتكراراً ، فى أصالة الواجهة البراقة التى اتخذها

مذهب هيجل ، ولكن هذا الشك كان دائماً يتلاشى أمام رؤية جانب جديد من جوانب تفكير هيجل بكنوزه الزاخرة .

وهكذا فإن خط التطور الفلسفي يسير من كانت ، عبر قليل من الحلقات الوسطى ، إلى هيجل . غير أن هذا الخط قد أتى إلى كانت من هيوم . فهيوم كان ، في رأي سترلينج ، أكبر دعاة عصر التنوير ، ومفكره العظيم الوحيد ، وكان واحداً من تلك اللاوعية التي يصب فيها الفكر الفلسفي وهو ينساب عبر العصور ، ويتخذ فيها شكلاً محدداً . ولكن يوم هيوم قد انقضى ، وانتهت رسالته ، بمجرد أن عمل كانت ، الذي استولى على ميراثه ، على تصفية أعمال عصر التنوير بأسره . وهكذا فإن وعاء هيوم ، الذي أصبح عندئذ فارغاً ، وقد نضب معينه ، وتحول التفكير المتطور بعيداً عنه ، ليستقر في وعاء جديد أفضل . فهيوم يمثل اكنمال عصر التنوير ونقطة تجاوزه في الوقت ذاته . وهكذا لا يوجد ، في رأي سترلينج ، خط مستقيم يمر بهيوم ، ولا يوجد استمرار لعصر التنوير بما هو كذلك ، حيث إن الطريق الذي سلكه الفكر الإنجليزى في القرن التاسع عشر لم يكن إلا طريقاً مسدوداً . فالفلسفة الإنجليزية قد تخلفت عن الركب ، وكانت تتغذى من وعاء خال . وكما قال سترلينج فإن : هيوم هو سياستنا ، وهيوم هو تجارتنا ، وهيوم هو فلسفتنا ، وهيوم هو ديننا — ولا يلزم إلا القليل لكي يصبح هيوم هو ذوقنا أيضاً . ( المجلد الأول ، ص ٧٣ من المقدمة ، ص ٦٢ من المقدمة في طبعة ١٨٩٨ ) . وهكذا كانت دعوة سترلينج إلى الرسالة الفلسفية للألمان ، هي في نفس الوقت حملة على التدهور الرتيب الذي طرأ على تفكير مواطنيه ، وعلى المعقولية ، الضحلة البالية ، التي أساءوا بها فهم عصر كان في أيامه عظيماً ، فأحاله إلى حطام ، وهكذا انتهز سترلينج كل فرصة ليحبر ، بكل

جنا أوتيت طبيعته من الحماسة ، عن احتقاره اشتراوس (١) ، وإرنست رينان (٢) ، وفويرباخ (٣) ، وبكل (٤) ، ومن شا كلهم ، ولم يمل أبدا من تسميتهم بـ «فسدى الروح الفلسفية» . وقد نظر إلى « بكل » بوجه خاص على أنه أوضح ممثل في إنجلترا لهؤلاء الانحلالين ، وعلى يديه انقلب « التنوير » إلى « إظلام » ، على حد تعبير شلنج . بل إنه أحس باحتقار أعظم نحو آخر ممثلي هذه « الرجعية المرتدة » ، وهم الداروينيون والتطوريون ، الذين أسموا أنفسهم بالمفكرين التقدميين ، ومع ذلك لم يتركوا لنا شيئا سوى حيوانيتنا . وقد عاد سترلنج إلى الكلام عن الداروينية في كتابه « حول البروتوبلازم » ( ١٨٦٩ ) ، الذى كان موجها ضد هكسلى ، ثم عاد إليها بعد فترة طويلة في كتاب « مذهب أتباع دارون Darwinianism » ( ١٨٩٤ ) حيث وجه إليها نقدا مدمرا .

ولقد طبق سترلنج حكمة القائل إن التفكير الأصيل لم يستمر ولم يفهم في إنجلترا منذ هيوم — طبقه حتى على أولئك المفكرين الإنجليز القلائل الذين زعموا ، أنهم فهموا الفلسفة الألمانية واستوعبوها ، أى

(١) دافيد فريدرش شتراوس (١٨٠٨ — ١٨٧٤) : مفكر لاهوتى ألماني ، كان تلميذا لهيجل ، أثار كتابه عن « حياة المسيح » ( ١٨٣٥ ) عاصفة وأحدث انقلاباً في ميدان التفسير الدينى . كان يدعو إلى إبطال دين متى على فكرة « تحول الألوهية » والاعلام الطبيعى محل المسيحية بصورتها التقليدية . [ للترجم ]

(٢) إرنست رينان ( ١٨٢٣ — ١٨٩٢ ) : أديب ولغوى ومؤرخ فرنسى ، ثار على المسيحية التقليدية ، واشتغل أستاذاً للغات السامية بالكوليج دى فرانس ، وألف عن ابن رشد ومذهبه ، وفي حياة المسيح ، وفي اللغات والآداب السامية ( ولا سيما العبرية ) . [ المترجم ]

(٣) لودفيغ أندرياس فويرباخ ( ١٨٠٤ — ١٨٧٢ ) : فيلسوف ألماني ، ألف عن الخلود ، وعن بعض الفلاسفة ، وأشهر كتبه هو « ماهية المسيحية » ( ١٨٤١ ) . ثار على كل سلطة تملو على الإنسان ، سواء أكانت دينية أم اجتماعية ، فلم ترض من آرائه الدوائر المحافظة ولا الدوائر الثورية للتطرف . [ المترجم ]

(٤) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب . [ المترجم ]

على السير وليام هاملتن ومدرسته ، فكشف عن تفاهة هذا الزعم ، بأن ينع  
أنهم لم يفهموا حتى أبسط التعبيرات المميزة لكانت وهيغل ، وأنهم ، بدلا  
من أن يجيدوا فهم الفكر الألماني ، قد شوهوه ودمروه ، أو لم يتركوه  
منه ، على أية حال ، ، إلا ما هو سطحي . وهكذا طرح هاملتن بدوره جانبا -  
وقد هاجمه مرات عدة في كتابه « سر هيغل » ، ثم دخل معه في معركة صريحة .  
في مؤلف خاص ظهر في العام نفسه .

وهكذا لم يستطع سترلينج أن يجد ، بين الفلاسفة الإنجليز في  
أيامه ، حليفا واحدا في صراعه ضد عصر التنوير . غير أنه رأى ، خارج  
نطاق الفلسفة ، قوى روحية يتجه عملها نحو الغاية ذاتها ، كالشعر الرومانتيكي  
عند وردسورث وكولردج وشيلي ، ومعظم أوجه النشاط الأدبي عند  
إمرسون وكارليل ، اللذين كانا يدينان لعوامل ألمانية بتفتح أعينهما على  
النظرة المثالية إلى العالم . بل إن كارليل كان له تأثير مباشر في سترلينج  
ذاته ، كما يتضح من كل صفحة تقريبا في كتابات هذا الأخير . ذلك لأن  
سترلينج قد جرفته الحماسة تماما لكتاب « سارنور ريزارتوس  
Sartur Resartus » ،<sup>(١)</sup> لكارليل ، واستحوذت عليه فورا أصالة هذا  
المفكر التنبؤي وقوته اللغوية ، حتى كان هو ذاته ينساق أحيانا في تلك  
البلاغة الانفعالية العنيفة التي كانت سمة طبيعية لأسلوب كارليل في أشد  
أحواله اضطناعا وتركيزا وإفراطا في المجاز . كما أخذ عن كارليل اتجاهه  
التنبؤي ، وحماسه المتدفقة ، وثورته المتشائمة ، وتقديسه للبطولة ، وهي  
صفة أدت به إلى محاربة رد اعتبار بعض العباقرة المفترى عليهم ( ومنهم )

---

(١) أشهر مؤلفات كارليل ، يرسم فيه البطل « توفلسدروخ Tenfolsdröckh »  
بحياته وآرائه . معالم فلسفة صوفية غريبة اسمها « فلسفة الملابس Phil. of Clothes » .  
ينظر فيها إلى العالم المادي على أنه رداء يغطي العالم الروحي . وقد ظهر في هذا الكتاب  
أسلوب كارليل في قوته : بما فيه من اندفاع وحماسة وقوة . [ المترجم ]

أرسطو ، الذى ألف عنه أنشودة يونانية فى مؤلف متأخر ) وكان له نفس الاستعداد كارليل للحماسة ، ونفس الأسلوب المتضخم ، ونفس السخرية اللاذعة ، والاحتقار المرير ، ونفس الشخصية القوية الحادة الصلبة ، وربما كان ذلك راجعا إلى نشأتهما معا على نفس التربة الاسكتلندية . ونستطيع أن نقول إن رسالتهما كانت متشابهة : فقد أخذ أحدهما على عاتقه أن يحقو فى ميدان الفكر المجرد بما حاول الآخر القيام به فى ميدان الأدب .

ولنعد إلى « سر هيجل » : فما الذى كان يعنيه سترلينج بهذا العنوان الذى كان أقرب إلى الإثارة ، وكيف استقر عزمه على القيام بمهمة كشف هذا السر ؟ ربما كان هناك بعض الصدق فى الدعاية القائلة إنه لو كان سترلينج قد عرف سر هيجل لعرف كيف يحتفظ به لنفسه . وفى اعتقادى ، على أية حال ، أن فضل سترلينج لا يرجع إلى إباطته اللثام عن سر حقيقى ، بقدر ما يرجع إلى أنه قد لفت الأنظار بكل قوة ، ولأول مرة ، إلى العبقرى المجهول ، الذى كان اسمه يزداد ذيوعا فى إنجلترا ، وإن لم يتمكن أحد من أن يكون عنه فكرة تقرب من الوضوح واتحدد . ولا شك أن الضوء الذى ألقاه سترلينج على هيجل قد خبا إلى حد ما نتيجة للطريقة الشاقة التى توصل بها إلى فهمه ، بحيث ترك من القناع الغامض الذى سعى إلى إزالته جزءا يكفى لإثارة حب الاستطلاع والتشجيع على إبداء مزيد من الاهتمام بموضوع البحث . والامر الذى لا جدال فيه أن هذا الكتاب لو كان عليا محضاً لما أحدث هذا التأثير . وعلى ذلك فإن فضل سترلينج لا يرجع إلى مساهمته فى فهم محتوى مذهب هيجل ، بقدر ما يرجع إلى مساعدته على إظهار الصفات العقلية والطابع العام لهذا المذهب . فإذا أخذنا فى اعتبارنا حالة الفلسفة الإنجليزية فى ذلك الوقت ، لو وجدنا أن هذه كانت هى الخدمة الأجل . فقد خلق أسطورة هيجلية ، لم تتحول إلى الصبغة الواقعية المنتمة إلى العالم

الفعلی ، ولم تُنقّ من شوائبها ، إلا بعد عشرات طويلة من سنوات البحث .  
الجاد النزیه الدقیق .

على أن سترانج ذاته كان يعتقد أنه قد نزع ، بصبغة نهائية ، القناع الذي كان يخفي سر هيجل . فقد عبر ، بطريقة مركزة ، عن رأيه في هذا السر ، في مستهل كتابه الكبير ، فقال : « مثلما أن أرسطو قد قام — بمساعدة كبيرة من أفلاطون — بالتعبير بطريقة صريحة عن الكلّي المجرد الذي كان موجودا بطريقة ضمنية لدى سقراط ، فكذلك قام هيجل — ولكن بمساعدة أقل من جانب فشته وشلنج — بالتعبير بطريقة صريحة عن الكلّي العيني الذي كان موجودا بطريقة ضمنية لدى كانت »<sup>(١)</sup> . وقد عبر عن هذه المسألة تعبيرا أشد غموضا فقال : « إن سر هيجل هو التبادل القائم على تحصيل الحاصل ، للفكرة المنطقية ، التي هي في ذاتها شيء عيني »<sup>(٢)</sup> . على أنه أشار إلى ماهية مذهب هيجل على نحو أوضح إلى حد ما ، فوصفه بأنه - التصور العيني الذي ينحصر الديالكتيك في حدوده ، بمعنى أنه عندما يفكر الكلّي Universal في ذاته ، فإنه يضع ضده ، وهو الجزئي ، ثم يعود بعد ذلك إلى ذاته بوصفه الفردي . هذا هو الطريق الذي يسلكه الفكر ؛ كما أن من الممكن أيضا التعبير عنه بوصفه حركة من التصور إلى القياس بتوسط الحكم ، أو من المنطق إلى الروح بتوسط الطبيعة . وهكذا فإن مفتاح فلسفة هيجل إنما يكون في التصور العيني ، إذ إن الأخير يشتمل على الحركة الديالكتيكية للعناصر ، وفي الوقت ذاته على علاقتها بالمعرفة في كليتها . ويؤكد سترانج مرارا وتكرارا عينية تفكير كانت - وهيجل ، وصعوبة التخلص من تجريدات الذهن والانتقال منها إلى هذا

(١) المجلد الأول ، ص ١١ من المقدمة ( ص ٢٢ من المقدمة في طبعة ١٨٩٨ ) .

(٢) المجلد الأول ، ص ٣١٥ ( ص ٢١٤ في طبعة ١٨٩٨ ) .



التفكير العيني للعقل ، الذى يبلغ فيه التصور حقيقته عن طريق تأمل العاملين المضادين له فى آن واحد . وهذا هو بعينه موضع القوة عند كانت وهيجل ، فتفكيرهما لم يتحرك أبداً فى تجريدات خيالية فارغة ، وإنما ارتكز بكاتما قدميه دائماً على الأرض العينية الصلبة .

وإن الصورة التى رسمها سترانج لهيجل لتبدولى صحيحة على وجه الإجمال . فإذا تذكرنا أنه كان يطرق أرضاً جديدة كل الجدة ، فسوف تملكنا الدهشة من عمق بصيرته فى إدراك ماهو أساس فى هذا التفكير ، وهى بصيرة لم تكن ممكنة إلا فى ذهن اتسم بمثل هذا الخيال المتعاطف . وإن طريقته فى العرض ، التى كانت تحفل بالصور الواضحة الملبوسة ، وتحفل أيضاً بالغموض والتعقيد ، وتحفل كذلك بالتأمل النظرى والإغراب ، إنما تلقى على المشكلات ضوءاً أشبه بضوء مجموعة مختلطة متداخلة من الكشافات . على أنه ينبجج فى بث الأفكار فى ذهن القارى ، بحيث لا يملك القارى إلا أن يفهمها . ولقد كان مصطلح هيجل مصدراً لصعوبة هائلة فى طريقة العرض ؛ فقد تعين نحت ألفاظ فلسفية جديدة من أجل الوصول إلى مرادفات إنجليزية ، وكانت محاولة سترانج البطولية لتحقيق ذلك مساهمة قيمة فيما تحقق بعده ، بل حققت هى ذاتها نتائج تدعو إلى الإعجاب ، حتى لو لم يكن قد نجح تماماً ، رغم صوره ونحوته الجريئة ، فى إعادة تجسيد معانى هيجل .

على أن هناك ناحية واحدة كانت فيها الصورة التى رسمها لهيجل مخطئة قطعاً . ذلك لأن ميوله الألوهية قد سيطرت على عرضه أكثر مما ينبغى ، وأدت به إلى أن يقرأ فى هيجل أكثر مما فيه من العناصر اللاهوتية المحافظة . فقد كان سترانج ، من حيث هو فيلسوف ، لاهوتياً متسكراً ، لا مكان عنده لفلسفة لاتتخذ من رعاية المصالح الدينية غاية كبرى لها . ومن ثم فقد توجه إلى كانت وهيجل ذاتهما ، يسألهما إن كان مذهباهما كفيلين

بزيادتنا اقتناعا بسيادة الله ومشاركتنا فيها ، ولم يكن هذان الفيلسوفان جديرين في نظره بالدراسة العميقة التي كرسها لهما إلا لاعتقاده بأن في وسعه الإجابة عن السؤال السابق بالإيجاب . ومن هنا فإنه لم يمل أبدا من الإشادة بهيجل بوصفه الفيلسوف حامى المسيحية : « فذهب هيجل يؤيد هذا الدين ويدعم كل قضاياه ، وآراء هيجل « تتفق على نحو يدعو إلى الإعجاب مع الوحي الذي يكشف عنه العهد الجديد » . (١) فهيجل ، مثل كانت ، يوجه كل خطوة من مذهبه إلى إثبات خلود النفس وحرية الإرادة ووجود الله .

ولقد كان لهذا المزج بين الفلسفة والدين أهمية عظمى في تقبل الإنجليز لهيجل . فلم تجتذبهم فلسفة هيجل إلا لأن من الممكن تسخيرها لخدمة اللاهوت ، واستخدامها أداة لمحاربة المذاهب الطبيعية والمادية والداروينية . وانعقد الأمل عليها في إعادة منكرى الدين ، ولأسبابا من يتنمون منهم إلى أوساط المتعلمين ، إلى حظيرة الإيمان . ولقد كان النجاح الساحق الذي أحرزه كتاب سترلنج عن هيجل راجعا إلى أنه قد أخذ هذا الموقف في اعتباره ، وكان طبيعيا أن يبلغ هذا النجاح ذروته بين الدوائر المتمسكة بالدين ، ولكنه اكتسب أيضا تأييدا متحمسا من آخرين لم تكن تربطهم بالدين إلا صلوات أقل قوة ، مثل إمرسون وكارليل وجويت وجرين وإدوارد كيرد ، بل أثار إعجاب هيجليين ألمان مثل ي . ا . إرمان ، وروزنكرانتس ، وأرنولد روجه Arnold Ruge

وتتوقف كل أهمية سترلنج في الحركة المثالية على حكم المرء على مؤلفه الأول « سر هيجل » . فرغم أن عمله في الكتابة الفلسفية ، قد استمر حتى القرن الجديد ، فإن واحدا من مؤلفاته الأخرى العديدة لم يكن

(٣٢٩)

يدانى مؤلفه الاول فى أهميته التاريخية وفى قوته وتعبيره الشخصى المباشر — سواء فى ذلك مناوشاته النقدية مع هاملتن وهكسلى ودارون ، وكتابه المدرسى الرائع عن كانت ( وهو مواز لكتابه عن هيجل ) ، ومحاضراته فى فلسفة القانون ، ومحاضرات « جيفورد » التى ألقاها بأسلوب بلاغى مبالغ فيه . فقد ظل إلى النهاية هيجليا مخلصا . وهكذا استمر ، حتى فى كتابيه الأخيرين اللذين نُشرا بعد أن تعدى الثمانين من عمره ، يعرض فلسفة هيجل ويسعى إلى كسب أنصار لها .

## توماس هل جرين ( ١٨٣٦ — ١٨٨٢ )

Thomas Hill Green

اختير فى ١٨٦٠ زميلا بكلية بالبول فى أكسفورد . وعين منذ ١٨٧٨ إلى ١٨٨٢ أستاذاً لفلسفة الأخلاق بجامعة أكسفورد . وهو يمثل شخصية « السترجراى » فى « روبرت إلسمر Robert Elsmere » وضم مقدمات لكتاب « رسالة فى الطبيعة البشرية » لهيوم ، ١٨٧٤ فى المجلدين الأول والثانى من « للأولفات الفلسفية لديفدهيوم The Philosophical Works of D. Hume » نشره جرين وجروز ( Green & Grose ) .

مؤلفاته الخلفة : « مقدمة للأخلاق Prolegomena to Ethics » نشره ا. س . برادلى ( ١٨٨٣ ) ، و « المؤلفات Works » نشرها ر . ل تشليب ، فى ثلاثة مجلدات ، ١٨٨٥ — ١٨٨٨ وتشمل المؤلفات مقدماته من هيوم ، ومحاضراته من هيوم ، ومحاضراته عن كانت ، وكتابات فى المنطق ، وفى مبادئ الإلزام السياسى . وقد نشر الأخير على حدة عام ١٨٩٥ .

انظر : « ذكريات مع جرين Memoirs of Green » تأليف ر . ل تشليب ، ١٨٨٨ ، فى المجلد الثالث من « مؤلفات » جرين ، وقد نشرت « الذكريات » منفصلة عام ١٩٠٦ ، انظر أيضا ، فلسفة ت . ه . جرين The Phil. of T. H. Green تأليف « فيربز W. H. Fairbrother » ، ١٨٩٦ ؛ و « خدمة الدولة : محاضرات فى التعاليم السياسية لجرين ؟ » .

The Service of the State : Lectures on the Political Teaching  
of Green. ، تأليف ج . هـ . مورهد J. H. Muirhead ، ١٩٠٨ ، ود مدخل  
إلى فلسفة جرين الأخلاقية Intr. to Green's Moral Phil. تأليف لامونت  
W. D. Lamont [ ١٩٣٤ ] .

كان ت . هـ . جرين هو أنشط وأنجح من واصلوا بناء المثالية  
على الأسس التي وضعها سترلينج . فعلى حين أن الأخير ، الذي لم يشغل  
أى منصب أكاديمي ، لم يستطع أن يدعو إلى عالم الأفكار المكتشف  
حديثا إلا من خلال كتابات منشورة ، فإن الأول قد تمكن من أن يضيف  
إلى ذلك وسائل أخرى لتحقيق نفس الهدف ، هي التدريس والقدوة .  
الشخصية ، وسرعان ما كوفي باستجابة حماسية : ليس فقط في أكسفورد ،  
التي كان الاستعداد الذهني متوافرا فيها ، بل في أماكن أخرى أيضا .  
فبفضل جرين ، وليس قبله ، بدأت المثالية الألمانية بحق رسالتها في الأرض  
الانجلوسكسونية ، وبفضله كسبت لنفسها وطنا ثانيا باقيا في بلد كانت  
فلسفته من قبل تغلق أبوابها بكل شدة في وجه المؤثرات الأجنبية ، وتسير  
بإخلاص تام في أعقاب تراثها القومي الطويل . ولقد كان هو الذي  
فتح تلك الجبهة الفلسفية التي كانت الحراسة عليها قوية مشددة ،  
ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك حاجز يحول دون دخول الأفكار  
الجديدة بحرية .

وعندما بدأ جرين عمله العلمي في أكسفورد ، بعد أواسط القرن  
الماضي بقليل ، لم تكن تلك الجامعة المحترمة تضم أستاذا واحدا له شأن  
في الفلسفة . وكانت أكسفورد تقتني في ميدان الفلسفة أثر جون  
استورت مل ، الذي كان الطلاب يقرءون مؤلفاته بحماسة ، ولا سيما

كتاب « المنطق » ، وكانت هذه المؤلفات — بالإضافة إلى مؤلفات أفلاطون وأرسطو المقررة دائماً بطبيعة الحال — تسكاد تكون هي وحدها المتحركة في اتجاه أفكارهم . وكان أقوى ممثلي اللاهوت التقليدي في أيام تلميذة جرير هو مانسل H. L. Mansel ( الذي أصبح فيما بعد أسقفاً لكاتدرائية سانت بول ) . وقد حاضر مانسل في الفلسفة في كلية « ماجدالين » ، كما حاضر فيما بعد بوصفه أستاذاً كرسي وينفلت Waynflete ، وأثار كتابه المبكر « حدود التفكير الديني The Limits of Religious Thought » جدلاً كثيراً . ولما كان من الأنصار المتحمسين لأفكار هاملتن ، الذي كان قد توفي أخيراً ، فقد أذاع آراء « كانت » في أكسفورد ؛ ولكن ما أذاعه كان في الواقع الوجه السلبي لأفكار كانت ، بوصفه لا أدرياً في نظرية المعرفة . وهكذا لم يجد جرير في شبابه حافزاً له في هذه المحاضرات ( باستثناء الحافز الناجم عن المعارضة على الأرجح ) ولم يجد فيها ما يعينه على تحقيق رسالته الفلسفية المقبلة . وإنما أتى الحافز من تلك الشخصية القوية التي ظلت تسيطر على الحياة العقلية في أكسفورد قرابة جيلين ، وهي شخصية بنجامين جويت ، الذي عين أستاذاً للكرسي الملكي ( Regius Professor ) لليونانية في نفس العام الذي عين فيه جرير في بالبول ( ١٨٥٥ ) وقد اتصل جرير بهذا المعلم العظيم وهو لم يزل طالباً ، بل كان يتخذ منه رائداً له ، وائس من شك في أن جويت هو الذي حول تفكير جرير في الاتجاه الذي أضنى به هذا الأخير على الفلسفة الإنجليزية — بعد ذلك بقليل — قوة « دافعة جديدة » ، وأعنى به اتجاه كانت وهيغل .

ولكى نوضح مكانة جرير الفريدة في تطور الفكر الإنجليزي في

القرن التاسع عشر ، ينبغي علينا ، أولاً وقبل كل شيء ، أن نحدد علاقته  
بكبار المفكرين الألمان . فهما كان من عمق انغماس تفكيره ، بجميع  
مظاهره ، في جو المثالية الألمانية — ويمكن القول إن كل — طرفه ، بل  
كل كلمة تقريباً ، تشهد بذلك — فقد كان يدرك أن الموقف التاريخي الذي  
ولد فيه يقضى على أية إمكانية لقبول المذاهب الألمانية أو إعادة ظهورها .  
وكثيراً ما رأيناه يؤكد ضرورة قيام كل جيل بإيضاح المشكلات الفلسفية  
من جديد بطريقته الخاصة ، فمن الواجب البدء من جديد في هذا الموضوع  
بأسره ،<sup>(١)</sup> . وعلى ذلك فإن ما نجده لدى جرین ليس مجرد اقتباس  
لأفكار أجنبية أو إعادة صياغتها من أجل إظهار علمه أو لآى غرض  
آخر ، وإنما نجد له بداية جديدة أصيلة ، وتجربة خلاقة لذهن عميق  
أخصبته وغذته حركة فكرية خارجية كانت تلائم تفكيره الخاص .  
وهكذا فإن ما أخذه عن هذه الحركة قد تشكل وتحول بفضل تجربته  
الشخصية من جهة ، وبفضل الموقع التاريخي الذي وجد نفسه فيه .

ولكن إلى أى مدى كان من الممكن المضى في عملية البناء فوق الأسس  
التي وضعها سترلنج ، طالما أن التراث القومي المتأصل الذي يرجع إلى  
قرون طويلة ، قد ظل مسيطراً بلا منازع ؟ . لقد أدرك جرین منذ البداية  
أن التراث كان العقبة التي يتعين إزاحتها ، وأنه لا يكفي أن يوضع الجديد  
محله القديم ، وإنما ينبغي أولاً زعزعة القديم وتقويض أركانه . وهكذا  
كان من الضروري خوض صراع حياة أو موت بين الفلسفات القائمة على  
المذهب الطبيعي أو مذهب المنفعة عند بنتام ومل وليويس وبكل ومبفسر  
ودارون وهكسلي ، وبين وسد جويك من جهة ، وبين مثالية كانت وفشته

(١) . كيرد ، في مقدمته لكتاب « مقالات في النقد الفلسفي Essays in

Philosophical Criticism » ( ١٨٨٣ ) ، ص ٥ .

وشلنج من جهة أخرى . وهكذا يصادف المرء في كل شيء كتبه تقريباً : في المحاضرات التي تركها ضمن مخططاته ، وفيما نشره هو نفسه أو أعده للنشر ، فضلاً مستمراً عنيفاً ضد الفئة القائلة بالمذهب الطبيعي . بل إن أول أعماله ، أعنى مقدماته المشهورة اليوم ، تحمل هذا الطابع المميز ، ألا وهو الارتباط الوثيق بين المناداة بالجديد ، وبين إعلان الحرب على القديم . وهكذا كان لجرين دائماً عدو يواجهه ، وتلك هي الطريقة الوحيدة التي كان يستطيع أن يفكر بها . وعلى ذلك ففي تلك المرحلة المبكرة التي يمثلها ، من مراحل التأثير الألماني ، لم يكن العمل الجديد البناء قد بدأ بعد ، رغم أهمية مساهماته التمهيدية . أي أن رسالة جرين في تاريخ الفاسفة كانت قبل كل شيء إزاحة المذاهب القديمة من الميدان وتمهيد الأرض لمركب جديد من نوع مثالي . ولم تبدأ الآثار الكاملة لجهوده في الظهور إلا عندما ظهرت مذاهب برادلي وبوزانكيت وما كتجارت والباقي .

ولم يقتصر اهتمام جرين ، في عملية تطهير الأرض ، على المذهب الطبيعي عند معاصريه ، بل إنه تجاوزهم ، وركز جهوده أساساً في استئصال الجذور التاريخية القديمة العهد لطريقة التفكير هذه ، وهي المذاهب التجريبية الكبرى بالقرنين السابع عشر والثامن عشر . ولهذا الغرض كتب مقدمته لبحث هيوم في الطبيعة البشرية ، وهما يمثلان نقداً أساسياً للتعاليم النظرية والعملية للحركة التجريبية من لوك إلى هيوم . ولكن من الغريب حقاً أن تُلحق هاتان المقدمتان بطبعة لمؤلفات الممثل الكلاسيكي لهذه الحركة . ولقد كان جرين يسترشد بالفكرة الهيكلية القائلة إن الفلسفة تتقدم بطريقة دياكتيكية ، مستهدفة إيجاد نظرة متزايدة المعقولة إلى الأشياء ، بحيث تكون المذاهب الماضية هي الخطوات المتعددة في عملية التقدم هذه . ولا جدال في أن المذهب التجريبي كان إحدى هذه الخطوات الهامة ، وكانت دلالة مذهب هيوم

بالنسبة إلى تاريخ الفلسفة في نظره ، هي أنها تمثل نهاية هذه الخطوة ، التي ارتفعت بعدها الحركة الديالكتيكية الفكرية إلى مرحلة جديدة أعلى عند كانت . فإذا ما نظرنا إلى المذاهب التجريبية الممتدة من لوك إلى هيوم من هذا المنظور الأعلى ، لوجدنا أنها تبدو بالفعل أخطاء ، غير أنها ، بقدر ما أعانت على استخلاص حقيقة جديدة لدى كانت ، قد ساهمت بدور حاسم في تقدم الفكر ؛ فبحث هيوم في الطبيعة البشرية يمثل معبرا يوصل إلى « النقد ، الأول عند كانت ، [ أى نقد العقل الخالص ] . وهو في الوقت ذاته أهم نقطة تحول في تاريخ الفلسفة الحديثة . وهكذا يربط جرير بين هيوم وكانت ربطا وثيقا : إذ إن أحدهما قد قد سأل سؤالا ، والآخر قد أجابه . فتزعة الشك عند هيوم قد هزت الفكر . من أعماقه ، بفضل اتخاذها من التساؤل موقفا أساسيا ، وبذلك مهدت الطريق لإجابة من نوع جديد ، قدمها كانت في « نقد العقل الخالص » ؛ لذلك فإن كانت يعد الخليفة الحقيقي لهيوم . وهكذا فإن تطور الفلسفة بعد هيوم لا يتمثل في ذلك الخط المستقيم المؤدى إلى أتباعه في القرن التاسع عشر ، وإنما في التحول الديالكتيكي الذي عجل بظهور الحركة المثالية الكبيرة لدى الألمان ، فلم يكن في إنجلترا خلفاء أصليون لهيوم ، إذ إن أسئلته الفاحصة ، التي نفذت إلى أعماق جذور المعرفة ، لم تجد هناك من يجيب عنها ، بل إنها لم تعد مفهومة : فذلك النوع من الفلسفة ، الذي كان موجودا عندئذ ، كان منحلا لا حياة فيه ، وما هو إلا فكر يسير في فراغ ، دون أى حافز خلاق ، وبالتالي دون أية إمكانية للتقدم . ولقد كان انتقال الروح الفلسفية التي ظلت حية في المذاهب الإنجليزية الكلاسيكية ، إلى ألمانيا ، هو الذى دعا جرير إلى أن يقول مرارا وتكرارا للجيل الجديد من مواطنيه : « دعوكم من مواطنيكم مل وسبنسر ، وتحولوا إلى كانت وهيجل » . وبهذا الرأى المضاد الذى قال به جرير ، بدأ فصل جديد في تاريخ الفلسفة الإنجليزية .



وعلى ذلك فإن مذهب جرير يحمل فى مضمونه ، وكذلك فى التعبير عنه ، ذلك الطابع واللون المميز للمثالية ، الذى ظل مستمرا دون أى انقطاع حقيقى منذ اليونانيين حتى المحدثين ، وهو يعد جزءا أساسيا من تلك الحركة . ولقد استمد جرير ، فى تكوين أفكاره ، عناصر من المذاهب المثالية لأفلاطون وأرسطو ، ومن الأخلاق المسيحية ، ومن ميتافيزيقا باركلى المرتكزة حول فكرة الله ( وهى ليست تجريدية إلا فى ثوبها الظاهرى فحسب ) ، وأهم من ذلك كله ، من المثالية النقدية عند كانت والمثالية المطلقة عند هيجل ، كما استمد بعض العناصر من فشته وهربارت وف . ك . باور<sup>(١)</sup> ، ولوتسه . ولاشك أن أهم علاقة له كانت تلك التى تربطه بكانت وهيجل ، كما أن من المسائل الهامة التى طالما توقفت ، البحث فيها إذا كان « كانت » أم هيجل أعظم تأثيراً فيه . فإذا نظرنا إلى الأمر من الوجهة الخارجية ، لبدا لنا جرير كائناً فى المحل الأول . ولقد كان يدين لكانت بالكثير فعلا فى نظرية المعرفة والأخلاق إذ نجده يتابع أفكار كانت الرئيسية وحججه خلال أجزاء طويلة من مؤلفاته . وكثيرا ما كان تفكيره يبدأ من وجهة النظر الكانتية ، ويبنى على مسلمات كانتية ، كما أن نتائجه كثيرا ما كانت تتفق مع نتائج « كانت » ، أو تقترب منها كثيرا على الأقل . وكثيرا ما يصادفنا اسم كانت فى جميع كتاباته ، بينما لا يصادف اسم هيجل إلا نادرا ، وفى بعض مؤلفاته لا كلها ( أى فى المقدمة إلى الأخلاق ، مثلا ) . ومع ذلك فإن تأثير هيجل كان هائلا فى التمهيد لتفكير جرير ، وهو واضح إلى حد لا يخطئه العين ، وإن يكن من العسير أن يحدد المرء موقعه بدقة . ويتبدى هذا

(١) فرديناند كريستيان باور ( ١٧٩٢ - ١٨٦٠ ) : لاهوتى ألمانى وناقد للمهد الجديد ، شغل كرسي اللاهوت فى توبنجن منذ ١٨٢٦ ، وأسس مدرسة توبنجن للاهوت ، وكان أول من استخدم المنهج التاريخى الدقيق فى دراسة المسيحية الأولى . [ المترجم ]

التأثير بكل وضوح في تفسير جرير لكانت ، وهو تفسير مضاد تماما لتفسير هاملتن ومدرسته ، يحول به كانت في اتجاه المثالية المطلقة عند هيجل . وقد يصادف المرء من أن لآخر تعبيراً يوحى بوجود عداوة من جانب جرير لهيجل ، كما في قوله : لقد تدبرت أمر هيجل بالأسس ووجدته لا يزيد عن أثره كلامية غريبة ،<sup>(١)</sup> ، غير أن مثل هذه التعبيرات لا تغير من الحقيقة الواقعة ، وهي أن هيجل كان من العوامل المتحركة في تفكير جرير . وبالاختصار فقد كان جرير كانتيا في المحل الأول ، ولكنه قرأ كانت بمنظار هيجلي .

ورغم نقص عدد المؤلفات التي عبر بها جرير عن تفكيره ، فإن هذا التفكير يكون كلا منظما ، يندرج تحت ثلاثة أبواب : الميتافيزيقا ، والأخلاق ، والفلسفة السياسية . ولقد كان الباب الأخلاقي هو الرئيسي من بينها ، كما يحق للمرء أن يتوقع من ذهن كان اتجاهه أخلاقياً في أساسه . فالأخلاق هي مركز الثقل في المذهب ، تسبقها وتمهد لها الميتافيزيقا ( التي هي بدورها مسبقة بنظرية المعرفة ) ، وتسفر عن مذهب في الدولة ، وفي الشروط الأخلاقية للحياة الاجتماعية والسياسية ، وبتعبير آخر ، فإن المذهب يبحث على التوالي في المسائل الآتية ، التي تفضي الإجابة عن كل منها إلى الإجابة عن الأخرى : ما هو الحقيقي ؟ ما هي الطبيعة الحقيقية للإنسان ، وما مكانه في عالم الواقع ؟ وما الذي يتعين عليه أن يفعله إذا شاء أن يؤدي رسالته ؟ وماذا ستكون مهام المجتمع إذا شئنا أن يؤدي الإنسان في هذا المجتمع وبفضله رسالته الأخلاقية ؛ وأخيراً ، فهناك السؤال الذي لم يناقشه جرير صراحة ، وهو السؤال المتعلق بالحقيقة العليا أو الله ، بوصفه أساس كل وجود مخلوق . وهكذا فإن مذهب جرير

(١) اقتبس هذا النص في مجلة « Mind » ، المجلد العاشر ( ١٩٠١ ) ، ص ١٩ .

يتعلق بطبيعة الحقيقة ، وبالإسان بوصفه شخصاً أو موجوداً أخلاقياً ، وبالمجتمع أو الدولة بوصفها كثرة من هذه الموجودات ، وبالله بوصفه الموجود الذى تستمد منه كل الموجودات الأخرى معناها .

وتقوم نظرية المعرفة عند جرين ، أو على حد تعبيره ، ميتافيزيقا المعرفة ، وهى لها دلالتها ، على أساس معارضة المذهب الحسى القائل بالانفصال المطلق ( sensationalistic atomism ) عند التجريبيين ، ولا سيما عند هيوم ، ومعارضة الواقعية والمذهب المادى القائل بالانفصال المطلق فى العلم الحديث . ففى كلا هذين المذهبين يكون موضوع المعرفة مجموعة من الجزئيات غير المترابطة ، أى من الإحساسات والكيانات المادية المستقلة عن الوعى ، أو من الذرات ، حسبما يقتضيه الحال . وفى جميع هذه الحالات يُسقط العنصر الذاتى فى المعرفة من الحساب تماماً ، وتعدم الصلة ، ليس فقط بين الذات والموضوع ، بل بين الموضوعات ذاتها أيضاً . بل إن هيوم ، الذى كان يهوى دائماً استخلاص أشد النتائج تطرفاً ، قد حلل الذات نفسها إلى معطيات متتابعة ، أو حزمة من الانطباعات ، وبذلك رد كل حقيقة ، أياً كانت ، إلى الانطباعات . غير أن من المحال أن نتصور كيف تستطيع الإحساسات المفككة أن تؤثر بعضها فى البعض ، أو تدخل فى أى نوع آخر من أنواع الارتباط ، والأكثر من ذلك استحالة أن نتصور كيف يمكنها التجمع سوياً فى ذلك السكل المنظم الذى يتبدى عليه العالم لنا فى المعرفة . فمثل هذا الكلام إنما هو نهاية لآية نظرية عن الحقيقة ، وهو دفع للفكر فى طريق مسدود ، لا يخلصه منه إلا تغيير حاسم . فالإحساس كما قال به هيوم لا يناظر شيئاً حقيقياً ، وإنما هو شيء مختلق ، وتجرىد محض .

وقد تمكن جرين من تجاوز مذهب الانفصال المطلق هذا عن طريق .

نظريته المشهورة ، التي أثارت كثيراً من الجدل ، في العلاقات ، وهي النظرية التي تكوّن لب ميتافيزيقا المعرفة عنده . فعلى حين أن هيوم قد ذهب إلى أن أفكارا مثل الجوهر والعلية والخارجية والهوية إنما هي مجرد اختلاق من الذهن لأنها ليست معطاة في أى انطباع ، فإن جرين قد بين أن هذه العلاقات « غير الحقيقية » هي التي تتيح إمكان أية معرفة على إطلاقها . فكون أى شيء حقيقيا أو غير حقيقى ، هو أمر لا يتوقف على أية واقعة أو معطى في ذاته ، أو على إمكان أو عدم إمكان استخلاص أفكار من هذه الواقعة أو تلك ، وإنما يتوقف تماما على العلاقات القائمة بين الوقائع ، أو التي يمكن أن تدخل فيها الوقائع . « ففكرة مائة القرش ، من حيث هي مجرد فكرة . . . هي بلا شك مختلفة عن امتلاكنا لها ، لا لأنها غير حقيقية ، وإنما لأن العلاقات التي تكوّن الطبيعة الحقيقية للفكرة تختلف عن تلك التي تكون الطبيعة الحقيقية للامتلاك » (١) .

فالأشياء ليست مقفلة على ذاتها ، تامة على نحو نهائى ، مستقلة بعضها عن البعض ، وإنما هي لا تصبح حقيقية إلا بقدر ما تخرج عن عزلتها وتشير إلى شيء غيرها . أى أن الأشياء ترتبط بعضها ببعض بعلاقات كثيرة ، وتتحكم أو تؤثر في بعضها البعض على نحو متبادل ، وتشابه أو تتباين ، وتتضارب فيما بينها ، وترتبط في المكان أو الزمان ، وما إلى ذلك . وليس معنى ذلك أن الأشياء توجد أولا في حالة تكون فيها معطاة على نحو محض ، وفي عزلة كاملة ، ثم تدخل فيما بعد في علاقات بعضها مع البعض ، بل إن من المحال أن تتصور أو يكون لها أى معنى أو أهمية بالنسبة إلينا دون هذه للعلاقات . فإذا نزعنا عن الأشياء علاقاتها فلن يكاد يبقى بعد ذلك شيء . ومن هنا كانت نظرية جرين القائلة إن حقيقة الأشياء لا قوام لها إلا ما يربط بينها من العلاقات . وبعد ذلك

يتحول هذا الرأي ، الذى توصل إليه عن طريق اعتبارات إبستمولوجية ، إلى مبدأ ميتافيزيقى ، دون أى برهان آخر خاص بهذا المجال الأخير . على حدة .

كذلك تتميز أبحاثه التى تلى ذلك بهذه الصفة ذاتها ، وهى الاكتفاء بنقل مبدأ إبستمولوجى إلى مجال الميتافيزيقا . فالصيغة المبالغ فيها ، القائلة إن العلاقات هى قوام الحقيقة ، لا تكتسب معنى معقولا ، فى رأى جرين ، إلا إذا أضفنا إليها أن العلاقات لا تعطى فى الأشياء ومعها ، وإنما هى تقرر أو تحدد عن طريق مبدأ معين للتوحيد . هذا المبدأ لا يمكن إلا أن يكون «فاعلية الذهن» . فالأشياء تتألف من علاقات ، والعلاقات تفترض مقدما وظيفة الذهن الرابطة . على أن ما يقرر العلاقات يختلف أساسا عن ذلك الذى تربط بينه العلاقات : فهو ليس شيئا ضمن الأشياء ، أو معطى ضمن المعطيات ، وإنما هو نفس شروط إمكان المعطيات على إطلاقها ، وشروط إمكان أى وجود ، إذ إننا بدون الوظيفة التوحيدية التشكيلية للذهن لا نستطيع أبدا أن نعلو على المادة المختلطة التى يأتى بها الإحساس . ومن السهل أن يلبح المرء هنا الأفكار الأساسية لكانت . فالعملية الرابطة للذهن هى بعينها الوحدة التركيبية للإدراك الذاتى *synthetic unity of apperception* عند كانت ، كما أن رأى جرين القائل إن هذا الفعل الرابط هو الذى يكون الحقيقة ، هذا رأى إنما هو تعبير آخر عن قول كانت إن الذهن هو الذى يفرض على الطبيعة قوانينها .

وسرعان ما يظهر بعد ذلك ، بطبيعة الحال ، اتجاه إلى تجاوز موقف كانت الإبستمولوجى واستخلاص نتائج ميتافيزيقية تسير فى اتجاه الفلاسفة التالين لكانت ، ولا سيما هيجل . وقد اتجه المجهود الأكبر لجرين إلى التغلب على الثنائية التى وضعها كانت بين المظهر والشئ فى ذاته . وطبعى أنه كان من المحال ، فى ضوء مذهب القائل بأن العلاقات تسرى على كل شئ

وتكون كل شيء ، أن يقنع بعالمين لا تربطهما أية علاقة . وهكذا أوضح .  
 في مقابل هذه الثنائية ، أن فكرة الشيء في ذاته تنطوي على تناقض مشابه  
 لذلك الذى تنطوي عليه فكرة الانطباعات عند هيوم ، إذ كيف يمكن  
 أن يدخل ما هو - حسب تعريفه - غير قابل للعرفة ، في أية علاقة مع ذهن  
 عارف ؟ لو كان الشيء في ذاته علة المظاهر ، لوجب أن يكون هو ذاته  
 مظهرا ، على حين أن تعريفه ذاته ينص على أنه ليس كذلك ، ولو كان  
 هو المادة الخام ، غير المشككة على الإطلاق ، للتجربة ، لوجب أن  
 يكون خلوا من أى تحدد عقلى . فالمادة المحسوسة المستقلة تماما عن التحديد  
 الفكرى لا تعدو أن تكون « س » ، غير مرتبطة بشيء ، وبهذا الوصف  
 لا يمكن أن تكون موضوعا للعرفة ولا واقعة حقيقية . « فالإحساس  
 المحض ، تعبير لا يناظر شيئا في الواقع ، وإنما هو ناتج عن تجريد مصطنع .  
 وهكذا يقف جريرن موقف المعارضة الشديدة للمذهب الحسى ، ويلجأ  
 أثرا باقيا من هذا المذهب حتى في فكرة الشيء في ذاته عند كانت . وهو  
 يذهب إلى أننا ملزمون بأن ننسب إلى الإحساس شيئا من التحدد ، أعنى ،  
 التعاقب والشدة ، وهذا يستتبع أن الفكر هو الشرط الضرورى لوجود  
 هذه الوقائع المحددة ، وأن الإحساس المحض لا يمكن أن يكون عنصرا  
 مكونا للعالم الفعلى .

وإذن ، فما هو هذا المبدأ الذاتى الذى هو أساس كل وجود موضوعى  
 وشرطه ؟ هنا أيضا يسارع جريرن إلى ترك نظرية المعرفة - أى المذهب  
 الكانتى بمعناه الضيق - وينتقل إلى تطبيق تأملى نظرى يبدأ فيه ظهور  
 أفكار منتمية إلى هيجل وباركلى . فمقابل الطبيعة - أى الطبيعة بوصفها  
 نسقا من الأشياء المرتبطة فيما بينها - هو الروح ، ولكن ليس المقصود  
 بالروح هو الذات الفردية منظورا إليها نفسيا ، ولا الوعى فى عمومته  
 منظورا إليه معرفيا ، وإنما المقصود مبدأ ميتافيزيقى كلى ، أو وعى أسمى .

كما يفضل جرّين أن يسميه . فالكون ، بوصفه نسقا ، كل عنصر فيه يرتبط بكل عنصر آخر ويفترضه مقدما ويفترض فيه ، يقتضى وهما كليا شاملا لكل شيء ، يكون شرطا لوجوده ، ذلك هو وحدة الكثرة ، والهوية فى كل تغير للمظهر ، وعلاقة محتويات الإدراك العابرة بنسق الفكر ، وكذلك علاقة الأشياء والوقائع الجزئية بنسق العالم فى كليته .

فهذا هو المبدأ المنظم الذى يبعث الوحدة وكل نوع من النظام ، وهو الكل الذى يجد فيه كل جزء مكانه المنطقى ، والكل الذى يصبو إليه كل جزئى ، والذى يحتاج إليه ليكمل ذاته ، ولا يكون بدونه شيئا ، وهو الوحدة الإلهية التى تحمل كل شيء وتحفظه ، والتى يعيش فيها كل شيء ويتحرك ويوجد وجوده . فهو العنصر الروحى المطلق ، الذى يعلو ويتجاوز ويسبق كل ما هو طبيعى ، والذى لا يوجد فى مكان ولا فى زمان ، واللامادى اللامتحرك ، الواحد أزلا مع ذاته . وواضح من ذلك أن للمبدأ الأول عند جرّين أوجها متعددة ، فهو تارة العقل السكّانى ، وتارة أخرى الروح الهيجلية ، وتارة ثالثة إله باركلى . ونظرا إلى قوة الاتجاه إلى الألوهية عند جرّين ، فإن الأخير من هؤلاء ، أعنى إله باركلى ، يظهر لديه كثيرا ، لا سيما فى فكرته عن حضور كل الأشياء (أو كل الأفكار ، كما كان باركلى خليقا بأن يقول) وتساميا فى الله ، ولهذا السبب كان فى تعاليمه سلاح رحب به اللاهوت المحافظ فى كفاحه ضد المذهب الطبيعى والمادى المنبثق عن العلم الطبيعى . ولقد لاحظ الكثيرون أن تجدد المثالية فى إنجلترا قد نشأ نتيجة المصالح الدينية والكفسيّة ، التى اتخذت من المثالية وسيلة للدفاع ضد تأثير الداروينية والتطورية الهادم للإيمان .

ومع ذلك ينبغى ألا تنسينا هذه الصفة التى تميزت بها الحركة المثالية حتى بدايتها ، أن تجدد الفكر الإنجليزى ، مهما كان قد استغل فى خدمة

أغراض لها طابع غير نظري ، يدين بظهوره ، بنفس المقدار ، لحاقر  
فلسفي أصيل . ولا شك أن هذا الحافر ظاهر عند جرّين ، رغم أنه  
لم يكتسب عنده أساما نظريا محضا ، وكان قبل كل شيء تعبيرا عن اهتمامه  
الذى كان أخلاقيا واجتماعيا فى أساسه ، والذى ربما كانت البواعث  
الدينية بدورها قد لعبت فيها دورا .

وتفضى ميتافيزيقا المعرفة وميتافيزيقا الوجود ، اللتان يتأملهما جرّين من  
وجهة نظر واحدة إلى الأخلاق بمجرد أن ينتقل إلى بحث الوعى المتناهى . وعلى  
الرغم من النقد الذى وجه إليه أحيانا ( مثل نقد A. E. Taylor  
فى كتابه "مشكلة السلوك" The Problem of Conduct ، ص ٥٩ وما يليها )  
من أنه لا توجد إلهوة بين الميتافيزيقا وبين الأخلاق عند جرّين ، فإن  
الأخلاق عنده تكون بالفعل جزءا عضويا من مذهبه . فما هو كل بالنسبة  
إلى الوعى الأزلّى ، يكون فى البداية شيئا منقسما بالنسبة إلى الوعى  
المتناهى ، ولا يدرك إلا من خلال التعاقب الزمنى ؛ ولكن بقدر ما يكون  
الوعى المتناهى مدركا للكل ، مهما كان إدراكه هذا ناقصا ، فإنه يشارك ،  
بهذا القدر ، فى الوعى الإلهى . وعلى ذلك فالإنسان هو نقطة التقاء  
مركزين للوعى ، الزمنى والأزلّى ، المتغير واللامتغير بصفة مطلقة . وتؤلف  
العلاقة بين هذين مشكلة من أعقد مشكلات فلسفة جرّين ، ولا يمكن  
الزعم أنه وصل إلى أى حل مرضى لها . فهو يقول عن الوعى الفردى  
إنه الواسطة أو الإرادة بالنسبة إلى الوعى الكلى ، وإنه يشارك فى هذا  
الآخير على نحو ما ، ولكنه لا ينبثنا بشيء عن طريق هذه المشاركة سوى  
قوله إن الوعى الأزلّى 'ينقل إلينا فى الحدود التى تفرضها علينا أبداننا .  
ولقد حاول جرّين ، الذى كان دائما واحداً "الزعة عن اقتناع ، أن  
يتخلص من الثنائية الظاهرة هنا ، عن طريق افتراض أن الوعى الذى  
يبدو مزدوجا فى الظاهر ، لا وجود له فى الواقع ، وأن ما يبدو لنا منه  
ناشئ كله عن عجز الذهن المتناهى عن فهم الوعى الواحد اللا منقسم فى .



( ٣٤٣ )

تمثل واحد . ولكن من الواضح أن هذا الافتراض ينهرب من الثنائية بدلا من أن يتغلب عليها .

ويتكرر مثل هذا الموقف في الأخلاق بمعناها الصحيح عند جرين . بل إن مظاهر الثنائية هنا أوضح منها في أى جزء آخر من مذهبه ، وذلك راجع إلى أنه كان في مذهبه الأخلاقى أشد تأثرا بكانت بما كان في ميتافيزيقاه . وهو يتخذ نقطة بدايته من تلك الحاجات الخاصة كالذوايق والفرائز ، التى هى فى مجال الأخلاق مناظرة للاحاساسات الخاصة فى المعرفة ، وهو يرى أنها بدورها تحتاج لى تكتمل أو تتحقق إلى مبدأ يعلو عليها . والواقع أننا لا تكون لنا فى المجال البشرى حاجات خاصة أبدا ، بل يضاف إليها دائما وعى بها وبالأشياء المرتبطة بها . وهكذا يتضح لنا هنا أيضا ، كما اتضح لنا فى مجال المعرفة ، أن ما يوصف بأنه موضوعى خالص ، ينطوى منذ البداية على إشارة إلى شىء ذاتى ، وأن الانتقال من الحاجة الخاصة إلى الوعى بالشىء الذى نحتاج إليه ، يفترض مقدما أن الحاجة تتمثل لذات تتميز عنها أساسا بأنها تظل ثابتة طوال تعاقب الحاجات المتغيرة . وهنا أيضا نجد ، كما وجدنا من قبل ، أن الذات تختلف عن العملية أو التعاقد ، المائل أمامها ، وليست هى ذاتها مرحلة أو سلسلة من المراحل داخل هذا التعاقب ، وإنما هى شىء باق ثابت من وراء كل ذلك ، شىء تستقر فيه المراحل الجزئية المتعاقبة .

وإذن فالحاجة الخاصة ليست بذاتها شيئا ، وإنما هى تشير دائما إلى شىء أعلى ، أى إلى الفعل الأخلاقى ، وإلى مانعزوه دائما إلى أنفسنا ، ومانشعر بأننا مسئولون عنه . ويميز جرين تمييزا قاطعا بين الفعل الأخلاقى وبين الفعل الغريزى البحت ، ويسمى الأخير نفيا للأول . وهو يبين أنه ، على حين أن شروط أفعالنا قد تنشأ من المجال الطبيعى ، فإن بواعثنا لا يمكن أن تنشأ من هذا المجال . فالباعث لنا على الفعل هو دائما عمل من أعمال الوعى

الذاتى ، وهذا لا ينتمى إلى المجال الطبيعى وإنما إلى المجال الأخلاقى . فالمسئولية التى نضطلع بها عن الفعل هى التى تجعله أخلاقيا ، حتى لو كان الحافز إلى الفعل أو إلى التعجيل به مجرد حاجة حيوانية . ونحن ننسب الفعل إلى شخصيتنا ، والشخصية هى وحدة حاجاتنا المتعاقبة زمنيا ؛ أى أن هناك فى جميع أفعالنا وعى يظل على ماهو عليه ، يمارس فاعليته على حاجات أصلها حيوانى ، ويرتفع بها إلى مستوى المجال الأخلاقى . والهدف من كل هذه الأفكار ، التى لانستطيع هنا أن نتابعها فى تفاصيلها ، هو التفرقة القاطعة بين العالم الأخلاقى وبين الظروف الطبيعية التى ينشأ منها ، والتى يظل مغلفا بها .

والإنسان هو موضوع الفعل الأخلاقى . وإذنه لما بهم الأخلاق أكثر مما بهم الميتافيزيقا ذاتها أن يكون الإنسان منتعيا إلى عالمين : فيكون ابنا للطبيعة وفى الوقت ذاته مخلوقا لله . وفكرة وجود جوانب تجريدية وجوانب عقلية فى الإنسان هى سمة أخرى من السمات السكائنية المنبثقة فى مذهب جرين الأخلاقى . فنظرا إلى وجود مبدأ إلهى فعال فى الإنسان ، لانستطيع الإنسان أن يقنع بالوجه الطبيعى لحياته فحسب ، وإنما يصبو على نحو متزايد إلى الحياة الأعلى الموجودة فيه . وتدفعه القوى اللامتناهية السكائمة فيه إلى أن يحقق ذاته الأصلية ويبلغ غايته الأخلاقية عن طريق كفاح مستمر . وعلى ذلك فالفرض الذى تبنى عليه كل حياة أخلاقية هو المبدأ الإلهى الذى لايحقق ذاته إلا فى شخصيات إنسانية . وماهية الشخصية المتناهية إنما هى كونها علة حرة ، شأنها شأن الوعى الأزل . فكل حادث طبيعى منحصر فى نسق على ، وهو نتيجة حادث سابق وعلة حادث لاحق . ومالم نبلغ مستوى المعرفة ، فإننا لانستطيع أن نصل إلى تجربة للعلة الحرة ، أى لعلة يمكنها إحداث معلولات دون أن تكون هى ذاتها نتيجة لعلة سابقة . ورغم اندماج الإنسان ، فى جانبه الحيوانى ، بالشروط

الطبيعية ، فإنه يستطيع ، بوصفه كائنا عارفا ، أن يرتفع بنفسه فوق الطبيعة ويتحكم في ذاته . ويكون الإنسان فاعلا حرا بقدر ما تكون لديه ، على خلاف الحيوانات العجماوات ، معرفة ، ومعرفة بذاته ( أى يكون عارفا بذاته بوصفه عارفا ) ، ومن الواضح هنا أيضا أن جرير لم يحل مشكلة علاقة الحرية البشرية بالحرية الإلهية ، وإنما اكتفى بتأكيد الحرية البشرية عن طريق تشبيهها بالحرية الإلهية ، وهكذا قال فى استسلام « علينا أن نقنع بالقول إن الأمر كذلك ، مهما بدا فيه من غرابة » .<sup>(١)</sup>

وعندما يصل جرير إلى المهام والغايات العينية للحياة الأخلاقية ، يلتزم الطريق الذى حدد معالمه كانت وفشته . فالقيمة المطلقة للشخصية الإنسانية هى مبدؤه الأول ، الذى يتلوه منه شرط المساواة والإخاء بين جميع الناس . فليس لأحد أن يسعى وراء أى خير ، سواء لنفسه أو لأى شخص غيره ، بوسائل قد تنال من خير الآخرين . وليس لأحد أن يحكم على الناس المختلفين بمعايير مختلفة . ولما كان لكل شخص إنسانى قيمة مطلقة ، فمن الواجب أن تعامل الإنسانية فى كل فرد على أنها غاية على الدوام ، لا على أنها وسيلة . ولا يمكن تحقيق الخير بمعناه الصحيح إلا إذا كان لكل شخص كيان الذى يلتزم كل شخص آخر بالاعتراف به واحترامه . وقوام التقدم الأخلاقى إنما يكون فى إدراكنا المتزايد للحقيقة القائلة إن الغاية الحقيقية للإنسان لا تكون فى المظاهر الخارجية للخير ، وبالتالى لا تكون فى الفضائل التى نكتسب بها هذا الخير الخارجى ، وإنما تكون كلها فى الفاعلية الفاضلة منظورا إليها بوصفها غاية فى ذاتها . فالموضوع الوحيد الذى هو أساسى وله قيمة مطلقة ، بالنسبة إلى الإنسان ، هو كمال الشخصية الأخلاقية منظورا إليه على أنه تحقيق للذات الأصلية .

ولقد أدرك جرير أن الفكرة الأساسية في هذا المثل الأخلاقي الأعلى ،  
الذى وجد أعلى تعبير عنه ، في العصور الحديثة ، في المثالية الألمانية ،  
كانت موجودة ولها أثرها في كل من أفلاطون وأرسطو ، ( اللذين أشار  
إليهما صراحة ) ؛ ولكن على الرغم مما عزاه إلى الفلسفة اليونانية من قيمة  
رفيعة ، فقد رأى أن المسيحية ، عندما أدخلت مصادر المساواة  
والإخاء بين البشر ( وهي فكرتها الاجتماعية المميزة ) ، قد وسعت المجال  
الإخلاقي إلى حد بعيد ، وإن لم تكن قد غيرت المثل اليوناني الأعلى .  
ومن ثم فقد أعطى مكان الصدارة للمثل المسيحي الأعلى ، ورأى أنه يمثل  
خطوة عظيمة الأهمية إلى الأمام .

وإن مذهب جرير الأخلاقي ليمثل ، في تطور الفلسفة في إنجلترا ،  
انشقاقاً أشد وتغييراً أعمق من أى شيء حققه في المجال النظرى بمعناه  
الضيق : فهو في الأخلاق قد ضرب على وتر لم يسمع من قبل في إنجلترا  
أبداً . ففي مذهب الأخلاقي ، كما في نظرية المعرفة عنده ، نراه يهاجم  
المذهب التجريبي ، ويرى أن رسالته في الحياة ، والخدمة التي سيقدمها  
إلى عصره ، إنما هي الحملة على أخلاق اللذة ، إلى جانب ما عرضه من  
أفكاره الخاصة . فكيف يمكن تحقيق الغايات الرفيعة للمثل الأخلاقي  
الأعلى إذا لم يكن لسلوك الإنسان من مصدر سوى طلب اللذة وتجنب  
الآلم ؟ إن اللذة ، بما هي كذلك ، لا ارتباط لها بالأخلاق ، مثلما لا ترتبط  
بها الحاجة بما هي كذلك ؛ وهي لا تكتسب دلالة أخلاقية إلا عندما تدخل  
في علاقة مع وعى يعرفها بوصفها لذة ؛ وعندئذ لا تعود لذة مجردة ،  
وإنما تتحول وترتفع إلى مستوى أعلى ، وتغدو عنصراً في الحياة  
الأخلاقية . وبالمثل فإن مجرد إضافة اللذة إلى اللذة ، وموازنة مقدار منها  
بمقدار آخر ، هو عمل لا معنى له ، بل هو عمل مستحيل ، إذ إن اللذة  
بما هي كذلك ، مجردة من الموضوع الذى تتعلق به ، والشروط التى تظهر

فيها ، تكون غير محددة على الإطلاق ، وبالتالي لا يمكن إدراكها بوصفها حساً محضاً . ومن الجائز بالفعل أن يقترن بلوغ الهدف المرغوب فيه باللذة ، ولكنها لا يمكن أن تكون هي ذاتها موضوعاً للارغبة ، وإن طابع اللذة في الخير الذي نصل إليه ليتوقف على خيرية هذا الخير ، وليست هذه الخيرية هي التي تتوقف على ما تجلبه من لذة . وهكذا يرفض جرین مذهب اللذة بأكمله بوصفه غير مقنع من الوجهة النظرية ، وله نتائج خطيرة من الوجهة العملية .

وبعد هذا الرفض القاطع لمذهب اللذة ، يكون مما يدعو إلى الاستغراب . حقاً أن نرى جرین يعترف بالفضل العملي الرفيع الذي أسداه مذهب المنفعة إلى الأخلاق . فهو ، مع إنكاره قضية مذهب المنفعة القائلة إن الخير الاسمي هو أكبر كمية ممكنة من اللذة ، قد اتفق رغم ذلك مع بنتام في مصادره القائلة بأ كبر قدر من السعادة لأ كبر عدد من الناس ، واعتقد أن مذهب المنفعة قد تمكن ، بفضل هذا التمييز ، من القضاء على الفوارق الطبقية ، ومن تنمية الحاسة الاجتماعية ، والمساهمة في حل مشكلات الإصلاح الاجتماعي والسياسي . بل إنه تخيل صيغة للنظرية النفعية مطهرة من أساسها القائم على فكرة اللذة . هذا التحول الملحوظ من الأخلاق الكانتيّة ، التي تقصر اهتمامها على النزوع أو الاستعداد ، إلى التقدير النفعي على أساس النتائج ، يحدث في الباب الرابع من كتابه « مقدمة للأخلاق » ، دون أن يكون قد ظهر في الأبواب السابقة أي أثر ملحوظ له . وربما كان للبؤثرات الخارجية دور في إحداث هذا التغيير . وعلى أية حال فإن مذهب المنفعة قد وجد في شخص جون ستورت مل وفي مؤلفاته المعاصرة ، تجسداً رفيعاً ونيلاً في آن واحد ، وبالتالي مقبولاً تماماً لمفكر له ذهن مثالي ، لاسيما إذا كانت له ميوله الاجتماعية والإنسانية مثل جرین . وهكذا فإن مثالية جرین الأخلاقية ، على الرغم من معارضتها الشديدة

لمذهب السعادة النفعي على أسس إبستمولوجية وميتافيزيقية ، قد اتفقت مع هذا الأخير عندما وصلت إلى مرحلة البحث في المطالب الأخلاقية بصورة عينية ، وتغلغل في المذهبين معاروح إنسانية واجتماعية أصيلة<sup>(١)</sup>. ومع ذلك لا يسع المرء إلا أن يشعر بأن تلك النقاط التي تسامح فيها جريرين مع مذهب المنفعة ، مهما كان من نبل الباعث إليها ، قد أدخلت عنصرا غريباً غير منسجم في التركيب العام لفلسفته ، وأن الرجل الذي كانت نقطة بدايته هي إدراك عدم كفاية فلسفته القومية ، وأخذ على عاتقه أن يعلن لمواطنيه حقيقة جديدة تماماً بالنسبة إليهم ، أحس بها إحساساً عميقاً ، لم يتمكن بعد هذا كله من التخلص تماماً من الماضي في تفكيره الخاص . وظل نفس العدو الذي تصدى لمحاربته ، والذي هاجمه بنجاح باهر ، ظل في صدره غير مهزوم تماماً . ولم يكن جريرين أول من وضع تمييزاً قاطعاً بين الأخلاق المثالية عند الألمان وبين مذهب المنفعة القومي ، وإنما كان أول من فعل ذلك هو برادلي في كتابه « دراسات أخلاقية Ethical Studies » ( ١٨٧٦ ) ، ولكن هذا الكتاب لم يلق انتباهاً كبيراً في ذلك الوقت ) .

أما فلسفة جريرين السياسية ، فإنها ، على خلاف فلسفته الأخلاقية التي عرضها في كتاب انتوى نشره وأعد معظمه بالفعل للنشر ، قد وصلت

---

(١) أما القول من مجهوس ( في كتابه « النظرية الميتافيزيقية لدولة Metaphysical Theory of the State » ، ١٩١٨ ) إن جريرين قد احتفظ بنزعة الإنسانية على الرغم من مثاليته الميتافيزيقية ، فهو قول يكشف عن سوء فهم غريب للروح الحقيقية للمثالية ، بحيث لا يمكن أن يمزى إلا إلى عقلية زمن الحرب . ولقد حاول ج . هـ . مويرهيد من قبل أن يزيل أثر سوء الفهم هذا ، فكتب في ١٩١٥ ( في « الفلسفة الألمانية في علاقتها بالحرب » German Phil. in relation to the War ص ٣٩ ) « علينا ألا نبحث في الأسس الفلسفية لانزعة العسكرية السائدة اليوم ، لافي الهيكلية ، وإنما في رد الفعل العنيف على الفلسفة المثالية بأسرها ، التي حدثت بعد وفاة هيجل بقليل » . ( انظر أيضاً مجلة Mind ، المجلد الثالث والثلاثين ، ١٩٢٤ ، ص ٢٣ وما يليها — الناشر ) .

إلينا في صورة محاضرات أشرف على نشرها شخص آخر من بين مقلقاته . ومن ثم فإن أهميتها الفلسفية أقل . فذهبه في المجتمع وفي الدولة هو مجرد امتداد لمبادئه الأساسية للأخلاق في مجال الحياة الاجتماعية . فالفرد والدولة يفترض كل منهما الآخر ويتحكم فيه ؛ ولا يمكن تحقيق الشخصية الأخلاقية إلا في المجتمع ومن خلاله . ولكن رغم أن جريرين أكد العامل الاجتماعي بقوة ، واعترف بما فيه الكفاية بأهمية الدولة ، فإنه هنا أيضاً يتوقف كماداته في منتصف الطريق . ذلك لأن فكرة الشخصية الأخلاقية التي أخذها عن كانت وفشته ، والتي عمقت إلى حد بعيد ، لم تمنعه من العودة إلى الفردية الماثورة عن الإنجليز ؛ فظل يضع الفرد ، منظورا إليه على أنه مستقل وحر ، قبل الأفراد المنتمين إلى مرتبة أعلى ، كالمجتمع ، والدولة ، والأمة . وهكذا فإن عدم تحرره تماما من قيود التراث القومي قد حال بينه وبين استخلاص تلك النتائج الجريئة التي استخلصها هيجل . وليس من الممكن تفسير ضالة تأثير هيجل في فلسفته الأخلاقية إلى هذا الحد الذي يدعو إلى الدهشة ، إلا في ضوء الحالة السياسية في إنجلترا . ولا بد لنا ، لكي نصادف اعترافا غير متحفظ بالنظرية الهيجلية في الدولة ، من أن ننتظر حتى يظهر بوزانكيت وغيره من الأفراد الذين هم أحدث عهداً في هذه المدرسة .

ورغم ذلك ، فإن جريرين قد تجاوز الأفكار الإنجليزية الشائعة عن الدولة بكثير . فقد أكد بوجه خاص أن الدولة لا تركز على القوة ، وإنما على الإرادة الحرة لأفرادها . صحيح أن القوة يكون لها تأثيرها في تكوين الدول ، ولكن ذلك يكون دائماً على أساس حقوق موجودة من قبل ومعترف بها من قبل . والفكرتان لا انفصال بينهما : فالقوة تنبثق من الحقوق وتؤدي إلى مزيد من الحقوق ، وهي بالتالي ليست إلا وسيلة لخلق الحقوق وحفظها . وفضلاً عن ذلك فإن غاية الدولة هي حماية الحياة

الأخلاقية لأفرادها وضمنان هذه الحياة لهم ، عن طريق تهيئة الظروف التي تستطيع فيها الشخصية الأخلاقية أن تزدهر وتحقق ذاتها ، ومن هنا فإن القوانين هي الشروط الضرورية لهذا التحقيق للإنسان بوصفه كائنا أخلاقيا عاقلا . وإذن فليس لنا أن ندهش إذ نجد لدى جرّين اتجاهها إلى النزعة السلمية والعالمية . أما كون الدول لازالت تتخذ من الحرب أداة في سياستها ، فإن ذلك لم يكن في نظره دليلا على ضرورة الحرب ، بل على انحطاط مستوى الحياة الأخلاقية فحسب . أما عن النزعة العالمية ، فإنها لا تسعى إلى تحطيم الدولة ، وإنما تشمل القومية في داخلها ؛ وكلما اقتربت الأمة من المثل الأخلاقي الأعلى للدولة ، قلت حاجتها إلى خوض غمار حروب مع أمم أخرى ، لأن نفس القوانين الأخلاقية التي تتحكم في حياة الأفراد في المجتمع تسرى بالمثل على العلاقات السياسية المتبادلة بين الأمم .

ولقد كانت مكانة جرّين البارزة في أولى مراحل الحركة المثالية ، والتأثير القوي الذي أحدثه ، راجعا إلى الإعجاب بشخصيته العظيمة ، وإلى نجاحه الباهر بوصفه معلما جامعيا . فهو قد أحيى الحركة بطاقته العقلية ، وأحيى تعاليمها بنبله وقوته الأخلاقية ، وبذلك رفع ما كان يمكن أن يظل مجرد نظرية ، إلى مرتبة القوة الروحية الحية . على أن وفاته المبكرة قد قطعت الطريق بقسوة على كل ما كان يمكن أن تحدثه شخصيته مباشرة من تأثير ، ولما كان هو ذاته لم ينشر أى مؤلف طويل فيما عدا مقدمته إلى هيوم ، فقد بدا من المرغوب فيه جمع خلفاته الأدبية ونشرها . وقد اضطلع بهذه المهمة أقرب تلاميذه إليه ، وهو ريتشارد ليويس نيتلشيب Richard Lewis Nettleship ( ١٨٤٦ - ١٨٩٢ ) الذي أضاف إلى طبعته عرضا عاما لحياة جرّين وأعماله . ولقد كان نيتلشيب من المتحمسين في تعليم المثالية الجديدة ، إذ إنه وضعها منذ نعومة أظفاره ، إن جاز هذا التعبير :



فقد التحق بكلية « جويت » ، و « جرین » بوصفه باحثاً ، وظل فيها زميلاً حتى وفاته . وكان يشاطر جويت تبجيله لأفلاطون ، وتعلقه بروح الفلسفة الأفلاطونية ، وهو تعلق أدى به إلى استطلاع معالمها ، لا لغير عرض أكاديمي بحث ، بل من أجل تنشيط مستمعيه وقرائه عقلياً . فأفلاطون كان بالنسبة إليه من الرجال المثاليين ، وكان مرشداً إلى الاستقامة والنبيل وحكمة الحياة ، ومبشراً بنظرة إلى العالم ما زالت صحيحة ، وستظل إلى الأبد كذلك ، وهي نظرة ينبغي على كل جيل ، إذا شاء أن يمتلكها ، أن يتدبرها من جديد . وكان موقفه ، في مذهبه الفلسفي ، مشابهاً لموقف جرین ، ليس فقط في اتجاهه العام ، بل في التفاصيل أيضاً إلى حد بعيد . وقد تجسدت فيه القوى الأخلاقية والعقلية التي أشعت من جويت وجرین بأصالة وقوة تفوق تجسدها في أي شخص غيره ، وكان أفضل أعماله ، مثلها ، هو تدريسه الشفوي ، وما كان يتجلى فيه من حرارة القول وتعمقه وحدة الذهن . وكان تأثيره أعمق وأبقى بكثير مما قد يستدل المرء عليه من كتاباته القليلة . ولقد نشر هو ذاته ، إلى جانب طبعته لمؤلفات جرین ، بحثاً واحداً هو « نظرية التعليم ( التربية ) في جمهورية أفلاطون The Theory of Education in Plato's Republic » ( في مجلة Hellenica ، ١٨٨٠ ) . أما كتاباته الأخرى فقد نشرت كلها من مخططاته بعد وفاته المبكرة الأليمة في نفس السن الذي توفي فيه أستاذه جرین ، وقد نشر هذه المؤلفات أ . ك . برادلي ، مع تقديم عرض عام لحياته ، في ١٨٩٧ (١) .

---

(١) « محاضرات ومخططات فلسفية Philosophical Lectures & Remains » ، في مجلدين ( أهد طبع المجلد الثاني في ١٨٩٨ بعنوان « محاضرات عن جمهورية أفلاطون Lectures on the Republic of plato » ، الطبعة الثانية ) ، وقد ترجم تليشيب جزءاً من المؤلف الخامس بالمنطق في الترجمة الإنجليزية لكتاب لوتسه Lotze « مذهب في الفلسفة System of Phil. » نشره بوزانكيت (١٨٨٤) .

## القسم الثالث — الهيجليون

إدوارد كيرد Edward Caird

( ١٣٨٥ — ١٩٠٨ )

[ تعلم في جلاسجو ، وسانت ألبروز ، وكلية بالير في أكسفورد . كان فيما بين ١٨٦٤ و ١٨٦٦ زميلا ومدرسا بكلية «مرتن Merton» بأكسفورد ؛ وفيما بين ١٨٦٦ و ١٨٩٣ أستاذا للفلسفة الأخلاقية في جلاسجو ؛ وخلف جويت في ١٨٩٣ في وظيفته عميد كلية بالير ، اعتزل العمل سنة ١٩٠٧ . مؤلفاته : « عرض نقدي لفلسفة كانت A Critical Account of the Phil. of Kant » ( طبعة مراجعة في مجلدين ، ١٨٨٩ ، بعنوان « الفلسفة النقدية عند كانت » The Critical Phil. of Kant ) ؛ و « هيجل » ١٨٨٣ ( سلسلة الكلاسيكيات الفلسفية في مكتبة بلاكود Blackwood's Philosophical Classics ) ؛ « الفلسفة الاجتماعية والدين عند كوت The Social Phil. & Religion of Comte » ١٨٨٥ ؛ « مقالات في الأدب والفلسفة Essays on Literature & Phil. » في مجلدين ، ١٨٩٢ ؛ « تطور الدين The Evolution of Religion » ( محاضرات جيفورد ) في مجلدين ، ١٨٩٣ ؛ « تطور الإلهيات عند الفلاسفة اليونانيين The Evolution of Theology in the Greek Philosophers » ( محاضرات جيفورد ) ، في مجلدين ، ١٩٠٤ ، ترجم إلى الألمانية في ١٩٠٩ . النظر: حياة إدوارد كيرد وفلسفته The Life & Phil. of Edward Caird ، تأليف السير هنري جونس Sir Henry Jones وج . ه . [ مويرهيد ، ١٩٢١ ] .

كان الرائد التالي العظيم للمثالية في إنجلترا بعد جرين هو إدوارد كيرد . ولقد كان سنة مقاربا لسن جرين ، وأصبح صديقا لجرين وهو

لم يزل تليذا في أكسفورد ، وبدأ عمله في التدريس بعد سنوات قلائل من بداية عمل جرير في التدريس أيضاً . ومن هنا فقد كان تعيينه في جلاسجو في ١٨٦٦ أمراً له أهميته العظمى في نشر الحركة المثالية ، إذ جعل لها مركزين قويين : فقد جعل كيرد من جلاسجو معقلاً للمثالية في اسكتلنده . وهكذا بدأ ما يمكن أن يسمى بحركة تطوير للفلسفات السائدة ، فتولت أكسفورد ، أساساً ، مهاجمة التفكير التجريبي والتطوري عند مل وبين وسبنسر ودارون وهكسلي ، ووجهت جلاسجو هجومها ، في المحل الأول ، إلى مذهب هاملتن الذي كان يسيطر عندئذ على الجامعات الاسكتلندية . وفي هذا الصدد أحدث كيرد انقلاباً : فعندما ترك جلاسجو ليخلف جويت عميداً لبالول ، بعد سبعة وعشرين عاماً من الكتابة والتدريس ، كان قد أنشأ جيلاً كاملاً من الهيجليين الشبان ، الذين خلفوه في السيطرة على الأرض التي غزاها ، ووسعوها . وبعودته إلى أكسفورد ملأً أخيراً تلك الثغرة التي خلفتها وفاة جرير المبكرة ، وأعاد الحركة المثالية إلى السكينة التي بدأت فيها ، ودعمها هناك بشخصيته القوية وشهرته اللامعة .

ولقد كانت المهمة الملقة على طاق كيرد في توطين الفكر الألماني بإنجلترا مهمة فريدة في نوعها . فقد كان سترلينج قد أتم العمل الرائد الأول ، غير أن الجهد المضني الذي بذله في كفاحه من أجل استخلاص معنى تفكير هيجل والاهتداء إلى مرادفات إنجليزية لمصطلحاته ، قد ترك القناع الذي يحيط بتفكير هيجل هذا على ما هو عليه ، إلا بالنسبة إلى فئة قليلة من الأذهان اللامحة . أما جرير فكان تفكيره أكثر استقلالاً من أن يتيح له تقديم عرض واضح أمين لتعاليم كانت وهيجل . صحيح أن هذه التعاليم قد دخلت في إطار مذهبه ، غير أن من الصعب أن يميزها

المرء ، داخل هذا الإطار ، الواحد عن الآخر ، أو أن يفرق بينهما وبين الأفكار التي استمدتها جرين من مصادر أخرى ، أو بينها وبين تفكيره الخاص ؛ كما أن أسلوبه الغامض المركز جعل قراءته أمرا عسيرا على أية حال . أما الممثلون المتأخرون للحركة ، مثل برادلى وبوزانكيت وما كتجارت ، فقد وسعوا الفكر الألماني وحوروه إلى حد يستحيل معه القول إن مهمتهم كانت تقتصر على توصيل مضمون هذا الفكر إلى الإنجليز بأي قدر من النقاء . وهكذا فإن كيرد ، الذي كان يقل عن هؤلاء إلى حد بعيد في تقيده بأفكاره المذهبية الخاصة ، كيان هو الوسيط أو الموصل الحقيقي لتفكير كانت وهيجل . ولكنه لم يضطلع بهذا العمل بروح الموضوعية الجادة التي يتصف بها المؤرخ المحض ، وإنما أقبل عليه بحماسة وشغف المريد والداعية المخلص ، فتصرف بطريقة فذة في ذلك الكنز الذي آل إليه ، وسلك منه عملة متداولة يسهل على كل شخص استعمالها بعد ذلك . بل إن كيرد وحده هو الذي يرجع إليه الفضل ، لأول مرة في إشاعة استخدام جميع الصيغ والتعبيرات المثالية بين جميع أفراد جيل الكانتيين والميجليين الإنجليز ، وإشاعة السخرية منها بين خصومهم . ولقد كانت لديه قدرة فذة على التعبير عن أمور عسيرة غامضة بلغة واضحة سلسلة بديعة ، وأدى تحويله لالتواءات كانت وألغاز هيجل إلى أسلوبه المشرق الوضاه ، إلى زيادة قدرة اللغة الإنجليزية على التعبير الفلسفي ، فضرب بذلك مثلا لمواطنيه في كيفية الكلام عن مثل هذه الأمور والكتابة فيها .

وقد توج كيرد هذا كله بشخصية رائعة لها مواهبها الفريدة ، غنية بالتحصيل التي تجذب أذهان الشباب وتأسرهما — من حماسة وانفعال وإخلاص شديد لقضية عظيمة ، وسلاسة التعبير وحرارته ، فضلا عن القدرة الأدبية الرائعة التي أشرنا إليها منذ قليل ، فهو في إنجلترا يمثل أنقى

هو أفضل نمط تجسدت فيه روح الهيجلية ، وربما نصها إلى حد ما . ولقد تجنب كيرد القيام بأية محاولة من شأنها إضفاء ثبات قطعي على مذهب هيجل ، أو فرضه على الناس قسرا ، أو تشويهه وتبديده ، وإنما استهدف أن ينشر بين الناس ، وينقل إلى الآخرين ، روح مذهب هيجل وماهيته ، اللذين امتلك كيرد ناصيتهما واستوعبهما أكثر من كل من عداه تقريبا — دون أن يكون له من هدف سوى خدمة الحقيقة وبحث حياة جديدة في الفلسفة . لقد بلغ ذهنه من الحيوية ومن الامتلاء بالثقافة القومية والأجنبية حدا جعله لا يرضى بأن يقسم بين الولاء للتعاليم الحرفية لأى أستاذ بعينه . فلم يكن هيجل بالنسبة إليه إلا آخر وأنضج تعبير عن نظرة مثالية إلى الأمور ظلت حية منذ أيام اليونان ، لا بين كبار الفلاسفة فحسب ، بل عند الأدباء المبدعين أيضا . وإن كتابه « مقالات في الأدب والفلسفة » ومحاضرات جيفورد التي ألقاها في موضوع الإلهيات عن فلاسفة اليونان ، تشهد باتساع أفق نظرته إلى المثالية بوصفها روحا باقية يعترف فيها بكل ما هو رفيع ونيل وجميل في الإنسان ، ويتحقق فيها على أكمل وجه — وهو روح كانت حية في العصر الوثني القديم ، مثلما كانت حية في المسيحية ، وفي دأق وجوته ، وفي روسو ووردسورث وكارليل . ولقد كانت مثالية هيجل شيئا عاشه الفيلسوف مثلما عله ، ولم تكن نصا جامدا أو نسقا من الأفكار المجردة ، وإنما قوة من قوى الحياة ، تجدد الإنسان من الباطن . ولم يبدأ الاكتساح الظاهر للحركة المثالية الإنجليزية إلا عندما أضنى عليها كيرد ، زعيمها المعترف به بعد وفاة جرين ، روحا منشطة استمدتها من ذهنه الرفيع ، وأذاعها على القاصي والداني بسكاته القرية إلى الأفهام ، وجمع حوله حلقة من التلاميذ الذين تشربوا نفس الروح ، وضمنوا استمرار عمله . والحق أن أى معلم للفلسفة لم يفرس في ذلك الوقت مثل ما غرسه إدوارد كيرد من البذور المثمرة ، ولم يثر ما أثاره من الحاسة ، ولم يلق ما لقيه من الإعجاب والاحترام .

فإذا تأملنا كتاباته ، امكن أول ما يلفت أنظارنا فيها هو أن حوالته ٢٠٠٠ صفحة قد كرس لكانت ، على حين لا يوجد عن هيجل إلا كتاب صغير شعبي إلى حد ما ، وعلة هذه الحقيقة الغريبة هي اقتناعه بأن أم ما في هيجل يمكن أن يفهم أولا ، بمزيد من الوضوح ، عند كانت . وإن كلمة « فندلبنانت » Windelband ، المشهورة التي قال فيها إن في فهم كانت تجاوزا له ، لتصلح تعبيرا عن اقتناع كيرد هذا ، إذا ما أضفنا إليها أن هذا التجاوز ينبغي أن يسير في اتجاه هيجل . فقد كان يقيس مذهب كانت في كل نقطة ، بالمعيار الهيجلي ، ويتعسف في تطبيق المقولات الهيجلية عليه ، ويبين المواضع التي كان لا يزال ينوء فيها بالانجهاات الفكرية القديمة ، تلك التي كان يحمل فيها البذور الخفية للمثالية المطلقة . ولقد كان قد كان كانت موجهة أساسا ضد مظاهر الثنائية التي يحفل بها مذهب كانت ، وضد التمييز والفصل الذي طالما تكرر لدى كانت ، بين عناصر التجربة والفكر ، وتلك التجريدات والتحديدات التي هي بميزاته السطحية . ومن جهة أخرى فقد رأى أن ما كان يسعى إليه كانت حقاً لم يكن تلك العناصر المفككة والمتقابلات والنقائض التي لا ترفع ، وإنما هو التوفيق بينها وتجاوزها في وحدة فكرية أعلى ، رغم أن كانت ذاته كان كلما أوغل في السعي إلى هذا الهدف الأخير ، ازداد ابتعادا عنه وهكذا رأى كيرد أن مأساة المذهب الكانتى إنما تكون في هذا الصراع الدائم بين هدف كانت الحقيقي وما أنجزه منه بالفعل ، بين هذا السعي إلى الوحدة وذاك التعلق بالثنائية ؛ ولم يتحقق التحرر من هذا الصراع إلا في مذهب هيجل الرابع .

وهكذا ننتقل من المثالية النقدية إلى المثالية المطلقة . فتلك الوحدة التي سعى إليها كانت ، والتي لم يبلغها إلا نادرا ( كما في الجزء الخاص بالإدراك الذاتى الترנסندنتالى transcendental apperception )

فليست هي الوحدة المجردة التي توجد من وراء كل الفروق ، وإنما هي وحدة لا تعبر عن نفسها إلا في هذه الفروق ومن خلالها . وبدون تلك الفكرة الرائعة ، فكرة الهوية مع الاختلاف ، لا يستطيع الفكر أن يتقدم خطوة واحدة نحو الحقيقة الفلسفية . فإذا ما وضعنا الوجود واللاوجود ، أو أى متضايدين آخرين ، كلا مقابل الآخر ، فلن نستطيع أن نقول إنهما مختلفان أو إنهما في هوية . ولا تكن حقيقتهما في اختلافهما ولا في هويتهما ، وإنما في هويتهما مع اختلافهما . فالاختلاف لا يقل أهمية عن الوحدة ، إذ إن الوحدة المطلوبة في الفلسفة هي وحدة فردية تظل محتفظة بنفسها ، ليس فقط على الرغم مما يكمن فيها من اختلاف ، بل في هذا الاختلاف ذاته ومن خلاله ، ولا تتجاوز الأضداد والخلافات إلا فتنتقل ثانية إلى أضداد وخلافات أعلى ، ثم تسترجع ذاتها مرة أخرى على مستوى أعلى من هذا . تلك هي الوحدة العضوية التي يتعين علينا أن نراها معبرة عن الكون . وهي المبدأ الروحي الكامن في كل الأشياء ، أى هي المطلق .

على أنها ليست هي المطلق منظورا إليه على أنه شيء ثابت ، مكتمل تماما ، مقفل على ذاته غير قابل لأى تطور ، وإنما على أنه عملية حية أو دينامية تكشف عن نفسها بطريقة دياكتيكية . ونظرا إلى أن كيرد قد أخذ عن هيجل دياكتيكة ونظر إليه على أنه النبض الحى لكل وجود وكل فكر ، فقد اتخذ موقفا مضادا تماما لموقف جماعة الهيجليين اللاحدين عنه عهدا ، بقيادة برادلى ، الذين وجدوا أن الديالكتيك هو ذلك الجزء من مذهب هيجل الذى لم يكن فى وسعهم الانتفاع بشيء منه ، والذين نظروا إلى المطلق ، بالتالى ، على أنه سكونى static . ففكرة الكون الثابت Clock universe ، عند برادلى لم تكن مقبولة لدى المثالية كما فهمها كيرد ، مثلما أنها لم تكن مقبولة لدى البرجماتية التى ذاعت وشاعت

قرب نهاية حياته . ولقد كانت فكرة التجدد الخلاق المستمر للكون مشتركة بينه وبين البرجماتيين ؛ وكانت هذه هي نفس الفكرة التي نشرها برجسون بطريقته الجذابة قبل وفاة كيرد بقليل . وهكذا يتضح لنا السبب الذي تزايدت من أجله أهمية فكرة النمو أو التطور في فلسفة كيرد ، حتى أصبحت هي الفكرة الرئيسية في كتابيه الأخيرين . ولهذا السبب ذاته لم يسهه إلا أن يبدى شيئا من العطف على فلسفة التطور الواسعة الآفاق عند معاصره سبنسر ، مهما كان من معارضته للجزء الأكبر منها . ولكل الاتجاه التجريبي الإنجليزى الذى كان سبنسر آخر ممثل هام له . ذلك لأنه شعر بوجود تقارب وثيق بين التصاعد الديالكتيكي للمقولات الهيكلية وبين فكرة سبنسر في التفاضل (أو التنوع) والتكامل ، وفي إعادة التجميع وإعادة التنظيم المستمر لعناصر الأشياء . وفى وسعنا أن نلح بسهولة ، فى تعريفه للنمو development ، ذلك المركب الذى سعى إلى إيجاده بين هيغل وسبنسر ، أو على الأصح ، صبغه لسبنسر بصبغة هيكلية : « فالنمو عملية تفاضل (أو تنوع) وتكامل فى آن واحد ؛ أى أنها عملية يزداد فيها الاختلاف دواما ، لاعلى حساب الوحدة ، ولكن على نحو من شأنه تعميق الوحدة أيضا ، <sup>(١)</sup> وكذلك قوله : « إن النمو عملية يصعب وصفها بلغة متسقة منطقيا ، ففيها يتغلغل الاختلاف والوحدة كل منهما فى الآخر على نحو وثيق تماما ، غير قابل لأى انفصام ، <sup>(٢)</sup> . كذلك كان موقفه من كونت والوضعية الذى عرّضه فى بحث منفصل ، كما عرّضه فى فصل خاص من كتابه « تطور الدين » ، يتصف بنوع من العطف والإشفاق . فرغم أنه لم يستطع أن يقبل الوضعية بوصفها نظرة نهائية إلى الأشياء ، فقد سلم بأنها خطوة نحو تكوين مثل هذه النظرة ، أو جزء من الأساس اللازم لها . أما التجريدية الجديدة منها والقديمة ، وفلسفة الموقف الطبيعى عند ريد وهاملتن ، فلم يقبل منها شيئا .

(١) « تطور الدين » المجلد الأول ص ٥٧٥ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٧١ .



ويستطيع المرء أن يجد لدى كيرد عنصرا هيجليا آخر ، إلى جانب الديالكتيك وكثرة استخدام تنظيمه الثلاثي للأفكار ، هو تفاؤل هيجل الظافر فيما يتعلق بقدرتنا على المعرفة ، والجرأة المعرفية للتفكير الذى لا يمكن أن يوضع له حد ، والذى يجرؤ حتى على انتزاع قناع الغموض عن « المطلق ، ذاته . فى كل تفلسف له نلس دائما ثقته المطلقة فى قدرات العقل ، وهذه الثقة هى التى ألقى عليه نضارة وحيوية أدت به إلى احتقار روح العجز التى يتصف بها مذهب الشك وروح الاستسلام التى تتصف بها اللاأدرية . كذلك كانت الصوفية ، التى تختصر الطريق الموصل إلى المطلق ، منقورة فى نظره . فحيث يضىء نور العقل كل شيء . تتبدد سحب الصوفية المعتمة .

وتتناول كتابات كيرد ، فيما عدا استثناءات قليلة ، تاريخ الفلاسفة . فمنها كتابه الجبار عن كانت ( وهو أدق وأشمل وأعمق ما كتب عنه فى الإنجليزية ) ، ويبحثه الصغير القيم عن هيجل ؛ ونقده البارع لكونت ؛ وكتاب كبير إلى حد ما عن تطور فكرة الله بين الفلاسفة اليونانيين ؛ وبهجة مقالات قصيرة عن دانتى ، وجوته ، وروسو ، ووردسورث ، جمعت كلها ، بالإضافة إلى مقال عن المذهب الديكارتي<sup>(١)</sup> ، فى « المقالات » ، ( ١٨٩٢ ) . ولم يكن أى مقال من هؤلاء مجرد تمرين فى كتابة الأبحاث العلمية ، وإنما كان الموضوع يقارن فى كل الأحوال بمذهب هيجل ، وكانت كتابته فى هذا الموضوعات تحفل بالروح الهيجلية . أما مؤلفاته الأقرب إلى الصبغة المذهبية فلا تشمل إلا بحثا فى الميتافيزيقيا<sup>(٢)</sup> ، ومحاضرات جيفورد التى ألقاها فى موضوع تطور الدين . وتعتبر هذه الأخيرة من فلسفته الدينية ، التى ينبغى علينا إيضاح أفكارها الأساسية .

(١) نشر أولا فى الطبعة التاسعة من « دائرة المعارف البريطانية » المجلد الخامس ، ١٨٧٦ ؛ وأعيد طبعه فى الطبعة الحادية عشرة .

(٢) نشر أولا فى الطبعة التاسعة من « دائرة المعارف البريطانية » المجلد ١٦ ، ١٨٨٣ ، وأعيد طبعه فى « المقالات » .

كان كيرد يهدف ، كمعظم الهيجليين الأوائل ، وكأخيه « جون » ، بوجه خاص ، إلى صبغ الميتافيزيقا الهيجلية بصبغة مذهب الألوهية ، واستخدامها في خدمة الإيمان الدينى . ولقد كان بطبيعته عميق الدين ، على خلاف الهيجليين المتأخرين مثل برادلى وبوزانسكى وما كتجارت ؛ وكان يؤمن بأن المسيحية هى أعلى تحقق للوعى الدينى . ومع ذلك فقد أبقى نفسه بمعزل عن الاتجاهات المحافظة المتعصبة الضيقة الأفق ، واحتفظ ، حتى في الأمور الدينية ذاتها ، بحرية التفكير الجديرة بالفيلسوف الحق . ورغم أن فلسفته الدينية مبنية على الأفكار الهيجلية وتعبر عن نفسها من خلالها ، فإن فكرة التطور عند سينسر تلعب فيها دورا كبيرا ، بعد صبغها بصبغة هيجلية . وهو يعرف الدين بأنه وعى متفاوت الدرجات ، بتملك الوحدة اللامتناهية التى تكمن من وراء كل انقسام للبتناهى ، لانسبا انقسامه إلى ذات وموضوع ، وهكذا يعرف الله بأنه مبدأ الوحدة فى كل الأشياء ، وبأنه كائن واع بذاته متحكم فى ذاته . فهو « المطلق » ، واللامتناهى ، ولكنه مع ذلك ليس علوا لا يُعرف ( وهنا يرفض كيرد فكرة « اللامتناهى » ، عند ماكس مولر ، كما يرفض فكرة « اللامعروف » ، عند سينسر فى نفس الوقت ) ، وإنما هو يوجد تماماً فى حدود عالم المعرفة المعقولة ، ذلك لأن اللامتناهى الذى هو خير ليس مجرد سلب للبتناهى ، ولا يتحدد سلبياً فحسب ، بوصفه ما يعلو على المتناهى ، وإنما هو الشرط الإيجابى للبتناهى ، وهو تحققه واكتماله ، ومن هنا وجب أن يكون الفكر قادرا على الوصول إليه . فى الوجود الإلهى وحده تصل الأشياء المتناهية إلى حقيقةها الحقة وتكتسب دلالتها بوصفها عناصر يتكشف بها المبدأ الأعلى ويحقق ذاته فيها . فالدين كالعلم والفلسفة ، إنما هو سعى إلى الكلى الكامن من وراء الجزئى ، أو الواحد من وراء الكثرة ، غير أن الدين إنما يكون كذلك على مستوى أعلى ، والعلم والفلسفة على مستوى أدنى . وعلى ذلك فإن الإنسان ، بوصفه كائنا عاقلا ، إنما هو كائن دينى . وفى كل وعى عاقل

تكون فكرة الله ، بوصفه الوحدة النهائية للوجود والمعرفة ، ماثلة وفعالة : وللإنسان ، إلى جانب قدرته على التأمل خارجه في الإدراك الحسى للعالم المحيط به ، وداخله في معرفته بذاته ، قدرة أخرى على النظر إلى أعلى ، إلى الموجود الإلهى الذى يوحد العالمين الخارجى والباطن وينبثنا بوجوده فى كليهما . وما الدين فى أساسه إلا المعقول ، وذلك فى أعلى صورته على الأقل ، إذ إن الدين الذى ينبثق عن الشعور أو عن الإيمان الأعمى فحسب ، لا يكون قد حقق فكرته الكاملة ، التى لا تكون ممكنة إلا على مستوى العقل . وما ذلك العقل إلا العقل الهيجلى ، الذى يتسود هذا المجال مثلما يتسود غيره . فالدين عنده ، إذن ، هو بهذا الوصف مذهب فى شمول الألوهية pantheism ، مهما كان من رغبته فى تجنب هذه النتيجة . أى أن العالم هو الله ، والله هو العالم . وليس الله هو القوة العالية التى قالت بها الأديان الوضعية ، وليس كائنا خارجا عن العالم أو مغايرا له ، ندركه بالإيمان ، وإنما هو نقطة القمة فى تأمل نظرى للكون ، وأعلى التصورات فى الفلسفة النظرية التأملية . وإن المرء ليفتقد ، فى هذا الدين العقلى المحض ، الشعور بالعلو وما يلزمه من خشوع ، وهو العلو الذى لم يستطع كيرد أن يضيفه على فكرته عن الله ، رغم إيمانه الصادق . وهكذا كانت هيجليته أقوى من تجربته ذاتها .

ولقد تحكمت الهيجلية أيضا فى نظريته فى تطور الدين . فالصور المتنوعة للحياة الدينية ، كما تتكشف فى التاريخ ، إنما هى خطوات فى تطور « الفكرة » الدينية ، وهى مراحل تمر بها الفكرة فى عملية الصيرورة التى تطرأ عليها عبر الأزمان ، وبين الشعوب . وهو يميز بين ثلاث مراحل للوعى الدينى — الموضوعية والذاتية والمطلقة ، وهى تناظر المراحل الثلاث فى تطور الإنسان ، وهو التطور الذى تتحكم فى الإنسان خلاله فكرة الموضوع أولا ، ثم فكرة الذات ، ثم فكرة الله بوصفه المبدأ الموحد لهذين . وتتمثل هذه المراحل الثلاث منظورا إليها من الوجهة

التاريخية ، في مذاهب تعدد الآلهة polytheism ، وشمول الألوهية pantheism والمسيحية على التوالى . فعقيدة المسيح هى التحقق الأعلى للفكرة الدينية . وهى الطور الذى يكتمل فيه الوعى الدينى ، والمرحلة التى تشتمل فى ذاتها على كل المراحل الأخرى وتستوعبها وتتسامى بها . ومن الواضح أن كيرد كان هنا ، كما كان فى غير ذلك من المواضع ، يقتفى أثر أستاذه الألماني العظيم ، الذى اتخذ من الدعوة إليه غاية وهدفا لحياته .

جون كيرد John Caird

( ١٨٢٠ - ١٨٩٨ )

[ شقيق إدوارد كيرد . كان قسيسا فى الكنيسة الأسكتلندية . عين فى ١٨٦٢ أستاذا للاهوت فى جامعة جلاسجو ، وفى ١٨٧٣ نائبا لرئيس الجامعة ومديرا لها . نشر الكتب الآتية : « مدخل إلى الفلسفة الدينية An Intro. to the Phil. of Religion » ١٨٨٠ ؛ « واسينوزا » ١٨٨٨ ( فى سلسلة بلاكوود لكلاسيكيات الفلسفة ) ترجم إلى الألمانية فى ١٨٩٣ .

مؤلفات نشرت بعد وفاته . « خطب جامعية University Addresses ١٨٩٨ » ؛ و « مواظب جامعية Univ. Sermons ١٨٩٨ » ؛ و « الفكرة الرئيسية للمسيحية The Fundamental Idea of Christianity » محاضرات جيفورد مع بحث . تذكارى بقلم « ا . كيرد ، ١٨٩٩ » .

النظر : « ذكريات عن اللدبر كيرد Memoir of Principal Caird » تأليف . س . ل . وار C. L. Warr ، ١٩٢٦ ] .

كان جون كيرد ، شقيق إدوارد كيرد الذى كان يكبره بكثير ، والذى كان لاهوتيا بارزا وواعظا مرموقا ، داميول هيجلية واضحة ظهرت فى كتابه « مدخل إلى الفاسفة الدينية » ، وهو أهم كتاباته الفلسفية . بل إنه قد دعا إلى الهيجلية من فوق منبر الكنيسة ، وكان له دون شك نصيب

كبير في تغلغلها في الدوائر اللاهوتية باسكتلنده . ولقد كان كأخيه خطيبة وكاتبا لامعا ، وكانت له مقدرة تفوق مقدرة أخيه ذاتها في تحرير أفكار هيجل من الأغلال التي قيدها بها هيجل ، وإضفاء تعبيرات شعبية غير متخصصة عليها . كذلك كان الشقيقان متشابهين في مذهبهما . فقد التزمت الفلسفة الدينية عند جون حدود الهيجلية بدقة . وكانت فلسفته هذه تؤثر المخاطرة الفكرية التأملية على عزوف مذهب اللاأدرية عن الحكم عند هاملتن ومائسل وسبنسر ؛ كما أعلن في فلسفته معارضته للمحاولة التي قام بها التجريبيون لتعريف الدين من خلال أولى مراحل وأدناها ، فأكد أن قيمة أى دين لا تقاس إلا بأعلى فكرة تحقق فيها . وهذه ، الفكرة ، سابقة على جميع الصور التي تبنت فيها الحياة الدينية ، وهي تكون أساسا لها كلها ، بحيث لا يمكن فهم تاريخ الدين إلا في ضوءها . أما تلك العناصر الذاتية اللاعقلية - من خوف وأمل وطائفة وخرافة - التي رأى التجريبيون أنها هي العناصر الأساسية للدين ، فإن قيمتها أقل بكثير من للعنصر العقلي ، مهما كان لها من أهمية تاريخية أو غيرها . فالقوة الدينية على التخصيص إنما هي العقل ، ومن الواجب أن يتحدد طابع الدين وماهيته ، لا بعمق الشعور ، وإنما بالمعرفة والبصيرة النفاذة . وهنا تتخذ المعقولة هند جون كيرد طابعا أصرح ، كما كان لها عند أخيه .

وهو يرفض فكرة الإله الخارج عن العالم ، أو الإله الذى خلق العالم ومازال يحكمه من خارجه . وإنما الله هو أعرق ماهية للعالم ، تلك الماهية التي تشمل على جميع الأشياء المتناهية وتتغلغل فيها بوصفها روحها المطلقة . فالإنسان هو كائن متناه ومشارك في حياة الله فى آن واحد ، ومن ثم فهو مواطن فى عالمين ، الروحى والطبيعى . من هنا كانت طبيعته تنقسم بذلك القلق والشقاق الدائم الذى لا نجد له فى عالم الحيوان نظيرا . هذا الانقسام الذى تتصف به الطبيعة البشرية قد يجد له دواء مؤقتا فى الحياة الأخلاقية ،

غير أن هذا ليس دواء نهائيا ، إذ إننا لانصل في الحياة الأخلاقية إلى بداية ذلك الزوال للذات الفردية ، وذلك التوحيد بين حياتنا وبين ذلك المجال الدائم الاتساع ، مجال الحياة الروحية التي تتجاوزها ، وهما أمران لا يتحققان بأكمل صورة إلا في الدين . فالدين هو المجال الذي يحتفى فيه نهائيا التعارض بين الطبيعي والروحي ، بين الفعلي والمثالي ، والذي لا يعود فيه المثل الأعلى للامتناهي غاية لا تتحقق ، وإنما يصبح شيئا متحققا بالفعل . وهكذا فإن كل تفكير ديني عند كيرد إنما يهدف إلى التوفيق والتوحيد بين الإيمان والمعرفة ، بين الدين والفلسفة ، وأهم من ذلك كله ، إلى زيادة كمال عقيدة المسيح باليهيغلية ؛ أما الفروق العميقة بين هذين ، فهو يدعها جانبا دون أن يعيرها انتباها .

أما جون واطسون John Watson ( ولد في ١٨٤٧ )<sup>(١)</sup> أستاذ الفلسفة الأخلاقية في جامعة « كوينز » ، بولاية كنجستون ( في كندا ) ، فقد كان تلميذا الأخوين كيرد ، وكان أسكتلنديا مثلهما . وقد اقتصرت معظم كتاباته — وهي عديدة ، نشرت كلها في جلاسجو — على عرض الموقف المثالي والتوسع فيه ، والتعريف بأبرز ممثليه الألمان . أما مؤلفاته المذهبية ( وهي « المسيحية والمثالية Christianity & Idealism ١٨٩٦ » ؛ و « الأساس الفلسفي للدين The Philosophic Basis of Religion » ، ١٩٠٧ ؛ و « تفسير التجربة الدينية The Interpretation of Religions Experience » ، ١٩١٢ ، في مجلدين ، وهذا الأخير نشر لمحاضرات جيفورد ) ، فتتعلق في المحل الأول بفلسفة الدين ، التي يقف فيها — كما في سائر المجالات — موقفا أقرب إلى الأخوين كيرد منه إلى أي مصدر آخر .

وليام والاس William Wallace

( ١٨٤٤ — ١٨٩٧ )

[ ألام في سانت أندروز وكلية باليول بأكسفورد ؛ وأصبح زميلا في كلية مرتون Merton بأكسفورد سنة ١٨٦٧ ؛ وخاب جرين في كرسى الفلسفة الأخلاقية بأكسفورد

[ المترجم ]

(١) وتوفي عام ١٩٣٩ .

من ١٨٨٧ إلى ١٨٩٧ . مؤلفاته : « منطق هيجل The Logic of Hegel » وهو مترجم من « دائرة معارف العلوم الفلسفية » لهيجل ، ١٨٧٤ ( الطبعة الثانية في مجلدين . ١٨٩٧ - ١٨٩٤ ) ؛ وللذهب الأبيقوري Epicureanism ، ١٨٨٠ ؛ و « كانت » ١٨٨٢ ( سلسلة بلاكوود للكلاسيكيات الفلسفية ) ؛ ( حياة شوبنهاور Life of Schopenhauer ، ١٨٩٠ ؛ « فلسفة العقل عند هيجل Hegel's phil. of Mind » مترجم من ( دائرة معارف العلوم الفلسفية ) ، مع خمس مقالات تصديرية ، ١٨٩٤ : مؤلفات نشرت بعد وفاته : « محاضرات ومقالات في اللاهوت الطبيعي والأخلاق . Lectures & Essays on Natural Theology & Ethics » ، نشره أ. كيرد . مع مقدمة فيها ترجمة لحياة ولاس ، ١٨٩٨ ]

كان ولاس ، وهو اسكتلندي بدوره ، ينتمى إلى الجيل الأول من تلاميذ هيجل الذين تجمعوا في العقد السابع من القرن الماضي حول جوبيت . وجرين وإدوارد كيرد . وقد تحكّم هؤلاء الأساتذة إلى حد بعيد في تعليمه الفلسفي . وساعدوا على تحديد اتجاه تفكيره المتأخر ومحتواه . ولقد كان ولاس من أول وأقدر مترجمي هيجل ومفسريه ، وسام في محاضراته وكتاباته معابدور بارز في تفسير المثالية الألمانية . ولقد بدأت عملية إتاحة مؤلفات هيجل الرئيسية للطلاب الإنجليز في ترجمات موفوق بها ، وهي العملية التي لم تبدأ إلا أخيراً بترجمة لكتاب « المنطق الأكبر »<sup>(١)</sup> ، بدأت هذه العملية بترجمة لكتاب « المنطق » الأصغر ، وأعقبه ، بعد فترة طويلة ، كتاب « فلسفة العقل » ( الجزء الأول والثالث من « دائرة المعارف » لهيجل ) ولقد لقي كتاباه عن كانت وشوبنهاور إقبالا واسعا ، ونقل أفكار هذين المفكرين إلى عدد كبير من القراء . وكان ولاس يتمتع بقدرة نادرة على تخليص الحجج الفلسفية من اللغة المحيرة المغرورة التي يعبر بها المتخصصون عنها ، وعلى إعادة التعبير عنها بأسلوب أدبي سلس .

(١) « علم للمنطق عند هيجل Hegel's Science of Logic » ترجمة جولستون . وستروفرس Johnston & Struthers ، في مجلدين ، ١٩٢٩ .

مشرق . ورغم أنه كان من أخلص تلاميذ هيجل ، فإنه لم يكن 'يحجم أبدا عن تغيير نصه ليزيد المعنى وضوحا . ومن الجائز أن أحدا لم يتم بمثل المجهود الذى قام به ولاس فى تذليل صعوبة دراسة هيجل فى إنجلترا . فقد خلع على هيجل ثوبا جديدا ، جعله أقرب إلى النفوس والعقول فى بلد يكره اللغة الثقيلة الغامضة التجريدية ولا يثق بها .

ولكن رغم أنه كان على وجه العموم يسير فى أعقاب هيجل ، فقد كان أكثر استقلالاً من أن يرتاح إلى مذهب محكم الإغلاق . ولقد كان يفتقر إلى ذلك الحافز النامى الذى اكتسبه كثير من الهيجليين الإنجليز من هيجل ذاته ، وكان يؤثر دراسة فكرة واحدة وإيضاحها بالنظر إليها من زوايا عديدة ، على جمع عدد من الأفكار فى مذهب واحد . ويظهر ذلك بوضوح فى تفسيره لهيجل ، الذى يتخذ شكل أبحاث لمشكلات خاصة ، تُقَلَّب وتُختبر من جميع أوجهها ، وهى أبحاث تتصف بالحياة والدقة الشديدة ، ولكن الكثير منها كان جزئيا غير مترابط ، فيؤدى ذلك إلى عدم إظهار وحدة تفكير هيجل وإحكامه بما فيه الكفاية . ولكن ، على الرغم من استقلال ولاس وعزوفه عن وضع تعاليم ثابتة ، واعترافه بإمكان وجود طرق متعددة توصل إلى المثالية ، فإن إيمانه بحقيقة النظرية المثالية كان راسخا عميقا . وكان يرى أن ضيق الفلسفة الإنجليزية المنطوية على ذاتها لا يمكن التغلب عليه إلا بالأيديولوجيات ، الفرنسية ، أو بأفكار عصر التنوير السطحية ، وإنما بذلك الدواء الأقوى الذى تقدمه المثالية فى الصورة التى بلغت فى ألمانيا . فالمثل الذى ضربه لنا الألمان قد نجح فى توسيع أفكارنا عن الفلسفة وتعميقها : أى فى جعلنا ننظر بمزيد من التقدير إلى وظيفتها ، وندرك أنها فى أساسها علم ، وأنها علم الحقيقة العليا .<sup>(١)</sup>

(١) " مقدمة لدراسة فلسفة هيجل Prolegomena to the Study of

Hegel's Phil. ، الطبعة الثانية ، ص ١٣ من المقدمة .



( ٣٦٧ )

ولا يتصف أى كتاب بما نشره هو ذاته بالصفة المذهبية . وهكذا  
لا نستطيع أن نعرف ما كان يقول به هو ذاته من التعاليم إلا من خلال  
محاضراته ومقالاته التى نشرت بعد وفاته ، والتى تتناول الفلسفة الاخلاقية  
والسياسية والدينية قبل كل شئ . ولقد كانت فكرته الرئيسية ، فى المجال  
الأول من هذه المجالات الثلاثة ، هى التعاون الاجتماعى . أما فى المجال  
الثانى فكان يفضل ديمقراطية حرة ، مع ميول اشتراكية واضحة ، وكانت  
الدولة فى نظره هى التنظيم الأعلى الذى يوحى كل الأشكال الأدنى للتجمع  
الاجتماعى ويشتمل عليها . أما فى فلسفة الدين فقد كان قريباً كل القرب  
من الأخوين كيرد ، ولا سيما من تفسير جون كيرد النظرى التأملى  
للمسيحية . فقد كان التجسد ، الذى لم يعد له واقعة تاريخية منفردة ،  
وإنما آه حقيقة أزلية ، يعنى بالقسبة إليه التجلى المنظور لكون الله فى  
الإنسان ، وللروحى فى المادى ، والأزلى فى الزمانى . فالإنسان ليس  
بمجرد ناتج للطبيعة ، كما يقول الماديون ، ولا مجرد ابن للسماء ، كما يقول  
الأفلاطونيون ، وإنما هو نتاج مشترك لعوامل طبيعية وروحية . غير أن  
الطبيعة والروح هما حقيقة واحدة منظورا إليها تارة من الظاهر وتارة من  
الباطن . فالألوهية التى توجد فى الإنسان بالقوة وتحيا فيه ، ترفعه فوق  
مستوى النظام الطبيعى الذى هو جزء منه ، وتكسبه سيطرة عليه وتحسرها  
منه . وهكذا تسفر المثالية عند الامس ، كما هى الحال عند معظم الهيجليين  
الأوائل ، عن مذهب فى الألوهية ، وتبدو دعامة للدين وأداة له .

ديفيد جورج ريتشى David George Ritchie

( ١٣٨٥ - ١٩٠٣ )

[ تعلم فى إدنبرة وكلية باليول فى أكسفورد . أصبح فى ١٨٧٨ زميلاً فى كلية « يسوع  
Jesus » ، ثم مدرساً فى باليول بأكسفورد من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٦ : وفى السنة من  
١٨٩٤ إلى ١٩٠٣ أصبح أستاذاً للنطق والليتافيزيقا فى سانت أندروز . مؤلفاته :  
« مقولية التاريخ The Rationality of History » فى « مقالات فى النقد الفلسفى »

« Essays in Philosophical Criticism » ، نشره A. Seth ، ور . ب .  
 هولدين R. B. Haldane ، ١٨٨٣ ، « الداروينية والسياسة Darwinism &  
 Politics » ، ١٨٨٩ ؛ « مبادئ تدخل الدولة Principles of State  
 Interference » ، ١٨٩١ ؛ « دارون وهيجل » ، مع دراسات فلسفية أخرى  
 « Darwin & Hegel, With other Philosophical Studies » ، ١٨٩٣ ،  
 « الحقوق الطبيعية Natural Rights » ، ١٨٩٥ ؛ « دراسات في الأخلاق  
 السياسية والاجتماعية Studies in Political & Social Ethics » ، ١٩٠٢ ؛  
 « أفلاطون » ، ١٩٠٢ .

وقد نشره « ر. لانا R. Latta » ، بعد وفاته ، كتاب « دراسات فلسفية  
 Philosophical Studies » ، مع بحث تذكاري ، ١٩٠٥ ] .

كان ريتشى من أولئك الذين كانوا يدينون بتحولهم للمثالية إلى  
 انصالحهم الشخصي بحرين . واقد تلقى أول تعليم فلسفي له على يد فريزر  
 وكالدروود في إدنبره ، غير أن تفكيره لم يتخذ وجهته النهائية حتى  
 دخل جو الحياة العقلية في أكسفورد في أواسط العقد الثامن . في ذلك  
 الوقت كان أرنولد توينبى ( ١٨٥٢ - ١٨٨٣ ) ، الاقتصادي والمصلح  
 يعمل بنشاط هناك ، وكان إيمانه المتحمس بالاشتراكية ، الذي لم يعبر  
 عنه في قاعة المحاضرات فحسب ، بل في خدمات متفانية قدمها خارج  
 الجامعة - كان هذا الإيمان يقدم للجيل الجديد من طلاب الجامعة  
 والدراسات العليا مثلاً رائعاً للشعور بالمسئولية الاجتماعية . وهكذا فإن  
 ريتشى ، الذي كان في اتجاهه العام ومثله العليا قريباً من ذهن توينبى وجرين  
 قد نضج في صحبتهما ، وبفضلهما قبل غيرهما ، واتخذ في نضجه وجهة سارت  
 به في اتجاه البحث العملي ، كالفلسفة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية ،  
 التي كرس لها كل كتاباته تقريباً . لقد كان هدفه الأول هو إيضاح  
 هذه المبادئ وتنظيمها عن طريق مقولات المثالية الجديدة ومبادئها . وليس  
 معنى ذلك أنه تجاهل مشكلة إيجاد أساس نظري لها : فقد كان في هذا  
 الصدد أشد تمسكاً بالهيجلية من جرير . ذلك لأنه تلقى من هذا الأخير

الحافز الذى دفعه فى اتجاه المثالية بوجه عام ، أما فيما يتعلق بالمضمون الخاص لمثاليته ، فقد كان يرجع فى معظم الأحيان إلى هيجل نفسه مباشرة . وهذا واضح حتى فى أول مؤلفاته ، الذى تناول فيه مشكلة « معقولة التاريخ » ، أو إمكان قيام فلسفة للتاريخ — وهى مشكلة نادرا ما خاضها الإنجليز — وناقش جميع أطرافها من وجهة نظر هيجلية ، هذا على الرغم من أنه لم يتوسع فى هذا البحث إطلاقا فيما بعد . كذلك حرص على أن يوضح ، بطريقة فلسفية ، العلاقة بين الأصل والقيمة ، وبين المنهجين التاريخى والمنطقى ، وأوضح مرارا أن مسائل الواقع ينبغى أن تظل دائما منفصلة عن مسائل القيمة ، إذ إن تفسير واقعة على أساس أصلها هو أمر لا صلة له بقيمتها : وكان يرى أن لهذا المبدأ أهمية عظمى فى كل تفكير عن الأخلاق والدين والمجتمع والدولة ، ولكنه طبقه بوجه خاص فى نقده للمذهب التطورى : فالتطوريون ، الذين يقصرون اهتمامهم على بحث أصل الشيء ، والتتابع الزمنى لأحواله ، عاجزون تقريبا عن إدراك مغزاه . أما فى آرائه فى المنطق ونظرية المعرفة والانتولوجيا فقد كان أقرب إلى المذهب المطلق منه إلى مذهب الكثرة الذى تتصف به المثالية الشخصية ، واتفق إلى حد بعيد مع آراء برادلى فى الواحد والكثير ، والفردى والكل ، والمظهر والواقع ، ودرجات الواقع ، وما إلى ذلك . وفى نظريته فى الدولة ، عارض المذهب الفردى الشائع فى المدرسة الإنجليزية القومية . فالدولة فى نظره كل عضوى ، له حق العلو على المجتمع والأفراد ، والتدخل على نطاق واسع فى شئون الآخرين . وعلى الرغم من أنه كان يؤيد قيام شكل ديمقراطى للحكومة ، فإنه لم يكن غافلا عن نقط الضعف فى المذهب البرلمانى الليبرالى ، ومبدأ الاقتراع العام ، وطالب باختيار السياسيين المسئولين عن طريق معيار أرستقراطى هو النزاهة والمقدرة أما

فى بقية التفاصيل فقد كان يشارك جريرين ميله الواضح إلى الاشترا وإن لم يكن قد بناها بالطبع على أية أخلاق المنفعة ، وإنما على مبدأ الإنسان الأخلاقية ، واستمدتها من المبدأ المثالي القائل بالذات الاجتهاد ومسئولية هذه الذات تجاه الجماعة . ولم تكن رسالته هى الرفاهة والسعادة وإنما التوازن الاجتماعى والفاعلية الاجتماعية .

ولما كان تفكير ريتشى يتحرك كله تقريبا ، كما هو واضح ، فى المشكلات والحلول المعروفة المميزة للبيجالية الإنجليزية ، فربما كان السريخ السابق كافيا . غير أن هناك مسألة أخرى ينبغى ملاحظتها ، إذ تدل على خروجه على النمط المألوف ؛ ذلك لأن المدرسة المثالية قد هدمت داروينية ، والمذاهب المبينة عليها ، بقوة منذ البداية ، وقد أعطى سترلينج عن هيجل إشارة الهجوم ، وكان كثير من تبعوه يعدون داروينية واجبهم الخاص إزاء عصرهم وبلدهم . أما بحث ريتشى « دارون وهيجل » ،<sup>(١)</sup> الذى جمع فيه بين هذين الخصمين معا أحدث ضجة هائلة فى الأوساط الفلسفية . ومن الطبيعى أن المحاولة التى بذلها لإظهار وجود علاقة باطنة بين فكرة التطور البيولوجية والتطور البيجالية ، وبالتالى لإدماج داروينية فى المذهب المثالى — المحاولة كان مقضيا عليها بالإخفاق منذ البداية . أما المشكلة الخاصة تعرض لها ريتشى فكانت مشكلة الانتقاء الطبيعى ، التى حاول أن يفسرها بنظرية معقولة الواقع عند هيجل . فبقاء الأصلح يعنى أن ماله قيمة . أى قدر معين من المعقولية هو وحده الفعلى أو الحقيقى ، وزوال الآء يناظر العلو على العامل السلبى فى الديالكتيك البيجلى . ولا جدال

(١) طبع أولاف « أعمال الجمعية الأرسططالية - *ednigs of the Aristotelian Society* » المجلد الأول ، ١٨٩١ ، وأعيد طبعه فى ١٨٩٣ فى كتاب يحمل نفس العنوان .

(٢٧١)

محاولة ريتشى بحث الانسجام بين أكبر قوتين عقليتين فى القرن الماضى .  
قد انخرقت كثيرا عن الطريق السديد . غير أن اهتمامه بدارون قد جعل له  
مع ذلك بصيرة صادقة فى نقطة واحدة : فقد رأى أن تطبيق المقولات  
البيولوجية على الحياة الاجتماعية للانسان لا يمكن أن يتحقق دون بحث  
تقضى فى العلاقات المحددة التى تسرى على المجال الجديد . فهما كان من  
قاعدة أو أهمية تطبيق مبدأ الانتقاء ، فإن من واجبنا أن نتذكر أن المجتمع  
البشرى لا ينطوى على مجرد صراع من أجل الوجود ، كذلك الذى نراه  
فى عالم الحيوان ، وإنما على صراع مخالف تماما ، له ظروف أكثر تعقيدا  
بكثير . فنظير المبدأ البيولوجى فى المجال البشرى هو المنافسة الصناعية  
والتجارية ، والتنظيم التكنولوجى لأحوال المعيشة ، والظروف الاجتماعية  
والتعليم وما إلى ذلك . والتطور الاجتماعى يرتكز على التعاون ، لا على  
سحق الأقوى للأضعف . وباتجاه ريتشى لهذه الطريقة فى التفكير ،  
ارتفع فوق مستوى مذهب التطور الطبيعى إلى ما أسماه بمذهب التطور  
المثالى ، وبهذا الاتجاه العام ساهم فى التفكير اللاحق بدور أنجح كثيرا من  
الدور الذى ساهمت به محاولته الخاصة لتوسيع نطاق المثالية عن طريق  
إيجاد تلك الرابطة غير الطبيعية بين الأفكار الميكلية والداروينية .

السير هنرى جونز Sir Henry Jones

( ١٨٥٢ — ١٩٢٢ )

[ تعلم فى ويلز وفى جامعة جلاسجو على أ. كيرد . من فى ١٨٨٣ محاضرا فى الفلسفة  
فى أبرستويث Aberystuyth : وفى ١٨٨٤ أصبح أستاذا للفلسفة فى بانجور Bangor ؛  
وفى ١٨٩١ أصبح أستاذا للمنطق واللغة الإنجليزية فى سانت أندروز ؛ وخلف أ. كيرد  
فى كرسي الفلسفة الأخلاقية بجامعة جلاسجو فى ١٨٩٤ .

مؤلفاته : « السكان العضوي الاجتماعى The Social Organism » ، فى « مقالات فى النقد  
الفلسفى » ، لش. ه. استور. ب. هولدين ، ١٨٨٣ ؛ « برونتيم بوصفه ملطافيا وديليا Browning  
as a Philosophical & Religious Teacher » ، ١٨٩١ ؛ « عرض تقضى  
للفلسفة لوتسه A Critical Account of the Phil. of Lotze » ، ١٨٩٥ ؛  
« المثالية بوصفها عقيدة عملية Idealism as a Practical Creed » ، ١٩٠٩ ؛

« الإيمان بالعمل لمصلح اجتماعي » *The Working Faith of a Social Reformer* ، ١٩١٠ ؛ « السلطات الاجتماعية *Social Power* » ، ١٩١٣ ؛ « مبادئ المواطنة » *The Principles of Citizenship* ، ١٩١٤ ؛ « حياة أ. كيرد وفلسفته *The Life & Phil. of E. Caird* » (بالاشتراك مع ج. ه. مويرهيد) ، ١٩٢١ ؛ « إيمان يتساءل *A Faith that Enquires* » (محاضرات جينفورد) ، ١٩٢٢ .  
 انظر ذكريات لديمة *Old Memories* (ترجمة ذاتية لحياهه) ، ١٩٢٢ .  
 « حياة السير هنري جونز ورسائله *Life & Letters of Sir Henry Jones* » تأليف هنري هتيرنجتون *H. J. W. Hetherington* ، ١٩٢٤ ، ذكريات عن هنري جونز ، مكتبة ج. ه. مويرهيد ، في « أعمال الأكاديمية البريطانية *Proceedings of the Britich Academy* » ، المجلد العاشر ؛ « قاموس السير القومية *Dict. of National Biography* » ، ١٩٢٢ - ١٩٣٠ .

كانت فلسفة جونز ، بقدر ما كان لها من مضمون محدد ، مثالية هيكلية بالصورة التي أضفها عليها كيرد . فنذ اللحظة التي طلب فيها العلم على أستاذه العظيم ، وهو طالب شاب وافد إلى جلاسجو من ويلز ، اعتنق مذهب الحركة الجديدة وكرس نفسه لها بكل ما في طبيعته المتحمسة من قوة . وظل طيلة حياته تليذا مخلصا لكيرد ، الذي كان يدين له بكل شيء تقريبا . ولقد كان يدرك أنه ليس مفكرا أصيلا ، لذلك عد نفسه واهيا وحارسا لكنز ثمين ، هو النظرة المثالية إلى كل الأشياء ، التي أخذ على عاتقه أن يذيعها بين أكبر عدد ممكن من الأذهان ويثبتها فيهم . فالمثالية كانت هي اليقين الفلسفي الوحيد ، الذي يتعين حفظه مصونا ، على الرغم من أنه أسسها يمكن أن توسع ومضمونها يمكن أن يطبق بنجاح في ميادين متزايدة للنشاط الإنساني . وكان تحقيق هذا التوسيع والتطبيق هو المهمة التي كرس لها جونز جهده ، وهي مهمة حققها على أفضل وجه في الفلسفة الدينية والاجتماعية والسياسية .

وربما لم يدع أحد إلى المثالية بمثل هذا التفاني والإخلاص الجريء . والحاسة الأصلية التي دعاها إليها جونز . فقد كان أقل اهتماما بالبرهان

سنته بالدفاع البليغ والإقناع الحى ، إذ إن كل فلسفة هى فى نظره موقف من الحياة وقوة روحية أكثر منها مذهب من التعاليم النظرية . وهكذا فإن جونس قد استوعب ، بحرارة التجربة الشخصية المباشرة ، ما شيده كيرد وحكسه عن طريق التفكير المضنى الدقيق ، فحوّله من بحث إلى إيمان ، ومن حذهب إلى شعور ، بل حتّوله فى أحيان غير قليلة إلى حماسة خيالية أو شغف من الوجد الصوفى . فالمثالية كانت فى نظره جزءا من حياة عملية ، واعتناق لإيمان ، وعقيدة ، وشيئا عاشه وآمن به وأعلن أنه هو الأمر الوحيد اللازم . وبالاختصار فقد أصبحت الهيجلية عاطفية عند جونس . وهو نبيها وحواريها ، وقد حملها كأنه رسول إلى أقصى حدود الإمبراطورية . عندما دعى فى ١٩٠٨ إلى إلقاء محاضرات فى جامعة سيدنى عن « المثالية بوصفها عقيدة عملية » ، وهى مناسبة فيها بعض الشبه من محاضرة هيجل الافتتاحية المشهورة فى هيدلبرج سنة ١٨١٦ .

ولم يكن من المستغرب أن يبحث جونس عن المحتوى المميز لفلسفة المثالية خارج المؤلفات الفلسفية المتخصصة ، وأن يجده فى ذلك الطابع الأخلاقى الذى تنسم به أوجه النشاط العملية للإنسان ، وفى اعتناق عقيدة ( ولا سيما العقيدة المسيحية ) ، وقبل ذلك كله ، فى عامل دائم خلاق هو الأعمال الأدبية العظيمة . فالشعراء يعبرون بصورة جميلة عما يصوغه الفلاسفة بلغة التصورات المجردة . ومن ثم فإن جونس قد اقتبس من كبار فناني الأدب كثيرا من العناصر التى تؤيد مذهبه وتدعمه : فعنده أن شتج وجوته ، ووردسورث وبرونج ، قد أعلنوا على طريقتهم الخاصة تلك النظرة إلى العالم التى عبرت عنها فلسفة كانت وفشته وهيجل وأنباعهم من الإنجليز بطريقة التصورات . ولقد رأى فى شعر برونج بوجه خاص قصيرا رفيعا عن الشعور والمقصد المثالى ، ووصفه ، فى كتاب رائع خصصه كله له ، بأنه « معلم فلسفى ودينى أصيل » . ولهذا الأسباب ذاتها أحس

بتقارب وثيق مع كارليل ، الذى وجدت طبيعته التنبؤية وبلاغته الدافقة تجسدا جديدا لها فى شخص جونس .

ولسنا هنا بحاجة إلى الدخول فى تفاصيل مضمون تعاليمه الفلسفية ، إذ إنها لم تكد تتجاوز تعاليم الهيكلين الأوائل الذين عرضنا لهم من قبل . فنحن نصادف لديه مرة أخرى جميع العناصر المألوفة فى المذهب ، بعد إعادة صياغتها بطريقة بارعة - كتضاييف الفكر والوجود ، والمثالي والواقعي ، والروحي والطبيعي ، والجمع بين الازدواج فى وحدة الشكل ، العليا الشاملة لكل شيء ، والتركيب الروحي للكون ، والحملة على كل أنواع الثنائية بوصفها تجريدات باطلة ، واستبعاد العرضي واللامعقول ، وفكرة النسق المترابط ، والمطلق بكل صفاته وظائفه المألوفة ، وكون الله فى الطبيعة والإنسان ، والتوحيد بينه وبين المطلق ، وتشخيص الله ، وتحقيق الأخلاق فى الدين ، والتفاوت الميتافيزيقي الساذج ، وما إلى ذلك .

ولم يبق علينا إلا أن نلاحظ أن الفارق بين الاتجاهات المتقدمة والاتجاهات المتأخرة فى المدرسة الهيكلية ازداد وضوحا وشدّة عند جونس . فقد أحس مرارا وتكرارا بأنه مضطر إلى نقد تشويبات برادلى وبوزانكيت وتزييفهم للهيكلية فى صورتها الأصلية . وقد حرص مرارا على إيجاد تمييز قاطع بين موقفه وبين موقف بوزانكيت بوجه خاص . وكانت نقطة الخلاف الرئيسية هى التقابل بين الواحدية والثنائية . صحيح أن الموقف الذى اتخذ به برادلى وبوزانكيت يمكن قطعاً أن يوصف بأنه واحدى بمعنى ما ، ولكنه بدا موقفا ثنائيا واضحا من وجهة نظر أولئك الذين يمتصون ، مثل كيرد وجونس ، فى اتجاه الوحدة إلى حد استخلاص أبعد نتائجها . لذلك عكف جونس على تصيد مظاهر الثنائية عند برادلى ، وعند بوزانكيت على نحو أوضح : وهى ثنائية المظهر



والحقيقة ، والمتناهي واللامتناهي ، والنسي والمطلق ، والاهم من ذلك كله تلك الشائبة التي تفصم الطبيعة البشرية إلى شقين متغايرين . فجونس كان يرى أن الإنسان ليس بحاجة إلى الخروج عن ذاته ليلبغ المثل الأعلى ، ولا يتعين عليه أن يغير ذاته بالاندماج في المطلق ، إذ إن ذاته مستضيق تماما عندئذ . وإنما الواجب عليه ، بالآخرى ، أن يصبح ذاته ، ويحقق الإمكانات الكامنة فيه ، وعندئذ يكون قد وصل إلى اللامتناهي بحق ، بل يغدو هو ، المتناهي في عملية صيرورته .

وهكذا استعاض جونس عن العلو على الذات عند بوزانكيت بتحقيق الذات وبعث الكمال فيها . كذلك كان يرى أن المطلق ليس حالة تسكن فيها كل حركة ، وتستقر في ذاتها مباركة إلى الأبد ، وإنما هو عملية دينامية أزلية التقدم ، يكون الزمان فيها عاملا حقيقيا ، لا مجرد مظهر . وهنا نلص التضاد بين نزوع جونس إلى الفاعلية والبرجماتية ، وهو نزوع يذكرنا كثيرا بنظيره عند فشته ، وبين الموقف الأقرب إلى التأمل والسكينة عند القائلين بالمثالية المطلقة .

وهناك نقطة اختلاف أخرى . فجونس قد اعتقد أنه قد اكتشف أعراض مرض خطير في نظرية المعرفة التي قال بها برادلي وآخرون ، إذ إن في هذه النظرية نزعة ذاتية تكاد تقرب من مذهب الذات الوحيدة ، وهي تستتبع النظر إلى الواقع على أنه هزيل أو متلاش تماما ، وهكذا آلى على نفسه أن يحاربها ، ولما كان يرى أن لوتسه ، الذي كان تأثيره في الفكر الإنجليزى هائلا ، مسئول عن ظهور هذا المرض ، فقد كرس لنقد نظرية لوتسه مؤامرا خاصا ، هو واحد من أفضل كتاباته . فهو يرى أن المشكلة الرئيسية في نظرية المعرفة لا تجد حلا مرضيا في الذاتية ولا في الموضوعية . فالذهن ليس مستقلا عن الموضوعات ، ولا الموضوعات مستقلة عن الذهن ؛ وما نصادفه في المعرفة إنما هو حركة عالم موضوعي حقيقي

في وسيط هو الفكر . وبدلاً من أن تصور المعرفة على أنها محاولة لاقتناص الواقع في شبكة من التمثيلات والتصورات ، علينا أن نتصور الواقع على أنه مبدأ فعال يكشف عن ذاته لنا في عملية التفكير . فليس ثمة حاجة إلى جلب الذات والموضوع ، والفكر والواقع ، سوياً . وإنما هما مقترنان منذ البداية ، بوصفهما القطبين اللذين يقع بينهما ما نسميه بعالمنا . فالمثالي والواقعي ليسا عالمين منفصلين ، وإنما هما عنصران لا ينفصلان داخل كون واحد . وهكذا يسود مفهوم الواحدية تفكير جونس .

جون هنري موير هيد John Henry Muirhead

( ولد في ١٨٥٥ )<sup>(١)</sup>

( تعلم في جلاسجو وكلية باليول بأكسفورد . وشغل عدة مناصب جامعية ، ثم عين أستاذاً للفلسفة والاقتصاد السياسي في برمنجهام ، من ١٨٩٧ إلى ١٩٢١ ( تاريخ اعتزاله الخدمة ) .

مؤلفاته : « أركان الأخلاق The Elements of Ethics » ١٨٩٢ ،  
( الطبعة الرابعة ، ١٩٣٢ ) ؛ « فصول من « الأخلاق » عند أرسطو Chapters from Aristotle's Ethice » ، ١٩٠٠ ؛ « الفلسفة والحياة ومقالات أخرى Phil. & Life and other Essays » ، ١٩٠٢ ؛ « الخدمة الدولة The Service of the state » ، ١٩٠٨ ؛ « الفلسفة الألمانية في صلتها بالحرب German Phil. in Relation to the War » ، ١٩١٥ ؛ « الغاية الاجتماعية Social Purpose » ( بالاشتراك مع هنريجتون H. J. W. Hetherington ) ١٩١٨ ؛ « حياة إدوارد كيرد وفلسفته The Life & Phil. of E. Caird » ( بالاشتراك مع السير هنري جونس ) ، ١٩٢١ ؛ « الماضي والحاضر في الفلسفة المعاصرة Past & Present in Contemporary Phil. » ، مقال في الفلسفة الإنجليزية المعاصرة Cont. British Phil. المجموعة الأولى ، ١٩٢٤ ( وقد أشرف موير هيد على هذه المجموعة ، وكذلك على المجموعة الثانية ) ؛ « فائدة الفلسفة The Use of Phil. » ، ١٩٢٨ ؛ « كولريج فيلسوفاً Coleridge as Philosopher » ، ١٩٣٠ ؛ « التراث الأفلاطوني في الفلسفة الأنجلوسكسونية The Platonic Tradition in Anglo-Saxon Phil. » ، ١٩٣١ ؛ « القاعدة والغاية في الأخلاق Rule & End in Morals » ، ١٩٣٢ ؛ « برنارد بوزانكيت وأصدقاؤه Bernard Bosanquet & his Friends » ، ١٩٣٥ .

ترجع الأصول الفلسفية لمويرهيد إلى جيل الهيجليين الأقدم عهدا .  
وقد تلقى تعليمه في مركزى الحركة ، وهما جلاسجو وكلية باليول  
بأكسفورد ، ودرس على كيرد وجرين على التوالى ، فطبع هذان تفكيره  
بالتابع الخاص المميز له ، وحددا الاتجاه الذى سار فيه فيما بعد . ولقد  
أخذ عن كيرد الهيجلية فى الصورة التى اصططخت بها تحت تأثير الهيجليين  
الإنجليز الأصليين فى العقد الثامن ؛ أما جرين فإليه يرجع اهتمامه بتطبيقها  
على مشكلة الحياة العادية . وتناول معظم مؤلفاته المذهبية مشكلات  
الأخلاق والحياة الاجتماعية والسياسية ، بينما لم يعالج الفروع النظرية  
البحثة للفلسفة إلا لماما ، وحتى فى هذه الحالة كان بحثه متجها إلى علاقتها  
بافروع العملية أكثر مما كان مبعثه أى اهتمام بها لذاتها . وفيما يتعلق  
بالأسس النظرية لتفكيره ، فقد كان على اتفاق يكاد يكون كاملا مع  
فلسفة أستاذه كيرد ، التى حاول بالفعل أن يوسعها ، لا أن يغيرها .

ولكن على الرغم من أن مويرهيد لم يحاول أن يدخل أى عنصر  
جديد بحق على المثالية الإنجليزية ، فإنه يحتل بين أولئك الذين قاموا بدور  
الأوصياء على تراث كيرد وجرين مكانة بارزة . فقد احتفظ حتى يومنا  
هذا بحبوية وانضارة القوة الدافعة التى ولدت الحركة ذاتها ، وسار بها فى جو  
متغير عبر زمن تتحرك فيه الفلسفة بمؤثرات آتية من جهات مختلفة كل  
الاختلاف ، وغيرت فيه المثالية ذاتها معالمها الأصلية تغييرا عميقا متعدد  
الأوجه ، بعد أن كادت جذوتها تنجبر ، وإن لم تكن قد خبت تماما .  
فهم لا يزال واحدا من القلة القليلة الباقية من تلك الأيام الزاهرة التى دخل  
فيها الفكر الإنجليزى مرحلة جديدة من تطوره .

على أنه لم يحفظ المثالية بوصفها تراثا ميتا ، أضفى عليه ثباتا قطعيا ،  
ولمّا تظهر مزاياه الخاصة والخدمة التى أداها فى حرصه الدائم على أن  
يحافظ بصفاتها الحيوية المثمرة عن طريق تكيفها مع الظروف الزمنية

المتغيرة . وهكذا أعمل فكره في المشكلات والمواقف حديثة العهد ، وحاول أن يوسع نطاق الاشكال والمذاهب القديمة بقدر الإمكان ، ليجعلها قادرة على تقبل كل ما هو صحيح في الأفكار الجديدة . ويتمثل هذا النزوع في الموقف الوسط الذي اتخذه من الخلافات السائدة في مجال علم الأخلاق في عصره . ففي مذهب اللذة تكون غاية الفعل الأخلاقي ومعياره هي اللذة . ولكن مذهب السعادة Eudaemonism يأتي بتصحيح هام إذ يعلن أن الخير الأسمى ليس هو اللذة وإنما السعادة ، وليس مجرد مجموع من المشاعر التي يعد كل منها مستقلا عن الباقي ، وإنما هو تلك المشاعر التي تهدف إلى خدمة كلٍّ ويعلو على أية ذات بعينها . وليس معنى ذلك أن في وسع مذهب السعادة أن يقدم حلا مرضيا للمشكلة الأخلاقية ، وإنما فيه ، كما يقول مويرهيد ، مقابل مفيد لتلك النظرية الأخرى ، أخلاق الواجب ، التي تركز اهتمامها بنفس القوة على عنصر واحد فقط ، هو العنصر المعقول في الطبيعة البشرية . فأخلاق الواجب من أجل الواجب تخضع الحياة الأخلاقية لقانون شكلي مجرد فحسب ، وبذلك تسلبها كل ما هو نفيس غال بالنسبة إلينا . فالواجب لا يكون أبدا واجبا بالمعنى التجريدي ، أو مطلقا محضا ، وإنما هو يشير دائما إلى موضوع محدد . لاهتمام البشر . وهو يشعر بنفس القدر من النفور من المثل الأعلى لعالم يوجد فيه كل فعل عمدا ضد رغباتنا ومصالحنا ، والمثل الأعلى لعالم لا يوجد فيه إحساس بالواجب على الإطلاق . وهكذا يعرف مويرهيد الأخلاقية بأنها إطاعة قانون يفرضه الإنسان ، بوصفه وحدة واعية بذاتها ، على العناصر الكثيرة المؤتمرة subordinated في طبيعته ، وفضلا عن ذلك فقد حاول مويرهيد أن يجعل فكرة التطور ، كفكرة السعادة ، مشعرة في الأخلاق ، وإن يكن قد عارض بالطبع النظريات الأخلاقية للفلاسفة التطوريين . فكون المعايير الأخلاقية تتغير بتغير الزمان والمكان لا يعني عدم وجود معيار شامل للأفعال الأخلاقية . والامر

الذى يكشف عنه التطور فعلا هو أن الفروق الواقعية فى الأحكام الأخلاقية تفترض مقدما مبدأ واحدا للتقويم تستمد منه اتجاهها المياري، وأن المعايير المختلفة ينبغى أن تُعد مراحل فى تطور مثل أعلى أخلاقى واحد وفى تحقيقه لذاته ، وهكذا يكون من الممكن ، من وجهة النظر هذه ، ترتيب المعايير المختلفة فى الماضى والحاضر ترتيباً تصاعدياً حسب قيمتها ، وبالرجوع إلى هذا الترتيب نستطيع أن نحدد درجة التقدم الأخلاقى .

ولقد أتاح الطابع المرن ، الواسع الأفق ، لمثالية مويرهيد ، أتاح له أن يخفف حدة التعارض بين التعميمات المتقدمة والمتأخرة عن الحركة المثالية ، وأن يجمع قوى المثالية فى اتجاه واحد ، وبذلك أضاف إلى الذخيرة المشتركة للمدرسة أفكاراً قيمة مستمدة من مختلف المذاهب المطلقة والشخصية التى تولدت عن المدرسة . كذلك أتاح له ، مذهبه المفتوح ، أن يساير ، وأن يستوعب إلى حد ما ، التيارات المضادة للمثالية ، وهى البرجماتية والواقعية ، التى ظهرت قرب أواخر القرن الماضى . ولقد أقر بصحة النقد البرجماتى القائل إن الهيكلية ، ولا سيما فى صورتها المطلقة ، قد تجاهلت أكثر مما ينبغى ذلك العنصر النزوعى الغرضى فى التجربة ، ووضعت « فكرة » جامدة فوق مثل أعلى مرن حى . وهكذا قال إن المثالية تستطيع أن تقبل هذا النقد ، وعندما تفعل ذلك لا يكون قد بقى تعارض بينها وبين البرجماتية العقلية . أما بالنسبة إلى حركات مثل الواقعية الجديدة ، التى أوحى بها العلم الطبيعى ، والتى أعملت الفكر الفلسفى فى نتائج هذا العلم ، فقد اعترف بأن على المثالية أن تلتزم بينها وبين التفكير العلمى . فلم يعد من الممكن ترك تلك النظرة المثالية إلى العالم ، التى فعلت الكثير من أجل الفلسفة ، تتجاهل فلسفة الطبيعة أو تعزف عنها ، ومن ثم فمن الواجب إيجاد أساس أوسع للثقافة العقلية للمثاليين ؛ إذ إن هذه وحدها هى الطريقة التى تتيح للمثالية ، من حيث هى فلسفة ، أن تظل حية

وسط المسائل الملحة في العصر الحديث، وأن تدخل بوصفها شريكاً متساوياً  
 الحقوق في الاتفاق الذي يجرى إعداده بين الفيزياء وبين الميتافيزيقا، والذي  
 قد يحدد مصير الفكر . وهكذا دعا مويرهيد الفلاسفة إلى تناسي الخلافات  
 التي تفرق بين المدارس والمذاهب ، وأضفى على دعوته هذه صورة عملية  
 في سلسلة مكتبة الفلسفة Lib. of Phil. ، التي يشرف على نشرها ، وهي  
 سلسلة من المؤلفات لمفكرين معاصرين ، أجانب وإنجليز ، ينتمون إلى  
 اتجاهات مختلفة كل الاختلاف ، وكذلك في كتاب « الفلسفة الإنجليزية  
 المعاصرة » (الذي يناظر كتب العرض الذاتي للمذاهب Selbstdarstellungen  
 الألمانية . . ) والذي اجتمع فيه لأول مرة مختلف ممثلي الفلسفة المعاصرة  
 في إنجلترا لتقديم موجزات شخصية لأرائهم .

وأخيراً فقد ساهم مويرهيد بنصيب ملحوظ في تاريخ الحركة المثالية .  
 فقد وضع الحركة في إطار عقلي أوسع ، وحاول على هذا الأساس أن  
 يفهم أصلها وتطورها ، فضلاً عن مغزاها العام . وقد تتبع ما أسماه  
 « التراث الأفلاطوني في الفلسفة الانجلو سكسونية » ، حتى بداياته الأولى ،  
 وكشف - على خلاف الطريقة المألوفة في العرض - عن تيار موحد  
 مستمر للتفكير المثالي ، يسرى طوال تاريخ الفلسفة الإنجليزية بأسره ،  
 وإن كان يتخذ أحيانا صورة تيار غير ظاهر . وقد أوضح كيف أن  
 الأرض في إنجلترا كانت مهددة للتجديد الذي حدث في القرن التاسع عشر  
 بتأثير ألمانيا ، قبل ظهوره المفاجئ بوقت طويل ، وذلك أولاً عن طريق  
 الشعر الرومانتيكي لشلي وكيتس ووردسورث وكولردج ( وقد كتب  
 مويرهيد عن هذا الأخير بحثاً كان غاية في العمق ) ، ثم عن طريق أدب  
 الكتاب في العصر الفكتوري ، مثل كارليل وإمرسون وتينسون وبروننج

وأرنولد ، وأخيرا عن طريق ذلك التغير العام في الأفكار والنظم ، الذي تميز به النصف الثاني من القرن الماضي . ولما كان مويرهيد شاهد عيان على ظهور الحركة المفاجئة في العقد الثامن من ذلك القرن ، ومساهما فيها بنشاط منذ ذلك الحين ، فقد كان أصلياً للجميع للعودة بنظره إليها في فترة السكينة من حياته الطويلة ، وتأملها في مجموعها ، والكشف للجيل الجديد ، عن قصة تطورها والكنوز التي تحويها تعاليمها .

جون استوارت ماكنزي John Stuart Mackenzie

( ١٨٦٠ - ١٩٣٥ )

[ تعلم في جلاسجو وكيمبردج وبرلين . أصبح في ١٨٩٠ زميلاً في كلية « ترينتي » بـ كيمبردج . وعين في ١٨٩٥ أستاذاً للفلسفة والمنطق في كاردف ، وتقاعد عام ١٩١٥ .  
 مؤلفاته « مدخل إلى الفلسفة الاجتماعية ، An Intr. to Social Phil. » ، ١٨٩٠ ،  
 وقد حل محله كتاب « معالم الفلسفة الاجتماعية ، Outlines of Sosial Phil. » ،  
 ١٩١٨ ( الطبعة الثانية ١٩٢١ ) ؛ « الموجز في الأخلاق ، Manual of Ethics » ،  
 ١٨٩٣ ( الطبعة السادسة ١٩٢٩ ) ، « معالم الميتافيزيقا ، Antlines of Met. » ،  
 ١٩٠٢ ( الطبعة الثالثة ، ١٩٢٩ ) ؛ « محاضرات في النزعة الإنسانية ، Lectures on  
 Humanism » ١٩٠٧ ؛ « أركان الفلسفة الإيجابية ، Elements of Constructive  
 Phil. » ، ١٩١٧ ؛ « القيم العليا في ضوء التفكير المعاصر ، Ultimate Values in  
 the Light of Cont. Thought » ، ١٩٢٤ ، « الفلسفة الإيجابية ، Constructive  
 Phil. » مقال في « الفلسفة الإنجليزية المعاصرة » ، ١٩٢٤ ، أشرف على نشره ج . ه .  
 مويرهيد ، السلسلة الأولى ، ١٩٢٤ ؛ « المشكلات الأساسية للحياة ، Fundamental  
 Problems of Life » ١٩٢٨ ؛ « المشكلات الكونية ، Cosmic Problems » ،  
 ١٩٣١ .

مؤلفات نشرت بعد وفاته : « جون استوارت ماكنزي » ترجمة ذاتية لعمرتها زوجته .  
 انظر « جون استوارت ماكنزي » تأليف ج . ه . مويرهيد ، في « أعمال الأكاديمية  
 البريطانية » ، ١٩٣٦ ] .

كان ما كنزى ، مثل جونس ومويرهيد ، من أولئك الذين يدينون لإدوارد كيرد باهتمامهم المبكر بالفلسفة . ولقد ظل إلى النهاية على ولائه لأستاذه العظيم ، واعترف في آخر مؤلفاته بأنه « مجرد سائر متواضع في طريق التأمل المثالي الذى أعتقد أن أستاذى الأول ، إدوارد كيرد ، كان خير مرشد فيه ، <sup>(١)</sup> . وقد تناول أول كتبه موضوع الفلسفة الاجتماعية ، وثانها الأخلاق ؛ أما فى سنواته الأخيرة فقد اهتم أساسا بالمشكلات الكبرى للميتافيزيقا ، ومشكلة القيم المرتبطة بها . وكان ، مثل معظم الهيجليين ، قليل الاهتمام بنظرية المعرفة وعلم النفس ، كما أهمل المنطق .

وهو يعرف الميتافيزيقا بأنها « الدراسة المنهجية التى تسعى إلى إيجاد نظرة شاملة إلى التجربة ، بغية فهمها فى كلٍّ منهجى ، <sup>(٢)</sup> وهو يعنى بالتجربة هنا الكون بما هو كذلك ، أو الواقع فى مجموعه ، الذى يسميه بالكون المنظم Cosmos ، والذى يكون العالم الزمانى المكانى وجها جزئيا واحدا له . وكما يدل اسم « الكوزموس » ، فإنه يحمل فكرة النظام أساسية فى تصوره للكون . أما العالم المحيط بنا فبعيد كل البعد عن ذلك النظام الكامل الذى يتصف به الكون ( الكوزموس ) ، ومن جهة أخرى فلا يمكن أن يعد هذا العالم مجرد فوضى ، لأنه ينطوى على قدر غير قليل من النظام ، ولأن العوامل المؤدية إلى النظام فيه تغلب ، عموما ، على تلك المؤدية إلى الاضطراب . ولما كان الأمر كذلك ، فإن لنا الحق فى أن نفترض أن عالمنا ليس إلا جزءا من كل أكبر يتصف بالنظام الكامل ، هو « الكوزموس » . ومن أمثلة العوامل المؤدية إلى الاضطراب ، كل ما هو عرضى متغير ؛ والأهم من ذلك ، التعاسة والشقاء والآلم والشر . فوجود الشر فى عالمنا هو العقبة

(١) « مشكلات كونية » ، ص ٦ من المقدمة .

(٢) « معالم الميتافيزيقا » ، الطبعة الثالثة (١٩٢٩) ، ص ١١ .



الكبرى في وجه الإيمان بالانسجام الكامل في الكون ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن هناك « شيئا له طبيعة الشر » ، يظل موجودا بالضرورة ، من وجهة نظرنا المحدودة ، غير أن هذا لا يتناقض مع الافتراض القائل إنه قد يكون هناك انسجام كامل من وجهة النظر الشاملة . ويعرض ما كنزى هذه الآراء بدقة كاملة في الفقرة الآتية : « إن العرضية والتغير والشر الظاهري ، التي نجدها في العالم كما نعرفه ، يمكن أن تعد كلها متمشية مع حقيقة نظام كامل ، إذا ما استطعنا أن نفترض أن الكل روي في أساسه ، وأنه يحقق ذاته عن طريق عملية تغير ، تتضمن في مراحلها الأولية نوعا من الافتقار إلى النظام وما يتبعه من ظهور العرضية والشر ، ولكنها تسير متدرجة نحو الوحدة الكاملة ، التي يحتفظ فيها بالعملية بطريقة أزلية واعية ، (١) » .

ويستتبع التمييز بين الكون المنظم وبين العالم الزماني المكاني أن يكون الأول لا متناهيا والثاني متناهيا ، وقد وجد ما كنزى في الفيزياء حديثة العهد تأييدا لثاني هذين الرأيين . وهو يتوسع في هذه الآراء الشديدة العمومية ، « التي هي بالضرورة ذات طابع نظري تأمل إلى أبعد حد ، (٢) » ، ويؤيدها بعرض مفصل لهذين المجالين وعلاقة كل منهما بالآخر — أعني المجال المكاني الزماني الكيفي العلي ، ومجال الوعي والقيمة والمنطق والأخلاق ، وهكذا . ويناظر هذا الجزء من نظريته ، بشكل عام ، مبحث المقولات .

ولقد تزايد إلى حد بعيد تأكيد ما كنزى ، في تأملاته الميتافيزيقية الأخيرة ، للطابع الإيجابي لما هو عرضي مفتقر إلى الضرورة ، بالنسبة

(١) « أركان الفلسفة الإيجابية » ، ص ٣٩٢ .

(٢) « الفلسفة الإنجليزية للماصرة » ، لفره موير هيد ، المجلد الأول ، ص ٢٤٢ .

إلى تأملاته القديمة العهد . فقد وقع تحت تأثير بعض أفكار ف . ك . س . شيلر ، ود . فوست (١) D. Fawcett . وأصبح في هذه الفترة المتأخرة يقول إن الأساس الأخير للأشياء عقل خلاق ، لا يتصور على أنه فرد مشخص ، وإنما على أنه عقل كوني ، يكشف عن ذاته ويعبر عن نفسه في أذهان متناهية . وواضح أن هذا هو المطلق ، عند الهيجليين ، ولكنه ليس المطلق السكوني المفارق الثابت عند برادلي ، وإنما هو مطلق بحركة خلال مجرى العالم نزوع خلاق ، كما هي الحال في المطلق عند فوست . ولقد حدث تغير يناظر هذا في وجهة نظره ، أدى به إلى وضع الخيال في موضع مواز للعقل ، وإلى ربطه به بوصفه ملكة فلسفية هامة . ومن الواضح أن ما كنزى هنا يصطنع تحالفا زائفا ، إذ ليس ثمة عنصر مشترك بين الهيجلية وبين خيالات « فوست » الفلسفية . وإنما لنجده أيضا ، في مواضع أخرى يفتت كيان الهيجلية الذي كان متسقا من قبل ، عن طريق إدماج أفكار غريبة فيه ، مستمدة من أحدث تيارات الفكر الإنجليزى .

ويظهر مثل هذا الميل في مذهب ما كنزى في الأخلاق ، الذى عرضه بدقة وبالتفصيل في كتاب موجز رائع . فهذا المذهب ، في صورته الأصلية ، يرفض النزعة الشكلية الصارمة عند كانت ، ويدعو إلى المثل

---

(١) يعتقد مور هيد ، في بحثه الرائد عن ما كنزى ( في « أعمال الأكاديمية البريطانية » ، ١٩٣٦ ) أن ما كنزى هو الذى قال بفكرة العالم بوصفه من خلق الخيال قبل أن يقول بها « فوست » بوقت طويل . وهذا اعتقاد تؤيده فقرات معينة ينسب فيها ما كنزى لفكرة إدوارد كيرد ( « معالم الليتافيزيقا » ، الطبعة الثالثة ، التصدير ، و « مشكلات كونية » ، ص ٤٥ ) . ومع ذلك فإني أعتقد أن من الصحيح القول إن الاهتمام المتزايد الذى أصبح يوليه لفكرة الخيال الخلاق ، وكذلك تعلقه بفكرة العرضية في كتبه الأخيرة ، كان ناجما عن تأثره بوليم جيمس ، وشيلر ، وفوست ، ولا سيما بهذا الأخير . ويبدو أن ما كنزى يعترف بالكثير في الفئرتين اللتين أوردناهما منذ قليل . غير أن من الصحيح مع ذلك ، بطبيعة الحال ، أن بينه وبين فوست أوجه اختلاف عظيمة الأهمية .

الأخلاقى الأعلى بوصفه تحقيق الذات العاقلة ، وينظر إلى فكرة الخير على أنها أعلى القيم كلها . وتلك بطبيعة الحال هي الأفكار الأخلاقية الرئيسية فى المدرسة الهيجلية التى هى أقدم عهدا . غير أن الأخلاق عندما كنزى قد طرأ عليها فيما بعد ، بتأثير ج. ا. مور G. E. Moore وآخرين ، تغيير ملحوظ ، ابتعد بها عن نقطة بدايتها . فلم يعد الخير فى نظره هو القيمة العليا ، وإنما أصبح مجرد قيمة واحدة ضمن قيم أخرى ، شأنه شأن الحق والجمال . بل لقد أصبح ما كنزى ميالا إلى إعطاء المسكاة العليا للجمال ، وذلك نتيجة لميله المتزايد إلى تحقيق الاكتمال فى مذهبه ، ولرغبة جمالية فى صياغة جميع المشكلات الفلسفية فى نظام كامل .

ولقد كرس ما كنزى كتابين كاملين للفلسفة الاجتماعية . وكانت فكرته الرئيسية هى التعاون الخلاق بوصفه أهم أساس للحياة الاجتماعية فى كل صورها ، وقهر النوازع الحيوانية فى تركيبنا ، وتنمية طبيعتنا العقلية والروحية ؛ وتناظر ذلك ثلاثة أوجه أو وظائف للدولة ، هى الاقتصادية ، والسياسية أو التشريعية ، والتعليمية أو الروحية . ولقد كان ما كنزى متأثرا فى هذا بفكرة شتينر Steiner عن الكائن العضوى ذى الأعضاء الثلاثة<sup>(١)</sup> . وقد رفض الاعتراف بأن فكرة الدولة القومية هى الشكل الوحيد ، أو الأفضل ، للتنظيم الاجتماعى ، ودعا بدلا منها إلى نظام للإعلاء واحد بين جميع الدول . وهناك ارتباط واضح بين نزعتة للعالمية هذه (Cosmopolitanism) وبين قوله بالعالم المنظم Cosmism فى الميتافيزيقيا .

---

(١) رودلف شتينر (١٨٦١ — ١٩٢٥) : فيلسوف اجتماعى نمساوى ، كان شديد الإعجاب بنظريات « جوتة » العلمية ، وأسس مدرسة فى « فيورباخ » . بنوينا طبق فيها نظرياته التعليمية الخاصة ، التى تتركز أساسا على ربط التربية بالمظاهر الروحية والفنية لحياة الإنسان ، وقد انقسمت فشكرة هذه المدارس . نذكر ذلك الحين فى أرجاء مختلفة من أوروبا الغربية . والأعضاء الثلاثة المشار إليها هنا هى الجسم والنفس والروح . [المترجم]

وكما أوضحنا من قبل ، فإن الصفة المميزة لما كنزى هي تفتيته للأرض الصلبة للدرسة الهيجلية القديمة ، وفتحه المتزايد للأفكار الجديدة ، بل لأحدث الأفكار عهدا . وقد أدى تفتحه الذهني الواسع الأفق هذا ، وطريقته المرننة المتساحة في التفلسف ، وطبيعته الحذرة التي جعلته يمتنع عن ادعاء الإتيان بأية حلول نهائية ، أدى ذلك كله إلى جعله يصلح وسيطا بين مختلف تيارات الفكر ، ويرمز إلى مدى تحرر الهيجلية حتى من ذلك القدر الضئيل من التزمّت وثبات العقيدة الذي كانت قد اكتسبته من قبل .

فهو أوضح مثال لما أسماه بوزانكيت « بتقابل الأضداد في الفلسفة المعاصرة » ، ولقد كان الشعار الذي اتخذته لنفسه ، والقاتل إن كل عقيدة ثابتة ، في مجال الفلسفة ، تجديف ، كان هذا الشعار خير تلخيص لموقفه : فهو قد أخذ أفكارا جديدة من جميع الجهات ، ووزنها واختبرها ، واستبقى أفضلها ، غير أنه لم ينجح على أي نحو في إدماج الجديد في القديم . وكيف كان يتسنى له ذلك وقد اشتمل الجديد على أمور متنافرة مثل خيالات « فوسست » ، الغريبة المسرقة ، وتحليل مور المفرط في التدقيق والتعمق ، وفكرة الفاعلية عند البرجماتيين ، ومذهب التطور الظاهر *emergent Evolutionism* عند ألكسندر ، وصوفية ماكتجارت الجافة ، والنتائج العلمية الدقيقة التي أنتجها الفيزياء الحديثة ؟ . كل هذه اتجاهات لا يمكن جمعها تحت سقف واحد — ومن هنا كان ذلك الانطباع العام الذي يعطينا إياه بوجود نزعة تلفيقية لديه ، ونوع من الإعياء الفكري ، وعدم الاستقرار ، يوضح لنا السبب الذي لم يواجهه من أجله ما كنزى مشكلاته مواجهة حقيقية أبدا ، وإلما تركها تدفعه وراءها دون أن يتمكن هو ذاته من السيطرة عليها . ولقد كان ذلك كله راجعا إلى حصيلته المفرطة من المعرفة ، وتطرف النزعة إلى التوفيق لديه ، مما جعله يرغب في إنصاف كل اتجاه ، واستيعاب كل ما كان صحيحا وشريفا وذا سمعة طيبة . وهكذا

كان ما كنزى مفكرا مهذبا عجيبا إلى النفس أكثر مما كان مفكرا قويا  
متمسكا بموقفه .

ريتشارد بيردن هولدين Richard Burdon Haldane

( ١٨٥٦ - ١٩٢٨ )

( فيكونت هولدين أوف كلون الأول (First Viscount Haldane of Cloan

[ تعلم في أدبرة وجوتنجن . كان في الخدمة من ١٩١٢ إلى ١٩١٥ ، كذلك في ١٩٢٤  
رئيساً لمجلس اللوردات ، ومنح لقب فيكونت في ١٩١١ .

مؤلفاته : « علاقة الفلسفة بالعلم » بحث في كتاب « مقالات في النقد الفلسفي  
Essays in Philosophical Criticism » نشره أ . ستور . ب .  
هولدين ، ١٨٨٣ ؛ « مسلك إلى الحقيقة The Pathway to Reality »  
في مجلدين ، ١٩٠٣ - ١٩٠٤ ؛ « عهد النسبية The Reign of Relativity » ،  
١٩٢١ ( الطبعة الرابعة ، ١٩٢٢ ) ؛ « فلسفة النزعة الإنسانية وموضوعات  
أخرى The Phil. of Humanism & other Subjects » ، ١٩٢٢ ؛  
« وظيفة الليتافيزيقا في التمجيد العلمي » ، مقال في « الفلسفة الإنجليزية المعاصرة » : نشره ج . ه .  
مورهد ، المجموعة الأولى ، ١٩٢٤ ؛ « التجربة الإنسانية Human Experience » ، ١٩٢٦ ؛  
« حياتي An Autobiography » ، ١٩٢٩ ، ترجم إلى الألمانية في ١٩٣٠ ،  
كذلك اشترك مع ج . ك . Kemp في ترجمة كتاب « العالم إرادة وتغلا » لشوبنهاور ،  
بتنوان « The World as Will & Idea » ، ١٨٨٣ - ١٨٨٦ ] .

على الرغم من أن مؤلفات اللورد هولدين الفلسفية لا تكون إلا جزءاً  
صغيراً من أعماله الرائعة التي كانت متعددة الأوجه إلى حد يبعث على الدهشة ،  
إذ كان فقيهاً مشرعاً ، وبرلمانياً ، وسياسياً ، ومصلحاً جامعياً ، وفيلسوفاً ،  
وكاتباً — فلزام علينا أن نعدّها مركز حياته ، الذي كانت جميع أوجه نشاطه  
تأخرى مجرد إشعاعات له . ولقد أنبأنا هو ذاته ، في ترجمته الذاتية لحياته ،  
أن مثاليته الفلسفية قد صاحبتة في جميع أوجه نشاطه العملية ، وأنه قد عاشها  
فعلاً ، وأدبها في كل وجه من الأوجه المتعددة لحياته . ولقد كان هولدين ،  
من بين الهيجليين الإنجليز في جيله ، أصرحهم في إبداء إعجابه بالمفكر  
الألماني العظيم ، وأخلصهم في التلمذ عليه ، فأخذ بمذهبه كاملاً تقريباً .  
وهكذا نجد في كتاباته أقوى اعتراف بالهيجلية في اللغة الإنجليزية ،

باستثناء ما نجده لدى سترلينج . فهو يقول : « إن كل ما في هذه المحاضرات قد أخذته أو اقتبسته عن هيجل . . . . فليس في وسع أى مفكر آخر أن يفيد الباحث عن الحقيقة بمثل ما يفيد به هيجل ، . فـهـيجـل هو « أعظم معلم للمنهج النظرى التأملى عرفه العالم منذ أيام أرسطو » (١) . ولا نكاد نجد واحداً غير هولدين ، ممن كانوا يفتشون إلى نفس هذه المدرسة ، يجرؤ على أن يقول عن نفسه ، دون أى تحفظ : « لى راضٍ بالقول لى هيجلى ، وأود أن أسمى كذلك » (٢) . ونميز هولدين ، فضلاً عن ذلك بفهم عميق للحياة والحضارة الألمانية عامة ، وتعاطف تام معها ، وهو أمر لم يفقهه فيه واحد من معاصريه الإنجليز ، كما لم يقترب منه ، فى سعة نطاق معلوماته ورحابة ذهنه ، إلا القلة القليلة . ولقد انصب تبجيله الأعظم ، إلى جانب هيجل ، على حكمة « جوته » العميقة والواضحة فى نفس الآن ، فكان هذان ، أعنى الفيلسوف العظيم والشاعر العظيم ، هما النجمان اللذان استرشد بهما فى حياته ؛ وما يدل على ذلك أنه طبع صورتها فى كتابه « مسلك إلى الحقيقة » . أما فى الفلسفة على التخصيص فكان دينه الأعظم لأرسطو ، من بعد هيجل ، وكان دائماً ينظر إلى تفكيره الخاص على أنه ينتمى إلى ذلك التراث المثالى العظيم الممتد من اليونانيين الأوائل ، ماراً بأفلاطون وأرسطو ، إلى كانت وهيجل ولوتسه . ولقد قابل لوتسه وهو طالب فى جامعة جوتينجن ، فى السابعة عشرة من عمره ، فضاغف هذا من اهتمامه بالفلسفة ، وأثرت شخصيته الرائعة فى نفسه تأثيراً عميقاً ظل يلزمه طوال حياته . كما تعرف إلى سترلينج فى إدنبرة قبل ذلك بقليل ، وعرف هناك أيضاً كتابات جرير وكيرد التى أدت ، كما شهد هو نفسه ، إلى دفعى فى اتجاه المثالية ، (٣) .

(١) « مسلك إلى الحقيقة Pathway to Reality » ، طبعة فى مجلد واحد «

١٩٢٦ ، ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٠٧ .

(٣) « ترجمة ذاتية لحياتى » ، ص ٧ .

ولقد استمد هولدين ، من أجل إثراء الفلسفة ، عناصر من الحياة العملية والفن ، والدين ، والشعر والعلم ، وهو أمر لا يستغرب على شخص كان له مثل هذا الذهن الواسع الأفق . وكانت تجمعه في ذلك قرابة روحية هيجل ، بل إنه قد فاق هذا الأخير في اهتمامه البالغ بالعلوم الطبيعية ، وإدماجه نتائجها في مذهبه ، إذ كان هدفه هو تجديد الهيجلية بمساعدة ما توافر منذ عهد هيجل من معارف جديدة أكثر دقة ، ولقد أظهر هذا الرجل ، الذي كانت مشاغله عديدة هائلة ، حماسة وتفهما يدعو إلى الدهشة — حتى في الأعوام التي أصبح فيها متقدما في السن — في التعمق في أسرار الفيزياء الحديثة ، ولا سيما نظرية النسبية ، وفي ربط مبادئها بالمشكلات الفلسفية . ولقد كانت النسبية فكرة من أفكاره المركزية ، التي عرفها على أسس فلسفية محضة قبل نشر نظرية أينشتين ، في كتابه « مسلك إلى الحقيقة » ، ( ١٩٠٣ — ١٩٠٤ ) . ولما تبين له ، فيما بعد ، أن في نظرية أينشتين ما يبدو أنه تأييد لها ، توسع فيها ، ولا سيما في كتابه « عهد النسبية » . فالحقيقة واحدة ، غير أن هذه الواحدة أو السككية ليست واضحة للذهن البشري للوهلة الأولى ، إذ لا يرى هذا الذهن إلا أوجها جزئية منها ، ويتأمل هذه الأوجه في تركيبها الخاص وفي طريقة وجودها الخاصة ، من وجهة نظر جزئية . على أن وجهة نظر عالم الفيزياء مختلفة عن وجهة نظر عالم البيولوجيا ، وهذه مختلفة عن وجهة نظر الفيلسوف ؛ لذلك كانت معرفة الفيزيائي جزئية شأنها شأن عالم الموضوعات التي يدرسها ، ولم يكن في وسع مقولاته أن تمتد إلى العالم البيولوجي . والواقع أن كل وجهة نظر خاصة إنما هي نسبية فحسب إذا ما نظر إليها في ضوء الحقيقة السككية . هذا ، بصورة مجملية ، هو المبدأ العام ، والفلسفي البحت ، للنسبية ، الذي لا يعد مبدأ أينشتين ، في نظر هولدين ، إلا تطبيقا جزئيا له . ونستطيع أن نطلق على هذا الموقف اسم « العلاقة » relationism ،

تميزاله من الموقف الذى شاع أن يطلق عليه اسم النسبية relativism  
والذى لا يجمعه به أى عنصر مشترك .

ويقتضى مبدأ النسبية ارتباطا وثيقا بين الفلسفة والعلوم الخاصة  
أى بين وجهة النظر السكائية ووجهات النظر الجزئية ، وقد عبر هولدين  
عن هذا المطلب صراحة فى أول بحث فلسفى كتبه (علاقة الفلسفة بالعالم) .  
وهو البحث الذى تسكاد تظهر فيه جميع الأفكار الهامة التى قال بها فيما بعد .  
وليس قانون النسبية ، فى أساسه ، إلا قول هيجل إن الحقيقة هى الكل .  
صحيح أن وجهات النظر الخاصة فى العلوم المختلفة تظل محفوظة فى المعرفة  
من حيث هى كل ، ولكن ينبغى أن نضيف إلى ذلك أمرا لا يقل عنه  
أهمية ، هو أنها لا نجد لها مكانا ، ولا تدخل فى علاقة بعضها مع البعض .  
إلا فى هذا الكل . أما النظر إلى أى وجه جزئى على أنه مطلق ، وتجميع  
أى فرع للمعرفة على صورة يصبح معها مستقلا عن الفروع الأخرى .  
وعن الكل ، فأمر فيه تناقض مع مبدأ كلية الحقيقة ووحدة الواقع .  
فالواقع ، فى ماهيته النهائية ، هو روح ، لا تدرك خلال المراحل المتعددة .  
لوجود والمعرفة إلا نفسها ، ولا تكشف إلا ذاتها ، خلال مرورها  
بعملية الإدراك الذاتى الديالكتيكية . هى الكل العينى ، وهى وحدة  
المعرفة والوجود ، والحقيقة والواقع .

كل هذا ينطوى على فكرة الكل العينى ، وهى الفكرة التى تغلب  
لدى هولدين دورا يماثل فى أهميته دورها لدى بقية الهيجليين . وهى تدل  
على ماهية الفكر ، وتنطوى على العناصر المميزة لعالميه ، وهما الكل  
المحض والجزئى المحض ، اللذان يكونان مجردين تماما ، إذا ما أخذنا على حدة  
شأنهما شأن الذاتى والموضوعى مأخوذين على حدة . فعبية الفكر تعنى  
إدماج أوجه المنعزلة المجردة عمدا ، بحيث يتم التغلب على الانعزالية .



عن طريق فاعلية الفكر الدينامية أو الديالكتيكية ، التي تتقدم من وجه إلى وجه حتى تبلغ الحقيقة في كل عيني يجمع بين هذه الأوجه كلها .

هكذا كانت أفكار هولدين الأساسية هيكلية كلها . ومن الواضح أن رأيه القائل إن كل ما هو حقيقى محتشد بالمعنى منذ البداية ، وإن المعنى هو ماهية الحقيقة الواقعة ، هذا الرأى يعبر مرة أخرى عن قول هيكل بمقولة الواقع وهنا يصبح الواقع ، مرة أخرى ، مقيداً بعلاقته بالفكر ، ولا يكون يمكننا إلا داخل المعرفة . وتلك ، من الوجهة الإستمولوجية ، هي فكرة هيكل القائلة إن الفكر هو الذى يصنع لنفسه حدوده ، وهو الذى يستطيع أن يتجاوزها . وأخيراً فإن هولدين ، مثل هيكل ، يرى أن الفلسفة ، بوصفها وصول الروح المطلقة إلى الوعى الذاتى والتحقيق الذاتى . لانكون ممكنة إلا من حيث هي مذهب ؛ وهو يضع أسس هذا المذهب فى المجلد الثانى من المسلك إلى الحقيقة ، ، فيكشف عن الأوجه المتعددة للروح فى المراحل المتناهية والمطلقة من تطورها .

ويمكن وصف موقف هولدين ، منظورا إليه على نحو شامل ، بأنه مزج بين الهيكلية وبين نظرية النسبية ، أو بعبارة أصح ، بأنه إثراء للأولى بالثانية . وهكذا كشفت الفلسفة الهيكلية عن خصبها الدائم فى هذا التجديد المستقل لذاتها فى ميدان خاص للمعرفة غريب عنها تماما ، كالفيزياء النظرية الجديدة ؛ إذ إن نظرية أينشتين لم تكن ، فى نظر هولدين ، إلا اعترافا بأن مبدأ هيكل الأساسى هو المبدأ الصحيح لكل علم على الإطلاق ، وبأن المعرفة التى كشف النقاب عنها حديثا إنما هى مثل جديد يوضح الإطار المذهبي الذى وضعه هيكل ، ويزيده ثراء .

السير جيمس بلاك بيلي Sir James Black Baillie

(ولد سنة ١٨٧٢) (١)

[ تعلم في إدنبره ، وكلية « ترينتي » بكيمبردج . شغل من ١٩٠٢ إلى ١٩٢٤ منصب أستاذ الفلسفة الأخلاقية في أبردين ؛ وعين في ١٩٢٤ وكبلا لجامعة ليدز ؛ ومنح لقب سير في ١٩٣١ . مؤلفاته : « أصل منطق هيجل ودلالته » *The Origin & Significance of Hegel's Logic* ، ١٩٠١ ؛ « عرض عام للتركيب المثالي للتجربة » *An Outline of the Idealistic Construction of Experience* ، ١٩٠٦ ؛ « ظاهريات الروح لهيجل » *Hegel's Phenomenology of Mind* ( ترجمة ) ، في مجلدين ، ١٩١٠ ( الطبعة الثانية ، في مجلد واحد ، ١٩٣١ ) ؛ « دراسات في الطبيعة البشرية » *Studies in Human Nature* ، ١٩٢١ ؛ « الفرد وعالمه » *The Individual & His World* ، مقال في كتاب « الفلسفة الإنجليزية المعاصرة » ، نشره ج . هـ . مورهييد ، المجموعة الأولى ، ١٩٢٤ ] .

تنتمي كتابات بيلي قبل الحرب العالمية الأولى إلى تراث الهيكلية الإنجليزية ، بل لقد قبل عنه إنه كان « من نواح عديدة » ، أشد الهيكليين الحاليين تمسكا بأصول المذهب ، <sup>(٢)</sup> غير أن كتاباته التالية ، التي تأثرت بصدمة الحرب ، تسير في اتجاه مخالف تماما . لذلك فإن أعماله الفلسفية تنقسم قسمين متميزين ، بل متعارضين إلى حد ما .

ولقد ربط بيلي اسمه باسم هيجل ، لا بوصفه شارحا ومترجما له فحسب — وذلك في كتابين قيمين ساهم بهما بنصيب كبير في تشجيع الدراسات الهيكلية بإنجلترا — بل أيضا في كتابه المذهبي الأول « عرض عام للتركيب المثالي للتجربة » . فهذا الكتاب ، وإن يكن مستقلا فيما عرضه من التفاصيل ، لا يعدو في أساسه أن يكون تلخيصا — بتصرف — للأفكار الرئيسية في كتاب « ظاهريات الروح » لهيجل ، وهو الكتاب الذي عده بيلي « أعظم

[ للترجم ]

(١) وتولى عام ١٩٤٠ .

(٢) هو روليه Hœralé في مجلة "Mind" ، المجلد ١٦ ( ١٩٠٧ ) ص ٥٤٩ .

ما أنتجه الفكر المثالي في الفلسفة الحديثة ، وهو يعرض — معتمدا على كتاب هيجل اعتمادا كبيرا — الطريقة التي ترتفع بها التجربة البشرية من مرحلة إلى أخرى ، مكوّنة تركيبات جديدة أخصب في كل مرحلة أعلى ، حتى تصل ، في مستوى الوعي الذاتي ، إلى وحدة الذات والموضوع ، التي تعلو فيها المستويات الدنيا ، من إدراك وفهم ، على ذاتها ونصل إلى أعلى وحدة لها . وهنا يعطى بيلي للديالكتيك الهيجلي ، الذي كان المذهب الهيجلي الإنجليزى يتجاهله عادة ، حقه كاملا ، وتظهر الفكرة ، ، لا على أنها مبدأ متحجر ثابت ، كما هي عند جرين وبراڤلى وبوزانكيت وغيرهم ، بل على أنها عملية حية تتقدم بطريقة ديالكتيكية . على أن هذا التجديد الذى اكتسب فيه بمحاكاة تفكير هيجل قد تأخر عن أوانه جيلا ، بمعنى أنه أنى بعد أن كانت الحركة الهيجلية فى إنجلترا قد تجاوزت بكثير مرحلة التقيّد الحرفى بهيجل ، وأصبح لها كيانها المستقل .

ولا يكاد يوجد أى ارتباط فكرى بين المثالية المطلقة التى ظهرت فى كتابات بيلي الأولى وبين الموقف المختلف تماما ، الذى نصادفه فى كتاب له ظهر بعد الحرب الأولى ، هو « دراسات فى الطبيعة البشرية » . ولا شك أن السبب الرئيسى لهذا التغير الملحوظ ، هو تلك التجربة التى أحس فيها إحساسا عميقا بمأساة الحرب العالمية الأولى وعدم وجود داع لها ، وهى المأساة التى أدت ، بما ولدته من اضطراب شامل ودمار هائل فى العلاقات البشرية ، إلى زعزعة تامة لإيمانه بالعقل الهيجلي الذى يحكم العالم ، بحيث لم يعد يقبل بعد ذلك أى تبرير . لذلك تحول بيلي إلى البحث فى الطبيعة البشرية . ويمكننا أن نقول إنه انتقل ، رجوعا ، من هيجل إلى هيوم ، إذ أصبح يجعل من الفردية العينية الإنسان موضوعا رئيسيا لاهتمامه الفلسفى . واقد ظهرت بالفعل نقاط اتصال بينه وبين هيوم ، من أمثلتها ، الاهتمام البالغ بتأكيّد العوامل غير العقلية فى التفكير والمعرفة ، والنظر إلى

جميع المشكلات الفلسفية بطريقة كلها تركّز حول الإنسان وتشبّه به . ولم تعد الفلسفة عند بيلي ، حينئذ ، طلباً للحقيقة الكلية أو وصول العقل إلى الوعي بذاته ، وإنما أصبحت مسألة شخصية محضة لكل مفكر ، تتجه أساساً إلى إرضاء حاجاته النظرية الفردية ؛ فهي السعى إلى بلوغ أقصى حد من الرضا يمكن أن يجلبه التفكير للفرد . والغاية الوحيدة للحقيقة هي الوصول بالذهن الإنساني إلى الانسجام والطمأنينة . مثل هذه التعاليم ، التي يظهر فيها ، بالإضافة إلى ما سبق ، تيار برجماني واضح ، تستتبع صبغ الفكر بصبغة ذاتية فردية نفسانية ، أي أنها تقلب تماماً اتجاه المثالية المطلقة الذي دافع عنه بيلي من قبل عن اقتناع كامل . وبالمثل أصبح ينظر إلى العلم نظرة تشبيهية بالإنسان ، بوصفه اختراعاً بشرياً يعبر عن نشاط بشري تدفعه حاجة ملحة . وهكذا فإن هذه المرحلة الأخيرة من مراحل تعاليمه ، التي أحرق فيها كل جسور ماضيه الفلسفي تقريباً ، قد استقرت أخيراً في تراث الفكر القومي الإنجليزي . وتلك هي الحالة الوحيدة لمثل هذا التطور ، وهي حالة لم تكن راجعة إلى اعتبارات باطنة ، وإنما إلى ظروف خارجية .

جون ألكسندر سميث John Alexander Smith

( ولد في ١٨٦٣ ) (١)

[ تعلم في إدنبره وكلية باليول بكفورد . عمل منذ ١٨٩٦ إلى ١٩١٠ محاضراً في الفلسفة بكلية باليول ؛ ثم أصبح في ١٩١٠ أستاذاً كرسي « وبنفليت » لفلسفة الأخلاقية والميتافيزيقية بكفورد ؛ وتقاعد في ١٩٣٥ .

مؤلفاته : « للمعرفة والفعل Knowing & Acting » ، محاضرة افتتاحية في ١٩١٠ ؛ « الفلسفة والتقدم بوسفه مثلاً أعلى للفعل Phil. & Progress as an Ideal of Action » بحث في كتاب « التقدم والتاريخ Progress & History » ، الذي نشره « ف . س . مارفن F. S. Marvin » ،

(١) وتوفي عام ١٩٣٩ .

[ المترجم ]

١٩٧٠ : « طبيعة الفن The Nature of Art » ، ١٩٧٤ : « الفلسفة بوصفها نمو فكرة الوعي الذاتي وحقيقته Phil. as the Development of the Nation & Reality of Self-Consciousness » بحث في كتاب « الفلسفة الإنجليزية للماصرة » ، نشره ج . هـ . مويرهيد ، المجموعة الثانية ، ١٩٧٥ : وقام ، بالاشتراك مع و . د . روس W. D. Ross ، بالإشراف على نشر « ترجمة أ كسفورد لأؤلفات أرسطو » في أحد عشر مجلدا ، ١٩٠٨ — ١٩٣١ : وقد ترجم كتاب « النفس De Anima » في هذه السلسلة ، عام ١٩٣١ ] .

لا يسعنا ، إذا شئنا أن يكتمل العرض الذي نقدمه ، أن نتجاهل ج ١ . سمث ، الذي اختتم به فرع الهيجليين . ولقد تلقى سمث تعليمه ، شأنه شأن الكثيرين من السابقين عليه ، في أ كسفورد ، وفي الكلية التي ظهرت فيها الحركة ، حيث اتصل شخصيا ، منذ وقت مبكر ، بممثلها البارزين ، مثل جويت ، وإدوارد كيرد ، وتلشيب ، الذي كان المشرف عليه في الكلية . كذلك استمد رصيذا من الأفكار الهيجلية من برادلي وبوزانكيت ، وإن كان ذلك بصورة أقل تمسكا بالأصل . على أنه عكف في الوقت ذاته ، اقتداء منه بالتراث السائد في أ كسفورد ، على دراسة الكتاب اليونانيين ، فكرس أبحاثا طويلة عميقة لأرسطو . وظل سنوات متعددة يُعد واحدا من أبرز الباحثين في أرسطو بإنجلترا ، وشارك بهذه الصفة في نشر ترجمة أ كسفورد الهامة لأرسطو ، التي ختمت في عام ١٩٣١ بترجمته الخاصة لكتاب « النفس » . ولقد كان إتمام هذا العمل ، وكذلك تأثيره العميق بوصفه معلما ، هما أهم مساهم به في ميدان البحث الفلسفي .

أما فلسفته الخاصة فليست لها أهمية كبيرة إذا ما قورنت بمساهماته السابقة ، كما أن قلة كتاباته يجعل من الصعب تقديم صورة دقيقة لها . ولقد مرت هذه الفلسفة بتقلبات وتغيرات كانت أكثر من أن تتيح لنا إدراجها تحت أية تسمية واحدة . بل إن افتقارها إلى الثبات هو بالفعل أبرز سماتها . وقد ألقى سمث ذاته ضوءا واضحا على هذه المسألة في عرضه

الشخصي لتطوره الفلسفي في كتاب « الفلسفة الإنجليزية المعاصرة » ، فهو هنا يقدم اعترافا غريبا ، في صراحة تصل إلى حد السذاجة ، فيقول إنه لم يدرك ضرورة التفكير في وضع مذهب فلسفي إلا عندما عين لشغل كرسي الاستاذية في الفلسفة — بل لشغل واحد من أهم كراسي الاستاذية في الجامعات الإنجليزية . ولقد أعانته على هذا التفكير المذهبي صدقة موفقة ، هي عثوره على مؤلفات كروتشه Croce في أثناء إقامة له في نابولي . ومنذ ذلك الحين شعر بأن واجبه يقضي عليه بالارتباط بمذهب الهيجليين الإيطاليين ( أي بمذهب جنتيلي Gentile فضلا عن كروتشه ) والعمل على كسب اعتراف الإنجليزية . وقد أسفرت جهوده ، في السنوات التي أعقبت الحرب الأولى مباشرة ، عن موجة قوية من الإعجاب بكروتشه (١) ، ولا سيما في أكسفورد ( حيث اشتد هذا الإعجاب بفضل زيارة قام بها كروتشه ذاته ) ، ولكن هذه الموجة تلاشت بسرعة . وقد حدد موقفه ، في كثير من كتاباته ، بأنه ضرب من مثالية كروتشه ، مع أخذ أفكار معينة عن جنتيلي ، وبذلك وجد لنفسه ، مؤقتا على الأقل ، ما يمكن أن يقال إنه موقف خاص به .

والفكرة الرئيسية في هذه المثالية ، التي عرضها أساسا في بحثه « الفلسفة بوصفها نموا لفكرة الوعي الذاتي وحقيقته » ، تتمثل في قوله بالطابع التاريخي للواقع . فالواقع في ماهيته ، تبعا لهذا الرأي ، ليس سكونيا ثابتا ، وإنما هو حركي متغير ، فله طابع العملية ، وهو حادث أصيل ؛ وهو تاريخي في جميع أجزائه وفي كل تعبير عنه . على أن تاريخيته لازمانية ،

(١) كذلك حاول بوزانكيت وولدن Carr Wildon ، في سنوات ما بعد الحرب الأولى ، أن يربط الفلسفة الإنجليزية بالفلسفة الإيطالية . واستطاع الآن أن أحيل القارئ ، فيما يتعلق بجهود الأول منهما ، إلى كتاب « بوزانكيت وأصدقاؤه Bosanquet & his Friends » ، نمرج ٨٠٠ مورهد (١٩٣٥) ، ص ٣٠٣-٣٠٤.

بمعنى أنها هي التحقق الأعلى للزمان ، أى الأزلية . وفضلا عن ذلك فهو روحى تماما ، ولا يوجد خارجه شيء روحى ، وبالتالي لا يوجد شيء حقيقى أو واقعى بالمعنى الكامل . أما ما نطلق عليه اسم « المادة » أو « الطبيعة » . فليس حقيقيا . ولو شئنا أن نعبر عن الواقع بطريقة إيجابية ، لقلنا إنه فاعلية خالقة لذاتها ، ولما كانت هذه الفاعلية روحية ، فإنها تعبر عن نفسها على أكمل وأفضل نحو فى الوعي الذاتى . ومن هنا فإن النشاط المميز للوعي الذاتى هو الفلسفة ، مفهومة على أنها النمو الذاتى للروح . والواقع كله يدخل فى نطاقها ، وهى ، من حيث المبدأ على الأقل ، قادرة على التغلغل فيه . وهنا نجد مرة أخرى ينتفع بفكرة هيكلية هى فكرة معقولة الواقع ، ويوجهها فى هذه الحالة ، فى رد فعل عنيف . ضد المذهب المطلق عند برادلى . وضد كل مذهب ذاتى أو برجمائى ( ولو أن إغراءات البرجماتية ، التى أسماها بالافلسفة *non-philosophy* <sup>(١)</sup> ، كانت أحيانا أقوى من أن يستطيع مقاومتها ) . فلسفة سمك هى مثالية موضوعية دياكتيكية بالمعنى الهيكلى ، تظهر فيها تلك التنوعات المميزة التى أدخلها الهيكليون الإيطاليون . المحدثون على مذهب هيكل .

---

(١) « الفلسفة الإنجليزية المعاصرة » نهر ج . هـ . مور هيد ، المجلد الثانى .

## القسم الرابع

### فلاسفة المثالية المطلقة

فرانسيس هربرت برادلى Francis Herbert Bradley

( ١٨٤٦ — ١٩٢٤ )

[ تعلم في « يونيفرسيتى كوليدج » ، بأكسفورد ، كان من ١٨٧٠ إلى ١٩٢٤ زميلاً في كلية مرتون " Merton " بأكسفورد .

مؤلفاته : « مسلمات التاريخ النقدي The Presuppositions of Critical History » ، ١٨٧٤ ، أعيد طبعه في « مجموعة المقالات Collected Essays » ؛ « دراسات أخلاقية Ethical Studies » ، ١٨٧٦ ، ( الطبعة الثانية ، ١٩٢٧ ) ؛ « مذهب اللذة عند سدجويك Mr. Sidgwick's Hedonism » ، ١٨٧٧ ، أعيد طبعه في « مجموعة المقالات » ، « مبادئ المنطق The Principles of Logic » ( الطبعة الثانية في مجلدين ، ١٩٢٢ ) ؛ « للظهور والواقع Appearance and Reality » ، ١٨٩٣ ، ( الطبعة الثانية ، مع تذييل ، ١٨٩٧ ، وقد أعيد طبعه مراراً ، وترجم إلى الألمانية في ١٩٢٨ ) ؛ « أبحاث في الحقيقة والواقع Essays on Truth & Reality » ، ١٩١٤ ؛ « مجموعة المقالات » ، في مجلدين ، ١٩٣٥ ( أعيد فيه طبع مقالات وانتقادات ، ويشمل بحثين لم يسبق لغيرهما ) .

انظر : د . ف . هـ . برادلى F. H. Bradley ، بحث تذكاري ألفه ا . ا . تيلور A. E. Taylor ، في « أعمال الأكاديمية البريطانية » ، المجلد الحادى عشر ، ( ١٩٢٤ — ١٩٢٥ ) ، ص ٤٥٨ — ٤٦٨ ؛ « التراث الأفلاطونى في الفلسفة الأنجلوسكسونية (١٩٢٥) » ، تأليف ج . هـ . مورهد ، ١٩٣١ ؛ « قاموس السير القومية Dict. of National Biography » ، ١٩٢٢ — ١٩٣٠ .

لا يفوق برادلى في أهمية النصيب الذى ساهم به في عرض المذهب المثالى ونشره في إنجلترا ، سوى جريرن وكيرد . غير أنه يُعد المركز الرئيسى لمرحلة جديدة في هذه الحركة . فـ كل ماتم حتى الآن يعد ، بدرجات متفاوتة ، مجرد جهد تمهيدى ، هو عرض لعالم الأفكار الجديد في صورة ترجمة وتفسير وعرض ومحاكاة ونقد . وإذا استثنينا جريرن ، فإننا لانصادف حالة واحدة تستحق الاهتمام صيغت فيها المادة الجديدة وعرضت بطريقة مستقلة .



لأما عند برادلى ، فقد شب المذهب المثالى الإنجليزى عن الطوق ، وبدأ يسلك طريقا خاصا به . ولقد كان برادلى أول من تناول هذا المذهب بطريقة خلاقة ، وأول من جرؤ على أن يضع بذور مذهب خاص به فى الأرض التى فتحت حديثا . بل لقد كان واحدا من القلائل من عظماء بناء المذاهب ، وواحدا من أجرا المفكرين التأملين الذين أنجبتهم إنجلترا ومن أكثرهم أصالة . وهو يحتل فى الفكر الإنجليزى الحديث منزلة رفيعة ، وربما أرفع منزلة . على الرغم من أن أعماله الفلسفية مازالت تثير نزاعا شديدا حاميا ، وربما ستظل تثيره طويلا ، فلا يكاد يوجد مفكر آخر ساهم بمثل مساهم به فى إثارة الاهتمام الأصيل بالفلسفة .

ولقد كان كل النجاح الهائل الذى أحرزته فلسفة برادلى يرجع إلى جهوده من حيث هو كاتب فحسب . ذلك لأنه ، على الرغم من أنه ظل زميلا فى كلية با كسفورد لمدة تزيد على نصف قرن ، لم يتول التدريس أبدا ، وإنما عاش فى كليته أشبه ما يكون بالناسك ، لا يصل إليه إلا أصدقاء قلائل ، عاكفا على استخلاص أفكاره — وكان اعتلال صحته هو الذى فرض عليه هذه العزلة . ولقد تجلّى التقدير الرفيع الذى كان يتمتع به خارج الأوساط الفلسفية وداخلها ، تجلّى ذلك التقدير على الملأ فى تلك المنحة الملكية التى نالها قبل وفاته بقليل ، وهى وسام الاستحقاق Order of Merit ، الذى كان برادلى أول فيلسوف يناله . وقد كرمه إخوانه من الفلاسفة فى ذلك الإهداء الحافل بالمعاني الذى صدر به المجلد الثانى من كتاب « الفلسفة الإنجليزية المعاصرة » ، وهو : « إلف . ه . برادلى ، حامل وسام الاستحقاق ، الذى دانت له الفلسفة الإنجليزية بالقوة الدافعة التى أضفت عليها حياة متجددة فى عصرنا » .

ونستطيع أن نوضح مكانته فى المثالية الإنجليزية إذا لاحظنا أولا أنه ظل تقريبا غير متأثر بكانت على الإطلاق ، وإنما كان يدين لهيجل بكل

ما أتاه من الخارج تقريبا . على أن علاقته بهذا الأخير كانت دائما موضوع خلاف . وكثيرا ما كان هو ذاته يرفض أن يسمى هيجليا ، على أساس أنه لا يعرف بأى شيء كان يدين لهيجل ، وإلى أى مدى كان دينه هذا . ومن الأمثلة الدالة على ذلك ، هامش فى أحد كتبه اعترف فيه بدينه لهيجل ، ثم أضاف : ولكن ينبغي أن يذكر القارى أنى أنا وحدى المسئول عما أقول .<sup>(١)</sup> وفى وسعنا ، إذا تأملنا الأمر من وجهة نظر عامة إلى أقصى حد ، أن نقول إنه تلقى من هيجل القوة الدافعة الأولى للتفكير المستقل ، وإن التفكير الهيجلى يتغلغل بعمق فى فلسفته ، فى مجموعها وتفصيلها ، غير أن كل ما أخذه عن هيجل أو غيره قد صهر فى بوتقة ذهنه الخاص وأضيفت عليه صورة مميزة . ومن المؤكد أن تأثير هيجل قد ضعف مع نمو مذهب برادلى ونضوجه .

كذلك ذهب البعض إلى وجود بعض أفكار رئيسية اسينوزية لديه . ولهذا رأى شيء من الصحة . وقد جذب برادلى ذاته فلسفة هربرت Horbart بوصفها تريباقا مفيدا ضد هيجل ، وتدل بعض أجزاء مذهبه المبتايزينى على أنه قد عمل بنصيحته الخاصة هذه . كذلك كانت هناك بعض مظاهر التقارب بينه وبين شلنج ، كما كان يبدى نوعا من الإيثار لشوبنهاور . وإن لم يكن قد أخذ عنه إلا قليلا جدا من الأفكار . وهناك فلاسفة ألمان آخرون أثروا فيه فى ميادين خاصة ، مثل لوتسه وسيجارث فى المنطق ، وفاتكه Vatke فى الأخلاق ، وفولكان Volkman فى علم النفس .

ولكن لم يكن لواحد من هؤلاء تأثير حاسم بآية حال . فلسنا نملك إلا أن نؤكد أن برادلى هو الذى صاغ فلسفته الخاصة ، التى انبثقت عن أصالة فكرية حقيقية . ونمت ونضجت فى جوها الخاص . على الرغم من رفضه المتواضع

(١) - «دراسات أخلاقية» ، الطبعة الثانية ، ص ١٤٨ ، هامش ، النظر هامش ص ٢٣ -

لكل وصف له بالأصالة، وهو رفض تقديره المرء متكلفا في بعض الأحيان، فإننا لا نملك إلا أن نعدده مفكرا مستقلا إلى أبعد حد، بل مفكرا هوائيا عنيدا. وهذا واضح في كل سطر كتبه، وفي جمود أسلوبه وخشونته، وفي طريقته الجافة، التي تكاد تكون قاسية عنيفة، في التخلص من خصومه، وفي الطريقة التي ألف بها كتبه، وهي الطريقة التي لا يحس معها المرء أن هذه الكتب عرض هادئ موضوعي محكم، وإنما يشعر بأن الكاتب يخاطب ذاته، أو يجري مع القارئ محادثة منطلقة بلا قيود، تكون أحيانا بسيطة وصریحة إلى أقصى حد، وأحيانا أخرى تتخلها دعايات جافة خفيفة الوقع أو لاذعة، واستطرادات تهكمية ساخرة، واندفاعات ثائرة، وسخرية من خصومه أو من نفسه. ولقد كان يحب المواقف الممتنعة، ويؤثر غير المألوف، ويتنقل بين الأضداد ويضطرب للتناقضات، ويخلق عاليا، ولكنه نادرا ما كان يدع أقدامه تترك الأرض الصلبة، وكان سفسطائيا، شكاكيا، توكيديا، صوفيا، في آن واحد. ومن هنا كانت فلسفته تقسم بكل ما في الحياة من تنوع وتلون، وبما فيها من فردية لا تتكرر أيضا، إذ إن أي تقليد لها لا يمكنه أن يحتفظ بقوامها ومذاقها المميز. فضلا عن ذلك فقد كان تفكيره مرنا إلى حد غير عادي، فكان يؤثر المواقف الانتقالية على النتائج النهائية، ويعمل على الدوام على صهر هذه المواقف وإعادة تشكيلها في دياكتيك ذهنه غير المستقر. ويتميز فكره كله بقدر غير قليل من نزعة الشك، ولكنها ليست نزعة الشك المميزة لذهن هدام، بل لذهن حي مصقول إلى حد بعيد، يعلو بإرادته على الأشياء ويتمتع باللهو معها، بدلا من أن يقبض عليها ويكتفى بحقيقة واحدة لا يمكن مع ذلك أن تكون نهائية. وإنه لذكرنا كثيرا بطريقة هيوم الاستخفاف، المفتقرة إلى الشعور بالمسؤولية، في معالجة مشكلاته. ولم يكن لبرادلي اهتمام كبير بالدياكتيك الهيجلي منظورا إليه على أنه منهج فلسفي دقيق، ولكنه يطبقه على نحو ضمني في طريقته المرنة

في الانتقال على الدوام من موقف إلى آخر . ويمكننا أن نسمي طريقته دياكتيكية ، طالما أننا نعني بذلك ارتقاء ذهن أشد قلقا من أن يقنع بنتائج يقينية مزعومة ، إلى مستويات للفكر تزداد علوا . فلذة البحث والكشف أعظم عند برادلي من لذة الامتلاك . « فعلينا ، في الفلسفة ، ألا نسمى إلى الرضا المطلق . . . » فالفلسفة ليست إلا ممارسة جانب واحد من طبيعتنا والتمتع به .<sup>(١)</sup> والنوع الوحيد المشروع من الشك هو التخلي عن أمل الوصول في أي وقت إلى امتلاك نهائي للحقيقة . أما ذلك الذي يطلق عليه عادة اسم نزعة الشك فإنه يسميه بالقطعية الانتحارية suicidal Dogmatism

غير أن برادلي كثيراً ما كان يعبر ، بنفس المرونة والحيوية التي أبرزنا أهميتها ، عن موقف مخالف تماماً ، فالحقيقة « هي ما يرضى العقل Intellect » و « الفلسفة ترمي إلى الرضاء العقلي ، أي بعبارة أخرى إلى الحقيقة النهائية »<sup>(٢)</sup> ، ذلك هو الموقف الذي استرشد به في تأملاته الميتافيزيقية — أعني الحاجة إلى الأمان والنظام ، والسعي النظري إلى التغلب على كل ما هو مختلط متناقض ، بغية الوصول إلى نظرة منسجمة إلى العالم يجد ذهن فيها طمأنينة . ويدولى أن هذا هو الأساس العاطفي لميتافيزيقا برادلي الرفيعة في « المطلق » . فهو يحاول بحماسة صوفية خالصة ، أن يفهم المطلق ويتأمله بوصفه مستقر النفس ، وذلك بخشوع فيه تقديس ، وباستسلام خائر إلى حد ما ، يقف على نقيض ذلك الشك الجريء المرن الذي بينا أنه يمثل الوجه الآخر من طبيعته .

وفي ضوء ما سبق ينبغي لنا أن نتأمل العداء المزير الذي حمل به البرجماتيون على مذهب برادلي وسخروا به منه سخيرية لاذعة . فأصل النزاع إنما هو

(١) مقالات من الحقيقة والواقع ، ص ١٣ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١ و ١١ وما يليها .

الاختلاف الكامل في المزاج والموقف الكامن من وراء كل من  
الفلسفتين : أعنى التقابل بين العقلية المغامرة المناضلة التي تحب أن تجوب  
خلال العالم وتغيره ، وبين العقلية الخائرة الحريصة على الطمأنينة والهدوء ،  
والتي تغلق نفسها في مذهب وتلتزم الطريق الواسع المؤدى إلى الحقيقة  
المطلقة . ولا شك في أن الاختلاف أساسى ، وأن الخلاف الطويل المبرر  
بين برادلى وشيلر ينبغى أن يعد تعبيراً عن هذا الاختلاف .

وسوف نتناول أعمال برادلى الفلسفية حسب الترتيب الزمنى  
لتطورها ، فنتحدث أولاً عن مذهبه الأخلاقى ، ثم منطقته ، وأخيراً عن  
ميتافيزيقاه . ولقد كان كتابه في الأخلاق من أوائل مؤلفات المدرسة  
المثالية ، فظهر بعد وقت قصير من نشر مقدمتى جريرن إلى هيوم ، وترجمة  
ولاس للنطق الأصغر عند هيجل ، وقبل وقت قصير من ظهور الكتاب  
الأول لإدوارد كيرد عن كانت . ولقد كان ذلك الكتاب ، الذى سبق  
« المقدمة Prolegomena » لجريرن بسبع سنوات ، أول مؤلف يقوم بمهمة  
«الواسطة لنقل أخلاق المثالية الألمانية إلى الإنجليز ، وبذلك كان من المعالم  
الأساسية فى المجرى التاريخى للفلسفة الأخلاقية الإنجليزية . وفى هذا  
كتب بواز نكيت ، بعد سنوات متعددة ، يقول « لقد كان نشر ف . ه .  
برادلى لكتابه « دراسات أخلاقية » ، فى نظر الكثيرين منا ، حادثاً غير  
مجرى تاريخ ذلك العلم (١) » .

ففى مذهب برادلى الأخلاقى تجد نزعتة الهيكلية أوضح وأصدق تعبير عنها ،  
وتتجلى بأوضح صورة تلك التجربة الشخصية العنيفة التى تعلق بها بالمذهب  
الهيكلى ، وذلك على الرغم من قلة استخدامه لمصطلح هيجل . وهنا أيضاً يشير  
فى فقرة ماثورة إلى الفلسفة الألمانية على أنها الفلسفة الصحيحة ، والوحيدة

(١) فى كتاب « الفلسفة الإنجليزية المعاصرة » ، المجلد الأول ، ص ٧٥ والصفحة التالية .

القادرة على إنقاذ الفكر الإنجليزى من عزلته الخطرة . وهنا كذلك نجد أول نقد هدام ، بأسلحة هيكلية ، للفلسفات الأخلاقية التقليدية البالية التى قالت بها مذاهب المنفعة واللذة والتجريدية بوجه عام . وأخيراً فعلى الرغم من كل اعتياده على هيكل وغيره من الألمان فى هذا الكتاب المبكر فى الأخلاق ، فإنه يظهر فيه مفكراً مستقلاً من الطراز الأول ، قدر له أن يطور تلك القوة الدافعة الجديدة التى تلتقيها من الآخرين ويسير بها إلى الأمام .

ويرى برادلى أن الغاية الأخلاقية هى قبل كل شيء اكتمال الذات وتحقيقها . ولكن ما هى هذه الذات ؟ إنها قطعاً ليست هى الذات البشرية ، التى هى مجرد مجموعة أو سلسلة من العواطف أو الإرادات أو الإحساسات الجزئية . وإنما هى تبتدى منذ البداية بوصفها كلاً واحداً أو منهجياً ، وحقيقة كلية عينية ، تعد أجزاءها المتعددة أو المتلاحقة مجرد مراحل أو عوامل بالنسبة إليها . فالذات التى تعرفها الأخلاق ذات أعلى ، ذات كلية تعلو على هذه الذات أو تلك ، على ذاتى أو ذاتك أو أية ذات أخرى . ومن هنا فإن القاعدة الأخلاقية : . حقق ذاتك بوصفك كلاً لا متناهيًا ، تعنى : حقق ذاتك بوصفك عضواً واعياً بنفسه فى كل لا متناه ، عن طريق تحقيق هذا الكل فى ذاتك<sup>(١)</sup> ، وباتخاذ هذا الموقف يبين برادلى كيف أن الغاية الأخلاقية لمذهب اللذة وهى تحصيل اللذة لذاتها ، تعجز عن التعبير عن المعنى الحقيقى للأخلاقية . وإن موقفه ليمثل تخلصاً كلاسيكياً من كل الأخلاق المضحلة التى تعبر عنها فكرة اللذة والسعادة والمنفعة ، كما يمثلها مل وسبنسر وستيفن وسدجويك ( وقد هاجم برادلى هذا الأخير فى كتيب خاص نشر بعد عام من ظهور كتابه : دراسات أخلاقية ، ) كذلك رفض برادلى الغاية الأخلاقية المقابلة ، وهى أداء الواجب لذاته ، على أساس أنها بدورها

(١) دراسات أخلاقية ، الطبعة الثانية ، ص ٨٠

تتطوى على تحيز ضيق الأفق في الجانب المضاد ، إذ إنها تكتفى بأن تستعير عن الجزئ المحض بالكل المحض ، وتأتى بمبدأ مجرد شكلي تماماً ، لا يمكن أن يتخذ مرشداً في السلوك . فلا جدوى من أن يقال للبرء إن عليه أن يفعل ما هو خير لأجل الخير ، إذا لم يحدد له المضمون العيني للخير . وواضح أن برادلي هنا يهاجم النزعة الشكلية الصارمة في الأخلاق الكانتية ، وإن يكن يعترف بأن النظرية التي ينتقدها ليست نظرية قيل بها فعلاً ، بقدر ما هي نظرية وضعت لغرض الجدل . وينكاد نقده لهذا المذهب الأخلاقي بمائل تماماً نقد هيجل له .

هاتان النظريتان اللتان تتحيز كل منهما إلى جانب واحد ، هو اللذة لذاتها أو الواجب لذاته ، ينبغي تجارزهما من وجهة نظر أعلى يسميها برادلي بوجهة نظره مركزى my station وواجبانه ، . ولوجهة النظر هذه ، فى أساسها ، معنى يعادل معنى قاعدة تحقيق الذات ، إذ إن الإنسان ، الذى لا يمكن أن يكون مجرد فرد منعزل عن المجتمع ومستقل عنه - فمثل هذا الفرد تجريد لا معنى له ، وإنما هو كائن اجتماعى - هذا الإنسان لا يستطيع أن يحقق ذاته الحققة ، أو الإرادة الخيرة أو الاجتماعية التى ينبغى تمييزها من ذاته الشخصية البحتة ، الباحثة عن لذاتها فحسب ، إلا عندما يكون قد اهتدى إلى مركزه وواجبانه ، أى وظيفته داخل كل اجتماعى . وهنا يحطم برادلي أساس المذهب الفردى الأخلاقى الذى يلزم الفلسفة الأخلاقية الإنجليزية من لوك إلى سبنسر . وهو يتخلص فى الوقت ذاته من الثنائية الكانتية التى تحفر هوة لا تعبر بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون . فالواجب الذى يفرضه على مركزى لا يمكن أن يكون عملية لا تنتهى يقترن فيها ، الوجوب ought ، الدائم بتكرار لا ينتهى لكلمة . ليس بعد ، ، وإنما ينبغى أن يتحقق هنا والآن . فمن الواجب أن يكون المثل الأخلاقى الأعلى قابلاً للتحقق فى المجال الزمنى للوجود ، وفى ذلك

الرضا الناجم عن التحقق الفعلي للواجب . وبفضل هذا القضاء على التوتر بين الوجوب وبين الوجود ، يجعل برادلى للحياة الاخلاقية جواً أرق وأرحم ، يقترب فيه الحب بالواجب ويعينه .

فما هي الغاية الاخلاقية إذن ، إن لم تكن هي المثل الأعلى القصوى الذى لا يُبلغ ، الذى قالت به الأخلاق السكاتية ؟ إن برادلى ، بقدر ما يمتدى إلى معيار السلوك الاخلاقى فى المجتمع الذى يعيش فيه المرء ، وفى عرفه وقوانينه ونظمه ، ويرى أنه ليس من المرغوب فيه أن يسعى المرء إلى تجارزه ، بهذا القدر يكون برادلى قد تمسك بتراث بلاده ، الذى يستبعد السيادة المطلقة للفرد ، ويخضعه بشدة للمعايير الاخلاقية للمجتمع ، ولهذا السبب نفسه يرفض برادلى أخلاق الإنسان الأرقى ، ومعها أخلاق المجتمع الفاضل ( Utopian ) بوصفها ابتداعات ذهنية لا يمكن أن تكون لها سلطة على السلوك العملى فى الحياة اليومية .

على أن برادلى ينتقل ، من بعد هذه الأخلاق الفعلية الواقعية ، إلى تشييد " أخلاق مثالية " ، أى نظام أخلاقى من مستوى أعلى ، لا تعود فيه الذات حبيسة بيئتها الاجتماعية . وهو فى هذه المحاولة ، التى يتخلى فيها جزئياً عن الموقف الذى بلغه من قبل ، يقدم إلينا لمحة لعالم القيم لا يكون من الضرورى فيه إقامة علاقة مباشرة مع البيئة الاجتماعية ، وإنما الواجب أن تُطلب قيمة لذاتها ، شأنها شأن سعينا إلى الحق والجمال . وهكذا فإن برادلى يعترف هنا بجمال للكمال غير الاجتماعى . ومع ذلك فلا يمكن أن يخلق هذا المستوى الأعلى فى الهواء فوق المستوى الأدنى ، وإنما ينبغى أن تكون جذوره متأصلة فى هذا الأخير وأن ينمو منه . فالأخلاق المثالية ترتكز على الأخلاق الاجتماعية . وهكذا ينسجم تفكير برادلى مع حساسية الشعب الذى ينتمى إليه : فهو يحسد فكرة " الجنتلمان " ، الإنجليزى ،



وهي فكرة لا تحتل خروجاً عن الحواجز الاجتماعية والقومية . وهو في هذه النقطة أقرب إلى هيوم بكثير منه إلى هيجل .

وإذا نظر برادلي إلى الغاية الأخلاقية على أنها شيء ينبغي تحقيقه في الواقع الحال ، فقد تجاوز ثنائية كانت بطريقة هيجلية . ولكن يتضح بعد ذلك أن هذا الموقف الرفيع ذاته إنما هو موقف تمهيدى خصب ، يلقى به برادلي بدوره في دوامة دياكتيكة الذي لا يتوقف عنده . ذلك لأن الثنائية القديمة ، التي سبق حلها ، بين الوجوب والوجود ، تطيل برأسها من جديد عندما يتضح أن الفكرة الأخلاقية لا يمكن أبداً أن تتحقق تحققاً كاملاً . ففكرة الوجوب أو الإلزام تنطوي على تناقض : إذ إنه حيث لا يوجد نقص لا يوجد إلزام ، وحيث لا يوجد إلزام لا توجد أخلاقية . ولا يمكن أن يوجد حل مباشر لهذه المشكلة القائلة بوجود تباين بين الأخلاق ، بوصفه شيئاً متحققاً بالفعل أو قابلاً للتحقق ، وبينه من حيث هو غاية مثالية مرغوب فيها . ومعنى ذلك أن من واجبنا ، إذا شئنا الخلاص من هذه المشكلة ، أن نترك مجال الأخلاق ونفكر قدماً في مجال يعلو على الأخلاق ، لا تعود فيه فكرة الإلزام حاضرة . هذا المجال الأعلى هو الدين ، الذي هو تحقق الأخلاقية أو اكتمالها الرفيع ، بمعنى أن الذات المثالية ، التي تظل دائماً ، بالنسبة إلى الأخلاق ، شيئاً ينبغي أن تكونه ، تتحقق بالفعل في الدين . هذه الأفكار تقضى إلى تلك التأملات التي لم ينتقل برادلي إليها إلا عند صياغته لمذهبه الميتافيزيقي بعد سنوات عدة .

وسوف نرى ، عندما نعرض لهذا المذهب ، أن الخير الذي يلحقه تناقض ذاتي لا يحق له ادعاء الواقعية بالمعنى الدقيق ، وإنما ينتمي فقط إلى عالم الظواهر غير الواقعي . وعلى ذلك فحتى حين يتجاوز هذا الخير ذاته في الدين ، فإنه لا يجد في ذلك إلا حلاً أو تحققاً تمهيدياً . وفي « المطلق » وحده ، بوصفه الواقع الحقيقي ، يصل الخير — ومعه ضده ، أي الشر —

إلى مستقره النهائي ، بعد أن يفقد طبيعته الخاصة في تحول كامل . وهكذا فإن اكتمال الأخلاق عند برادلى إنما يكون في متفاوتات المطلق عنده .

ولقد أحدث برادلى ، بكتابه « مبادئ المنطق » ( ١٨٨٣ ) ، انقلاباً في المنطق يوازي ذلك الذى أحدثه في الأخلاق بكتابه « دراسات أخلاقية » ، إذ إنه زعزع في هذا الميدان بدوره ، سيطرة التجريبيين التى كانت كاملة تقريباً ، وفتح باب فروع جديدة للبحث فى إنجلترا . ولقد وصف وليم جيمس ، وهو خصم برادلى ، كتابه الأخير هذا ، مثلاً وصف بوزانكيت كتابه الأول ، بأنه قد « غير مجرى تاريخ ذلك العلم » ، وقال « لقد فرغت لتوى من قراءة « المنطق » لبرادلى ، باهتمام وحماسة لا حد لهما . . . ومن المؤكد أنه من الكتب التى غيرت مجرى تاريخ الفلسفة الإنجليزية . ولزام على التجريبيين ، وعلى القائلين بالمعقولية الشاملة معا ، أن يسوا حساباتهم معه . فهو يخرج عن كل الاتجاهات التقليدية ، (١) .

وعلى الرغم من أن ظل هيجل كان يحتفى وراء منطق برادلى بدوره — ولكن من مسافة أبعد ، وبوضوح أقل — فقد اعترف برادلى بأنه كان مدينا للوتسه أولاً ، ومن بعده لزيخفارت وغيره من المناطق الألمانية . فبعضهم استطاع أن يرد بحجة قوية مضادة على النزعة النفسية لدى المناطق التجريبيين الإنجليز . وكانت مهمته الأولى هى إعمال معول الهدم فى أسس هذه النزعة بكشف زيف الأساس النفسى للمنطق التجريبي ، أعنى فكرة الترابط ، التى تكون المعرفة بالنسبة إليها ربطاً بين عناصر عقلية لها طابع فردى مفكك . فهو هنا يتساءل : كيف يتسنى لواقعة منعزلة لا تكاد تظهر حتى تختفى ، أن تكون هى مناسبة عودة ظهور شئ كان ماثلاً ( a presentation ) ؟ ، وما هو

(١) «رسائل وليم جيمس Letters of William James» ، ١٩٢٠ ، المجلد الأول ، ص ٢٥٨ .

نوع العناصر التي تُربط معا في الإدراك الحسى على نحو يجعل عودة ظهور أحدها في الوعي مؤديا إلى الإتيان معه بالباقيين ؟ . إن ما يأتى من جديد في الوعي لا يمكن أن يكون هو نفس ما كان فيه من قبل ، وكل عنصر في الذهن يحمل في ذاته نوعا من الجدة ، إذ إنه يدخل في علاقات جديدة ، وبذلك يتغير طابعه ، حتى لو كان المظهر الوحيد لذلك التغير هو تلك النقطة الزمانية الجديدة التي عاد فيها إلى الظهور . أما ارتباط محتويات العناصر الماثلة ( presentations ) فينبغى أن يتركز على شيء مشترك أو متماثل في هذه المحتويات ، ولا يمكن أن يحدث بين جزئيات خالصة زائلة . ومن هنا وضع برادلى قضيته القائلة إن كل ارتباط إنما يحدث بين كليات . وقد اعترف برادلى بأنه كان يدين لهيجل بهذه الفكرة الهامة ، الكفيلة بهدم كل المذهب الترابطى ابتداء من هارتلى وهيوم حتى مل « وبين » ، كما اعترف بأنها هي التي أخذت بيده من الظلمات إلى النور . والواقع أننا لا نكاد نستطيع الآن . بعد أن تعودنا تماما على هذه الفكرة بفضل جهود المفكرين الهيجليين خلال عشرات السنين ، أن ندرك دلالتها بالنسبة إلى المرحلة التي كان علم النفس والمنطق الإنجليزيين قد بلغاها عندئذ . ويكفى أن برادلى ، عندما نشر الطبعة الثانية من « مبادئ المنطق » ، بعد فترة دامت حوالى أربعين عاما ، قد رأى أن أى نقد آخر لخصومه السابقين إنما هو لغولا داعى له ، واكتفى ، فى إشارته إلى بعض المنتسبين المتأخرين بالمعسكر التجريبى ، بقوله : « دع الموتى يدفنون الموتى » (١) .

وإن كتاب برادلى ليهختلف ، حتى من حيث المظهر الخارجى ، عن البحوث المألوفة فى المنطق . فهو ليس منطقا صوريا ولا رياضيا ولا تجريديا ، وإنما هو بحث أصيل إلى أبعد حد ، شخصى تماما ، فى قوانين الفكر

والصور المنطقية . وهو موجه أساسا ، وبعنف ، ضد منطق التجريبيين ، ويرجع تأثيره التاريخي إلى أنه قضى على التأثير القوي لمنطق مل ، وأبعد تعاليمه عن الميدان عشرات متعددة من السنين ، إلى أن حدث ، فى وقت قريب جدا ، رد فعل بطى . لصالح مل إلى حد ما . وأفضل ما يوصف به منطق برادلى هو أنه منطق ميتافيزيقي ، بمعنى أن المسلمات الميتافيزيقية تأثيرها الفعال فيه ، أو أنها على الأقل تكون أساسه الخفى . ولكنه لا يناظر إلا على نحو عام ذلك النوع من المنطق الذى يتجلى بأنقى صورته فى هيجل ، والذى لا تربطه به إلا نقط التقاء متفرقة ، والذى نادرا ما استخدم ماهيته ، وهى الديالكتيك ، إذ تجنب تماما الارتقاء الديالكتيكي من مقولة إلى أخرى . وفضلا عن ذلك فإن علاقته بالمذهب الأرسطى التقيدى . فى المنطق سطحية إلى حد ما ، وذلك على الرغم من أنه مبنى جزئيا على نتائجه : فهو يتخلى عمدا عن فكرة التصور ، وينقد فكرة القياس بقسوة .

وفى مقابل التقسيم الثلاثى المؤلف للبحث المنطقى إلى تصور وحكم أو تصديق ، واستدلال ، يقتصر برادلى على الأخيرين . وهو يبدأ بالحكم لأنه يرى أن الحكم ، لا التصور ، هو الصورة المنطقية الأولى أو الوحدة الأصلية للفكر . وهو يعلن منذ البداية أن الحكم لا يمكن أن يكون ربط فكرة بإحساس أو بفكرة أخرى ، على أساس أن العوامل النفسانية لا دخل لها فى هذا الأمر . وإنما الذى يهمننا فى الحكم معناه ، ومضمونه . الفكرى السكى ، الذى يختلف اختلافا أساسيا عن أية حادثة أو واقعة ذهنية . فالمعنى أو الفكرة المنطقية يظل على ما هو عليه مهما تغيرت المعطيات ، وهو ذلك الجزء من مضمون الوعى ، الذى أوقفه الذهن وأخرجه بالتالى من مجال الزمان . وعلى حين أن الحادثة الذهنية جزئية فريدة موجودة واقعا ، فإن المعنى لا ينتمى إلى مجال الوجود الفعلى على الإطلاق ، وإنما هو فكرى كلى . وهكذا فإن نظرية برادلى المنطقية إنما

هى محاولة لإيجاد انفصال واضح بين المجالين المنطقي والنفسي ، بين العوامل الفكرية الأولية من جهة ، وبين الوقائع البحتة للتجربة المعرفية من جهة أخرى ؛ والفكرة الرئيسية فيه هى أن من المستحيل قيام حكم أو أية صورة أخرى للمعرفة مالم يوجد عامل يظل فى هوية مع ذاته طوال تغير الوقائع وصيرورتها . كل هذا يعبر عنه برادلى فى تعريفه المشهور للحكم - وهو التعريف الذى أثار جدلا كثيرا ، والقائل إن الحكم هو « الفعل الذى يحيل مضمونا فكريا ( يُعترف به بما هو كذلك ) إلى واقع متجاوز لذلك الفعل » (١) . فكل حكم ينطوى بالضرورة على مثل هذه الإحالة أو الإضافة ، وكل إضافة تفترض مقدما ، إلى جانب الطرفين المضافين ، وحدة تجمعهما سويا . وهكذا يودى نقد فكرة الترابط إلى مذهب خاص فى الحكم .

ولكن على الرغم من كل انتقادات برادلى للنزعة النفسية ، فإنه هو ذاته لم يسلم منها . ذلك لأنه عرف الحكم تارة بأنه فعل ، أى بأنه شيء ذهنى ، وتارة أخرى بأنه ما يقصده الفعل أو يعنيه ، أى القضية المنطقية . ومثل هذا الإخفاق فى الفصل بما فيه الكفاية بين المنطق وعلم النفس ، يحول دون إدراجه ضمن ممثلى المنطق الخالص ، ولقد كان تأرجحه بين الموقفين هو النقطة التى تركزت عليها انتقادات خصومه ، وأولهم كوك ولسن Cook Wilson ، ثم ستوت Stout ورسل وغيرهما .

وعندما وصل برادلى إلى صياغة مذهبه فى الميتافيزيقا ، اهتدى إلى وجهة نظر جديدة يعرف منها الحكم . فقد أدى به تمييزه بين الواقعى والفكرى على أساس أن أولهما هو « هذا that » ، وثانيهما هو « ماذا What » ، أى هما الاسم والصفة على التوالى - أدى به ذلك التمييز إلى النظر إلى الحكم على أنه إيضاح لـ « هذا » بوصفه موضوعا ، عن طريق « ماذا » ، بوصفه

محمولا ، أى أنه هو أن نطلق على الواقع صفة لا تكون واقعة وإنما فكرة ، أما الموضوع فهو وجود فعلى . وتتوقف حقيقة الحكم على نوع الواقع الذى تصدر عنه التأكيد ، وبين برادلى فى ميتافيزيقاه أن الوجود الفعلى جزئى متناقض دائما ، ولا يعبر إلا عن وجه جزئى من كل أكبر . ومن ثم فإن أى حكم يشير إلى واقعة محددة ، يتصف دائما بالخطأ ، وغاية ما يبلغه هو حقيقة جزئية أو نسبية فحسب . والحكم الكامل هو الذى يكون موضوعه ، على طول المدى ، هو الواقع كاملا ، أو المطلق . وهكذا يندمج برادلى منطقته فى ميتافيزيقاه ، كما فعل هيجل .

ويعاود برادلى ، فى مذهبه فى الاستدلال ، مهاجمة أخطاء تقليدية متأصلة . ذلك لأن نفوره من كل قبول أعمى للسلطة جعله يرفض نظرية القياس بأسرها ، بوصفها محض خرافة . فالقياس يزعم ، أنه أنموذج كل استدلال وبرهان منطقى ، غير أن هناك صورا متعددة للاستدلال والبرهان لا يمكن إدماجها فيه . ويضرب برادلى ، لتوضيح رأيه هذا ، أمثلة يثبت بها أن المقدمة الكبرى كثيرا ما تكون غير ضرورية<sup>(١)</sup> . فإليه يرجع الفضل فى الإشارة إلى عدد من الصور غير القياسية للاستدلال ، وهى الصور التى لم يكبد يلاحظها المنطق التقليدى على الإطلاق .

والفرق بين الاستدلال والحكم هو أن الأخير أقرب كثيرا إلى الإدراك المباشر ، أى إلى المادة الحسية . فقبل إمكان قيام أى استدلال ، ينبغى أن يطرأ قدر معين من التنظيم على المادة الخام للمعرفة ، وهذه هى مهمة الحكم أساسا . ويمكن القول إن الحكم يبدأ ، بصورة بسيطة أولية ، فى التجربة الحسية ، على حين أن الاستدلال يفترض مقدما أساسا عقليا . وهذا لا يعنى أن الاستدلال يبدأ حيث ينتهى الحكم ، إذ إن برادلى يؤكد

(١) المرجع نفسه ، المجلد الأول ، ص ٢٤٧ والصفحة التالية .

أن الصور البدائية للاستدلال تظهر في البدايات الأولى للحكم ، وعلى أدنى مستويات الحياة المعرفية . غير أن الحكم الصريح هو قطعاً سابق منطقياً ، إن لم يكن نفسياً ، على الاستدلال الصريح ، وإن يكن الاثنان معا وجهين لعملية واحدة . وهكذا فإن فكرة برادلي هذه تستتبع فكرة بوزانكيت ( التي كانت وثيقة الصلة بها ) ، إذ تجعل مهمة المنطق هي عرض نمو الذهن . وتتبع العمليات المنطقية طوال مراحل نموها المتعددة .

وعند تحليل الاستدلال ، يمكننا أن نميز بين ثلاثة عناصر : المعطيات ، والفاعلية العقلية في الاستدلال من هذه المعطيات ، والنتيجة . ويتصف عنصر الفاعلية بأنه مركب ، أي أنه تركيب فكري ، وفي الارتباط الزائد الذي يضاف ، عندئذ ، إلى الاتصال الأصلي القائم بين المعطيات ، تمر هذه المعطيات بتغير وتنتقل إلى وحدة جديدة . ذلك لأنه حيث لا يظهر شيء جديد لا يكون ثمة استدلال . على أن برادلي قد اهتم كثيراً عن رأيه هذا في الاستدلال في الطبعة الثانية من كتاب " مبادئ المنطق " ، وآثر أن ينظر إليه على أنه في الأساس يمثل التطور أو النمو الذاتي self - development لمضمون موضوعي .

وهو في كل الأحوال يتمسك بتأكيده للفارق الأساسي بين المجالات المادية ، والذهنية ، والمنطقية ، ولا يميل أبداً من مهاجمة الخلط الذي يتمثل لدى النزعة النفسية بين المجالين الأخيرين . فلفكرة المنطقية طريقة في الوجود تختلف أساساً عن طريقة وجود الشيء المادي والحادثة الذهنية ، وهي لا توجد ( exist ) ، ولا يمكن أن تحدث ، إذا كنا نعني بهذه الألفاظ الدخول في مجال الظواهر . وإنما هي مضمون فكري ، وماهية ، ومعنى كلي ، في مقابل الواقعة أو الحادث . لذلك فإن المنطق لا يمكنه أن يدرك — ناهيك به أن يفهم — ما تتصف به الجزئيات والفرديات التي تتمثل في الواقع العيني من ثراء زاخر بالتنوع لا ينضب .

معينه . فالتنوع المتعدد الألوان للحياة يقع خارج نطاق المنطق .  
 ولقد أعاد برادلي طبع النص الأصلي « لمبادئ المنطق » ، في طبعته  
 الثانية التي يفصلها عن الأولى حوالى أربعين عاما ، مع إضافة حاشية  
 في صورة ملاحظات في نهاية كل فصل ، وسلسلة من الأبحاث الختامية .  
 وهذه المادة الجديدة تصحح النص الأصلي وتتجاوزه في نقاط ليست كلها  
 ثانوية . والجزء الأكبر منها مستمد من بوزانكيث ، الذي قام باختبار  
 غقدي لكتاب برادلي « مبادئ المنطق » ، في ١٨٨٥ ( في كتاب المعرفة  
 والواقع Knowledge & Reality ) ، والذي نشر بعد ذلك بثلاث سنوات  
 كتابا خاصا له في « المنطق » ، اتخذ من برادلي نقطة بداية له . وقد اعترف  
 برادلي بدينه صراحة ودون تحفظ .

ولقد سبق أن نوهنا مرارا بالأهمية التاريخية الكبرى لأعمال برادلي  
 في ميادين الأخلاق وعلم النفس والمنطق . وقد صادفت هذه الأعمال  
 قبولا واسعا ، وسرعان ما أصبحت جزءا من تراث الفكر الإنجليزى .  
 أما آراؤه الميتافيزيقية ، كما عرضها في كتابه الرئيسى « المظهر والواقع » ،  
 فإنها أثارت جدلا أوسع بكثير . فقد كان هذا الكتاب ماثرا للشقاق  
 في الفلسفة الإنجليزية الحديثة ، وتفاوتت الآراء بشأنه كل التفاوت ،  
 ما بين ثناء لا حد له ، إلى عدم اكتراث أبسله ، إلى سخرية مريرة  
 واحتقار صريح . فقد وصفه إدوارد كيرد بأنه أكبر حدث منذ « كانت » ،  
 كما قال مويرهيد إنه « لم يظهر أى شئ مثله منذ « بحث » هيوم . فهذا الكتاب ،  
 شأنه شأن كتاب هيوم ، قد أيقظ المفكرين من جميع المدارس من سباتهم  
 القطعى ، (١) . أما خصومه ، وعلى رأسهم البرجماتيون ، فقد انقضوا عليه  
 بوحشية ، وجعلوا منه مسخا مشوها . ورأى غير هؤلاء فيه مزيجا عشوائيا  
 من الجد والهزل ، ولم يستطيعوا أخذه مأخذ الجد . واقترح أحد الظرفاء

(١) « التراث الأنطولوجى » ، ص ٢٢٤ .



تغيير العنوان إلى « اختفاء مظهر الواقع »<sup>(١)</sup> The disappearance of Reality . وعلى الرغم من ذلك فلا يوجد كتاب آخر من الفلسفة الإنجليزية الحالية من أعماقها ، وأثار من التفكير ، ومارس من التأثير إيجابا وسلبا ، مثل كتاب برادلى « المظهر والواقع » .

سارت ميتافيزيقا برادلى فى طريق تشييد مذهب ، ولكنها لم تفعل ذلك بالتحليق الأهوج فوق التجربة ، وإنما طبقت الشرط الذى وضعه برادلى فى تصدير كتابه « مبادئ المنطق » فقامت ببحث نقدى ( أو شبه بحثا شكاكيا إذا شئت ) فى المبادئ الأولى . وقد اشتهرت كلمته الماثورة التى قال فيها « إن الميتافيزيقا هى العثور على أسباب رديئة لما تؤمن به بالغريزة ، غير أن العثور على هذه الأسباب هو بدوره غريزة بنفس المقدار »<sup>(٢)</sup> . فهو يرى ، مثل شوبنهاور ، أن الإنسان « حيوان ميتافيزيقي » . والميتافيزيقا هى ترياقه الأفضل ضد الخرافة القطعية للاهوت المتزمت ، وضد سطحية المذهب المادى . فهى سلاح ذهن نشيط متحرر عقليا ، يسمى إلى الخلاص من قيود المذهب الجامد . وهى موقف أكثر منها نظرية ، وهى إثارة للمشكلات وبحث عنها أكثر منها حل لها . ومن هنا كان لنا ، إذا شئنا ، أن نجعل منها ملهاة ، وستظل تحتفظ ببعض قيمتها حتى لو أسفرت عن الشك الكامل : ذلك لأن الاتجاه إلى الشك له عند برادلى من الفعالية ما للاتجاه التأملى النظرى .

وهو يعزو إلى الميتافيزيقا مهمتين ، أولاهما طلب معرفة للواقع متميزة عن مجرد المظهر ، والثانية تصور العالم عقليا ، لا بطريقة مفككة ،

(١) روى ذلك أ . و . بن A. W. Bonn فى كتابه « تاريخ المذهب العقل  
الإنجليزى فى القرن التاسع عشر » History of English Rationalism in the  
19 th Century « المجلد الثانى ، ص ٤٢١ .  
(٢) تصدير الطبعة الأولى لكتاب « المظهر والواقع » .

وإنما من حيث هو كل على نحو ما . هاتان هما الفكرتان الرئيسيتان في نظريته . أما عن الأولى ، فواضح أن من المهم تعريف اللفظين اللذين تتضمنهما الفكرة : فما هو المظهر appearance ؟ . إنه ليس الظاهري phenomenal في البداية على الأقل - سواء فهم هذا الأخير على أنه ما هو معطى في الوعي أو ما هو مقابل الشيء في ذاته - كما أنه ليس أى مجال محدد للوجود أو الفكر مميزا عن أى مجال آخر . وربما كان هو كل هذه معا ، ولكنه قبل كل شيء ما نكون إزاءه كلما صادفنا تباينا بين ما هو موجود وما هو موضوع للفكر ، وكلما غاص الفكر في متناقضات أو اقتصرت قدرته على إدراك جزء بدلا من الكل ، وكثرة بدلا من الوحدة ، وشيئا نسبيا بدلا من شيء مطلق ؛ فالمظهر هو ما هو علائقي relational ، مفكك ، وما تسرى عليه الصيرورة والتغير ، وهو سلب للمعنى والقيمة ؛ إنه يكون حيث يكون الخطأ والشر والخطيئة ، وحيثما ننساق في سعى قلق ، وحيثما نكتفى ، في بحثنا عما هو أسمى وأفضل ، باستنفاد أنفسنا واستهلاكها بدلا من أن نصل إلى ما يرضينا .

وهكذا يُعرّف المظهر في عبارات تكاد كلها تكون سلبية فحسب . فما هو الواقع reality إذن ؟ . إنه ما يقابل المظهر من جميع النواحي ، بحيث لا يكون علينا ، لكي نعتد عن طبيعته كما تصورها برادلى ، إلا أن نستعيض عن الصفات السالبة السابقة بمقابلاتها الإيجابية . فلنرجى مؤقّتا الإتيان بوصف أكمل له ، ولنعرفّ الواقع ، بصفة مبدئية ، بأنه ما خلا من التناقض ، وبأنه وحدة وكلية واستقرار وانسجام ، وبأنه شامل لكل شيء ، وبأنه حقيقة كاملة ؛ أى بالاختصار ، بأنه المطلق .

فما الذى يعزوه برادلى إلى مجال المظهر ؟ . إن لب تعاليمه إنما يوجد في الفصل الخاص بالعلاقة (أو الإضافة) والكيف . ولعلنا نذكر أن جرّين ، والمدرسة القديمة هامة ، كانوا يعزّون إلى مقولة الإضافة أهمية

كبرى ؛ فهو ذلك الذى يضئ على الأشياء حقيقتها بالربط فيما بينها .  
 أما برادلى فيحاول أن يثبت العكس . فهو يقول إننا عندما نختبر بطريقة  
 نظرية ترتيبنا للوقائع تبعاً لعلاقاتها وصفاتها نقع في صعوبات ومتناقضات  
 غير متوقعة . ذلك لأن العلاقة ( أو الإضافة ) والصفة يفترض كل منهما  
 الآخر . والصفات ليست شيئاً بدون العلاقات ، ونحن نكون إزاء علاقات  
 كلها ميزنا أو حكمنا أو فكرنا على أى نحو . وكما قال برادلى فى موضع ما ،  
 فإن التفكير ينتحر إذا لم يعد علائقياً relational . وطبعاً أنا عندما  
 نتجاوز الفكر إلى الوحدة المتصلة بالشعور ، نكون قد انصرفنا عن  
 العلاقات والصفات . ولكننا لا نستطيع التفكير فى صفات دون التفكير  
 فى سمات محددة متميزة بعضها عن البعض ، كما أننا لا نستطيع التفكير  
 فى هذه الأخيرة دون التفكير فى علاقات بينها . وهكذا فإن الصفات  
 لا يكون لها معنى بدون العلاقات ؛ والاثنان لا يتميزان إلا بالفكر ،  
 ولا انفصالان واقعياً . وبالمثل لا يمكن أن توجد علاقة دون صفة ،  
 إذ لا يوجد ما يربط إذا لم توجد صفات بوصفها حدوداً . وعلى ذلك  
 فلا يمكن تصور أى حد مأخوذاً على حدة . ولكن من المؤسف أنه حتى  
 عندما تؤخذ الحدود مرتبطة فيما بينها ، فسيظل من المستحيل تصورهما ،  
 إذ إننا عندما نحاول تصور العلاقة بين العلاقة الأصلية وبين الصفة أو الحد ،  
 فإننا نبدأ فى عملية نسير فيها إلى ما لا نهاية ، مادامت كل علاقة جديدة  
 بين العلاقة الأصلية وبين الحد تحتاج بدورها إلى الارتباط فى علاقة  
 مع هذا الحد . ومن هذا كله يستنتج برادلى أنه كلما تحرك الفكر فى علاقات  
 أصبح ، حسب معيار المعرفة ، بديلاً أو حلاً وسطاً ، عاجزاً عن بلوغ  
 الحقيقة أو الكشف عن واقع الأشياء . فالتفكير العلائقى أو المقالى  
 discursive يوقع نفسه بالضرورة فى متناقضات ، وبالتالي لا يشير  
 إلا إلى عالم الظواهر . وكما قلنا من قبل ، فإن القابلية للتناقض هى المعيار  
 الذى ندرك به كون الشيء أو التصور ينتمى إلى مجال المظهر .

وبعد تخلص برادلى من تصور العلاقة ، يرد كل التصورات الأولية الأخرى للفكر إلى علاقات ، هى بدورها عاجزة عن الاتصال بمحدودها إلا من خلال سلسلة لامتناهية ، وبالتالي مستحيلة ، من العلاقات المتوسطة . وهكذا فإن عالم المظهر عنده مودحم بدرجة لم تعرف من قبل . وقد كرس الباب الأول كله من كتابه لإثبات أن المقولات والتصورات الأخرى للفكر ، وكذلك محتوى التجربة ، كل هذا يعانى مما تتضمنه العلاقة من تناقض غير قابل للحل ، وبالتالي ينتمى إلى عالم المظهر . وفى هذه الفصول يترك برادلى السفمطائى الشكاك نفسه على سجيته ، فى دوامة من التمييزات الحادة والحجج الدقيقة التى تثير سحابة هائلة من الغبار الديالكتيكى . بحيث لا يكون لنا أن ندهش حين نرى الأشياء تتهاوى بين يديه ، ولا تترك فى النهاية إلا عالما من الانقاض . فى دوامته الديالكتيكية يكتسح ، الواحدة تلو الأخرى ، كلا من : الكيفيات الأولى والثانية ، الشئ والصفة ، السكيف والإضافة ، الزمان والمكان ، الحركة والتغير والتعاقب ، العلية والفعل والانفعال ، الجوهر وهوية الأشياء ، بل وهوية الذات ، وكل علم طبيعى ، والخطأ والشر والخير ، بل الدين والله .

ولاحاجة بنا إلى تتبع كل من هذه على حدة . وإنما سننتقى حالة الذات لنضرب مثلا بها على الطريقة التى سار عليها ، إذ إنها تكشف على أكمل وجه عن مدى استعداد برادلى للخروج عن مواقف المثاليين السابقين عليه ، مثل جرين ودلاس كلما اقتضى مبدؤه ذلك . وتلك هى أوضاع حالة تبين مدى تحكم الإطار الجامد الذى وضعه برادلى فى نتائجه مقدما ، وإلى أى حد أغمض عينيه عن حل كان قريبا من متناول يده ، وفى الوقت ذاته كانت تقتضيه المشكلة ذاتها . فدون أن يبدل حتى مجرد محاولة لحل مشكلة الهوية الشخصية بتحليل مباشر للوقائع المجردة ، نراه يكتفى ببحث النظريات المتعلقة بها ، وهى نظريات بلغت من الكثرة والتنوع حدا يبعث على الاضطراب ،

حوادثها إلى أن تصورا له من التباين والغموض ما لتصور الذات لا يمكنه أن يفي بتلك الشروط التي ينبغي عليه ، أو على أي تصور آخر ، أن يفي بها إذا ما شاء أن يعد حقيقيا أو واقعا . لذلك أدرجه ضمن المظاهر . غير أن الذات تمثل حالة ينطبق عليها بكل وضوح معيار الواقعية الذي رأى برادلي أن له أهمية عظمى ، أعني معيار انسجام الواحد والكثير ، والكثرة في وحدة مركبة . فهو إذا نكر وحدة الوعي الذاتي قد جعل الذات مساوية لمجموع تجاربها بدلا من أن يجعلها مساوية لوحدة هذه التجارب ، وهكذا انتهى إلى الرأي القائل إنها مجرد حزمة من الأحوال المتفرقة ، فاقرب بذلك كثيرا من نظرية هيوم التي كان قد أعلن صراحة عن عدم رضائه بها . والأهم من ذلك أنه تخلى بهذا عن الرأي الذي كان قد عرضه في مذهبه الأخلاقي من قبل . وفضلا عن ذلك فإن هذا قد جعل من المستحيل عليه ، كما سنرى فيما بعد ، أن يتفجع على أي نحو من مقولة الشخصية في تحديد المطلق . وهكذا فإن نظريته في الذات ، كما عرضها في كتابه عن الميتافيزيقا ، تمثل نكسة إلى التجريبية ( التي كانت تربطه بها بالفعل صلات قوية ) ، وهي تعد مثالا للطريقة التي أساء بها مفكر لامع الذهن مثله إلى مشكلة في سبيل مبدأ .

وهكذا لا يتبقى لدينا ، بعد هذا كله ، إلا ثنائية ، وهوة شاسعة بين المظهر والواقع . ولكن من الواضح أن المسألة لا يمكن أن تقف عند هذا الحد ، وهكذا يتصدى برادلي في الباب الثاني من كتابه لمعالجة الجراح التي سببها في البداية . فهو يبين عندئذ أن العالمين المفصولين دياكتيكيا لا يمكن أن يوجدوا منعزلين ، وأن كلا منهما يتضمن إشارة إلى الآخر . فالمظهر هو ، على أية حال ، شيء ما ، وليس عدما ، ولذلك ينبغي أن ينتمى إلى الواقع على نحو ما . ومن جهة أخرى فلو أخذ الواقع في ذاته وبذاته لكان عدما . فمن الواجب إذن أن يشتمل على المظهر على نحو ما ، إذ لا يمكن ، على أبسط

الفروض ، أن يكون أقل من هذا . وهكذا انتهى برادلى إلى أن المظهر  
 في حاجة إلى الواقع لتكملة ذاته ، وأن الواقع في حاجة إلى المظهر ليكمل  
 لذاته مضمونا وواقعية . وهنا ينبغى أن نتساءل عن الطريقة التى ينتمى بها  
 المظهر إلى الواقع ، أو إلى المطلق كما يسميه برادلى عادة . وهو يقول فى نهاية  
 الكتاب (مشيرا إلى هيجل ، مع إبداء الموافقة على رأيه) إن الواقع روحى .  
 فإذا ما تأملنا هذا القول فى ضوء المجرى العام لاستدلالة ، لبدا لنا أنه خاتمة  
 بلاغية أكثر من كونه ممثلا لرأيه الحقيقى ، إذ إنه قد أعلن أن الفكر  
 للعلائقى (الذى لا يعرف برادلى للفكر نوعا غيره) لا يمكن بأية حال أن  
 يعبر عن طبيعة المطلق ، وأعلن بوجه خاص أن المطلق لا يمكن تصويره على مثال  
 الذات أو الشخصية ، مادام الفكر والذات ينتميان سويا إلى عالم المظهر .  
 أما رأيه الحقيقى ، الذى يدل مرة أخرى على استمرار عناصر تجريبية  
 فى تفكيره ، فهو أن المطلق تجريبية حاسمة ، إنه حقا نسق واحد منسجم  
 شامل ، ولكن محتواه يتألف من التجربة الحاسمة . وفى هذا المطلق تنحل  
 كل الفوارق فى وفاق ، أو تُرفع (aufgehoben) على حد تعبير هيجل .

والحق أنه لما يبحث على الحيرة ، بعد ذلك المستوى الرفيع الذى رفع  
 إليه برادلى المطلق ، أن نراه يوحد بين المطلق وبين التجربة الحاسمة ، ويرفع  
 هذه الأخيرة بالتالى فوق مستوى التجربة المنظمة أو التى تتوصل إليها  
 بالفكر . فمن الواضح أنه لا توجد تجربة نستطيع بها أن ندرك المطلق  
 إدراكا مباشرا . وربما كان برادلى قد شغل بهذه الصعوبة ، إذ إنه يبحث عن  
 تشبيه ليوضح معناه ، وأحالتنا فى النهاية إلى التجربة الباطنة التى نمارسها  
 عندما نحس مباشرة بشعور خالص متجانس تماما . فهو يرى فى هذه الأخيرة  
 أنموذجا أو صورة دنيا لتجربة «المطلق» ، نظرا إلى ما تتصف به من  
 كلية لا تتجزأ . والاثنان متوازيتان ، ولا تختلفان إلا من حيث إن إحدهما  
 تقع فى الجانب الأقرب لعالم المظهر المتناقض ، نظرا إلى أنها لم تخضع بعد

النشاط المقالى (discursive) للفكر ، بينما الأولى تتجاوزها ، لا بالمعنى المكانى ، وإنما بمعنى أنها قد علت على الانقسامات والتقابلات التى يأتى بها الفكر ، واستعادت التجربة الأصلية المتصلة على مستوى أعلى . هذا الطابع المطلق للشعور ، الذى يبعث النشوة أحيانا فى نفس برادلى ، يؤدى به إلى إصدار تأكيدات جريئة إلى حد مفرع ، من أمثلتها ما يلى : « لاشئ حقيقيا أو واقعا فى النهاية إلا ما هو موضوع للشعور ، وبالنسبة إلى لا يكون هناك فى النهاية شئ واقعى إلا ما أشعر به . . . فالواقع ، لى يكون واقعا ، ينبغى أن يشعر به »<sup>(١)</sup> . وفى الشعور نحس بالكثرة على أنها وحدة ، وبالأجزاء على أنها كل ، فهنا نكرن على مستوى أدنى من مستوى التقسيم إلى ذات وموضوع ، والتقابل بين الصواب والخطأ . هذه التجربة ، التى هى أكثر تجاربنا أولية ، تتصف بتلك الوحدة فى الكثرة ، التى أنكرها برادلى على أعلى التجارب مستوى ، أعنى تجربة الوعى الذاتى . غير أن للوحدة هنا ، تمارس ، فحسب ، وهى تختفى بمجرد إعمال الفكر فيها . بل إننا لا نستطيع التعبير عنها بالفاظ ، وإنما نستطيع فقط أن نشعر بأنها انعكاس لتلك التجربة الأعلى التى نشارك بها فى المطلق .

وهكذا تتضح الآن الخطوط العامة لنظرة برادلى إلى العالم . فهى ترسم صورة لثلاثة مستويات : أدناها عالم الشعور المباشر ، أى التجربة قبل العلائقية pro-relational التى نشعر فيها بكل لا انقسام فيه ولا تنوع . ويلى ذلك المستوى الديالكتيكى ، أى عالم الفكر الذى توجد فيه علاقات تفكك الوحدة الأصلية للشعور ، وتكون فيه الأشياء مظاهر فحسب ، لا واقعا . والثالث عالم الواقع ، والمطلق ، الذى تعود فيه ، فى مركب أعلى ، تلك الوحدة والكلية المفقودتان فى المرحلة الثانية . ويمكن التعبير عن معنى

(١) « مقالات فى الحقيقة والواقع » ، ص ١٩٩ .

برادلى بدقة على نحو أكثر عينية وإنسانية . فنحن إذا كلنا من « شجرة المعرفة » قد فقدنا وحدتنا النقية الأصلية ، وأصبحنا فى كل سعى لنا نهدف إلى استردادها . غير أننا لا نستطيع أبداً أن نرجع إلى حالتنا الأصلية ؛ فأبواب الجنة الأرضية موصدة فى وجوهنا إلى الأبد . ولكننا ربما اهتدينا بعد أن نكون قد تحملنا حياتنا المضطربة الممزقة هنا ، إلى الوحدة ثانية فى عالم أعلى وأسمى ؛ وسواء أمكننا إدراك ذلك أو لم يمكننا ، فإن كل شوق لنا ، فى الوقت الحالى إنما يتجه إليها . فالإنسان ينتقل من البراءة النقية للشعور الساذج ، إلى لثم المعرفة ، ومنه إلى التوبة والخلاص فى المطلق .

وفى هذا الصدد يبدو المطلق عند برادلى على أنه ناتج عن رغبة ، وتحقيق متخيل لها . والواقع أن فى كتابه فقرات فستطيع أن ندرك فيها تلك العاطفة العميقة ، التى ترقى أحيانا إلى مرتبة الشوق الصوفى ، والتى كان يسعى بها وراء المطلق ليصبح وإياه واحدا . ذلك لأن المطلق ، على أية حال ، ليس رتبة « خاوية مملّة » ، إذ إنه يضم كل ما فى الفردى والجزئى من ثراء وتنوع ويحتفظ به فى داخله . وهو على أسوأ الفروض لا يمكن أن يكون أفقر من عالم المظهر الحسى ؛ بل إنه ينبغى أن يكون أثرى إلى حد لا متناه . من أى شيء تمدنا به تجربتنا الحالية ، فلا شيء يضع فيه . « إن كل لهيب انفعالى ، عفيف أو شهوانى ، يظل يشتعل فى المطلق دون أن يرتوى أو يخف حدته ، فهو نعمة يستوعبها التوافق المميز لسكنته وطمأنينته الرفيعة ، . ولكن كيف تدخل المظاهر فى المطلق وتكون جزءا من طبيعته ؟ . من المحال قطعا أن يكون ذلك بالصورة التى نعرفها بها الآن ، أى بما تتميز به فى حالتها الراهنة من اضطراب وحيرة ، بل ينبغى أن تتغير هيئتها ويعاد تشكيلها لسكنى تلائم الحياة العليا والكمال . وليس فى وسعنا أن نذكر كيف يحدث ذلك فى كل حالة . بل كل ما نملك أن نفعله هو الاكتفاء بالتخمين والترجيح . فعناصر التجربة ، من شعور وإرادة وفكر أيضا ،



مستكون هناك ، ولكنها لن تعود في حالة شقاق . فلا بد من وجود إرادة . حيث يغدو المثل الأعلى حقيقة واقعة . على أن الفكر ينبغي أن يطرأ عليه . تبدل عميق : فسيكون مائلا بوصفه حدسا أعلى ، وبذلك يفقد طابعه المميز ، ويلتهم ذاته عند بلوغه مثله الأعلى ، ويُعلَى عليه عند الاهتداء إلى ذلك العلو الذي يكون البحث عنه ماهيته ذاتها . وواضح أن برادلي يعنى هنا بالفكر ذلك الفكر الملائقي المثالي ، والنشاط المتناهي للذهن ، لا التفاعلية المطلقة للعقل : ولو كان فقط قد توسع في هذا الفهم الضيق المحدود للفكر في اتجاه الفكرة المطلقة Idea ، عند هيجل ، لوجد ما كان يبحث عنه . دون جدوى .

ولا يستثنى الخطأ والشر من عملية التحول الكبرى التي تندمج بها المقولات والمظاهر المتناهية في المطلق . ففما يتعلق بالخطأ ، يكون معنى هذا الاندماج أنه لا يمكن وجود تعارض أسامي بين الحقيقة والخطأ ، وإنما الأمر كله أمر درجات من هذا وذاك . فالخطأ في الواقع هو ، الحقيقة ، أى هو الحقيقة الجزئية الناقصة ، التي نتأملها من وجهة نظر فهمنا المحدود للقاصر . أما في التجربة الكلية فإنه يصحح ذاته ويختفى . ومن الواضح أن برادلي هنا لا يحل هذه المشكلة الخطيرة غاية الخطورة ، وإنما يكتفى بالزيغ والهرب منها . ولا جدال في أن الهجمات العنيفة التي وجهها خصوم برادلي ، ولا سيما البرجمانيون ، إلى نظريته في الخطأ ، قد مست نقطة شديدة الضعف في مذهبه .

كذلك يتضح أن الالم والشر ، شأنهما شأن الخطأ ، متمشيان مع الكمال المطلق . ولا ينكر برادلي أن لهما وجودا فعليا ، ولكن المسألة التي يهتم بها هي طريقة التحول الذي يمكن أن يطرأ عليهما . وهو هنا يلجأ إلى تشبيهه : فن التجارب المألوفة أن الالم البسيط يمكن أن يستوعب في لذة أعظم ، فيختفى نتيجة لذلك . صحيح أن شدة هذه اللذة سبقت عندئذ ، غير أن الشعور

في مجموعه يمكن أن يظل شعورا باللذة . فمن الممكن إذن ، إذا ما حسبنا مجموع الأمور حسابا شاملا ، أن تطفئ اللذة على الألم وترجح كفتها عليه . ويبدو أن هذا الإمكان المحض يزيح ، بالنسبة إلى برادلي ، آخر عقبة تقف في وجه كمال المطلق . فهو حين ينتقل إلى مشكلة الشر ، يذهب إلى أن الشر لا يوجد إلا في التجربة الأخلاقية ، وإلى أن التجربة الأخلاقية في أساسها حافلة بالتناقض ، وأن هناك رغبة دياالكتيكية تدفعها إلى العلو على هذا التناقض في مجال أعلى — أي فوق الأخلاقي — من مجالات الوجود . وهكذا يدخل الشر في خدمة الخير ، مستهدفا تحقيق هذا الأخير ، وإن يكن ذلك عن كره منه . وهنا أيضا ، كما في حالة الخطأ ، يختفي التعارض إذا ما وسّع مجال الإشارة بما فيه الكفاية ، فكل ما نحتاج إلى فهمه هنا هو أن مقصد السماء ، ، إذا ما كان لنا أن نتحدث على هذا النحو ، يمكن أن يحقق ذاته بنفس الفعالية في كاتيلينا<sup>(١)</sup> و بوجيا<sup>(٢)</sup> Borgia مثلما يتحقق في صاحب الضمير الحي أو في البريء الساذج ،<sup>(٣)</sup> . وإن التفاؤل المفرط الذي يتخلص به برادلي من هذه المشكلات الخطيرة ، وتشويبه للحقائق في صورة أقرب إلى رغبته الشخصية ، ليشكك المرء فيما إذا كان من الممكن المطلق أن يبعث ذلك الرضاء ، النظري ، الذي ابتدعه من أجله .

وكما رأينا من قبل ، فإن المجال فوق الأخلاقي الذي تهفو إليه الحياة

(١) لوقيوس سرجيوس كاتالينا ( ١٠٨ — ٦٢ ق . م . ) : كان من أعضاء مجلس الشيوخ في عهد شيبسون ، وقد دبر مؤامرة لقتل هذا الأخير ولكن لبأها وصله قفضها في مجلس الشيوخ في خطبة مشهورة . وقد اشتهرت حياته كلها بالفش والتآمر وارتيكاب الجرائم .  
[ للترجم ]

(٢) سيزار بوجيا ( ١٤٧٦ — ١٥٠٧ ) : حاكم إيطالي طموح ، كان يهدف إلى إخضاع إيطاليا الوسطى لحكمه ، واتهم بالتآمر على قتل أخيه الأكبر تحقيقا لهذا الغرض .  
[ للترجم ]

(٣) المظهر والواقع ، ص ٢٠٢ .

الأخلاقية هو الدين . ولم تكن لبرادلى صلة وثيقة أو أساسية بالأمور الدينية ، وإن المرء ليحس بأن ما قاله عنها سطحي ، وبأنه ليس ناتجا عن معاناة وتجربة ، وإنما عن تفكير نظري قام به وهو قابع في مقعده الوثير فحسب . وهو في هذا يقول إنه رغم أن الدين مطلق بالنسبة إلى الأخلاقية ، فإنه بالنسبة إلى « المطلق » مجرد مظهر . ونؤدى التناقضات الداخلية التي يهتدى إليها برادلى في الدين إلى دفعه إلى تجاوز ذاته ، ليصل إلى كمال الكل الميتافيزيقي الأعلى . فما هي إذن العلاقة بين الله وبين المطلق ؟ . إن الله لا يكون إلها إلا بقدر ما يكون هو الكل ، ولكنه بهذا المعنى ليس هو الله ، كما تعرفه الأديان ، الذي هو أقل من المطلق . وهكذا فإن تصور الله يجذب بدوره ، بعد كل التصورات الأخرى ، في الدوامة الديالكتيكية ، فهو ليس الكل وإنما هو وجه واحد ، وبالتالي مجرد مظهر ، بحيث ينبغى أن يطرأ على الله ، ومعه الدين ، ذلك التحول الذي يغوص به في « الواحد » الميتافيزيقي النهائي . ولا شك أن هذا الحل — أو قل هذا الانحلال — الغريب محتم بالنسبة إلى مذهب برادلى . ذلك لأنه بعد أن نظر إلى الشخصية على أنها حزمة من المتناقضات ، وبالتالي على أنها حقيقة من مرتبة أدنى ، لم يعد أمامه بد من أن يعزو إلى المطلق طبيعة فوق الشخصية ، وأن يصفه من خلال فكرتي الاتساق والانسجام . أما الدين فكان بالنسبة إليه مسألة عملية ، ونظرا إلى أن صوره وتصوراته تتجه أساسا إلى تحقيق غايات عملية ، فلا يلزم أن تخلو من التناقضات النظرية . أما كون معظم الأديان تصور الكائن الأعلى على أنه شخص ، فتلك مجرد نتيجة للحاجة البرجماتية التي تعبر عنها هذه الأديان . وعلى أية حال فإن هذا التصوير ، كما يقول برادلى ، لا يمكن أن يبنى بمقتضيات المبدأ الميتافيزيقي الذي يسميه بالمطلق ، ومن ثم فهو يقصّر دونه .

فالمطلق إذن هو الغاية التي تسعى إليها كل الأشياء ، والذي تؤثر كل الأشياء ، من أجله ، أن تضحي بطبيعتها الخاصة على أن تغل على حالتها

القلقة الراهنة . وعلى ذلك فإنه هو المقياس الاسمي لكل قيمة ، وهو ما يجعل الصحيح صحيحا ، والجميل جميلا ، والخير خيرا . « إن المطلق إنما وُجد ليضمن أن يكون للأعلى ، في كل الأحوال ، أكبر مكانة وأن يكون للأدنى أقلها ،<sup>(١)</sup> . فهو الواقعي بمعنى مؤكد أو رفيع ، وهو الواقعي بوصفه قيمة . أما كل ما في عالم المظهر فهو مغترب عن طبيعته الخاصة ، وبالتالي فهو دائما في عملية انتقال من طابعه المتناهي إلى كماله الحقيقي . فكل هذه الأشياء في صيرورة وتغير دائمين ، وهي لا تصل إلى السكال في ذاتها ، ولا تحمل في ذاتها معنى وجودها الحقيقي .

ولكن ألا تعني هذه الحركة الدائمة نحو السكال وتحقيق المثل الأعلى ، أننا نقول إلى حد بشع من القيمة الحقيقية الصحيحة للأشياء ، ونلغي تماما كل ما تكونه وما تفعله هنا . والآن ؟ أليس بما يزيد الأمر سوءا أن يُترك المثل الأعلى دون أي تحديد أو تمييز . بحيث لا يمكنه أن يقدم تعويضا كافيا عن هذه التضحية الشديدة للأشياء التي لا تعود على ما هي عليه مطلقا ؟ . لقد شعر برادلي ذاته بهذه الصعوبة ، وحاول أن يخففها في فصل ( رأى . الكثيرون أنه لا يرتبط بأفكاره الرئيسية ارتباطا حقيقيا ) عن « درجات الحقيقة والواقع » ، وفي بعض الشروح المكملة في كتابه « أبحاث في الحقيقة والواقع » . فهو في هذه المواضع يقول إنه لا يُلقى بكل الأشياء دون تمييز في حومة المطلق . « فُت في عالم المظهر القائم الناقص ، يوجد تمييز بين درجات أو مستويات 'تحدد' تبعا للقرب أو البعد عن المثل الأعلى الذي يضعه المطلق ، وبالمسافة التي تفصل بين أي مظهر وبين المثل الأعلى - أي درجة واقعيته - وتقاس هذه الدرجة بمقدار التغير اللازم لإدخال المظهر في نسق الواقع . لجميع الأشياء ، بالقياس إلى المطلق ، نسبية ، غير أن هناك درجات للنسبية ، وبالتالي - بمعنى ما - درجات من الواقعية أو من الطابع

(١) « أبحاث في الحقيقة والواقع » ، ص ٣٤٨ .

المطلق absoluteness ، وهذا هو الذى يتيح ترتيب درجات الأشياء . فالبدن والذهن مثلاً هما معاً مجرد مظهرين . غير أن الذهن أقرب إلى الواقع . وهكذا فإننا لو نظرنا إلى كل شئ من مستواه الخاص ، لرأينا له قيمة نسبية خاصة به ، تقدر تبعاً لمدى اشتماله لطبيعة الكل العيني ، الذى هو الواقع ، ومدى تعبيره عنها . ومثل هذا يقال عن الحقيقة : فالمستويات الدنيا للمعرفة ، إذا ما نُظر إليها من المستويات العليا ، تبدو متناقضة مفتقرة إلى الترابط ؛ ولكننا إذا ما نُظر إليها فى ذاتها ، وقيست تبعاً لدرجة وضوحها الخاص ، تغدو متسقة صحيحة . وهنا يزداد برادلى اقتراباً من المعنى العميق لفكرة هيجل فى المراحل الديالكتيكية ، ويقدم عرضاً أفضل للمعنى الحقيقى للتمييز الاسامى بين المظهر والواقع ، لا بالنسبة إلى مذهبه الخاص بحسب ، وإنما بالنسبة إلى جميع المذاهب المثالية بوجه عام .

برنارد بوزانكيت Bernard Bosanquet

( ١٨٤٨ - ١٩٢٣ )

[ تعلم فى كلية باليول بأكسفورد . وعمل من ١٨٧١ إلى ١٨٨١ زميلاً ومحاضراً فى « يونيفرسيتى كوليدج » بأكسفورد ؛ ومنذ ١٩٠٣ إلى ١٩٠٨ كان أستاذاً للفلسفة الأخلاقية فى سانت أندروز ، ونظراً إلى أنه كان يملك موارد شخصية لا بأس بها ، فقد قضى معظم حياته مستقلاً فى الكتابة وإلقاء المحاضرات والخدمة الاجتماعية . مؤلفاته : « المنطق بوصفه علم المعرفة Logic as the Science of Knowledge » ، فى « مقالات فى النقد الفلسفى Essays in Philosophical Criticism » ، المبرهنة . است A. Seth و ر. ب. هولدين ، ١٨٨٣ ؛ « المعرفة والواقع Knowledge & Reality » ، ١٨٨٥ ؛ « المنطق أو مورفولوجيا المعرفة Logic, or the Morphology of knowledge » فى مجلدين ، ١٨٨٨ ( الطبعة الثانية ، ١٩١١ ) ؛ « مقالات وأحاديث A History of Essays & Addresses » ، ١٨٨٩ ؛ « تاريخ علم الجمال A History of Aesthetic » ، ١٨٩٢ ( الطبعة الثانية ، ١٩٠٤ ) ؛ « مدنية المسيحية ودراسات أخرى The Civilization of Christianity & other Studies » ، ١٨٩٣ ؛

« للرشد إلى جمهورية أفلاطون Companion to Plato's Republic » : ١٨٩٥ ؛  
 « أركان المنطق Essentials of Logic » : ١٨٩٥ ؛ « سيكولوجية الذات الأخلاقية »  
 « Psychology of the Moral Self » : ١٨٩٧ ؛ « النظرية الفلسفية للدولة »  
 « The Philosophical Theory of the State » ( الطبعة الرابعة ، ١٨٩٦ )  
 « The Principle of Individuality & Value » : ١٩٢٣ ؛ « مبدأ الفردية والقيمة »  
 ( محاضرات جيفورد ١٩١٢ ؛ « قيمة الفرد ومصيره The Value & Destiny of the Individual »  
 ( محاضرات جيفورد ) ، ١٩١٣ ؛ « التمييز بين ذهن وموضوعه »  
 « The Distinction Between Mind & its Objects » : ١٩١٣ ؛ « ثلاث محاضرات في علم الجمال »  
 « Three Lectures on Aesthetic » : ١٩١٥ ؛ « العلما الاجتماعية والدولية »  
 « Social & International Ideals » : ١٩١٧ ؛ « بعض الاقتراحات في الأخلاق »  
 « Some Suggestions in Ethic » : ١٩١٨ ؛ « التضمن والاستدلال التسلسلي »  
 « Implication & Linear Inference » : ١٩٢٠ ؛ « ماهية الدين »  
 « What Religion's » : ١٩٢٠ ؛ « تقابل الأضداد في الفلسفة المعاصرة »  
 « The Meeting of Extremes in Contemporary Phil. » : ١٩٢١ ؛ « ثلاثة فصول في طبيعة ذهن »  
 « Three Chapters on the Nature of Mind » : ١٩٢٣ ؛ « الحياة والفلسفة »  
 « Life & Philosophy » وهو بحث في كتاب « الفلسفة الإنجليزية المعاصرة » ، نشره ج . هـ . مورهد ، المجموعة الأولى ، ١٩٢٤ .

ونشر بعد وفاته : « العلم والفلسفة وأبحاث أخرى . Science & Philosophy & other Essays » نشره ج . هـ . مورهد ور . س . بوزانكيت ، ١٩٢٧ .

كما قام بوزانكيت بنشر ، واشترك في ترجمة ، كتاب لوتسه : « المنطق والميتافيزيقا »  
 « Logic & Metaphysics » : ١٨٨٤ ؛ وترجم كتاب هيجل في « مدخل إلى فلسفة الفن الجميل ( فلسفة الجمال ) Introduction to the Phil. of Fine Art » : ١٨٨٢ .

انظر : « برنارد بوزانكيت ، عرض موجز لحياته B. Bosanquet, a Short Account of His Life » ، تأليف هيلين بوزانكيت ، ١٩٢٤ ؛ و « برنارد بوزانكيت وأصدقاؤه B. Bosanquet & His Friends » ، رسائل توضح مصادر آرائه الفلسفية وتطورها ، نشرها ج . هـ . مورهد ، ١٩٣٥ ، « قاموس السير القومية » ، [ ١٩٣٠ — ١٩٢٠ ] .

أبرز سمات فلسفة بوزانكيت قرابتها الوثيقة من فلسفة برادلي ، وكان الرجلين يكوّنان شركة ، يمثل فيها برادلي الذهن المنشئ الذي جاءه بالبادرة الأولى وأخصبها بعد ذلك ، ويمثل بوزانكيت ، عموما ، الذهن الأكثر تفتحاً والأقدر على العمل والتنفيذ . غير أن من الإسراف أن يقال — كما فعل البعض في الآونة الأخيرة — إنه يكاد يكون من الممكن النظر إلى الاثنين على أنهما شخصية فلسفية واحدة . ذلك لأنه ، على الرغم مما بينهما من اتفاق كبير في الموقف العام فضلا عن التفاصيل ، فليس من الصحيح أن تسمى فلسفة بوزانكيت مجرد ترديد لفلسفة برادلي . فهي تمثل إعادة بناء مستقلة ، وتوسيعا ، وتطبيقا لتعاليم برادلي ، قام به مفكر أصيل تصادف أنه متفق مع برادلي ، وإن لم يكن يقل عنه مقدرة . فليس أحدهما هو المعطى والآخر هو الآخذ فحسب ، بل لقد كان بين الاثنين تبادل مثمر للأراء ، كان برادلي فيه هو المستفيد في أحيان غير قليلة .

ولقد كان بين حياة كل من برادلي وبوزانكيت اختلاف هائل ، (على الرغم من أن بداية حياتهما ونهايتهما كانتا متفقتين في الزمان تقريبا) . وقد انعكس ذلك الاختلاف أيضا في عقليتهما وطريقتيهما في التفلسف . فقد كانت طبيعة برادلي منطقية منعزلة ، ولم يشغل منصبا تعليميا ، ولم تكن له واجبات امتتحق الذكر ؛ وهو لم يكن تواقا إلى النشاط العملي ، وإنما ظل مغلقا على ذاته ، منصرفا بكليته إلى حياة التأمل ، وقضى حياته كلها بين جدران كليته في منفي اختياري عن العالم . أما بوزانكيت فكانت له ، على العكس من ذلك ، طبيعة إيجابية عملية ، وقدرة هائلة على العمل ، ولم يستطع أن يقنع بالحدود الضيقة لحياة المحاضر الجامعي إلا فترة محدودة . فبعد عشر سنوات قضاها في هذه الحياة ، وجد مجالا أوسع وأبرز للعمل في لندن ، حيث كان يقوم بالمساعدة في تنظيم الخدمات الاجتماعية ومحاضر في الجمعيات الفلسفية وفي فصول كانت قد بدأت تُنشأ عندئذ بموجب حركة

تعليم البالغين الجديدة . وعلى حين أن برادلى لم ينشر إلا أربعة كتب من جميع الأحجام ، فإن بوزانكيت ، الذى كان من أخصب كتاب الفلسفة فى عصره وأوسعهم مجالا ، نشر ما يقرب من العشرين .

ولقد كانت عزلة برادلى عن الحياة متمشية مع تحفظه العقلى الشديد : فقد كان تفكيره منطويا على ذاته ، جافا ، خشنا ، لا يعرف التسامح ، ويكاد يكون محصنا ضد المؤثرات الجديدة . أما ذهن بوزانكيت فكان سخيا ودودا ، متسامحا ، متفتحا على المعارف والتجارب الجديدة ، قابلا للتشكل تبعا للبراهين الجديدة ؛ ولقد كان يفوق زميله فى سعة الثقافة والتحصيل ، وفى تعدد جوانب اهتمامه ، وإن كان يفتقر إلى تعمق زميله وقدرته على النفاذ إلى بواطن الأمور ومقدرته الخلاقة الأصلية (١) . وكان للثنين معا تأثير لا حد له ، على الفلسفة الإنجليزية المعاصرة لهما ، وما زال هذا التأثير قويا إلى اليوم ، فى الوقت الذى أخذت فيه الحركة المثالية تضمحل . ولقد نمت الحركات المعارضة لهما بفضل ما استمدته منهما ، وزادت من حدة أسلحتها بفضل خلافها معهما . أما فى القارة الأوروبية فإن تداييمهما لم تلق إلا اهتماما ضئيلا ، ويكاد اسم بوزانكيت يكون مجهولا . ولم تُترجم من كتبهما إلا كتاب « المظهر والواقع » ، لبرادلى (ترجم إلى الألمانية سنة ١٩٢٨) .

ولقد وجدت المثالية المطلقة فى برادلى وبوزانكيت أفضل من يمثلانها بين الإنجليز . فقد توسع فيها الأول فى اتجاه العمق ، والثانى فى اتجاه الامتداد . وإلى بوزانكيت على التخصيص يرجع فضل بناء نظرية برادلى إلى العالم على أساس أوسع كثيرا ، وتطبيقها وعرضها ، بكل ما فيها من نواح مشرقة ، فى جميع الفروع الفلسفية ، أى فى علم الجمال وفلسفة

(١) انظر ، فى موضوع التقابل بين لاولفين وللازاجين هذا ، كتاب مويرهيد : « ب . بوزانكيت وأصدقاؤه » ، ص ٢٤٦ والصفحة التالية .



فالدِّين والقانون والدولة ، فضلا عن علم النفس والمنطق ونظرية المعرفة والأخلاق . وهو في هذه الخاصة الموسوعية يزداد اقترابا إلى هيجل من برادلي ، كما أنه على وجه العموم تلميذ أشد تمسكا بتعاليم الأستاذ وإخلاصا لها . ونستطيع أن نقول إنه أعاد مذهب برادلي إلى نقطة بدايته الهيجلية الأولى ، وإن السبب في ذلك ليس فقط كونه أقل قطعية من برادلي ، بل أيضا كونه أقل منه نزوها إلى الشك . ولقد أشار البعض ، عن حق ، إلى أنه قد عمل في كل الأحوال على تغيير الاختيار القاطع عند برادلي ، الذي يعبر عنه كلمة « إما كذا وإما كذا » ، إلى تعبير أخف وأقل حدة ، هو « كلاهما معا » ، بحيث كان يسعى إلى تخفيف التعارض بين المدارس بدلا من أن يؤكد ويزيده حدة . ولا أدل على اتجاهه هذا من البرنامج الذي وضعه لوحد من كتبه المتأخرة ، والذي يتضح في عنوانه ، وهو « تقابل الأضداد في الفلسفة المعاصرة » ، وهو كتاب بذل فيه قصارى جهده ليهتدى إلى أساس مشترك تستطيع جميع المدارس أن تبدأ منه محاولة تعاونية لمواجهة مشكلات الفلسفة . وهكذا وجد ذهنه الرحب للامع تعبيراً يميز له في هذا الموقف ، وكذلك في موقف الشهامة الذي كان يعامل به خصومه إذا ما رأى نفسه مضطرا إلى الاختلاف معهم . ومع ذلك فلزام علينا أن نعترف بأن هذه الشهامة قد أدت به في كثير من الأحيان إلى التنازل عن آرائه على نحو لا يتفق مع موقفه الخاص .

ونستطيع أن نقول إن المثالية قد شعرت ، عند بوزانكيت ، بالحاجة إلى مزيد من التجربة ، وضمت إلى مجالها الخاص مجالات فكرية واسعة . ولقد كانت الميادين الخاصة التي تغلغل فيها أكثر من أن تتبع لنا تتبعه حيثما ذهب ، ومن هنا كان يكفيننا أن نستخلص ، من عدد قليل منها ، الاتجاه العام لتفكيره . ونستطيع أن نقسم نشاطه التأليفي ، بوجه عام ، إلى ثلاث فترات : في الأولى كان يهتم قبل كل شيء بالأسس المنطقية

لمذهبه ، وفي الثانية بمشكلات علم الجمال والأخلاق وفلسفة الدولة ، وفي الأخيرة أكل أطراف نظريته إلى العالم بـميتافيزيقا بناءة ، وبتطبيق هذه الميتافيزيقا على مجال الدين .

ففي مجال المنطق ، نستطيع أن نقول إن بوزانكيت قد عمق المنطق المثالي وأثراه إلى حد بعيد . ولقد تأثر في هذا المجال ليس فقط بهيجل وبرادلي ولوتسه وزيجفارت<sup>(١)</sup> ، وإنما بمل وجيفونز أيضا ، على الرغم من معارضة لها . ويقدم « منطق » بوزانكيت الخاص ، الذي أكملته فيما بعد دراسات لمشكلات خاصة ، « مورفولوجيا للمعرفة » - كما يدل العنوان الفرعي لكتابه في المنطق - والمقصود بهذا التعبير عرض لنمو الأشكال المنطقية وارتباطها الباطن . وكان ذلك خروجاً منه على طريقة الاكتفاء بالتعداد والتصنيف ، التي يتبعها علماء المنطق الصوري . فقد كان منذ البداية مهتماً بحركة الفكر المنطقي وعلاقته الأساسية بالنسق . ولم يكن التفكير في نظره أفعالا ذاتية وإنما رأى أنه يدين بطابعه المميز لإشارته إلى المجال الموضوعي للأشياء ، وهو المجال المستقل عن هذه الأفعال ؛ فهو يدرك الواقع ويغدو هو وإياه شيئا واحداً . وهكذا فإن للمنطق نفس مضمون الميتافيزيقا ، وإن كلمة هيجل القائلة إن الحقيقة هي الكل ، لتصح على الأول مثلما تصح على الثانية . هذه الفكرة تفتش في جميع تعاليم بوزانكيت . فالحقيقة لا تكون إلا في نسق ، بحيث إن علامتها المميزة هي الترابط coherence ، أى التوافق في ارتباط جميع الأجزاء في كل منظم ، لافي التطابق الخارجي بين الفكر والواقع ، كما تقول نظرية النسخة والأصل<sup>(٢)</sup> . « والوقائع الخالصة ،

(١) ظهرت ترجمة إنجليزية لكتاب زيغفارت « المنطق » ، في ١٨٩٥ . وفي نفس العام أصبحت للترجمة ، « هيلين دندى Helen Dendy » زوجة لبوزانكيت .

(٢) نظرية مؤداهما أن الحقيقة هي علاقة بين الحكم القهني وبين الواقع ، يكون فيها الحكم نسخة لأصل هو الواقع ، أى أن الحقيقة تكون في التطابق بين الحكم والواقع الخارجية مثلما تنطبق النسخة على أصلها .  
[ المترجم ]

لا تكون لها واقعية ولا حقيقة حتى ترتبط مع وقائع أخرى وتترك  
في مكانها في ترتيب الكل .

فالصورة المنطقية الأولى والأساسية في بوزانكيث — كما هي في نظر  
برادلي — هي الحكم ، لا التصور ، إذ ليس للتصور مكان في التفكير  
الفعلى إلا بوصفه جزءا عضويا من حكم . فالحكم معنى بكون كلاً عضويا ،  
وبالتالى لا يمكن فهمه إلا في ضوء الوحدة الوظيفية لأجزائه ، أما إذا  
أخذنا نعدد هذه الأجزاء ونحللها ، كان في ذلك تمزيق لنسيجها الحى .  
وكل فعل للحكم يشير إلى واقع خارج هذا الفعل ذاته . ومن الواجب أن  
يعد حكم الإدراك الحسى المألوف تماما ، تعبيراً جزئياً عن الواقع ؛ أما  
الحكم الكامل فلن يكون أقل من تأكيد الواقع كله في أعم صورة له .  
لذلك فإن الواقع ، بما هو كذلك ، هو فى آخر الأمر الموضوع المميز  
لكل حكم صحيح . وفى كل حكم تُفترض مقدما كلية الأشياء بطريقة  
أو بأخرى على الدوام ، حتى ولو كنا لا ندركها فى عملية الحكم إلا بطريقة  
جزئية . وإذن فلما كان الحكم هو الجهد الذى يبذله الفكر لتحديد الواقع ،  
فإنه ان يتباين فقط تبعاً لاختلاف الأنواع الكيفية للواقع الذى يحدده  
من آن لآخر ، بل أيضا تبعاً لدرجة النجاح الذى يحققه فى هذا التحديد .  
وسواء اتخذ الحكم شكل معادلة رياضية ، أو تعريف منطقي ، أو حكم تقويى ،  
فإن أم طابع يميزه يتحدد بالكل السامى الذى يدركه .

ويتضح نقص المنطق الصورى التقليدى والمنطق الاستقرائى الذى  
قال به التجريبيون ، على السواء ، إذا ما قيسا بالفكرة التى ترى المنطق  
متوقفا على النسق وعاملا يدخل فى تركيب الواقع . ويزداد ذلك  
وضوحا فى فكرة الاستدلال عند بوزانكيث ، وهى الفكرة التى يعرضها  
فى كتابه « المنطق » ، كما يقدم لها عرضا عميقا فى بحثه الموجز « التضمن

والاستدلال التسلسلي ، . فهو هنا يميز بين رأيين ممكنين في الاستقراء :  
 التسلسلي Linear والنسقي systematic . فالقياس ، الذي هو أصدق يمثل  
 لكل أنواع الاستنباط ، يسير تبعا للرأى الأول - فهو يربط بمحولا  
 بموضوع ، ويأخذ النتيجة على أنها موضوع جديد ، ويربط بها محولا آخر ،  
 وهكذا يسير على شكل متسلسل . ومعظم الاستدلالات المسماة بالاستقرائية  
 تسير على نفس النمط . وفي مقابل هذه الأنواع يقول بوزانكيت برأى  
 آخر في الاستدلال ، يراه فيه نسقيا systematic ، أى تضمينياً بدلا من  
 التسلسلي ، بحيث يكون التضمن هو تشابك الأجزاء في كل نسق سابق  
 عليها ، يوجه العملية الاستدلالية كلها ويتغلغل فيها نتيجة لصفة السبق هذه .  
 فنحن في كل استدلال حقيقى ، سواء أكان ذلك في التفكير العلى  
 أم في التفكير اليومى ، نستعرض نسقا من الوقائع ، ونأمل في علاقته  
 بنسق أكبر للواقع ، وتبين المتضمنات بطريق مباشر أو غير مباشر ؛ وكلما  
 كانت ارتباطات النسق في أى فرع للمعرفة أكل وأشمل ، كانت تلك  
 المعرفة أرفع .

ومن الطريف ، فى صدد هذا الرأى القائل إن جميع العمليات المنطقية  
 تركّز على استدلال نسقي ، لا تسلسلي ، أن نلاحظ تأثير هوسرل (١) .  
 ذلك لأن أعمال هوسرل فى عمومها ، ولا سيما منهجه فى حدس الماهيات  
 بوجه خاص ، قد أدت ببوزانكيت إلى الفكرة القائلة إن التبدى المباشر  
 للدالات أو التضمنات الرابطة يلعب ، فى جميع العمليات المنطقية ، دورا أهم  
 بكثير من الاستدلال على أساس التجربة السابقة . فهناك عامل حدسى  
 يودى دوره ، ويمكننا من أن نتأمل ماهية الأشياء فى أعماق أعماقها - إن  
 جاز هذا التعبير - وندرك على التو ارتباطاتها داخل النسق ، وهكذا

(١) انظر د ب . بوزانكيت وأصدائه ، ص ١٤٩ و ١٧١ وأجزاء متعددة  
 من الكتاب .

لا يتردد بوزانكيت في أن يعلن أنه ليس من الصحيح على الإطلاق أن يقال على هذا الحدس إنه لا منطقي أو لا معقول ، بل إنه يكون ماهية كل الأنواع العليا من الاستدلال . كذلك ينبغي أن نلاحظ أن التضمن بهذا المعنى يعني بالنسبة إليه نفس ما يعنيه الديالككتيك . ولما لم يكن من المحتمل أنه قد عرف بوجود ارتباط تاريخي وثيق بين ديالككتيك هيجل وحدس الماهيات عند هوسرل ، فإن إدراكه للعلاقة الوثيقة القائمة بينهما هو دون شك علامة على صدق فطرته .

أما في ميدان الفلسفة السياسية ، فإن بوزانكيت كان يسلك نفس الطريق المثالي العظيم الذي سار فيه أفلاطون وأرسطو وروسو وهيجل وجرين . وإذا استثنينا المحاولة التي بذلها جرين على استحياء ، فقد كان بوزانكيت أول مفكر في إنجلترا يقوم بعملية إحياء حقيقية لفكرة الدولة كما تصورهما هيجل ، في مقابل النظريات القومية الليبرالية عند بنثام وميل وسبنسر . وعلى حين أن جرين قد توقف في منتصف الطريق ، فإن بوزانكيت قد سار الشوط كله مع هيجل ، وكان أول من فعل ذلك . ويمكن القول ، دون تحفظ ، إن وضعه لنظرية الدولة كان أكبر وأهم محاولة في الحركة المثالية الإنجليزية .

والمشكلة الأساسية في هذا الصدر هي علاقة الفرد بالمجتمع ، وهي المشكلة التي سرعان ما تغدو جزءاً من المشكلة الميتافيزيقية العامة ، مشكلة علاقة الجزء بالكل . فالفرد المنعزل الذي اتخذت منه جميع النظريات السياسية الإنجليزية تقريباً نقطة بداية لها ( وقد أطلق بوزانكيت على هذه النظريات اسماً ملائماً هو "نظريات الوهلة الأولى" theories of the first look ) ، لا يمكن أن يكون هو الفرد الذي نعرفه في المجتمع أو الدولة والذي نهتم به في هذا الفرع من الفلسفة . كذلك لا بد أن يكون هنالك خطأ في الافتراض القائل إن الناس بطبيعتهم أفراد من هذا النوع ، ينعزل

بعضهم عن البعض ، أو حتى يعارض بعضهم البعض ، ولا يتجمعون سوية في مجتمع إلا في مرحلة متأخرة ، وبطريقة مصطنعة أو خارجية . فلهذا خطا روسو خطوة هائلة إلى الأمام ، واستتبقت النظرية المثالية في الدولة ، بتمييزه بين « إرادة الجميع Volonté de tous » ، وبين « الإرادة العامة Volonté générale » . فالأولى لا تعدو أن تكون مجموع الإرادات الخاصة ، بينما الثانية تتضمن فكرة الوحدة العضوية . ويوضح بوزانكيت هذا التمييز فيضرب له مثلا دالا عليه ، هو التفرقة بين الحشد الذي اجتمع كيفما اتفق ، والجيش المنظم . فليس بين أفراد النوع الأول ما يشتركون فيه إلا تجمعهم سويا ، أما أفراد النوع الثاني فيجمع بينهم تنظيم يتحدد فيه الأفراد تبعاً لكل منظم يتغلغل ويحيي فيهم . وهكذا فإن الفرد ، عندما يتغلغل فيه ، على هذا النحو ، الإرادة العامة ، يتخلص من عزلته ، ولا يعود مفككا منفصلا عن غيره ، ويرتفع إلى مستوى أعلى ، ويبلغ فرديته الأصلية التي تنتمي إلى ذات تربطها بالكل الجماعي رابطة عضوية . وبهذه النظرة العميقة إلى الفردية حطم بوزانكيت أساس النزعة الفردية في النظرية التجريبية في الدولة .

ولو نظرنا إلى الذات الجزئية من الوجهة الأخلاقية ، لكانت هي الذات الانانية التي تحيا تماما بدوافعها الطبيعية ، على حين أن الذات العضوية هي الذات المعنوية أو العاقلة . والآن يمكن تحديد ماهية الدولة وغايتها . فالدولة هي الإرادة العامة أو العاقلة ، وهي كائن مستمر في هوية مع ذاته ، يتغلغل في كثرة من الأفراد الذين لا يكون للدولة وجود ومعنى إلا فيهم وبهم . والغاية العليا للدولة هي نفس غاية الفرد ، أي تحقيق أفضل حياة ممكنة ، أو الارتفاع بطبيعتنا إلى الوحدة السكاملة مع الكل الاجتماعي — والأمران سريان . غير أن للدولة ، في غايتها المباشرة ، وظيفة أخرى أكثر سلبية ، هي إزاحة العقبات التي تقف في وجه تحقيق الغاية الأخلاقية .

ولما لم يكن من الممكن دائماً إزاحة هذه العقوبات بالتأثير الأخلاقي البحت ، فإنه يتعين في كثير من الأحيان اللجوء إلى الإرغام والقهر . وهكذا فإن القوة جزء أصيل لا يتجزأ من طبيعة الدولة ، إذن الأنايين في طبيعتهم الجامدة ، وكذلك معظمنا في حالتنا الحيوانية ، يحتاجون إلى الإرغام من أجل تحقيق الذات الحققة . وهذه فكرة تظهر فيها بوضوح تلك الثنائية التي وضعها كانت بين الذات التجريدية والذات المعقولة . فعلى عاتق الدولة تقع مهمة تحرير الذات العاقلة من أغلالها التجريدية ، والارتقاء بها ، ولو بالقوة ، إلى مرتبة الحرية ، ذلك لأن الحرية هي تحقيق الذات الحققة ، وهي أن نحيا أفضل حياة ممكنة لنا ، ونكون نحن والكل واحداً . وما القسر الذي تفرضه علينا الإرادة العامة ، آخر الأمر ، إلا المطلب الذي تفرضه ذاتنا الحققة الفاضلة على ذاتنا الدنيا العنيدة ، ومثل هذا القسر أمر لا مفر منه طالما أنه ليست لدينا فكرة عن ضرورة هذا المطلب ، أو طالما كانت فكرتنا عنه ناقصة فحسب . وهذا هو أساس حق الدولة في معاقبة المذنبين . فالعقاب تعويض عن الظلم الذي يلحق المجتمع نتيجة للإخلال بنظامه القانوني ، وهو إلغاء للإرادة المضادة للمجتمع عند المذنب . والمذنب ذاته عضو في الجماعة التي لحقها الظلم ، وله على هذا الأساس الحق في أن يعاقب بمعنى ما ، لئلا يُستخدع في طبيعة الحياة الاجتماعية . ويعد إلحاق العقوبة به ثمناً لإعادة اندماجه في المجتمع الذي خرج على قانونه بما ارتكبه من إثم . وهنا نجد بوزانكيت يسائر نظرية هيجل التي تعرف العقوبة بأنها قصاص .

وخير سبيل إلى تحقيق هذه المهام المتعددة ، في رأى بوزانكيت ، هو الدولة القومية national State . ولا شك أن فكرة الإنسانية تتجاوز هذا المدى ، غير أنها لما كانت غير قابلة للتحقق في نظام أو كل منظم ، فليست لها أهمية فيما يتعلق بالتدبير العملي للمهام الاجتماعية . ومن الواجب ألا يحكم على أخلاقية أفعال الدولة بالمقاييس التي تسرى على أفعال الأفراد ،

إذ إن الغايات الواجب تحقيقها أرفع ، بحيث تجعل من الدولة ، بوصفها فرداً من مرتبة أعلى ، كياناتاً بذاته ولا نظير له . فقد يتعين في بعض الأحيان أن تستخدم القوة السكّانة في طبيعتها ، والتي تستخدمها في كثير من الأحيان ضد أفرادها ، ضد دول أخرى ، عندما تهدّد المصالح العليا للأمة . ولقد لقيت هذه الآراء وغيرها من الآراء المشابهة ، كما لاحظنا من قبل عند الكلام عن هبوس ، معارضة شديدة خلال الحرب العالمية الأولى ، عندما رأت العقلية التي أعمتها الحرب في نظرية الدولة عند هيجل — وهي النظرية التي شوّهتها هذه العقلية تماماً — أصلاً روحياً للكارثة . أما اليوم ، بعد أن أصبحت النفوس أهدأ ، فقد اعتُرف من جديد بأن فيلسوفاً إنجليزياً لم يدرك طبيعة الدولة ويعرضها على نحو أعمق مما أدركها وعرضها به بوزانكيت ، وهو فيلسوف هيجلي .

أما الميتافيزيقا فإنها بداية تفكير بوزانكيت ونهايته ، وهي أيضاً كل ما يقع بين هذه البداية والنهائية . ويتم الانتقال إليها من فلسفته في الدولة عن طريق الاعتراف بأن الروح الاجتماعية ، التي تكون الدولة أعلى تجسّد لها ، ليس هي الصورة النهائية للفردية ، بل هي واحدة من صورها الأولية فحسب . فهناك ، من وراء أنظمة الحياة السياسية وأوجه نشاطها ، مجالات تساهم بنصيب أكبر كثيراً في تحقيق الذات التي اكتفت الدولة بدعمها وكفالة الأمن لها . فالروح الإنسانية . في إدراكها المتزايد للعالم ، تعلو على الدولة إلى نسق أعلى تزيدها اقتراباً من الواقع المطلق ، أعنى منسق الفن والدين والفلسفة . وبهذه الأخيرة تصل إلى الميتافيزيقا ، أي مذهب المطلق .

وعلى الرغم من أن أنظار بوزانكيت الميتافيزيقية ، التي تبدى فيها ألقاه من محاضرات « جيفورد » ، تفترق عن أنظار برادلي وتتجاوزها من حيث المضمون والمصطلح معاً ، فإن التغيرات لا تمس إلا الفوارق الدقيقة .



والاختلافات السطحية ، أما في جميع النقاط الأساسية فهو يسير في الاتجاه الذي أشار إليه برادلي . لذلك لم تكن بنا حاجة إلا إلى أن نلفت الأنظار إلى النواحي التي يبدو أنه تجاوز برادلي فيها .

وتتركز أفكار بوزانكيت في مشكلة الفردية . فمهمته هي إدراك طبيعة الفردية ، لا في أي مجال خاص ، كالمجال الأخلاقي أو الاجتماعي ، وإنما في دلالتها الميتافيزيقية النهائية . هذه الدلالة ، كما فهمها بوزانكيت ، مضادة تماما للرأي السائد عن الفرد بوصفه شيئا منعزلا ، خاصا ، فريدا . ويتضح ذلك في موقفه من التاريخ : فهو ، على خلاف بعض الفلاسفة الألمان المحدثين ، الذين كان التاريخ في نظرهم هو المجال الخاص بالفرد ، قد رأى أن التاريخ تجربة من نوع مختلط ، تتميز بالتعاقب العارض والزمني المحض للحوادث ، وبالتالي لم يعلق عليه أهمية . وهو بالفعل يرى بدوره أن الفرد شيء خاص يتميز على نحو فريد تماما من الجزئيات الأخرى ، ولكن بمعنى أن هناك شيئا واحدا فقط هو الذي يعبر بوضوح عن طبيعة الفردية ، ألا وهو المطلق . فالوحدات في الرياضنة والعلوم الطبيعية ، كالأعداد والذرات ، تقف على مسافة بعيدة كل البعد عن الفرد بالمعنى الآخر الذي فهمه به بوزانكيت ؛ فالأولى وحدات مجردة ، وبمجرد تكرار لمتشابهات ، بينما الفرد الحقيقي هوية عينية كلية داخل كل منظم زاهر بالتنوع .

وهكذا فإن الفردية ، بوصفها الكلية العينية ، واللامتناهي الحقيقي بالمعنى الهيجلي ، تبلغ أسنى مراحلها في تجربة " المطلق " ، اللامتناهية . أما في التجربة المتناهية فإننا نجد استباقات لها ، وأفرادا من نوع أدنى ، تتمثل أكمل أنواعها في العمل الفني وفي الشخصية الإنسانية وفي الطائفة الاجتماعية مثلا . ومن الواجب ألا نخطئ فهم هذه الفكرة في حالة الإنسان . ففي اللغة المعتادة يقال عن الإنسان إن لديه فردية بقدر ما يكف عن أن يكون مجرد ممثل للنوع الذي ينتمي إليه ، وبقدر ما يغدو شخصية ،

أى بقدر ما يتميز بصفاته وأعماله الخاصة . بل إن التفكير الفلسفى ذاته كثيرا ما نظر إلى فكرتى الفردية والشخصية على أنهما فكرتان لا تنفصلان ، وقد كان د . راشدال ، ، من بين الفلاسفة الإنجليز المتأخرين ، أوضح وأصدق يمثل لهذه النظرة التشخيصية . غير أن بوزانكيت يخالف هذا الرأى ؛ فهو لا يوافق على أن الشخصية عنصر ضرورى داخل فى تكوين الفردية ، ويؤكد مرارا أن الفردية البشرية ليست هى التى تحقق مقتضيات الفردية الكاملة بمعناها الصحيح ، وإنما ينبغى التماس هذا التحقق فيما وراء المستوى الشخصى والمتناهى . فما الفرد البشرى إلا جزء من كل أكبر ، وهو بدون هذا الكل لا يكون شيئا ، وإنما يحتاج إلى أن يكمل فيه ؛ فهو ناقص مفتقر إلى الكمال طالما ظل على تناهيه ، وهو لا يكون فردا بحق طالما ظل شخصا . وإنما هو فى الأصل لا يعدر أن يكون كثرة وتعددا ، يهفو إلى أن يصبح كلا واحدا . ومن هنا كان عليه أن يجد حلا وسطا أو توفيقا بين ما يكونه وبين ما يود أو ينبغى أن يكونه . وعلى ذلك فالصفة المميزة للمتناهى هى العلاء على الذات . وهذه فكرة لها أهميتها الرئيسية فى مذهب بوزانكيت .

وتحتل الفكرة مكان الصدارة فى الجزء الثانى من « محاضرات جيفورد » الذى حارل فيه تقديم عرض ميتافيزيقى « لقيمة الفرد ومصيره » . وهو يرى أن هناك ثلاث مراحل ينبغى أن يعتبرها المرء فى سيره نحو مصيره ، هى « تشكيل النفوس moulding of souls » ، « ومخاطرها ومشاقها hazards & hardships » ، « واستقرارها وطمأنيتها stabilty » ، security . فالمركز الذى يتميز به الإنسان فى الكون هو أنه يقف بين قطبي « الطبيعة » ، والمطلق ، المتناهى واللامتناهى ، بحيث إن له طابعا مزدوجا ، وبحيث يكون متناهيا ولا متناهيا معا . فهو ينشأ من الظروف الطبيعية للحياة ، ويكون فى مبدأ الأمر مقيدا بهذه الظروف خاضعا

لها في جزء من نسيج وجوده . غير أنه ، بقدر ما يكون نتاجا خالصا للطبيعة ، يعجز عن تحقيق المعنى والهدف الصحيح لوجوده . على أن في الإنسان منذ البداية حافزا يدعو إلى بلوغ مزيد من الكمال الذي يتجاوز صفاته الطبيعية الخاصة . هذا الحافز يولد اضطرابا في نفسه ، واختلالا في التوازن المحكم الذي تتحقق في ظله الغريزة الحيوانية ، بحيث ينغمس الإنسان في معترك الوجود الحي ، في النضال والحاجة ، في الخطر والهم ، ولا يجد له في أى مكان مستقرا . غير أنه لا يستطيع أن يثابر على هذا التذبذب الدائم بين المتناهي واللامتناهي ، ويهفو على الدوام إلى تلك الصورة العليا للوجود ، التي يجد فيها وحدها ذاته الحققة ، وكمال . وفي عملية التقدم هذه يتعين عليه أن يترك جانبا فرديته المتناهية ، بكل ما فيها من قلق وشقاق ، وينبغي أن يخترق كل ما كانه من قبل ، في تحول أصيل ، وهو لا يصل إلى الخلاص مما تتصف به حياته الطبيعية من قصور ونقصان ، ومن ضغط وعذاب ، ولا يرتفع إلى مستوى الاستقرار والطمأنينة في الهدوء والكمال ، إلا إذا تحقق هذا التحول . فعندئذ تنتقل ذاته ، محورة ، إلى الاندماج في السلام الأزلي للمطلق . ولو كان للاعتقاد بالخلود أى معنى ، فهذا المعنى ليس هو أننا نحمل ذاتنا الحالية إلى العالم المقبل ، وإنما أننا يمكن أن نظل باقين على نحو ما ، في ذلك العالم ، في صورة متغيرة .

ومن الواجب أن نتجنب فهم هذه الأفكار بأى معنى ديني . فقد كان بوزانسكيت يماثل برادلي في بعده عن الدين بمعناه الضيق ، وكان مثله ينظر إلى الدين ، مهما كانت قيمته وضرورته في مجاله الخاص ، على أنه لا يعدو آخر الأمر أن يكون مرحلة مبدئية تمهد للستايفيزيقا ، وكان ينظر إلى الله لأعلى أنه السكائن الحقيقي الشامل لكل شيء ، بل على أنه مظهر ، أى على أنه أعلى المظاهر ، ولكنه ما زال أقل من المطلق . وإنما الواجب أن يفهم التحول الذي تحدثنا عنه من قبل بمعنى ميثافيزيقى صرف ، أى على أنه علو

الفرد على ذاته ، لافى عالم يتجاوز هذا العالم . بل فى حياته اليومية فى المسكان والزمان الحالين . ويعلمن بوزانكيت أن إعادة تنظيم تجربتنا عن طريق إدراجها فى تجربة كلية أكل ، هو شيء يمكننا أن نحققه فى أى وقت : فالمطلق يدخل حياتنا المتناهية ويتبدى فى أى شيء نفكر فيه أو نفعله . فإى تحليل دقيق لحياة كائن بشرى عادى فى يوم واحد ، كفىل بأن يأتى على نحو قاطع بكل ما هو لازم من حيث المبدأ لتأكيد المطلق ،<sup>(١)</sup>

وعلى ذلك فإن بوزانكيت ، مثل برادلى ، يرى أن المطلق ، الذى يوضح على مذهبه بفرديّة الإنسان الشخصية ، إنما هو نتاج للشوق والتلف . فهو المثل الأعلى الذى نصبو إليه ، وهو أعلى قيمنا ، وهو النجم الذى يهديننا فى ارتقائنا بطبيعتنا . وعلى ذلك فهو لا يوجد وراء أفق بعيد ، وإنما هو بيننا ؛ وكل ما علينا هو أن نمد أيدينا لنصل إليه ونأتى به إلى وجودنا . بل إن فى وسعنا ، دون أن نخرج عن معناه ، أن نسميه بالإنسان الأرقى Superman بلغة نيتشه ، وقد استخدم بوزانكيت نفسه تعبير نيتشه « قلب كل القيم » ليصف علو المتناهى على ذاته . ولقد أكد بعض الكتاب أن نظريته إلى العالم طابعا بطوليا . ومع ذلك فمن الخطأ المضى فى هذا الاتجاه أبعد مما ينبغى ، إذ إن المثل الأعلى عند بوزانكيت أقرب بكثير إلى طابع الملاذ الأمين ، والمقر المريح ، وهو أكثر سلبية وسكونا من أن يسمح بالتوفيق بينه وبين كفاح نيتشه البطولى من أجل إعلاء طبيعتنا ؛ كذلك الحال فى تفاؤليته الساذجة ونظريته إلى الحياة البشرية على أنها تنزلق بهدوء إلى الاستقرار فى الانسجام الوداع المطلق . فهو فى هذه النواحي يقتنى أثر برادلى .

وعلى الرغم من أن بوزانكيت ، كما رأينا ، قد جعل من مشكاة الفردية محورا للتفكير ، فإن مذهبه فى المطلق لم ينشأ عنها ، وهذا أمر واضح لديه كما هو لدى برادلى . ذلك لأنه إذا كان السبيل إلى بلوغ المثل الأعلى هو التضحية

بالذات الإنسانية ، فهلا يكون في ذلك تحطيم لشخصية الإنسان في أعرق أغوارها ؛ وإذا كان لابد لهذه الشخصية أن تتبدل تماما لكي تجد ذاتها الحقة ، فما الذي يتبقى من قيمتها المميزة ؟ . أسنا نقدر قيمة الشخصية أولا وقبل كل شيء من أجل ماهي عليه في المكان والزمان الراهنين ، لا من أجل مثل أعلى لها يقتضى تحقيقه القضاء على كل ماهو عزيز لدينا ؟ . أليست فكرة إذابة فرد وإدراجه في فرد أعلى ، هي على أية حال ، فكرة يصعب تصورهما إلى حد بعيد ؟ . لا جدال في أن بوزانكيت ، في بحثه في الشخصية الفردية ، يمضى في الحد من قيمتها إلى حد يستحيل بعده البحث على أى نحو في مسألة إدراك طابعها الاسامى . فذهبه مضطر إلى الاختيار بين أحد أمرين : إما أن يظل المثل الأعلى غير متحقق وإما أن يقضى على الواقع الحقيقى . وتلك هي نتيجة السير بالمثل الأعلى أبعد مما ينبغى عن الواقع .

ولا يتسع المقام هنا لمعالجة ميتافيزيقا بوزانكيت بطريقة شاملة على أى نحو ، كما أن الحاجة لا تدعو إلى ذلك . بل نستطيع أن نختم كلامنا بأن نلاحظ أن مشكلة القيم تحتل فيه مكانة أبرز بكثير من مكانتها عند برادلى ، وربما كان ذلك راجعا إلى تأثير لوتسه والفلاسفة الألمان المتأخرين الذين بحثوا مشكلة القيم . على أن تكرار استخدام التعبيرات المستمدة من مجال القيم لم يتغير بالفعل أى عنصر اسامى في الموضوع ، بحيث لا يمكننا في هذه الحالة أيضا أن نقول إن بوزانكيت قد أفلح في إحراز أى تقدم حقيقى على برادلى ، الذى كان التجاؤه إلى مصطلح القيم أقل منه بكثير . والواقع أن استخدام برادلى المتحمس المترفع للفظ ، الواقع ، يدل على أن هذا اللفظ كان في نظره تصورا ينتمى أساسا إلى مجال القيمة . ولما كان الأمر كذلك فقد كان من السهل إعادة التعبير عن أجزاء معينة من مذهبه بلغة القيم . وهذا ما فعله بوزانكيت . فالمطلق في نظره ليس أعلى حقيقة وأسمى واقع فحسب ، بل هو أيضا أعلى القيم ، وهو مقياس كل جدارة .

كذلك اعترف بوزانكيت بمستويات القيمة مثلما اعترف بمستويات الفردية والواقع : فمقياس جدارة أية ظاهرة هو في حتميتها المنطقية وخلوها من التناقض ، أو في الارتباط العضوي المتبادل والانسجام بين أجزائها . . . والأمران سيان . ومن الواضح أن فكرته عن القيمة ، ونظريته إلى العالم بوجه عام ، قد تحددت أساسا بأفكاره الرئيسية المنطقية والجمالية . فتأثير الأفكار المنطقية واضح في سعيه وراء الرضاء النظرى باستبعاد كل ما هو متناقض لامعقول ، كما أن تأثير علم الجمال واضح في ذلك التكامل المنسجم لمذهبه في سيمفونية للمطلق يعود فيها كل ما هو نشاز إلى التوافق والانسجام .

وليس في وسعنا إلا أن نتعرض بإيجاز للدور الذى ساهم به بوزانكيت في علم الجمال . فقد كان من الفلاسفة الإنجليز المتأخرين القلائل الذين شغلوا بهذا الميدان وقد لفت النظر ، بذلك ، إلى جزء من تراث هيجل كان من العجيب أن المدرسة الهيجلية لم تكده تهتم به . ولقد كان يدين بالكثير إلى رسكين Ruskin ووليام موريس ، بالإضافة إلى دينه لهيجل . وكان أهم مؤلفاته في هذا الصدد كتابه الشامل « تاريخ علم الجمال » الذى يتمم تطور نظرية الفن وعلم الجمال منذ اليونانيين حتى القرن التاسع عشر . ويعد هذا الكتاب ، الذى تغلغل فيه روح هيجل ، بحثا تاريخيا من الطراز الأول ، جمع بين ارتفاع مستوى الثقافة وبين سعة الاطلاع والفهم العميق للمشكلات الفنية والجمالية ، وقام فيه بدراسات واسعة عميقة لمواقف وشخصيات روحية . فبحثه ، مثلا ، فى الدلالة الجمالية للحركة الألمانية منذ بداية القرن الثامن عشر ، إلى المذهب الكلاسيكى والرومانتيكى والمثالى ، حتى المدارس بعد الهيجلية — هذا البحث هو وحده شاهد على سعة نطاق قراءاته إلى حد يدعو إلى الدهشة . وليس من المبالغة أن نقول إن بوزانكيت كان ، فى عصره ، هو الإنجليزى الوحيد الذى كان فى وسعه الارتفاع إلى

هذا المستوى العالى الشامل فى الملاحظة . أما آراؤه الخاصة فى علم الجمال ، التى لم يعرضها إلا فى كتاب صغير جداً ، فتندرج بطبيعة الحال ضمن الإطار العام لمذهبه ، وإن لم يكن هذا الإطار يظهر إلا بطريقة عارضة ، ولا يحول على أى نحو دون التطور الحر لأفكاره .

ولقد كان يرى فى الجمال نوعاً أساسياً من الوحدة العليا ، وتوفيقاً بين الخاص والعام ، والطبيعى والروحى ، والضرورة والحرية . وكان تصورهم للجمال من المصعة بقدر تصورهم للخير والحق ، وهكذا جعله يشتمل على القبيح بوصفه أدنى مستوى أو مظهر أله . وإن الكمال المفسجى الذى نتمتع به فى العمل الفنى إنما هو أكمل بشير بتلك الوحدة النهائية التى تتطلع إليها الميتافيزيقا بوصفها « المطلق » .

هارولد هنرى جويكم Harold Henry Joachim

( ولد فى ١٨٦٨ ) (١)

[ تعلم فى كلية باليول بأكسفورد . وكان منذ ١٨٩٢ إلى ١٨٩٤ محاضراً فى الفلسفة فى سانت أندروز ؛ كما شغل نفس المنصب فى كلية باليول من ١٨٩٤ إلى ١٨٩٧ ؛ وعمل من ١٨٩٧ إلى ١٩١٩ زميلاً ومدرساً بكلية مرتون بأكسفورد ؛ وعين فى ١٩١٩ أستاذاً وديكهاًم Wykeham « للنطق بجامعة أكسفورد » وتقاعد سنة ١٩٣٥ .  
مؤلفاته : « دراسة فى كتاب « الأخلاق » لاسبينوزا : A Study of the Ethics of Spinoza » ١٩٠١ ؛ « طبيعة الحقيقة The Nature of Truth » ١٩٠٦ ؛ « التجربة للباشرة والتوسط Immediate Experience & Mediation » ١٩٠٦ ؛ محاضرة افتتاحية ، ١٩١٩ ؛ كما ترجم كتاب « الكون والفساد » فى ترجمة أكسفورد لمؤلفات أرسطو ، ١٩٢٢ ] .

أثارت نظرية الحقيقة عند جويكم ، وهى النظرية التى وضعها على

أساس مذهب المطلق عند برادلى وبوزانكيت ، اهتماما كبيرا بمجرد ظهورها ، كما حفزت على قيام مناقشات حية اشترك فيها رسل ومور وشيلر ودوس هكس Dawes Hicks وغيرهم . وكان سبب هذا الاهتمام الذى أبدى بكتاب صغير نسبيا هو أن الكتاب ، الذى ألفه ممثل لمدرسة المطلق ، قد تضمن لأول مرة اعترافا علنيا صريحا ببعض الصعوبات الكامنة فى مذهب المطلق ، واستخلص منها نتائج معينة كان يمثلو المدرسة يخفونها ، ولكن كان خصومها قد كشفوها من قبل . فضلا عن ذلك فقد وضع جويكم فى صورة منهجية أفكارا اكتفى برادلى بالإشارة إليها ، أو عرضها بطريقة عامة فحسب .

تقول هذه النظرية إن من الواجب النظر إلى الحقيقة على أنها هى حقيقة النسق فحسب ، أى هى الترابط داخل كل أكبر للمعرفة والوجود ، وداخل الكل الكامل لهما آخر الأمر . ونستطيع أن نطلق على هذه النظرية اسم نظرية الترابط الكامن immanent coherence ويميز جويكم بينها وبين ثلاث نظريات أخرى كانت شائعة عندئذ . فالحقيقة أولا ليست هى التطابق بين الفكر والواقع ، وليست هى التصوير الفكرى لواقعة ، وليست صورة صحيحة لأصل خارج عنها . وهى ثانيا ليست صفحة لكيانات مستقلة عن الوعى ، توجد فى ذاتها ولذاتها ، وبالتالي لا ترتبط بالذهن الخارجى . وثالثا فهى لا يمكن أن تكون إدراكا حديسيا مباشرا لموضوعات ، حتى لو كانت تتخذ هذا الشكل فى كثير من الأحيان ، وعندما تتخذ الحقيقة هذه الصورة لا تكون صحيحة بسبب هذا الطابع المعطى المباشر ، بل رغما منه . ومقابل هذه النظريات يرى جويكم أن الحقيقة تتكشف فى توسط عقلى داخل نسق . فكل حكم جزء من تركيب عام للمعنى ، بدون أنه لا يكون الحكم شيئا ؛ وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بأساس يستمد منه معناه المحدد . هذا الأساس ، كما قلنا ، هو كل المعرفة أو الوجود . وحتى لو تأملنا قضية بسيطة ، تبدو واضحة بذاتها ، مثل  $2 + 2 = 4$  ،



توجدناها لا تكتسب معنى ، وبالتالي لا تكتسب حقيقة ، إلا إذا نظر إليها في ضوء الذسق الكامل للأعداد ، الذى هو بدوره ليس قسماً أو جزءاً صغيراً من الواقع من حيث هو كل . وكلما اتسع نطاق أساس المعنى الذى يرتكز عليه الحكم ، كان هذا الحكم أصح ، إذ إن حقيقته تتوقف على درجة الترابط التى تتحقق للفسق فيه . وبالمثل فإن كل تجربة جزئية تكون فى التجربة المثالية الشاملة لكل شئ . ولكن ينبغى ألا ينظر إلى هذه التجربة المثالية بطريقة سكونية ، على أنها تركيب جامد ، وكل تام يرتكز فى ذاته ، وإنما ينبغى أن تعد عملية حية تحقق ذاتها . وهنا يترك جويكم ، مثل برادلى ، مجالاً لإمكان وجود درجات للحقيقة تتدرج بين طرفين هما الحقيقة كاملة الفسق ، وبالتالي المطابقة ، من جهة ، والوقائع المنعزلة تماماً من جهة أخرى . وهو يتفق أيضاً مع برادلى ، ومع اسينوزا الذى درسه بعق ، فى قوله إن الخطأ حقيقة ناقصة ، أو هو الظل الذى تلقيه الحقيقة ، فهو العنصر السلبي فى قلب الأشياء ، وهو نشاط قبيح سيختفى فى توافق المطلق ، وهو مجرد مرحلة جزئية أو عامل جزئى فى الديالكتيك اللانهاى للحقيقة . ومعناه المبتايزيقي النهاى هو سقوط المتناهى عن اللامتناهى ، وانفصال جزء عن الكل ، يود أن يؤكد استقلاله الخاص . هذا الانفصال الواحد من عوامل الحقيقة ينتمى إلى الطبيعة الباطنة للحقيقة ؛ فالجزء إنما هو سلب للحقيقة ، ووجه مغاير لها ، ينبثق عن باطنها ، ولكنه لا يفعل ذلك إلا ليعود إليها ، إذ إن الوحدة تستوعب المغايرة ( otherness ) وتعلو عليها . وهنا نجد بكل وضوح عنصراً صوفياً اسينوزياً ، يشمل كذلك لدى برادلى ، ولكنه لا يشمل لدى بوزانكيت .

وبعد كل هذا للعرض الذى يقدمه جويكم بدقة وإحكام كبيرين ، يعترف اعترافاً طريفاً ، هو أن نظرية الترابط لا يمكن أن تأتى بالحل المرضي لطبيعة الحقيقة ، وأن مآلها إلى الانهيار . فهو يرى أنها لا تنطبق

إلا على حقيقة مثالية لا يمكن أن تبلغها المعرفة البشرية أبدا . فمعرفةنا  
المتناهية مقالية discursive دائما ، وهي دائما معرفة « عن » شيء غيرها ،  
وبالتالى فإن أية نظرية نصوغها عن الحقيقة لا يمكن إلا أن تكون نظرية  
« عن » حقيقة أسبق منها فحسب . لذلك فإن فكرة الترابط لا يمكن أن  
ترتفع فوق مستوى معرفة مهما بلغت فلن تزيد على ما تبلغه الحقيقة بوصفها  
تطابقا بل إن هذا يستتبع أيضا أن نظرية الترابط ذاتها لا يمكن أن تكون  
لها صحة كاملة ، إذ لا يمكننا أن نثبت أنها علامة للحقيقة المطلقة ، بل إننا  
نرجح ذلك فحسب . وهكذا اعترف جويكم بانهايار نظريته الخاصة ، حتى  
مع تأكيدها أنها تغوص فى قلوب المشكلة على نحو أعمق مما تغوص فيها أية  
نظرية أخرى . مثل هذه النتيجة لا يمكن أن تكون مرضية ، وهي تدل  
على أن هناك خطأ ما فى الأسس الفلسفية التى نشأت منها النظرية . والمشكلة  
إنما تكون فى تلك الهوة السحيقة التى وضعها برادلى بين المظهر والواقع ،  
والتي استبقاها جويكم فى صورة انفصال أكبر مما ينبغى بين المعرفة البشرية  
والحقيقة المطلقة . فالمثل الأعلى مرفوع فوق الواقع الفعلى إلى حد لا يتيح  
له أن يجد فى هذا تعبيراً عنه وتجسداً له . فالخصومة الشديدة بين مذهب  
المطلق وبين المذهب البرجماتى مثلاً ترتكز أساساً على التقابل بين مذهب  
يتخذ من المثل الأعلى غاية له ومذهب لا يتركز إلا فى مجال التجربة البشرية .  
لقد كان التأثير المباشر وغير المباشر لتعاليم برادلى من القوة بحيث لم  
يكذب يفلت منه أى مفكر هام ، ويمتد هذا التأثير فى جميع أطراف الفلسفة  
الإنجليزية المعاصرة ، فهو ظاهر فى أتباعه وخصومه والمحايد على السواء .  
وهو لم يبدأ فى الاضمحلال إلا فى السنوات الأخيرة . ونستطيع أن نذكر ،  
من بين أقرب الأتباع إليه ، بالإضافة إلى بوزانكيت وجويكم ، أ . ا . تيلور  
A. E. Taylor ، الذى كان يدين لبرادلى بالكثير فى كتاباته الأولى . ولكن لما  
كان تيلور قد اتبع فيما بعد طرقاً فكرية أخرى ، واهتدى إلى طرق خاصة به ،  
تختلف كثيراً عما لدى برادلى ، فلزام علينا أن نعرض له فى موضع آخر .

## القسم الخامس

### مذهب الكثرة عند ماكتجارت

جون ماكتجارت إليس ماكتجارت J. M. Ellis McTaggart

( ١٨٦٦ - ١٩٢٥ )

[ تعلم في كلية ترينتي بكيمبردج . وكان من ١٨٩١ إلى ١٩٢٥ زميلا بنفس الكلية ، ومن ١٨٩٧ إلى ١٩٢٣ مدرسا بها .

مؤلفاته : « دراسات في الديالكتيك الميجل Studies in the Hegelian Dialectic » ، ١٨٩٦ ( الطبعة الثانية ، ١٩٢٢ ) ؛ « دراسات في الكونيات الميجلية Studies in the Hegelian Cosmology » ، ١٩٠١ ( الطبعة الثانية ، ١٩١٨ ) ؛ « بعض المعتقدات الدينية Some Dogmas of Religion » ، ١٩٠٦ ( الطبعة الثانية مع مقدمة عن تاريخ حياته بقلم ش . د . برود C. D. Broad ، ١٩٣٠ ) ؛ « شرح على منطق هيجل A Commentary on Hegel's Logic » ، ١٩١٠ ( طبعة جديدة ، ١٩٣١ ) ؛ « طبيعة الوجود The Nature of Existence » ، المجلد الأول ، ١٩٢١ ( المجلد الثاني ، نمره ش . د . برود ، ١٩٢٧ ) ؛ « مثالية أنتولوجية An Ontological Idealism » ، مقال في كتاب « الفلسفة الإنجليزية للعاصرة » ، نمره ج . هـ . ويرهيد ، المجموعة الأولى ، ١٩٢٤ .

مؤلفات نشرت بعد وفاته : « دراسات فلسفية Philosophical Studies » ، نمره س . ف . كيلنج S. V. Keeling ، ١٩٣٤ .

انظر : « ماكتجارت » ، بحث تذكاري ألفه ج . لويس ديكنسون G. Lowe Dickinson ، ١٩٣١ « ماكتجارت » بحث تذكاري ألفه ش . ر . برود ، في « أعمال الأكاديمية البريطانية » ، ١٩٢٧ ، ص ٣٠٧ - ٣٣٤ ( أعيد نشر الجزء الأكبر منه في مقدمة برود لطبعة ١٩٣٠ لكتاب « بعض المعتقدات الدينية » ) ؛ « اختبار لفلسفة ماكتجارت Examination of McTaggart's Philosophy » ، المجلد الأول ، تأليف ش . و . برود ، ١٩٣٣ ، المجلد الثاني ١٩٣٨ ؛ « قاموس السير القومية » ، ١٩٢٢ - ١٩٣٠ .

كان ماكتجارت - بلا شك - أكثر المثاليين اكتمالا واستقلالاً بعد برادلي . ومن الواجب أن يُدرج في الحركة المثالية العامة ، ضمن الفئة الميجلية . صحيح أنه كان ، في نواح متعددة ، أبعد بكثير عن الأصول ( م - ٢٩ الفلسفة )

الهيجلية من برادلى وبوزانكيت ، ولكنه كان أقرب إليها بكثير في ناحية هامة ، هي أن فكره نشأ عن دراسة فاحصة متعمقة لفلسفة هيجل ، ظلت هي الأساس الذى بُنى عليه مذهبه الخاص ، مهما كانت درجة ابتعاده عن هذه الفلسفة في اتجاهات خاصة به . وتركز مكانته المميزة في الحركة الهيجلية الإنجليزية في أنه خطأ الخطوة النهائية الحاسمة في فهم عرى الارتباط مع اللاهوت ، وهو الارتباط الذى تميزت به أولى مراحل المذهب ، وذلك بتشبيده مذهباً إلحادياً على أسس هيجلية . وهكذا فإنه ، في داخل المذهب الهيجلى ، ينتمى إلى أقصى اليسار ، في الطرف المضاد تماماً لمفكرين مثل سترانج وجرين وكيرد . وهو يتميز عن برادلى وبوزانكيت — اللذين يمكن أن يُنسبا إلى اليسار بدورهما ، نظراً إلى اتخاذهما موقف الحياد ، إلى حد ما ، من التحالف مع اللاهوت — باستقلاله وأصالته الكاملين . فأبرز الاختلافات بينه وبين من بحثناهم حتى الآن هو ذلك التحول إلى مذهب الكثرة ، الذى أدخله على اتجاههم الذى سار بقوة في طريق الوحدة .

وأياً ما كانت نتيجة الخلاف حول كون ما كتبت هيجلياً أو غير هيجلى ، فما لا نزاع فيه أنه بذل جهداً لا يكاد يكون له نظير في سبيل فهم هيجل ، وأن فلسفة هيجل تحكمت في تفكيره في نقاط متعددة . ولكنه لا يمكن أن يسمى هيجلياً إلا مع تحفظات هامة . والفكرة التى يخرج بها المرء عنه هي أن طرق التفسير المتكلفة المتعمدة التى طبقها على هيجل لو كانت قد طبقت على مفكرين آخرين — أو على أية حال على أفلاطون وليبنس واسينوزا وباركلى — لآتت بنتيجة مماثلة أو مشابهة ، أعنى بناء فلسفة خاصة به وهدم أية فلسفة أخرى . فالانتقال من أى من هؤلاء المفكرين إلى مذهب ما كتبت ليس أصعب قطعاً من الانتقال من هيجل إليه . ولقد لوحظ أن تعاليمه ، وإن كانت ترفع راية هيجل وتمخر عباب

تأملنا الهيجلية ، إن جاز هذا التعبير ، قد أسفرت مع ذلك ، بطريقة لا شعورية ، عن نوع من المذهب الأفلاطوني ، كما قيل عنه إنه « أسبينوزا حديث » ، وكان لهذه التسمية ما يبررها ؛ كذلك أكد البعض تقاربه الوثيق مع مذهب الذرات الروحية عند ليبنتس والمذهب الروحي عند باركلي ، وهذا التقارب بالفعل واضح . غير أن هذا كله ، على صحته ، لا يدل إلا على أن مذهبه مذهب شخصي إلى حد بعيد ، لم يتخذ من أفكار الآخرين مادة له ، وإنما استخدمها وسائل وأدوات فحسب . وأيا كان الرأي في قيمة هذا المذهب أو أهميته ، فهو قطعا من أجراً وأروع وأصدق المحاولات التي بذلت في إنجلترا للتفكير في العالم في مجموعه . وهو يحتل ضمن بناء المذاهب الإنجليز المحدثين ، مكانة لا يشاركها إياها سوى برادلي وألكسندر وهويتيد . واقد أظهر ، في صياغة مذهبه المفضل الجامد ، قدرة على التفكير الرائع الواضح ، وعلى الدقة في التعبير ، ومنطقا حتميا صارما ، وقوة بناء ، وعمقا تأمليا ، وبصيرة صوفية .

ونستطيع أن نبدأ بإيضاح الطريقة التي انعكس بها تفكير هيجل على ما كتبت جارت . فهو ذاته يقول إن تفكير هيجل ظل هو الموضوع الرئيسي لبحثه طوال ما يزيد على عشرين عاما ، وقد كرس لاختباره نحو عشرة النقدي ثلاثة كتب . وعند نهاية الكتاب الثالث ، أصدر حكمه المبني على تفكير وروية ، فقال : « إن هيجل قد تعمق في الطبيعة الحقة للواقع أكثر مما تعمق فيها أي مفكر آخر من قبله أو من بعده » (١) . ولكن ليس معنى تقديره الرفيع هذا لهيجل ، أن نتوقف حيث نتوقف هو : « فينبغي أن تكون المهمة التالية للفلسفة هي القيام ببحث جديد لهذه الطبيعة بوساطة منهج دياكتيكي مشابه أساسا ، ولكن ليس مشابها تماما ، لمنهج هيجل » (٢) . ولقد كان يؤمن بأنه على اتفاق

(١) « شرح على منطق هيجل » ، ص ٣١١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣١١ .

مع هيجل في الجزء الأكبر من مناقشاته ، وكل ما أراده هو أن يستخلص .  
هنا وهناك نتيجة كائنة في تفكير هيجل ولكنها تركت بطريقة ضمنية .  
ولم يستخدم تعبيراً نقدياً أو مخالفاً إلا لماماً . غير أن كل هذا الاتفاق  
الظاهري لم يتحقق ، عند مفكر مستقل عنيد مثله ، إلا عن طريق التفسير  
المتكلف ، والتشويه ، ووضع الأفكار في غير مواضعها ؛ فهو قد كيّف  
تفكير هيجل مع تفكيره الخاص عن طريق قراءة أفكاره هو ذاته  
في أفكار هيجل أو استخلاصها قسراً منها . بل إنه في الواقع قد بث الالتباس  
في مذهب هيجل ونسفه من الداخل ، فلم يترك في النهاية إلا أنقاضه  
لم يستخدمها إلا باقتصاد في تشييد مذهبه الخاص الجديد .

ولقد كان ما كتبت جرت يرى أن قلب فلسفة هيجل ، ومصدر قيمتها  
الدائمة في تاريخ الفكر ، هو منطقها والديالكتيك المتصل به . غير أنه  
كان يرى أن التطبيقات العديدة للمنطق على الأجزاء الجانبية من مذهبه ،  
كالدين والتاريخ والقانون والدولة ، كانت متوقفة على ظروف  
عصر هيجل الخاص ، ولم تكن لها أهمية كبيرة ، وإن كان قد اعترف  
بتلك الثروة الكبيرة من الأفكار وتلك القوة الدافعة الهائلة التي أنت منها  
وكان همه الأساسي في هذا الصدد هو الدفاع عن هيجل ضد الفكرة  
الباطلة ، التي كانت لا تزال شائعة على نطاق واسع ، والقائلة إن هيجل  
قد فسخ العالم من الفكر المحض ، ولم يتحرك إلا وسط تجريدات  
وتركيبات شكلية خالصة ، دون أي اعتبار للضمون العيني للتجربة .  
فهو قد أكد مراراً أن تفكير هيجل عيني ، وأن الديالكتيك لا يتناقض  
مع التجربة ، وإنما يفترضها مقدماً في كل الأحوال . فالتجربة تركت  
بطبيعة الحال على المعطيات المباشرة للنفس ، التي لا يمكن أن تنتج عن الفكر  
الخالص ، وإنما هي شروط وجوده . ولقد كان هيجل ، في رأي ما كتبت جرت ،  
يدرك هذا كله تماماً ، وكان يعلم ويعني أن حركة الفكر الديالكتيكية

لا يمكن أن تتحقق إلا داخل الكل العيني للتجربة الذى تكون فيه  
المعطيات الحسية عوامل مستقلة متضايفة مع الفكر .

ولقد أدت دراسات ما كتجارت الخاصة للديالكتيك هيجلى إلى  
رأيه القائل إن تصاعد المقولات ليس عملية تجريد متزايد ، وإنما هو عملية  
تقريب متزايد من الكل العيني . فقد بين أن المركب الأخير ، الذى يتم  
الوصول إليه فى « الفكرة » المطلقة ، هو الشرط والاساس المنطقى لكل  
المقولات السابقة ، وأن الأزواج العديدة من الأضداد والأفكار العليا  
التي تستوعب فيها هذه الأضداد وتتجاوز على التوالى ، كل هذه تنتج  
بالتجريد من تلك المقولة العليا ، التي هى أغنى المقولات ، والتي تنتهى عندها  
الآخرى وتجد فيها اكتمالها . وهكذا فإن الانتقال من مقولة إلى أخرى  
هو من مركب إلى آخر ليس تقدما بمعنى وضع مضمون جديد لم يكن موجودا  
من قبل ، وإنما هو قلب لعملية التجريد ، واستعادة للوحدة العينية التي  
استمدت منها التجريديات . وبهذا المعنى يكون الديالكتيك هو المنهج الوحيد  
الصحيح والمثمر فى الفلسفة . صحيح أن بعض انتقالات هيجل الجزئية  
ليست ضرورية منطقيا ولا مُقنعة ، غير أن هذا لا ينطوى على أى حط  
من قيمتها ، إذ إن الانتقال من مقولة إلى أخرى لا يقتصر فى الواقع على  
اتجاه واحد محتم منطقيا ، وإنما هو يترك مجالا لإمكانات أخرى — ومن  
الواضح أن ما كتجارت يتخذ فى هذه الفكرة الأخيرة موقفا غير هيجلى  
على الإطلاق . وفضلا عن ذلك فليس المنهج الديالكتيكى جامدا ، محمدا  
على نحو نهائى ، بل إنه هو ذاته معرض للنمو ، وهو نمو يمكن رده إلى قانون  
عام . وأخيرا فإن ما كتجارت يذهب إلى أن مرحلة السلب تلعب دورا  
حيثيا جدا فى العملية الديالكتيكية من حيث هى كل . فلها أهمية فى الأطوار  
المبدئية فقط ، وهذه الأهمية تقل بالتدرج كلما ازدادت الحركة صعودا .  
وهذه المرحلة عَرَضِيَّة ، لا أَسَاسِيَّة . فى التفكير ، لا تنبثق كل مقولة

من مقابلها السابق ، وإنما تعبر عن الدلالة الحقيقة لمقولة الأدنى ، وتحقيق  
 هي ذاتها طبيعتها الحققة في مقولة أعلى . وحيث لا يوجد تقابل لا يكون ،  
 ثمة حاجة إلى التوفيق ، أو إلى مركب تتحل فيه المتناقضات ، وإنما تدعو  
 الحاجة فقط إلى كشف وإظهار ما تُرك ضمناً . فالديالكتيك مثل النمو  
 العضوى : إذ تنمو فيه المراحل العليا من الدنيا مثلما ينمو النبات من البذرة .  
 فمرحلتا التقابل والساب توضحان ما هو ناقص باطل في العملية ، ومرحلة  
 النمو الإيجابى هي التى تعبر عن الطبيعة الحققة للفكر . وعلى ذلك فإن معنى  
 المنهج الديالكتيكى أو غايته تتحقق بقدر ما يحل العنصر الإيجابى محل  
 العنصر السلبى . ولقد كان ما كتجارت يرى أن هذا التفسير للديالكتيك  
 يمكن أن يوجد لدى هيغل أو يُستمد منه ، ولكنه كان هنا ، كما كان  
 فى مواضع أخرى ، واقعاً فى خطأ لا شعورى . فقد انزلق ، دون وعى ،  
 تام منه ، إلى مواقف لم تكن دائماً قابلة للاندماج فى مذهب هيغل ، بل  
 كانت أحياناً مناقضة له على نحو مباشر .

ولو نظرنا إلى دراسات ما كتجارت لهيغل فى ضوء عمله الفلسفى العام ،  
 لبدت لنا هذه الدراسات مجرد استطراد كان ينبئ له القيام به لى يصل إلى  
 ذاته . ومن الصعب تحديد السبب الذى تعين عليه من أجله أن يقوم بهذا  
 الاستطراد . ففى خلال السنوات التى تكونت فيها شخصيته ، كان هيغل  
 قد بلغ قمة الشهرة فى إنجلترا ، وكانت قراءته قد أصبحت موضة سائدة .  
 ولكن ربما كان السبب الرئيسى هو حاجة ما كتجارت إلى تجربة قواد  
 وممارستها على واحد من أعظم أعلام الفكر ، والتسلى على أكتافه . ومع  
 ذلك فإن هذا الاستطراد لا يبدو ذا ضرورة باطنة ، إذ إن الميل إلى تكوين  
 نظرة إلى العالم خاصة به كان يتملكه منذ البداية ، وكانت الخطوط الرئيسة  
 للنظرة التى عرضها فيما بعد ، ظاهرة بوضوح فى كتبه الأولى . فمن الواضح  
 أنه لم يكن يحتاج إلا إلى ما يجلبه الزمن من مزيد من التفكير ومن النضوج .



لكي يكون نظره الخاصة إلى العالم ويتمها: فتطوره الفيلسوف سار فينا  
يمكن أن يقال عنه إنه أنموذج ديالكتيكي: فقد كان مذهب هيجل يمثل  
مرحلة التقابل التي تعين عليه مواجهتها لكي يرتفع إلى تفكيره الخاص  
الصحيح، ويمثل المقولة الدنيا التي كان ينبغي فهمها أولا، ثم تجاوزها بعد  
ذلك في مذهبه الخاص.

واقدر مذهب هذا في مؤلف غريب رائع كان المفروض أصلا أن  
يكون عنوانه «ديالكتيك الوجود»، ولكنه أسماه فيما بعد «طبيعة الوجود».  
وهذا الكتاب هو الثمرة الناضجة لتفكير استمر طوال حياته بلا كل  
ودون انقطاع. وقد صيغ هذا التفكير كله في قالب واحد، يحمل على  
الدوام طابع صانعه. واول نظرنا إليه في إطار الفلسفة الإنجليزية الحديثة  
لبدا لنا غريبا أشبه بضوء منعزل يشع من جزيرة نائية قفرة، ولبدا لنا  
ظهوره في مثل هذه البيئة أقرب إلى الغر المستعصى. فهو يخالف جميع  
طرق الفكر المألوفة المتداولة الموثوق فيها. ونادرا ما يجد المرء مفكرا  
يضع لنفسه مثل هذه الشروط القاسية الصارمة، ويتخذ لنفسه مثل هذا  
الهدف الرفيع. فأفكاره تتقدم بحتمية منطقية حتى النهاية، دون أن تظهر  
في أي موضع بادرة توحى بتهاون في هذه الصرامة أو تراخ في تلك الطاقة.  
ويتضح الحرص الشديد الذي التزمه في تفكيره وكتابته في أنه كان يخطط  
ملا يقل عن خمس مسودات كاملة قبل أن يبعث بأي شيء إلى المطبعة.  
فالتعبير والتفكير كانا يتفقان تماما: إذ إن الأول، الذي كان ينحته بجهد  
وعناية، كان يقدم هيكلًا كاملاً للثاني. ومع ذلك لا يلح المرء أي أثر  
للصراع الذي كان يبذله من أجل التعبير عن نفسه تعبيرا كاملاً: إذ إنه  
قد ترك كل ذلك الصراع جانبا في عملية المراجعة الخنسية التي كان يقوم  
بها. والانطباع العام الذي يتركه في نفوسنا هذا الكتاب هو أنه مذهب  
تصوري وضع حتى النهاية بدقة ومجهود ووضوح واقتصاد وإحكام. ولكننا

نجد أيضا ، إلى جانب ذلك ، نزعة شكلية ولفظية خاوية ، ونجده كثيرا ما يهتدى في الألفاظ إلى معان سبق له أن دسها فيها ، ونجده يتلاعب بالافكار ، ويميز بين أمور يقل الفرق بينها عن حد الشعرة ، ويقدم تعريفات مفرطة في التدقيق . ولا جدال في أن عبارة برادلى ، التي طالما اقتبست ، والتي تتحدث عن « رقصة ليست من هذا العالم ، تؤديها مقولات لاحياة فيها » ، تنطبق تماما على مذهب ما كتجارت ببرودته وصلابته الرخامية . على أن هذا ليس إلا وجها واحدا — وإن يكن هو الوجه الغالب — من أوجه تفكير ما كتجارت وطريقته في التعبير . فن وراء الواجهة الظاهرية التي بذل كل جهده لكي يجعلها صحيحة لا تشوبها شائبة ، يشعر المرء من آن لآخر بذهن قلق ، وناز خفية لتجربة عاشها بعمق ، ونبض وحرارة شخصية حية تنشق حياتها الخاصة في ذلك البناء الذي يتخذ مظهرا رخاميا جامدا . ذلك هو الوجه الصوفي لما كتجارت ، وهو يخترق نسيج التصورات المجردة ويصبغها بألوان أشد حيوية وبمضمون من نوع أكثر عينية . ولكن ليس لأحد أن يظن أن هذين الجانبين من طبيعته كانا يقفان في تعارض محتوم الواحد منهما قبالة الآخر ، بحيث يحتفظان بالصراع محتدما بين « التصوف والمنطق » (إذا شئنا أن نستعير هذا العنوان الموفق لواحد من كتب رسل) . فقد كانت كل من هاتين النزعتين وثيقة الصلة بالأخرى في مذهبه ، وقد انبثقتا معا من جذر واحد ، بحيث إن التصوف قد أعطى المنطق النبض والدفء ، وسيطر المنطق على التصوف وأضفى عليه النظام الدقيق . وقد قدم إلينا ما كتجارت ذاته مفتاحا لفهم هذا الطابع المزدوج لتفكيره في الجملة التي ختم بها كتابه الأول : « إن كل فلسفة حقة ينبغي أن تكون صوفية ، ولكن ليس في مناهجها ، وإنما في استنتاجاتها النهائية<sup>(١)</sup> » .

ويعبر عنوان مؤلفه الرئيسى عن المشكلة الرئيسية فيه . فما الذى يمكن أن يقال عن العلامات المميزة لكل ما يوجد أو للوجود فى مجموعه . ؟ إن الوجود ، من حيث هو تصور ، هو أضيق نطاقا من تصور الواقع reality ، من حيث إن هناك واقعا لا يوجد بالضرورة ، بينما ليس ثمة موجود إلا وهو واقع بالضرورة . وهو ، على أية حال ، يصف الواقعية والوجود بأنهما غير قابلين للتعريف . فإذا نظرنا إلى التمييز بين الواقع الموجود والواقع غير الموجود ، وجدنا أن الأهمية الوحيدة التى تلحق بالثان إنما هى أهمية نظرية بمحة ؛ أما الأول ، فنظرا إلى أن له أهمية عملية كبرى ، فإن ما كتجارت يحدد لنفسه مهمة أضيق نطاقا هى البحث فيه — فشكلته هى طبيعة الوجود existence . ومنهجه استنباطى أولى . وهو يُبرز أولا الطابع العام للوجود ، ثم يناقش المشكلات الخاصة للوجود التجريبي . والجزآن يناظران مجلدى كتابه على التوالى . فى الجزء الأول ، الذى هو من أروع أعمال التفكير المنهجي الدقيق ، والذى يمثل أعلى قمة بلغها ذهنه المنطقى الحاد ، فى هذا الجزء يقف ما كتجارت وحده بين الفلاسفة الإنجليز فى جميع الفترات . صحيح أن الفلسفة الإنجليزية قد ساهمت بالكثير ، منذ الأجزاء الأولى فى القرن التاسع عشر ، فى مجال المنطق الصورى ، وأن هذا المبحث ، الذى هو أكثر المباحث تجريدا ، قد بلغ فى الحساب المنطقى Cogical calculus ، أعلى ما بلغه من القمم . ولكن لم يجرؤ أى مفكر قبل ما كتجارت على أن يطرح فى الميتافيزيقا ، التجربة جانبا باحتقار ، ويقدم تفسيراً أوليا محضاً للكون ، ومن هنا لم يكن من المستغرب أن محاولته ، وإن تكن قد لقيت إعجابا من آن لآخر ، لما فيها من جدة وغرابة ، قد قوبلت منذ البداية بالارتياب . ولم تجد لها أنصارا ، فهى لم تلق ذلك الصدى الرنان الذى لقيته فلسفة برادلى مثلا ، على الرغم من أنها كانت فى وضوحها ، وإحكامها ، وعمق فكرها ، تفوق هذه بكثير .

وهناك شيء من التشابه بين منهجه في البرهان المطلق ، الذي اتبعه في الجزء « الأولى » ، من ميتافيزيقاه ، وبين الديالكتيك الهيجلي ، غير أن المقارنة بين المنهجين لا تسفر إلا عن نتائج ضئيلة ، نظرا إلى ما اتصف به منهج ما كتجارت من فردية تامة ، وإلى أنه قد وُضع لكي يلائم الغايات الخاصة لفلسفته فحسب . ولقد كان ما كتجارت نفسه شاعرا بذلك ، على الرغم من ميله إلى الانتساب إلى هيجل ، فاعترف بأن منهجه « ليس هيجليا بالمعنى الدقيق »<sup>(١)</sup> ، وإن كان قد رأى أنه أقرب إلى منهج هيجل منه إلى أى منهج آخر . والواقع أن لدى ما كتجارت سلسلة من التحديدات المنطقية المتعاقبة ، غير أنها لا تسير حسب النمط الثلاثي لمقولات هيجل ، كما أن الانتقال من مرحلة إلى أخرى ليس ضروريا من الوجهة المنطقية على الدوام ( بل إنه يترك المجال مفتوحا ، في بعض الحالات ، لإمكان ظهور تحديدات أخرى ) ، فضلا عن ذلك فهو لا ينظر إلى المقولات الدنيا على أنها مشوبة بالخطأ بالضرورة ، بل يؤكد حقيقتها النسبية أكثر مما يؤكد افتقارها إلى الحقيقة المطلقة .

والفارق الاساسي بين تفكير هيجل وتفكير ما كتجارت هو أن الاول عيني ، مشبع بالتجربة ، بينما الثاني مجرد ، بعيد عن التجربة . فقد كان ما كتجارت على الدوام حريصا على أن يحتفظ لتحديداته الصورية بنقائها الأولى الذي لا تشوبه أية شائبة من المادة التجريبية . ومن الطبيعي أنه لم يستطع أن يحقق هذا الهدف على طول الخط ، إذ يبدو أن من الضروري الالتجاء إلى التجربة على وجهين ، من أجل دفع عجلة العملية الاستنباطية . فمن الممكن في البداية تأكيد الوجود الخالص واستنباط صفاته بطريقة أولية ، غير أن كون أى شيء موجودا بالفعل في الواقع

---

(١) « طبيعة الوجود » ، ص ٤٧ .

هو أمر لا يُعرف إلا بالرجوع إلى التجربة . فالقضية القائلة إن ثمة شيئا يوجد ، ترتكز على الإدراك الحسى ، وهى المقدمة الأساسية لكل استنباط تال . لذلك فإن بدايتها تجريبية ، غير أن يقينها لا يقل عن يقين البداهة الأولية . على أن القول بأن ثمة شيئا يوجد ، يعنى فى رأى ما كتجارت ، أن ثمة جوهر ا يوجد ، وهنا تثار مسألة ما إذا كانت توجد كثرة من الجواهر أو جوهر واحد ، أو بعبارة أخرى ، ما إذا كان الجوهر متنوعا أم لا . هذه ، فى رأى ما كتجارت ، مسألة يمكن البت فيها بالاستنباط المحض ، إذ إن تنوع الجوهر يتلو من اليقين الأولى القائل إن الجوهر لا يمكن أن يكون بسيطا ، غير أنه يؤثر أن يلجأ إلى البرهان التجريبي ، ويبين أن إدراكا حسيا واحدا كفىل يثبت أن الجوهر متنوع . وإذن فالجوهـر موجود ، وهو ليس واحدا بل كثير .

ولكن ، ما هو ، الجوهر ؟ . ينبغى ، عند تعريفه ، أن يضاف الكيف إلى الوجود . فكل ما يوجد ينبغى أيضا أن يكون له كيف . غير أن الكيف لا يُعرّف ؛ وكل ما يمكننا أن نفعله هو أن نشير إلى أمثلة خاصة له . كذلك ينبغى إضافة العلاقة ، وهى بدورها لا تعرّف . فلما كان ثمة كثرة من الجواهر ، فلا بد أن تقوم بينها علاقات . وإذن فالعلاقة أساسية للوجود . وقد علق ما كتجارت أهمية كبيرة على تصور العلاقة ، وقام ببحث دقيق عميق للعلاقات الخاصة . فالعلاقات تختلف عن الكيفيات أو الصفات فى أن الأخيرة تسكن فى الأشياء ، بينما الأولى تقوم بينها . وهكذا فإن الجوهر يوصف ( ولا نقول يُعرّف ) ، بأنه ماله كيفيات أو صفات ، وما يدخل فى علاقات ، دون أن يكون هو ذاته كيفاً أو علاقة . ونضلا عن ذلك فكل جوهر يختلف عن كل جوهر آخر ؛ فلا يمكن انطباق وصفه على أى جوهر آخر . وتُنظّم الجواهر فى فئات يمكن أن تتكون من أية مجموعة من جواهر . مثال ذلك ( والأمثلة مستمدة من

ما كتجارت نفسه ) أن رؤساء جمهورية الولايات المتحدة أو مواطنو إنجلترا ، يؤلفون فئة ، وليس هذا فحسب ، بل إن من الممكن تأليف فئة من أشياء لا متجانسة تماما ، كالمكتب الذى أجلس إليه ، وأقدم أرنب فى استراليا ، وآخر دواء تناوله لويس الرابع عشر . هذه الأشياء يمكن إدراكها فى نوع من الوحدة ، على الأقل وحدة كونها ثلاثة ، أو وحدة جمعى الاعتبارى بينها . وليس لنا أن نقسام فيما إذا كانت الفئة فئة بحق ، وإنما يجب أن نكتفى بالسؤال عما إذا كانت مناسبة أو لها أية قيمة . وهذه النقطة ، إلى جانب كونها استنباطا شكليا ، دلالة متافيزيقية ، بمعنى أن كل شيء فى الكون يرتبط على نحو ما بكل شيء آخر ، ويؤثر فى كل شيء آخر ، مهما كان من ضالة هذا التأثير .

والجوهر الذى يشتمل على كل الجواهر الأخرى بوصفها أجزاء له هو الكون . ولتصور الكون ضرورته ، بوصفه الوحدة التى ينبغى أن تُردّ إليها كثرة الجواهر . ولما كان يشمل المضمون الكامل لكل ما يوجد ، فلا يمكن أن يكون هناك سوى كون واحد ؛ إذ إنه لو وجد جوهران كليان لكان لهما نفس المضمون تماما ، ولما أمكن بالتالى تصورهما . وهكذا فإن كل ما يوجد داخل فى وحدة نسق محدد تماما . وكل جوهر يرتبط بكل جوهر آخر ، بفضل علاقتهما المشتركة بالوحدة الشاملة للكون ؛ وعلاقة أجزاء الكون بعضها ببعض ، وكذلك علاقتها بالكل ، هى علاقة تبادل أو تعاون . فالكون وحدة عضوية .

وهناك فكرة لها أهمية نظرية خاصة ، هى فكرة قابلية الجوهر للانقسام إلى مالا نهاية . فعدم وجود شيء بسيط بساطة مطلقة ، هو أمر واضح حتى على مستوى الإدراك الحسى ، كما أن هذه القضية ، من وجهة نظر الفكر المحض ، واضحة تماما وذات صحة نهائية . فإذا لم يكن هناك حد لقابلية الانقسام فى كل الجواهر وكل أجزائها وكل أجزاء أجزائها ،

فمعنى ذلك أن لدينا تركيباً لا متناهياً في تعقيده وتنوعه ، له مراتب في تنظيمه ،  
وبه عدد غير متناه من العلاقات بين الكل وأجزائه وبين الأجزاء ذاتها .  
والأداة التي يستطيع بها الفكر أن يتحكم في هذا النسق الشديد التعقيد  
للعلاقات المتناهية ، هي تلك التي يطلق عليها ما كتجارت اسم : التطابق  
المحدد *determining correspondence* . ولقد رأى ما كتجارت أن هذا  
التطابق ، الذي هو علاقة عليّة ( لا يسمع المجال هنا بالخوض في تفاصيلها  
أكثر من ذلك ) هو وحده الذي يتيح تجنب التناقض الذي تنطوي عليه  
فكرة القابلية للانقسام إلى ما لا نهاية ، ويتيح تنظيم مضمون الكون بأسره .  
بطريقة مرضية منطقياً . وعند تنظيم هذا المضمون على هذا النحو ، يظهر  
في صورة نسق له مراتب ، يحتل الجوهر الأصلي قتها بوصفه الكل الأولى ،  
ثم ينقسم هذا إلى أجزاء مبدئية تنفرع إلى أجزاء ثانوية من الدرجة الأولى ،  
وهكذا إلى ما لا نهاية . وترتبط بين جميع هذه الكميات ذوات المراتب  
العليا والدنيا ، وكذلك بينها وبين أجزائها ، علاقة تطابق متبادلة التحديد ،  
بحيث لا يكون وصف الجوهر كافياً إلا إذا أوضحت كل أجزائه وعلاقاتها  
بعضها ببعض وبالكل . ويسمى ما كتجارت هذا النسق من الجواهر ،  
المرتكز على التطابق المحدد ، باسم النسق الأساسي للكون .

ومن الممكن بصفة متساوية ، من الناحية النظرية الخالصة ، أن يُعد  
مذهب ما كتجارت مذهب وحدة أو مذهب كثرة ، وذلك تبعاً لتركيز  
اهتمامنا على وحدة الجوهر أو على كثرة أجزائه . ولا شك في أن  
ما كتجارت ، حين نظر إلى هذه الأخيرة على أنها هي الأهم ، لم يكن  
يستطيع أن يبرر اختياره هذا على أسس أولية ، فقد تحكمت فيه اعتبارات  
تجريبية وعملية ، كما سنرى فيما بعد . ومن الواضح أن الأجزاء المبدئية  
تُعزى إليها ، في داخل الكثرة ، أهمية ميتافيزيقية تفوق أهمية الأجزاء  
الثانوية لجميع الأنواع ، وتفوق أهمية الكل المبدئي نفسه .

أما أولئك الذين لا يرضيهم التعامل الشكلي مع التصورات بقدر  
ما يرضيهم التبصر الميتافيزيقي الأصيل ، فإنهم يجدون في المجلد الثاني  
من مؤلفه الرئيسي ( وفي كتاب بعض المعتقدات الدينية ، الذي أحرز  
شهرة نسبية ، والذي يستسبق هذا المجلد الثاني ) أكثر مما يجدون  
في الأول .

في المجلد الثاني نزل ما كتبت أختيراً من الجو الأثيري للفكر  
الخالص إلى عالم تجربتنا الواقعي ، وربط بين نتائجه العامة وبين مشكلات  
تجريبية معينة ، وطبقها نظرياً وعملياً . وهو يعرض الأفكار الميتافيزيقية  
الهامية التي توصل إليها ، والتي تؤلف معاً نظرة كاملة إلى العالم ، على أنها  
النتائج الضرورية للأساس الأولي . ويأدخل المشكلات الجديدة والمادة  
الجديدة ، يكتسب الجهاز التصوري مزيداً من النمو والتدعيم ، بحيث  
يتعين علينا مرة أخرى أن نجتاز قفارا شاسعة قبل أن نستطيع أن نجني  
ثمار شجرة الحياة . ولما كانت بعض أفكار ما كتبت الميتافيزيقية  
قد ظهرت بوادرها في أول كتبه ، كما أن كل أفكاره الأساسية قد ظهرت  
سبق كتابه عن الدين ، على نحو مستقل تماماً عن الأساس المنطقي الذي  
كنا نبحث فيه حتى الآن ، فربما كان لنا الحق في أن نستدل من ذلك  
على أن الجهاز التصوري قد صُمم تصميمياً لاحقاً . وإذا كان الأمر  
كذلك ، فليس في وسعنا أن نقر ما كتبت على رأيه القائل إن خطته  
الأولية هي التي تحكمت في استنتاجاته المنطقية ، وإنما ينبغي أن نقول ،  
على العكس من ذلك ، إن استنتاجاته هي التي تحكمت في هذه الخطة ،  
وإن هذه الخطة قد رُسمت فيما بعد لإيجاد أساس لاستنتاجاته ولدعمها .  
وبعبارة أخرى . فإن لمواقفه الميتافيزيقية الرئيسية قيمة مستقلة عن  
الخطة المجردة ، ولها أساسها في ذاتها .

وليس في وسعنا أن نلتقي من المشكلات المتعددة التي عرض



(٤٦٣)

لها في المجلد الثاني إلا عددا قليلا لكي نوضح الاتجاه العام لفكره على الأقل .

وأشهر هذه المشكلات هي نظرية الزمان ، فهو يميز أولا بين نوعين من التعاقب الزمني ، ينتقل أحدهما من الماضي إلى المستقبل مارا بالحاضر ، ويتألف الآخر من علاقتي قبل ، و بعد ، . ففي الأول ، الذي يسميه بالسلسلة أ ، تتغير الحدود دوما ، وينتقل بعضها إلى البعض ، أما في الثاني ، الذي يسميه بالسلسلة ب ، فإن هذه الحدود تكون ثابتة ، وترتكز على علاقات دائمة ، إذ إنه عندما يقع حادث قبل حادث آخر وبعد حادث ثالث ، فإن الترتيب الزمني يكون نهائيا غير قابل للتغيير . لذلك فإن السلسلة أ هي السلسلة الحقيقية للزمان ، مادامت تشمل على صفة التغير التي هي العلامة الأساسية المميزة للزمان . ومع ذلك يبدو ، بعد مناقشة طويلة مفرطة في التعقيد ، أن السلسلة أ تنطوي على تناقض ، وأنها بالتالي لا يمكن أن توجد من وجهة نظر الواقع الحقيقي . وإذن فلا شيء واقعي هو ماض أو حاضر أو مستقبل ، أو معرض لأي تغير . إننا حقا ندرك الأشياء في الزمان ، ولانملك إلا ذلك ، غير أن كل ما يثبت هذا هو أن الإدراك الحسي لا يصل إلى الأشياء في طبيعتها الحقة . فكل ما في الزمان هو ، بهذا الوصف ، مجرد مظهر .

ويستخلص ما كتجارت من عتاده التصوري إضافة أخرى يعبر بها عن هذه الفكرة ، المميزة للثالية ، تعبيراً إيجابياً : فهو يضيف سلسلة أخرى ، هي السلسلة ج ، إلى السلسلتين أ و ب . وتمثل السلسلة ج العلاقات الحقيقية بين الأشياء ، وهي تتضمن الحقيقة التي كان يعبر عنها باطلا في العلاقات الزمنية للسلسلتين الأخيرتين ، وكذلك في كل

وصف للعلاقات المكافئة أيضا ، إذ إن المكان بدوره مجرد مظهر .  
 هذه السلسلة تعبر عن العلاقات بين الأشياء على أنها علاقات تضمن  
 منطقي . فهي سلسلة تضمنات لها اتجاه محدد أعم بشكل واضح  
 من الاتجاه المضاد ، من حيث إنها انتقال بماله محتوى أكثر فراغا  
 إلى ماله محتوى أكثر امتلاء . ففي أحد الطرفين لا يكون ثمة شيء ،  
 وفي الطرف الآخر يوجد الكل . وهنا يستعاض عن علاقة « قبل »  
 في السلسلة ب « بعلاقة » متضمن في « ، » وعن علاقة « بعد » بعلاقة  
 « متضمن لـ » . ونظرا إلى أن الطرف الأخير في السلسلة غير متضمن  
 في أي شيء ، فإنه متضمن لكل شيء ، ولا يمكن أن يضاف إليه شيء .  
 وواضح أنه هو « الفكرة المطلقة » عند هيجل ، وواضح أيضا  
 أن تزايد التضمن في السلسلة ج يناظر التقدم الديالكتيكي للمقولات  
 عند هيجل .

وهكذا فإن نظرية ما كتجارت في الزمان تؤدي إلى نفس النتيجة  
 التي تؤدي إليها فلسفة برادلي ، وإن تكن ترتكز على مقدمات مختلفة  
 تماما ؛ هذه النتيجة هي التمييز بين المظهر والواقع - وفي هذه النقطة  
 تكمن الأهمية الخاصة لنظرية ما كتجارت . ومعيار التمييز بين المظهر  
 والواقع هو الإطار الأولي للتطابق المحدد : فكل ما لا يمكن إدخاله  
 في هذا الإطار ، ينزل تولا إلى مرتبة المظهر بينما يُعَدّ واقعا كل ما يمكن  
 إدخاله فيه . وبهذا المعيار تمحط المادة ، وكل المعطيات الحسية ، إلى مرتبة  
 المظهر . فلو كانت المادة موجودة ، لكانت قابلة للانقسام إلى ما لا نهاية ،  
 ولكانت أجزاؤها اللامتناهية في الصغر خاضعة لمبدأ التطابق المحدد ؛  
 ولكن يبدو أن مثل هذا التقسيم للمادة إلى ما لا نهاية أمر لا يمكن  
 القيام به ، وعلى ذلك لا يمكن أن تكون المادة موجودة .

أما بالنسبة إلى العلوم الطبيعية فسيان أن توجد المادة أو لا توجد ،

إذ إن الأمرين معا فرضان ميتافيزيقيان لا يمان العلم ولا الحياة اليومية .  
وهكذا فإن ما كتجارت ، مثل برادلى الذى استعان كثيرا بحججه  
فى هذا الموضوع ، يرفض التسليم بوجود المادة ، لا شئ إلا لأن فى هذا  
استخداما غير سليم للميتافيزيقا .

والآن نصل إلى لب ميتافيزيقا ما كتجارت ، أعنى المذهب القائل  
إن الواقع روحى فى أساسه . فكل ما يوجد روح ولا شئ غير الروح ،  
بالمعنى الميتافيزيقى الخالص الكامل للجوهر الروحى كما فهمه باركلى  
مثلا . وعند هذه النقطة تتلو كل التحديدات الأخرى للطبيعة الميتافيزيقية  
للعالم من الاستنباطات الأولية للباب الأول من الكتاب . فساواة  
الجوهر المبدئى بالواقع فى ذاته أو بالمطلق ، تعنى إيجاد تناظر بين  
الأجزاء المبدئية وبين تلك الكائنات الروحية التى نسميها أشخاصا  
أو ذوات ، ولما كانت الذرات هى قبل كل شئ مدركة للأجزاء الثانوية ،  
فإن هذا التناظر يمتد إلى إدراكات هذه الذوات .

وهكذا فإن للذوات منزلة ميتافيزيقية خاصة . صحيح أن من الواجب  
تصورها على أنها متجمعة فى وحدة الجوهر المطلق ، وعلى أنها هى التنوع  
الأولى له ؛ ولكن الرد على ذلك هو أن طبيعة الواقع تتكشف فى التنوعات  
على نحو أعمق مما تتكشف فى الوحدة العليا . والمثل الذى يفضل ما كتجارت  
أن يضربه لإيضاح العلاقة بين الكل وأجزائه هو تشبيهها بعلاقة مجتمع  
وأعضائه : فكلاهما كيان روحى ، غير أن الأعضاء وحدهم هم الأشخاص  
بأى معنى أصيل لهذه الكلمة ، بينما المجمع ليس هو ذاته شخصا ، وإن يكن  
وحدة روحية لأشخاص . وفى آخر الأمر لا يوجد بالفعل إلا الأشخاص ،  
وهم وحدهم الذين يؤلفون مكونات الكون ، مفهومه بالمعنى الميتافيزيقى .

وهكذا نجد أن الوجه التعددى يعد هنا ، كما يعد فى الجزء الأول من الكتاب ، أم من الوجه الواحدى . وإذن فالمطلق وحدة من أشخاص ، ونسق من الذوات ، ترتبط بعضها ببعض كما ترتبط أجزاء الجوهر التى أوضحها فى الجزء الأول .

والواقع أن طبيعة الشخصية المتناهية وقيمتها لم تُدرك وتدعم ، فى أى مذهب معاصر آخر ، بقدر ما أدركت ودعمت فى مذهب ما كتجارت . ومن الممكن أن توصف الفكرة القائلة إنه لا شئ حقيقى بالفعل إلا الأشخاص المتناهون ، بأنها هى الاقتناع الفلسفى الأساسى عند ما كتجارت . فذهبه كله يدور حولها ، واستنتاجاته الأخرى تتلو كلها منها . ومن هنا كان ذلك الإحساس الذى يملكنا بأن من وراء كل ذلك الدرع السميك من الاستنباطات الأولية ، يوجد ذهن يضطرم فى باطنه بالانفعال ، بما يدل على وجود طبقة عميقة من التفكير غير الشكليات والتجريدات التى تسود كتاباته . وبما يزيد هذا الشعور قوة ، تلك الصفات الأخرى التى ينسبها إلى الشخصية . فالذات كيان مستقل ، له خصائصه الفريدة ، وهى جوهر روحى يوجد لذاته تماما ، ولها فردية كاملة ، بحيث تختلف كل ذات اختلافا أساسيا عن الأخرى . ومن هنا كان من اليقينيات النهائية المطلقة أن الذات لا يمكن إدماجها فى أية ذات أخرى ، أو فى جزء من ذات أخرى ، لاسيما فى تلك الوحدة العليا التى تسميها الفلسفة بالمطلق ، ويسميها الدين بالله . وترجع المكانة الميتافيزيقية العليا للذات إلى أنها فى أساسها لا تتعرض للتغير ؛ ولما كانت توجد بهذا الوصف أزلا ، ولا بداية لها ولا نهاية فى الزمان ، فلا يمكن أن تكون قد نُخلقت فى وقت ما ، ولا يمكن أن تفسد أبدا . فإذا سلمنا بفكرة الذات ، كانت فكرة الخالق مستحيلة ؛ وإذا كان ثمة إله ، فلا يمكن أن يكون قد خلق الذات ، إذ إن هذه توجد بنفس الأزلية التى

يوجد الإله بها . وهكذا فإن الذات خالدة ، بمعنى أنها توجد في أزلية لا زمانية . فلا بد إذن أن يكون وجودها قديماً مثلها هو دائم . ذلك لأن هويتها لا تكون في استمرار الوعي أو في الذاكرة ، وإنما في ثبات جوهريتها الروحية . والواقع أن الوعي ليس جزءاً من الطبيعة الأساسية للشخصية ، ومن الممكن أن يختفي دون أن تتأثر هذه . كما أن فقدان الذاكرة لا يؤثر في الخلود بحال ، إذ إن حياتنا الحاضرة تبدو لنا حيثند ذات قيمة كاملة ، على الرغم من أننا لا نؤكد حياة سابقة وليست لدينا أدنى فكرة عن حياة مقبلة . كما أن هذا القول لا تدحضه الحجة القائلة إن من الممكن أن نكون قد مررنا في الماضي ، وأن نمر في المستقبل ، يمرأحل متعددة تناظر تلك التي تبدأ ، في حياتنا الراهنة ، بال ميلاد وتنتهى بالموت . ففكرة تعدد الحيات ، وتكرر الموت ، ليست خلوا من المعنى ، بل هى مرجحة إلى حد بعيد .

وتؤدى فكرة الخلود عند ما كتجارت إلى اتخاذه موقفاً مميزاً إلى حد بعيد ، يبدو ممتنعاً لأول وهلة ، ولكنه يتلو بالضرورة من مقدماته ، وأعني به أن الإيمان بالخلود ، على الرغم من شيوع ارتباطه في الدين والفلسفة بالإيمان بالله ، يمكن أن يوجد ويظل قائماً دون هذا الأخير . فليس بينهما ارتباط منطقى . وبالمثل لا يوجد ارتباط كهذا بين المثالية ومذهب الألوهية . فلا يمكن أن يكون للشخصية ، كما رأينا ، مستوى أعلى من مستوى الذوات المتناهية ، التى يمكن أن تتضمن فيها ؛ أما المطلق ، فهو قطعاً لا شخصى ، مهما كانت طبيعته الإيجابية ؛ ومن المؤكد أن تسمية هذا المبدأ اللاشخصى بالإله هى تسمية غير صحيحة . ولكن إذا لم نوحده بين المطلق وبين الإله ، فما هى الأفكار التى تبقى لدينا لىكى نلحقها بهذا الأخير ؟ إن من المحال تقرير صفات الخيرية الكاملة والقدرة الشاملة للإله ، نظراً إلى ما فى العالم من شر ، وإلى أسباب أخرى . والسبيل الوحيد

إلى المحافظة على الطابع الأخلاقي للإله هو أن نفترض أن قدرته محدودة .  
 وستكون الفكرة الناجمة عن ذلك ، أعني فكرة إله يصبو إلى الخير  
 ويصل إليه ظافرا ، مُرضية للذهن إلى حد يفوق بكثير فكرة إله كامل  
 الخير ، وأقوى منها احتمالا . كذلك لا يمكن أن يكون الإله هو الخالق .  
 إذ إن الشخصيات المتناهية ، كما لاحظنا من قبل ، أزلية . وهكذا فإن النظرية  
 الوحيدة التي يمكن تبريرها هي تلك التي لا يكون فيها الإله ذا قدرة شاملة  
 ولا خالقا ، والسبب الوحيد الذي لا ينبغي من أجله أن نؤمن بوجود  
 مثل هذا الإله هو أنه لا يوجد أساس معقول يبرر ذلك . وهذا النموذج  
 واضح لطريقة ما كتجارت في البرهان ، ونتيجته ، كما هو واضح ،  
 أن فكرة وجود إله ، وإن لم تكن بالطبع متناقضة ، هي مسألة  
 غير ضرورية على الإطلاق . وهكذا استخلص ما كتجارت النتيجة  
 الإلحادية لمذهبه ، بكل ما تميز به فكره من صلابة وجراءة ، وما عُرف عنه  
 من إحجام عن أية تضحية بالمعقولية وأى تراجع أمام الآراء السائدة .  
 غير أن إلحاده بطبيعة الحال مختلف تماما عن المذاهب التي تتباهى عادة  
 بهذا الاسم . فن المستحيل مثلا أن يسمى إلحاده لا دينيا ، وإنما هو يتمشى  
 مع بعض صور الدين ، كالبودية وبعض المذاهب الشرقية الأخرى .  
 وما يثبت ذلك أن مقدماته الأولى — وهي النظرية المثالية إلى الطبيعة  
 الروحية للعالم ، والإيمان بخلود النفس البشرية — كانت ترتبط دائما  
 بفهم للعالم في ظل الألوهية .

والعنصر الأخير في ميتافيزيقا ما كتجارت هو دليل آخر على أن  
 إلحاده لم يكن لا دينيا . فقد نظرنا إلى الذات حتى الآن في ذاتها وبذاتها .  
 فماذا نقول عن علاقة الأشخاص بعضهم ببعض ؟ . إن استقلال الذات ،  
 الذي رفعه مذهب ما كتجارت إلى أعلى المراتب ، لا يعني أن الأشخاص  
 منعزلون ، بكل منطوق على نفسه في ذاتيته ، وإنما هم ، على العكس من ذلك ،

يرتبطون بعضهم ببعض ارتباطا حيويا عميقا متبادلا . وأهم علاقة تربط بينهم — وبالتالي تلك العلاقة التي تربط بين الأشياء جميعا — هي الحب ، أي العاطفة التي تحس بها ذاتٌ نحو أخرى . هذه العاطفة تنبثق من شعور بالوثق الارتباط والتوحد مع الذوات الأخرى . وهذا الارتباط ميتافيزيقي ، كامن في ماهية الشخصية ، وليس شيئا يتعين إحداثه أو إيجاده . ومن هنا يخزن الحب ، الذي ينشأ من الطبيعة النهائية الذاتية selfhood ، لا يمكن أن يكون شيئا سطحيا أو خارجيا ، وإنما هو عميق ، باطن ، أسامي ، ولذا كان مشحونا بعمق وانفعال لا نظير له . وهو أعظم خير يتسنى للبشر أن يتخلوه ، وأرفع قيمة ينطوي عليها الكون . وهو يعبر عن الانسجام الكامل الذي توصل إليه العالم في مرحلته الأخيرة ، مرحلة الذاتية selfhood ، وهو الضمان الوحيد على أن ماهية العالم خير وليست شرا .

ومن الطبيعي أن الحب لا يجد في حياتنا الراهنة أكل صورة له ، بل إن هذه الصورة لا تتحقق إلا في ذلك الوجود الذي يتجه إليه كل سعي لنا ، والذي يسميه ما كتبت جارت — محتفظا بتخطيطه المجرد حتى النهاية — بالحلقة الأخيرة في السلسلة ج . غير أن هذه الصورة المنطقية لا تعود هنا إلا شبحا من بلا خاريا ، عاجزا عن التعبير عن تلك النار والسوزة الباطنة التي يصور بها المفكر ، بعد أن تحول الآن إلى متصوف ، هذه الغاية النهائية . فالمرحلة الأخيرة ، التي لها بداية ولكن ليست لها نهاية ، هي مرحلة الحقيقة المطلقة . وقيمتها أعظم من قيمة جميع المراحل السابقة مجتمعة ، ففيها تنال الحقيقة نصرها النهائي على الخطأ ، والسرور على الألم ، والخير على الشر . صحيح أنها ليست خالية من الشر ، غير أن هذا يتضاءل بحيث لا يكاد يبدو إلا على أنه صدى ، يتردد فيه الألم الذي كان يجلبه الشر في المراحل السابقة . وهنا يعظم الحب إلى حد أنه يتغلغل في كل شيء ويسيطر عليه ، ونحيا فيه الأشياء كلها وتتحرك وتكتسب وجودها . ففي الحقيقة المطلقة تحب كل

ذات أية ذات أخرى تدركها مباشرة . هذا الحب الكامل ليس هو حب الحقيقة أو الخير أو الفضيلة ؛ وهو ليس انفعالا جنسيا ، بل إنه ليس حب الإنسان لله ، وإنما هو قوة دافقة ، غامرة . وهو « مباشر ، ووثيق ، وقوى » ، إلى حد أن أعشق وجدان صوفي لا يعطينا إلا أبسط لمحة عن كماله ،<sup>(١)</sup> وهو لا يخضع لأي تحديد خارجي ، ولا يمكن تعيين سبب له . وأفضل وصف هو أن نقول بكل بساطة ، وبطريق مباشر ، إنه هو الذي يجعل كائنين ينتميان بعضهما إلى البعض ويصبحان كائنا واحدا . إنه الحب الذي تغنى به الشعراء ، وتجلّى بصورة خالصة تماما لدى تينسون في ديوانه « الذكرى In Memoriam » ، وفي ديواني « الحياة الجديدة Vita Nuova » ، و « الكوميديا الإلهية Divina Commedia » ، لدانتي .

« الحب الذي يحرك الشمس وسائر النجوم » ،<sup>(٢)</sup> .

---

(١) « طبيعة الوجود » ، المجلد الثاني ، ص ٤٧٩ .

(٢) البيت الأخير من « الكوميديا الإلهية » .



## القسم السادس

### أصحاب مذهب المثالية الشخصية

— أندروست برنجل — باتيسون Andrew Seth Pringle-Pattison

( ١٨٥٦ — ١٩٣١ )

[ تعلم في إدنبره وفي ألمانيا . وعمل من ١٨٨٠ إلى ١٨٨٣ مساعداً لـ Fraser في إدنبره ؛ وشغل من ١٨٨٣ إلى ١٨٨٧ منصب أستاذ الفلسفة في كارديف Cardiff ، ومن ١٨٨٧ إلى ١٨٩١ منصب أستاذ المنطق والميتافيزيقا في سانت أندروز ، كما شغل من ١٨٩١ إلى ١٩١٩ نفس المنصب في إدنبره . وقد غير اسمه الأصل ، وهو أندروست ، في ١٨٩٨ : إذ كان ذلك شرطاً لكي يرث ضيعة .

مؤلفاته : « التطور من كانت إلى هيجل The Development from Kant to Hegel » ، ١٨٨٢ ( أعيد طبع الباب الثاني في كتابه « الراديكاليون الفلاسفيون Philosophical Radicals » ؛ « الفلسفة بوصفها نقداً للمفردات Philosophy as Criticism of the Categories » ؛ بحث في « مقالات في النقد الفلسفي » ، Essays in Philosophical Criticism ، ١٨٨٣ ( أعيد طبعه في « الراديكاليون الفلاسفيون » ) ؛ « الفلسفة الاسكتلندية : مقارنة بين الردود الاسكتلندية والألمانية على هيوم : Scottish Philosophy : A Comparison of the Scottish & German Answers to Hume » ، ١٨٨٥ ( الطبعة الرابعة ، ١٩٠٧ ) ؛ « المذهب الهيجلي والشخصية Hegelianism & Personality » ، ١٨٨٧ ( الطبعة الثانية ، ١٨٩٣ ) ؛ « محاضرتان في مذهب الألوهية Two Lectures on Theism » ، ١٨٩٧ ؛ « مركز الإنسان في الكون ومقالات أخرى Man's Place in the Cosmos & other Essays » ، ١٨٩٧ ( الطبعة الثانية ، ١٩٠٢ ) ؛ « الراديكاليون الفلاسفيون ومقالات أخرى The Philosophical Radicals & Other Essays » ، ١٩٠٢ ؛ « فكرة الله في ضوء الفلسفة القربية الالهة The Idea of God in the Light of Recent Philosophy » ( محاضرات جيفورد ) ، ١٩١٧ ( الطبعة الثانية ، ١٩٢٠ ) ؛ « فكرة الخلود The Idea of Immortality » ( محاضرات جيفورد ) ، ١٩٢٢ ؛ « دراسات في فلسفة الدين Studies in the Philosophy of Religion » ، ١٩٣٠ .

مؤلفات نشرت بعد وفاته : « محاضرات بالفور من للذهب الواقعي The Balfour Lectures on Realism » ، نشرها ، مع بحث تذكاري ، ج . ف . باربر G. F. Barbour ، ١٩٢٣ ( ألقيت المحاضرات في ١٨٩١ ) .  
انظر : ١ . س . برنجل باتيسون : بحثان تذكاريان ألفهما ج . ب . بيلي J. B. Baillie و ج . ب . ب . كابر J. B. Capper في « أعمال الأكاديمية البريطانية » ، المجلد السابع عشر ] .

ساهم برنجل باتيسون ، وهو اسكتلندي كان نشاطه الفلسفي معاصرا لبوزانكيت ، بدور ملحوظ في استيعاب التراث المثالي المستمد من ألمانيا ، وفي نشره وتدعيمه ، وكان من أفدر مفكري الجيل الثاني من المثاليين الإنجليز . على أنه لم يكن يتميز بأصالة ملحوظة . فقد كان يفتقر إلى المقدرة العقلية العميقة التي كان يتميز بها برادلي ، وإلى مزاج ما كتجارت الجريء الصريح ، وإلى إلمام وورد بالعلوم الطبيعية ، فكان مدينا إلى هؤلاء جميعا . غير أنه لم يرتبط بواحد منهم ارتباطا كاملا ، وإنما سلك طريقا خاصا به ، مر بهؤلاء جميعا عن طريق نقده لمذاهبهم وتوفيقه بينها . وكانت النتيجة ما يمكن تسميته بمذهب مثالي عادي ، جمع بين الاتجاهات المختلفة ، وتجنب من آرائهم ما ينطوي على المزيد من الجرأة ويشير المزيد من الجدل . وبفضل هذا التكيف مع عناصر المدرسة ذاتها ، والمواجهة النقدية لخصومها ، والأبحاث الواسعة في تاريخ الفلسفة ، وتوصل برنجل - باتيسون إلى العالم ، وكان ذلك راجعا إلى دافع خارجي ، هو تعيينه لإلقاء محاضرات جيفورد ، ودافع باطن حفزه إليه ذهنه النقدي ، أكثر مما كان راجعا إلى رغبة عميقة في التأمل وبناء مذهب خاص به . فنظرته إلى العالم تبعث على الاحترام ، غير أن تجنبها للواحدية والتعددية ، وللمذهب المطلق والمذهب الشخصي ، وكل المذاهب الثابتة الأخرى ، كل ذلك جعل منها محاولة تلفيقية ، لا خلقا أصيلا .

وهناك اثنان من كتبه الأولى ، التي ترجع إلى العقد التاسع من القرن

الماضى ، لهما أهمية تزيد على كونها أهمية عابرة فحسب . فكتاب « مقالات فى النقد الفلسفى » ، الذى نشره بالاشتراك مع صديقه هولدين ، هو بيان أو إعلان مشترك لعدد من الشبان ، الذين كانوا فى ذلك الوقت يفتقرون إلى الشهرة ، والذين انضموا إلى الحركة الجديدة ، وكانوا يمثلون أول تعبئة لقوى المثالية . وقد ساهم برنجل باتيسون بالبحث الافتتاحى ، فعرض المخطوط العامة لفلسفة هى فى أساسها فلسفة هيغل ، ولكنها ليست مقيدة تماماً به ، وإنما تتحرك بحرية فى جميع الاتجاهات الفكرية التى امتدت من كانت إلى هيغل . وكان قد بين فى كتابه الأول ، الذى ظهر قبل ذلك بعام واحد ، أن تطور هذه الفلسفة من الكانتية إلى الهيجلية قد سار وفقاً لضرورة منطقية كامنة .

ولما كان برنجل باتيسون قد ظهر ، عندئذ ، بمظهر حامل راية المذهب الهيجلى ، فقد أثار دهشة غير قليلة عندما نشر بعد سنوات قلائل كتاباً تعرضت فيه الهيجلية لنقد شديد ، وأعلن فيه أنها غير مرضية فى نواح معينة . على أن هذا الكتاب ، وهو المذهب الهيجلى والشخصية ، لم يكن موجهاً ضد الحركة الهيجلية بقدر ما كان موجهاً ضد تطورات نظرية معينة لها ، تمت على يد جناحها المناصر لفكرة المطلق . ومع ذلك فقد كان الكتاب يمثل نوعاً من الثورة داخل قيادة المعسكر ، وأدى إلى قيام حركة معارضة انضم إليها ، على مر الأيام ، كل من رفضوا تأييد المذهب المطلق عند برادلى وبوزانكيت . وكان هدف هذه المعارضة هو تنقية المثالية من عناصر هيجلية معينة ، بالتطلع قديماً إلى لوتسه ، ورجوعاً إلى كانت . وفى الوقت ذاته كانت تعنى إعادة إحياء مذهب الألوهية بوصفه جزءاً لا يتجزأ من المثالية ، وبذلك كانت تعنى العودة إلى المدرسة الهيجلية القديمة وتحالفها مع الدين . ولا شك فى أن ميول برنجل باتيسون الدينية القوية

كانت في هذه الحالة عاملا حاسما ، ولم يكن من المستغرب أن يجد كتابه  
صدي عميقا في حلقة مارتينو .

وكان مركز هذا النقد لهيجل هو مشكلة الذات ، أو الشخصية . فقد  
ذهب إلى أن من الواجب فهم فكرة الذات عند كانت بمثلها الإستمولوجي  
( المعرفي ) الأصلي . فالوحدة الترنسندنتالية للوعي الذاتي ليست إلا  
الوحدة المنطقية للتفكير ، والعامل الصوري المحض في المعرفة . ولقد كان  
فشته هو الذي بدأ عملية تحويل الإستمولوجيا عند كانت إلى ميتافيزيقا  
للطلق ، وواصل هيجل هذه العملية ، كما واصلها الكانطيون الإنجليز  
والهيجليون — إذ إن هذه الإستمولوجيا ليست أوضح ظهورا عند فشته  
منها في تحويل جريرن للوحدة التركيبية للوعي الذاتي إلى مبدأ روعي كلي أو  
وعي إلهي . كما أن المنطق والميتافيزيقا ليسا منفصلين بوضوح عند هيجل .  
فالتصور 'يُجسّد في ماهية واقعية ، والمقولات تحدد هويتها بصور لأشياء  
موجودة ، والعالم يُشسّد منطقيا من الفكر المحض . غير أن هذه المحاولة  
الطموحة لا تفلح أبدا في الوصول إلى المعطيات الحقيقية للتجربة ، أو إلى  
العيني والفردى ، ولا تتجاوز أبدا عالم التصورات الشكلية المجردة . على أن  
الواقع لا يمكن أن ينتج بالفكر ، وإنما هو يُعطى له ، والفكر لا يمكنه  
أن يصف إلا ما يمكن الاهتداء إليه نظرا إلى كونه موجودا بالفعل ، وهذا  
الآخر يكون على الدوام فرديا وفعليا ، وبالتالي يكون لا منطقيا ولا  
عقليا . وهكذا فإن إصرار هيجل على تجاهل ما هو فعلي قد جعل عالمه  
ينكمش في حدود العملية المنطقية التي لم يعد فيها الفرد العيني سوى مركز  
تجشع المقولات الصورية .

وبواصل برنجل باتيسون نقده قائلا إن الشمول المنطقي ( panlogism )  
عند هيجل ، يظهر قصوره بوجه خاص في ذلك الشكل من الفردية الذي  
نسميه بالشخصية . فهو لا يترك مجالا لحقيقة الأشخاص . ولقد كان خطأ

هيجل ، الذى شاركه إياه جرير والمدرسة الهيجلية الإنجليزية بوجه عام ، وهو خطأ التوحيد بين الوعى البشرى والوعى الإلهى ، ووضع الاثنين معا فى ذات كلية واحدة - كان هذا الخطأ نتيجة للاتجاه إلى الاستعاضة بصورة خالصة عن كائن حقيقى . ففى الذات الشكلية الخاصة ، أو فى المطلق ، يتلاشى الاثنان ، ويسلبان طبيعتهما المميزة بوصفهما شخصيتين فرديتين . ومقابل هذا المذهب المطلق يؤكد برنجل باتيسون الفردية الكمية والكيفية لكل شخص أصيل ، واستبعاده التام المطلق لكل الأشخاص الأخرى ، وعدم قابليته للاختراق أو النفاذ ( impenetrability ) ، وهى صفة لا يبعد عدم قابلية المادة للاختراق ، بالنسبة إليها ، إلا شيئا هزيلا . فلا يمكن أن تتضمن ذات فى ذات أخرى أو تغفل فيها . ولا تكون الذات مبدأ للتركيب أو للتوحيد إلا إذا عُدت ذاتا عارفة ، أما إذا نظر إليها من الوجهة الميتافيزيقية ، بوصفها موجودة ، فكانت أولى علامتها المميزة هى الاستقلال والانعزال . بل إن الشخصية الإنسانية مستقلة نسبيا حتى إزاء الله ، مادام لها مركزها الخاص . ومن الواجب أن ينظر إلى الله ذاته ، لا على أنه مقولة مجردة مثل المطلق ، عند هيجل ، بل على أنه شخصية واعية بذاتها ، لا تستطيع الشخصية المتناهية أن تغفل فيها أكثر مما يستطيع الله أن يغفل فى الشخصية المتناهية . وبهذا الوصف تكون الروح المطلقة ، عند هيجل والوعى الكلى عند جرير أشبه بالطريق المسدود ، الذى لا يؤدي إلى شخصية متناهية ولا إلى شخصية لامتناهية . فالهيجلية والشخصية لا يجتمعان .

ولسنا بحاجة إلى أن نبحث فى مدى صحة نقد برنجل باتيسون لفلسفة هيجل ، ولا سيما اتهامه إياها بأنها مجرد إطار شكلى . ولقد رأينا من قبل أن ما كتبت ، الذى كانت له معرفة أوثق بنصوص هيجل ، قد اتخذ بعد عشر سنوات موقفا مضادا تماما ، وإن يكن من الطريف أن نلاحظ

أنه قد وصل على الرغم من ذلك ، مع برنجل باتيسون ، إلى نفس النتيجة في تفكيرهما في مشكلة الشخصية . غير أن نقد برنجل — باتيسون له أهمية تاريخية ، هي أن ما يبرره لم يكن التطور السابق للهيجلية الإنجليزية بقدر ما كان تطورها اللاحق ، أى ذلك العزوف التام الذى أسفر عنه مذهب برادلى وبوزانكيت المطلق فيما يتعلق بالشخصية . فقد وضع إصبعه على جرح لم يبدأ فى الظهور إلا فيما بعد . ورأى مقدما خطرا مقبلا ، فشىد للدفاع عنه حصنا احتفى به كل أولئك الذين لم يقبلوا أن ينتقص أحد من حق الشخصية المتناهية وقيمتها أو ينكره . وهكذا قسم المعسكر الهيجلى إلى جماعتين متعارضتين ، هما جماعة المطلق وجماعة الشخصية ، وهو تقسيم ظل قائما طوال التاريخ . وبذلك كانت الخدمة الخاصة التى أداها برنجل باتيسون فى تطور المثالية الإنجليزية هي أنه كان أول مفكر فى هذه المدرسة أكد عن وعى وبإصرار قيمة الشخصية التى لا يمكن أن تسلب ، وبذلك بدأ اتجاهها فكريا كانت له ثمار من أنواع شتى فيما بعد .

ولقد كان كتاب « الهيجلية والشخصية » يمثل أبعد نقطة افترق فيها برنجل — باتيسون عن هيجل . أما فى كتاباته الأخرى فإنه ، منع احتفاظه بالموقف الذى اتخذته من مسألة الشخصية ووضع أساسا منهجيا له ، قد أخذ يعود إلى نقطة بدايته الهيجلية الأصلية . وظهر هذا الاتجاه أول ما ظهر فى اختبار نقدى مفصل لكتاب برادلى « المظهر والواقع » (١) ، عالج فيه « هذه النظرية الجديدة فى المطلق » على نحو أقل قسوة وسلبية مما قد يتوقعه المرء من موقفه السابق . فقد وجد لدى برادلى اتجاهين متعارضين ، أسمى أولهما بالاتجاه الهيجلى ، والثانى صدى لاسينوزا وشلنج ، فقبل الأول ورفض الثانى ؛ وبعبارة أخرى فقد رفض الرأى الذى يجعل من المطلق

(١) فى مجلة Contemporary Review ، ١٨٩٤ ؛ وقد أعيد نشره فى كتابه « مركز الإنسان فى الكون » .

وحدة غاوية لا تنوع فيها ، ولا تتجاوز فيها المتقابلات على نحو أصيل ، وإنما تخف حدة التقابل بينها فحسب ، كما رفض الثنائية غير الهيكلية بين المظهر والواقع ، وقبل درجات الحقيقة والواقع ، التي رأى أنها هي أساس مافى . فلسفة هيجل من قيمة باقية . وعلى الرغم من انتقاداته الكثيرة لتفاصيل المذهب المطلق الجديد ، فإن موقفه العام من هذا المذهب ، كما يتمثل لدى بوزانكيث . أكثر مما يتمثل لدى برادلى ، كان موقف التأييد . ويبدو أن بوزانكيث . بوجه خاص قد ساهم مساهمة كبرى فى الصورة النهائية التى اتخذتها ميتافيزيقاه . وعلى أية حال ، فى كتاب « فكرة الله » ، كانت وسيلته إلى إيضاح أفكاره الخاصة هى المناقشة المستمرة لأراء بوزانكيث . ولما كانت مسألة اتفاق هذين المفكرين واختلافهما مسألة داخلية بالنسبة إلى المدرسة ، فلا حاجة بنا إلى خوضها

ولا تكتمل أطراف مذهب برنجل باتيسون بحيث تكون منه نظرة كاملة إلى العالم ، إلا عندما نصل إلى المجموعتين اللتين ألقاهما من محاضرات جيفورد ، وهما « فكرة الله » و « فكرة الخلود » ، وهما المجموعتان اللتان كانت أولاهما هى الأهم من جميع النواحي . وهنا ، كما فى المواضيع السابقة ، يتركز اهتمامه فى المسائل الميتافيزيقية . فهمة الفلاسفة فى نظر غيره من بناء المذاهب من الهيجليين ، هى التفكير فى الواقع فى كليته ، وتتبع مركبه المعقول بوصفه نسقا مقفلا مترابطا ، وتفسير كل أجزائه ومراحله فى ضوء مبدأ واحد أساسى ، بناء على افتراض لا يمكن إثباته ، ولكن لا مفر من تأكيده ، هو أن الواقع معقول تماما ، وأن الأشياء تلتزم نظاما ، وأن هذا النظام قابل لأن يعرف من حيث المبدأ . ففكرة الارتباط العضوى للأجزاء بعضها ببعض وبالككل ، هى للفكرة الأساسية فى مذهب برنجل - باتيسون ، وهى مظهر تأثيره بهيجل ، وفى ضوء هذه الفكرة يناقش العلاقة بين الطبيعة

والإنسان ، والفرد والمجتمع ، والعالم والله ، والمتناهي والوجود الإلهي ، وما شابهها من الأفكار .

فالطبيعة أداة بالنسبة إلى الإنسان ، والإنسان أداة بالنسبة إلى الله . ولا وجود للطبيعة بوصفها حقيقة مستقلة تامة في ذاتها ، كمتلك التي يقول بها العلم الميكانيكي . بل إن كل حادث طبيعي هو ، على العكس من ذلك ، يوجه إلى الإنسان بوصفه كائنًا عاقلًا . إن الإنسان حقا ابن الطبيعة ، وفائدة كبدها ، وإليها ترجع جذوره ، ومنها ينمو عوده ، غير أنه أداة ذلك الشيء الذي نماء ، وهو الوسيلة التي وصلت بها الطبيعة ، لأول مرة ، إلى وعيها بذاتها وتمتعها بوجودها . فكل منهما أداة للآخر .

فإذا ما تبين لنا ذلك ، أمكن خوض مشكلة المعرفة وحلها . فالإنسان ، بوصفه كائنًا عارفاً ، هو مع ذلك فرد في الكون أو عضو فيه ؛ لذلك كان علينا أن نزيل الهوة التي أقامها الفلاسفة بين العارف والمعرف ، بين الذات والموضوع ، وأن ننظر إليهما معاً في وحدتهما بوصفهما أعضاء في نسق واحد . فالإنسان ، من حيث هو ذات عارفة ، داخل في العالم الذي يعرفه ، وهو يقف جنباً إلى جنب مع موضوعاته . ويستتبع ذلك ألا يكون حوام حقيقة الشيء هو فعل المعرفة ، بل إن ذلك الفعل يفترضها مقدماً ، وهي بهذا المعنى مستقلة عنه — أعني أنها مستقلة بالمعنى الميتافيزيقي ، أي معنى أنها موجودة بذاتها ، خارج كل علاقة لها بالذهن ، كما يزعم الكثيرون بالنسبة إلى المادة ، وكما يقال على تلك الخرافة الأخرى التي لا يمكن تبريرها ، أعني الشيء في ذاته . وإذن فشكلة المعرفة لا يمكن أن 'تحل' بمذهب مثالي من نوع مذهب باركلي ، ولا بمذهب مادي من النوع المرتبط بالعلم الطبيعي ، إذ إن الأول يححو الموضوع في الذات ، والثاني يححو الذات في الموضوع ، كما أنها لا تحل بثنائية الظاهرة والشيء في ذاته عند كانت ، مادامت هذه تؤدي إلى اللا أدريّة . والحل الوحيد الذي يمكن إيجاده هو القول بمذهب



واقعى يعطى كسلاً من العاملين المتضايين حقه . ومادام مثل هذا المذهب الواقعى يتفق فى جميع النقاط الأساسية مع رأى الساذج ، فإن برنجل — باتيسون يطلق على مذهبه اسم الواقعية الطبيعية . وهذا الموقف لا يتعارض أبداً ، بطبيعة الحال ، مع القضية المثالية الأساسية القائلة إن طبيعة العالم روحية ، ويمكن أن يندمج عضواً فى مذهب المثالية الميتافيزيقية .

ولقد كانت الميتافيزيقا التى قال بها برنجل — باتيسون مثالية ، لها مراكز أساسية ثلاثة هى الطبيعة والإنسان والله . فالمثالية فى هذا المذهب ليست عنصراً فيه بقدر ما هى تكون الأساس العام للكل . وقوتها الدافعة إنما تكون فى الفكرة القائلة إن الطبيعة لا يمكن تصورها موجودة بذاتها ، وإنما هى لا تتصور إلا بوصفها عاملاً فى كل أكبر ، تجد من خلاله القيم الروحية تعبيراً عنها : فرفض أية صورة من الفلسفة الطبيعية naturalistic هو أمر تحتّمه الاعتبارات الأخلاقية . غير أن المثالية لا يمكن البرهنة عليها . فهى ترتكز أساساً على اعتقاد مطلق ، لا تبرره الحجج الإيجابية بقدر ما تبرره استحالة الفرض الطبيعى المضاد له . ومن ثم فهى ليست نظرية جامدة ، وإنما هى قوة حية وإيمان ، هو الإيمان بأن الطبيعة ليست أصلاً للروح أو نقطة بداية لها ، وإنما هى تتخذ من الروح غاية ونقطة نهاية لها .

وبهذا المعنى يكون مذهب برنجل — باتيسون متركزاً حول الإنسان ، فهو يرتكز ، لا على الأصل أو نقطة البداية ، وإنما على الغاية أو الهدف . وهذا الطابع الغائى يزداد وضوحاً فى مذهبه فى الإنسان أولاً ، ثم فى مذهبه فى الله ، الذى بلغ فيه هذا الاتجاه قمته . فهو يعمل على توسيع وتعميق تصوره للإنسان كما عرضه فى كتابه « الهيجلية والشخصية » ، دون أن يغير أياً من نقاطه الأساسية . وهنا تظهر مرة أخرى معارضته للمذهب المطلق ، ولكنها تظهر هذه المرة عن طريق نقده ، لا لهيجل ذاته أو للهيجلين الإنجليز الأوائل ، وإنما للهيجلين المتأخرين ، ولا سيما برادلى

وبوزانكيت . أما وجهة نظر برنجل باتيسون فهي ، على خلاف هؤلاء ، أقرب إلى آراء ما كتجارت وسورلي وراشدال . ويمكن تلخيصها على النحو الآتي : فكل ذات متناهية هي فرد لا نظير له ، ويقع مركزها في داخلها ، وتكوّن عالما لنفسها ، وهي مركز للكون غير قابل للتكرار . وليست الذات ، كما قال برادلي ، مجرد معبر يوصل إلى حقيقة مطلقة تلهمها وتبدّلها ، بل إن لها ، على العكس من ذلك وجوداً وقيمة خاصة بها ، وطبيعتها هي ما تكون عليه في الزمان والمكان الراعنين ، لا ما يمكن أن تكون عليه في المستقبل . ومن المحال إغراق الذات في كلّ أعلى ، أو تحقيقها لذاتها بالفناء في غيرها . فهي ليست نعتاً للمطلق ، على حد تعبير برادلي ، وإنما لها كيان الاسم القائم بذاته ( وإن لم يكن هذا الكيان جوهرياً ) . وهي مركز يكتسب فيه مضمون متعدد الأوجه وحدة باطنة هي وحدة ذات فريدة . أما من وجهة النظر الأخلاقية فإن الذات تعدّ إرادة متكونة ، مستقرة ، محددة ، ومصدراً لأفعالها الخاصة ، التي تضطلع تبعاً لذلك بالمسئولية الكاملة عنها . وليست الذات نقطة التقاء أو مفرق طرق بالنسبة إلى قوة غريبة عنها ، بل إنها هي التي تتحكم في مصيرها ، وهي حرة خلاقية . وتنتمي الحرية إلى قلب طبيعتها ، إذ إنها هي الشرط الأساسي لآية حياة أخلاقية . فكوننا أحراراً هو حقيقة لا تُفند ، ولا تتأثر بجميع الصعوبات التي تعترض طريقنا عندما نحاول إيضاح الطريقة التي نكتفي بقبولها . فالفردية ، ومعها الحرية التي تكوّن مركزها ، هي المبدأ الأساسي للعالم الحقيقي .

وتحتل فكرة الشخصية الإنسانية هذه — باستقلالها ، وحريتها ، وعدم قابليتها للفناء — موقعا مركزيا في مذهب برنجل — باتيسون ، إذ إن كل شيء آخر يرتبط بها ويتحدد بوساطتها . بل إن فكرة الله ذاتها ، مهما كان بحثها أساسيا بالنسبة إلى كل ميثافيزيقا ، مستمد من

هذه الفكرة ضوءاً وتكتسب مكاتبا بفضلها . فالله ، كالطبيعة ، ليس نقطة بداية بالنسبة إلى الإنسان ، وإنما هو يُعرّف بأنه نقطة النهاية بالنسبة إليه ، وذلك على خلاف معظم مذاهب الألوهية . وهكذا فإن المبالغة في تأكيد الشخصية المتناهية ، الذى أدى عند ما كتجارت إلى الإلحاد ، قد أدى عند برنجل - باتيسون ، الذى كان شعوره الدينى أقوى بكثير ، إلى تكييف فكرة الله مع فكرة الإنسان . أما عن العلاقة بين العالم والله ، فإنه يرى أن كلا منهما وسيلة للآخر : فليس الله خالفاً عما أوجد العالم ثم تركه لمصيره ، أى تركه ليسير في طريقه آلياً ، وإنما هو كائن في العالم ، وهو خالق بمعنى أنه يتكشف أزلاً فيه ، ويضفى أزلاً على تنهى العالم وعَرَضيته فيضا من طبيعته اللامتناهية التى لا ينضب معينها . فالمتناهى والإلهى لا يوجدان إلا وبينهما مبادلة ، وتغلغل عضوى متبادل .

وبالمثل ، فليس الإنسان والله حقيقتين مستقلتين ، وإنما يستمد كل منهما معناه من الآخر . فالله يحتاج إلى الإنسان بقدر ما يحتاج إليه الإنسان . ولا يكون لله معنى إذا ما استُبعدت عنه كل علاقة بحياتنا الشخصية ، وبالمثل لا يكون للإنسان معنى إذا ما عُزل عن أسامه الخالق . ولا يمكن أن يكون معنى الكون وقيمه منحصر في تنازل الأفراد المتناهي عن ذواتهم لى يستوعبها اللامتناهى ، الذى ان يستمد من ذلك أى تعميق أو إثراء لطبيعته . بل إن وجود مرا كز فردية للتفكير والفعل هو ذاته إثراء وإعلاء للسكل في هذا العالم الحالى ، وكلما ازداد لهيب الحياة الفردية لمعانا ونقاء ، كان ذلك الإثراء أعظم وأعمق . ولو دُمرت حياة فردية واحدة لكان في ذلك إقلال من قيمة الكون . فالقيم العليا لا تتحقق إلا في حياة الأشخاص ومجموعات الأشخاص ، أى في اتصال الأفراد المتناهي بعضهم ببعض وبالله . ولهذا السبب كان من المستحيل على المطلق

أن يصبح بنفسه ذاتا حقيقية . ولا يتحقق المطلق أو الله بمعناه الكامل ، ولا يغدو إلهاً حقاً ، إلا عندما تُترك للأفراد سلامتهم الكاملة إلى جانبه ، وعندما يدخلون في اتصال معه ، وبذلك يُعلنون من قيمته .

والنتيجة المنطقية لقدرة الشخصية الإنسانية على إعلاء الألوهية ، هي أولوية الإنسان بالنسبة إلى الله . ولقد علق الدكتور تمبل Temple على كتاب برنجل باتيسون قائلا إن الله قد أصبح مجرد نعت لاحق بالكون<sup>(١)</sup> ، ولعل الأصح من ذلك أن يقال إنه قد أصبح مجرد نعت لاحق بالإنسان أو متوقف عليه . وقد ظهر معترض آخر من الجانب الديني هو البارون فون هوجل Von Hügel<sup>(٢)</sup> . فذهب الألوهية عند برنجل — باتيسون ، مهما كان عمق الإيمان الذي انبثق عنه ، ليس في أساسه سوى مذهب ألوهي مزيف ، وحل وسط ، عاجز عن إرضاء العقل نظريا . وإن تمجيده للشخصية الإنسانية يؤدي منذ البداية إلى استبعاد فكرة الله كإشاع فهمها ، وعلينا ، إذا شئنا عرضاً أكثر اتساقاً لهذه الفكرة ، أن نعود إلى برادلي ورأيه في المطلق اللاشخصي ، وإلى إلحادية ما كتجارت . أماموقف برنجل — باتيسون فهو موقف وسط ، لا يرتكز على أساس متين ، ويُخفق في نفس النقطة التي جعل منها قبة نظريته للبتافيزيقا ، أعنى تعريف طبيعة الله .

(١) في كتاب « الفلسفة الإنجليزية المعاصرة » ، لشرج . ه . مويرهيد ، المجموعة الأولى ، ص ١١٥ والصفحة التالية .

(٢) « مقالات وأحاديث Essays & Addresses » ، المجلد الثاني ، ص ١٣٥ —

جيمس ست James Seth

( ١٨٦٠ — ١٩٢٤ )

[ ألم في إدنبرة وألمانيا . وعمل من ١٨٨٣ إلى ١٨٨٥ معاهدا لفرير في إدنبرة . عين منذ ١٨٨٦ إلى ١٨٩٨ أستاذا في جامعات دالموسى Dalhousie ، وبراون Brown وكورنيل Cornell على التوالي ؛ وشغل من ١٨٩٨ إلى ١٩٢٤ منصب أستاذ الفلسفة الأخلاقية بجامعة إدنبرة .

مؤلفاته : « الحرية بوصفها صاعدة أخلاقية Freedom as Ethical Postulate »  
 « ١٨٩١ : دراسة في المبادئ الأخلاقية A Study of Ethical Principles »  
 « ١٨٩٤ ( الطبعة السابعة عشرة ، ١٩٢٦ ) : « الفلاسفة الإنجليز ومدارس الفلسفة الإنجليزية English Philosophers & Schools of Philosophy » ١٩١٢ .  
 وقد نشر برنجل — تايمسون سنة ١٩٢٦ ، أى بعد وفاته ، كتابه « مقالات في الأخلاق والدين وأبحاث أخرى » وأرفقه ببحت تذكاري ، وثبت كامل مؤلفاته [ .

نشأ جيمس ست في نفس البيئة الفلسفية التي نشأ فيها شقيقه أندرو ، فكلاهما قد شب في العاصمة الاسكتلندية ، التي كان يهيمن على شئونها الفلسفية فريزر وكالدروود ، أستاذا كرسي الفلسفة بالجامعة . وعلى الرغم من أن هذين لم يتأثرا بالحركة المثالية الجديدة إلا قليلا ، فقد هيا الأرض لاستقبال الأفكار الجديدة وتنميتها ، وذلك حين أحيا فريزر مثالية باركلي ، ورفض كالدروود مذهب هاملتن ، الذي كان قبوله شائعا في اسكتلندا في ذلك الحين . كما أن الاثنين كانا من أنصار فكرة الألوهية ، وفي هذا كانا قريبين من المثاليين الهيجليين . ولقد وفدت المثالية الجديدة إلى العاصمة الاسكتلندية في حوالى بداية العقد التاسع من القرن الماضي ، آتية من جلاسجو ، حيث كان إدوارد كيرد سفيرا واسع النفوذ للمثالية . وفي الوقت نفسه تقريبا أنشئت جمعية فلسفية جامعية في إدنبرة ، كان من أعضائها شبان موهوبون مثل آدمسون Adamson وسورلي Sorley وهولدينز وريتشي ، والآخران منفردا وبفضل المناقشات التي دارت بينهم للأفكار الجديدة ، تتغلغل جذور الحركة المثالية في المدينة التي كان يعيش فيها عندئذ —

بهذه المناسبة — الرائد الأصلي للهيجلية الإنجليزية ، أعني سترلنج ، وعندما حل العقد الأخير من القرن الماضي أصبح ممثلان للاتجاه الجديد يشغلان الكرسيين الجامعيين بها : ذلك لأن أندروست قد خلف فريزر في ١٨٩١ . كما أن جيمس ست قد خلف كالدروود في ١٨٩٨ . وواصل الاثنان نشاطهما في التعليم ، بقوة ونجاح غير عاديين ، إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى .

ولقد كان الشقيقان يجمعان ، إلى أوامر القربى ووحدة المهنة ، تشابها في المذهب : فقد كانا متفقين في جميع النقاط الأساسية . ولكن بينما كان الاهتمام الأساسي لأندرو منصبا على الميتافيزيقا ، فقد اتجه اهتمام جيمس إلى الأخلاق . وهكذا طبق أفكار شقيقه على نطاق واسع في هذا الميدان ، وصاغها في كثير من الأحيان صياغة أدق وأضبط . ففي بحثه ، الذي أحرز في وقته مكانة عالية ، عن الحرية بوصفها مصادرة أخلاقية ، دافع عن استقلال الشخصية الأخلاقية وسلامتها ضد الانتظام الهدام لدى الهيجليين ، وبذلك ألف ما يمكن أن يعد ملحقا أخلاقيا لكتاب أخيه الهيجلية والشخصية ، وإذا كان هناك جانبان يهددان بالخطر استقلال الشخصية ، الذي هو أساس كل حياة أخلاقية ومقدمتها الأولى ، أعني المذهب الطبيعي ، الذي يذيقها في الطبيعة ، ومذهب المطلق ، الذي يذيقها في الله ، فإنه كان يعد الجانب الثاني أخطر . غير أن كلا هذين قد تخلى عن الحرية ، التي ترتبط بفكرة الشخصية ارتباطا يبلغ من العمق حدا يجعل الوجود المتميز للإنسان متوقفا تماما عليها .

ومهمة الأخلاق هي تحديد مركز الإنسان الخاص بالنسبة إلى الأحداث الطبيعية من جهة وإلى القوة الإلهية من جهة أخرى . لذلك لا يمكن أن تكون الأخلاق علما وضعيا فحسب ، أو بحثا تجريبيا في الظواهر الأخلاقية .

وأصولها ، مثلما يقول أنصار المذهب الطبيعي والمذهب التطوري ( الذى يعد « لسلى ستيفن » ، مثلا نموذجيا لهما ) ، وإنما ينبغى أن تمتد ، من ناحية أخرى إلى الميتافيزيقا واللاهوت . وفى هذه الميادين الأخرى كان مذهب جيمس مائلا ، على وجه العموم ، لمذهب أخيه . فالفلسفة هى المركب الأعلى للحقائق الميتافيزيقية الثلاث : الطبيعة ، والإنسان ، والله . ولكن عليها أن تكشف ، فى عملية التركيب ، عن الفروق القائمة بينها ، فضلا عن علاقاتها الإيجابية ، وعليها أن تحذر بوجه خاص طغيان إحدى هذه الحقائق على الأخرى : فعليها أن تعطى كلا منها ما تستحقه بالفعل من قيمة ومكانة . والمشكلة الميتافيزيقية الحاسمة هى علاقة الإنسان ، بوصفه شخصا أخلاقيا حرا ، بالله . غير أن حل هذه المشكلة ، دون تهرب من أية صعوبة من الصعوبات المتضمنة فيها ، هو أمر يتجاوز نطاق قدرة التفكير : فيبدو أن كلاً من العاملين لا يتماشى مع الآخر ، ومع لك لا يمكن التخلي عن أحدهما لصالح الآخر : كما تفعل الصوفية ، مثلا ، لصالح الدين ، أو كما تفعل المثالية المطلقة لصالح الفلسفة . فالإنسان لا يصل إلى فكرة كائن أعلى إلا عن طريق اقتناعه بسموه على الطبيعة وبحريته واستقلاله الأخلاقيين . لذلك كان النظر باحترام إلى الطبيعة البشرية هو الضمان الصحيح الوحيد للنظر إلى الطبيعة الإلهية باحترام : أى أن إفتاء الشخصية الإلهية ليس إلا إفتاء لعظمة الله بدورها . ولهذه الأسباب لا يمكن النظر إلى الإنسان على أنه مجرد أداة سلبية فى يد الله . فالصفة الأساسية المميزة لحياة الإنسان ، من حيث هى تحكم حر فى مصيره ، هى التفاعلية الإيجابية ، وأرفع رأى يمكن أن يتخذه الإنسان عن علاقته بالله هو القول بالتعاون الإيجابي ، الذى يتخذ فيه الإنسان لنفسه الغايات الإلهية ، ويغدو هو ذاته مساهما فى تقدم العملية الكونية . ويرتبط بهذه الفكرة

الجدابة ، الرأى القائل إن الشر قوة إيجابية حقيقية ، ينبغي أن نعرفه بكل مالها من خطورة أئمة . وهنا أيضا يظهر ست ، كما أظهر فى مسألة الشخصية ، معارضته للبهجلىين ، الذين كان فى تفاؤلهم السطحى تهرب من مشكلة الشر أكثر مما كان فيه حل لها .

ومن الواضح أن هذه الآراء الأخلاقية ، إذا ما نُظر إليها فى سياق نتائجها الميتافيزيقية ، تبدو أقرب إلى الروح الكانتية منها إلى الروح الهيجلية . كما أنها قريبة الصلة بمذهب مارتينو الأخلاقى . غير أن دين ست الأعظم ، إلى جانب دينه لأخيه ، هو ، باعترافه ، دينه لكتاب الأخلاق Ethica ، من تأليف مواطنه لورى Laurio ، الذى كان يدرس فى جامعة إدنبره فى نفس الوقت ، والذى لم توجه إليه الأوساط الفلسفية الاحترافية فى ذلك الحين ، ولا فيما بعد ، اهتماما كبيرا .

وقد عرض ست آراءه ، على شكل مذهب أخلاقى كامل ، فى كتاب نال أحرز نجاحا كبيرا ، هو دراسة فى المبادئ الأخلاقية ، فقد وقف موقفا مضادا لأنصار المذهب الطبيعى إذ نظر إلى الأخلاق على أنها علم معيارى ، غايته الرئيسية هى كشف المثل الأخلاقى الأعلى ، والمعيار الاسمى للقيمة الأخلاقية . ومن الممكن التمييز بين حلين متعارضين ، من بين الحلول المتباينة لهذه المشكلة الأساسية ، هما مذهب اللذة عند الأبيقوريين وأصحاب مذهب المنفعة ، ومعياره هو الشعور ، ومذهب القانون الصارم Rigorism عند الرواقين والحدسيين وكانت ، ومعياره هو العقل . هذان الطرفان المتقابلان فى حاجة إلى نظرية تتوسط بينهما ، تعطى كلا من الشعور حقه ، وتجمع بينهما فى وحدة الطبيعة البشرية . ويطلق ست على هذا الموقف الأشمل اسم مذهب



السعادة Eudaeonism ، أو أخلاق الشخصية ، ولا يعنى بذلك نظرية السعادة كما عرفها الأخلاقيون التجريبيون الإنجليز فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وإنما يعنى الموقف المثالى الذى تجلى بأنقى ضوره عند أفلاطون وأرسطو ، وبطلر وهيجل ، وفى رواية « فاوست » ، لجوته ، وفى شعر تيفسون وبرواننج وأرنولد . وعلى حين أن شعار مذهب اللذة هو إرضاء الذات ، وشعار مذهب القانون الصارم هو التضحية بالذات ، فإن شعار مذهب السعادة ( بهذا المعنى ) هو تحقيق الذات . فالأمر الأخلاقى ليس موجها للشعور أو إلى العقل ، وإنما إلى الذات الكاملة ، التى تجمع بين هذا وذاك ، وإلى شخصية حرة منظورا إليها فى ضوء جميع أفعالها وعلاقاتها ، وإلى ذات تنسجم جميع قدراتها ، وتحيا حياة أخلاقية ارتبط فيها الواقعى والمثالى ارتباطا عضويا . فالذات الأخلاقية هى الوحدة التركيبية للوعى الذاتى ، منظورا إليها من وجهة النظر الأخلاقية . وهكذا فإن القانون الأخلاقى يقضى بأن تنمى ، من فرديتنا الطبيعية ، ذاتنا المثالية الشخصية الأصلية . ولكى يكون الكائن شخصا ينبغى أن يكون حرا . وعلى ذلك فإن قانون الكائنات العاقلة كلها هو الاستقلال الذاتى .

وبعد تحديد ست المثل الأخلاقى الأعلى على هذا النحو ، ينتقل إلى تطبيق مفصل له على الحياة الفردية والاجتماعية . وهكذا ينتهى بميتافيزيقا للأخلاق يتحدث فيها عن الحرية والله والخلود . وهو فى هذه الموضوعات لا يتجاوز ، كما ذكرنا من قبل ، البرنامج الذى وضعه فى كتابه الأول ، ولا يفترق فى أية نقطة أساسية عن آراء أخيه .

وليام ريتشى سورلى William Ritchie Sorley

( ١٨٥٥ - ١٩٣٥ )

[ تعلم فى إدنبره وترينتى كولييج بكيمبردج . وكان فى ١٨٨٣ زميلا لترينتى كولييج بكيمبردج ، ومنذ ١٨٨٨ إلى ١٨٩٤ شغل منصب أستاذ المنطق والفلسفة فى كاردف ،

كما شغل منصب أستاذ الفلسفة الأخلاقية في أبردين من ١٨٩٤ إلى ١٩٠٠ ؛ وعين في ١٩٠٠ أستاذا للفلسفة الأخلاقية في كيمبردج (خلفا لسدجويك) ؛ وتقاعد في ١٩٣٣ .  
مؤلفاته : « المنهج التاريخي The Historical Method » ، مقال في كتاب « أبحاث في النقد الفلسفي » ، نشره أ . ستور . ب هولدين ١٨٨٣ ؛ « أخلاق المذهب الطبيعي The Ethics of Naturalism » ، ١٨٨٥ ( الطبعة الثانية ، ١٩٠٤ ) ؛ « الاتجاهات الأخيرة في علم الأخلاق Recent Tendencies in Ethics » ، ١٩٠٤ ؛ « الحياة الأخلاقية والقيمة الأخلاقية Moral Life & Moral Worth » ، ١٩١١ ( الطبعة الرابعة ، ١٩٣٠ ) ؛ « القيمة الأخلاقية وفكرة Moral Values & the Idea of God » (مخاضرات جيفورد) ، ١٩١٨ ( الطبعة الرابعة ، ١٩٣٠ ) ؛ « تاريخ الفلسفة الإنجليزية A History of English Philosophy » ، ١٩٢٠ ؛ « القيمة والواقع Value & Reality » مقال في كتاب « الفلسفة الإنجليزية للماضى » ، نشره ج . ه . مويرهيد ، المجموعة الثانية ، ١٩٢٥ .

انظر : « و . ر . سورلي » بحث تذكاري من تأليف ب . ر . تينانت F. R. Tenant ، في « أعمال الأكاديمية البريطانية » ، ١٩٣٦ .

انضم سورلي إلى الحركة الجديدة في وقت مبكر : إذ نجد في كتاب « مقالات في النقد الفلسفي » مناقشة أجراها للمنهج التاريخي . وقد كان الموضوع الرئيسي لكتابه التالية هو المسائل الأخلاقية ، التي نقدها ونظمها من وجهة النظر المثالية . وقد بحث مشكلات فلسفة القيمة على نحو أدق وأعمق ، مما بحثها معظم أفراد المدرسة ، وأحرز في مذهبه نتائج أعظم ، وكان بحثه مرتبطا بدراساته الأخلاقية ارتباطا وثيقا . وكان تعلقه بكانت و هيغل ، على وجه العموم ، أقل مما كان شائعا بين زملائه من المثاليين . غير أنه استبقى تمييز كانت للوجود إلى عالمين : عالم الطبيعة وعالم الغايات ، وكان يماثل هيغل في سعيه إلى بناء مذهب وتعلقه الدائم بالكل ، وبهذا كان يواجه كل أنواع الثنائية بمحاولة تجاوزها في وحدة أعلى .

وقد تضمن كتاباه الأولان « أخلاق المذهب الطبيعي » ، والاتجاهات الأخيرة في علم الأخلاق ، نقدا عميقا لمختلف صور الأخلاق الطبيعية ،

خبين أولا أن أصل الأفكار والأحكام الأخلاقية لا يمكن أن يقرر شيئا بشأن مشكلة قيمتها ، إذ لا يوجد طريق يؤدي من الواقع إلى القيمة ، وبما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون - وهي فكرة استمدها من لونسه ، كما بين ثانيا أن المراحل الدنيا ، في العملية التطورية ، ينبغي أن تفهم في ضوء المراحل العليا ، وليس العكس . وقد عرض فيما بعد مذهبه كاملا في كتابه الرئيسي «القيم الأخلاقية وفكرة الله» ، ولخصه في مقال «القيمة والواقع» .

فالوجود في كليته ، الذي تكون مهمة الفلسفة هي الوصول إليه ، يشمل عالين مختلفين كل الاختلاف : عالم ماهو واقعي فحسب ، أو موجود ، وعالم ماله قيمة . فالتقويمات ، شأنها شأن الإدراكات الحسية ، من بين المعطيات الأصلية للتجربة . وصحيح أن فعل التقويم ، وكذلك فعل الإدراك ، هما فعلان ذاتيان ، غير أن الموضوعات التي يتجه إليها هذان الفعلان ليست ذاتية . فبأي معنى إذن تكون القيم موضوعية ؟ . يرد سورلي على هذا السؤال قائلا إنها تكون موضوعية بقدر ما تكون علامة مميزة للشخصية . فالأشخاص ينتمون إلى النظام الموضوعي للأشياء ، وهم في نفس الوقت حملة القيم التي تظهر في حياتهم وشخصياتهم ، وهكذا فإنهم ينتمون إلى كلا العالمين اللذين أشرنا إليهما .

هذه الأفكار ، التي ترجع أصلا إلى كانت ، قد اكتسبت طابعا خاصا بفضل ارتباطها بلونسه وفلسفة القيم المستمدة منه ، والتي وضعها مدرسة بادن<sup>(١)</sup> ، واتفقت مع مذهب ريكورت<sup>(٢)</sup> Rickort اتفاقا يكاد

(١) فرع من الكانطية الجديدة ، كان في أساسه ثورة على العقولانية للتطرفة التي اتخذتها الاتجاهات المثالية بعد كانت ، ومحاولة لإيجاد دور للشعور ، إلى جانب العقل ، في الفلسفة ، عن طريق فلسفة للقيم . [ المترجم ]

(٢) هينريش ريكورت ( ١٨٦٣ - ١٩٣٦ ) ، من كبار مؤسسي الكانطية الحديثة ، أكد التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الروحية أو الحضارية ، كما أكد موضوعية القيم التي رأى أنها هي الموضوع الحقيقي للفلسفة . [ المترجم ]

يكون تاما . ولقد كان لهذا الاتجاه الفكري ذاته ، الذى لم يلق فى إنجلترا اهتماما كبيرا ، تأثير قوى فى أجزاء أخرى من مذهب سورلى . فعرضه لمناهج العلوم ، مثلا ، مستقمد من ريكرت ، ولا سيما فكرته عن العملية التعميمية فى العلوم الطبيعية والعملية التخصصية فى العلوم التاريخية ، ونظرته إلى الأولى على أنها تقوم بتجريد القيم ، والثانية على أنها متوقفة على القيم . ولما كان مقر القيم هو الأفراد ، والأفراد يتميزون بفردانية كيفية وعددية ، فإن هذه الصفات تنتمى إلى ماهية ماله قيمة .

وعندما أخذ سورلى يضع تفاصيل نظريته الخاصة فى القيم ، ازداد اهتماما بالقيم الأخلاقية ، وجعل لها آخر الأمر مكان الصدارة بالنسبة إلى كل القيم الأخرى ، بوصفها أنقاها وأشملها ، ومن حيث إنها ترتبط بالقيم الأخرى جميعا . وهو يميز بين القيم من حيث هى أداة ، والقيم من حيث هى كامنة : فالأولى تنتمى حتى إلى الأشياء المادية ، بقدر ما تدخل فى علاقات مع الأشخاص ، أما الثانية ، وهى القيم بمعناها الصحيح ، فلا تنتمى إلا إلى الأشخاص بوصفهم حَمَلَتِها . ولا تدخل هذه القيم الأخيرة فى تركيب الكون عن طريق ارتباطها بالأشخاص .

ولقد شيد سورلى على نظرية القيم هذه مذهبه الخاص فى الميتافيزيقا ، الذى كانت مهمته الرئيسية ، الرامية إلى تحقيق غايته الرابطة الجامعة ، هى تجاوز ثنائية نوعى الوجود ، أعنى الوجود الفعلى أو الطبيعى ، والوجود ذا القيمة أو الأخلاقى . فعلى الميتافيزيقا أن تهتدى إلى المصدر الموحد الذى نشأ عنه هذان العالمان ، والذى قد يهودان إليه ثانية . ولما كان العالمان يلتقيان فى الإنسان ، فلا بد من تصور هذه الوحدة العليا ، وهى المطلق أو الله ، من خلال مقولة الشخصية . فإذا شئنا أن نحقق النظرة المتكاملة التى تعطى 'كلام من القيم ، والوقائع الطبيعية ، حقها الكامل ، فإننا لا نستطيع الاستغناء عن فكرة الله . فإله ضرورى ليس فقط

من حيث إنه خالق الكون الموجود ، بل أيضا من حيث إنه ماهية كل قيمة ومصدرها .

وحسبنا هنا أن نشير من بعيد إلى النتائج الميتافيزيقية لهذا الرأي . فقد وضع سورلى مصدرتين ميتافيزيقيتين ، هي الحرية الفردية . الإنسان ، والغرضية الكونية للطبيعة . أما الأولى فتثير مشكلة خطيرة . هي علاقة الإنسان بالله في علمه الشامل وقدرته الكاملة . فوجود الشر ، وتلك الأحداث التي لا يجوز أن تنسب إلى الإرادة الإلهية ، وقدرته الإنسان على أن يسلك على نحو مضاد للقانون الأخلاقي ، هذه الحقائق وغيرها لا يمكن تفسيرها إلا على أساس افتراض أن الله يضع لقدرته الشاملة حدودا ، وأن تحديد الله لذاته هو جزء أساسي من طبيعته . ويفضل سورلى هذا الموقف على محاولة الهيجلية الجديدة رد الأشياء والأشخاص إلى مجرد أحوال يظهر عليها المطلق ، الذي يفقدون فيه ، من وجهة النظر النهائية ، كل ما يجعلهم يبدون على ما هم عليه .

ومن الممكن أن تسمى مثالية سورلى مثالية أخلاقية ، مادامت ترتكز على مذهب للقيم تحتل القيم الأخلاقية مكان الصدارة فيه . ولما كان يعزو إلى الأشخاص ، بوصفهم حاملة القيم ووسطائها ، مكانة ميتافيزيقية تعلو على مكانة العالم الطبيعي ، عالم الوقائع المادية الخالصة ، فإن موقفه أقرب إلى مثالية باركلى منه إلى مثالية أفلاطون . فهي مثالية أشخاص فرديين يندرجون تحت روح إلهية تتصور بدورها على أنها شخص . فهي مثالية ألوهية ، أقرب إلى تفكير راشدال ، منها إلى أى مذهب معاصر ، وبالمثل يرجع مذهب راشدال إلى باركلى ، وإن يكن ارتباطه ، داخل هذا المذهب ، بالجانب الروحي على وجه

التخصيص من ميتافيزيقا باركلي ، أقوى بكثير من ارتباط سورلى به .  
 فناليتته موجهة ضد المثالية المطلقة عند المفكرين الأقوى تمسكا بهيجل ،  
 وهى تتأثر بكانت ، أكثر ما تتأثر بهيجل . ولما كان اهتمام سورلى  
 قد اتجه أساسا إلى الأخلاق والميتافيزيقا ، فإنه لم يعرض مذهبا خاصا  
 به فى نظرية المعرفة .

هستنجز راشدال Hastings Rashdall

( ١٨٥٨ - ١٩٢٤ )

[ كان من ١٨٨٨ إلى ١٨٩٥ زميلا فى كلية هرتفورد Hertford ، ومن ١٨٩٥  
 إلى ١٩١٧ زميلا فى « نيوكوليدج New College » بأكسفورد ؛ وى ١٩١٢ ،  
 أصبح أسقفا « لكارليل Carlile » .  
 مؤلفاته « الأساس النهائي للمذهب الألوهية The Ultimate Basis of Theism » ،  
 مقال فى كتاب « Contentio Veritatis » اقضى ألفه ستة معلمين من أكسفورد فى ١٩٠٢  
 ( وقد أعيد طبع المقال فى كتاب « الله والإنسان » ، ١٩٣٠ ) ؛ « الشخصية الإنسانية والإلهية  
 Personality, Human & Divine » ، مقال فى كتاب « اللثالية الشخصية Personal  
 Idealism » ، نشره H. Sturt ، ١٩٠٢ ؛ « نظرية الخير والشر The Theory  
 of Good & Evil » ، فى مجلدين ، ١٩٠٧ ( الطبعة الثانية ، ١٩٢٤ ) ؛ « الفلسفة  
 والدين Philosophy & Religion » ، ١٩٠٩ ؛ « مشكلة الشر The Problem  
 of Evil » ، محاضرة ديتزجيت Deansgate ) ، ١٩١٢ ؛ « الأخلاق  
 Ethics » ، ١٩١٣ ؛ « هل الضمير انفعال ؟ Is Conscience an Emotion ? » ،  
 ١٩١٤ ؛ « الحجج الأخلاقية على الخلود الشخصى The Moral Argument for  
 Personal Immortality » ، ١٩٢٠ . مؤلفات نشرت بعد وفاته : « الأفكار  
 والمثل العليا Ideas & Ideals » ، نشره H. D. A. Major . ر . ا .  
 وف . ل . كروس F. L. Cross ، ١٩٢٨ ؛ « الله والإنسان God & Man » ،  
 نشره ميجر وكروس ، ١٩٣٠ . النظر : حياة H. Rashdall « Life of H. Rashdall »  
 تأليف ب . ا . ماثيسون P. E. Matheson ، ١٩٢٨ ، ويحوى الكتاب فصلا من  
 راشدال بوصفه فيلسوفا ولاهوتيا ، من تأليف ك . ج . ويب C. G. J. Webb ] .

اتخذت المثالية طابعا فريدا عند راشدال ، الذى كان من أقوى الزعماء تأثيرا فى المذهب الدينى المحدث بانجلترا . وربما كانت أول قوة دافعة إلى تكوين نظرتة المثالية إلى العالم هى تلك التى أتته من جماعة أكسفورد ( فقد استمع إلى محاضرات جرین وهو طالب ) ، وإن يكن قد شعر منذ وقت مبكر بنفور من المذهب عند برادلى وبوزانسكى ، وازداد تحولا إلى لوتسه ، الذى رأى أنه هو الوحيد من المفكرين البارزين المحدثين الذى كان تفكيره مسيحيا بعمق ودون قيد أو شرط . غير أن ما اتصف به تفكيره من الوضوح والهدوء ، وما اقترن به من ميل قوى إلى الموقف الطبيعى ، جعله لا يستفيد كثيرا من الأعماق الغامضة للفلسفة الهيكلية ، فاتجه بتفكيره ، بدلا من ذلك ، إلى باركلى ، الذى اجتذبتة ميتافيزيقاء الدينية بوصفه لاهوتيا وبوصفه فيلسوفا ذا ميول مثالية . وبفضل استيعابه للأفكار الأساسية فى ميتافيزيقا باركلى ونظريته فى المعرفة ، أصبح هو الباعث الحقيق لمذهب الألوهية عند باركلى فى القرن العشرين — أعنى الباعث الأصل الوحيد لهذا المذهب ، ذلك لأن المحاولات الأخرى التى بذلها فرييه Ferrier وفريزر ، وكولينز ، وسيمون ، وغيرهم ، لم تلق إلا اهتماما عابرا .

ولقد وضع راشدال ، مقابل المثالية المطلقة ، مثالية شخصية . فقد انبثقت فلسفته عن اقتناع بالطابع الفردى والفريد للشخص ، سواء كان ذلك الشخص إنسانيا أم إلهيا ، وظلت مرتبطة بهذا الاقتناع ارتباطا وثيقا ، ولقد أدت الحماسة التى دافع بها عن هذا الاعتقاد ، والتى كادت تبلغ حد التعصب ، إلى جعله يغمض عينيه عن حقوق أو مزايأ أية نظرية تقول بكيان فوق الفردى ، أو كلى ، قد يهدد قداسة

الذاتية الشخصية وطابعها المطلق ، وجعلته يستهل نشاطه الفلسفى فى صحة جماعة من الكتاب كانت تشمل بعض البرجمانيين ، الذين لم يكن يجمع بينه وبينهم شئ إلا معارضته للذهب المطلق . ويعبر المقال الذى ساهم به فى مجموعة الأبحاث التى نشرها « هنرى سترت » بعنوان « المثالية الشخصية » ، عن الخطوط الرئيسية لتفكيره ، الذى طبقه فيما بعد ووسعه فى الميدانين اللاهوتى والأخلاقي ، وإن لم يكن قد تجاوزه فى أية نقطة أساسية .

فهو قد أعلن — متفقاً فى ذلك مع باركلي اتفاقاً وثيقاً — أنه لا يمكن وجود مادة بلا ذهن ، ولا أشياء جسمية موجودة فى ذاتها . والذهن يوجد على صورة أشخاص عارفة مريدة ، وكل ما ليس بذهن ، بهذا المعنى ، لا وجود له إلا فى علاقته بذهن — فعالم الحقائق الأصلية يتألف من أذهان متناهية ، ومن الذهن اللامتناهى الذى هو الله : إذ إن هذا الأخير ضرورى لإعطاء أساس موضوعى كامل للأشياء الخارجية التى تبدو أولاً ( فى ترتيب المعرفة ) فى وعى الأذهان المتناهية . والذهن فردى على نحو مطلق ، وهو يتحقق دائماً فى وعى مستقل ، دون أن يكون من الممكن نفاذ أى وعى آخر فيه ، أى أن الأشخاص يستبعد كل منهم الآخر . وقد طبق راشدال هذه الفكرة التى هى الأساسية فى تفكيره ، على علاقة الأشخاص المتناهين بالشخصية الإلهية ، ورائى من ذلك إلى استحالة استيعاب الشخصية الإلهية للأشخاص المتناهين . وهنا أعرب عن معارضته لأية صورة من المعاناة الصوفية لله أو الإدراك الحدسى له ، على أنها تنطوى على قضاء على حدود الشخصية أو أذابة لها . والأمر الذى كان يود أن يصل إليه ، هو إقامة الدين على برهان عقلى محض ، ولم يتردد آخر الأمر فى قبول النتائج المنطقية لمبدئه القائل باستقلال الشخصية واستحالة نفاذ غيرها فيها —



وأعني بهذه النتائج ، الفكرة القائلة إن الله متناه . فقدرة الله "نحده" بوجود الأشخاص الإنسانيين . والحقيقة المطلقة ليست هي الله ، وإنما هي مجال مشترك للأرواح الشخصية التي يكون الله واحدا منها ، وإن يكن هو الروح الرئيسية - وهذا الرأي مشابه لرأي ماكتجارت .

ولقد كان كتابه " نظرية الخير والشر " من أدق وأشمل الأبحاث الإنجليزية الحديثة في الأخلاق . وهو يصف موقفه ، الذي كان أقرب إلى سدجويك ومور منه إلى جرين وبرادلي ، بأنه " مذهب منفعة مثالي ideal utilitarianism " . وتبعاً لهذا المذهب ، تكون للحياة المثلث ثلاث مقولات رئيسية ، هي القيمة ، واللذة ، والسعادة ( ومن هنا فإن إدراجه للذة ضمن خير الإنسان الحق يزعم صحة تأكيده أن نظريته مضادة لمذهب اللذة ) . إن الأخلاق بطبيعة الحال مجال قائم بذاته ولا نظير له ، غير أنها مع ذلك مرتبطة بالميتافيزيقا وتتطوى على مصادرات ميتافيزيقية ، ولا سيما هذه المصادرات الثلاث : ( أ ) كل الأفعال الأخلاقية ينبغي أن تُنسب إلى الذات الفردية . ( ب ) أساس موضوعية الحكم الأخلاقي هو وجود الله ، ( ح ) الخلود . وهكذا فإن الأخلاق عند راشدال تبدأ بالأشخاص الفرديين وتنتهي بالله . أما عن الشر فقد أكد أنه ليس مجرد مظهر ، وإنما هو جزء من طبيعة الأشياء له من الحقيقة ما للخير ؛ فهو إذن يتجنب التفاؤل الساذج الذي قال به أصحاب مذهب المطلق . ونظراً إلى الطبيعة الإيجابية للشر ، فإنه يتعين علينا مرة أخرى أن نرفض فكرة شمول القدرة الإلهية .

وهكذا فإن فلسفته ، التي تشبه فلسفة سورلي أكثر مما تشبه أية فلسفة أخرى ، يمكن أن توصف في عمومها إيجابياً بأنها إحياء متأخر

لمذهب باركلي ، مع اهتمام خاص بذلك الرأى فى الشخصية ، الذى كان من الواضح أن باركلي يقول به ، ولكنه تركه فى صورة ضمنية ، كما يمكن أن توصف سلبيا بأنها رد فعل على المذهب المطابق عند برادلى ، الذى يهدد قداسة الشخصية بخطر كبير . ولقد تأثرت الأخلاق عنده بالتراث الإنجليزى فى نواح هامة ، واتجهت أساسا نحو مذهب المنفعة التجريبي عند مل وسدجويك ومور . وهكذا فإن القوة الفلسفية الدافعة التى تلقاها أصلا من هيجلى أكسفورد قد عادت القمقرى إلى تراثه الفكرى القومى ، ولكن مع تأثر بالعناصر المثالية فى هذا التراث إلى جانب عناصره التجريبية .

---

## القسم السادس

## أصحاب مذهب الألوهية وفلاسفة الدين

جيمس ورد James Ward

( ١٨٤٣ — ١٩٢٥ )

[تلم في الكلية اللاهوتية في برمنجهام ، ولي براين وجوتنجن و « ترينتي كوليدج »  
بكبردج . ولي ١٨٧٥ أصبح زميلا في ترينتي كوليدج ؛ ولي ١٨٩٧ عين أستاذا للفلسفة  
ال عقلية والنطق بكببردج .

مؤلفاته : مقال بعنوان « علم النفس Psychology » في الطبعة التاسعة من  
« دائرة المعارف البريطانية » ، ١٨٨٦ ( أعيد نشره مع ملحق في الطبعة العاشرة ،  
١٩٠٣ ، وعدل المقال في الطبعة الحادية عشرة ، ١٩١١ ، ثم أعيد تعديله في صورة كتاب  
سنة ١٩١٨ ، بعنوان « مبادئ علم النفس Psychological Principles » ،  
الطبعة الثانية ، ١٩٢٠ ) ، « المذهب الطبيعي واللاحقة Naturalism &  
Agnosticism » ( محاضرات جيفورد ) ، في مجلدين ، ١٨٩٩ ( الطبعة الرابعة في مجلد  
واحد ، ١٩١٥ ) ، « عالم الغايات ، أو مذهب الكثرة ومذهب الألوهية The Realm  
of Ends, or Pluralism & Theism » ( محاضرات جيفورد ) ، ١٩١١  
( الطبعة الثالثة ، ١٩٢٠ ) ؛ « الوراثة والذاكرة Heredity & Memory »  
( محاضرة سدجويك ) ؛ ١٩١٣ أعيد طبعها في كتابه « اللغات » ، ١٩٢٧ ، « دراسة لسكان  
A Study of Kant » ، ١٩٢٢ ؛ « مذهب ألوهي في الذرات الروحية  
A Theistic Monadism » ، مقال في « الفلسفة الإنجليزبة المعاصرة » ، نشره  
ج . ه . مويرهيد ، المجموعة الثانية ١٩٢٥ .

مؤلفات نشرت بعد وفاته : « مقالات في الفلسفة Essays in Philosophy » ،  
لنشر الكتاب و . ر . سورلي وج . ف . ستوت G. F. Stout ، ١٩٢٧ ، مع  
بحث تذكاري من تأليف ا . ف . كامبل O. W. Campbell ( ابنته ) ، « قاموس للنشر  
الفومية » ، ١٩٢٤ — ١٩٣٠ ] .

( م — ٣٢ الفلسفة )

اتخذت المثالية عند ورود - وهو مفكر كان مشهورا ذا مكانة رفيعة في إنجلترا ، ولكنه كان شبه مجهول خارجها - صورة مختلف اختلافا أساسيا عن أى مذهب بحثناه حتى الآن ، وذلك بعد أن تخلصت من ارتباطاتها القديمة . فهي مثالية أكثر نحررا ومرونة من هذه المذاهب ، ولم تكن مرتبطة لا بالمذهب الهيكلى كما عرضه القدامى المتمسكون بالأصل ، ولا كما عرضه المحدثون والمدرسة المتحررة ، ولا بأية مدرسة أو أى مذهب على الإطلاق . فقد كان لمثاليته هذه صدر رحب ، يستجيب لمؤثرات متعددة متنوعة ، ولكنها ، على الرغم مما اكتسبته من هذه النزعة التلقيفية من عمق ، قد فقدت الاتساق المتين والوحدة الراسخة التى اتصفت بها المذاهب الأخرى . وهكذا كان هذا المذهب من أوضح المذاهب تعبيرا عن تزايد انفصال المثالية الإنجليزية عن مصدرها ووحدها الهيكلى الأول . فنقطة البداية الأساسية في تفكير ورود لم تكن قوة فلسفية دافعة أصيلة ملزمة ، وإنما كانت أبحاثا علمية متخصصة ، وصراعا دينيا باطنا أحس به ، واعترف بوجوده منذ وقت مبكر . وكان هذان العاملان ، العلم التجريبي واللاهوت ، خليقين بإحداث تأثير حاسم في النظرة التى كونها في سنواته المتأخرة عن العالم .

وبعد صراع ذهنى حاد ، انشق ورود عن اللاهوت ، واعتزل منصبه الدينى في كنيسة « الرافضة Non Conformist » ، وكرس حياته للعمل العلمى . واتخذت أولى دراساته الجديدة صورة بحث علمى متعمق في مجال علم الحياة وعلم النفس . وسرعان ما تركز اهتمامه الأساسى في هذا الأخير ، وأصبح واحدا من كبار علماء النفس الإنجليز ، إلى أن تحول في وقت متأخر نسبيا ( في العقد الأخير من القرن الماضى ) ، إلى بحث مسائل فلسفية متخصصة . ولقد كان مستوى أعماله في علم النفس ، التى يشيع الاعتراف اليوم بأنها كانت أعمالا رائدة ذات أهمية عظمى في التطور التالى لهذا

العلم ، أرفع كثيرا من مستوى أعماله في الفلسفة . لذلك فن واجبنا أن نكرس الأولى حيزا بسيطا ، وذلك على الأقل لما لها من أهمية فلسفية وتأثيرها الكبير في فلسفته الخاصة . هذه الأعمال متضمنة في مقاله المشهور في « دائرة المعارف البريطانية » ، سنة ١٨٨٦ ، وهو المقال الذي عدل مرتين فيما بعد ، ثم اتخذ صورته النهائية في كتابه « مبادئ علم النفس » ( ١٩١٨ ) الذي أصبح في أهميته كتابا كلاسيكيا .

ولقد كان علم النفس عنده ، كما أشار هو ذاته ، يدين بأ كبر الفضل للألمان هربارت ، ولوتسه ، وفنت ، وبرنتانو . وعلى الرغم من أن جنوره كانت متغلغلة في التراث القومي في نواح كثيرة ، فإنه قد بدأ السير في طريق جديد إذ انصرف عن النزعة العقلية ( intellectualism ) في المدرسة الإنجليزية ، وارتفع عن مستوى المذهب الترابطي القديم ، وعلم نفس الملكات . فقد أكد وورد ، متفقا في ذلك مع لوك وخلفائه ، أن علم النفس هو علم التجربة « الفردية » ، ، على أساس أن لكل حادث ذهني مقره في الحياة الفردية ، كما أكد أن التجربة التي يتعين على علماء النفس دراستها ليست تجربة المعرفة أو التلقى ( reception ) فحسب ، وإنما هي تتحدد أساسا باهتمامات عملية تمارس عملها من خلال الشعور والإرادة ، والمهمة الوحيدة للتجارب البشرية هي أن تخضع للإرادة وتخدم سلوكنا ، والاعتراف بذلك هو مفتاح فهم علم النفس . غير أن التجربة ، وإن تكن في أساسها نزوعية أكثر منها معرفية ، لا يمكن أن تكون ذاتية تماما . فهي منذ البداية تنطوي على عاملين : ذات حقيقية فعالة ، ومقابل لها هو عالم حقيقي ، بحيث يرتبط الاثنان ارتباطا متبادلا بوصفهما جزئين متشابهين متعاورين في كل واحد ، وبحيث لا يتميزان إلا بالفكر ، لا في الواقع .

أما الوعي — الذي أطلق وورد على مكوناته وصفا عاما هو « الماثلات

presentations ، — فليس كثرة لارابط بينها، بل إن له وحدة، ووحدته تتخذ صورة مجرى متصل موضوعي، أى 'كل' موضوعي. ويتميز مجرى التجربة بالتنوع المتزايد لهذا المجرى المتصل عن طريق تغيرات في الماثلات المكونة له. فلدينا في أية لحظة معينة كل معين من التمثلات، ومجال للوعي، هو واحد ومتصل نفسيا، وفي اللحظة التالية لا يكون لدينا مجال جديد تماما، وإنما تغير جزئي في داخل المجال القديم، (١) فكل تجربة جديدة ليست عنصرا زائدا مضافا، وإنما هي تعديل لكل موجود من قبل، 'تدخل عليه بعض التعقيد الجديد: أى أنه ليس ثمة ماثلات منفصلة. لذلك فإن الوعي ليس مجموعة من الوحدات المتميزة المستقلة، وإنما هو عملية متصلة يطرأ فيها تنوع مستمر على مجال المثول أو الحضور. وعلى هذا النحو تجاوز وورد الرأي الميكانيكي للتجريبيين، وهو الرأي الذي لا يكون على عالم النفس فيه إلا أن يحلل (كالشرح أو الكيميائي)، محتوى التجربة إلى عناصره، ثم يختبر 'كلاً' منها على حدة. أما تلك التميزات التي تصف فيها العملية بأنها تنوع، واستيعاب، واختزان، فهي في رأي وورد تعبر عن طابع 'المرونة'، الذي يتصف به الاتصال المثولي. كل هذا ينطوي على هدم لأسس النظريتين اللتين كانتا شائعتين عندئذ، أعني النظرية الترابطية ونظرية الملكات الذهنية. فالترابط ليس عملية عملية شبه آية تتداعى فيها محتويات الوعي وتدخل في علاقات جديدة بعضها مع البعض بطريقة آية، وإنما تتحكم فيه من البداية إلى النهاية ذات 'غرضية' تفتق وتختار هذه التجربة أو تلك نظرا إلى ملاءمتها لغاياتها الخاصة. وقد أدى اهتمام وورد هذا بالانتقاء الغرضي إلى قوله بأن الانتقاء هو الوظيفة الرئيسية للوعي، واتخاذ منه فكرة رئيسية في علم النفس. ولقد ذهب وورد إلى حذب كل نشاط ذهني على حدة، فافظا إليه من خلال فكرة الانتقاء، ووسع نطاق هذا اللفظ بحيث يشمل كل

(١) مبادئ 'علم النفس'، ص ٧٧.

..ما كان يندرج قبل ذلك تحت مفهوم الوعي . فالوعي هو دائما مقدار أعظم أو أقل من الانتباه إلى ما هو جديد في الاتصال المثولي ، وهو كما لاحظنا من قبل ، ليس ذا طابع معرفي بحث فحسب ، وإنما هو إدراك وانتقاء مقصود للمعطيات اللازمة للنشاط الغرضي للذات . وهكذا يحل الانتباه محل المللكات القديمة ، التي كانت متميزة ومنعزلة في معظم الأحيان ، ويندو هو الوظيفة الأساسية الواحدة التي تتحكم فيها . أما التمييز في داخل الانتباه فإنه تمييز في الدرجة ، وكل أوجه نشاطه إنما تهدف إلى خدمة اهتمامات . فإذا ما عبرنا عن التصور النفساني الناتج عن هذا كله بصورة عامة ، كان تصورا لذات إيجابية متنبهة ، بوصفها الرابطة الضرورية التي تجمع بين مختلف أنواع التمثل .

لقد توسع وورد فيها بعد في نظرتة هذه ، إذ ربطها بميتافيزيقاه وعرف التجربة ، التي سبق أن وصفها من خلال فكرة الاهتمام الانتقائي قبل كل شيء ، بأنها عملية حفظ للذات ، وبذلك تكون ممتدة بقدر امتداد الحياة ذاتها . فالنشاط المعرفي متشابه تشابكا تاما مع جميع ظروف حياة الذات العارفة ، ولا يمكن فهمه إلا في علاقاته بها . أما تصور الذات على أنها نظرية خالصة ، فمما هو إلا تجريد محض . ولقد قبل وورد رأى كانت في الوحدة التركيبية للإدراك الذاتي ، غير أنه رأى أن المركب لا يكون ممكننا دون اهتمام على ما بالاشياء ، ودون دافع إلى الفعل؛ فالتجربة وحدة حية عينية تؤدي عملها بوصفها كلا ، والجانب الأهم من جوانبها التي يمكن التمييز بينها هو الجانب العملي ، لا النظري ، ونتيجة لهذا الرأي الأساسي ، يمكن إدراج وورد ضمن الممهدين الأوائل لفلسفة الحياة Lebensphilosophie التي أصبحت شائعة فيما بعد . كما أنه مهد الطريق ، بوجه خاص ، للحركة البرجماتية ، وكان له تأثير باق على بعض قادة هذه الحركة ، مثل جيمس و. شيلر ، وهو تأثير لا يقلل من حقيقة كونه غير واضح في كل الأحوال ،

ذلك لأنه ، عندما جاء الوقت الذى ظهرت فيه البرجماتية ، قرب نهاية القرن الماضى ، كانت أفكار وورد قد أصبحت مشاعا بين الجميع . كذلك استبقت وورد برجسون فى نظريته فى الزمان :

فقد ميز الزمان المجرد فى الفيزياء ، وهو زمان لا شدة ولا كثافة له ، من الزمان كما نجرّبه ، وأطلق على هذا الأخير ، نظرا إلى كونه كمية كثافية اسم « المدة » . وعلى الرغم من أن وورد قد عرض هذه النظرية فى مقاله الذى صدر عام ١٨٨٦ ، وأن برجسون لم ينشر نظريته إلا فى ١٨٨٩ ( فى كتابه « المعطيات المباشرة للوعى *Les données immédiates de la conscience* » ) فالأرجح أن الاثنين كانا مستقلين .

واقعد أحدثت أفكار وورد الجديدة انقلابا فى مجال علم النفس كان له تأثيره الهائل . فلم يعد من الممكن ، منذ ذلك الحين ، السير فى طريق التجريبية المألوف ، الذى كان « بين Bain » آخر ممثل هام له . وأصبح لزاما على عالم النفس ، إذا ما شاء ألا تتهم آراؤه بأنها بالية عتيقة ، أن يتبع طريق وورد ، وما زال علم النفس الإنجليزى حتى اليوم ملتزما ، فى جميع النقاط الأساسية ، ذلك الطريق الذى حدد وورد معالمه . وأشهر تلاميذه هو . ستوت *G. F. Stout* . وفى أمريكا ظهرت فى الوقت ذاته حركة تسير فى نفس الاتجاه ، كان الفضل فيها يرجع إلى علم النفس الإرادى *voluntaristic* عند وليم جيمس . وينبغى أن يضاف إلى ذلك أن الانقلاب الذى أحدثه وورد لم يتخذ صورة انشقاق حاسم عن المناهج التقليدية فى البحث النفسى ، وإنما اتخذ صورة تصحيح هادى لوجهة النظر العامة التى كان من الشائع النظر بها إلى ظواهر الحياة الذهنية وتركيبها . فنأهجه كانت قريبة الشبه من مناهج لوك وهيوم إلى حد بعيد .



أى أنها كانت استبطانية . وهو لم يترك فى كتاباته مكانا اعلم النفس التجريبي أو الفسيولوجى أو المرَضى ، ولم يلجأ إلى المنهج المقارن إلا لما ، وبخذر ، وذلك بوصفه وسيلة لتوضيح النتائج لا لكشفها . فهو ، مثل برنتانو<sup>(١)</sup> ، قد بدأ بالإدراك الباطن ، ووصف المعطيات المباشرة للوعى الفردى .

و لقد استُمد مذهب وورد فى الفلسفة من مصادر متعددة — من لينتس وباركلى وكانت ولوتسه (الذى تأثر به تأثرا قويا خلال السنوات التى قضاها طالبا فى جوتنجن) ، وكل الاتجاهات الفلسفية المعاصرة فى وطنه .

وقد تناول فى أول كتاب ميتافيزيقى رئيسى له ، عالم الطبيعة ، والمذهب الطبيعى واللاأدرية اللذين نشأ عن تأمل هذا العالم ؛ وكان موضوع كتابه الثانى هو عالم الغايات ، ومذهب الكثرة ومذهب الألوهية اللذان نشأ عن تأمل عالم الغايات هذا . ومن الواضح أن هذا التقابل مستمد من الثنائية المائلة التى وضعها كانت ، وأن تفكير وورد هو فى عمومته أقرب إلى كانت بكثير منه إلى هيجل .

وهكذا كان وورد يسعى ، فى المحل الأول ، إلى الوصول إلى فهم فلسفى للعالم الذى يتمثل لنا فى العلوم الطبيعية ، فكانت النتيجة اختبارا من أعرق وأشمل الاختبارات التى تعرض لها المذهب الطبيعى واللاأدرية :

---

(١) فرانتس برنتانو (١٨٣٨ — ١٩١٧) : فيلسوف ألماني ، عارض فى مذهبه فلسفة كانت والمثالية الألمانية ، وقل بنوع من المذهب الواقعى . وقد ميز ، فى نظريته فى علم النفس ، بين ثلاث ظواهر أساسية : التصور ، والحس ، والإرادة ؛ وقد أكد أهمية عنصر « القصد » فى كل فعل ذهنى . وهو من المهدين لنظرية الجشطالت فى علم النفس .  
[ للترجم ]

في ذلك الوقت . ولقد تبَّعَ وورد هذين المذهبين في جميع اتجاهاتهما وتفرعاتهما الممكنة والفعلية ، وتعقبهما في أشد مخابثهما خفاء ، وكشف عن المصدر المشترك للمذهب الآلى ، والمذهب التطورى ، ومذهب الموازنة بين المجال النفسى والمجال المادى ، وأوضح أن مثل هذه النظريات ليست كافية بالنسبة إلى أية فلسفة تتجاوز جميع الأوجه الجزئية للكل . وهكذا صاح في خصومه قائلاً : « إن في السماء والأرض لا أكثر مما حلت به الفلسفة الطبيعية<sup>(١)</sup> . وهذه الصيحة تمثل ، بمعنى ما ، النتيجة النهائية لنقده الذى كان شديد العمق والتأثير .

أما رأى الآلى فى العالم ، الذى يكون ، فى رأى وورد ، أساس كل بحث علمى ، فهو تجريد واحد ضخم ، وهو نتيجة لنظرة متحيزة أساساً إلى جانب واحد ، تلتقى من الواقع وجهها جزئياً ، وتنظمه وتتعبقه حتى آخر نتائجها . وهذا التركيز الضيق هو سبب روعة هذه النظرية ونجاحها ، وهو أيضاً سبب زيفها الكامل من حيث هى نظرة إلى العالم فهمى تعبر عن كل شيء من خلال الحكم المقاس ، وتعرض برموز رياضية . غير أن كل ما هو فرد عيى ، وكل ما يضئ على الحياة مضموناً ونبضاً ولونا ، ينزلق من خلال المسام الواسعة لشبكة التصورات المجردة هذه . فمن المحال أن تكون هذه الحركة التى لا لون لها للذرات ، وهذا « النسيج الطيفى للتجريدات غير الملموسة » ، وهذه « الرقصة التى ليست من هذا العالم » ، والتى تؤديها مقولات لا حياة فيها ،<sup>(٢)</sup> — من المحال أن تكون هذه هى الواقع . وحتى لو كانت تنطوى على إشارة خافتة

(١) « المذهب الطبيعى واللاأدرية » ، ١٨٨٩ ، المجلد الثانى ، ص ٨٠ .

(٢) برادلى : « مبادئ المنطق » ، الكتاب الثالث ، الباب الثانى ، الفصل الرابع ،

إلى العالم العيني الذى أُجردت منه ، فلا يمكنها ، عن طريق مضمونها وتركيبها الخاص ، أن تجيب عن السؤال عن ماهية الطبيعة الحقيقية للعالم العيني . فى ذلك الإطار التخطيطى الذى لا يتناول سوى نقاط متجانسة للقوة لا ترتبط فيما بينها إلا آليا ، يكون من العبث أن يبحث المرء عن دلالة وقيم وغايات ومن المستحيل أن يجدها .

ومن الواضح أن وورد ، فى نقده القامى هذا للمذهب الآلى ، قد أخفق فى الاحتفاظ بتميز العلم الطبيعى بما هو كذلك ، والنظرة الطبيعية إلى العالم ، التى تقوم عليه عادةً ، وبذلك « أفرغ الطفل مع تفرغه مياه الحمام » ، بل وحمل على التفكير العملى بمعناه الدقيق على أساس أنه أدى بالفعل ، فى كثير من الأحيان ، إلى نتائج فلسفية مشكوك فى صحتها إلى حد بعيد . وهذا يبدو غريبا ، إذا أدركنا أن وورد نفسه قد بدأ حياته الأكاديمية عالما ، واستخدم مناهج العلم بنجاح كبير . غير أن لهذه الغرابة دلالتها الخاصة : فقد تعين عليه أن يتخذ موقفا نقديا شديدا من وجهة النظر والمناهج المميزة للعلم الطبيعى ، حتى يتمكن من أن يدخل فى مجال الاهتمام الفلسفى ميدانا آخر للمعرفة كانت الفلسفة الإنجليزىة حتى ذلك الحين تتجاهله تجاهلا غاشيا ، وأعنى به التاريخ . فى العلوم التاريخية ، على عكس العلوم الطبيعية ، نصادف كائنات فردية عينية ، ينطبق عليها ما نعينه بالحقائق ، من حيث إنها تضع لنفسها غايات ، وتحقق قىما وتكوّن جزءا لا يتجزأ من عينية الحياة وواقعيتها . ولقد كان وورد ، مثل سورلى ، مدينا بهذا الرأى للأبحاث التى قام بها هيزرش وبكرت فى مناهج المعرفة ، وهى الأبحاث التى لا يبدو أن أى فيلسوف إنجليزى آخر قد أبدى بها أى اهتمام .

فلدينا إذن ، داخل الوجود من حيث هو كل ، تقابل حاد بين عالمين : فهناك من جهة الطبيعة ، وعالم الحوادث الآلية ، الذى يسوده الاطراد

والضرورة التجريبية ، وهو عالم من العموميات والتجريدات ، ليس فيه مكان للأفراد العيينين ، أو للتلقائية ، والابتكار ، والقيم والغايات ، ولدينا من جهة أخرى عالم القيم والغايات ، عالم التاريخ ، والعينى والفردى ، الذى لا يكون الفعل الأخلاقى ممكنا إلا فيه ، والذى تحل فيه الغرضية والحرية البشرية محل قيود العلية الآلية . غير أن هذا التمييز القاطع ينبغى ألا يؤخذ على أنه يعنى انفصالهما التام : إذ يتضح من وجهة نظر أعلى ، أنهما منظوران جزئيان إلى عالم واحد ، وينبغى بالتالى أن يجمعهما الفكر فى وحدة . ومهمة الفلسفة هى كشف هذه الوحدة ، وكذلك تحديد أى وجهيها هو الأعمق والأشمل .

وكما هو المتوقع ، فإن وورد قد جعل العالم الطبيعى مشتقا من العالم الروحى . ومن الأدلة على ذلك أن الطبيعة ، عندما نواجهها بجهاز العلم العقلى ، تجيب عن الأسئلة التى نوجهها إليها ، وفى ذلك تحقيق لصحة الوسائل التى اصطنعها الإنسان للسيطرة عليها . وإذن ، فهلا يكون لنا الحق فى أن نستدل من ذكاء الروح الباحثة ، على ذكاء الطبيعة ، أو على الأقل ، على وجود مبدأ ذكى كامن فيها ؟ . فضلا عن ذلك ، فإن آخر أبحاث العلم قد أثبتت أن الحياة العضوية تمتد فى العالم غير العضوى المزعوم أبعد مما اعتقدنا حتى الآن ، وليس هناك ما يمنع من أن نكتشف للحياة حدودا أدنى من ذلك . مثل هذه الاعتبارات أدت بوورد فى النهاية إلى افتراض أن الطبيعة حية وفردانية فى جميع أرجائها . ويسمى وورد مذهب شمول النفس هذا باسم « الواحدة الروحانية spiritualistic monism » ، لى يوضح بذلك تضادها المباشر مع الواحدة المادية عند اللادريين والتطوريين وغيرهم من أصحاب المذهب الطبيعى . فالطبيعة غائية فى جميع أرجائها ، وهى عالم من الغايات والطبيعة المطبوعة natura naturata هى فى واقع الأمر الطبيعة للطبيعة natura naturans .

غير أن الواحدة الروحية ليست إلا موقفا عاما ؛ وهي لا توضح شيئا عن الطريقة التي تُصنع بها الأشياء على وجه التخصيص ، أو عن مصدر هذه الأشياء وغايتها ، أو عن قيمتها والغايات التي تستهدفها ، وما إلى ذلك .  
وعلىنا لكي نجيب عن هذه الأسئلة ، أن نبدأ من جديد ، ونسير ، ونحن نفعل ذلك بطريقة « تجريبية من الأساس radically empirical » (وقد استخدم وورد ، مثل وليم جيمس ، نفس هذا التعبير ) . فإذا ما نظرنا إلى الواقع من وجهة النظر الجديدة هذه ، ظهر لنا مباشرة في كثرة من المراكز المجربة التي تتصل فيما بينها اتصالا متبادلا . ويطلق وورد على هذه الوحدات اسم الذرات الروحية monads ، أو الكالات entelechies<sup>(١)</sup> ، كما يطلق على أدنى ما يمكننا تصويره منها اسم الذرات الروحية أو البحتة ، وأحيانا يسميها « بأشباه النفوس psychoids » .

وتنشأ هذه الأخيرة من أصل مشترك بين جميع الذرات الروحية (ربما كان اتصالا لا تنوع فيه ) يكون البيئة التي تعيش فيها هذه الذرات ، إن جاز هذا التعبير . ومن الواجب النظر إلى جميع الذرات الروحية على أنها أفراد ، إذ ليست فيها واحدة تشبه الأخرى ، ومع ذلك فهي لا تكون منعزلة أبدا ، وإنما تمارس دائما ، بعضها على البعض ، أفعالا وردود أفعال ، وتشكل نفسها في صورة جماعات اجتماعية ، ولا سيما في المستويات العليا للذات الروحية . ومن الواجب النظر إليها أيضا على أنها تسعى أساسا نحو غايات ، بحيث إن غايتها العليا أو قانونها الأعلى هو حفظ الذات .

---

(١) لفظ « الإنتلخيا » يعني ، في أصله الاشتقاق اليوناني ، ما تكون غايته في ذاته . وهو يصف ما هو كامل أو مكتمل . فالوجود الذي يتصف « بالكمال » يقال في مقابل ذلك الذي يكون بالقوة . ومن أشهر استعمالاته وصف أرسطو لنفسه بأنها « الكمال الأول لجسم طبيعي ذي حياة بالقوة » . [ المترجم ]

ولسنا بحاجة إلى تتبع مذهب الذرات الروحية هذا أبعد من ذلك ،  
 مادام يتفق مع مذهب ليبنتس في جميع النواحي الهامة فيما عدا أنه يجعل  
 للذرات الروحية نوافذ ويترك جانباً فكرة الانسجام المقدّر pre - established  
 harmony . وكثيراً ما وصف وورد مذهبه هذا بأنه مذهب كثرة  
 pluralism ، وهو بالفعل يلتقى مع فلسفة الكثرة عند جيمس في نقاط  
 تزيد على نقاط التقائه مع أى مذهب حديث . ويكون هذا المذهب  
 ما يمكن تسميته بالطابق الأسفل في بنائه الميتافيزيقي . فليس في وسعنا  
 أن نبقى هنا ، مع هذه الكثرة . فالكثرة ، بقدر ما يمكن المضي فيها ،  
 هي موقف متسق تماماً مع ذاته ، كفيل بإرضاء حاجاتنا العقلية وقتاً ما ،  
 غير أنه موقف ناقص ، يحيلنا إلى موقف أعلى يتجاوزه ، سواء في حدوده  
 الدنيا أو في حدوده العليا . فلا يمكن أن توجد كثرة من الموجودات المتناهية  
 ما لم توجد وحدة تكمن من ورائها وتشتمل عليها . صحيح أننا لا نستطيع  
 التحقق من هذه الوحدة العليا : فهي تسير بنا إلى ما بعد عالم الوقائع .  
 ولهذا السبب ينكر التجريبي الأصل حقيقة ، غير أن هذا لا يدل  
 إلا على أنه لم يرتفع بعد إلى مستوى وجهة النظر الفلسفية الحقة . فليس  
 للفلسفة بمعناها الصحيح تعامل مباشر مع الوقائع : وحسبها أن تتجنب  
 مناقضة التجربة . صحيح أن الكل الذي تحاول الفلسفة فهمه يشمل الوقائع ،  
 غير أن أية نظرية تكشف وحدة الكثرة بأكملها ، وتكشف عن معناها  
 العام ، لها ما يبررها فلسفياً ، حتى لو لم يمكن تحقيقها تجريبياً .

والموقف المكمل لمذهب الكثرة هو مذهب الألوهية . وقد بلغ  
 وورد هذه النقطة المتوقعة لمذهبه بقفزة تأملية جريئة من الذرات الروحية  
 المتنامية الكثيرة نسبياً ، إلى وحدة لا متناهية مطلقة . فوجود الكثرة  
 يرتكز على الألوهية ويستهدفها ؛ أى أن الله مصدر الكثرة وتوحيده .

وهنا يكون موضع معالجة وحل المسائل الميتافيزيقية النهائية : كفكرة

التطور ، ومشكلة الحرية ، والخلود ، وطبيعة الله ، وأهم من هذا كله ، مشكلة علاقة الموجودات المتناهية بالمطلق . ولنا نستطيع أن نقدم إلا لمحات عامة من أبحاث وورد المفصلة في هذه المسائل . فإله روح لها عقل وإرادة ، ومن ثم فهو شخصي . وهو خالق العالم وحافظه ومدبره . غير أنه في خلقه للعالم قد فرض حداً على ذاته ، ولكن هذا لا يعنى بطبيعة الحال أنه جعل لنفسه ماهية متناهية . فهو ، بوصفه خالقاً ، يعلو على العالم ، ولكن ليس بالمعنى الذى يقصده أصحاب مذهب الألوهية الطبيعية ( deists ) والقائل إنّه يظل خارجاً عن العالم . فلا يمكن فهم الخلق إلا على أنه الحضور الدائم للبدا الخلاق فى الخلق ، بحيث يكون الله فى نفس الوقت باطناً ، يحرك العالم من داخله . ولم يستطع وورد أن يجد بين العلو والسكون رابطة تصورية ، غير أنه تمسك بالفكرتين معاً ، لأن عمق شعوره الدينى حال بينه وبين القول بمذهب « شمول الألوهية pantheism » ، فى صورته الخاصة ، من جهة ، كما حال بينه ، من جهة أخرى ، وبين القول بمذهب الألوهية الطبيعية deism ، وهو المذهب الذى يرى أن الله ينسحب من العالم عندما يخلقه ، ويأخذ ما يمكن تسميته « بأجازة » ، بعدما بذله من مجهود . ولقد أدى به موقف التوسط هذا إلى أن ينسب القدرة الخالقة إلى الإنسان بدوره : فإله حين جعل الناس أحراراً ، قد خصّهم بأن يكونوا شركاءه فى العمل على تحقيق غاياته . ولما كان الإنسان شريكاً لله فى هذه المهمة على قدم المساواة ، فإنه يضطلع بمسئولية كاملة عن أعماله ، وهو فى الوقت ذاته قادر على ارتكاب الشر . فالشر الأخلاقى هو العقدة الكبرى فى أى مذهب ألوهى ، ولكن لما كان الله كامناً فى العالم ، فلا بد أن تكون للخير الغلبة آخر الأمر على الشر . فالشر هو تعكير صفو النظام الأخلاقى ، وهو ليس مبدأ إيجابياً ، له طبيعته وحقيقته الخاصة به ، إلى جانب الخير ، بل إنه نسبي بالقياس إلى الخير فحسب ، ومن هنا

فإنه سينهزم بالتدرج أمام الخير ويتلاشى فيه . « ففى الأشياء الشريرة  
نوع من الروح الختيرة » (١) .

وهكذا فإن الكون عند وورد يختلف عنه عند برادلى وبوزانكيت  
فى أنه ليس كونا سكونيا ، وإنما هو يصعد من مرحلة إلى أخرى حتى أعلى  
ذرة روحية وهى الله . ولقد اجتذبت ، مثل معظم معاصريه ، فكرة  
التطور ، وأدجها فى مذهب إدماج وثيقا . غير أن المعنى الذى تكتسبه  
هذه الفكرة فى مذهب ألوهى يختلف تماما عن معناها فى مذهب طبيعى  
أو مذهب للكثرة . إذ لا يعود معناها هو التكشف التدريجى لما كان  
موجودا منذ البداية ، وإنما هى تعنى النشوء الجديد ، والتركيب الخلاق ،  
والظهور المستمر لإمكانات جديدة ؛ وهى تدل على وجود انسجام  
عند نقطة البداية فضلا عن نقطة الهدف ، وليس فقط عند نهاية عملية  
تسير قداما ، وقد لا تكون لها نهاية على الإطلاق .

فإذا ما عدنا بنظرتنا إلى مذهب وورد فى مجموعه أمكنا أن نرى  
المثالية فيه وقد اتخذت صورة جديدة ، استوعبت فيها — على نحو يفوق  
بكثير ما سبق أن عرضناه من المذاهب — كثرة زاخرة متنوعة من  
الآفكار ، بعضها لا تربطه صلة وثيقة بوجهة النظر المثالية . صحيح أنه ظل  
يحتفظ بالنزوع إلى التأمل فيما وراء حدود التجربة ، ويسعى إلى بلوغ  
وحدة نهائية ، غير أننا لا نشعر لديه بأن المركب منبثق عن انساق فكرى  
أصيل . فالعناصر أكثر عددا ، وأشد تنوعا ، من أن تكون وحدة  
حقيقية ، وكثيرا ما تظل منضمة بعضها إلى بعض على نحو خارجى فحسب .  
غير أن هذا ليس إلا دليلا آخر على قوة الدافع التأملى الذى أحدثه  
تجدد الاهتمام بالبحث الفلسفى ، بحيث ولد الرغبة فى تشييد مذهب  
ميتافيزيقى لدى شخص كانت مواهبه أقرب إلى مجال متابعة الأبحاث العلمية  
واختبار المشكلات الفلسفية فى طابعها الجزئى .

(١) شيكبير ، هنرى الخامس ، الفصل الرابع .



كلمنت تشارلس جوليان وب Clement Charles Julian Webb

( ولد في ١٨٦٥ )

[ كان من ١٨٩٩ إلى ١٩٢٢ زميلاً ومدرساً بكلية ماجدالين في أكسفورد ؛ وفي ١٩٢٠ كان أول أستاذ لكرسي « أوريل Oriol » في فلسفة الدين المسيحي بأكسفورد ، وتقاعد في ١٩٣٠ .

مؤلفاته : « مشكلات في العلاقات بين الله والإنسان Problems in the Relations of God & Man » ، ١٩١١ ، « النظريات الجماعية في الدين والفرد Group Theorie of Religion & the Individual » ، ١٩١٦ ؛ « الله والشخصية God & Personality » ( محاضرات جيفورد ) ، المجموعة الأولى ، ١٩١٩ ؛ « الشخصية الإلهية والحياة البشرية Divine Personality & Human Life » المجموعة الثانية ، ١٩٢٠ ؛ « الفلسفة والدين المسيحي Philosophy & Christian Religion » ( محاضرات افتتاحية ) ، ١٩٢٠ ؛ « الخطوط العامة لفلسفة في الدين Outline of a Philosophy of Religion » ، مقال في « الفلسفة الإنجليزيرة المعاصرة » ، نشره ج. ه. مويرهيد ، المجموعة الثانية ، ١٩٢٥ ؛ « معرفتنا ببعضنا ببعض Our knowledge of One Another » ، في « أعمال الأكاديمية البريطانية » ، ١٩٣٠ ؛ « الدين ومذهب الألوهية Religion & Theism » ، ١٩٣٤ ؛ وكذلك مؤلفات متعددة في تاريخ الفلسفة والفكر الديني ، وطبعات نقدية لكتابي جون ( يوحنا ) أوب سالسبري John of Salisbury .  
بوليكراطيكس Policraticus و « ميتالوجيكون Metalogicon » [ (١) ] .

أفضل ما يوصف به وب هو أنه يمثل فلسفة الدين داخل المذهب المثالي المطلق ؛ فهو ينتمي ، بحكم ارتباطه الطويل بجامعة أكسفورد خلال سنوات

---

(١) جون أف سالسبري ( ١١١٥ — ١١٨٠ ) فيلسوف ورجل كنيسة ، تعلم في باريس ، على يد أبيلار ، وشغل مناصب دينية هامة ، أهمها منصب أسقف شارتر . والكتاب الأول ، وهو بوليكراطيكس ، هو عرض لآرائه في المدينة الفاضلة على غرار « جمهورية » أفلاطون ، أما الثاني ، وهو « ميتالوجيكون » فيعرض فيه مذهبا فلسفيا جُم فيه بين أرسطو والقديس أوغسطين . [ المترجم ]

دراسته وتدريسه : إلى تراث أ كسفورد الذي يرجع إلى جرير . وقد أبدى ، منذ كان طالبا ، ميلا إلى المشكلات الأخلاقية والدينية ، كما أنه اعترف بالتأثير القوي الذي أحدثه فيه كتاب جرير «المقدمة Prolegomena» ، والتأثير الطاغى لكتاب كانت «أساس ميتافيزيقا الأخلاق» . ولقد كان تفكيره ، على وجه العموم ، أقرب إلى كانت وفشته منه إلى هيجل . وهو يذكر باحترام بالغ ، ضمن أسانذته في أ كسفورد ، اسم ج . كوك ولسون ، وإن يكن من المستبعد جدا أن يكون مثل هذا المصدر الواقعى قد أحدث فيه أى تأثير ملموس . وهو يدين بأكثر من ذلك بكثير لصدائقه الشخصية مع الفيلسوف الكاثوليكي «فريدرش فون هوجل» ، كما تأثر فيما بعد بكتاب رودلف أوتو Rudolf Otto «المقدس Das Heilige»<sup>(١)</sup> ، وهو الكتاب الذى أثار اهتماما كبيرا فى الأوساط اللاهوتية الإنجليزية .

وهكذا فإن وب قد تناول مشكلة المثالية المطلقة من جانب الدين أساسا . وكان هدفه الخاص هو تعديل ميتافيزيقا برادلى وبوزانكيت من وجهة نظر التجربة الدينية واللاهوت المسيحية<sup>(٢)</sup> . فقد أدت بهذين المفكرين الآخرين تأملاتهما النظرية البحتة ، التى كانت غير مكترثة بالدين ، إلى وصف للعلاقة بين المطلق والله لم يكن بالطبع عما يقبله مفكر يتخذ من الدين موقفا إيجابيا وثيقا . فالمطلق فى نظره ليس موضعاً للتأمل الميتافيزيقي فحسب ، بل هو أيضا موضوع للتقديس الدينى ، وهو يذهب

(١) لهذا الكتاب ترجمة إنجليزية بقلم ج . و . هارفى J. W Harvey بعنوان

« فكرة القدس The Idea of the Holy » ، ١٩٢٣ .

(٢) انظر ، فى موضوع علاقته ببرادلى وبوزانكيت ، المراسلات التى دارت بينه وبين

هذا الأخير ، والتى تكشف بوضوح عن هذه العلاقات ، فى كتاب «بوزانكيت وأصدقاؤه» ،

نشره ج . ه . مورهد ، ١٩٢٥ ، ص ٢١١ والصفحة التالية ، ص ٢٢٦ والصفحة

التالية ص ٢٣٧ إلى ٢٤٧ .

إلى أن فصل برادلى وبوزانسكىت بين المطلق والله ، إذا ما مضينا فيه إلى أبعد نتائج المنطقية ، يودى إلى سلب الدين على إطلاله أى معنى له . ولا بد من أجل التجربة الدينية من أن يكون كلاهما فى هوية مع الآخر .

وهناك مشكلة ثانية كرس لها وب اهتماما كبيرا ، هى مشكلة شخصية الله وعلاقتها بشخصية الإنسان المتناهية . وههنا يبين أيضا أن الوعى الدينى هو وحده الذى يكشف الطابع الشخصى النهائى للحقيقة ، إذ إن الإنسان فى علاقة شخصية مع المطلق إلا فى التجربة الدينية . لذلك ينبغى أن تُنسب الشخصية إلى الله ، ولكن بمعنى يختلف إلى حد ما عن معنى شخصية الإنسان ، إذ إن علاقة الإنسان بالإنسان فى التجربة الاجتماعية هى علاقة استبعاد متبادل ، بينما علاقة الإنسان بالله فى التجربة الدينية هى علاقة تضمن متبادل . فلزام علينا ، من وجهة النظر الدينية ، أن نقول إننا نستقر فى الله وإن الله يستقر فىنا ، وإن الله كامن ، على نحو لا نعرفه ، فى المؤمن ، ولكن دون أى تهديد للشخصية المستقلة للكائن المتناهى . ذلك لأن وب يدافع عن استقلال الشخصية الإنسانية ضد إنكار حقيقتها وقيمتها فى المذهب الطبيعى والمذهب المطلق . ومن هنا فإنه لا ينظر إلى التجربة الدينية على أنها صوفية ، وعلى أنها هى فناء النفس المتناهية فى اللامتناهى ، بلى على أنها علاقة يظل الاثنان فيها متميزين ، ويستتبع ذلك أن يكون الله ، مع كل كونه فى العالم ، عاليا عليه فى الوقت ذاته . وهو يحاول أن يربط ويوفق بين الرأيين المتضادين فى كون الله وعالوه ، عن طريق إدخال فكرة لاهوتية هى فكرة الوسيط والثالوث ، وبذلك استخدم هاتين الفكرتين استخداما فلسفيا . وربما كانت هذه المتقابلات المتنافرة وأمثالها فى مذهب وب راجعة إلى افتقار باطن إلى التناظر أو الاتفاق بين المذهب المطلق والنتائج الميتافيزيقية التى يستتبعها الدين المسيحى .

ولقد أبدى وب اهتماما خاصا بمشكلة معرفتنا للذوات، الأخرى ولعالم الأشياء الخارجية . وهو يرفض الحجة القائمة على التمثيل <sup>(١)</sup> ( argument from analogy ) . فلدينا بالذوات الأخرى إدراك مباشر تماما ، مثل إدراكنا لله . فلا يمكن أن تكون معرفتنا بالذوات الأخرى مستمدة من ذواتنا ، أو من الأشياء الخارجية ، أو من العلاقة بين الاثنين ، وإنما هي كائنة ، على نحو ما ، من وراء كل هذه الأنواع من التجربة ؛ فالذات الأخرى لا يمكن أن تكون بالنسبة إلينا مجرد موضوع ضمن الموضوعات الأخرى ، وإنما هي تدرك دائما بوصفها شخصا واعيا بذاته ، نستطيع أن ندخل معه ، لأن لنا شخصية ، في علاقات شخصية مباشرة .

وهكذا فإن الشخصية هي الفكرة الرئيسية المسيطرة على تفكير وب ، ولا سيما بالصورة المنهجية التي أعطاها لتفكيره هذا في كتابه الرئيسي ، وهو مجموعتا محاضرات « جيفورد » اللتان نشرتا بعنوان « الله والشخصية » . و « الشخصية الإلهية والحياة البشرية » . وهو في ثلثي هاتين المجموعتين يناقش التعبير عن الشخصية البشرية في مختلف مجالات نشاطها ، مينا نواحي التميز والاختلاف في المجال الاقتصادي والعلمي والفني والأخلاقي والسياسي والديني . وهو يتخذ على وجه العموم موقفا وسطا بين راشدال ، الداعية المتعصب إلى الشخصية الفردية ، من جهة ، وبين برادلي وبوزانكيت ، اللذين أذابا الشخصية وأفنيهاها في ظلام المطلق ، من جهة أخرى . ولكنه لا يرتفع إلى مستوى الأصالة العظيمة في التفكير ، التي تثير فينا الإعجاب ببرادلي ، وكذلك ببوزانكيت ولكن بدرجة أقل . ففلسفته لم تظهر

---

(١) الحجة القائمة على التمثيل هي تلك التي تستدل فيها على وجود الذوات الأخرى من وجودنا نحن ، ونعتمد على المماثلة بين الظواهر التي نجرّبها في ذاتنا مباشرة وتلك التي تنسب إلى الذوات الأخرى ، لكن تؤكد وجود الأخيرة ، ما دامت ذاتنا موجودة .  
[للارجم]

بفضل قوة باطنة تدفعه إلى وضع مذهب ، بقدر ما ظهرت عن طريق عرض آراء المفكرين الآخرين ونقدها . وربما اتضح آخر الأمر أن أكبر خدمة أداها هي أنه خفف من حدة مبالغات خطيرة معينة في المذهب المطلق ، الذي كان بطبيعته ميالا إليه .

ألفرد إدوارد تيلور Alfred Edward Taylor

( ولد في ١٨٦٩ )<sup>(١)</sup>

[ تعلم في نيو كوليدج ، أكسفورد ، وكان من ١٨٩١ إلى ١٨٩٨ زميلا في كلية مرتون Merton ، أكسفورد ؛ واشتغل من ١٨٩٦ إلى ١٩٠٣ محاضرا مساعدا في اللغة اليونانية والفلسفة بكلية أوين Owen بمائسترد ؛ ومن ١٩٠٣ إلى ١٩٠٨ أستاذا للفلسفة بجامعة ماكجيل McGill في مونتريال ؛ وكان من ١٩٠٨ إلى ١٩٢٤ أستاذا للفلسفة الأخلاقية في سانت أندروز ، وفي ١٩٢٤ أستاذا لنفس الكرسي في جامعة إدنبره . مؤلفاته : « مشكلة السلوك The Problem of Conduct » ، ١٩٠١ ؛ « أركان الميتافيزيقا Elements of Metaphysics » ، ١٩٠٣ ( الطبعة الخامسة ، ١٩٣٠ ) ؛ « الاتصال Continuity » و « الأحلام والنوم Dreams & Sleep » ، ١٩٣٠ . « الهوية Identity » و « مذهب الألوهية Theism » ، مقالات في « دائرة معارف الدين والأخلاق Encyclopaedia of Religion & Ethics » لميستنجز Hastings ، ١٩١١-١٩٢١ ؛ « الإيمان بالخلود The Belief in Immortality » . مقال في كتاب « الإيمان والحرب The Faith & the War » ، نشره ف. ج. فوكس جاكسون Foakes Jackson ، ١٩١٥ ، من ١٢٣-١٥٧ ؛ « الفلسفة » ، مقال في كتاب « التطور في ضوء المعرفة الحديثة Evolution in the Light of Modern Knowledge » ، ١٩٢٥ ؛ « حرية الإنسان The Freedom of Man » ؛ مقال في « الفلسفة الإنجليزكية للعاصرة » ، نشره ج. ه. مورهد ، المجموعة الثانية ، ١٩٢٥ ؛ « دفاع عن الدين The Vindication of Religion » ، بحث في كتاب « مقالات كاثوليكية ولقدية Essays Catholic & Critical » ، نشره أ. ج. سلوين E. G. Selwyn ، « مشكلة الشر The problem of Evil » ، كتاب

صدر في ١٩٢٩ ؛ «إيمان مفكر أخلاق The Faith of a Moralist» (محاضرات جيفورد) ، في مجلدين ، ١٩٣٠ (طبعة في مجلد واحد ، ١٩٣٧) ؛ «دراسات فلسفية Philosophical Studies» ، ١٩٣٤ ؛ وكذلك كتب ومقالات متعددة في تاريخ الفلسفة [ .

تلقى تيلور تعليمه الفلسفي في الوقت الذي كانت فيه أكسفورد في قبضة الحركة البيجلية . وكان أقوى الشخصيات تأثيرا فيه هو برادلي . فقد كان ، بحكم عمله زميلا في نفس الكلية التي كان يعمل بها برادلي ، واحدا من الأشخاص القليلين جدا الذين أسعدهم الحظ بالاتصال شخصا بذلك . الناسك في محرابه ، وتمكن بفضل اتصالات يومية تقريبا ، من مشاركة برادلي آراءه في الوقت الذي كان فيه برادلي يناضل في سبيل صياغة ميثافيزيقاه . وهكذا انطبع تأثير آراء المفكر الأكبر سنا بعمق على مؤلفاته الأولى . ولقد اعترف هو ذاته ، بعد ذلك بوقت طويل ، عندما كان قد ابتعد كثيرا عن موقفه الأول ، اعترف بامتنان بأن تأثير برادلي «الذي مارسه على أنحاء شتى ، ينبغي أن يُعد أقوى وأنفع تأثير تعرض له تفكيري الخاص» (١) .

وعلى الرغم من ذلك فمن المستحيل القول بأنه كان يتبع يا خلاص تعاليم برادلي أو أي معلم آخر في الفترة المتأخرة . فتيلور لم يكن فقط مفسرا مستقلا ، وربما هو أثيا إلى حد ما ، بل إن ذهنه مرن لا يستقر على حال . ولقد أدت سعة اطلاعه إلى جعله يفيض بالعلم في أشد الميادين تبائنا ، وكانت له قدرة مذهشة على استيعاب مجالات غريبة للمعرفة والأفكار . وتشهد المجموعة الكبيرة من مؤلفاته في تاريخ الفلسفة بالاتساع الهائل في نطاق معرفته .

(١) في كتاب «الفلسفة الإنجليزية للعامة» ، رقم موبرهيد ، المجموعة الثانية .

التاريخية ، واستعداده العلمى العظيم . واقد كان واحدا من أبرز الثقات  
 فى فلسفة القدماء ، ولا سيما سقراط وأفلاطون ( فليكتابه الضخم عن  
 أفلاطون ، وشرحه الذى يقع فى سبعمائة صفحة لمحاورة « طيماوس » ،  
 مكانة فريدة وسط ذلك السيل المتدفق من المؤلفات التى تتناول أفلاطون ،  
 وذلك بفضل ما اشتملا عليه من معلومات زاخرة ، ودقة فى التفسير ،  
 وعمق فى الفهم الفلسفى ) ، وكان يتمتع بنفس القدر تقريبا من سعة الاطلاع  
 على التفكير الدينى والدينى فى العصور الوسطى ، وفى الكتابات  
 الحديثة والمعاصرة فى الأدب واللاهوت معا .

ولكن الذى يهمنا ، فى هذا المقام ، هو تيلور الفيلسوف ، لا المؤرخ  
 والشارح والمترجم ، ولقد كان السبب الوحيد لإشارتنا إلى هذه الناحية  
 فى عمله هو أنها قد أثرت فى تفكيره الفلسفى على أنحاء شتى . فكل ما قدمه  
 إلينا من أفكار خاصة به ، يحمل دائما آثار عليه المتشعب الأطراف .  
 نحن الواضح فى كل نقطة أن هذا المفكر قد طرق أبوابا متعددة  
 واستكشف ديارا كثيرة ، وانتفع من المعلومات الوفيرة التى توصل إليها  
 على نحو حى مشر ، بدلا من أن يكتفى بجرّها وراءه وكأنها حمل  
 لا حياة فيه . وعلى ذلك فإن مهمة تتبع مضمون تفكيره إلى مصادره  
 هى جهد عقيم ، إذ سيكون علينا عندئذ أن نبدأ باليونانيين ولا ننتهى  
 إلا بآخر بدعة قال بها معاصروه . غير أن من الواجب أن نلاحظ  
 أن المعرفة التاريخية الشاملة التى جمعها تيلور فى ذهنه المتفتح على الدوام ،  
 على الرغم مما كان لها من فائدة فى موقفه الخاص من المشكلات الفلسفية ،  
 كانت حملا ثقيلا وعقبة فى وجه النمو الطبيعى لتفكيره ، فاحرقت به  
 فى أكثر من مناسبة ، من طريق إلى آخر ، وأفقدته الاتصال ووحدة  
 الهدف . وهى السبب فى تلك التغيرات ، الرئيسية منها والفرعية ،  
 التى تنصف بها رحلته الفلسفية ، والتى لا يبدو أنها بلغت نهايتها

إلا أخيراً ، ما لم يكن يحجب لنا مفاجأة جديدة . وإنه ليزكرنا ، في تعاطفه ، إلى المعرفة وقدرته على استيعابها ، بمعاصره الألماني المتقلب المتشعب ، شيلر Scheler<sup>(١)</sup> .

وأم الكتابات الفلسفية التي ألفها تيلور كتابان ينتمى أحدهما إلى بداية عهد نشاطه التأليفى والآخر إلى نهايته ، وكلاهما يبحث فى الأخلاق . ومن الكتب الأخرى التي ألفها بين هذا وذاك كتاب شامل فى الميتافيزيقا ، ينتمى إلى الفترة المبكرة ، وبضعة أبحاث هامة إلى حد ما ، كان معظمها مساهمات فى حلقات دراسية أو فى كتب مشتركة ، وتتناول هذه الأبحاث مشكلات فى الأخلاق والميتافيزيقا وفلسفة الدين ، وتعبر عن موقفه فى الفترة الأخيرة ، إذ إنها ألقت خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة على وجه التقريب . وسنبداً أولاً يبحث مذهب الأخلاقى ، لأنه أولاً مركز الثقل فى فلسفته ، ولأن بحثه له فى فترتين يفصل بينهما زمان طويل ، يتيح لنا فرصة رائعة لإظهار سمة التغير التي اتصف بها تطوره الفلسفى .

ويُعد كتابه الأول « مشكلة السلوك » ، الذى كان له عنوان فرعى له دلالة ، هو دراسة فى فينومينولوجيا الأخلاق ، - يُعد هذا الكتاب ، فى نواح متعددة ، أفضل عمل فلسفى له ، وكان هو الذى أذاع شهرته عن حق . وهو فى هذا الكتاب المبكر ذاته يتجلى بوصفه مفكراً شجاعاً مستقلاً لا يحجم عن استخلاص النتائج الجريئة أو الممتنعة . صحيح أنه اقتبس بعض أفكار برادلى ومضى بها ، عن طريق التحليل الدقيق ، والديالكتيك البارع ، إلى أبعد نتائجها ، غير أنه تأثر بالجانب الشكاكى .

(١) ماكس شيلر ( ١٨٧٤ - ١٩٢٨ ) : فيلسوف ألماني له أبحاث هامة فى ميادين فينومينولوجيا والبحث فى القيم وعلم الاجتماع وبعض الدراسات النفسية ، كان من السمات الرئيسية لتطوره الفكرى انخراطه بين مواقف متباينة ، ولا سيما فى صدد مشكلة القيمة السكائنة فى الشخصية الإنسانية . [ للترجم ]



في برادلى ، على نحو ما يتبدى في كتابه « المظهر والواقع » ، ( ولا سيما الفصل ٢٥ في « الخير » ) ، أكثر مما تأثر بالمرحلة المثالية البناءة التي يمثلها كتاب « دراسات أخلاقية » . وهكذا فسرطان ما وجد نفسه يقف موقف المعارضة الشديدة للمدرسة المييجلية ، ولا سيما لجرين بوصفه المتحدث الرئيسى باسمها في ميدان الأخلاق . ويظهر التعارض أقوى ما يكون في فصله الأخلاق عن المذهب الفلسفى بوجه عام ، وفي معالجته لها من وجهة نظر تجريبية محضة . فهجومه الأساسى موجه إلى الربط بين الأخلاق والـميتافيزيقا كما يتمثل أصدق تمثيل في كتاب جرين « المقدمة » : « إن الأخلاق مستقلة ، في مبادئها ومناهجها ، عن النظر الميتافيزيقى ، بقدر ما يستقل عنه أى علم من العلوم المسماة « بالطبيعة » ، فن الواجب التماس أساسها الحقيقى ، لا في نظريات فلسفية حول طبيعة المطلق أو التركيب النهائى للسكون ، وإنما في الوقائع التجريبية للحياة البشرية . كما تتكشف لنا في تجربتنا اليومية العينية ،<sup>(١)</sup> . أى أن الأخلاق علم وضعى وتجريبى محض ، وليست علما تأمليا نظريا . وهى مرتبطة ارتباطا ضروريا وثيقا بعلم النفس والأثروبولوجيا وعلم الاجتماع وما شابه ذلك من العلوم ، ومهمتها هى وصف الظواهر الأخلاقية كما نجدها فى الماضى والحاضر ، وبوصفها وقائع للتجربة موضوعة فى سياق عينى من المواقف والظروف .

وهكذا كان الجزء الأول من كتاب تيلور تحليلا نفسانيا للشعور الأخلاقى بوصفه منبع السلوك وأساس الحكم الأخلاقى . وهو هنا ينضم صراحة إلى صف النظرية الإنجليزية فى الشعور الأخلاقى كما ظهرت فى القرن الثامن عشر ( على يد شافيتسبرى وهتشسون وهيوم وآدم سميث ) ،

---

(١) « مشكلة السلوك » ص ٤ .

ويرمى ، بإبقائه الأخلاق على مستوى ثابت هو مستوى الحقيقة اليومية ، إلى تشييد حصن يحمى الأخلاق من التراكيب والتجريدات اللا واقعية التي يبينها الأخلاقيون المنتمون إلى المدرسة الهيكلية . وهكذا رأى أن كل محاولة لبناء الأخلاق على الميتافيزيقا تنطوي على خطر تفريغ الحياة الأخلاقية من واقعها العيني ، وإثقال دراستها منذ البداية بتركيب نظري بحث لا يمكن أن يكون فيه مكان لجميع الظواهر المتصلة بالموضوع .

مثال ذلك أن الأخلاق لا شأن لها بالذات الأزلية اللا زمانية التي قال بها جرين ، وإنما هي تُعنى فقط بالذات التجريدية التي تتجسد في لحم ودم ، وبالظروف المادية والفسولوجية والنفسية التي تتحكم فيها . ولعلم الأخلاق مهمة أخرى ، إلى جانب التحليل الوصفي للظواهر الأخلاقية ، هي تعقب الظواهر إلى بداياتها البسيطة ، والبحث في أصل الأفكار الأخلاقية وتطورها - وهو ما أصبح يُعرف في ألمانيا ، منذ أيام نيتشه ، بأصل نَسَب الأخلاق . وفي هذا الميدان أسفرت تحليلات تيلور العميقة المفيدة عن نتائج رائعة : فمناقشاته لأصل ودلالة تصورات كالإلزام والضمير والمسئولية والخير والشر والشخصية الأخلاقية ، لها قيمة دائمة ، ولا يُنقص من قدرها على الإطلاق عدم كفاية الأسس النظرية لهذا البحث في مجموعه . ومع ذلك ، فعلى الرغم من قيمة أفسكاره واستنتاجاته - مأخوذة على حدة - ، فإن عودته إلى المذهب التجريبي في القرن الثامن عشر كانت خطأ كبيرا ، وخاصة بالنسبة إلى مفكر تربى في مدرسة جرين وبرادلي وذاق ثمار كانت وهيكل . وعلى الرغم من كل ما كان يدين به لبرادلي ، فإنه أدار ظهره عمدا لكتابه «دراسات أخلاقية» ، الذي عرضت فيه الآراء الأخلاقية للمثاليين الألمان لأول مرة ، وبفهم عميق ، في إنجلترا . وهكذا فإن عودة تيلور الانتكاسية إلى المذهب النفسي والنسبي ، وكذلك إلى مذهب اللذة كاسنري فيما بعد ، كانت تخلفا عن

العصر الذى عاش فيه ، لا يكفى لتبريره الاستدلال الدقيق السام من ورائه .  
ولا الأفكار القيمة الكثيرة التى ظهرت مقترنة به (ولكنها لم تظهر منه) .

ونظرا إلى رفض تيلور لكل مبدأ عقلى ، وقصره الأخلاق على  
وقائع التجربة ، فقد أخذت أبحاثه تدفعه ، على نحو متزايد ، إلى السير  
فى طريق شكاك ، وإلى الوقوع فى صعوبات ديباليكتيكية . ويتجلى  
تأثير برادلى بوضوح لأول مرة فى نقله للديالكتيك التحليلى الذى  
اتسم به الجزء الأول من « المظهر والواقع » ، بطريقة بارعة إلى أبعد حد ،  
إلى مجال الأخلاق .

وكان من المحتتم أن يودى الحط من عالم التجربة إلى منزلة المظهر  
البحث ، إلى نتائج هدامة بالنسبة إلى مذهب أخلاقى تجريبي محض ، وبالفعل  
نجد أن نظريه تيلور التجريبية فى الأخلاق ، شأنها شأن نظرية هيوم  
التجريبية فى المعرفة ، تنتهى إلى مذهب فى الشك . ذلك لأنه ينتهى إلى  
أن ميولنا الأخلاقية ، بمجرد أن تتحرر من الشعور الأخلاقى البدائى  
الذى هو أساسها المشترك ، تتطور فى اتجاهات متباينة ، بل إنها تبلغ  
من التباين حدا يستحيل معه ردها ثانية إلى وحدة عامة ، ويتمثل هذا  
التباين ، فى نظره ، فى تلك الثنائية القائمة فى كل الأحوال بين الأنانية  
والغيرية .

فكلا هذين الموقفين قد اكتسب موافقة أخلاقية وادعى لنفسه  
قيمة مطلقة . وهكذا تواجهنا على الدوام فكرتان متقابلتان إلى الأبد :  
إحداهما فكرة تنمية الذات ، والأخرى فكرة خدمة المجتمع ، وتعجز  
النظرية الأخلاقية تماما عن البت فى أيهما الأفضل . فمن المحال على نحو  
قاطع إيجاد مركب نهائى يجمع بين تحقيق الذات وبين التضحية بالذات .

والنتيجة التى ينتهى إليها هذا الاستدلال الذى ينطوى على دور

منطقي واضح ، هي أن الأخلاق ليست نسقا من الاستنباطات العقلية من مبدأ ميتافيزيقي واحد ، وإنما هي مجموعة من التعميمات التجريبية التي لا يمكن جمعها تحت نسق مترابط من الفروض . ومن هنا فإن الأخلاق ، شأنها شأن الفيزياء وكل العلوم الخاصة الأخرى ، لها طابع مؤقت فحسب ، ولا يمكن أن ترتفع إلى مستوى القول بمعايير باقية لمبادئ ذات صحة شاملة ، فهي في أساسها لا عقلية . وما نسميه بالمثل الأخلاقي الأعلى هو في واقع الأمر موقف وسط بين استقطاب الميول الانانية والغيرية ، وهو الاستقطاب الذي يتمثل في المجال الأخلاقي بأسره . أما فكرة التقدم الأخلاقي فهي وهم باطل ، إذ لا يوجد اتجاه واحد محدد للحركة ، وكل تقدم ظاهري يقابله تأخر .

وإذن فليس من المستغرب أن نرى تيلور يسير خطوة هامة في اتجاه ما يسمى بمذهب اللذة الأخلاقي ، وذلك مع رفضه مذهب اللذة النفسي ، كما فعل جريرن وبرادلي وسدجويك وغيرهم . وكان يعني بمذهب اللذة الأخلاقي ذلك المذهب القائل إن اللذة طابع أساسي لما له قيمة أخلاقية ، وإننا نستطيع ، بالنسبة إلى جميع الأغراض العملية ، أن ننظر إلى وجود اللذة على أنه علامة إعلاء طاقات الحياة ، فإن اللاذ يكون خيرا بقدر ما يؤدي هذه الوظيفة . غير أن مثل هذه الأفكار ، التي تخضع الأخلاق للمقولات البيولوجية ، ليست لها إلا حقيقة نسبية .

على أن الأرجوحة الديالكتيكية عند تيلور تنتقل بعد ذلك إلى الجانب الآخر ، لكي تتصف الفكرة المضادة ، وهي فكرة الواجب . صحيح أن أية أخلاق تجريبية تستبعد الأمر المطلق ، بالمعنى الذي قال به كانت ، ما دام هذا الأخير يرتبط بفلسفة ترتكز على مبادئ أولية مطلقة . ومع ذلك فهناك أوامر . غير أنها دائما موجهة إلى أشخاص فرديين

في مواقف خاصة ، وعلى الرغم من أنها يمكن أن تغدو ملزمة أو إجبارية بالنسبة إلى جماعات معينة من الأفراد والطوائف ، فلا يمكن أن تكون لائى منها صحة أولية شاملة . ذلك لأن المقدمة التي ترتكز عليها الأخلاق هي أن كل ما هو واقعي قابل للرد في آخر الأمر إلى واقعة للتجربة العينية .

ويؤكد تيلور صراحةً اتفاق هذا المبدأ مع المبدأ الأساسي في نظرية المعرفة عند هيوم ، وينبغي أن يقال إن تيلور قد عمل في مجال الأخلاق ما عمله هيوم في مجال المعرفة ، إذ وجه كل جهوده إلى تطبيق مذهب تجريبي في الشك ، أو مذهب شكك تجريبي ، مماثل لمذهب هيوم ، على هذا الميدان . ويمكن أن يقال إنه تجاوز هيوم نفسه في هذا الميدان ، إذ إن هذا الأخير ، مع بنائه الأخلاق على أساس تجريبي ، قد منعه حمه السليم من بحث الانحلال فيها عن طريق الشك . وما يزيد الأمر غرابة أن تيلور رأى ، في كتاب متعلق بنظرية المعرفة والميتافيزيقا ، نشره بعد ذلك بسنتين فقط ، هو « أركان الميتافيزيقا » ، أن يتعد تماماً عن هيوم ، ويستبدل بالحجج الشككية صيغ المذهب المطلق .

وهكذا فإن المرحلة الأولى في مذهب تيلور الأخلاقي تنتهي إلى نزعة نفسية ، ونسبية ، وشككية . فليس فيها نتائج إيجابية .

غير أن هذا الوصف وحده غير كاف ، إذ إن دلالة هذه المرحلة السلبية هي أن الفكر الأخلاقي قد أُلقي به في دوامة ديمالكنتيكية يضطر فيها إلى الابتعاد عن جميع الارتباطات التوكيدية لكي يعود إلى الحياة العينية ذاتها ، ويعترف بتنوعها ومرونتها وتناقضها . والواقع أن تيلور قد فاق جميع المفكرين الآخرين في إظهار المرونة الكامنة في الحياة الأخلاقية ، والنقائص والممتنعات التي تنشأ عند دراستها .

ففي بوتقة تيلور الديالكتيكية يذوب كل شيء . ولقد كان فكره أكثر مرونة وليونة من أن يستقر على موقف واحد ، وإنما هو يتنقل بلا انقطاع ، إزاء الكثرة الزاخرة من المظاهر المرتبطة بموضوعه ، من قضية إلى نقيضها ، دون أن يرضى بأيهما . وإذن فنزعة الشك التي تنساب في جميع أرجاء هذا الكتاب المبكر النابض بالحياة ، الذي وضع بعد تفكير عميق ، ليست شكاً هاماً مخبئاً ، وإنما هي زاخرة بالأفكار القيمة التي لا تنتظر إلا عملية التشكيل .

فإذا كانت الحياة الأخلاقية حلاً وسطاً ووهماً باطلاً ، وإذا كان جزء من ماهيتها يتألف من قدر معين من الخداع أو النفاق ( Cant ) - والكلمة ترجع إلى تيلور ذاته - فإن لنا أن نتساءل عما إذا كان يجوز لنا أن نعدها صورة نهائية للتجربة البشرية . ويحاول تيلور أن يجيب عن هذا السؤال الأخير في الفصل الأخير من كتابه ، وعنوانه : « وراء الخير والشر » ، وهو فصل يتضمن تلييحاً للاتجاه الذي ستتحرك فيه أفكاره الأخلاقية فيما بعد . وعلى الرغم مما يوحى به هذا العنوان ، فإن الإجابة ليست تلك التي قدمها فيتشه . صحيح أن تيلور كان أول مفكر إنجليزي افتتن بعمق بتفكير فيتشه ، ولكننا لا نستطيع أن نتحول عن موضوعنا لنبحث في التواحي التي تأثر فيها به . فهو في هذا الفصل يرى أن مآل الأخلاق إلى الدين . ففي السلوك الأخلاقي البحت فنظر إلى التمييز بين الخير والشر ، والصواب والخطأ ، والرفيع والمنحط ، على أنه تمييز نهائي ، غير أن هذه الأضداد الخشنة لا تكفي على الإطلاق للتعبير عن بعض التمييزات الأدق التي توجد تحت السطح الظاهر ، والتي تتغلغل في قلب الأشياء . وفضلاً عن ذلك فالمشكلة لا تنحصر فقط في أن الأخلاق في الأعلى لم يبلغ بعد ، وإنما في أن

بلوغه مستحيل ، إذ إن كل ما يبدو تحقُّقاً له يتضح فيما بعد أنه وهم باطل .  
لذلك كان من الضروري تجاوز التجربة الأخلاقية على مستوى يعلو على  
أضدادها المعرفة ، وهذا المستوى لا يوجد إلا في التجربة الديفية . فهذه  
التجربة هي التعبير الأعلى والنهائي عن مسعانا العمل ، وليس المثل الأعلى  
فيها شيئاً مفارقاً لا يبلغ ، أو حقيقة دائمة متجاوزة لهذا العالم ، وإنما هو  
شيء حقيقي ومتحقق بالفعل ، لا بالمعنى المألوف ، وإنما بأكمل وأيقن معنى ،  
أى معنى كونه هو الحقيقة العليا ، والحقيقة الوحيدة التى يصدق عليها هذا  
الاسم . فالموقف الأخلاقى المتطرف للدين يتخذ صورة تعاطف شامل  
وتراحم مقصود ؛ هو حقاً مبنى ، فى كثير من الأحيان ، على الخير الأخلاقى ،  
غير أنه لا يتقيد به بالضرورة .

أما المرحلة المتأخرة من أبحاث تبلور الأخلاقية ، وهي المرحلة التى  
لا يقسع المقام هنا لمعالجتها على أى نحو كامل ، فيمثلها كتاب كان أشمل  
حتى من الكتاب السابق ، ولكنه أقل منه تركيزاً ، وهو كتاب ينبئنا  
عنوانه منذ البداية — وهو « إيمان مفكر أخلاقى » — بأن الكاتب قد  
اهتدى إلى أرض صلبة . هذا الكتاب ، الذى يفصله عن كتابه الأخلاقى  
الأول جيل كامل ، يكشف عن تقدمه المستمر خلال هذه الفترة نحو  
مبادئ جديدة من الموضوعات ومجموعات جديدة من المشكلات . وكان  
الميدان الرئيسى الذى أضافه إلى عتاده ذهنى هو اللاهوت ، وذلك بفضل  
دراسته الموسعة لتفكير العصور الوسطى ، كما أضاف إلى تمكنه السابق  
من الفلسفة الكلاسيكية القديمة ، معرفة أوثق بالفلسفة القديمة فى العصر  
التالى للعصر الكلاسيكى ، ولا سيما فلسفة الأفلاطونية المحدثة . أما بين  
المحدثين ، فقد ازداد اقتراباً من جاليليو وديكارت وهيز وليبنيتس وريد ،

وأجرى اتصالات مثمرة مع مفكرين معاصرين له من أمثال ألكسندر ، وفارينسكو<sup>(١)</sup> Varisco ، وورد ، ورويس ، وبرجسون ، وهويتهد . كما أصبح مدينا في بعض النواحي الهامة لكتاب فون هوجل ووب في فلسفة الدين ، ولكتاب ا . ر . بيغان E. R. Bevan : « الهلينية والمسيحية » Hellenism & Christianity .

وأفضل ما يوصف به موقفه الجديد هو أنه مذهب ألوهي أخلاقي . ethical theism . فالأخلاق تستمد أساسها النهائي من الدين ، والتفكير فيها يتم من خلال المقولات الدينية . وهكذا فإن التليحات المتفرقة التي انتهى بها الكتاب الأول ، تُعرض هنا على نحو مذهبي ، وتكون الموضوع الرئيسي للبحث الجديد بأكمله . وهو هنا يختص الأخلاق من نزعة الشك ، ويسير بها إلى بر الأمان بفضل طوق النجاة الذي يقدمه اللاهوت . غير أن المرء يشعر بأن اهتمامه الرئيسي قد تحول الآن من الأخلاق إلى مذهب الألوهية ، وعلى أية حال فإن الهدف الذي يوجه مناقشته المطولة إلى تحقيقه هو إيجاد برهان أخلاقي جديد ، مبني على أساس عريض ، على وجود الله . ويظهر التغير الذي طرأ على آراء تيلور في طبيعة الأخلاق — يظهر أوضح ما يكون في تغيير موضوع هجومه . فقد كانت معارضته في الكتاب الأول موجهة أساسا إلى جميع محاولات صبغ الأخلاق بصبغة ميتافيزيقية ، وربطها بأية مبادئ أولية ذات طابع ميتافيزيقي . أما الآن فهو يتحول عن طيب خاطر إلى معسكر الأعداء ،

---

(١) برناردينو فارينسكو ( ١٨٥٠ — ١٩٣٥ ) : فيلسوف ينتمي إلى المدرسة الإيطالية الحديثة ، له مؤلفات قيمة في مشكلة الوجود والفكر ، وأبحاث في الفلسفة الدينية والأخلاقية . [ المترجم ]



إذ إن بناء الأخلاق على أساس مذهب في اللاهوتية هو ربط لها بالميتافيزيقا. فموضوع هجومه الآن — وهو الموضوع الذي لا يكف تيلور عن تأكيده — هو النزعة الدنيوية secularism ، أى نفس عملية قصر الأخلاق على المجال الإنساني المحض ، وهى العملية التى لم يكن كتابه الأول إلا محاولة لتنفيذها .

وهكذا فإن جميع حججه أصبحت تدور الآن حول محور الفكرة القائلة إن الحياة الأخلاقية ، مهما كان من ارتباط مجراها بالزمان ، ومن تقيدها بظروف العالم الحالى ، لا نكتسب معناها الحقيقى إلا عندما تولى وجهها شطر الأزلية وتسترشد فى كل نقطة بالإيمان بالله . فهى مغامرة تبدأ بالعالم الطبيعى وتنتهى بالعالم فوق الطبيعى . ولا شك فى أن هذه الأخلاق ، بالنسبة إلى الدين . غير مستقلة . وإنما هى معتمدة عليه . ولكن تيلور يؤكد استقلالها بالنسبة إلى الطبيعة . ونستطيع أن نضرب لهذا مثلا إيضاحيا بمناقشته لفكرة الذنب ؛ فالشعور الذى نحس به عندما ندرك أن هناك شرا ارتكبناه ، يختلف عن أى شيء نجده فى المجال دون الإنسانى إلى حد أنه يجوز لنا أن نعدده شعورا لا نظيره ، يختص به الإنسان وحده . هل أن هذا الشعور بالذنب يقترن به أساسا شعور آخر بعدم إمكان محو الذنب . فلا يمكن أن يُسحى الذنب بأى جهد أو فعل ، ولا يمكن « تعويضه » أو تغطيته بأى عقاب . غير أن إحساسنا بعدم إمكان التكفير عن الذنب إنما هو دليل مباشر على التشابك الكامن بين الزمان والأزلية ، الذى هو العلامة المميزة لكل سعى أخلاقى .

وترتبط بهذا تلك الفكرة التى أطلق عليها تيلور اسم « الحافز المنبعث عن الأزلية The initiative of the eternal » . فشكل أخلاق أصيلة

تشير إلى ما وراء حالتنا الراهنة ، إذ تتطلب تجديداً وتحويلاً وبعثاً مستمراً لشخصيتنا . على أننا لا نستطيع أن نرتفع فوق مستوى عملنا الحالى بمجهودنا الخاص وبمثل أعلى خاص بنا فحسب . فالحافز الذى يدفع إلى التجديد لا يمكن أن يأتى من جانب الشخصية المطلوب تجديدها ، وإنما يمكن فقط أن يأتى من الاستجابة لحركة تأتى من الخارج ، وهذه الحركة لا بد أن يكون مصدرها هو الله . وهكذا فإن الأخلقاق تفرض ما يعلو على الطبيعة مقدماً ، بوصفه ينبثها وقوتها المحركة . وهذا لا يعنى بأية حال الاستغناء عن الجهد الشخصى ، وإنما يعنى فقط أن من واجبتنا ، فى كل أوجه نشاطنا ، ألا نظل محصورين فى حدود قدراتنا ، وإنما أن نتطلع إلى ما وراءنا لى نقبل الحافز الإلهى الذى هو وحده القادر على الارتفاع بنا إلى ما يعلو علينا . فللذرات الروحية عند تيلور نوافذ ، وهذه النوافذ تطل على اللامتناهى .

ويُدخل تيلور فكرة الخلود فى نطاق « برهانه الأخلقاق » ، العام . فالخلود يعنى تحول الذات الزمانية إلى ذات أزلية . والعملية مستمرة ، قوامها فى المحل الأول تطهير الذات تماماً من حالة خضوعها لتحكم الظروف الزمنية . غير أن هذا ليس تطهيراً يغير الشخصية الفردية ويغنيها فى مطلق . لا شخصى ( وهنا يتجه تفكير تيلور إلى نظرية الفردية عند بوزاندكيت ) ، وإنما هو تطهير يتركها أغنى مما كانت . فالذات تظل باقية ، غير أنها تنتقل من مركزها الأصيل إلى مركز جديد . وكما يقول تيلور ، فبقدر ما نتخلى عن ذواتنا ، نفنى فى شخصيتنا الحققة . فى المطلق لا تفنى الفردية على الإطلاق ، بل تحقق أكمل تعبير عنها .

ولكن أليست الأخلقاق والحياة الأزلية متعارضتين تماماً ؟ أياظلل للجهد الأخلقاقى أى معنى بعد أن نبلغ هدفنا ؟ . هنا نواجه مرة أخرى تلك

الصعوبة الأساسية التي تتمثل في أى مذهب أخلاقى ، أعنى الازدواج بين ما هو كائن ، أى ما هو زائل متغير على الدوام ، وما يجب أن يكون ، أى ما لا يمكن بلوغه أزلاً ، وإن يكن يبدو أنه هو ماهية الأخلاقية ذاتها . غير أن الأخلاق لا تختفى عند بلوغ هدفها إلا إذا جعلنا الأخلاق مساوية للصراع ضد الشر . على أن هذا أمر غير مشروع ، تماماً كجعل العلم مساوياً للصراع ضد الجهل . فمن الممكن أن تتصور مرحلة للحياة الذهنية تنتهى فيها عملية تكوين الشخصية ، ومع ذلك يستمر النشاط المنبعث عن الشخصية المتكونة . وحتى ، فى السماء ، يظل هناك مكان للحياة العملية الفعالة ، إلى جانب سعادة التأمل الخالص . صحيح أننا لا نعود قادرين على التقدم ، نحو ، الخير ، ولكن سيكون هناك مجال واسع للتقدم ، فى داخله ، ؛ ومن الطبيعى أن الحياة الخيرة ان يمكنها عندئذ أن تظل تتخذ شكل صراع إيجابى ضد الشر ، وإنما تستمر بوصفها تحقيقاً ، للخير ، على صور تزداد على الدوام كمالاً وتنوعاً . فانهاء الصراع بين الخير والشر ، وبلوغ الغاية ، لا يمنع من استمرار بقاء النشاط الأخلاقى . وهذا هو حل التناقض العميق بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون فى الأخلاق .

وهكذا فإن تفكير تيلور الأخلاقى يمر بمرحلتين لا صلة بينهما على الإطلاق : الأولى مرحلة واقعية تجريدية ، دياكتيكية ، شكاكية ، تقتقر إلى النظام المذهبى ، ونهادى أى مذهب ميتافيزيقى ، والثانية مرحلة مختلفة تماماً ، تبنى الأخلاق على مذهب الوهمى ميتافيزيقى ، وتجعلها خاضعة له تماماً . وهذا القول يتضمن فى الوقت ذاته وصفاً صحيحاً لتفكيره الميتافيزيقى المتأخر بدوره ، وهو التفكير الذى عرضه أيضاً فى كتابه « إيمان مفكر أخلاقى » . فهو يرمى إلى كشف عدم كفاية كل لاهوت

طبيعى صرف ، وإلى تبرير الإيمان بوحى فوق الطبيعى . والواقع أن إيمان  
تيلور الدينى قد نما بقدر ما نما تفكيره تماما . فقد كان فى البداية واعظا غير  
متخصص ( علمانيا ) ، ينتمى إلى طائفة «الميثوديست» ، ثم انتقل إلى مرحلة  
عدم اكتراث بالدين ، وبعد ذلك ازداد بالتدريج تقاربا من المذهب  
الأنجليكانى ، وما هو ذا أصبح ينتمى إلى جناحه المتطرف المسمى  
بجناح «الكنيسة العليا High Church»<sup>(١)</sup> . بل إنه أصبح يصرح علنا  
بإعجابه بمذهب الروم الكاثوليك ، وعبر عن ذلك فلسفياً فى رأيه القائل  
إن الحركة المدرسية الجديدة هى تجديد أصيل لروح الفلسفة ، وإن تفكير  
توما الأكوينى ما زال حيا ، وسيظل له تأثيره فى مجرى التفكير الفلسفى  
فى المستقبل .

ولا مفر لنا من أن نعرض ، ولو بإيجاز شديد ، لتفكير تيلور  
الميتافيزيقي الأول ، كما عرضه فى كتاب «أركان الميتافيزيقا» ، طبعة  
سنة ١٩٠٣ . فلا حاجة بقارى هذا الكتاب إلى أن يذهب بعيداً لى  
يجد هنا أيضاً انفصاما عميقاً يُفقد المؤلف صفة الاستمرار والاتصال .  
فكل ما يمكن إيجاده من روابط بين تفكيره الدينى فى كتابه الأول ،  
وبين تفكيره الدينى فى فترة اضوجه ، إنما هى بضعة روابط خارجية ،  
لا وحدة باطنة . وهنا أيضاً نحول «شاؤول Saul إلى بولس Paul»<sup>(٢)</sup> .

---

(١) مذهب فى الكنيسة المسيحية يذهب إلى التقيد بالشعائر والطقوس والتعاليم الحرفية  
للمسيحية ولا سيما الكاثوليكية منها ، ويتصف أنصاره عموماً بروح المحافظة الشديدة  
والتقيد بحرفية النص الدينى . [ للترجم ]

(٢) شاؤول هو الملك الأول للبرانيين ، وكانت سيرته ، كما رواها العهد القديم ،  
غير حميدة ، ولا سيما فى محاولاته القضاء على داود . أما القديس بولس فسكانته فى المسيحية  
معروفة . والدال بضرب بطبيعة الحال لنحول شخص متمسك بالدنيا إلى شخص متمسك  
بالدين . [ للترجم ]

«ويزداد الانفصال وضوحاً إذا ما عدنا بنظرنا إلى الوراثة ، إذ توجد بين كتابه الأول وهذا الكتاب هوة شاسعة في الروح وفي المضمون ، بينما لا يفصلهما في الزمان سوى عامين أو ثلاثة ، ففي كلا الكتابين كان تأثير برادلي سائداً ، ولكن كان هناك — كما أكد تيلور نفسه بعد ذلك بوقت طويل — شخصيتان لبرادلي إحداهما شخصية الناقد الهدام ، والأخرى شخصية المفكر البناء العظيم ، بحيث حطمت الأولى ما شيدته الثانية تحطيماً ، ولا يملك المرء إلا أن يحس بأن تيلور ، في فترته الأولى ، قد تأثر بهذين الوجهين لبرادلي دون أن يحل ما بينهما من تعارض ، بحيث كان الوجه الأول هو السائد في مذهبه الأخلاقي ، والثاني هو الحائد في ميتافيزيقاه . وإذن فمن الممكن أن نطلق على ميتافيزيقاه الأولى ، التي أطلق عليها اسم « المثالية المنهجية » ، وصفاً موجزاً هو أنها مذهب برادلي في المطلق ، محذوفاً منه نزعته في الشك .

ولكن مذهب المطلق ، الذي تركه برادلي في صورة مفككة إلى حد بعيد ، قد نظم هنا تنظيمًا دقيقاً صارماً . والأقسام الرئيسية في المذهب هنا هي الانتولوجيا أو التركيب العام للعالم الواقع ، والكسمولوجيا أو ميتافيزيقا الطبيعة ، وعلم النفس العقلي أو ميتافيزيقا الذهن والمجتمع البشري .

غير أن تنظيم أفكار برادلي لا يكون سوى الأساس والإطار العام لمذهب تيلور الأول . فقد تمكن تيلور ، بمرونته وتفتحه وتقبله لما هو جديد ، من أن يدمج في كثرة زاخرة من المواد الجديدة ، تشمل كل ما كان مدار البحث في ذلك الحين ، ويستغلها في أغراضه التأملية . وأوضح المؤثرات ظهوراً بعد برادلي ، مثالية وورد و رويس ، وإن يكن قد تأخذ عنها موقفها العام أكثر مما أخذ تفاصيل المذهب . كذلك تأثر إلى حد

غير قليل بالاتجاه الذى كان جديداً عندئذ فى علم النفس عند وورد ، وجيمس ، وستوت ، ومونستربرج<sup>(١)</sup> ، Münsterberg ، مؤكداً أن للحياة الذهنية طابعاً غرضياً غائباً ، واستخدم هذه الفكرة فى محاربة النظريات الآلية ، فأعلن أن النظرة الآلية إلى العالم هى نظرة ذات قيمة أدنى يتضح آخر الأمر بطلانها ، ولا تصح دون قيد أو شرط حتى على العالم غير العضوى ، مادام للذرة ذاتها قدر من الفردية ، مهما كانت ضآلة ، وإلى هذا الحد لا يمكن استبعادها من التركيب الغائى الذى يتغلغل فى جميع أرجاء الوجود . على أن هذه الآراء كادت ترغمه على أخذ بعض العناصر الهامة من المذهب البرجماتى الذى كان عندئذ فى بداية ظهوره — ومن المؤكد أنه تنازل لهذا المذهب فى نواح كثيرة . وللمرء الحق فى أن يشك جدياً فيما إذا كان هذا الربط بين الميتافيزيقا القائمة على فكرة المطلق ، وبين الفلسفة البرجماتية فى الحياة ، قد ساهم فى تأكيد اتساق مذهبه ووحده . ونستطيع أن نقول إنه ، نظراً إلى التوتر الشديد الذى كان قائماً عندئذ بين ممثلى هذين الطرفين ، كان على الأقل خطأ منه فى التمسك ، على أن التنافر التام بين المذهبين سرعان ما فرض نفسه عليه ، فدخل فى خلاف مع شيلر ، ولما وجد نفسه محاصراً ومخرجاً ، تخلى عن قدر كبير من برجماتيته ، وتجلى ذلك فى كلامه عن طبيعة العلوم الوضعية ومناهجها ، وفى رأيه فى العلية وغيرها من المبادئ العامة التى رأى أنها ليست بديهيات ، وإنما مصادرات (وهنا كان متأثراً على نحو مباشر بمقال لشيلر ظهر حديثاً فى ذلك الحين ، أى فى ١٩٠٢ ، بعنوان

(١) هوجو مونستربرج (١٨٦٣ — ١٩١٦) عالم نفس أمريكى ، من أصل ألمانى . كان أستاذاً فى جامعة هارفارد التى وفد إليها بعد أن أقنعه بذلك وايم جيمس ، وأصبح مديراً لمعمل علم النفس فيها . له كتابات متعددة فى علم النفس وفى الحياة والمشكلات الأمريكية . وهو مؤسس ما يسمى « بالتكنيك النفسى » Psychotechnique ، وتمتاز كتاباته بالازج بين الإبحاث النفسية والأفكار الفلسفية ، ولا سيما المثالية منها . [ المترجم ]

« البديهيات بوصفها مصادرات Axioms as Postulates » ، وكذلك في تأكيده أن العنصر الإرادى الاختيارى مائل فى كل تجربة ، ورفضه لفكرة السعى المنزه إلى الحقيقة . أما آراؤه فى مناهج المعرفة العلمية فتكاد تكون مماثلة تماماً لآراء كارل بيرسون فى كتابه « قواعد العلم Grammar of Science » . وأخيراً نستطيع أن نلاحظ من آن لآخر تشابهاً مع فلسفة التجربة الخالصة عند أفناريوس Avenarius<sup>(١)</sup> .

فإذا ما تأملنا تفكير تيلور الفيلسوف فى مجموعه ، أمكننا أن نقول إنه أغنى وأعقد من أن يفهم فهما جامعاً مانعاً ، أو يدرج تحت وصف واحد . فهو يلعب بألوان متعددة استمدتها من المصادر المختلفة التى أضاءته . وكثيراً ما عمل على حرق سفنه من خلفه ، والزحف قدماً لاحتلال ممالك جديدة . غير أنه يفتقر إلى التركيز ، بحيث إنه لم يبعث وحدة باطنة فى الميادين المختلفة المتعددة التى استمد منها ثقافته واتخذها موضوعاً لبحثه . فتفكيره بصورة أمينة لذلك الشقاق العميق ، الفيلسوف وغير الفيلسوف ، الذى يتصف به عصرنا ، هذا العصر الذى اتخذ من الإيمان ملجأ ، ولكنه لم يصبح بذلك أقوى تفكيراً . وربما كان ذلك المذهب أوضح مظهر على مدى إخفاق الفلسفة الإنجليزية ، حتى فى يومنا هذا ، فى الوصول إلى أى هدف ، واستمرارها فى تلبس الطريق .

وليام تمبل William Temple

( ولد فى ١٨٨١ )<sup>(٢)</sup>

[ كان من ١٩٠٤ إلى ١٩١٠ زميلاً ومحاضراً فى الفلسفة فى « كوينز كوليدج ]

(١) ريشارد أفناريوس ( ١٨٤٣ — ١٨٩٦ ) : مؤسس مذهب النقدية التجريبية Empirio - criticism وهو مذهب يقصر مهمة الفلسفة على وصف وقائع التجربة الخالصة ، ويستبعد كل ميتافيزيقا ، مستهدفاً من ذلك الوصول إلى « نظرة طبيعية إلى العالم » . وكتابته الرئيسى هو « نقد التجربة الخالصة » ، فى مجلدين ، ١٨٨٨ — ١٩٠٠ .  
(٢) تولى فى ١٩٤٤ . [ للترجم ]

Queen's College « بأكسفورد ؟ ومن ١٩١٠ — ١٩١٤ ناظراً لدرسة ريتون .  
Repton ؟ ومن ١٩٢١ إلى ١٩٢٩ أسقفاً للأنشستر ، ومنذ ١٩٢٩ ، كان أسقفاً  
ليورك .

مؤلفاته : « الإيمان والفكر الحديث The Faith & The Modern Thought » ،  
١٩١٠ ؛ « طبيعة الشخصية The Nature of Personality » ، ١٩١١ « الشخصية  
والأمة Church & Nation » ، ١٩١٥ ؛ « أفلاطون والسيحية Plato &  
Christianity » ، ١٩١٦ ؛ « القمن الحلاق Mens Creatrix » ، ١٩١٧ ؛  
« مسائل الإيمان Issues of Faith » ، ١٩١٨ ؛ « حقيقة المسيح Christus  
Veritas » ، ١٩٢٤ ؛ « بعض النتائج المتضمنة في مذهب الألوهية Some  
Implications of Theism » ، مقال في « الفاسفة الإنجليز في العاصرة » ، نشره  
مورهد ، المجموعة الأولى ، ١٩٢٤ ؛ « المسيحية والدولة Christianity & the  
State » ، ١٩٢٨ ؛ « الطبيعة والإنسان و الله Nature, Man & God »  
( محاضرات جيفورد ) ١٩٣٤ ؛ وكذلك كتابات لاهوتية ودينية متعددة [ .

تلقى تمبل تعليمه الفلسفي في كلية باليول بأكسفورد ، على إدوارد  
كيرد ، وظل يذكر لهذا الأخير أنه أفضل ممثل لشخص لا يقتصر على  
تعليم الحياة الروحية ، وإنما يحياها على أكمل وجه أيضاً . وعن طريق  
كيرد اتصل منذ وقت مبكر بعالم الفكر المثالي ، الذي التزمه على الدوام .  
فما بعد في سعيه إلى الوضوح الفلسفي . وهو ينتمي إلى تلك الفئة من  
اللاهوتيين المتفانين التي كان عددها في إنجلترا أكبر منه في أي بلد  
آخر ، والتي كان باركلي مثلاً متقدماً وبارزاً لها . ولم تكن فلسفته إشباعاً  
لحاجة نظرية ، بقدر ما كانت تبريراً لنظريته الدينية واللاهوتية . فمهمتها  
هي التوفيق بين الإيمان والمعرفة ، وإيجاد أساس نظري لمذهب ألوهي .  
ثبت في ذهنه من قبل .

ويعرف تمبل مذهب الألوهية بأن الفرض القائل إن الأساس النهائي  
للكون إرادة ، وبأن هذه الإرادة تحقق غاية ، وإن هذه الغاية تبدو  
لنا ، نحن الموجودات المتناهية ، خيثة . هذا الفرض يستمد دعمه .



من تجربتنا الأخلاقية والدينية . فالواقع إذن تعبير عن الإرادة الإلهية . وله مستويات أو مراحل متعددة ، تجمع بينها عملية نمو واحدة . ولو نظرنا إلى سلسلة المراحل زمنيا لوجدناها تتحرك من الأدنى إلى الأعلى ، أما لو تأملناها من حيث دلالتها العامة ، لانعكس هذا الترتيب : ذلك لأنه على الرغم من أن الأعلى يفترض الأدنى مقدما من الوجهة الواقعية ، فإن الأدنى لا يقدم أى تفسير لمعنى الأعلى . فالنحيد والمعنى يسيران من أعلى إلى أدنى ، بحيث إن معنى الأدنى لا يتكشف إلا بظهور المرحلة الأعلى التالية له . وعلى ذلك فإن الأعلى يكمن ، بالإمكان أو بالقوة ، فى الأدنى ، ثم ينبثق عنه ليكون مرحلة جديدة . وهناك أربع مراحل رئيسية للوجود ، يتميز بعضها عن البعض تميزا واضحا ، هى المادة ، والحياة ، والعقل intellect ، والروح ؛ فإذا طبقنا القانون السابق على العلاقة بين هذه المراحل ، لوجدنا أن المادة لا تتكشف عن طبيعتها الحققة إلا عندما تنتقل إلى الحياة ، والعقل لا يحقق وظيفته الصحيحة إلا عندما يخضع لتوجيه الروح ، التى هى أعلى مرحلة للحقيقة المعروفة لنا . وهنا يظهر بطبيعة الحال تأثير الاهتمام المتجدد بالتطور ، الذى تبدى فيما بعد ، على سبيل المثال ، فى النظريات القائلة بالطفرة عند لويد مورجان وألكسندر ، والتى تتفق معها نظرية تمبل فى خطوطها العامة اتفاقا شديدا .

وتثير فكرة المستويات الصاعدة مشكلة القيمة ، ولاسبها علاقتها بالواقع . فهل تستند ماهية الأشياء فى وجودها المحض ، بحيث تكون القيم صفات لها فحسب ، أم أن القيم هى التى لها الأولوية ؟ . يحاول تمبل أن يبين أن الفرض الثانى هو الصحيح . وسيله إلى إثبات ذلك هو القول إن القيم وحدها هى التى لها حقيقة جوهرية ، وهى تحقق صورها المختلفة بالتجسد فى الأشياء . ويتلو من ذلك أن ما هو حقيقى لا يكون كذلك إلا بقدر ما تشكله القيمة ، أو بتعبير آخر ، بقدر ما يكون خيرا . على أن

القيّم أو الخيّز ليس إلا الطرف المتضايّف مع إرادة ، وهذه الإرادة هي الإرادة الخلاقة للروح الإلهية ، التي هي وحدها الموجودة بذاتها . ومن ثم فإن العالم من خلق إرادة الله ، وهو التعبير عنها . فالقول بهوية الجواهر والقيمة يؤدي حتما إلى مذهب الألوهية .

وقد عرض تمبل هذه الأفكار عرضا مذهبيا في كتابه «الذهن الخلاق» . فهو هنا يبحث في معنى الروح إلى تكوين نظرة ترضيها عن العالم ، في ضوء الأشكال الثلاثة : العلم والفن والأخلاق ، هذه الأشكال الثلاثة معا تستهدف توحيد الكثرة المختلطة للأشياء . ولكن ليس في وسع أحدها أن يحققها ، وإنما في الدين وحده يمكن بلوغ نظرة موحدة إلى العالم ، بحيث إن الدين هو اكتمال جميع الصور الأخرى للمعرفة ، وهو حجر الرّحى في أي مذهب فلسفي . وهكذا أضاف تمبل إلى كتاب «الذهن الخلاق» ، تكملة في كتاب «حقيقة المسيح» ، الذي عرض فيه ما أسماه بحق ميتافيزيقا متركزة حول المسيحية .

وفيما عدا ذلك ، فمن الممكن أن يوصف موقف تمبل الفلسفي بأنه مثالية مطلقة . فإذا ما جردنا هذه المثالية من قيودها اللاهوتية وتعلقها الشديد بالآفلاطونية ، لوجدناها مدينة لبوزانكيت ، ولبراكلى من خلاله ، أكثر مما هي مدينة لأي شخص آخر . وتتضح أولوية هذا التأثير في قوله : إن أمام الفلسفة طريقتين متشعبتين يتعين على أية فلسفة أن تختار بينهما : إما أن تفترض المعقولة الكامنة للكون ( أو على الأقل إمكان تحديده عقليا ) ، وإما أن ترتد إلى مذهب الشك الكامل . فالمعقولة الميتافيزيقية للعالم تتضمن معها مصادرة أخلاقية هي خيريته الكاملة ، فيسفر ذلك عن نظرة متفائلة إلى العالم . على أن من واجبنا أن نعترض على ذلك قائلين إن هذا التفاؤل لا يتغلغل في قلب مشكلة الشخصية ولا مشكلة الشر . فليس فيه مكان للفرد ، واللامعقول ، وكل ما يقاوم القيمة والمعنى ، إلا بقدر

ما يستطيع أن يجمعها كلها بوصفها عناصر مرتبطة بأضدادها أو مظاهر لها .  
والذى يقدمه إلينا حقيقة هو مطلق تختفى فيه كل هذه التميزات  
والأضداد ، دون أن تترك أثرا للعذاب الذى يبعثه اضطراب عالمنا  
الفعلى ، أو للواقف الأليمة التى تتعرض لها حياتنا . فالمذهب المطلق  
يدخل هنا فى مرفأ آمن هو اللاهوت الحسرى فى المحافظ .

وتتضمن محاضرات جيفورد التى ألقاها تمبل بعنوان « الطبيعة  
والإنسان والله ، أدق وأشمل محاولاته لإيجاد أساس لرأيه فى الكون  
ولعرض هذا الرأى . غير أن ما يقدمه إلينا هنا أيضا هو محاولة إيجاد  
تبرير نظرى لمقائد إيمانية سابقة ، أكثر منه برهانا دقيقا مستقلا على  
وجهة نظره . فليس ثمة تغيير أساسى فى موقفه . وتغدو نقطة بدايته  
هنا واقعية : فهو يرفض جميع صور الذاتية الإستمولوجية ، التى يرى أن  
قضيتها « أنا أفكر إذن أنا موجود » عند ديكارت هى المسئلة عنها أولا .  
ففى المعرفة لا يكون العقل معنيا بذاته — وبأحواله الخاصة بوصفها موضوعات  
حاضرة — وإنما بعالم يقف فى مقابله بالفعل . وهو يصف هذه الواقعية  
أيضا بأنها « دىالكتيكية » ، ويؤدى تطويره لعمليتها الديالكتيكية ، والمكان  
البارز الذى يوليه للذهن ، إلى إضفاء طابع هيكلى متزايد عليه ، يُعد أوضح  
مظاهره الخارجية تأكيد تمبل الدائم لصلته الوثيقة بأستاذه القديم ،  
إدوارد كيرد ، الذى يهذى هذا المجلد إليه ، وكذلك إشارات المتعددة إلى  
جوزانسكيت ، الذى يتفق مع ميتافيزيقاه اتفاقا عاما ، على الرغم مما بينهما من  
اختلافات فى التفاصيل . وتبلغ العملية الديالكتيكية قمتها فى مذهب  
الوهمى ، وفى نظره إلى الكون على أن له « طابعا مقدسا » . والواقع  
أن المذهب الذى يعرضه تمبل هنا آخر الأمر هو واحد من أروع ما أنتجه  
الفكر الإنجليزى الأخير من التعبيرات عن مذهب الألوهية المسيحى ،  
معروضا من وجهة نظر مثالية قبل كل شيء .

## القسم الثامن

### مفكرون قرييون من المثالية

سيمون سمرفيل لورى Simon Somerville Laurie

( ١٨٢٩ - ١٩٠٩ )

[ تعلم في إدنبره ؛ وكان أستاذ التربية بجامعة إدنبره .

مؤلفاته : « في فلسفة الأخلاق On the philosophy of Ethics » ، «  
١٨٦٦ ؛ « الميتافيزيقا الحديثة والقديمة ، عود إلى الثنائية Metaphysica Nova et  
Vetusta, a Return to Dualism » ، ١٨٨٤ ( الطبعة الثانية ، مزيدة .  
بتوسم ، ١٨٨٩ ) وقد ظهر هذا الكتاب والسكتب التالية باسم مستعار هو « سكوتس  
توفانتيكوس Scotus Novantius » ؛ « علم الأخلاق ، أو أخلاق العقل  
Ethica, or the Ethics of Reason » ، ١٨٨٥ ( الطبعة الثانية ، مزيدة كثيرا ،  
١٨٩١ ) ؛ « أفكار تركيبة ، أو تأملات إبستمولوجية وأنتولوجية : Synthetica  
Being Meditations Epistemological & Ontological » ( محاضرات  
جيفورد ) ، في مجلدين ، ١٩٠٦ ؛ وكذلك مؤلفات في التربية نظريا وعمليا .  
انظر كتاب : فلسفة س. س. لورى La philosophie de S. S. Laurie ،  
تأليف ج. ريماكل G. Remacle ، ١٩٠٩ ] .

انبثقت فلسفة المفكر الاسكتلندي لورى من ذهنه الخاص كلها  
تقريبا ، ومن ثم فلا يمكن أن يدرج تحت أية فئة عامة مألوفة إلا بشيء .  
من التجاوز . وقد أسماها هو ذاته « عوداً إلى الثنائية » ( وهو العنوان  
الفرعي لكتابه : الميتافيزيقا ) ، غير أن غموض تفكيره وعدم إمكان  
النفاد إليه ، يجعل من العسير على المرء أن يقرر إن كان الاتجاه التوحيدي  
أو الاتجاه الثنائي ( وهناك اتجاه تعددي أيضاً ) هو الأغلب لديه . كذلك  
أطلق على مذهبه اسم « الواقعية الطبيعية » ، وهي تسمية تصدق على نقطة بدايته  
الإبستمولوجية ، التي تقترب عن وعي من موقف ريد ، غير أنها لا تطبق .

بمحال على بقية تفكيره ، أو على تفكيره منظوراً إليه في كليته ، ومع ذلك  
ففي إمكاننا ، دون إجحاف ، أن ندرجه ضمن الحركة المثالية الجديدة ،  
حتى لو لم يكن من الممكن القول إن لورى ذاته قد انجرف في هذا التيار ..  
فهناك قطعاً روابط تجمعها بكات وشليج ، وقبل هؤلاء جميعاً بهيجل ،  
الذى كانت له بتفكيره معرفة مباشرة .

غير أن لورى يظل هو نفسه فحسب ، ويتسم بصفة الاستقلال هذه أكثر  
من أى مفكر إنجليزى آخر في عصره ، لذلك كان من الواجب فهم مذهبه  
في ضوءه الخاص . فهذا المذهب أشبه بمناجاة ذاتية ، ومحادثة بينه وبين  
نفسه ، بحيث لا يصغى إلى الآخرين ولا يسير بناء على أى اتصال سابق  
بالغير . ولهذا السبب لم يكن له صدى بين شعبه ، وإنما تبدد صوته في الهواء .

ولقد حاول داعية وحيد متحمس له ، هو ج . ريماكل ، أن يذيع  
آراءه في فرنسا وبلجيكا عن طريق ترجمة مؤلفاته وعرضها ، ولكنه  
لم يجد أية استجابة . وليس في هذا كله ما يدعو إلى الدهشة ، نظراً  
إلى صفات الغموض والهوائية والغرابة والأصالة التى كان يقسم بها تفكيره  
وطريقة تعبيره بها . فقد استحدث لنفسه مصطلحاً خاصاً به ، نحت فيه  
الألفاظ بجرأة ، واستخدم الكلمات بصور غير مألوفة ، لا تُعين  
القارى على الفهم بأية حال : وهو يذكّرنا بهيجل في ثقل وطأة تركيباته  
والفاظله بها . وهكذا كان تفكيره وعراً قاسياً ، تماماً كتضاريس بلاده .  
اسكتلندا ، غير أننا لا نكاد نجد واحداً من معاصريه يفوقه أو حتى  
يدانيه في القوة أو الجرأة التأملية فيما وراء حدود التجربة ، وفي الميل  
إلى بناء المذهب والقدرة عليه . وفي الوقت ذاته لا يصادف المرء  
إلا في أحوال نادرة ، مثل حالة فوست Fawcett ( لكن على مستوى  
أدنى بكثير ) ، مثل هذا الخيال الحالم والإغراب المصحوب بعمق صوفي ..

والواقع أننا لو قسناه بالمعيار المألوف لدى الناس عن الفلاسفة الإنجليز ،  
لما وجدنا سمة واحدة تجمع بينه وبينهم ، ولا حسنا بأنه مفكر ألماني  
هبط مصادفة في أرض إنجليزية .

ونستطيع أن نقول إن الكتابين الأولين ، من بين كتبه الثلاثة  
التي عرض فيها نظرتهم إلى العالم ، وهما الميتافيزيقا ، و الأخلاق ،  
وهما مقدمتان لكتابه الثالث . ففي هذا الكتاب الثالث ، وهو أفكار  
تركيبة ، الذي يتضمن أفكاره الناضجة ، تنجمع كل الأنغام المنفصلة  
في تفكيره لتكوّن سيمفونية ميتافيزيقية قوية رنانة . ويفتح الكتاب  
بما يمكن أن يُعد تاريخاً للوعي ، أو ظاهريات للروح ، ، يصور فيها  
المراحل التي ترتفع فيها الروح ارتفاعاً متزايداً من أدنى مستوى للوعي  
المضوي ، المقيد بالنزوع والإحساس ، إلى تحقيق طبيعتها الحقة . فالمرحلة  
الأولى للوعي هي إحساس خالص لا تنوع فيه ، وهنا لا تكون الذات قد  
تميزت بعد عن كتلة الموضوعات ، وإنما ترقد كالجنين النائم في أحشاء  
وجود له طابع عام غير محدد . ومع ذلك فهي « موجودة » هناك ،  
في صورة بذرية . والمرحلة التالية هي الإحساس ، الذي يتميز بأنه وعي  
بآخر ، نحس به في التجربة على أنه خارجي ؛ فالذات هنا تتلقى منبهات  
خارجية وتدرّكها في صورة غامضة . وهنا تظهر لأول مرة ثنائية الذات  
والموضوع ، وتغدو الذات الحاسة ، بفضل عملية صبغ انطباعاتها بصبغة  
خارجية ، إيجابية لا سلبية فحسب . والمرحلة التي تلي ذلك هي أعلى مراحل  
« الإحساس » . وينعت لوري لهذه المرحلة لفظ « الإحساس المميز attuition » :  
فهو مرحلة تتوسط بين الإحساس بمعناه السابق وبين الإدراك الحسي ، فيها  
تدرك الذات الفروق بين « الأشياء » ، وتميز الواحد منها عن الآخر ،  
« دون أن تتمكن بعد من تحرير نفسها من سيطرة المجال الموضوعي » .  
« فالإحساس المميز ، على حد تعبير لوري ، هو الشعور « بكثرة في وحدة »

وهو : نظرة تركيبية إلى الموضوع ، ، وهو : إحساس بوجود شيء يوضع ، ،  
 بالتفكير أو رد الفعل ، خارجاً عند النقطة التي يرجع إليها أصله ، (١) .  
 وعندما تضاف الإرادة ، التي هي إيجاب محض ، إلى الإحساس المميز ،  
 الذي هو : سلمى إيجابى ، فحسب ، نصل إلى مرحلة الإدراك الحسى  
 perception . وهنا يُدرك الموضوع ، لا على أنه مختلف عن الذات .  
 فحسب ، بل على أنه مقابل لها أيضاً ، ويربط بوحدة الوعي عن طريق  
 فعل التأكيد أو الإقرار ( assertion ) . وهكذا يتحقق الانفصال النهائى  
 بين الذات والموضوع ، وتُبلغ بذلك مرحلة العقل ، إذ يتغير ذكاء  
 الإحساس المميز الحيوانى ، والإدراك الحسى الإنسانى ، عن طريق  
 ظهور النشاط الخالص للارادة ، وهنا تُعتبر حدود مادون العقل ، وتصبح  
 الذات عاقلة بصفة نهائية . غير أن أساس العقل وصورته وماهيته هو  
 الإرادة . فاعلى صورة للوعي هى حدس فوق العقلى ، يُستعاد فيه الطابع  
 الأسمى المباشر للشعور .

ويتصور لورى تقدم الوعي هذا بصورة ديبالكتيكية ، ولذلك فإنه  
 يعرضه على شكل برهان عقلى . أما فى المجلد الثانى ، الذى ينتقل فيه إلى  
 مذهبه فى الله والإنسان ، والذى تبلغ فيه قوته التأملية أعلى مستوى لها ،  
 لانهود إزاء برهان ، وإنما كشف عن أعرق تجارب نفس تبحث عن الله .  
 فهو هنا يخوض مشكلة طبيعة الله من جميع أوجه التجربة البشرية ،  
 ويسلط عليها أنواراً كاشفة تتجمع فيها ، منبعثة عن الإحساس والإرادة .  
 والعقل . ومن هنا كان ذلك الفيض من الصفات التى تتسابق على شفى  
 هذا الحالم الذى أسكرته رؤيته . فانه هو الكل فى الكل ، والواحد فى  
 الكثير ، والهوية فى الاختلاف ، والشامل ، اللامتناهى ، الأزلى ، وهو .

(١) « الميتافيزيقا » ، الطبعة الثانية ، ص ٦ والصفحة التالية .

جنب الأشياء ومقرها ، وهو العمق الأكبر ، والحب الأعظم والجمال ، والخير ، والحق . غير أنه ، مع ما يتسم به وجوده من هذا الطابع غير المقيد بشرط ، ليس بعيدا عنا . فالإله العالى المحض الذى عرفه مذهب الألوهية الطبيعية ، لا معنى له بالنسبة إلى روح تتحرق شوقا إلى الوحدة الصوفية ، مثل روح لورى ؛ فهو ( على حد التعبير المجازى القوى الذى استخدمه لورى ) أقرب إلى أن يكون إلها ذهب فى سفرة أرغلبه الناس ، وإنما الله حياة وفعل وقدرة خلقة ، فضلا عن كونه وجودا ، ومن هنا وجب أن يتخذ صبغة خارجية ويدخل فى العالم الزمنى ليستقر فى الأرواح المتناهية التى أوجدها . وهذا الخروج عن ذاته هو وحى لخلقاته ( ويستخدم لورى نفسه لفظي utterance و outurance للتعبير عن معنى الخروج عن ذاته والوحى على التوالى ) . كل ذلك ينبغى ألا يفهم على أنه قول ، بشمول الألوهية pantheism ، فالعملية ليست صدورا ، وإنما هى عملية ديبالكتيكية ؛ والمطلق يشمل السلب المحض ، بوصفه جزءا من ماهيته ، وعن طريقه يتكون فى مقابله الوجود ، المغاير له — أى المتناهى والزمنى والفردى — ومع ذلك يظل الله متغلغلا فى هذا الوجود المغاير ومشملا عليه ، بحيث إن الشخص المتناهى يظل محتفظا بفرديته ، حتى فى الوحدة الصوفية مع الله ، التى يصفها لورى بلغة كلها وجد وشوق .

أما آراء لورى فى الإنسان فترجع إلى رأيه فى المراحل الثلاثة للوعى . فليس فى وسع الإنسان أن يظل فى مرحلة الإحساس المميز ، التى يكون فيها الإنسان مجرد مركب حيوانى من رغبات ونزعات وإحساسات جزئية . فلما كان الإنسان قد وهب عقلا ، فإنه يهدف إلى تحويل هذه العناصر غير المنظمة بحيث تدخل فى الوحدة العاقلة لشخصية أخلاقية . فالتجربة البشرية هى ديبالكتيك للإرادة ، مادامت تنطوى أساسا على شوق إلى المثل الأعلى والمطلق . ومن يخفق فى مسابقة هذا الديبالكتيك



الإرادى يهبط إلى مرتبة أدنى ؛ أما من يسايره ويحقق ذاته الحققة ، فإنه يشارك — حتى فى أثناء خضوعه لقيود الزمان — فى الحياة الأزلية لله ، ويصطفيه الله ليكون زميلا له فى تحقيق غاياته الأزلية : ذلك لأن الله فى هذا العمل محتاج إلى الإنسان .

وعند هذه النقطة يجمع لورى خيوط خطته الطموحة ليصل بها إلى قمة شائخة : فالعنصر السلبي للأشياء يعود إلى الظهور ثانية فى صورة الشر . والشر هو : إخفاق الإله الخلاق فى تحقيق المثل الأعلى للفرد والشكل على مستوى الوجود الذى يشغله الإنسان<sup>(١)</sup> . ولا شك أن من المفزع الكلام عن إخفاق الله . ولكننا عندما نفكر فى الشر ، وفى العنصر اللامعقول فى العالم ، وفى « اللالدائمة everlasting No » ، (وبأخذ لورى هذا التعبير عن كارليل ) ، نضطر إلى أن نطرح جانبا التعبيرات المريحة التى ألفها العرف السائد . فلا يمكن أن يكون الألم والشقاء والخطيئة عناصر تنتمى إلى خطة الخالق . لذلك نضطر إلى أن نفترض أن المبدأ السلبي قد أثبت ، على نحو ما ، أنه أقوى من أن يتغلب عليه الله . وإذن فالشر حقيقة فى نظام الكون . ولابد ، بهذا الوصف ، أن يكون مصدره هو الله ، وإسكنه لا يمكن أن يكون قد أتى عن طريقه . وهكذا يتقدم لورى إلينا — كما فعل الكثيرون من معاصريه — بفكرة إله محدود ، تقابله صعوبات محيرة ، ويعانى هو ذاته من خلقه ، ويسعى إلى التغلب على نواحى النقص فيه ، ويحتاج من أجل نجاح مسعاه إلى مساعدة الإنسان . وبهذا المعنى تكون الموجودات المتناهية شريكاً لله فى الألم ، وفى العمل والجهد . بل إنها ، على الرغم من تناهيها ، ترتبط بالله إلى حد يتعين معه أن نفترض خلودها . « فالإنسان الذى يصبو ، فى هذا المكان والزمان ، إلى الوحدة مع الله ، يجعل من نفسه ، لهذا

(١) « أفكار تركيبية » ، المجلد الثانى ، ص ٢٨٦ .

السبب ذاته ، خالداً ، بقدر ما يُدجج روحه المتناهية في حياة الروح الأزلية ذاتها ، ويتجرف في تيار ذلك الذي لا يموت ، .<sup>(١)</sup> فالإنسان إلهي بقدر ما يكون إنساناً ، أو بقدر ما يكون كائناً عاقلاً ، وبالتالي لا مفر له من المشاركة في الحياة الإلهية . وهذا هو ضمان الخلود الذي لا يمكن أن يمدنه به البحث التجريبي بطبيعة الحال .

١ . دوغلاس فوست E. Douglas Fawcett

( ولد في ١٨٦٦ )

[ كاتب متفرغ ، عاش معظم حياته في سويسرا .

مؤلفاته : « لنز الكون The Riddle of the Universe » ، ١٨٩٣ ؛ « الفرد والواقع The Individual & Reality » ، ١٩٠٩ ؛ « العالم بوصفه تخيلاً The World as Imagination » ، ١٩١٦ ؛ « التخيل الإلهي Divine Imagining » ، ١٩٢١ ( تكملة للكتاب السابق ) ؛ « المذهب التخيلي Imaginism » مقال في كتاب « الفلسفة الإنجليزية المعاصرة » ، لشره مويرهيد ، المجموعة الثانية ، ١٩٢٥ ( وهو هنا يفند كتابيه الأولين ) ؛ « محاورات زرمات » ، وفيها معالم فلسفة في التصوف The Zermatt Dialogues, constituting the Outlines of a Philosophy of mysticism [ ١٩٢١ ] .

يقف تفكير فوست بمعزل عن الفلسفة المصطنعة بالمعقولية ، مثلاً ظل هو نفسه بمعزل عن الحياة الأكاديمية . فهذا التفكير يمثل مطا من الفلسفة نادراً نسبياً في إنجلترا ، ولكنه شائع نسبياً في البلدان الأخرى . ونستطيع أن نطلق عليه اسم « المثالية الخيالية Fanciful Idealism » . مستخدمين نفس التسمية التي استخدمها كانت ، دون أن يكون لها مبرر كبير ، للإشارة إلى مذهب باركلي ، فهو واحد من أولئك الذين « يشيدون قصوراً فكرية متعددة في الهواء » ، مسعيرين تعبيراً آخر لكانت ،

(١) « أفكار تركيبية » ، المجلد الثاني ، ص ٣٨٧ .

ويخلقون فوق التجربة عاليا . وكما يدل عنوان كتابين من كتبه المتأخرة (١) فهو ينسب إلى الخيال دورا أساسيا ، جاعلا منه الملكة الفلسفية على التخصيص ، بل أساس الحقيقة ذاتها . فالخيال هو مبدؤه الميتافيزيقي الأول . والعالم ليس إرادة أو حضورا لتمثلات أو عقلا ، وإنما هو تخيل خلاق . وهو يدرك ، إذ يطلق على موقفه العام اسم « المذهب التخيلي » ، أنه يقف موقف المعارضة الشديدة لفكرة الشمول المنطقي عند هيجل ، ويمضي في كراهيته للعقل إلى حد أنه قال في أحد المواضع ، بشيء من التباهي . وهكذا تخلصنا من العقل ، (٢) . والحق أن فلسفته ، وإن لم تكن قد تخلصت من العقل تماما ، هي نتاج لذلك الخيال الأدبي الذي اتخذت منه مبدأ أول للأشياء جميعا .

وعلى الرغم من تفاخر فوست بمجدّة آرائه ، فقد كان يدرك تمام الإدراك أن هناك فلاسفة آخرين سبقوه في هذا المضمار . وكان يشير إلى آرائهم على الدوام . فإلى جانب مانجده عند كانت من ميل طفيف في هذا الاتجاه ، نجد الخيال المنتج يظهر لأول مرة بوصفه نشاطا لامتناهيا عند فشته ، ثم يظهر بعد ذلك في تفكير واحد من أنصار « التومية الجديدة » New Thomism ، هو فروهشامر Frohschammer (٣) أما بالنسبة إلى المفكرين المتأخرين ، فإن فوست يشعر بأن أقربهم إليه هو برجسون ، بفكرته في الحدس والتطور الخلاق ، كما تجمعها ارتباطات أقل وثوقا بهوايته ، وما كنزي ، وشيلر . على أن تفكيره ، في تركيبه الباطن — أو على الأصح في رؤياه — كان أقرب إلى موقف لوري . الذي كان يمثله

(١) لم يعد فوست يعترف بكتايبه الأولين الذين صدرت في ١٨٩٣ ، ١٩٠٩ .

(٢) « العالم بوصفه تخيلا » ، ص ٢٠٤ .

(٣) في كتابه « الخيال بوصفه المبدأ الأساسي للعجلة الكونية Die Phan-

tasie als Grundprinzip des Weltprozesses » (١٨٧٧) .

( م . — ٢٠٥ الفلسفة )

في شطحائه التأملية ، منه إلى تفكير أى معاصر آخر له . ومع ذلك فقد كان يفضل ، كما هو متوقع ، أن يتجه إلى الشعراء ، بوصفهم أناساً أقدر على الرؤية المتعمقة في الأشياء من الفلاسفة . ففي نظره أن وليم بليك W. Blake هو « شاعر المذهب التخيلي » ، كما كانت أشعار شيلي ، المبينة على فكرة شمول الألوهية ، مصدراً آخر مألوفاً لأفكاره .

ويسمى فوست ، الذى كان على استعداد دائم لنحت ألفاظ جديدة ، ماهية الحقيقة باسم « المتخيلة imaginal » ، للدلالة على نشاط واسع يبعد الخيال أقرب نظير بشرى له ، وهو ينحت لها لفظاً آخر ، هو لفظ « consciring » . فهو نشاط لامتناه ، يجمع بين خلق كل ما في العالم وحفظه ، وبين إنتاجه وإكثاره . وما الطبيعة إلا مرحلة في عملية الخلق الكلية ، فهي مغامرة أو محاولة إلهية ، إن جاز هذا التعبير ، والقوى الدافعة لها هي القوى الجديدة ، العَرَضية ، الدينامية الخلاقة ، لا التحديد العَلّى بما فيه من تماثل دائم ، وهكذا فإن عالم الفيزياء ليس عالماً حقيقياً ، وإنما هو عالم تصورى فحسب ، وهو طيف بلا قوام ، إذا ما قارناه بعينية العالم الواقعى وامتلائه وتنوعه اللامتناهين .

وهو ينظر إلى المرحلة الأصلية للوجود على أنها انسجام سكونى محكم ، وعلى أنها كل لا يتغير ، لا يوجد فيه من كل شيء إلا بذرة . ويسمى فوست هذه المرحلة باسم « المتخيل العظيم the great imaginal » . ومنه يظهر بضربة واحدة ، النظام الطبيعى ، الذى تكتسب فيه الأشياء تنوعاً ، ويقابل بعضها بعضاً ، وتدخل في التعاقب الزمنى . على أن هذه العملية تعكس الانسجام الأصلى ، وهى « سقوط ميتافيزيقى » ، أو كما كان شوبنهاور خليقاً بأن يسميها ، جريمة الفردانية ، وهكذا يسعى المبدأ الكونى إلى الهروب من هذا الرجوع إلى الزمان ، واستعادة انسجامه . فالنظام الحالى للحوادث هو ساحة تتصارع فيها القوى التى تعمل على الإخلال

بأن النظام ، وتلك التي تعمل على بعث الانسجام . ولا بد أن يكتب النصر للأخيرة ، لأنها هي التي تضي على العملية الكونية معناها ، أي تطورها الخلاق ، وصمودها إلى مستويات أعلى للوجود . وفي هذا الصعود ، الذي هو عودة الأشياء إلى قلب الوجود كله ، يكون الخلاص من كل نقص وتناقص وشر . إن العالم الذي نحيا فيه مليء حقاً بالآلام والحاجة والخطيئة ، غير أن لنا الحق في أن نفترض أنه قادر على تحسين ذاته ، وأنه سيعمل بالتدريج وبمضى الوقت ، على مساعدة الخير على الانتصار .

إرنست بلفورت باكس Ernest Belfort Bax

( ١٨٥٤ - ١٩٢٦ )

[ كاتب ، وعام ، اشترك في تأسيس العصبة الاشتراكية مع ولیم موريس .

مؤلفاته : « مشكلة الواقع The Problem of Reality » ، ١٨٩٢ ؛ « جذور الواقع The Roots of Reality » ، ١٩٠٧ ؛ « مشكلات الإنسان والذهن والأخلاق Problems of Man, Mind & Moral » ، ١٩١٢ ؛ « الواقعي ، واللغوي ، والمنطقي The Real, The Rational & the Logical » ، ١٩٢٠ ؛ « تحليل الواقع The Analysis of Reality » ، في « الفلسفة الإنجليزية المعاصرة » ، نشره مويرهيد ، المجموعة الثانية . ١٩٢٥ ؛ وله أيضاً ترجمات لمؤلفات كانت وغوبنهور ، وكتاب مدرسي في تاريخ الفلسفة ، ومؤلفات في الاشتراكية .

انظر ترجمته الذاتية لحياته ، بعنوان : « ذكريات وخواطر شخص ينتمي إلى أواسط العصر الفكتوري وأواخره Reminiscences & Reflections of a Mind » [ ١٩١٨ ، & Late Victorian .

تتحقق في باكس دعوة جرين للجيل الجديد في العقد الثامن من القرن الماضي إلى الانصراف نهائياً عن تعاليم مل وسبنسر ، والتحول إلى مؤلفات كانت وهيجل . ففي شبابه كان يلتزم تماماً نطاق المذهب التجريبي عند ليويس وين ومل وسبنسر ، كما حضر اجتماعات الوضعيين . وبعد ذلك تعرف إلى إدوارد فون هارتمان في رحلة إلى ألمانيا كان لها

أثرها الحاسم في حياته ، فأسفر ذلك عن دراسة عميقة المثالية الألمانية في صورها المتعددة ، أقنعتة بأن طبيعة الفلسفة الإنجليزية التقليدية سطحية لا أساس لها . هذا التحول الأساسي ، الذي نجم عن اتصاله المباشر بخالق المثالية نفسها ، أكثر مما نجم عن اتصاله بأنباعها من الإنجليز ، قد حدث في بداية العقد التاسع ، وقضى باكس بقية حياته مثاليا . فبذلِكَ الحين ، أصبحت ألمانيا بالنسبة إليه وطنًا روحيا ، كما كانت من قبل بالنسبة إلى كارليل ، وكما كانت في نظر معاصره هولدين .

وكان باكس يرى أن القضية الأساسية في المثالية هي المبدأ القائل إنه لا يمكن أن توجد حقيقة خارج كل علاقة بالوعى . والوعى مركب لا ينقسم ، يتألف من عوامل ثلاثة هي : « هذا is that » ، الذي يدرك ، « وشيء somewhat » ، هو الذي يُدرك ، وصورة الفكر ، التي هي علاقة متبادلة بين العاملين السابقين . وهكذا تألف التجربة العينية أو الحقيقة من عاملين على الأقل ، أحدهما مادي والآخر ضوئى ، بحيث تكون وحدة الاثنين هي أساس موضوعية الفكر . وإذا تأملنا الأمر من منظور أوسع ، لقلنا إن الثنائية الأولية للواقع تبدو على أنها هي التقابل بين المعقول واللامعقول ، أو كما يفضل باكس تسميتها ، المنطقى واللامنطقى . وليس معنى ذلك أن هذين يحدثان ، أو يمكن أن يحدثا ، منفصلين في التجربة العينية ، وإنما هما قابلان للتمييز الواضح بالمعنى الحقيقى ، أى بمعنى أن أحدهما يسود في مراحل معينة للواقع والآخر يسود في مراحل أخرى . فإلى العنصر المنطقى ينتمى كل ما يقع فى مجال الفكر والعقل . أما اللامنطقى فيوصف بأنه هو الإحساس الخاضع ، وهو الزوج والقوة الدافعة فى كل حركة وتغير . فالأول يمثل الأوجه السكونية الكلية

اللامتناهية للواقع ، والثاني يمثل النواحي الحركية والجزئية والمتناهية .  
الأول إمكان ، والثاني واقع ، والأول قانون ، والثاني اتفاق .

ونستطيع ، باستخدام لغة ريكتر Rickert ، أن نصف تفكير  
باكس بأنه « متغاير الأسس heterothetic » ، إذ يبدأ بتأكيد الواحد  
والآخر . فالأثنان معاً هما اللذان يؤلفان الواقع كله ؛ والتخلّي عن أى  
منهما لا يدع شيئاً سوى التجريد الخاوى . وفي رأى باكس - وهو رأى  
غير صحيح - أن طرح العامل اللامنطقي جانباً هو السمة والمغالطة المميزة  
لفلسفة هيغل . ذلك لأن معارضة باكس لأى مذهب واحد من  
هذا النوع ، وهى المعارضة التى رأى أنها هى مهمته الرئيسية ، قد جعلته  
يميل إلى الانتقال إلى الطرف المضاد الآخر ، بحيث أضفى على العامل  
اللامعقول القيمة الميتافيزيقية العليا . فهو يعرض العملية السكونية على أنها  
صراع مستمر بين المبدأين ، بحيث يسعى المنطقى على الدوام إلى قهر  
اللامنطقى ، ولكنه لا ينجح أبداً فى ذلك نجاحاً كاملاً . وهكذا يميل إلى أن  
يفسب إلى اللامنطقى مركزاً مطلقاً ، وينتهى ، بعد التوحيد بينه وبين  
الإرادة ، إلى مذهب فى شمول الإرادة panvoluntarism يشترك فى نقاط  
كثيرة مع مذهب شوبنهاور . وإلى هذا الحد نراه ينحى الصراع القديم الذى  
احتدم داخل المثالية الألمانية بين مذهب هيغل ومذهب شوبنهاور .  
وفى الوقت ذاته أدى به النظر إلى المطلق على أنه إرادة ، إلى معارضة فكرة  
برادلى وبوزانسكى عن النسق التام الاكتمال ، الذى يظل محتفظاً  
بأنسجامه السكونى الهادئ من فوق كل ما تنصف به الأشياء من عدم  
استقرار وتنافر . فالمطلق عند باكس هو حركة دينامية ، وصيرورة  
مستمرة ، وهو تطور دائم التقدم ، ولكنه غير متجانس ، نحو تحقيق  
الوعى الذاتى لنفسه . وتلك صورة تحمل طابع فكرة الإرادة عند  
شوبنهاور والمدة عند برجرسون .

ويتبدى التقابل الأساسى داخل الواقع ، فى مجال الأخلاق ، فى صورة .  
التقابل بين الخير والشر . ولكن عندما انتقل با كس إلى عرض تفاصيل  
هذا التطبيق لمبدئه الميتافيزيقى العام ، تناقض على نحو غريب مع مذهبه  
الميتافيزيقى : إذ يظهر لنا ، فى هذا المجال ، أن الخير ، لا الشر ، هو العامل  
الأقوى . صحيح أن الشر لا يمكن أن يُقضى عليه تماما ، بل ينبغى أن  
يظل إمكانه على الأقل قائما على الدوام ، غير أن الشر العينى ، كما نعرفه ،  
حابر ، ولا بد أن يقهره الخير ويخوه . وإذن فى العملية الكونية ميل أصلى .  
نحو التحقيق الظافر للخير ، وفى التجربة ترجح كفة الخير على الشر دائما .  
فالهدف هو الخير ، بحيث لا يظل الشر قائما إلا من حيث هو إمكانية فارغة .  
وهنا ينزل با كس على الرغم منه إلى مياه التفاؤل الضحلة عند هيجل وبراڤلى ،  
ملتفأ بسفينته ، دون اهتمام بما يقع فيه من تناقض ، حول صخور تشاؤم .  
شوبنهور ، وهى الصخور التى لو كان قد استرشد ببوصلته الميتافيزيقية ،  
لتحطمت سفينته عليها تماما . ولنتحدث بلغة مجازية أخرى ، فنقول إنه .  
عقد زواجا غير موفق تماما بين اللامعقواية الميتافيزيقية وبين التفاؤلية .  
أو بين مبدأ أسامى عند شوبنهور وبرجسون ، ومبدأ أسامى لا يقل  
عنه أهمية عند هيجل وبراڤلى .

أما نظرية المعرفة عند با كس ، التى لا يتسع المقام هنا لعرضها ،  
فتسير فى عمومها فى اتجاه كانت . كما أن فلسفته فى تحقيق الإنسان لنفسه .  
روحيا ، ترتكز على نظرية فى القيم يلج إليها أكثر مما يعرضها صراحة ،  
وهى تلتقى فى نقاط متعددة مع أفكار فندلبانت وريكرت . أما فلسفته  
فى المجتمع فهى ترتبط بالماركسية ، كما يتوقع المرء من دفاعه الحار عن  
الاشتراكية ، وإن يكن يفسر الماركسية تفسيرا مثاليا ، ويرفض بذلك ،  
نظرية ماركس المادية فى التاريخ .



والواقع أن الاستقبال الذي لقيته أفكار با كس لا يتماشى مع قيمتها على الإطلاق . فلم يكن له تأثير يستحق الذكر ، كما أن الفلاسفة الأكاديميين كانوا يجهلون تقريباً . ولما لم يكن قد درس أو درس في جامعة ، وإنما سار في طريقه الخاص ، فقد ألقى نفس مصير الكثيرين غيره من الدخلاء . فقد نظرت إليه الأوساط الجامعية المقلقة على نفسها باستياء ، فأحس مثل شوبنهاور ، الذي كان يشترك معه في نقاط كثيرة ، بشيء من السخط على « الفلسفة الاحترافية لأساتذة الفلسفة » (١) .

رينهولد فريدرش ألفرد هورنلي

Reinhold Friedrich Alfred Hornlé

(ولد في ١٨٨٠)

[ تعلم في كلية باليول بأكسفورد ؛ وكان من ١٩٠٥ إلى ١٩٠٧ محاضراً في الفلسفة بسانت أندروز ؛ ومن ١٩٠٨ إلى ١٩١١ أستاذاً للفلسفة في كيب تون ؛ ومن ١٩١٢ إلى ١٩١٤ ؛ وكذلك من ١٩٢٠ إلى ١٩٢٣ أستاذاً للفلسفة في فيوكاسل ؛ ومن ١٩١٤ إلى ١٩٢٠ أستاذاً مساعداً للفلسفة في جامعة هارفارد ؛ وفي ١٩٢٣ أستاذاً للفلسفة في جوهانسبرج .

مؤلفاته : « دراسات في الليتافيزيقا للعاصرة » ، ١٩٢٠ ؛ « للمادة والحياة والقياس واقع . Matter, Life, Mind & God » ، ١٩٢٣ ، « نحو فلسفة جامعة On the Way to a Synoptic Philosophy » ، مقال في كتاب « الفلسفة الإنجليزية للعاصرة » ، لفره مويرهيد ، المجموعة الثانية ، ١٩٢٥ ؛ « المثالية من حيث هي فلسفة Idealism as Philosophy » ، ١٩٢٧ ] .

كان هورنلي ، مثل مرتس Morz ، ألمانيا في أصله وفي تعليمه الأول ، واسكنه كان مواطناً إنجليزياً ، وكان أول معلم فلسفي له ، وهو طالب بكلية باليول بأكسفورد ، هو إدوارد كيزد ، فاكسب منه أول ميوله

(١) يرجع جزء كبير من مواقع هذه العبارة إلى التقارب اللفظي ، في اللغة الإنجليزية .

بين لفظي : « الاحترافي professional » ولفظ « الأساتذة professors » .  
[ المترجم ]

الفلسفية . ولقد عمل بضع سنوات مساعدا لبوزانكيت في سائعه .  
أندروز ، فبدأت بينهما صداقة دامت حتى وفاة بوزانكيت .

وكان تأثير بوزانكيت في هورنلي أعظم من تأثير أى مفكر آخر فيه : « فبقدر ما أستطيع أن أحكم ، أجد نفسى مدينا له بالإطار الاساسى لتفكيرى الفلسفى الخاص ، أكثر مما أدين به لآى كاتب آخر على حدة ، <sup>(١)</sup> على أنه ، باستثناء ذلك . لم يكن مقيدا بأية مدرسة بعينها أو بأى اتجاه خاص ، وإنما كان جهده موجها إلى الانتفاع من أذهان متعددة فى سبيل هدف مشترك ، محاولا أن يحقق ما أسماه بوزانكيت « بالتقاء الأضداد فى الفلسفة المعاصرة » . وكان يسعى إلى ما أسماه - مقتديا بمرتس Merz - بالنظرة الجامعة ، أو الموقف الجامع ، وهو الجمع فى التفكير بين كل الأوجه المختلفة للتجربة فى كل منظم . وهو ينظر إلى الروح الفلسفية على أنها ، فى أعلى تعبير عنها ، روح الكل ، بحيث إن التفلسف ما هو إلا تليس التفكير طريقه إلى موقف عقلى من الكون فى مجموعه . على أن ذلك يعنى فى نظره أن يضيف المرء إلى المذاهب المرجودة مذهباً آخر ، يُحدد فيه لكل شئ مكان ثابت : فليس جمود المذهب هو المطلوب ، وإنما المطلوب هو اتساق الموقف ، دون قيد بمدرسة أو تبعية لعقيدة .

ويظل موقف هورنلي الجامع ساريا فى معالجته للمشكلات الخاصة . فلتتناول ، على سبيل المثال . مشكلة الكلليات أو تصورات الفئة : فهو ، كالهيجلين ، يعدها عينية لا مجردة . وهى لا تمثل فقط إدراك عدة أشياء على أنها متماثلة ، بل أيضا إدراك فروقها الفردية فى سياق متماثل ،

(١) تصدير كتاب « دراسات فى الليتافيزيقا المعاصرة » . ويحوى كتاب مويرهيد : « بوزانكيت وأصدقاؤه » ( ١٩٣٥ ) رسائل متعددة من بوزانكيت إلى هورنلي ، تلقى ضوءا كبيرا على التفكير الفلسفى وعلى نموه عند الرجلين معا .

بحيث يمكن تطبيقها أيضا على المراحل المتعددة لسلسلة نامية (developmental series) بل على صور القيمة المثالية . وهكذا فإنها لا تمكّن من قيام الأحكام الوصفية والتصنيفية فحسب ، بل تمكّن من قيام الأحكام المعيارية أيضا .

ولما كان مركز هورنلي قد أتاح له أن يوسع نطاق تفكيره ويسير فيه بحرية ، فقد أخذ عن التفكير المعاصر واستوعبه كما وجده إلى حد بعيد . وكان موقفه العام مثاليا بمعنى أنه تأملى موجه إلى الكل . أما تعاليمه فلا تتميز في جميع أجزائها بالمثالية ، وليست كذلك بالضرورة ، وإنما تحوى عناصر مستمدة من أشد المذاهب والاتجاهات تباينا ، وخاصة تلك التى كانت موجودة في العالم الأنجلو سكسونى في أيامه — ففيها عناصر من برادلى وبوزانكيت وغيرهما من المثاليين ، ومن فلسفة الطبيعة عند هويتهد ، ومن نقد بروود Brood ، للآلية ، ومن فلسفة ج. س. هولدين J. S. Haldane البيولوجية ، ومن النزعة الكلية Holism ، عند سمطس Smuts ، ومن الصورة الخاصة التى اتخذها المذهب السلوكى عند هولت Holt ، ومن فلسفة الدين عند وب ؛ كما أن فيها عناصر من مينونج Meinong و هوسرل وبرجسون . ففكره تلفيقى توفيقى ، وهو ، كأي مذهب تلفيقى ، جذاب أكثر بما هو محكم ، ومتقبل سليا أكثر بما هو أصيل ، ومركب صناعيا أكثر بما هو خلاق .

هربرت ولدن كار: Herbert Wildon Carr

( ١٨٥٧ — ١٩٣١ )

[ كان في ١٩١٨ أستاذا للفلسفة في « كينجر كوليدج » ، بلندن ، وفي ١٩٢٥ أستاذا بجامعة كاليفورنيا الجنوبية بلوس أنجلوس .

مؤلفاته : « مشكلة الحقيقة The Problem of Truth » ، ١٩١٣ ، « مبدأ

النسبية العام في وجهها الفلسفي والتاريخي - The General Principle of Relativity in its Philosophical & Historical Aspect ، ١٩٢٠ ( الطبعة الثانية ، ١٩٢٢ ) ؛ « نظرية في القدرات الروحية ، معالم فلسفة لبدأ النسبية A Theory of Monads, Outlines of the Philosophy of the Principle of Relativity ، ١٩٢٢ ؛ النظرية العلمية إلى الفلسفة ، مقالات وتعليقات مختارة The Scientific Approach to Philosophy, Selected Essays & Reviews ، ١٩٢٤ ؛ « المثالية بوصفها مبدأ في العلم والفلسفة Idealism as a Principle in Science & Philosophy » مقال في « الفلسفة الإنجليزية المعاصرة » ، لشهره ، وبرهيد ، المجموعة الأولى ، ١٩٢٤ ؛ « الأسس للتفكير في الدين والأخلاق Changing Backgrounds in Religion & Ethics ، ١٩٢٧ ؛ « المركز الفريد للإنسان The Unique Status of Man » ، ١٩٢٨ ؛ « مشكلة الإرادة الحرة The Freewill Problem » ، ١٩٢٨ ؛ « أفكار تأملية Cogitans Cogitata » ، ١٩٣٠ ؛ وكذلك ترجمات لينتس وبرجسون وجنتيلي Gentile ، وكتابات من الأولين وعن كرونتش . وقد نشرت بعض مؤلفاته في مجلة دورية أمريكية هي « The Personalist » ، المجلدات من ١٥ إلى ١٧ . [ ( ١٩٣٦ — ١٩٣٤ ) ] .

لا تكاد مثالية « ولدن كار » ترتبط على أي نحو بالكاتين والهيكلين الإنجليز : فهي تستلهم مصادر أخرى وتستمد محتواها منها . ولقد كان مجرى حياته ذاته غير « ألوف إلى حد بعيد » ، بل يمكن القول إنه كان مثيراً . فقد كان في البداية كاتباً في البلدية ، ثم في شركة للأمنهم والسندات وحضر في هذه الأثناء دراسات منسائية في « كنجز كوليدج » ، بلندن ، فتولد لديه اهتمام بالفلسفة ( وكان الكتاب المحييون إلى نفسه هم أفلاطون وباركلي وهيوم ) ، وانضم إلى الجمعية الأرسططالية في السنة الثانية من إنشائها ، وسرعان ما أصبح سكرتيرها وواحداً من أبرز أعضائها . وكان قد تجاوز الخمسين من عمره عندما أدى ظرف عارض إلى تنبيهه إلى كتاب برجسون « التطور الخلاق » ، الذي كان قد ظهر حديثاً ، كما وجد أن اهتمامه موزع بين مثالية كرونتشه وجنتيلي من جهة ، وفيزياء أينشتاين .

الجديدة من جهة أخرى . ومنذ ذلك الحين انفجر نشاطه ، وتبدى ذلك في سلسلة ضخمة من الكتابات الفلسفية التي شملت ترجمات ، ومؤلفات للعرض والشرح ، ومحاولات مستقلة لبناء مذهب بناء . وقد شغل أول منصب أكاديمي له وهو في الحادية والستين من عمره ، وهو كرسي الفلسفة بجامعة لندن ، ثم انتقل بعد سبع سنوات إلى كرسي عمائل في أمريكا ، وكرس له السنوات الست الباقية من حياته الغربية الرائعة .

أما نظراته الفلسفية الخاصة ، التي عرضها أولاً في كتاباته النقدية الشارحة ، فقد بلغت صورتها النهائية في كتابه « أفكار تأملية » ، وهو كتاب موجز ولكنه مثقل بالمعاني ، ويتألف الكتاب من مركب من عدة اتجاهات فكرية كان قد استوعبها استيعاباً خارجياً . وقد احتلت ميتافيزيقا برجسون مكان الصدارة بين هذه الاتجاهات ، إذ إن تعرفه إليه لأول مرة كان له فيه تأثير بلغ من العمق حدا جعله يسمى هذا التأثير تحولاً فلسفياً كاملاً . ولقد كان هو أول من دعا إلى البرجسونية في إنجلترا ، وظل أكثر أنصارها تحمساً . وكان يعد صاحبها آخر فياسوف عظيم ظهر في العالم ، ونبي مذهب مثالي جديد في الفعل والخلق . أما المؤثر التالي فأتاه من المثالية الإيطالية التي بذل جهده لكي ينشرها بدورها . وأتى المؤثر الأخير من الفيزياء الجديدة . ففي النزاع الذي نشب بوجه عام بعد الحرب ، حول التفسير الفلسفي لنظرية النسبية ، انضم إلى صفوف أولئك الذين علقوا عليها أهمية كبيرة ، وحاولوا استخلاص نتائجها الفلسفية واستيعابها . وأصبح هدفه الأساسي إيجاد تحالف ودي ، بين الفيزياء الحديثة والميتافيزيقا الحديثة ، وأكد مراراً ، على وجه العموم ، ضرورة التعاطف والتعاون الوثيق بين الفلسفة والعلم . وكان يعتقد أن نظرية أينشتاين تمثل تجديداً وتحقيقاً لمذهب الذرات الروحية عند أيبينس على يد مناهج العلم الحديث ، وأن النظرية الجديدة في الذرة ، ولا سيما نظرية الكم ، لها

أهمية عظمى بالنسبة إلى المثالية لأنها هدمت أساس المادية التوكيدية ،  
التي ارتكزت على فيزياء عني عليها الزمان . ولقد كان تأثير ليننتس عليه  
أقوى من تأثير أى مفكر قديم آخر ، وكان آخر تعبير عن فلسفته  
في كتابه « أفكار تأملية » ، هو في الواقع نظرية في الذرات الروحية ،  
تابع فيها نظرية ليننتس في نواح عديدة هامة . وله كتاب سابق بعنوان  
« نظرية في الذرات الروحية » ، يحاول فيه إيجاد مركب بين ميتافيزيقا  
ليننتس وبين فيزياء أينشتين . أما في نظرية المعرفة فإن موقفه يقترب  
كثيرا من موقف باركلي ، مع استخلاص نتائج تنتمي إلى مذهب « الذات  
الوحيدة » ( solipsism ) ، وهي نتائج لم يتردد في إعلانها صراحة .

ومن الواضح « أن هذه المثالية الجديدة » ، على خلاف القديمة ،  
لم تكذب متأثر بالحركة الفكرية التي بدأت بكانت وبلغت قممها عند هيجل ،  
فهي تشابه المثالية القديمة في مهاجمتها للمادية والحتمية والتطورية وغير ذلك  
من صور المذهب الطبيعي في القرن التاسع عشر ، غير أن هجومها كان  
قائما على القول بأن العلم الجديد في القرن العشرين قد هدم النظريات العلمية  
التي ارتكزت عليها هذه المذاهب . وكان هذا هو السبب الجديد الذي  
قدمه لاستبدال التطور الخلاق بالتطور الآلي ، والحرية والتلقائية  
بالضرورة ، والضرورة بالوجود ، والأفعال بالأشياء ، والحياة بالمادة ،  
والجدس بالذهن المقالى .

وهكذا ينبغي إدراج مذهب كار ضمن « فلسفات الحياة » التي يتميز بها  
« وقتنا هذا » ، والتي أثبت برجسون أنه أروع وأقوى ممثل لها . وتقترب هذه  
« الفلسفة في نواح معينة من البرجماتية » ، وإن لم يكن التقارب معترفا به . أما  
« الصفات التي أدعتها لنفسها فهي أنها مثالية » ( على غرار ليننتس وباركلي )  
« في الميتافيزيقا » ، وإرادية في الأخلاق ، ومجددة في الدين ، ونسبية

في العلم ، وعلى الرغم من كل ما بدا عليها من وحدة ، فقد تأثرت بعمق بكثرة مصادر ها ، التي بلغت من التنوع حدا يحول دون إيجاد أى مركب أصيل بينها . . . وهكذا لم يفلح كار في صهر كل ما وضعه في بوتقته ، فكانت النتيجة ، . . . على أحسن الفروض ، خليطا مركبا . وعلى الرغم مما أداه من خدمات هائلة ، كانت تنطوي على إنكار للذات يصل إلى حد التضحية ، في سبيل إيقاظ الاهتمام الفلسفي ونشر الثقافة الفلسفية ، فمن الواجب النظر إليه على أنه مفكر تلفيقي متمكن ، أكثر منه مفكراً أصيلاً . غير أنه كان أكثر الشخصيات جاذبية وأحقها بالاهتمام من بين أولئك الذين خدموا الفلسفة . وهم هواة .

جون تيودور مرتس John Theodore Merz

( ١٨٤٠ — ١٩٢٢ )

[ولد في مانشستر ، وكان أبوه من أصل ألماني . تعلم في هيدلبرج ، وأصبح في ١٨٦٤ مدرسا في بون ، وشغل في ١٨٦٥ نفس المنصب في جوتينجن ، تحت رئاسة لوتس ؛ وفي ١٨٦٦ استقر في إنجلترا وأصبح نائبا لمدير شركة نيوكاسل للمعدات الكهربائية . مؤلفاته : ليننس ( في مجموعة كلاسيكيات بلاكوود الفلسفية Blackwood's Philosophical Classics ) ، ١٨٨٤ ؛ « تاريخ الفكر الأوربي في القرن التاسع عشر » ، History of European Thought in the XIXth Century ، في أربعة مجلدات ، ١٨٩٦ — ١٩١٤ ؛ « الوجه الجامع لواقع On the Synoptic Aspect of Reality » في « أعمال الجمعية الفلسفية بجامعة درام Proceedings of the University of Durham Philosophical Society » ، المجلد الخامس ( ١٩٢٠ ) ، ص ٤٥ — ٦١ ، وقد قرئ هذا البحث سنة ١٩١٣ ؛ « الدين والعلم » ، Religion & Science ، ١٩١٥ ؛ « نبذة في ذهن البشري A Fragment on the Human Mind » ، ١٩١٩ ؛ وكذلك بضعة أبحاث أقدم مهدا باللغة الألمانية . انظر : « أعمال الجمعية الفلسفية بجامعة درام » ، المجلد السادس ( للاشهرام ١٩١٥ — ١٩٢٣ ) ، ١٩٢٥ ص ٢١٥ — ٢٣٢ ، « ذكريات شخصية عن الدكتور مرتس . Personal Reminiscences of Dr. Merz » ، مؤلفين متعددين ؛ و ص ٢٣٣ — ٢٩٠ . « الأعمال الفلسفية للدكتور ج . ت . مرتس The Philosophical Work of Dr. J. T. Merz » تأليف ر . ف . ا . هورنلي .

كان مرتس ، مثل بلفورت با كس ، د دخيلا ، ؛ فبعد فترة قصيرة من التدريس الا كاديمي ، دخل عالم الصناعة . غير أنه ظل في ميدانه الجديد خلاصا للموضوع الرئيسي لاهتمامه العلمي ، فكان يقضى في دراسة الفلسفة أوقات الفراغ البسيطة التي سمحت له بها مسئولياته الضخمة في أعماله الاقتصادية . ولقد ذكر هو ذاته أن مؤلفه الرئيسي ، تاريخ الفكر الاوربي ، ، الذي يقع في أكثر من ٢٥٠٠ صفحة ، قد كتب معظمه في ساعات الصباح الباكر ، ما بين الساعة الخامسة والثامنة ، قبل أن يبدأ العمل في أعبائه الثقيلة . ولكنه لم ينشج من المصير المألوف لأي مفكر دخيل فلم يلق من الفلاسفة المحترفين ما يستحقه من الاعتراف ، بل إنهم لم ينتهبوا إليه إلا قليلا ، أو لم ينتهبوا إليه على الإطلاق .

ولقد أثبت مرتس في هذا الكتاب أنه مؤرخ ومشيد لمذهب في آن واحد . فهو قد أثبت مقدرته من حيث هو مؤرخ : إذ إن الكتاب إنتاج تظهر فيه المثابرة وسعة الاطلاع التيتونوية بكل وضوح ، ويجمع على نحو موفق بين دقة البحث وبين سعة الأفق والتبصر التاريخي العميق ، فهو عمل من الطراز الأول . وكانت المهمة التي أخذها مرتس على عاتقه هي عرض الحياة الروحية للقرن التاسع عشر ، بكل مظاهرها المتعددة ، في صورة واحدة جامعة ، وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن ينجز مجلدين كان يعتزم إصدارهما عن الأفكار الشعرية والدينية في ذلك القرن ، فإن المجلدات الأربعة المنشورة تكون عملا قويا لم يكتمل ، ودليلا يليغا على مقدرة مؤلفها الفريدة ونشاطه الذي لا يكل .

كذلك وضع مرتس نفسه ، في ميدان الفلسفة ، خططا طموحة ، مستهدفا تشييد مذهب قائم على أسس واسعة ، وهنا أيضا لم يستطع إنجاز خططه وإكمالها . غير أن من الممكن بسهولة إدراك الاتجاه الذي كان يسير فيه تفكيره ، من خلال تلك الأسس التي وضعها بالفعل لمذهبه .



فقد كان التأثير الحاسم على تفكيره هو تأثير الفلاسفة الألمان ، وهو لم يتأثر بكانت وهيجل بقدر ما تأثر بليبنتس وشلير ماخر ولوتسه ، وأهمهم هذا الأخير ، الذى اتصل به شخصيا خلال الفترة القصيرة التى درس فيها فى جوتنجن . وبعد عودته إلى إنجلترا تأثر أيضا بالاتجاهات الفكرية الإنجليزية المميزة ، ولاسيما تلك التى ارتبطت بباركلى وهيوم ، والنوع الجديد من علم النفس الاستبطانى الذى استحدثه وورد وجيمس . أما الحركة المثالية الجديدة فى إنجلترا فلم تكذب تؤثر فيه على الإطلاق .

ولقد كان جهده الأساسى ، الذى عبرت عنه كتاباته التاريخية والفلسفية على السواء منصرفا إلى بلوغ ما أسماه بالنظرة « الجامعة » Synoptic ، إلى الواقع ، بحيث ينظر إلى أى كل ، لا فى كثرة أجزائه وعلاقاته بحسب ، بل فى كليته أيضا . فتلك فى نظره هى المهمة المميزة للفلسفة ، التى ترد لهذا السبب آخر الأمر إلى نوع من الرؤية الفنية ، على الرغم من كل ما فى تفاصيلها من دقة وما فى براهينها من إحكام . ومن هنا كان حرصه على التوفيق بين العلم والدين ، اللذين كان انفصالهما وتنافرهما فى رأيه خطرا يهدد وحدة حياتنا الروحية . ولقد طبق على هذه المشكلة العامة منهجه الجامع ، كما طبقه على عدد من المشكلات الخاصة ، كشكلة العلاقة بين العالم الباطن والعالم الخارجى ، وبين الذات والموضوع ، وبين الواقع والقيمة . وحاول ، مستلهما روح لوتسه ، أن يزيل الشقاق القديم بين حاجات القلب ونتائج البحث العلمى . ولم يكن يحتقر العلم — فقد كان له هو ذاته إلمام واسع بالفيزياء والكيمياء — ولكنه رأى أن كل بحث علمى لا يتعلق بالتجربة أو الواقع من حيث هو كل ، وإنما بوجه محدود جدا له ، متبعا فى سيره مناهج الانتقاء والتجريد والتحليل والتصنيف ، ولا ينتقل إلى مرحلة الإدراك التركيبى إلا فى مرحلة متأخرة . وفضلا عن ذلك فالعلم لا يدرس إلا الوقائع ، لا القيم . أما وجهة النظر الدينية فهي ، على العكس من ذلك ، تدرك التجربة من حيث هى كل ، وتؤكد

الارتباطات الإيجابية الهامة في داخلها ، وتتجاوز الوقائع إلى القيم .  
وتركز اهتمامها على الطابع الشخصي للعالم الخاص الذي تشكلونه القيم ،  
في مقابل العالم اللاشخصي للعلم . والمنهج المتبع في حالة الدين جامع ، موجه  
صراحة إلى كشف لغز الشخصية ، الإنسانية منها والإلهية ، وهي المشكلة  
التي يعجز العلم الطبيعي عن حلها . وفي هذا التأكيد لمشكلة الشخصية  
يقتررب مرتس من لوتسه .

ولقد أدى تطبيق مرتس لهذه النظرة الجامعة على مشكلات علم النفس  
ونظرية المعرفة إلى وقوفه موقف المعارضة الشديدة من هيوم ، الذي كان  
يحمل له مع ذلك احتراماً شديداً ويدين له بالكثير . فقد أوضح أن  
هيوم ، عندما حل الوعي إلى حزمة من الانطباعات تُتصور على مثال  
الذرات المادية ، قد أغفل حقيقة واضحة هي أن الوعي سابق على تحليله ،  
وينبغي أولاً أن يوجد لكي يمكن القيام بأي تحليل له . وهكذا كان مرتس  
متفقاً تماماً مع علم النفس الجديد عند ورود في استعاضته عن الفكرة  
القديمة القائلة بمجموعة مترابطة من المعطيات المنفصلة المفككة ، بفكرة  
المجري المتصل للوعي ، وفي إدخاله للمعطيات الانفعالية والإرادية داخل  
هذا المجري المتصل ، إلى جانب الإحساسات . وقد أدى به التفكير  
في وحدة الوعي إلى القول بأن التنوعات والتمييزات التي تجلبها التجربة ،  
والتجربة وحدها ، تفترض كلها نوعاً من الوعي ، الأولي *primordial* ،  
الذي يتصف هو ذاته بعدم التنوع وعدم الانقطاع ، والذي يتخاص  
بالتالي من أنواع الانفصال ، كذلك الذي يوجد بين الذات والموضوع ،  
أو بين الذهن والجسم . وواضح أن هذا الرأي يشبه إلى حد بعيد فكرة  
برادلي في التجربة التي لا تعرف توسطاً ، والتي تتألف من إحساس  
محض . وليس من المؤكد إن كان مرتس قد استمدّها من برادلي أو توصل  
إليها مستقلاً ، غير أن الواضح أن هذه الفكرة يمكن أن تتدرج ، بطريقة  
طبيعية عضوية ، في مذهب كذلك الذي يتطلبه مثله الأعلى في النظرة  
الجامعة إلى الأمور .

## محتويات الجزء الأول

صفحة

٥

مقدمة المترجم

١٢

مقدمة المؤلف

### الباب الأول

المدارس الفكرية المتقدمة

( القرن التاسع عشر )

١٨

الفصل الأول : المدرسة الاسكتلندية

٤٢

الفصل الثاني : المدرسة النفعية التجريبية

١٠٤

الفصل الثالث : المدرسة التطورية الطبيعية

تذييل للفصل الثالث عن الوضعية الإنجليزية — التواريخ

٢٠٣

والكتابات الرئيسية

٢٢١

الفصل الرابع : الجماعات المهتمة بالفلسفة الدينية

### الباب الثاني

المدارس الفكرية المتأخرة

٢٨٥

نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

الفصل الأول : الحركة المثالية الجديدة

٢٨٧

القسم الأول — أصلها واتجاهها العام

٣١٧

القسم الثاني — الرواد

( م — ٢٦ الفلسفة )

صفحة

- ٢٥٢ القسم الثالث - الهيجليون
- ٣٩٨ القسم الرابع - فلاسفة المثالية المطلقة
- ٤٤٩ القسم الخامس - مذهب الكثرة عند ما كتجارت
- ٤٧١ القسم السادس - أصحاب مذهب المثالية الشخصية
- ٤٩٧ القسم السابع - أصحاب مذهب الألوهية وفلاسفة الدين
- ٥٣٨ القسم الثامن - مفكرون قرييون من المثالية
-

استدراك : وقعت بعض الأخطاء في أثناء الطبع مثل :  
في صفحة ٣١٧ وضع رقم ٢ بدلا من القسم الثاني  
في صفحة ٤٩٧ ذكر القسم السادس وصحته القسم السابع





الناشر  
دار النهضة العربية  
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

الـثمن ٧٠ قرشا

